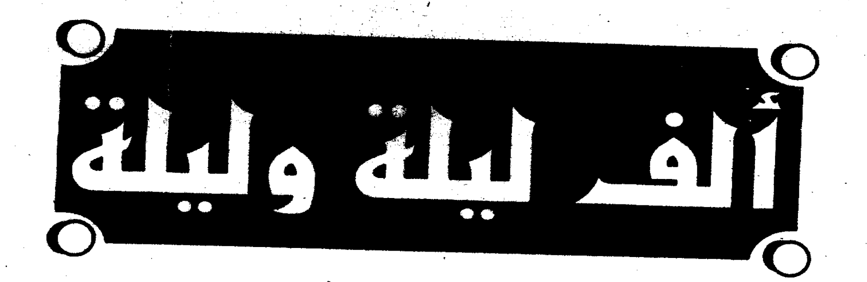


ألف ليلة وليلة

الجزء الرابع

جمعه
طه عبد الرءوف سعد

الناشر
دار الحرم للتراث
٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
ت - ٥٩١٦٠٢١

- اسم الكتــــاب: ألف ليلة وليلة
- الناشـــــر: دار الحرم للتراث
- جمع وتحقيق: طه عبد الرءوف سعد
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م
- كـمـبـيـوتـر: السندس لخدمات الكمبيوتر
ت: ٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢/٢٥٩٢٤٦٧

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٣/٣٦٨٦
الترقيم الدولى
977-6038-02-6

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال

قالت شهرزاد: ومما يحكى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك العجم اسمه محمد بن سبائك وكان يحكم على بلاد خراسان. وكان فى كل عام يغزو بلاد الكفار فى الهند والسند والصين والبلاد التى وراء النهر وغير ذلك من بلاد العجم وغيرها. وكان ملكًا عادلاً شجاعًا كريمًا جوادًا. وكان ذلك الملك يحب المنادمات والروايات والأشعار والأخبار والحكايات والأسمار وسير المتقدمين. وكان كل من يحفظ حكاية غريبة ويحكيها له ينعم عليه. وقيل إنه كان إذا أتاه رجل غريب بسمر غريب وتكلم بين يديه واستحسنه وأعجبه يخلع عليه خلعة سنية ويعطيه ألف دينار ويركبه فرسًا مسرجًا ملجمًا ويكسوه من فوق إلى أسفل ويعطيه عطايا عظيمة فيأخذها وينصرف.

فاتفق أنه أتاه رجل كبير بسمر غريب فتحدث بين يديه فاستحسنه وأعجبه كلامه فأمر له بجائزة سنية ومن جملتها ألف دينار خراسانية وفرس بعدة كاملة. ثم بعد ذلك شاعت هذه الأخبار عن هذا الملك فى جميع البلدان فسمع به رجل يقال له التاجر حسن وكان كريمًا جوادًا شاعرًا فاضلاً. وكان عند ذلك الملك وزير حسود محضر سوء لا يحب الناس جميعًا لا غنيا ولا فقيرًا. وكان كل ما ورد على ذلك الملك أحد وأعطاه شيئًا يحسده ويقول: «إنه بهذا الأمر يفنى المال ويخرب الديار وإن الملك دأبه هذا الأمر». ولم يكن ذلك الكلام إلا حسدًا وبغضًا من ذلك الوزير.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن الملك سمع بخبر التاجر حسن فأرسل إليه وأحضره. فلما حضر بين يديه قال له: «يا تاجر حسن إن الوزير خالفنى وعادانى من أجل المال الذى أعطيه للشعراء والندماء وأرباب الحكايات والأشعار. وإنى أريد منك أن تحكى لى حكاية مليحة وحديثًا غريبًا بحيث لم أكن سمعت مثله قط فإن أعجبنى حديثك أعطيتك بلادًا كثيرة بقلاعها وأجعلها زيادة على إقطاعك وأجعل مملكتى كلها بين يديك وأجعلك كبير وزرائى تجلس على يمينى وتحكم فى رعيتى، وإن لم تأتنى بما قلت لك أخذت جميع ما فى يديك وطردتك من بلادى». فقال التاجر حسن: «سمعًا وطاعة لمولانا الملك لكن يطلب منك المملوك أن تصبر عليه سنة ثم أحدثك بحديث ما سمعت مثله فى عمرك ولا سمع غيرك بمثله ولا بأحسن منه قط». فقال الملك: «قد أعطيتك مهلة سنة كاملة». ثم دعا بخلعة سنية فألبسه إياها وقال له: «الزم بيتك ولا تركب ولا تترح ولا تجىء مدة سنة كاملة حتى تحضر بما طلبته منك فإن جئت بذلك أبشر بما وعدتك به وإن لم تجىء به فلا أنت منا ولا نحن منك».

فقبّل التاجر حسن الأرض بين يديه وخرج. ثم اختار من مماليكه خمسة أنفس كلهم يكتبون ويقرأون وهم فضلاء عقلاء أدباء من خواص مماليكه وأعطى كل واحد خمسة آلاف دينار وقال لهم: «أنا ما ربيتكم إلا لمثل هذا اليوم فأعينونى على قضاء غرض الملك وأنقذونى

من يده». فقالوا له: «ما الذى تريد أن تفعل فأروحنا فداؤك»؟ قال لهم: « أريد أن يسافر كل واحد منكم إلى إقليم وأن تستقصوا على العلماء والأدباء والفضلاء وأصحاب الحكايات الغريبة والأخبار العجيبة وتبحثوا لى عن قصة سيف الملوك وتأتونى بها ومن وقع منكم عليها وأتانى بها فإنى أعطيه الخلع السنية والنعم الوفية ولم يكن عندى أعز منه».

ثم إن التاجر حسن قال لواحد منهم: «رُح أنت إلى بلاد الهند والسند وأعمالها وأقاليمها». وقال للآخر: «رُح أنت إلى بلاد العجم والصين وأقاليمها». وقال للآخر «رُح أنت إلى بلاد خراسان وأعمالها وأقاليمها». وقال للآخر: «رح أنت إلى بلاد المغرب وأقطارها وأقاليمها وأعمالها ، وجميع أطرافها». وقال للآخر وهو الخامس: «رح أنت إلى بلاد الشام ومصر وأعمالهما وأقاليمهما». ثم إن التاجر اختار لهم يومًا سعيدًا وقال لهم:: «سافروا فى هذ اليوم واجتهدوا فى تحصيل حاجتى ولا تتهاونوا ولو كان فيها بذل الأرواح».

فودعوه وساروا كل واحد منهم ذهب إلى الجهة التى أمره بها فمنهم أربعة أنفس غابوا أربعة أشهر وفتشوا ولم يجدوا شيئًا فرجعوا فضاق صدر التاجر حسن لما رجع إليه الأربعة مماليك وأخبروه أنهم فتشوا المدائن والبلاد والأقاليم على مطلوب سيدهم فلم يجدوا شيئًا منه. وأما المملوك الخامس فإنه سافر إلى أن دخل بلاد الشام ووصل إلى مدينة دمشق فوجدها مدينة طيبة أمينة ذات أشجار وأنهار وأثمار، وأطيار تسبح الله الواحد القهار، الذى خلق الليل والنهار. فأقام فيها أيامًا وهو يسأل عن حاجة سيده فلم يجبه أحد. ثم إنه أراد أن يرحل منها ويسافر إلى غيرها وإذا هو بشاب يجرى ويتعثر فى أذياله. فقال له المملوك : « ما بالك تجرى وأنت مكروب وإلى أين تقصد»؟ فقال له: «هنا شيخ فاضل كل يوم يجلس على كرسى فى مثل هذا الوقت ويحدث حكايات وأخبارًا وأسمارًا ملاحا لم يسمع أحد مثلها وأنا أجرى حتى أجد لى موضعًا قريبًا وأخاف أنى لا أحصّل لى موضعًا من كثرة الخلق». فقال له المملوك: «خذنى معك». فقال له الفتى: «أسرع فى مشيك».

فغلق بابه وأسرع فى السير معه حتى وصل إلى الموضع الذى يحدّث فيه الشيخ بين الناس. فرأى ذلك الشيخ صبيح الوجه وهو جالس على كرسى يحدّث الناس فجلس قريبًا منه وأصغى ليسمع حديثه. فلما جاء وقت غروب الشمس فرغ الشيخ من الحديث وسمع الناس ما تحدث به وانفضّوا من حوله. فعند ذلك تقدّم المملوك وسلم عليه. فردّ عليه وزاده فى التحية والإكرام. فقال له المملوك: «أنت يا سيدى الشيخ رجل مليح محتشم وحديثك مليح وأريد أن أسألك على شىء». فقال له: «اسأل عما تريد». فقال له المملوك: «هل عندك قصة سمر سيف الملوك وبديعة الجمال»؟ فقال له الشيخ: «وممن سمعت هذا الكلام ومن الذى أخبرك بذلك»؟ فقال له المملوك: «أنا ما سمعت ذلك من أحد ولكن أنا من بلاد بعيدة وجئت قاصدًا لهذه القصة فمهما طلبت من ثمنها أعطيك إن كانت عندك وتنعم وتصدق علىّ بها وتجعلها من مكارم أخلاقك صدقة عن نفسك ولو أن روحى فى يدى وبذلتها لك فيها لطاب خاطرى بذلك».

فقال له الشيخ : « طب نفسًا وقرّ عينًا وهى تحضر لك ولكن هذا سمر لا يتحدث به

أحد على قارعة الطريق ولا أعطى هذه القصة لكل واحد». فقال له المملوك : «بالله يا سيدى لا تبخل علىّ بها واطلب منى مهما أردت». فقال له الشيخ: «إن كنت تريد هذه القصة فاعطنى مائة دينار وأنا أعطيك إياها ولكن بخمسة شروط». فلما عرف أنها عند الشيخ وأنه سمح له بها فرح فرحًا شديدًا وقال له: «أعطيك مائة دينار ثمنها وعشرة جعالة وآخذها بالشروط التى ذكرتها». فقال له الشيخ: «رُح هات الذهب وخذ حاجتك». فقام المملوك وقبل يدى الشيخ وراح إلى منزله فرحًا مسرورًا وأخذ فى يده مائة دينار وعشرة ووضعها فى كيس كان معه.

فلما أصبح الصباح قام ولبس ثيابه وأخذ الدنانير وأتى بها إلى الشيخ فرآه جالسًا على باب داره فسلم عليه فردّ عليه السلام فأعطاه المائة الدينار والعشرة. فأخذها منه الشيخ وقام ودخل داره وأدخل المملوك وأجلسه فى مكان وقدّم له دواةً وقلمًا وقرطاسًا وقدم له كتابًا، وقال له: «اكتب الذى أنت طالبه من هذا الكتاب من قصة سمر سيف الملوك». فجلس المملوك يكتب هذه القصة إلى أن فرغ من كتابتها ثم قرأها على الشيخ وصححها. وبعد ذلك قال له الشيخ: «اعلم يا ولدى أن أول شرط أنك لا تقول هذه القصة على قارعة الطريق ولا عند النساء والجوارى ولا عند العبيد والسفهاء ولا عند الصبيان وإنما تقرأها عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين وغيرهم». فقبل المملوك الشروط وقبّل يدى الشيخ وودعه وخرج من عنده.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : وسافر فى يومه فرحانًا مسرورًا ولم يزل مجدا فى السير من كثرة الفرح الذى حصل له بسبب تحصيله لقصة سمر سيف المملوك حتى وصل إلى بلاده وأرسل تابعه يبشر التاجر ويقول له: « إن مملوكك قد وصل سالمًا وبلغ مراده ومقصوده». وحين وصل المملوك إلى مدينة سيده وأرسل إليه البشير لم يبقَ من الميعاد الذى بين الملك والتاجر حسن غير عشرة أيام. ثم دخل على سيده التاجر وأخبره بما حصل له ففرح فرحًا عظيمًا واستراح المملوك فى مكان خلوته وأعطى سيده الكتاب الذى فيه قصة سيف الملوك وبديعة الجمال. فلما رأى سيده ذلك خلع على المملوك جميع ما كان عليه من ملابسه وأعطاه عشرة من الخيل الجياد وعشرة من الجمال وعشرة من البغال وثلاثة عبيد ومملوكين. ثم إن التاجر أخذ القصة وكتبها بخطه مفسرةً وطلع إلى الملك وقال له: «أيها الملك السعيد إنى جئت بسمر وحكايات مليحة نادرة لم يسمع مثلها أحد قط» فلما سمع الملك كلام التاجر حسن أمر فى وقته وساعته بأن يحضر كل أمير عاقل وكل عالم فاضل وكل أديب وشاعر لبيب. وجلس التاجر حسن وقرأ هذه السيرة عند الملك. فلما سمعها الملك وكل من كان حاضرًا تعجبوا جميعًا واستحسنوها وكذلك استحسنها الذين كانوا حاضرين ونثروا عليه الذهب والفضة والجواهر. ثم أمر الملك للتاجر حسن بخلعة سنية من أفخر ملبوسه وأعطاه مدينة كبيرة بقلاعها وضياعها وجعله من أكابر وزرائه وأجلسه على يمينه. ثم أمر الكتّاب أن يكتبوا هذه القصة بالذهب ويجعلوها فى

خزائنه الخاصة. وصار الملك كل ما ضاق صدره يُحضر التاجر حسنًا فيقرأها. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ومضمون هذه القصة أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان فى مصر ملك يسمّى عاصم بن صفوان. وكان ملكًا سخيا جوادًا صاحب هيبة ووقار. وكان له بلاد كثيرة وقلاع وحصون وجيوش وعساكر، وكان له وزير يسمّى فارس بن صالح. وكانوا جميعًا يعبدون الشمس والنار، دون الملك الجليل القهار. ثم إن هذا الملك صار شيخًا كبيرًا قد أضعفه الكبر والسقم والهرم لأنه عاش مائة وثمانين سنة ولم يكن له ولد ذكر ولا أنثى وكان بسبب ذلك فى هم وغمّ ليلاً ونهارًا. فاتفق أنه كان جالسًا يومًا من الأيام على سرير ملكه والأمراء والمقدمون وأرباب الدولة فى خدمته على جرى عادتهم وعلى قدر منازلهم وكل من دخل عليه من الأمراء ومعه ولد أو ولدان يحسده الملك ويقول فى نفسه: « كل واحد مسرور فرحان بأولاده وأنا ما لى ولد وفى غد أموت وأترك ملكى وتختى وضياعى وأموالى وتأخذها الغرباء وما يذكرنى أحد قط ولا يبقى لى ذكر فى الدنيا». ثم إن الملك عاصم استغرق فى بحر الفكر ومن كثرة توارد الأحزان والأفكار على قلبه بكى ونزل من فوق تخته وجلس على الأرض يبكى ويتضرّع . فلما رآه الوزير والجماعة الحاضرون من أكابر الدولة فعل بنفسه ذلك صاحوا على الناس وقالوا لهم: «اذهبوا إلى منازلكم واستريحوا حتى يفيق الملك مما هو فيه» فانصرفوا ولم يبق غير الملك والوزير. فلما أفاق الملك قبّل الوزير الأرض بين يديه وقال له: «يا ملك الزمان ما سبب هذا البكاء فأخبرنى بمن عاداك من الملوك أو من الأمراء وأرباب الدولة وعرفنى بمن يخالفك أيها الملك حتى نكون كلنا عليه ونأخذ روحه من بين جنبيه؟» فلم يتكلم الملكُ ولم يرفع رأسه.

ثم إن الوزير قبّل الأرض بين يديه ثانيًا وقال له: «يا ملك الزمان أنا مثل عبدك وقد ربيتنى، فإذا لم أعرف سبب غمك وهمك وجزعك وما أنت فيه فمن يعرف غيرى ويقوم مقامى بين يديك؟ فأخبرنى بسبب هذا البكاء والحزن». فلم يتكلم ولم يفتح فاه ولم يرفع رأسه ومازال يبكى ويصوّت بصوت عال وينوح بنواح زائد ويتأوّه والوزير صابر به. ثم بعد ذلك قال له الوزير: «إن لم تقل لى ما سبب ذلك وإلا قتلت نفسى بين يديك من ساعتى وأنت تنظر ولا أراك مهمومًا». ثم إن الملك رفع رأسه ومسح دموعه وقال: «يا أيها الوزير الناصح خلّنى بهمّى وغمى فالذى فى قلبى من الأحزان يكفينى». فقال له الوزير : « قل أيها الملك ما سبب هذا البكاء لعل الله يجعل الفرج على يدى».

فقال له الملك : « يا وزير إن بكائى ما هو على مال ولا على خيل ولا على شىء ولكن أنا بقيت رجلا كبيرًا وصار عمرى نحو مائة وثمانين سنة وما رزقت ولدًا ذكرًا ولا أنثى فإذا مت يدفنونى ثم ينمحى رسمى وينقطع اسمى ويأخذ الغرباء تختى وملكى ولا يذكرنى أحد أبدًا». فقال الوزير: «يا ملك الزمان أنا أكبر منك بمائة سنة وما رزقت بولد قط ولم أزل ليلاً ونهارًا فى هم وغم، وكيف نفعل أنا وأنت؟ ولكن سمعت بخبر سليمان بن داود عليهما السلام وإن له

ربا عظيمًا قادرًا على كل شيء، فينبغى أن أتوجه إليه بهدية وأقصده فى أن يسأل ربه لعله يرزق كل واحد منا بولد». ثم إن الوزير تجهّز للسفر وأخذ هدية فاخرة وتوجه بها إلى سليمان بن داود عليهما السلام. هذا ما كان من أمر الوزير. أما ما كان من أمر سليمان بن داود عليهما السلام فإن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه وقال: « يا سليمان إن ملك مصر أرسل إليك وزيره الكبير بالهدايا والتحف وهى كذا كذا فأرسل إليه وزيرك آصف بن برخيا لاستقباله بالإكرام والزاد فى مواضع الإقامات، فإذا حضر بين يديك فقل له: إن الملك أرسلك يطلب كذا وكذا وإن حاجتك كذا وكذا. ثم اعرض عليه الإيمان» فحينئذ أمر سليمان وزيره آصف أن يأخذ معه جماعة من حاشيته للقائهم بالإكرام والزاد الفاخر فى مواضع الإقامات. فخرج آصف بعد أن جهز جميع اللوازم إلى لقائهم وسار حتى وصل إلى فارس وزير ملك مصر فاستقبله وسلم عليه وأكرمه هو ومن معه إكرامًا زائدًا.

ثم إنه صار يقدّم إليهم الزاد والعلوفات فى مواضع الإقامات، وقال لهم: «أهلاً وسهلاً ومرحبًا بالضيوف القادمين فابشروا بقضاء حاجتكم وطيبوا نفسًا وقرّوا عينًا وانشرحوا صدورًا» فقال الوزير فى نفسه: «من أخبرهم بذلك؟» ثم إنه قال لآصف بن برخيا: «ومن أخبركم بنا وبأغراضنا يا سيدى؟» فقال له آصف: « إن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذى أخبرنا بهذا» فقال الوزير فارس: «مَن أخبر سيدنا سليمان؟» قال له: « أخبره ربّ السماوات والأرض وإله الخلق أجمعين». فقال له الوزير فارس: «ما هذا إلا إله عظيم». فقال له آصف بن برخيا: «وهل أنتم لا تعبدونه؟» فقال فارس وزير ملك مصر: «نحن نعبد الشمس ونسجد لها». فقال له آصف: «يا وزير فارس إن الشمس كوكب من جملة الكواكب المخلوقة لله سبحانه وتعالى وحاشا أن يكون ربا لأن الشمس تظهر أحيانًا وتغيب أحيانًا وربنا حاضر لا يغيب وهو على كل شيء قدير».

ثم إنهم سافروا قليلاً حتى وصلوا إلى أرض سبأ وقرب تخت الملك سليمان بن داود عليهما السلام. فأمر سليمان بن داود عليهما السلام جنوده من الإنس والجن وغيرهما أن يصطفوا فى طريقهم صفوفًا. فوقفت وحوش البحر والأفيلة والنمور والفهود جميعًا واصطفوا فى الطريق صفين وكل جنس انحازت أنواعه وحدها. وكذلك الجن كل منهم ظهر للعيون من غير خفاء على صورة هائلة مختلفة الأحوال. فوقفوا جميعًا صفين والطيور نشرت أجنحتها على الخلائق لتظلّهم. وصارت الطيور تناغى بعضها بسائر اللغات والألحان.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد : فلما وصل أهل مصر إليهم هابوهم ولم يجسروا على المشى. فقال لهم آصف: «ادخلوا بينهم وامشوا ولا تخافوا منهم فإنهم رعايا سليمان بن داود وما يضركم منهم أحد». ثم إن آصف دخل بينهم فدخل وراءه الخلق أجمعون ومن جملتهم وزير ملك مصر وهم يخافون. ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى المدينة فأنزلوهم فى دار الضيافة وأكرموهم غاية الإكرام وأحضروا لهم الضيافات الفاخرة مدة ثلاثة أيام. ثم أحضروهم بين يدى سليمان

نبى الله عليه السلام، فلما دخلوا عليه أرادوا أن يقبلوا الأرض بين يديه فمنعهم من ذلك سليمان بن داود وقال: «لاينبغى أن يسجد انسان على الأرض إلا لله عزّ وجلّ خالق الأرض والسماوات، ومن أراد منكم أن يقف فليقف ولكن لا يقف أحد منكم فى خدمتى». فامتثلوا أمره، وجلس الوزير فارس وبعض خدامه ووقف فى خدمته بعض الأصاغر. فلما استقرّ بهم الجلوس مدوا لهم الأسمطة فأكل العالم والخلق أجمعون من الطعام حتى اكتفوا. ثم إن سليمان أمر وزير مصر أن يذكر حاجته لتقضى وقال له: «تكلم ولا تخف شيئًا مما جئت بسببه فإنك ما جئت إلا لقضاء حاجة وأنا أخبرك بها وهى كذا وكذا وإن ملك مصر الذى أرسلك اسمه عاصم وقد صار شيخًا كبيرًا هرمًا ضعيفًا ولم يرزقه الله تعالى بولد ذكر ولا أنثى فصار فى الغم والهم والفكر ليلاً ونهارًا حتى اتفق له أنه جلس على كرسى مملكته يومًا من الأيام ودخل عليه الأمراء والوزراء وأكابر دولته فرأى بعضهم له ولد وبعضهم ولدان وبعضهم له ثلاثة أولاد وهم يدخلون ومعهم أولاد ويقفون فى الخدمة فتذكر فى نفسه وقال من فرط حزنه: يا ترى من يأخذ مملكتى بعد موتى وهل يأخذها إلا رجل غريب وأصير أنا كأنى لم أكن فغرق فى بحر الفكر بسبب هذا ولم يزل متفكرًا حزينًا حتى فاضت عيناه بالدموع فغطى وجهه بالمنديل وبكى بكاءً شديدًا. ثم قام من فوق سريره وجلس على الأرض يبكى وينتحب ولم يعلم ما فى قلبه إلا الله».

ثم قال سليمان بعد ذلك للوزير فارس: «هل هذا الذى قلته لك يا وزير صحيح؟» فقال الوزير فارس: « يا نبى الله إن الذى قلته حق وصدق، ولكن يا نبى الله لما كنت أتحدث أنا والملك فى هذه القضية لم يكن عندنا أحد قط ولم يشعر بخبرنا أحد من الناس فمن أخبرك بهذه الأمور كلها؟» قال له: «أخبرنى ربى الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور». فحينئذ قال الوزير فارس: « يا نبى الله ما هذا إلا ربّ كريم عظيم على كل شىء قدير». ثم أسلم الوزير فارس هو ومن معه.

ثم قال نبى الله سليمان للوزير : «إن معك كذا وكذا من التحف والهدايا». قال الوزير: «نعم» فقال له سليمان: «قد قبلت منك الجميع ولكنى وهبتها لك فاسترح أنت ومن معك فى المكان الذى نزلتم فيه حتى يزول عنكم تعب السفر وفى غد إن شاء الله تعالى تقضى حاجتك على أتم ما يكون بمشيئة الله تعالى رب الأرض والسماء وخالق الخلق أجمعين. «ثم إن الوزير فارسًا ذهب إلى موضعه وتوجه إلى السيد سليمان ثاني يوم. فقال لهُ نبى الله سليمان: «إذا وصلت إلى الملك عاصم بن صفوان واجتمعت أنت وإياه فاطلعا فوق الشجرة الفلانية واقعدا ساكتين، فإذا كان بين الصلاتين وقد برد حرّ القائلة فانزلا إلى أسفل الشجرة وانظرا هناك تجدا ثعبانين يخرجان رأس أحدهما كرأس القرد ورأس الآخر كرأس العفريت، فإذا رأيتماهما فارمياهما بالنشاب واقتلاهما ثم ارميا من جهة رؤوسهما قدر شبر واحد ومن جهة أذيالهما كلك فتبقى لحومهما فاطبخوها وأتقنا طبخهما وأطعماها زوجتيكما فإنهما تحملان بإذن الله تعالى بأولاد ذكور(كذا).

ثم إن سليمان عليه السلام أحضر خاتمًا وسيفًا وبقجة فيها قباء ان مكلّلان بالجواهر

وقال: « يا وزير فارس إذا كبر ولداكما وبلغا مبلغ الرجال فأعطيا كل واحد منهما قباء من هذين القبائين». ثم قال للوزير: «بسم الله قضى الله تعالى حاجتك وما بقى لك إلا أن تسافر على بركة الله تعالى فإن الملك ليلاً ونهارًا ينتظر قدومك وعينه دائمًا تلاحظ الطريق». ثم إن الوزير فارسًا تقدم إلى نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام وودعه وخرج من عنده بعد أن قبّل يديه وسافر بقية يومه وهو فرحان بقضاء حاجته ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى قرب مصر فارسل بعض خدامه ليعلم الملك عاصمًا بذلك.

فلما سمع الملك عاصم بقدومه وقضاء حاجته فرح فرحًا شديدًا هو وخواصه وأرباب مملكته وجميع جنوده وخصوصًا بسلامة الوزير فارس. فلما تلاقى الملك هو والوزير ترجّل الوزير وقبّل الأرض بين يديه وبشر الملك بقضاء حاجته على أتم الوجوه وعرض عليه الإيمان والإسلام. فأسلم الملك عاصم وقال للوزير فارس: «رح إلى بيتك واسترح هذه الليلة واسترح أيضًا جمعة من الزمان وادخل الحمام وبعد ذلك تعال لعندى حتى أخبرك بشىء نتدبر فيه». فقبّل الوزير الأرض وانصرف هو وحاشيته وغلمانه وخدمه إلى داره واستراح ثمانية أيام. ثم بعد ذلك توجه إلى الملك وحدثه بجميع ما كان بينه وبين سليمان بن داود عليهما السلام. ثم إنه قال للملك : « قم وحدك وتعال معى». فقام هو والوزير وأخذا قوسين ونشابين وطلعا فوق الشجرة وقعدا ساكتين إلى أن مضى وقت القائلة.

ولم يزالا على الشجرة إلى قرب وقت العصر ثم نزلا فرأيا ثعبانين خرجا من أسفل تلك الشجرة. فنظرهما الملك وأحبهما لأنهما أعجباه حين رآهما بأطواق الذهب. وقال: ياوزير إن هذين الثعبانين مطوقان بالذهب والله إن هذا شىء عجيب خلنا نمسكهما ونجعلهما فى قفص ونتفرّج عليهما». فقال الوزير: هذان خلقهما الله لمنفعتنا فارم أنت واحدًا بنشابة وأرمى أنا واحدًا بنشابة» فرمى الاثنان بالنشاب فقتلاهما وقطعا من جهة رؤوسهما شبرًا ومن جهة أذنابهما شبرا ورمياه. ثم ذهبا بالباقى إلى بيت الملك وطلبا الطباخ وأعطياه ذلك اللحم وقالا له: «اطبخ هذا اللحم طبيخًا مليحًا بالتقلية والأبازير واغرفه فى زبديتين وهاتهما وتعال هنا فى الوقت الفلانى والساعة الفلانية».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فأخذ الطباخ اللحم وذهب به إلى المطبخ وطبخه وأتقن طبيخه بتقلية عظيمة ثم غرفه فى زبديتين وأحضرهما بين يدى الملك والوزير فأخذ الملك زبدية والوزير زبدية وأطعماهما لزوجتيهما وباتا تلك الليلة. فبإرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته ومشيئته حملتا فى تلك الليلة فمكث الملك بعد ذلك ثلاثة أشهر وهو متشوش الخاطر يقول فى نفسه: « يا ترى هل هذا الأمر صحيح أم غير صحيح؟ ثم إن زوجته كانت جالسة يومًا من الأيام فتحرك الولد فى بطنها فعلمت أنها حامل. فتوجعت وتغير لونها وطلبت واحدًا من الخدام الذين عندها وهو أكبرهم وقالت له: «اذهب إلى الملك فى أى موضع يكون وقل له: يا ملك الزمان أبشرك أن سيدتنا ظهر حملها والولد قد تحرك فى بطنها».

فخرج الخادم سريعًا وهو فرحان فرأى الملك وحده ويده على خده وهو متفكر فى ذلك. فأقبل عليه الخادم وقبّل الأرض بين يديه وأخبره بحمل زوجته. فلما سمع كلام الخادم نهض قائمًا على قدميه ومن شدة فرحه قبّل يد الخادم ورأسه وخلع ما كان عليه وأعطاه إياه وقال لمن كان حاضرًا فى مجلسه: «من كان يحبنى فلينعم عليه». فأعطوه من الأموال والجواهر واليواقيت والخيل والبغال والبساتين شيئًا لا يُعدّ ولا يحصى. ثم إن الوزير دخل فى ذلك الوقت على الملك وقال: «يا ملك الزمان أنا فى هذه الساعة كنت قاعدًا فى البيت وحدى وأنا مشغول الخاطر متفكر فى شأن الحمل وأقول فى نفسى: يا ترى هل هو حق أن خاتون تحبل أم لا وإذا بالخادم دخل علىّ وبشرنى بأن زوجتى خاتون حامل وأن الولد قد تحرك فى بطنها وتغير لونها، فمن فرحتى خلعت جميع ما كان علىّ من القماش وأعطيت الخادم إياه وأعطيته ألف دينار وجعلته كبير الخدام».

ثم إن الملك عاصما قال: « يا وزير إن الله تبارك وتعالى أنعم علينا بفضله وإحسانه وجوده وامتنانه بالدين القويم وأكرمنا بكرمه وفضله وقد أخرجنا من الظلمات إلى النور، وأريد أن أفرّج على من فى الظلمات وأفرّحهم». فقال له الوزير: «افعل ما تريد» فقال: «يا وزير انزل فى هذا الوقت واخرج كل من كان فى الحبس من أصحاب الجرائم ومن عليهم ديون، وكل من وقع منه ذنب بعد ذلك نجازيه بما يستحق ونرفع عن الناس الخراج ثلاث سنوات، وانصب فى دائرة هذه المدينة مطبخًا حول الحيطان وأمر الطباخين أن يعلقوا عليه جميع أنواع القدور وأن يطبخوا سائر أنواع الطعام ويديموا الطبخ بالليل والنهار وكل من كان فى هذه المدينة وما حولها من البلاد البعيدة والقريبة يأكلون ويشربون وامرهم أن يفرحوا ويزينوا المدينة سبعة أيام ولا يقفلوا حوانيتهم ليلاً ولا نهارًا».

فخرج الوزير من وقته وساعته وفعل ما أمره به الملك عاصم، فزينوا المدينة والقلعة والأبراج أحسن الزينة ولبسوا أحسن ملبوس وصار الناس فى أكل وشرب ولعب وانشراح إلى أن حل فى ليلة من الليالى الطلق لزوجة الملك بعد انقضاء أيامها فأمر الملك عاصم بأن يحضر كل من فى المدينة من العلماء والفلكية والأدباء والرؤساء والمنجمين والفضلاء وأصحاب الأقلام فحضروا وقعدوا يتنظرون فى رمى الخرزة فى الطاقة وهذه إشارة المنجمين والمحتشمة. فجلسوا جميعهم منتظرين.

ثم إن الملكة وضعت غلامًا مثل فلقة القمر ليلة تمامه فأخذوا فى حسابه ونجمه ومولده وأرّخوا التواريخ وقام الكل بالسؤال وقبّلوا الأرض وبشرّوا الملك بأن هذا المولود مبارك وهو سعيد الحركة لكن فى أول عمره يجرى عليه شىء نخاف نذكره للملك. قال لهم: « قولوا وليس عليكم خوف أبدًا». فقالوا له: «يا ملك هذا المولود يخرج من هذه الأرض ويسافر فى الغربة ويغرق فى البحر ويقع فى الشدة والأسر والضيق ويجىء قدامه شدائد كثيرة، ثم يتخلص منها بعد ذلك ويبلغ مقصوده ويعيش بقية عمره فى أطيب عيش ويحكم على العباد والبلاد ويتصرف فى الأرض رغم الأعادى والحسّاد».

فلما سمع الملك كلام المنجمين قال لهم : «الأمر معمّى وكل شىء كتبه الله تعالى على

العبد من الخير والشرّ يستوفيه ولابدّ أن يجرى عليه من اليوم إلى ذلك ألف فرج». ولم يلتفت إلى قولهم وخلع عليهم خلعًا وعلى كل من كان حاضرًا من الناس وانصرفوا كلهم وإذا بالوزير فارس دخل على الملك وهو فرحان وقبّل الأرض بين يديه وقال له: «يا ملك البشارة فإن زوجتى ولدت مولودًا فى هذا الوقت مثل فلقة القمر». فقال له الملك: « يا وزير رُح هاته هنا ليتربيا سواء فى قصرى واجعل زوجتك عند زوجتى تربيّان أولادهما سواء مع بعضهما». فأحضر الوزير زوجته والمولود وسلموهما للدايات والمراضع. فلما مضى عليهما سبعة أيام أحضروهما بين يدى الملك عاصم وقالوا له: «أى شىء تسميهما؟» فقال لهم الملك: «سموهما أنتم». فقالوا: «ما يسمى الولد إلا أبوه».

فقال الملك : « سمّوا ولدى سيف الملوك باسم جدى وسموا ابن الوزير ساعدًا». ثم خلع الملك على الدايات والمراضع وقال لهن: «أشفقن عليهما وربيانهما أحسن تربية».

ثم إن المراضع اجتهدنَ فى تربيتهما إلى أن صار عمر كل واحد منهما خمس سنين فسلّمهما الملك للفقيه فى المكتب فعلمهما القرآن والكتابة إلى أن صار عمر كل واحد عشر سنين. فسلّمهما الملك للمعلمين حتى يعلموهما ركوب الخيل ورمى النشاب ولعب الرمح ولعب الأكر وعلم الفروسية إلى أن صار عمر كل واحد منهما خمس عشرة سنة. فصارا ماهرين فى كل الفنون فلم يبق أحد يعادلهما فى الفروسية وصار كل واحد منهما يقاتل فى ألف ويقوم بهم وحده. فلما بلغا رشدهما صار الملك عاصم كلما ينظرهما يفرح بهما.

فلما صار عمرهما عشرين سنة طلب الملك وزيره فارسًا فى خلوة وقال له: «يا وزير قد خطر ببالى أمر أريد أن أفعله ولكن أستشيرك فيه». فقال الوزير: «مهما خطر ببالك فافعله فإن رأيك مبارك». فقال الملك عاصم: « يا وزير أنا صرت رجلاً كبيرًا شيخًا هرمًا لأنى طعنت فى السن وأريد أن أقعد فى زاوية لأعبد الله تعالى وأعطى ملكى وسلطنتى لولدى سيف الملوك فإنه صار شابا مليحًا كامل الفروسية والعقل والأدب والحشمة والرئاسة فما تقول أيها الوزير فى هذا الرأى؟» فقال الوزير: «نعمَ الرأى الذى رأيته وهو رأى مبارك سعيد، فإذا فعلت أنت هذا فأنا الآخر أفعل مثلك ويكون ولدى ساعد وزيرًا له لأنه شاب مليح ذو معرفة ورأى ويصير الاثنان مع بعضهما ونحن ندبر شأنهما ولا نتهاون فى أمرهما بل ندلهما على الطريق المستقيم». ثم قال الملك عاصم لوزيره: «اكتب الكتب وأرسلها مع السعاة إلى جميع الأقاليم والبلاد والحصون والقلاع التى تحت أيدينا ومُر أكابرها أن يكونوا فى الشهر الفلانى حاضرين فى ميدان الفيل».

فخرج الوزير فارس من وقته وساعته وكتب إلى جميع العمال وأصحاب القلاع ومن كان تحت حكم الملك عاصم أن يحضروا جميعهم فى الشهر الفلانى وأمر أن يحضر كل من فى المدينة من قاص ودان. ثم إن الملك عاصمًا بعد مضى غالب تلك المدة أمر الفراشين أن يضربوا القباب فى وسط الميدان وأن يزينوها بأفخر الزينة وأن ينصبوا التخت الكبير الذى لا يصعد عليه الملك إلا فى الأعياد. ففعلوا فى الحال جميع ما أمرهم به ونصبوا التخت وخرجت النواب والحجاب والأمراء، وخرج الملك وأمر أن ينادى فى الناس: «بسم الله ابرزوا فى

الميدان». فبرز الأمراء والوزراء وأصحاب الأقاليم والضياع إلى ذلك الميدان ودخلوا فى خدمة الملك على جرى عادتهم واستقروا فى مراتبهم فمنهم من قعد ومنهم من وقف إلى أن اجتمعت الناس جميعهم. وأمر الملك أن يمدّوا السماط فمدوه وأكلوا وشربوا ودعوا للملك. ثم أمر الملك الحجاب أن ينادوا بالناس بعدم الذهاب فنادوا وقالوا فى المناداة: « لا يذهب منكم أحد حتى يسمع كلام الملك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد : ثم رفعوا الستور فقال الملك : «من أحبنى فليمكث حتى يسمع كلامى». فقعد الناس جميعهم مطمئنى النفس بعد أن كانوا خائفين. ثم قام الملك على قدميه وحلّفهم أن لايقوم أحد من مقامه وقال لهم: «أيها الأمراء والوزراء وأرباب الدولة كبيركم وصغيركم ومن حضر من جميع الناس هل تعلمون أن هذه المملكة لى وراثة عن آبائى وأجدادى؟» قالوا له: «نعم أيها الملك كلنا نعلم ذلك». فقال لهم: «أنا وأنتم كنا كلنا نعبد الشمس والقمر ورزقنا الله تعالى الإيمان وأنقذنا من الظلمات إلى النور وهدانا الله سبحانه وتعالى إلى دين الإسلام، واعلموا أنى الآن صرت رجلاً كبيرًا شيخًا هرمًا عاجزًا وأريد أن أجلس فى زاوية أعبد الله تعالى فيها وأستغفره من الذنوب الماضية، وهذا ولدى سيف الملوك حاكم. وتعرفون أنه شاب مليح فصيح خبير بالأمور عاقل فاضل عادل، فأريد فى هذه الساعة أن أعطيه مملكتى وأجعله ملكًا عيكم عوضًا عنى وأجلسه سلطانًا فى مكانى وأتخلى لعبادة الله تعالى فى زاوية وابنى الملك يتولى ويحكم، فأى شىء قلتم كلكم بأجمعكم؟». فقاموا كلهم وقبّلوا الأرض بين يديه وأجابوا بالسمع والطاعة وقالوا: «يا ملكنا وحامينا لو أقمت علينا عبدًا من عبيدك لأطعناه وسمعنا قولك وامتثلنا أمرك فكيف بولدك سيف الملوك فقد قبلناه ورضيناه على العين والرأس».

فقام الملك عاصم بن صفوان ونزل من فوق سريره وأجلس ولده على التخت الكبير ورفع التاج من فوق رأسه ووضعه فوق رأس ولده وشد وسطه بمنطقة الملك وجلس عاصم على كرسى مملكته بجنب ولده فقام الأمراء والوزراء وأكابر الدولة وجميع الناس وقبلوا الأرض بين يديه وصاروا وقوفًا يقولون لبعضهم: «هو حقيق بالملك وهو أولى به من الغير». ونادوا بالأمان ودعوا له بالنصر. ونثر سيف الملوك الذهب والفضة على رؤوس الناس أجمعين وخلع ووهب وأعطى. ثم بعد لحظة قام الوزير فارس وقبّل الأرض وقال: «يا أمراء يا أرباب الدولة هل تعرفون أننى وزير وزارتى قديمة من قبل أن يتولى الملك عاصم بن صفوان وهو الآن قد خلع نفسه من الملك وولى ولده عوضا عنه».

فقالوا : «نعم وزارتك أبًا عن جد». فقال: «والآن أخلع نفسى وأولى ولدى ساعدًا هذا فإنه عاقل فطن خبير، فأى شىء تقولون بأجمعكم؟» فقالوا: «لا يصلح وزيرًا للملك سيف الملوك إلا ولدك ساعد فإنهما يصلحان لبعضهما».

فعند ذلك قام الوزير فارس وقلع عمامة الوزارة ووضعها فوق رأس ولده ساعد ووضع دواة الوزارة قدامه. وقالت الحجاب والأمراء: «إنه يستحق الوزارة».

فعند ذلك قام الملك عاصم والوزير فارس وفتحا الخزائن وخلعا الخلع السنية على الملوك والأمراءوالوزراءوأكابر الدولة والناس أجمعين وأعطيا النفقة والأنعام وكتبا لهم المناشير الجديدة والمراسيم بعلامة سيف الملوك والوزير ساعد ابن الوزير فارس. وأقام الناس فى المدينة جمعةً وبعدها كل منهم سافر إلى بلاده ومكانه. ثم إن الملك عاصمًا أخذ ولده سيف الملوك وساعدًا ولد الوزير ثم دخلوا المدينة وطلعوا القصر وأحضروا الخازندار وأمروه بإحضار الخاتم والسيف والبقجة والمهر.

وقال الملك عاصم: « يا أولادى تعالوا كل واحد منكم يختار من هذه الهدية شيئًا ويأخذه». فأول من مدّ يده سيف الملوك فأخذ البقجة والخاتم ومدّ ساعد يده فأخذ السيف والمهر وقبّلا يدى الملك وذهبا إلى منزلهما». فلما أخذ سيف الملوك البقجة لم يفتحها ولم ينظر ما فيها بل رماها فوق التخت الذى ينام عليه بالليل هو وساعد وزيره، وكانا من عادتهما أن يناما مع بعضهما. ثم إنهم فرشوا لهما فراش النوم ورقد الاثنان على فراشهما والشموع تضيء عليهما واستمر إلى نصف الليل. ثم انتبه سيف الملوك من نومه فرأى البقجة عند رأسه فقال فى نفسه: « يا ترى أى شيء فى هذه البقجة التى أهداها لنا الملك من التحف؟» فأخذها وأخذ الشمعة ونزل من فوق التخت وترك ساعدًا نائمًا ودخل الخزانة وفتح البقجة فرأى فيها قباءً من شغل الجان ففتح القباء وفردّه فوجد على البطانة التى من داخل فى جهة ظهر القباء صورة بنت منقوشة بالذهب ولكن جمالها شيء عجيب.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فلما رأى هذه الصورة طار عقله من رأسه وصار مجنونًا ووقع فى الأرض مغشيا عليه وصار يبكى ويلطم على وجهه.

ثم أنشد :

الحب أول ما يكون مجاجة	تأتى به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى	جاءت أمورٌ لا تُطاق كبارُ

◆ ◆ ◆

لوكنت أدرى بالمحبة هكذا	هى تسلبُ الأرواح كنت حذورُ
لكننى أرميت نفسى عامدًا	جهلاً بأمر الحب كيف يصيرُ

ولم يزل سيف الملوك ينتحب ويبكى ويلطم على وجهه وصدره حتى انتبه الوزير ساعد وتأمل الفراش فلم يرَ سيف الملوك ورأى شمعة واحدة. فقال فى نفسه: «أين راح سيف الملوك؟».

ثم أخذ الشمعة وقام يدور فى القصر جميعه حتى وصل إلى الخزانة التى فيها سيف الملوك فرآه وهو يبكى بكاءً شديدًا وينتحب.

فقال له: «يا أخى لأى سبب هذا البكاء أى شىء جرى لك فحدثنى وأخبرنى بسبب ذلك؟» وسيف الملوك لم يكلمه ولم يرفع رأسه بل يبكى وينتحب ويدق يده على صدره. فلما رآه ساعد على هذه الحالة قال: «أنا وزيرك وأخوك وتربيت أنا وإياك وإن لم تبين لى أمورك وتطلعنى على سرك فعلى من تخرج سرك وتطلعه عليه؟» ولم يزل ساعد يتضرع ويقبّل الأرض ساعة زمانية وسيف الملوك لم يلتف إليه ولم يكلمه كلمة واحدة بل يبكى.

فلما راع ساعدا حاله وأعياه أمره خرج من عنده وأخذ سيفًا ودخل الخزانة التى فيها سيف الملوك وحط ذبابه على صدر نفسه وقال لسيف الملوك: «انتبه يا أخى إن لم تقل لى أى شىء جرى لك قتلت روحى ولا أراك فى هذه الحال». فعند ذلك رفع سيف الملوك رأسه إلى وزيره ساعد وقال له: «يا أخى أنا استحييت أن أقول لك وأخبرك بالذى جرى لى». فقال له ساعد: «سألتك بالله رب الأرباب ومعتق الرقاب ومسبب الأسباب الواحد التواب الكريم الوهاب أن تقول لى ما الذى جرى لك ولا تستحى منى فأنا عبدك ووزيرك ومشيرك فى الأمور كلها». فقال سيف الملوك: «تعال انظر إلى هذه الصورة». فلما رأى ساعد تلك الصورة تأمل فيها ساعة زمانية ورأى مكتوبًا على رأس الصورة باللؤلؤ المنظوم: «هذه صورة بديعة الجمال بنت شماخ بن شاروخ ملك من ملوك الجان المؤمنين الذين هم نازلون فى مدينة بابل وساكنون فى بستان آرم بن عاد الأكبر».

فقال الوزير ساعد للملك سيف الملوك: «يا أخى أتعرف من صاحبة هذه الصورة من النساء حتى نفتش عليها؟» فقال سيف الملوك: « لا والله يا أخى ما أعرف صاحبة هذه الصورة». فقال ساعد: «تعال اقرأ هذه الكتابة». فتقدم سيف الملوك وقرأ الكتابة التى على التاج وعرف مضمونها فصرخ من صميم قلبه وقال: «آه آه آه». فقال له ساعد: «يا أخى إن كانت صاحبة هذه الصورة موجودة واسمها بديعة الجمال وهى فى الدنيا فأنا أسرع فى طلبها من غير مهلة وأخطبها لك، فبالله عليك يا أخى إن تترك البكاء لأجل أن تدخل أهل الدولة فى خدمتك فإذا كان ضحوة النهار فاطلب التجار والفقراء والسواحين والمساكين واسألهم عن صفات هذه المدينة لعل أحدًا ببركة الله سبحانه وتعالى وعونه يدلنا عليها وعلى بستان آرم».

فلما أصبح الصباح قام سيف الملوك وطلع فوق التخت فدخلت عليه الأمراء والوزراء والجنود وأرباب الدولة. فلما تم الديوان وانتظم الجمع قال الملك سيف الملوك لوزيره ساعد: «ابرز لهم وقل لهم: إن الملك حصل له تشويش وما بات البارحة إلا وهو ضعيف».

فطلع الوزير ساعد وأخبر الناس بما قال الملك. فلما سمع الملك عاصم ذلك لم يهن عليه ولده. فعند ذلك دعا بالحكماء والمنجمين ودخل بهم على ولده سيف الملوك. فنظروا إليه ووصفوا له الشراب واستمرّ مرضه مدة ثلاثة أشهر. فقال الملك عاصم للحكماء الحاضرين وهو مغتاظ عليهم: «ويلكم يا كلاب هل عجزتم كلكم عن مداواة ولدى؟ فإن لم تداووه فى هذه الساعة أقتلكم جميعًا». فقال رئيسهم الكبير: «يا ملك الزمان إننا نعلم أن هذا ولدك وأنت تعلم أننا لا نتساهل فى مداواة الغريب فكيف بمداواة ولدك، ولكن ولدك به مرض صعب إن شئت معرفته نذكره لك ونحدثك به».

قال: قال الملك عاصم: «أى شىء ظهر لكم من مرض ولدى؟» فقال له الحكيم الكبير: «يا ملك الزمان إن ولدك الآن يحب من لا سبيل إلى وصاله».

فاغتاظ الملك عليهم وقال: «من أين علمتم هذا؟» فقالوا له: «اسأل أخاه ووزيره ساعدًا فإنه هو الذى يعلم حاله». فعند ذلك قام الملك عاصم ودخل فى خزانة وحده ودعا بساعد وقال له: «اصدقنى بحقيقة مرض أخيك». فقال له: «ما أعلم حقيقته». فقال الملك للسياف: «خذ ساعدًا واربط عينيه واضرب رقبته». فخاف ساعد على نفسه وقال: «يا ملك الزمان أعطنى الأمان» فقال له الملك: «قل لى ولك الأمان». فقال له ساعد: «إن ولدك عاشق». فقال له الملك: «ومَن معشوقته؟» فقال ساعد: «بنت ملك من ملوك الجان فإنه رأى صورتها فى قباء من البقجة التى أهداها إليكم نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام». فعند ذلك قام الملك عاصم ودخل على ابنه سيف الملوك وقال له: «يا ولدى أى شىء دهاك وما هذه الصورة ولأى شىء لم تخبرنى؟» فقال سيف الملوك: «يا أبت كنت أستحى منك وما كنت أقدر أن أذكر لك ذلك ولا أقدر أن أظهر أحدًا على شىء منه أبدًا والآن قد علمت بحالى فانظر كيف تعمل فى مداواتى». فقال له أبوه: «كيف تكون الحيلة: لو كانت هذه من بنات الإنس كنا دبرنا حيلة فى الوصول إليها، ولكن هذه من بنات ملوك الجان ومن يقدر عليها إلا إذا كان سليمان بن داود فإنه هو الذى يقدر على ذلك. ولكن يا ولدى قم فى الساعة وقو روحك واركب ورُح إلى الصيد والقنص واللعب فى الميدان واشتغل بالأكل والشرب واصرف الهمّ والغمّ عن قلبك وأنا أجىء لك بمائة بنت من بنات الملوك وما لك حاجة ببنات الجان الذين ليس لنا قدرة عليهم ولا هم من جنسنا». فقال له: «أنا ما أتركها ولا أطلب غيرها». فقال له: «كيف يكون العمل يا ولدى؟» فقال له ابنه: «احضر لنا جميع التجار والمسافرين والسواحين فى البلاد لنسألهم لعل الله يدلنا على بستان آدم ومدينة بابل».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فأمر الملك عاصم أن يحضر كل تاجر فى المدينة وكل غريب فيها وكل رئيس فى البحر. فلما حضروا وسألهم عن مدينة بابل وعن جزيرتها وعن بستان آرم فما أحد منهم عرف هذه الصفة ولا أخبر عنها بخبر. وعند انفضاض المجلس قال واحد منهم: «يا ملك الزمان إن كنت تريد أن تعرف ذلك فعليك ببلاد الصين فإنها مدينة كبيرة ولعل أحدًا منها يدلك على مقصودك». ثم إن سيف الملوك قال: «يا أبى جهز لى مركبًا للسفر إلى بلاد الصين». فقال له أبوه الملك عاصم: «يا ولدى اجلس أنت على كرسى مملكتك واحكم فى الرعية وأنا أسافر إلى بلاد الصين وأمضى إلى هذا الأمر بنفسى». فقال سيف الملوك: «يا أبى إن هذا الأمر متعلق بى وما يقدر أحد أن يفتش عليه مثلى، وأى شىء يجرى إذا كنت تعطينى إذنًا بالسفر فأسافر وأتغرب مدة من الزمان، فإن وجدت لها خبرًا حصل المراد وإن لم أجد لها خبرًا يكون فى السفر انشراح صدرى ونشاط خاطرى ويهون أمرى بسبب ذلك، وإن عشت رجعت إليك سالمًا».

فنظر الملك إلى ابنه فلم ير له حيلة غير أن يعمل له الذى يرضيه. فأعطاه إذنًا بالسفر وجهز له أربعين مركبًا وعشرين ألف مملوك غير الأتباع وأعطاه أموالاً وخزائن وكل شيء يحتاج إليه من آلات الحرب وقال له: «سافر يا ولدى فى خير وعافية وسلامة وقد استودعتك عند من لا تخيب عنده الودائع». فعند ذلك ودعه أبوه وأمه، وشحنت المراكب بالماء والزاد والسلاح والعساكر. ثم سافروا ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى مدينة الصين.

فلما سمع أهل الصين بأنه وصل إليهم أربعون مركبًا مشحونة بالرجال والعدد والسلاح والذخائر اعتقدوا أنهم أعداء جاءوا إلى قتالهم وحصارهم فقفلوا أبواب المدينة وجهزوا المنجنيقات. فلما سمع الملك سيف الملوك ذلك أرسل إليهم مماليك من مماليكه الخواص وقال لهم: «امضوا إلى ملك الصين وقولوا له: إن هذا سيف الملوك بن عاصم جاء إلى مدينتكم ضيفًا ليتفرج فى بلادك مدة من الزمان ولا يقاتل ولا يخاصم، فإن قبلته نزل عندك وإن لم تقبله رجع ولا يشوش عليك ولا على أهل مدينتك». فلما وصل المماليك إلى أهل المدينة قالوا لأهلها: «نحن رسل الملك سيف الملوك» ففتحوا لهم الباب وذهبوا بهم وأحضروهم عند ملكهم واسمه فغفور شاه وكان بينه وبين الملك عاصم قبل تاريخه معرفة.

فلما سمع الملك أن القادم عليه هو سيف الملوك ابن الملك عاصم خلع على الرسل وأمر بفتح الأبواب وجهز الضيافات وخرج بنفسه مع خواص دولته وجاء إلى سيف الملوك وتعانقا وقال له: «أهلاً وسهلاً ومرحبًا بمن قدم علينا وأنا مملوكك ومملوك أبيك ومدينتى بين يديك وكلما تطلبه يحضر إليك». وقدم له الضيافات والزاد فى مواضع الإقامات. وركب الملك سيف الملوك وساعد وزيره ومعهما خواص دولتهما وبقية العساكر وساروا من ساحل البحر إلى أن دخلوا المدينة. وضربت الكاسات ودقت البشائر وأقاموا فيها مدة أربعين يومًا فى ضيافات حسنة. ثم بعد ذلك قال الملك فغفور شاه:

« يا ابن أخى كيف حالك هل أعجبتك بلادى؟» فقال له سيف الملوك : «أدام الله تعالى تشريفها بك أيها الملك». فقال الملك فغفور شاه: « ما جاء بك إلا حاجة طرأت لكن وأى شيء تريده من بلادى فأنا أقضيه لك؟» فقال له سيف الملوك: « يا ملك إن حديثى عجيب وهو أنى نظرت صورة بديعة الجمال فأريد أن أخطبها». فبكى ملك الصين رحمة له وشفقة عليه وقال له: «وما تريد الآن يا سيف الملوك؟» فقال له: «أريد منك أن تحضر لى جميع السواحين والمسافرين ومن له عادة بالأسفار حتى أسألهم عن صاحبة هذه الصورة لعل أحدًا يخبرنى بها».

فأرسل الملك فغفور شاه النواب والحجاب والأعوان وأمرهم أن يحضروا جميع من فى البلاد من السواحين والمسافرين فأحضروهم وكانوا جماعة كثيرة فاجتمعوا عند الملك فغفور شاه. ثم سأل الملك سيف الملوك عن مدينة بابل وعن بستان آرم فلم يرد عليه أحد منهم جوابًا. فتحير الملك سيف الملوك فى أمره. ثم بعد ذلك قال واحد من الرؤساء البحرية: «أيها الملك إن أردت أن تعلم هذه المدينة وذلك البستان فعليك بالجزائر التى فى بلاد الهند». فعند ذلك أمر سيف الملوك أن يحضروا المراكب ففعلوا ونقلوا فيها الماء والزاد وجميع ما يحتاجون إليه وركب

سيف الملوك وساعد وزيره بعد أن ودعوا الملك فغفور شاه وسافروا فى البحر مدة أربعة شهور فى ريح طيبة سالمين مطمئنين.

فاتفق أن خرجت عليهم ريح فى يوم من الأيام وجاءهم الموج من كل مكان ونزلت عليهم الأمطار وتغير البحر من شدة الريح. ثم ضربت المراكب بعضها بعضًا من شدة الريح فانكسرت جميعها وكذلك الحراقات وغرقوا جميعهم وبقى سيف الملوك مع جماعة من مماليكه فى حراقة. ثم سكتت الريح وسكنت بقدرة الله تعالى وطلعت الشمس ففتح سيف الملوك عينه فلم ير شيئًا من المراكب ولم ير غير السماء، والماء وهو ومن معه فى الحراقة الصغيرة، فقال لمن معه من مماليكه: «أين المراكب والزوارق الصغيرة وأين أخى ساعد؟» فقالوا له: «يا ملك الزمان لم يبق مراكب ولا زوارق ولا من فيها فإنهم غرقوا كلهم وصاروا طعمًا للسمك» فصرخ سيف الملوك وقال كلمة لا يخجل قائلها وهى: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». وصار يلطم على وجهه وأراد أن يرمى نفسه فى البحر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فمنعه المماليك وقالوا له: «يا ملك أى شىء يفيدك هذا، فأنت الذى فعلت بنفسك هذه الفعال ولو سمعت كلام أبيك ما كان جرى عليك من هذا شىء، ولكن كل هذا مكتوب من القِدَم بإرادة بارى النسم حتى يستوفى العبد ما كتب الله عليه.

وقد قال المنجمون لأبيك عند ولادتك: «إن ابنك هذا تجرى عليه الشدائد كلها، وحينئذ ليس لنا حيلة إلا الصبر حتى يفرج الله علينا الكرب الذى نحن فيه». فقال سيف الملوك: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لا مفرّ من قضاء الله تعالى». ثم تنهد وأنشد هذه الأبيات:

تحيَّرتُ والرحمان لاشكّ فى أمرى	وأدركنى الوسواس من حيث لا أدرى
سأصبر حتى يعلم الناس أننى	صبرت على شىء أمرّ من الصبر
وما حيلتى فى الأمر هذا وإنما	أفوض أحوالى إلى صاحب الأمر

ثم غرق فى بحر الأفكار وجَرت دموعه على خده كالمدرار ونام ساعة من النهار ثم استفاق وطلب شيئًا من الأكل فأكل حتى اكتفى ورفعوا الزاد من قدامه والزورق سائر بهم ولم يعلموا إلى أى جهة يتوجه بهم. ولم يزل يسير بهم مع الأمواج والرياح ليلاً ونهارًا مدة مديدة حتى فرغ منهم الزاد وذهلوا عن الرشاد وصاروا فى أشد ما يكون من الجوع والعطش والقلق. وإذا بجزيرة قد لاحت لهم على بُعد فصارت الرياح تسوقهم إلى أن وصلوا إليها وأرسوا عليها وطلعوا من الزورق وتركوا فيه واحدًا.

ثم توجهوا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها فواكه كثيرة من سائر الألوان فأكلوا منها حتى اكتفوا. وإذا بشخص جالس بين تلك الأشجار طويل الوجه رؤيته عجيبة أبيض اللحية والبدن. فنادى بعض المماليك باسمه وقال له: «لا تأكل من هذه الفواكه لأنها لم تستو وتعال عندى حتى أطعمك من هذه الفواكه المستوية». فنظر إليه المملوك وظنّ أنه من جملة الغرقى الذين غرقوا

وطلع على هذه الجزيرة. ففرح برؤيته غاية الفرح ومشى حتى وصل قريبًا منه وهو لا يعلم الذى قدرّ عليه فى الغيب وما هو مسطر فى جبينه.

فلما وصل ذلك المملوك قريبًا منه وثب عليه الرجل لأنه مارد وركب فوق أكتافه ولف إحدى رجليه على رقبته والأخرى على ظهره وقال له: «امش ما بقى لك منى خلاص وأنت بقيت حارى». فصاح ذلك المملوك على رفقائه وصار يبكى ويقول: «واسيداه اخرجوا، وانجوا بأنفسكم من هذه الغابة واهربوا لأن واحدًا من سكانها ركب فوق أكتافى والبقية يطلبونكم ويريدون أن يركبوكم مثلى». فلما سمعوا ذلك الكلام الذى قاله المملوك هربوا كلهم ونزلوا فى الزورق فتبعوهم فى البحر وقالوا لهم: «أين تذهبون تعالوا اقعدوا عندنا ولنركب فوق ظهوركم ونطعمكم ونسقيكم تبقوا حميرنا». فلما سمعوا منهم هذا الكلام أسرعوا بالسير فى البحر إلى أن بعدوا عنهم وتوجهوا متوكلين على الله تعالى.

ولم يزالوا كذلك مدة شهر حتى بانت لهم جزيرة أخرى. فطلعوا فى تلك الجزيرة فرأوا فيها فواكه مختلفة الأنواع فاشتغلوا بأكل الفواكه، وإذا هم بشىء فى الطريق يلوح على بعد لما قربوا منه نظروا إليه فرأوه بشع المنظر مرميًا مثل عامود من فضة، فلكزه مملوك برجله وإذا هو شخص طويل العينين مشقوق الرأس وهو مختف تحت إحدى اذنيه لأنه كان إذا نام يضع رأسه ويتغطى بالأذن الأخرى ثم خطف المملوك الذى لكزه وراح به فى وسط الجزيرة. فإذا هى كلها غيلان يأكلون بنى آدم. ثم إن ذلك المملوك صاح على رفقائه وقال لهم: «فوزوا بأنفسكم فإن هذه الجزيرة جزيرة الغيلان يأكلون بنى آدم ويريدون أن يقطعونى ويأكلونى». فلما سمعوا هذا الكلام ولوا معرضين ونزلوا من البر إلى الزورق ولم يجمعوا من هذه الفواكه شيئًا وساروا مدة أيام فاتفق أنه ظهرت لهم يومًا من الأيام جزيرة أخرى فلما وصلوا إليها وجدوا فيها جبلاً عاليًا فطلعوا فى ذلك الجبل فرأوا فيه غابة كثيرة الأشجار وهم جياع فاشتغلوا بأكل الفواكه. فلم يشعروا إلا وقد خرج لهم من بين الأشجار أشخاص هائلة المنظر طوال طول كل واحد منهم خمسون ذراعًا وأنيابه خارجة من فمه مثل أنياب الفيل. وإذا هم بشخص جالس على قطعة لباد أسود فوق صخرة من الحجر وحواليه الزنوج وهم جماعة كثيرة واقفون فى خدمته. فجاء هؤلاء الزنوج وأخذوا سيف الملوك ومماليكه وأوقفوهم بين يدى ملكهم وقالوا: «إنا لقينا هذه الطيور بين الأشجار». وكان الملك جائعًا فأخذ من المماليك اثنين وذبحهما وأكلهما. فلما رأى سيف الملوك هذا الأمر خاف وبكى ثم أنشد:

ألفت الحوادثُ مهجتى وألفتها	بعد التنافر والكريمُ ألوفُ
ليس الهموم علىَّ صنفًا واحدًا	عندى بحمد الله منهُ ألوفُ

ثم تنهّد وأنشد أيضًا هذين البيتين:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى	فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام	تكسرت النصال على النصال

فما سمع الملك بكاءه وتعديده قال: «إن هؤلاء طيور مليحة الصوت والنغمة قد أعجبتنى أصواتهم فاجعلوا كل واحد منهم فى قفص». فوضعوا كل واحد منهم فى قفص وعلقوهم على

رأس الملك ليسمع أصواتهم. وصار سيف الملوك ومماليكه فى الأقفاص والزنوج يطعمونهم ويسقونهم وهم ساعة يبكون وساعة يضحكون ويتكلمون وساعة يسكتون. وكل هذا وملك الزنوج يتلذذ بأصواتهم، ولم يزالوا على تلك الحالة مدة من الزمان. وكان للملك بنت متزوجة فى جزيرة أخرى فسمعت أن أباها عنده طيور لها أصوات مليحة فأرسلت جماعة إلى أبيها تطلب منه شيئًا من الطيور فأرسل إليها أبوها سيف الملوك وثلاثة مماليك فى أربعة أقفاص مع القاصد الذى جاء فى طلبهم.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فلما وصلوا إليها ونظرتهم أعجبوها فأمرت أن يطلموهم فى موضع فوق رأسها. فصار سيف الملوك يتعجب مما جرى له ويتفكر ماكان فيه من العز وصار يبكى على نفسه والمماليك الثلاثة يبكون على أنفسهم، كل هذا وبنت الملك تعتقد أنهم يغنون، وكان عادة بنت الملك إذا وقع عندها أحد من بلاد مصر أو من غيرها وأعجبها يصير له عندها منزلة عظيمة. وكان بقضاء الله تعالى وقدره أنها لما رأت سيف الملوك أعجبها حسنه وجماله وقده واعتداله فأمرت بإكرامهم. واتفق أنها طلبت يومًا من الأيام من سيف الملوك أن يخطبها من أبيها فأبى سيف الملوك ذلك وقال لها: «يا سيدتى أنا رجل غريب وبحبِّ الذى أهواه كئيب وما أرضى بغير وصاله». فصارت بنت الملك تلاطفه فامتنع منها. فلما أعياها أمره غضبت عليه وعلى مماليكه وأمرتهم أن يخدموها وينقلوا إليها الماء والحطب. فمكثوا على هذه الحالة أربع سنوات فأعيا سيف الملوك ذلك الحال وأرسل يتشفع عند الملكة عسى أن تعتقهم ويمضوا إلى حال سبيلهم ويستريحوا مما هم فيه. فأرسلت أحضرت سيف الملوك وقالت له: «إن وافقتنى على غرضى أعتقك من الذى أنت فيه وتروح إلى بلادك سالمًا غانمًا». ومازالت تتضرع إليه وتأخذ بخاطره فلم يجبها إلى مقصودها. فأعرضت عنه مغضبة وصار سيف الملوك والمماليك عندها فى الجزيرة على تلك الحالة ، وعرف أهلها أنهم طيور بنت الملك فلم يتجاسر أحد من أهل المدينة على أن يضرّهم بشىء وصار قلب بنت الملك مطمئنًا عليهم وتحققت أنهم ما بقى لهم خلاص من هذه الجزيرة فصاروا يغيبون عنها اليومين والثلاثة ويدورون فى البرية ليجمعوا الحطب من جوانب الجزيرة ويأتون به إلى مطبخ بنت الملك. فمكثوا على هذه الحالة خمس سنوات.

واتفق أن سيف الملوك قعد هو ومماليكه يومًا يتحدثون فيما جرى لهم فالتفت سيف الملوك فرأى روحه فى هذا المكان هو ومماليكه فتذكر أمه وأباه وأخاه ساعدًا وتذكر العزّ الذى كان فيه فبكى وزاد فى البكاء والنحيب وكذلك المماليك بكوا مثله. ثم قال له المماليك: «يا ملك الزمان إلى متى نبكى والبكاء لا يفيد وهذا أمر مكتوب على جباهنا بتقدير الله عز وجلّ وقد جرى القلم بما حكم وما ينفعنا إلا الصبر لعلّ الله سبحانه وتعالى الذى ابتلانا بهذه الشدة يفرجها عناء فقال لهم سيف الملوك: «يا إخوتى كيف نعمل فى خلاصنا من هذه الملعونة ولا أرى لنا خلاصًا إلا أن يخلصنا الله سبحانه وتعالى الذى ابتلانا بهذه الشدة يفرجها عناء فقال

لهم سيف الملوك: «يا إخوتى كيف نعمل فى خلاصنا من هذه الملعونة ولا أرى لنا خلاصًا إلا أن يخلصنا الله منها بفضله، ولكن خطر ببالى أن نهرب ونستريح من هذا التعب». فقالوا له: «يا ملك الزمان أين نروح من هذه الجزيرة وهى كلها غيلان يأكلون بنى آدم وكل موضع توجهنا إليه وجدونا فيه فإما أن يأكلونا وإما أن يأسرونا ويردّونا إلى مواضعنا وتغضب علينا بنت الملك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فقال سيف الملوك : «أنا أعمل لكم شيئًا لعل الله تعالى يساعدنا به على الخلاص ونخلص من هذه الجزيرة» فقالوا له: «كيف تعمل؟» فقال: «نقطع من هذه الأخشاب الطوال ونفتل من قشرها حبالاً ونربط بعضها فى بعض ونجعلها فلكًا ونرميه فى البحر ونملأه من تلك الفاكهة ونعمل له مجاديف وننزل فيه لعل الله تعالى أن يجعل لنا به فرجًا فإنه على كل شىء قدير وعسى الله أن يرزقنا الريح الطيبة التى توصلنا إلى بلاد الهند ونخلص من هذه الملعونة». فقالوا له: هذا رأى حسن» وفرحوا به فرحًا شديدًا وقاموا فى الوقت والساعة يقطعون الأخشاب لعمل الفلك، ثم فتلوا الحبال لربط الأخشاب فى بعضها واستمروا على ذلك مدة شهر. وكل يوم فى آخر النهار يأخذون شيئًا من الحطب إلى مطبخ بنت الملك ويجعلون بقية النهار لأشغالهم فى صنع الفلك.

فلما فرغوا من عمله رموه فى البحر ووسقوه من الفواكه التى فى الجزيرة من تلك الأشجار وتجهزوا فى آخر يومهم ولم يُعلموا أحدًا بما فعلوا. ثم ركبوا فى ذلك الفلك وساروا فى البحر مدة أربعة أشهر ولم يعلموا أين يذهب بهم وفرغ منهم الزاد وصاروا فى أشدّ ما يكونون من الجوع والعطش وإذا بالبحر قد ارغى وأزيد وطلع له أمواج عالية فأقبل عليهم تمساح هائل ومدّ يده وخطف مملوكًا من المماليك وبلعه. فلما رأى سيف الملوك ذلك التمساح فعل بالمملوك ذلك الفعل بكى بكاء شديدًا وصار فى الفلك هو والمملوك الباقى وحدهما وبعدا عن مكان التمساح وهما خائفان ولم يزالا كذلك حتى ظهر لهما يومًا من الأيام جبل عظيم هائل عال شاهق فى الهواء ففرحا به وظهر لهما بعد ذلك جزيرة فجدا فى السير إليها وهما مستبشران بدخولهما الجزيرة. فبينما هما على تلك الحالة وإذا بالبحر قد هاج وعلت أمواجه وتغيرت حالاته فرفع تمساح رأسه ومد يده فأخذ المملوك الذى بقى من مماليك سيف الملوك وبلعه. فصار سيف الملوك وحده حتى وصل إلى الجزيرة وصار يعالج إلى أن صعد فوق الجبل ونظر فرأى غابة فدخل الغابة ومشى بين الأشجار وصار يأكل من الفواكه فرأى الأشجار قد طلع فوقها ما يزيد على عشرين قردًا كبارًا كل واحد منهم أكبر من البغل.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما رأى سيف الملوك هذه القرود حصل له خوف شديد، ثم نزلت القرود، واحتاطوا به من كل جانب وبعد ذلك ساروا أمامه وأشاروا إليه أن يتبعهم ومشوا، فمشى سيف الملوك خلفهم، ومازالوا سائرين وهو تابعهم حتى أقبلوا على قلعة عالية البنيان مشيدة الأركان فدخلوا تلك القلعة ودخل سيف الملوك وراءهم فرأى فيها من سائر التحف والجواهر والمعادن ما يكلّ عنه وصف اللسان ورأى فى تلك القلعة شابا لا نبات بعارضيه ولكنه طويل زائد الطول، فلما رأى سيف الملوك ذلك الشاب استأنس به ولم يكن فى تلك القلعة غير ذلك الشاب من البشر. ثم إن الشاب لما رأى سيف الملوك أعجبه غاية الإعجاب، فقال له: «ما اسمك ومن أى البلاد أنت وكيف وصلت إلى هنا فأخبرنى بحديثك ولا تكتم منه عنى شيئًا؟» فقال له سيف الملوك: «أنا والله ما وصلت إلى هنا بخاطرى وما كان هذا المكان مقصودى وأنا لا أقدر أن أسير من مكان إلى مكان حتى أنال مطلوبى». فقال له الشاب: «وما مطلوبك؟» فقال له سيف الملوك: «أنا من بلاد مصر واسمى سيف الملوك وأبى اسمه الملك عاصم بن صفوان». ثم إنه حكى له ما جرى له من أوّل الأمر إلى آخره. فقام ذلك الشاب فى خدمة سيف الملوك وقال: «يا ملك الزمان أنا كنت فى مصر وسمعت بأنك سافرت إلى بلاد الصين وأين هذه البلاد من بلاد الصين إن هذا الشىء عجيب وأمر غريب؟» فقال له سيف الملوك: «كلامك صحيح ولكن سافرت بعد ذلك من بلاد الصين إلى بلاد الهند فخرجت علينا ريح وهاج البحر وكسرت جميع المراكب التى كانت معى». وذكر له جميع ما جرى له إلى أن قال: «وقد وصلت إليك فى هذا المكان» فقال له الشاب: «يا ابن الملك يكفى ما جرى لك من هذه الغربة وشدائدها والحمدلله الذى أوصلك إلى هذا المكان فاقعد عندى لأستأنس بك إلى أن أموت وتكون أنت ملكا على هذا الإقليم فإن فيه هذه الجزيرة التى لا يُعرف لها حد وإن هذه القرود أصحاب صنائع وكل شىء طلبته تجده هنا».

فقال سيف الملوك: «يا أخى ما أقدر أن أقعد فى مكان حتى تُقضى حاجتى ولو أطوف جميع الدنيا وأسأل عن غرضى لعل الله يبلغنى مرادى أو يكون سعيى إلى مكان فيه أجلى فأموت». ثم إن الشاب التفت إلى قرد وأشار إليه. فغاب القرد ساعة ثم أتى ومعه قرود مشدودة الوسط بالفوط الحرير وقدموا السماط ووضعوا فيه نحو مائة صفحة من الذهب والفضة وفيها من سائر الأطعمة وصارت القرود واقفة على عادة الأتباع بين أيدى الملوك. ثم أشار للحجاب بالقعود فقعدوا ووقف الذى عادته الخدمة ثم أكلوا حتى اكتفوا. ثم رفعوا السماط وأتوا بطسوت وأباريق من الذهب فغسلوا أيديهم. ثم جاءوا بأوانى الشراب نحو أربعين آنية كل إناء فيه نوع من الشراب فشربوا وتلذذوا وطربوا وطاب وقتهم وجميع القرود يرقصون ويلعبون وقت اشتغال الآكلين بالأكل. فلما رأى سيف الملوك ذلك تعجب منهم ونسى ما جرى له من الغربة وشدائدها.

فلما كان الليل أوقدوا الشموع ووضعوا فى الشمعدانات الذهب والفضة. ثم أتوا بأوانى النقل والفاكهة فأكلوا، ولما جاء وقت النوم فرشوا لهم الفرش وناموا. فلما أصبح الصباح قام الشاب على عادته نبّه سيف الملوك وقال له: «أخرج رأسك من هذا الشبّاك وانظر أى شىء

هذا الواقف تحت «الشباك» فنظر فرأى قرودًا ملأت الفلا الواسع والبرية كلها وما يعلم عدد تلك القرود إلا الله تعالى. فقال سيف الملوك: «هؤلاء قرود كثيرون قد ملأوا الفضاء ولأى شيء اجتمعوا فى هذا الوقت؟» فقال له الشاب: «إن هذه عادتهم وجميع ما فى الجزيرة قد أتى وبعضهم جاء من سفر يومين أو ثلاثة أيام فإنهم يأتون فى كل يوم سبت ويقفون هنا حتى أنتبه من منامى وأخرج رأسى من هذا الشباك، فحين يبصروننى يقبّلون الأرض بين يدىّ ثم ينصرفون إلى أشغالهم». وأخرج رأسه من الشباك حتى رأوه. فلما نظروه قبّلوا الأرض بين يديه وانصرفوا.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد : ثم إن سيف الملوك قعد عند الشاب مدة شهر كامل وبعد ذلك ودّعه وسافر. فأمر الشاب نفرًا من القرود نحو المائة قرد بالسفر معه فسافروا فى خدمة سيف الملوك مدة سبعة أيام حتى أوصلوه إلى آخر جزائرهم. ثم ودّعوه ورجعوا أماكنهم. وسافر سيف الملوك وحده فى الجبال والتلال والبرارى والقفار مدة أربعة أشهريومًا يجوع ويومًا يشبع ويومًا يأكل من الحشيش ويومًا يأكل من ثمر الأشجار. وصار يتندم على ما فعل بنفسه وعلى خروجه من عند ذلك الشاب وأراد أن يرجع إليه على أثره فرأى شبحًا أسود يلوح على بُعد. فقال فى نفسه: «هل هذه بلدة سوداء؟ ولكن لا أرجع حتى أنظر أى شيء هذا». فلما قرب منه رآه قصرًا عالى البنيان؟ وكان الذى بناه يافث بن نوح عليه السلام. ثم إن سيف الملوك جلس على باب القصر وقال فى نفسه: «يا ترى ما شأن داخل هذا القصر ومن فيه من الملوك فمن يخبرنى بحقيقة هذا الأمر وهل سكانه من الإنس أو من الجن؟» فقعد يتفكر ساعة زمانية ولم يجد أحدًا يدخله ولا يخرج منه فقام يمشى وهو متوكل على الله تعالى حتى دخل القصر وعدّ فى طريقه سبعة دهاليز فلم يرَ أحدًا ونظر على يمينه ثلاثة أبواب وقدامه باب عليه ستارة مسبولة. فتقدم إلى ذلك الباب ورفع الستارة بيده ومشى داخل الباب وإذا هو بإيوان كبير مفروش بالبسط الحرير وفى صدر ذلك الإيوان تخت من الذهب وعليه بنت جالسة وجهها مثل القمر وعليها ملبوس الملوك وهى كالعروس فى ليلة زفافها وتحت التخت أربعون سماطًا وعليها صحاف الذهب والفضة.

فلما رآها سيف الملوك أقبل عليها وسلّم، فردّت عليه السلام وقالت له: «هل أنت من الإنس أو من الجن؟» فقال: «أنا من خيار الإنس فإنى ملك ابن ملك». فقالت له: «أى شيء تريد؟ دونك وهذا الطعام وبعد ذلك حدّثنى بحديثك من أوّله إلى آخرهو كيف وصلت إلى هذا الموضع؟» فجلس سيف الملوك على السماط وكشف المكبَّة عن السفرة وكان جائعًا وأكل من تلك الصحاف حتى شبع وغسل يده وطلع على التخت وقعد عند البنت. فقالت له: «من أنت وما اسمك ومن أين جئت ومن أوصلك إلى هنا»فقال لها سيف الملوك : «أما أنا فحديثى طويل». فقالت له: «قل لى من أين أنت وما سبب مجيئك إلى هناوما مرادك؟» فقال لها: «أخبرينى أنت ما شأنك وما اسمك ومن جاء بك إلى هنا ولأى شيء أنت قاعدة فى هذا المكان وحدك؟»

فقالت له البنت: «أنا اسمى دولة خاتون بنت ملك الهند وأبى ساكن فى مدينة سرنديب ولأبى بستان مليح كبير ما فى بلاد الهند وأقطارها أحسن منه وفيه حوض كبير، فدخلت فى ذلك البستان يومًا من الأيام مع جوارى وصرنا نلعب ونتشرح فلم أشعر إلا وشىء مثل السحاب نزل علىّ وخطفنى من بين جوارىّ وطار بى بين السماء والأرض وهو يقول: يا دولة خاتون لا تخافى وكونى مطمئنة القلب».

ثم طار بى مدة قليلة وبعد ذلك أنزلنى فى هذا القصر. ثم انقلب من وقته وساعته فإذا هو شاب مليح حسن الشباب نظيف الثياب وقال لى: «أتعرفيننى؟» قلت: «لا يا سيدى» فقال: «أنا ابن الملك الأزرق ملك الجان وأبى ساكن فى قلعة القلزم وتحت يده ستمائة ألف من الجن الطيارة والغواصين واتفق لى أنى كنت عابرًا فى طريق متوجهًا إلى حال سبيلى فرأيتك ونزلت عليك وخطفتك من بين الجوارى وجئت بك إلى هذا القصر المشيد وهو موضعى ومسكنى، فلا أحد يصل إليه قط لا من الجن ولا من الإنس، ومن الهند إلى هنا مسيرة مائة وعشرين سنة، فتحققى أنك لا تنظرين بلاد أبيك أبدًا. فاقعدى عندى فى هذا المكان مطمئنة القلب والخاطر وأنا أحضر بين يديك كل ما تطلبينه».

ثم قال لى: «اقعدى هنا ولا تخافى شيئا». ثم تركنى وغاب عنى ساعةوبعد ذلك أتى ومعه هذا السماط والفرش والبسط. وأبى اسمه تاج الملوك ولم يعلم لى بخبر ولم يقع لى على أثر. وهذا حديثى. فحدثنى أنت بحديثك». فقال لها سيف الملوك: «إن حديثى طويل فأخاف إن حدثتك يطول الوقت علينا فيجىء العفريت». فقالت له: «إنه لم يسافر من عند إلا قبل دخولك بساعة ولا يأتى فى يوم الثلاثاء فاقعد واطمئن وطيّب خاطرك وحدثنى بما جرى لك من الأول إلى الآخر». قال سيف الملوك: «سمعًا وطاعة». ثم ابتدأ بحديثه حتى أكمله من الأول إلى الآخر. فلما وصل إلى حكاية بديعة الجمال تغرغرت عيناه بالدموع الغزاروقالت: «ما هو ظنى فيك يا بديعة الجمال، آه من الزمان يا بديعة الجمال، أما تذكريننى ولا تقولين: أختى دولة خاتون أين راحت؟».

ثم إنها زادت فى البكاء وصارت تتأسف حيث لم تذكرها بديعة الجمال. فقال لها سيف الملوك: «يا دولة خاتون إنك إنسية وهى جنية فمن أين تكون هذه أختك؟» فقالت له: «إنها أختى من الرضاع، وسبب ذلك أن أمى نزلت تتفرج فى البستان فجاءها الطلق فولدتنى فى هذا البستان وكانت أمّ بديعة الجمال فى هذا البستان هى وأعوانها فجاءها الطلق فنزلت فى طرف البستان وولدت بديعة الجمال، وأرسلت بعض جواريهاإلى أمى تطلب منها طعامًا وحوائج للولادة فبعثت إليها أمى ما طلبته وعزمت عليهافقامت وأخذت بديعة الجمال معها وأتت إلى أمى فأرضعت أمى بديعة الجمال، ثم أقامت أمها وهى معها عندنا فى البستان مدة شهرين، وبعد ذلك سافرت إلى بلادها وأعطت لأمى حاجة وقالت لها: «إذا احتجت إلىَّ أجيئك فى وسط البستان». وكانت تأتى بديعة الجمال مع أمها فى كل عام وتقيمان عندنا مدة من الزمان ثم ترجعان إلى بلادهما. فلو كنت عند أمى يا سيف الملوك ونظرتك عندنا فى بلادنا ونحن مجتمع شملنا مثل العادة كنت أتحيل عليها بحيلة حتى أوصلك إلى مرادك، ولكن

أنا فى هذا المكان ولا يعرفون خبرى. فلو عرفوا خبرى وعلموا أنى هنا كانوا قادرين على خلاصى من هذا المكان، ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وأى شىء أعمل؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فقال سيف الملوك : «قومى وتعالى معى نهرب ونسير إلى حيث يريد الله تعالى». فقالت له: «لا نقدر على ذلك ولو هربنا مسيرة سنة لجاء بنا هذا الملعون فى ساعة ويهلكنا». فقال سيف الملوك: «أنا أختفى فى موضع فإذا جاز علىّ أضربه بالسيف فأقتله». فقالت له: «ما تقدر أن تقتله إلا إن قتلت روحه». فقال لها سيف الملوك: «وروحه فى أى مكان؟» فقالت: «أنا سألته عنها مرارًا عديدة فلم يقرّ لى بمكانها، فاتفق أنى لححت عليه يومًا من الأيام فاغتاظ منى وقال لى: كم تسألينى عن روحى وما سبب سؤالك عن روحى؟ قلت له: يا حاتم أنا ما بقى لى أحد غيرك إلا الله وأنا ما دمت بالحياة لم أزل معانقة لروحك، وإن كنت أنا أحفظ روحك وأضعها فى وسط عينى فكيف تكون حياتى بعدك وإذا عرفت روحك حفظتها مثل عينى اليمين.فعند ذلك قال لى: إنى حين ولدت أخبر المنجمون أن هلاك روحى يكون على يد واحد من أولاد الملوك الإنسية فأخذت روحى ووضعتها فى حوصلة عصفور وحبست العصفور فى حقّ ووضعت الحق فى علبة ووضعت العلبة فى داخل سبع علب ووضعت العلب فى قلب سبعة صناديق ووضعت الصناديق فى طابق رخام فى جانب هذا البحر المحيط لأن هذا الجانب بعيد عن بلاد الإنس وما يقدر أحد من الإنس أن يصل إليه، وها أنا قلت لكِ ولا تقولى لأحد على هذا فإنه سر بينى وبينك».

فقلت له : «مَن أحدّثه به وما يأتينى أحد غيرك حتى أقول له». ثم قلت له: «والله إنك جعلت روحك فى حصن حصين عظيم لا يصل إليه أحد فكيف يصل إلى ذلك أحد من الإنس حتى لو فرض المحال لا قدّر الله مثلما قال المنجمون فكيف يكون أحد من الإنس يصل إلى هنا؟» فقال: «ربما كان أحد منهم فى أصبعه خاتم سليمان بن داود عليهما السلام ويأتى إلى هنا ويضع يده بهذا الخاتم على وجه الماء ثم يقول: «بحق هذه الأسماء أن تطلع روح فلان فيطلع التابوت فيكسره والصناديق كذلك والعلب ويخرج العصفور من الحق ويخنقه فأموت أنا». فقال سيف الملوك: «هوأنا ابن الملك وهذا خاتم سليمان بن داود عليهما السلام فى أصبعى فقومى بنا إلى شاطئ هذا البحر حتى ننظر كلامه هذا كذب أم صدق». فقام الاثنان ومشيا إلى أن وصلا إلى البحر.

فعند ذلك وقفت دولة خاتون على جانب البحر ودخل سيف الملوك فى الماء إلى وسطه وقال: «بحق ما فى هذا الخاتم من الأسماء والطلاسم وبحق سليمان عليه السلام أن تخرج روح فلان ابن الملك الأزرق الجنى» فعند ذلك هاج البحر وطلع التابوت فأخذه سيف الملوك وضربه على الحجر فكسره وكسر الصناديق والعلب وأخرج العصفور من الحق وتوجهاإلى القصر وطلعا فوق التخت، وإذا بغبرة هائلة وشىء عظيم طائر وهو يقول: «أبقنى يا ابن الملك

ولا تقتلنى واجعلنى عتيقك وأنا أبلغك مقصودك». فقالت له دولة خاتون: «قد جاء الجنى فاقتل العصفور لئلا يدخل هذا الملعون القصرويأخذه منك ويقتلك ويقتلنى بعدك». فعند ذلك خنق العصفور فمات فوقع الجنى على باب القصر وصار كوم رماد أسود.فقالت دولة خاتون: «قد خلصنا من يد هذا الملعون وكيف نعمل؟» فقال سيف الملوك: «المستعان بالله تعالى الذى بلانا فإنه يدبرنا ويعيننا على خلاصنا مما نحن فيه».

ثم قام سيف الملوك وقلع من أبواب القصر نحو عشرة أبواب وكانت تلك الأبواب من الصندل والعودومساميره من الذهب والفضة.ثم أخذ حبالاً كانت هناك من الحرير والأبريسم وربطا الأبواب بعضها فى بعض وتعاون هوودولة خاتون إلى أن وصلا بها إلى البحر ورمياها فيه بعد أن صارت فلكًا وربطاه على الشاطئ. ثم رجعا إلى القصر وحملا الصحاف الذهب والفضة وكذلك الجوهر واليواقيت والمعادن النفيسة ونقلا جميع ما فى القصر من الذى خفّ حمله وغلا ثمنه ووضعاه فى ذلك الفلك وركبا فيه متوكلين على الله تعالى الذى من توكل عليه كفاه ولا يخيبه، وعملا لهما خشبتين على هيئة المجاديف ثم حلا الحبال وتركا الفلك يجرى بهما فى البحر.

ولم يزالا سائرين على تلك الحالة مدة أربعة أشهر حتى فرغ منهما الزاد واشتدّ عليهما الكرب وضاقت أنفسهما فطلبا من الله أن يرزقهما النجاة مما هما فيه. فبينما هما على تلك الحالة ليلة من الليالى اتفق أن سيف الملوك كان نائمًا ودولة خاتون يقظانة وإذا بالفلك مال إلى طرف البرّ وجاء إلى مينا وفى تلك المينا مراكب. فنظرت دولة خاتون المراكب وسمعت رجلاً يتحدث مع البحرية وكان الذى يتحدث رئيس الرؤساء وكبيرهم.

فلما سمعت دولة خاتون صوت الرئيس علمت أن هذا البرّ ميناء مدينة من المدن وأنهما وصلا إلى العمار ففرحت فرحًا شديدًا ونبّهت سيف الملوك من النوم وقالت له: «قم واسأل هذا الرئيس عن اسم هذه المدينة وعن هذه الميناء». فقام سيف الملوك وهو فرحان وقال له: يا أخى ما اسم هذه المدينة وما يقال لهذه المينا وما اسم ملكها؟» فقال له الرئيس: «يا ساقع الوجه يا بارد اللحية إذا كنت لا تعرف هذه الميناولا هذه المدينة فكيف جئت إلى هنا؟» فقال سيف الملوك: «أنا غريب وقد كنت فى سفينة من سفن التجار فانكسرت وغرقت بجميع ما فيها وطلعتُ على لوح فوصلت إلى هنا فسألتك والسؤال ما هو عيب». فقال الرئيس «هذه مدينة عمارية وهذه المينا تسمّى كمين البحرين».فلما سمعت دولة خاتون هذا الكلام فرحت فرحًا شديدًا وقالت: «الحمد لله».

فقال سيف الملوك : «ما الخبر؟» فقالت: «يا سيف الملوك أبشر بالفرج القريب فإن ملك هذه المدينة عمى أخو أبى واسمه عالى الملوك». ثم قالت له: «اسأله وقل له: هل سلطان هذه المدينة عالى الملوك طيّب؟» فسأله عن ذلك فقال له الرئيس وهو مغتاظ منه: «أنت تقول عمرى ما جئت إلى هنا وإنما أنا رجل غريب فمن عرفك باسم صاحب هذه المدينة؟» ففرحت دولة خاتون وعرفت الرئيس وكان اسمه معين الدين وهو من رؤساء أبيها وإنما خرج ليفتش

عليها حين فُقدت فلم يجدها ولم يزل دائرًا حتى وصل إلى مدينة عمها. ثم قالت لسيف الملوك: «قل له: يا رئيس معين الدين تعال كلّم سيدتك». فناداه سيف الملوك بما قالته له دولة خاتون.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما سمع الرئيس كلام سيف الملوك اغتاظ غيظًا شديدًا وقال له: «يا كلب من أنت وكيف عرفتني؟» ثم قال لبعض البحرية: «ناولوني عصًا من الشوح حتى أروح إلى هذا النحس وأكسر رأسه» فأخذ العصا وتوجه إلى سيف الملوك فرأى الفلك ورأى فيه شيئًا عجيبًا بهيجًا فاندهش عقله،ثم تأمل وحقق النظر فرأى دولة خاتون وهي جالسة مثل فلقة القمر. فقال: «ما الذي عندك؟» فقال له: «عندي بنت تسمّى دولة خاتون».

فلما سمع الرئيس هذا الكلام وقع مغشيا عليه حين سمع باسمها وعرف أنها سيدته وبنت ملكه، فلما أفاق ترك الفلك وما فيه وتوجه إلى المدينة وطلع قصر الملك فاستأذن عليه، فدخل الحاجب إلى الملك وقال: «إن الرئيس معين الدين جاء إليك ليبشرك». فأذن له بالدخول. فدخل على الملك وقبّل الأرض بين يديه وقال له:«يا ملك عندك البشارة فإن ابنة أخيك دولة خاتون وصلت إلى المدينة طيبة بخير وهي في الفلك وصحبتها شاب مثل القمر ليلة تمامه». فلما سمع الملك خبر بنت أخيه فرح وخلع على الرئيس خلعة سنية وأمر من ساعته أن يزينوا المدينة لسلامة بنت أخيه وأرسل إليها وأحضرها عنده هي وسيف الملوك وسلم عليهما وهنأهما بالسلامة. ثم إنه أرسل إلى أخيه ليعلمه بأن ابنته وجدت وهي عنده. ثم إنه لما وصل إليه الرسول تجهّز واجتمعت العساكر وسافر تاج الملوك أبو دولة خاتون حتى وصل إلى أخيه عالي الملوك واجتمع ببنته دولة خاتون وفرحوا فرحًا شديدًا. ثم إن تاج الملوك بعد أن قعد عند أخيه جمعة من الزمان، أخذ بنته وكذلك سيف الملوك وسافروا حتى وصلوا إلى سرنديب بلاد أبيهاواجتمعت دولة خاتون بأمها وفرحوا بسلامتها وأقاموا الأفراح، وكان ذلك يومًا عظيمًا لا يرى مثله، وأما الملك فإنه أكرم سيف الملوك وقال له: «يا سيف إنك فعلت معي ومع ابنتي هذا الخير كله وأنا لا قدر أن أكافئك عليه وما يكافئك إلا رب العالمين، ولكن أريد أن تقعد على التخت في موضعي وتحكم في بلاد الهند فإني قد وهبت لك ملكي وتختي وخزائني وخدمي وجميع ذلك يكون هبةً مني لك». فعند ذلك قام سيف الملوك وقبل الأرض بين يدي الملك وشكره وقال له: «يا ملك الزمان قد قبلت جميع ما وهبته لي وهو مردود مني إليك هديةً أيضًا، وأنا يا ملك الزمان ما أريد مملكة ولا سلطنة وما أريد إلا ان الله تعالى يبلغني مقصودي». فقال له الملك: «هذه خزائني بين يديك يا سيف الملوك مهما طلبته منها خذه ولا تشاورني فيه وجزاك الله عني كل خير». فقال سيف الملوك: «أعزّ الله الملك لا حظّ لي في الملك ولا في المال حتى أبلغ مرادي، ولكن غرضي الآن أن أتفرج في هذه المدينة وأنظر شوارعها وأسواقها». فأمر تاج الملوك أن يحضروا له فرسًا من جياد الخيل فأحضروا له فرسًا مسرجًا ملجمًا من جياد الخيل، فركبها وطلع إلى السوق وشق في شوارع المدينة. فبينما هو

ينظر يمينًا وشمالاً إذ رأى شابا ومعه قباء وهو ينادى عليه بخمسة عشر دينارًا، فتأمله فوجده يشبه أخاه ساعدًا، وفى نفس الأمر هو بعينه إلا أنه تغير لونه وحاله من طول الغربة ومشقات السفر فلم يعرفه. ثم قال لمن حوله: «هاتوا هذا الشاب لأستخبره». فأتوا به إليه. فقال: «خذوه وأوصلوه إلى القصر الذى أنا فيه وخلوه عندكم إلى أن أرجع من الفرجة». فظنوا أنه قال لهم: «خذوه وأوصلوه إلى السجن». وقالوا: «لعل هذا مملوك من مماليكه هرب منه». فأخذوه وأوصلوه إلى السجن وقيدوه وتركوه قاعدًا. فرجع سيف الملوك من الفرجة وطلع القصر ونسى أخاه ساعدًا ولم يذكره له أحد، فصار ساعد فى السجن. ولما خرجوا بالأسارى إلى أشغال العمارات أخذوا ساعدًا معهم وصار يشتغل مع الأسارى وكثر عليه الوسخ، ومكث ساعد على هذه الحالة مدة شهر وهو يتذكر فى أحواله ويقول فى نفسه: «ما سبب سجنى؟» وقد اشتغل سيف الملوك بما هو فيه من السرور وغيره. فاتفق أن سيف الملوك جلس يومًا من الأيام وتذكر أخاه ساعدًا فقال للمماليك الذين كانوا معه: «أين المملوك الذى كان معكم فى اليوم الفلانى؟» فقالوا: «أما قلت لنا أوصلوه إلى السجن؟» فقال سيف الملوك: «أنا ما قلت لكم هذا الكلام وإنما قلت لكم أوصلوه إلى القصر الذى أنا فيه». ثم إنه أرسل الحجاب إلى ساعد فأتوا به إليه وهو مقيَّد ثم فكوه من قيده وأوقفوه بين يدى سيف الملوك. فقال له: «يا شاب من أى البلاد أنت؟» فقال له: «أنا من مصر واسمى ساعد ابن الوزير فارس».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما سمع سيف الملوك كلامه نهض من فوق التخت وألقى نفسه عليه وتعلّق برقبته ومن فرحه صار يبكى بكاءً شديدًا وقال: «يا أخى ساعد الحمد لله حيث عشت ورأيتك فأنا أخوك سيف الملوك ابنُ الملك عاصم». فلما سمع ساعد كلام أخيه وعرفه تعانقا وتباكيا، فتعجب الحاضرون منهما. ثم أمر سيف الملوك أن يأخذوا ساعدًا ويذهبوا به إلى الحمام فذهبوا به إلى الحمام، وعند خروجه من الحمام ألبسوه ثيابًا فاخرة وأتوا به إلى مجلس سيف الملوك فأجلسه معه على التخت. ولما علم تاج الملوك فرح فرحًا شديدًا باجتماع سيف الملوك وأخيه ساعد وحضر وجلس الثلاثة يتحدثون فيما جرى لهم.

ثم إن ساعدًا قال: «يا أخى سيف الملوك لما غرق المركب وغرقت المماليك طلعت أنا وجماعة من المماليك على لوح خشب وسار بنا فى البحر مدة شهر كامل، ثم بعد ذلك رمتنا الريح بقدرة الله تعالى على جزيرة فطلعنا عليها ونحن جياع فدخلنا بين الأشجار وأكلنا من الفواكه، واشتغلنا بالأكل. فلم نشعر إلا وقد خرج علينا أقوام مثل العفاريت فوثبوا علينا وركبوا فوق أكتافنا وقالوا لنا: «امشوا بنا فأنتم صرتم حميرنا». فقلت للذى ركبنى: «ما أنت ولأى شىء ركبتنى؟» فلما سمع منى ذلك الكلام لفّ رجله على رقبتى حتى كدت أموت وضرب ظهرى برجله الأخرى فظننت أنه قطع ظهرى فوقعت فى الأرض على وجهى وما بقى عندى قوة بسبب الجوع والعطش، فحيث وقعت عرف أنى جائع فأخذ بيدى أتى بى إلى شجرة كثيرة الأثمار وهى من الكمثرى فقال لى: «كُل من هذه الشجرة حتى تشبع». فأكلت من تلك الشجرة

حتى شبعت وقمت أمشى بغير اختيارى. فما مشيت غير قليل حتى ولّىَ ذلك الشخص وركب فوق أكتافى. فصرت ساعة أمشى وساعة أجرى وساعة أهرول وهو يضحك ويقول: «عمرى ما رأيت حمارًا مثلك». فاتفق أننا جمعنا شيئًا من عناقيد العنب يومًا من الأيام ثم وضعناه فى حفرة بعد أن دُسناه بأرجلنا فصارت تلك الحفرة بركة كبيرة، فصبرنا مدّة وأتينا إلى تلك الحفرة فوجدنا الشمس قد ضربت ذلك الماء فصار خمرًا فبقينا نشرب منه ونسكر فتحمرُّ وجوهنا ونغنى ونرقص من نشوة السكر. فقالوا: «ما الذى يحمّر وجوهكم ويصيركم ترقصون وتغنّون؟» فقلنا لهم: «لا تسألوا عن هذا وما تريدون بالسؤال عنه؟» فقالوا: «أخبرونا حتى نعرف حقيقة الأمر» فقلنا لهم: «عصير عنب». فذهبوا بنا إلى واد لم نعرف له طولاً من عرض وفى ذلك الوادى كروم من العنب لا يُعرف أولها من آخرها وكل عنقود من المناقيدالتى فيها قدر عشرين رطلاً وكله دانى القطوف. فقالوا لنا: «اجمعوا من هذه». فجمعنا شيئًا كثيرًا ورأيت هناك حفرة كبيرة أكبر من الحوض الكبير فملأناها عنبًا ودسناه بأرجلنا وفعلناكما فعلنا أول مرة فصار خمرًا. وقلنا لهم: «هذا بلغ حدّ الاستواء ففى أى شىء تشربونه؟» فقالوا لنا: «إنه كان عندنا حمير مثلكم فأكلناهم وبقيت رؤوسهم فاسقونا فى جماجمهم.

فأسقيناهم فسكروا ثم رقدوا وكانوا نحو المائتين. فقلنا لبعضنا: «أما يكفى هؤلاء أن يركبونا حتى يأكلونا أيضًا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم، ولكن نحن نقوّى عليهم السكر ثم نقتلهم ونستريح منهم ونخلص من أيديهم». فنبّهناهم وصرنا نملأ لهم تلك الجماجم ونسقيهم فيقولون: «هذا مرّ». فقلنا لهم: «لأى شىء تقولون هذا مرّ؟ وكل من قال ذلك إن لم يشرب منه عشر مرات فإنه يموت من يومه». فخافوا من الموت وقالوا لنا: «اسقونا تمام العشر مرات» فلما شربوا بقية العشر مرات سكروا وزاد عليهم السكر وهمدت قوتهم فجررناهم من أيديهم. ثم إننا جمعنا حطب تلك الكروم شيئًا كثيرًا وجعلناه حولهم وفوقهم وأوقدنا النار فى الحطب ووقفنا من بعيد ننظر ما يكون منهم.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم قدمنا إليهم بعد أن خمدت النار فرأيناهم صاروا كوم رماد. فحمدنا الله تعالى الذى خلّصنا منهم وخرجنا من تلك الجزيرة وطلبنا ساحل البحر، ثم افترقنا عن بعضنا فأما أنا واثنان من المماليك فمشينا حتى وصلنا إلى غابة كبيرة الأشجار فاشتغلنا بالأكل وإذا بشخص طويل القامة طويل اللحية طويل الأذنين بعينين كأنهما مشعلان وقدامه غنم كثير يرعاها وعنده جماعة أخرى فى كيفيته. فلما رآنا استبشر وفرح ورحب بنا وقال: «أهلاً وسهلاً تعالوا عندى أذبح لكم شاة من هذه الأغنام وأشويها وأطعمكم» فقلنا له: «وأين موضعك؟» فقال: «قريب من هذا الجبل فاذهبوا إلى هذه الجهة حتى تروا مغارة فادخلوا فيها فإن فيها ضيوفًا كثيرة مثلكم فروحوا واقعدوا معهم حتى نجهز لكم الضيافة». فاعتقدنا أن كلامه حق فسرنا إلى تلك الجهة ودخلنا المغارة فرأينا الضيوف الذين فيها كلهم عميانًا. فحين دخلنا عليهم قال واحد منهم: «أنا مريض». وقال الآخر: «أنا ضعيف». فقلنا

لهم: «أى شىء هذا القول الذى تقولونه ما سبب ضعفكم ومرضكم؟» فقالوا لنا: «من أنتم؟» فقلنا لهم: «نحن ضيوف». فعند ذلك قالوا لنا: «ما الذى أوقعكم فى يد هذا الملعون، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، هذا غول يأكل بنى آدم وقد أعمانا ويريد أن يأكلنا». فقلنا لهم: «كيف أعماكم هذا الغول؟» فقالوا: «إنه فى هذا الوقت يعميكم مثلنا» فقلنا لنا: «إنه يأتيكم بأقداح من اللبن ويقول لكم: أنتم تعبتم من السفر فخذوا هذا اللبن واشربوا منه، فحين تشربون منه تصيرون مثلنا». فقلت فى نفسى: «ما بقى لنا خلاص إلا بحيلة». فحفرت حفرة فى الأرض وجلست عليها. ثم بعد ساعة دخل الملعون الغول عليناومعه أقداح من اللبن فناولنى قدحًا وناول من معى كل واحد قدحًا وقال لنا: «أنتم جئتم من البرّ عطاشًا فخذوا هذا اللبن واشربوا منه حتى أشوى لكم اللحم». فأما أنا فأخذت القدح وقرّبته من فمى ودلقته فى الحفرة وصحت: «آه قد راحت عينى وعميت». وأمسكت عينى بيدى وصرت أبكى وأصيح وهو يضحك ويقول: «لا تخف». وأما الاثنان رفيقاى فإنهما شربا اللبن فعميا. فقام الملعون من وقته وساعته وأغلق باب المغارة وقرّب منى وجسّ أضلاعى فوجدنى هزيلاً وما علىّ شىء من اللحم، فجسّ غيرى فرآه سمينًا ففرح. ثم ذبح ثلاثة أغنام وسلخها وجاء بأسياخ من الحديد ووضع فيها لحم الأغنام ووضعها على النار وشواه وقدّمه إلى رفيقىّ فأكلا. وبعد أن أكل هو أيضًا جاء بزقّ ملآن خمرًا وشربه ورقد على وجهه وشخر. فقلت فى نفسى: «إنه غرق فى النوم وكيف أقتله؟» ثم تذكرت الأسياخ فأخذت منها سيخين ووضعتهما فى النار وصبرت عليهما حتى صارا مثل الجمر. ثم قمت وشددت وسطى ونهضت على أقدامى وأخذت السيخين الحديد بيدى واقتربت من الملعون وأدخلتهما فى عينيه واتكأت عليهما بقوتى، فنهض من حلاوة الروح قائمًا على قدميه وأراد أن يمسكنى بعد أن عمى، فهربت منه داخل المغارة وهو يسعى خلفى. فقلت للعميان الذين عنده: «كيف العمل مع هذا الملعون؟» فقال واحد منهم: «يا ساعد انهض واصعد إلى هذه الطاقة تجد فيها سيفًا ثقيلا فخذه وتعال عندى حتى أقول لك كيف تعمل» فصعدت إلى الطاقة وأخذت السيف وأتيت عند ذلك الرجل. فقال: «خذه واضربه فى وسطه فإنه يموت فى الحال». فقمت وجريت خلفه وقد تعب من الجرى، فجاء إلى العميان ليقتلهم فجئت إليه وضربته بالسيف فى وسطه فصار نصفين. فصاح علىّ وقال لى: «يا رجل حيث أردت قتلى فاضربنى ثانية». فهممت أن أضربه ثانية. فقال الذى دلنى على السيف: «لا تضربه ضربة ثانية فإنه لا يموت بل يعيش ويهلكنا».

فامتثلت أمر ذلك الرجل ولم أضربه فمات الملعون. فقال لى الرجل: «قم افتح المغارة ودعنا نخرج منها لعلّ الله يساعدنا ونستريح من هذا الموضع». فقلت له: «ما بقى علينا ضرر بل نستريح ونذبح من هذه الأغنام ونشرب من هذا النبيذ لأن البرّ طويل». فأقمنا فى هذا المكان مدة شهرين ونحن نأكل من هذه الأغنام ومن هذه الفواكه، فاتفق أننا جلسنا على شاطئ البحر يومًا من الأيام فرأينا مركبًا كبيرًا يلوح فى البحر على بعد، فأشرنا إلى أهله وصحنا عليهم. فخافوا من ذلك الغول وكانوا يعرفون أن هذه الجزيرة فيها غول يأكل الآدميين فطلبوا الهروب. فأشرنا إليهم بفاضل عمائمنا وقربنا منهم وصرنا نصيح عليهم. فقال واحد من الركاب وكان حديد البصر: « يا معاشر الركاب إنى أرى هذه الأشباح آدميين مثلناوليس عليهم

زىّ الغيلان».

«ثم إنهم ساروا إلى جهتنا قليلاً إلى أن قربوا منا. فلما تحققوا أننا آدميون سلّموا علينا فرددنا السلام وبشرناهم بقتل الغول الملعون فشكرونا، ثم إننا تزودنا من الجزيرة بشىء من الفواكه التى فيها. ثم نزلنا المركب وسار بنا فى ريح طيبة مدة ثلاثة أيام وبعد ذلك ثارت علينا ريح وازداد ظلام الجو فما كان غير ساعة واحدة حتى جذبت الريح المركب إلى جبل فانكسر وتمزقت ألواحه. فقدر الله العظيم أنى تعلقت بلوح منه وركبته وسار بى يومين. وقد أتت ريح طيبة فصرت فرق اللوح أقذف برجلى ساعة زمانية حتى أوصلنى الله تعالى إلى البرّ بالسلامة. فطلعت إلى هذه المدينة وقد صرت غريبًا فريدًا وحيدًا لا أدرى ماأصنع، وقد أضرّ بى الجوع وحصل لى الجهد الأكبر فأتيت إلى سوق المدينة وقد تواريت وخلعت هذا القباء وقلت فى نفسى: «أبيعه وآكل بثمنه حتى يقضى الله ما هو قاض. ثم إنى يا أخى أخذت القباء فى يدى والناس ينظرونه ويتزايدون فى ثمنه حتى أتيت أنت ونظرتنى وأمرت بى إلى القصر فأخذنى الغلمان وسجنونى».

«ثم إنك تذكرتنى بعد هذه المدة فأحضرتنى عندك، وقد أخبرتك بما جرى لى والحمد لله على الاجتماع». فلما سمع سيف الملوك وتاج الملوك أبو دولة خاتون حديث الوزير ساعد تعجبا من ذلك عجبًا شديدًا، وقد أعدّ تاج الملوك أبو دولة خاتون مكانًا مليحًا لسيف الملوك وأخيه ساعد. وصارت دولة خاتون تأتى سيف الملوك وتشكره وتتحدث معه على إحسانه. فقال الوزير ساعد: «أيتها الملكة المراد منك المساعدة على بلوغ غرضه». فقالت: «نعم أسعى فى مراده حتى يبلغ مراده إن شاء الله تعالى». ثم التفتت إلى سيف الملوك وقالت له «طب نفسًا وقرّ عينًا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : هذا ما كان من أمر سيف الملوك ووزيره ساعد. وأما ما كان من الملكة بديعة الجمال فإنها وصلت إليها الأخبار برجوع أختها دولة خاتون إلى أبيها ومملكتها فقالت: «لابدّ من زيارتها والسلام عليها فى زينة وحلىّ وحلل». فتوجهت إليها فلما قربت من مكانها قابلتها الملكة دولة خاتون وسلّمت عليها وعانقتها وقبّلتها بين عينيها وهنأتها الملكة بديعة الجمال بالسلامة. ثم جلستا تتحدثان. فقالت بديعة الجمال لدولة خاتون: «أى شىء جرى لك فى الغربة؟» فقالت دولة خاتون: «يا أختى لا تسألينى عما جرى لى من الأمور يا ما تقاسى الخلائق من الشدائد». فقالت لها بديعة الجمال: «وكيف ذلك؟» قالت:«يا أختى إنى كنت فى القصر المشيد وقد احتوى على فيه ابن الملك الأزرق». ثم حدثتها ببقية الحديث من أوله إلى آخره وحديث سيف الملوك وما جرى له فى القصر وما قاسى من الشدائد والأهوال حتى وصل إلى القصر المشيد وكيف قتل ابن الملك الأزرق وكيف قلع الأبواب وجعلها فلكًا وعمل له مجاديف وكيف دخل إلى ههنا.

فتعجبت بديعة الجمال وقالت: «والله يا أختى إن هذا من أغرب العجائب». ثم قالت

دولة خاتون: «أريد أن أخبرك بأصل حكايته لكن يمنعنى الحياء من ذلك». فقالت لها بديعة الجمال: «ما سبب الحياء وأنت أختى ورفيقتى وبينى وبينك شىء كثير وأنا أعرف أنك ما تطلبين لى إلا الخير فمن أى شىء تستحين منى فأخبرينى بما عندك ولا تستحى منى ولا تُخفى عنى شيئًا من ذلك؟» فقالت لها دولة خاتون: «إنه نظر صورتك فى القباء الذى أرسله أبوك إلى سليمان بن داود عليهما السلام فلم يفتحه ولم ينظر ما فيه بل أرسله إلى الملك عاصم بن صفوان ملك مصر فى جملة الهدايا والتحف التى أرسلها إليه والملك عاصم أعطاها لولده سيف الملوك قبل أن يفتحه. فلما أخذه سيف الملوك فتحه فرأى صورتك فخرج فى طلبك وقاسى هذه الشدائد من أجلك».

فقالت بديعة الجمال وقد احمر وجهها وخجلت من دولة خاتون: «إن هذا شىء لا يكون أبدًا فإنّ الإنس لا يتفقون مع الجان». فصارت دولة خاتون تصف لها سيف الملوك وحسن صورته وسيرته وفروسيته ولم تزل تثنى عليه وتذكر لها صفاته حتى قالت: «يا أختى لأجل الله تعالى ولأجلى تحدّثى معه ولو كلمة واحدة. فقالت بديعة الجمال: «إن هذا الكلام الذى تقولينه لا أسمعه ولا أطيعك فيه». وكأنها لم تسمع منه شيئًا ولم يقع فى قلبها شىء من محبة سيف الملوك وحسن صورته وسيرته وفروسيته.

ثم إن دولة خاتون صارت تتضرّع لها وتقبّل رجليها وتقول: «يا بديعة الجمال بحق اللبن الذى رضعناه أنا وأنت وبحق النقش الذى على خاتم سليمان عليه السلام أن تسمعى كلامى هذا فإنى تكفلت له فى القصر المشيد بأنى أريه وجهك، فبالله عليك، أن تريه صورتك مرة واحدة لأجل خاطرى وأنت الأخرى تنظرينه». وصارت تبكى لها وتتضرّع إليها وتقبّل يديها ورجليها حتى رضيت وقالت: «لأجلك أريه وجهى مرة واحدة». فعند ذلك طاب قلب دولة خاتون وقبّلت يديها ورجليها وخرجت وجاءت إلى القصر الأكبر الذى فى البستان وأمرت الجوارى أن يفرشنه وينصبن فيه تختًا من الذهب ويجعلن أوانى الشراب مصفوفة، ثم إن دولة خاتون قامت ودخلت على سيف الملوك وساعد وزيره وهما جالسان فى مكانهما وبشرت سيف الملوك ببلوغ أربه وحصول مراده وقالت له: «توجّه إلى البستان أنت وأخوك وادخلا القصر واختفيا عن أعين الناس بحيث لا ينظركما أحد ممن فى القصر حتى أجىء أنا وبديعة الجمال».

فقام سيف الملوك وساعد وتوجها إلى المكان الذى دلّتهما عليه دولة خاتون، فلما دخلا رأيا تختًا من الذهب منصوبًا وعليه الوسائد وهناك الطعام والشراب. فجلسا ساعة من الزمان. ثم إن سيف الملوك ضاق صدره وهاج عليه الشوق فقام ومشى حتى خرج من دهليز القصر، فتبعه أخوه ساعد. فقال له: «يا أخى اقعد أنت مكانك ولا تتبعنى حتى أجىء إليك» فقعد ساعد ونزل سيف الملوك ودخل البستان وقد هزه الشوق وغلب عليه الوجد. ثم إن ساعدًا استبطأه فخرج من القصر يفتش عليه فى البستان فرآه ماشيًا فى البستان متحيرًا وهو ينشد هذين البيتين :

والله والله العظيم وحقّ مَن ... يتلو من القرآن سورة فاطر

ماجال طرفى فى محاسن من أرى ... إلا وشخصك يا بديع مسامرى

ثم اجتمع سيف الملوك وساعد وصارا يتفرّجان فى البستان ويأكلان من الفواكه. هذا ما كان من أمر ساعد وسيف الملوك. وأما ما كان من أمر دولة خاتون فإنها لما أتت هى وبديعة الجمال إلى القصر دخلتا فيه بعد أن أتحفه الخدّام بأنواع الزينة وفعلوا فيه جميع ما أمرتهم به دولة خاتون وقد أعدّوا لبديعة الجمال تختًا من الذهب لتجلس عليه. فلما رأت بديعة الجمال ذلك التخت جلست عليه وكان بجانبها طاقة تشرف على البستان، وقد أتت الخدّام بأنواع الطعام الفاخر فأكلت بديعة الجمال هى ودولة خاتون وصارت دولة خاتون تلقمها حتى اكتفت. ثم دعت بأنواع الحلويات فأحضرها الخدّام وأكلتا منها بحسب الكفاية وغسلتا أيديهما. ثم إنها هيأت الشراب وآلات المدام وصفت الأباريق والكاسات، وصارت دولة خاتون تملأ وتسقى بديعة الجمال ثم تملأ الكأس وتشرب هى. ثم إن بديعة الجمال نظرت من الطاقة التى بجانبها إلى ذلك البستان ورأت ما فيه من الأثمار والأغصان، فلاحت منها التفاتة إلى جهة سيف الملوك فرأته وهو دائر فى البستان وخلفه الوزير ساعد، وسمعت سيف الملوك ينشد الأشعار وهو يذرى الدموع الغزار.

فلما نظرته أعقبتها تلك النظرة ألف حسرة، والتفتت إلى دولة خاتون وقد لعب الخمر بأعطافها وقالت لها: «يا أختى من هذا الشاب الذى أراه فى البستان وهو حائر ولهان كئيب لهفان». فقالت لها دولة خاتون: «هل تأذنين فى حضوره عندنا حتى نراه؟» قالت لها: «إن أمكنك أن تحضريه فأحضريه». فعند ذلك نادته دولة خاتون وقالت له: «يا ابن الملك اصعد إلينا وأقدم بحسنك وجمالك علينا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فعرف سيف الملوك صوت دولة خاتون فصعد إلى القصر، فلما وقع نظره على بديعة الجمال خرّ مغشيا عليه، فرشت عليه دولة خاتون قليلاً من ماء الورد فأفاق من غشيته. ثم نهض وقبّل الأرض قدّام بديعة الجمال فبهتت من حسنه وجماله. فقالت دولة خاتون : «اعلمى أيتها الملكة إن هذا سيف الملوك الذى كانت نجاتى بقضاء الله تعالى على يديه وهو الذى جرى عليه كامل المشقّات من أجلك، وقصدى أن تشمليه بنظرك». فقالت بديعة الجمال وقد ضحكت: «ومَن يفى بالعهود حتى يفى بها هذا الشاب لأن الإنس ليس لهم مودّة». فقال سيف الملوك: «أيتها الملكة إن عدم الوفاء لا يكون عندى أبدًا وما كل الخلق سواء».
ثم إنه بكى بين يديها وأنشد هذه الأبيات :

سلام عليكم من محب متيّم ... وكل كريم للكريم جميلُ
سلام عليكم لا عدمت خيالكم ... ولم يخلُ منكم مجلس ومقيلُ
أغار عليكم لست أذكر اسمكم ... وكل حبيب للحبيب يميلُ
فلا تقطعوا حبلكم من محبكم ... فإن الأسى يُرديه وهو عليلُ
أراعى النجوم الزهر وهى تروعنى ... وليلى من فرط الغرام يطولُ

ولم يبق لى صبرٌ ولا لى حيلة فأىّ كلام فى السؤال أقولُ
عليكم سلام الله فى ساحة الجفا سلامٌ من الولهان وهو حمولُ

فلما فرغ من شعره بكى بكاءً شديدًا. فقالت له بديعة الجمال: «يا ابن الملك إنى أخاف أن أميل إليك بالكلية فلا أجد منك ألفة ولا محبة فإن الإنس ربما كان خيرهم قليلاً وغدرهم جليلاً، واعلم أن السيد سليمان بن داود عليهما السلام أخذ بلقيس بالمحبة فلما رأى غيرها أحسن منها أعرض عنها». فقال لها سيف الملوك: يا عينى ويا روحى ما خلق الله كل الإنس سواء، وأنا إن شاء الله أفى بالعهد وأموت تحت أقدامك وسوف تبصرين ما أفعل موافقًا لما أقول، والله على ما أقول وكيل». فقالت له بديعة الجمال: «اقعد واطمئن واحلف لى على قدر دينك ونتعاهد على أننا لا نخون بعضنا ومن خان صاحبه ينتقم الله تعالى منه». فلما سمع سيف الملوك منها ذلك الكلام قعد ووضع كل منهما يده فى يد صاحبه وتحالفا أن كلا منهما لا يختار على صاحبه أحدًا لا من الإنس ولا من الجن ثم إنهما تعانقا وتباكيا من شدة فرحهما، وبعد أن تحالفت بديعة الجمال هى وسيف الملوك قام سيف الملوك يمشى وقامت بديعة الجمال تمشى أيضًا ومعها جارية حاملة شيئًا من الأكل وحاملة أيضاً قنانية ملآنة خمراً، ثم قعدت بديعة الجمال ووضعت الجارية بين يديها الأكل والمدام فلم تمكثا غير ساعة إلا وسيف الملوك قد أقبل فلاقته بالسلام وقعدا يأكلان ويشربان ساعة فقالت بديعة الجمال: « يا ابن الملك إذا دخلت بستان آرم ترى خيمة كبيرة منصوبة وهى من أطلس أحمر وبطانتها من حرير أخضر فادخل الخيمة وقوِّ قلبك فإنك ترى عجوزًا جالسة على تخت من الذهب مرصع بالدر والجواهر.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : «فإذا دخلت فسلِّم عليها بأدب واحتشام وانظر إلى جهة التخت تجد تحته نعالاً منسوجة بقضبان الذهب مزركشة بالمعادن، فخذ تلك النعال وقبِّلها وضعها على رأسك ثم ضعها تحت إبطك اليمين وقف قدام العجوز وأنت ساكت مطرق الرأس، فإذا سألتك وقالت لك: من أين جئت وكيف وصلت إلى هاهنا ومن عرَّفك هذا المكان ومن شأن أى شيء أخذت هذه النعال؟ فاسكت أنت حتى تدخل جاريتى هذه وتتحدث معها وتستعطفها عليك وتسترضيها بالكلام لعل الله يعطف قلبها وتجيبك إلى ما تريد».

ثم إنها نادت تلك الجارية وكان اسمها مرجانة وقالت لها: «بحقِّ محبتى لك أن تقضى هذه الحاجة فى هذا اليوم ولا تتهاونى فى قضائها، وإن قضيتها فى هذا اليوم فأنت حرَّة لوجه الله تعالى ولك الإكرام ولا يكون عندى أعزّ منك ولا أظهر سرّى إلا عليك». فقالت لها: «يا سيدتى ونور عينى قولى لى ما حاجتك حتى أقضيها لك على رأسى وعينى». فقالت لها: «أن تحملى هذا الإنسى على أكتافك وتوصليه إلى بستان آرم عند جدتى أمّ أبى وتوصليه إلى خيمتها وتحتفظى عليه، وإذا دخلت الخيمة أنت وإياه ورأيته أخذ النعال وقبّلها وقالت له: «من أين أنت ومن أى طريق أتيت ومن أوصلك إلى هذا المكان ومن شأن أى شيء أخذت هذه النعال

وأى شىء حاجتك حتى أقضيها لك؟» فعند ذلك ادخلى بسرعة وسلمى عليها وقولى لها: «يا سيدتى أنا جئت به هنا وهو ابن ملك مصر وهو الذى راح إلى القصر المشيد وقتل ابن الملك الأزرق وخلص الملكة دولة خاتون وأوصلها إلى أبيها سالمة، وقد أرسلوه معى وأوصلته إليك لأجل أن يخبرك ويبشرك بسلامتها فتنعمى عليه». ثم بعد ذلك قولى لها: «بالله عليكِ أما هذا الشابّ مليح يا سيدتى؟» فتقول لك: «نعم».

« فعند ذلك قولى لها: «يا سيدتى إنه كامل العرض والمروءة والشجاعة وهو صاحب مصر وملكها وقد حوى سائر الخصال الحميدة. فإذا قالت لك: «أى شىء حاجته؟» فقولى لها: «إن سيدتى تسلّم عليك وتقول لك: إلى متى وهى قاعدة فى البيت عازبة بلا زواج فقد طالت عليها المدّة فما مرادكم بعدم زواجها ولأى شىء ما تزوجينها فى حياتك وحياة أمها مثل البنات؟ فإذا قالت لك: كيف نعمل فى زواجها فإن كانت هى تعرف أحدًا أو وقع خاطرها على أحد تخبرنا عنه ونحن نعمل لها على مرادها على غاية ما يمكن؟ فعند ذلك قولى لها: يا سيدتى إن بنتك تقول لك: أنتم كنتم تريدون تزويجى بسليمان عليه السلام وصورتم له صورتى فى القباء. فلم يكن له نصيب فىّ وقد أرسل القباء إلى ملك مصر فأعطاه لولده فرأى صورتى منقوشة فيه فرغب فىّ وترك ملك أبيه وأمه وأعرض عن الدنيا وما فيها وخرج هائمًا على وجهه وقاسى أكبر الشدائد من أجلى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد: ثم إن الجارية حملت سيف الملوك على أكتافها وقالت له: «غمّض عينيك». ففعل فطارت به إلى الجوّ. ثم بعد ساعة قالت له: «يا ابن الملك افتح عينيك». ففتح عينيه فنظر البستان وهو بستان آرم، فقالت له الجارية مرجانة: «ادخل يا سيف الملوك هذه الخيمة». فذكر الله ودخل ومدّ عينيه بالنظر فى البستان فرأى العجوز قاعدة على التخت فى خدمتها الجوارى، فقرب منها بأدب واحتشام وأخذ النعال وقبّلها، وفعل ما وصفته له بديعة الجمال. فقالت له العجوز: «من أنت ومن أين أقبلت ومن أى البلاد أنت ومن جاء بك إلى هذا المكان ولأى شىء أخذت هذه النعال وقبّلتها ومتى قلت لى على حاجة أقضها لك؟ فعند ذلك دخلت الجارية مرجانة وسلمت عليها بأدب واحتشام ثم تحدثت بحديث بديعة الجمال الذى قالته لها. فلما سمعت العجوز هذا الكلام صرخت عليها واغتاظت منها وقالت: «من أين يحصل بين الإنس والجن اتفاق؟».

فقال سيف الملوك: «أنا أتفق معك وأكون غلامك وأموت على حبك وأحفظ عهدك ولا أنظر غيرك وسوف تنظرين صدقى وعدم كذبى وحسن مروءتى معك إن شاء الله تعالى» ثم إن العجوز تفكرت ساعة زمانية ورأسها مطرق، ثم رفعت رأسها وقالت: «أيها الشاب المليح هل تحفظ العهد والميثاق؟» فقال لها: «نعم وحقّ من رفع السماء وبسط الأرض على الماء إنى أحفظ العهد». فعند ذلك قالت العجوز: «أنا أقضى لك حاجتك إن شاء الله تعالى ولكن رُح فى هذه الساعة إلى البستان وتفرج فيه وكُل من الفواكه التى لا نظير لها لا فى الدنيا مثلها حتى

أبعث إلى ولدى شهيال فيحضر وأتحدث معه فى شأن ذلك ولا يكون إلا خيرًا إن شاء الله تعالى لأنه لا يخالفنى ولا يخرج من أمرى وأزوّجك بنته بديعة الجمال فطب نفسًا فإنها تكون زوجة لك».

فلما سمع سيف الملوك منها ذلك الكلام شكرها وقبّل يديها ورجليها وخرج من عندها متوجهًا إلى البستان، وأما العجوز فإنها التفتت إلى تلك الجارية وقالت لها: «اطلعى فتشى على ولدى شهيال وانظريه فى أى الأقطار والأماكن وأحضريه عندى». فراحت الجارية وفتشت على الملك شهيال فاجتمعت به وأحضرته عند أمه.

هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر سيف الملوك فإنه صار يتفرّج فى البستان وإذا بخمسة من الجان وهم قوم الملك الأزرق قد نظروه فقالوا: «من أين هذا ومن جاء به إلى هذا المكان ولعلّه الذى قتل ابن الملك الأزرق؟» ثم إنهم قالوا لبعضهم: «إنّا نحتال عليه بحيلة ونسأله ونستخبر منه». ثم صاروا يتمشون قليلاً قليلاً إلى أن وصلوا إلى سيف الملوك فى طرف البستان وقعدوا عنده وقالوا له: «أيها الشاب المليح ما قصّرت فى قتل ابن الملك الأزرق وخلاص دولة خاتون منه فإنه كان كلبًا غدارًا قد مكر بها ولولا أن الله قيّضك لها ما خلصت أبدًا، وكيف قتلته؟» فنظر إليهم سيف الملوك وقال لهم «قتلته بهذا الخاتم الذى فى أصبعى». فثبت عندهم أنه هو الذى قتله فقبض اثنان على يديه واثنان على رجليه والآخر قبض على فمه حتى لا يصيح فيسمعه قوم الملك شهيال فينقذوه من أيديهم. ثم إنهم حملوه وطاروا به ولم يزالوا طائرين حتى نزلوا عند ملكهم وأوقفوه بين يديه وقالوا: «يا ملك الزمان قد جئناك بقاتل ولدك». فقال: «وأين هو؟» قالوا: «هذا». فقال الملك الأزرق: «هل قتلت ولدى وحشاشة كبدى ونور بصرى بغير حقّ وبغير ذنب فعله معك؟». فقال له سيف الملوك: «نعم أنا قتلته ولكن لظلمه وعدوانه لأنه كان يأخذ أولاد الناس ويذهب بهم إلى البئر المعطلة والقصر المشيد ويفرق بينهم وبين أهليهم، وقتلته بهذا الخاتم الذى فى أصبعى وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار». فثبت عند الملك الأزرق أن هذا هو قاتل ولده بلا شك، فعند ذلك دعا بوزيره قال له: «هذا قاتل ولدى لا محالة من غير شك فماذا تشير على فى أمره؟ فهل أقتله أقبح قتلة أو أعذبه أصعب عذاب أو كيف أعمل؟» فقال الوزير الأكبر: «اقطعوا منه عضوًا». وقال آخر: «اضربوه كل يوم ضربًا شديدًا». وقال آخر: «اقطعوا وسطه». وقال آخر: «اقطعوا أصابعه جميعًا». وقال آخر: «اصلبوه» . وصار كل واحد منهم يتكلم بحسب رأيه.

وكان عند الملك الأزرق أمير كبير له خبرة بالأمور ومعرفة بأحوال الدهور فقال له: «يا ملك الزمان إنى أقول لك كلامًا والرأى لك فى سماع ما أشير به عليك». وكان هو مشير مملكته ورئيس دولته وكان الملك يسمع كلامه ويعمل برأيه ولا يخالفه فى شىء. فقام على قدميه وقبّل الأرض بين يديه وقال له: «يا ملك الزمان إن أشرتُ عليك برأى فى شأن هذا الأمر هل تتبعه وتعطينى الأمان؟» فقال له الملك: «بيّن رأيك وعليك الأمان». فقال: «يا ملك إن أنت قتلت هذا ولم تقبل نصحى ولم تتعقل كلامى فإن قتله فى هذا الوقت غير صواب لأنه تحت يدك وفى حماك وأسيرك ومتى طلبته وجدته وتفعل به ما تريد فاصبر يا ملك الزمان

فإن هذا قد دخل بستان آرم وتزوّج بديعة الجمال بنت الملك شهيال وصار منهم واحدًا، وجماعتك قبضوا عليه وأتوا به إليك وما أخفى حاله منهم ولا منك، فإن قتلته فإن الملك شهيال يطلب ثأره منك ويعاديك ويأتيك بالعسكر من أجل بنته ولا مقدرة لك على عسكره». فسمع منه ذلك وأمر بسجنه.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : هذا ما جرى لسيف الملوك وأما ما كان من أمر السيدة جدّة بديعة الجمال فإنها لما اجتمعت بولدها شهيال أرسلت الجارية تفتش على سيف الملوك فلم تجده فرجعت إلى سيدتها وقالت: «ما وجدته فى البستان». فأرسلت إلى عملة البستان وسألتهم عن سيف الملوك. فقالوا: «نحن رأيناه قاعدًا تحت شجرة وإذا بخمسة أشخاص من جماعة الملك الأزرق نزلوا عنده وتحدثوا معه، ثم إنهم حملوه وسدوا فمه وطاروا به وراحوا». فلما سمعت السيدة جدّة بديعة الجمال ذلك الكلام من الجارية لم يهن عليها واغتاظت غيظًا شديدًا وقامت على أقدامها وقالت لابنها الملك شهيال: «كيف تكون ملكًا وتجىء جماعة الملك أزرق إلى بستاننا ويأخذون ضيفنا ويروحون به سالمين وأنت بالحياة؟» وصارت أمه تحرضه فقال: إنه قتل ابن الملك الأزرق وهو جنّى فرماه الله فى يده فكيف أذهب إليه وأعاديه من أجل الإنسى؟» فقالت له أمه: «اذهب إليه واطلب منه ضيفنا، فإن كان بالحياة وسلّمه إليك فخذه وتعال، وإن كان قتله فامسك الملك الأزرق بالحياة هو وأولاده وحريمه وكل من يلوذ به من أتباعه وائتنى بهم بالحياة حتى أذبحهم بيدى،وإن لم تفعل ما أمرتك به لا أجعلك فى حلّ من لبنى والتربية التى ربيتها لك تكون حرامًا».

فعند ذلك قام الملك شهيال وأمر عسكره بالخروج وتوجّه إليه كرامةً لأمه ورعاية لخاطرها وخواطر أحبابها ولأجل شىء كان مقدرًا فى الأزل. ثم إن شهيال سافر بعسكره ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى الملك الأزرق هو وعسكره ومسكوا أولاده كبارًا وصغارًا وأرباب دولته وأكابرها وربطوهم وأحضروهم بين يدى الملك شهيال. فقال له: «يا أزرق أين سيف الملوك الإنسى الذى هو ضيفى؟» فقال له الملك الأزرق: «يا شهيال أنت جنى وأنا جنى وهل لأجل إنسى قتل ولدى تفعل هذه الفعال وهو قاتل ولدى وحشاشة كبدى وراحة روحى، وكيف عملت هذه الأعمال كلها وأهرقت دم كذا وكذا ألف جنى؟» فقال له: «خلّ عنك هذا الكلام فإن كان هو بالحياة فأحضروه وأنا أعتقك وأعتق كل من قبضت عليه من أولادك وإن كنت قتلته فأنا أذبحك أنت وأولادك». فقال له الملك الأزرق: «يا ملك هل هذا أعزّ عليك من ولدى؟» فقال له الملك شهيال: «إن ولدك كان ظالمًا لكونه يخطف أولاد الناس وبنات الملوك ويضعهم فى القصر المشيد والبئر المعطلة» فقال له الملك الأزرق: «إنه عندى، ولكن أصلح بيننا وبينه». فأصلح بينهم وخلع عليهم وكتب بين الملك الأزرق وبين سيف الملوك حجة من جهة قتل ولده. وتسلّمه الملك شهيال وضيفهم ضيافة مليحة وأقام الملك الأزرق عنده هو وعسكره ثلاثة أيام، ثم أخذ سيف الملوك وأتى به إلى أمه ففرحت به فرحًا شديدًا . وتعجب شهيال من حسن سيف

الملوك وكماله وجماله، وحكى له سيف الملوك حكايته من أولها إلى آخرها وما وقع له مع بديعة الجمال. ثم إن الملك شهيال قال: «يا أمى حيث رضيت بذلك فسمعًا وطاعة لكل أمر فيه رضاؤك، فخذيه وروحى به إلى سرنديب واعملى هناك فرحًا عظيمًا فإنه شاب مليح وقاسى الاهوال من أجلها. ثم إنها سافرت هى وجواريها إلى أن وصلن إلى سرنديب ودخلن البستان الذى لأم دولة خاتون ونظرته بديعة الجمال بعد أن مضين إلى الخيمة واجتمعن وحدثتهن العجوز بما جرى له من الملك الأزرق وكيف كان أشرف على الموت فى سجن الملك الأزرق، وليس فى الإعادة إفادة.

ثم إن الملك تاج الملوك أبا دولة خاتون جمع أكابر دولته وعقد عقد بديعة الجمال على سيف الملوك وخلع الخلع السنية ووضع الأطعمة للناس، فعند ذلك قام سيف الملوك وقبّل الأرض بين يدى تاج الملوك وقال له: «يا ملك العفو أنا أطلب منك حاجة وأخاف أن تردّنى عنها خائبًا». فقال له تاج الملوك: «والله لو طلبت روحى ما منعتها عنك لما فعلت من الجميل». فقال سيف الملوك: «أريد أن تزوّج الملكة دولة خاتون بأخى ساعد حتى نصير كلنا غلمانك». فقال تاج الملوك: «سمعًا وطاعةً». ثم إنه جمع أكابر دولته ثانيًا وعقد عقد بنته دولة خاتون على ساعد وكتب القضاة الكتاب. ولما خلصوا من كتب الكتاب نثروا الذهب والفضة وأمر أن يزينوا المدينة ثم أقاموا الفرح.

ولم يزل سيف الملوك مع بديعة الجمال أربعين يومًا. فقالت له: فى بعض الأيام: «يا ابن الملك هل بقى فى قلبك حسرة على شىء؟» فقال سيف الملوك: «حاش لله قضيت حاجتى وما بقى فى قلبى حسرة أبدًا، ولكنى قصدى الاجتماع بأبى وأمى بأرض مصر وأنظر هل استمرا طيبين أم لا؟» فأمرت جماعة من خدمها أن يوصلوه هو وساعدًا إلى أرض مصر فأوصلوهما إلى أهلهما بأرض مصر، واجتمع سيف الملوك بأبيه وأمه وكذلك ساعدًا وقعدوا عندهم جمعة، ثم إن كلا منهما ودّع أباه وأمه وسارا إلى مدينة سرنديب. وصارا كلما اشتاقا إلى أهلهما يروحان ويرجعان. وعاش سيف الملوك هو وبديعة الجمال فى أطيب عيش وأهناه. وكذلك ساعد مع دولة خاتون، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات. فسبحان الحى الذى لا يموت. وهو أوّل بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء. جل جلال الله تعالى.

حكاية حسن الصائغ البصرى

ومما يُحكى أيضًا أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجلٌ تاجر من التجار مقيم بأرض البصرة. وكان ذلك التاجر له ولدان ذكران وكان عنده مال كثير، فقدّر الله السميع أن التاجر توفى إلى رحمة الله تعالى وترك تلك الأموال فأخذ ولداه فى تجهيزه ودفنه. وبعد ذلك اقتسما الأموال بينهما بالسوية وأخذ كل واحد منهما قسمه. وفتحا لهما دكانين أحدهما نحاس والثانى صائغ. فبينما الصائغ جالس فى دكانه يومًا من الأيام وإذا برجل أعجمى ماش فى السوق بين الناس حتى مرّ على دكان الولد الصائغ. فنظر إلى صنعته وتأملها بمعرفته فأعجبته. وكان اسم الولد الصائغ حسن، فهزّ الأعجمى رأسه وقال: والله إنك صائغ مليح. وصار ينظر إلى صناعته وهو ينظر إلى كتاب عتيق كان بيده والناس مشغولون بحسنه وجماله وقدّه واعتداله.

فلما كان وقت العصر خلت الدكان من الناس . فعند ذلك أقبل الرجل الأعجمى عليه وقال له: «يا ولدى أنت شاب مليح وما لك اب وأنا ما لى ابن قد عرفت صنعة ما فى الدنيا أحسن منها. وقد سألنى خلق كثير من الناس فى شأن تعليمها فما رضيت أن أعلمها أحدًا منهم، ولكن قد سمحت نفسى أن أعلمك إياها وأجعلك ولدى وأجعل بينك وبين الفقر حجابًا وتستريح من هذه الصنعة والتعب فى المطرقة والفحم والنار». فقال له حسن: «يا سيدى ومتى تعلّمنى؟» فقال: «فى غد آتيك وأصنع لك من النحاس ذهبًا خالصًا بحضرتك». ففرح حسن وودّع الأعجمى وسار إلى والدته فدخل وسلّم عليها وأكل معها وأخبرها بقصة الأعجمى وهو مدهوش بلا وعى ولا عقل، فقالت له أمه: «مابالك ياولدى احذر أن تسمع كلام الناس خصوصًا الأعجام فلا تطاوعهم فى شىء فإن هؤلاء غشاشون يعلمون صنعة الكيمياء وينصبون على الناس ويأخذون أموالهم ويأكلونها بالباطل». فقال لها: «يا أمى نحن ناس فقراء ما عندنا شىء يطمع فيه حتى ينصب علينا، وإن هذا الأعجمى شيخ صالح عليه أثر الصلاح وإنما هو قد حننه الله علىّ».

فسكتت أمه على غيظ. وصار ولدها مشغول القلب ولم يأخذه نوم فى تلك الليلة من شدة فرحه بقول الأعجمى له. فلما أصبح الصباح قام وأخذ المفاتيح وفتح الدكان وإذا بالأعجمى قد أقبل عليه، فقام له وأراد حسن أن يقبل يديه، فامتنع ولم يرضَ بذلك وقال: «يا حسن عمر البودقة وركّب الكير» ففعل ما أمره به الأعجمى وأوقد الفحم. فقال له الأعجمى: «يا ولدى هل عندك نحاس؟» قال: «عندى طبق مكسور». فأمره أن يتكئ عليه بالكار ويقطعه قطعًا صغارًا. ففعل كما قال له وقطعه قطعًا صغارًا ورماه فى البودقة ونفخ عليه بالكير حتى صار ماءً.

فمدّ الأعجمى يده إلى عمامته وأخرج منها ورقة ملفوفة وفتحها وذرّ منها شيئًا فى البودقة مقدار نصف درهم وذلك الشىء يشبه الكحل الأصفر، وأمر حسنًا أن ينفخ عليه بالكير ففعل مثل ما أمره حتى صار سبيكة ذهب. فلما نظر حسن إلى ذلك اندهش وتحير عقله من الفرح الذى حصل له. وأخذ السبيكة وقلبها وأخذ المبرد وبردها فرآها ذهبًا خالصًا من عال العالى. فطار عقله واندهش من شدة الفرح. ثم انحنى على يد الأعجمى ليقبلها فمنعه وقال له: «خذ هذه السبيكة وانزل بها إلى السوق وبعها واقبض ثمنها سريعًا ولا تتكلم». فنزل حسن إلى السوق وأعطى السبيكة على الدلال فأخذها منه وحكّها فوجدها ذهبا خالصًا ففتحوا بابها بعشرة آلاف درهم، وقد تزايد فيها التجار فباعها بخمسة عشر ألف درهم وقبض ثمنها ومضى إلى البيت وحكى لأمه جميع ما فعل وقال لأمه: «يا أمى إنى قد تعلمت هذه الصنعة». فضحكت عليه وقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». وسكتت على مضض منه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن حسن أخذ من جهله هاونًا وذهب به إلى الأعجمى وهو قاعد

فى الدكان ووضعه بين يديه. فقال له: «يا ولدى ما تريد أن تصنع بهذا الهاون؟» قال: «ندخله النار ونعمله سبائك ذهب». فضحك الأعجمى وقال له: «ياولدى هل أنت مجنون حتى تنزل السوق بسبيكتين فى يوم واحد أما تعلم أن الناس ينكرون علينا وتروح أرواحنا ولكن يا ولدى إذا علّمتك هذه الصنعة لا تعملها فى السنة إلا مرّة واحدة فهى تكفيك من السنة إلى السنة». قال: «صدقت يا سيدى». ثم إنه قعد فى الدكان وركب البودقة ورمى الفحم فى النار. فقال له الأعجمى: «يا ولدى ماذا تريد؟» قال: «علمنى هذه الصنعة» فضحك الأعجمى وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم أنت يا ابنى قليل العقل ما تصلح لهذه الصنعة قط، هل أحد فى عمره يتعلم هذه الصنعة على قارعة الطريق أو فى الأسواق فإن اشتغلنا بها فى هذا المكان يقول الناس علينا إن هؤلاء يصنعون الكيمياء فتسمع بنا الحكّام فتروح أرواحنا، فإن كنت يا ولدى تريد أن تتعلم هذه الصنعة فاذهب معى إلى بيتى». فقام حسن وأغلق الدكان وتوجه مع الأعجمى. فبينما هو فى الطريق إذ تذكر قول أمه وحسب فى نفسه ألف حساب ووقف وأطرق رأسه إلى الأرض ساعة زمانية، فالتفت الأعجمى فرآه واقفًا فضحك وقال له: «هل أنت مجنون كيف أضمر لك فى قلبى الخير وأنت تحسب أنى أضرك؟» ثم قال له الأعجمى: «إن كنت خائفًا من ذهابك معى إلى بيتى فأنا أروح معك إلى بيتك وأعلّمك هناك». فقال له حسن: «نعم يا عمّ». فقال له: «امش قدّامى». فسار حسن قدامه إلى منزله وسار الأعجمى خلفه إلى أن وصل منزله، فدخل حسن إلى داره فوجد والدته فأعلمها بحضور الأعجمى معه والأعجمى واقف على الباب ففرشت لهما البيت ورتبته، فلما فرغت من أمرها راحت. ثم إن حسنا أذن للأعجمى أن يدخل فدخل. ثم إن حسنًا أخذ فى يده طبقًا وذهب به إلى السوق ليجيء فيه بشيء يأكله. فخرج وجاء بأكل وأحضره بين يديه وقال له: «كُل يا سيدى لأجل أن يصير بيننا خبز وملح والله تعالى ينتقم ممن يخون الخبز والملح» فقال له: «صدقت يا ولدى». ثم تبسم وقال: «يا ولدى من يعرف قدر الخبز والملح؟» ثم تقدم الأعجمى وأكل مع حسن حتى اكتفيا. ثم قال له الأعجمى: «يا ولدى حسن هات لنا شيئًا من الحلوى». فمضى حسن إلى السوق وأحضر عشر قبات من الحلوى وفرح حسن بكلام الأعجمى. فلما قدم له الحلوى أكل منها وأكل معه حسن. ثم قال له الأعجمى: «جزاك الله خيرًا ياولدى مثلك من يصاحبه الناس ويظهرونه على أسرارهم ويعلمونه ما ينفعه». ثم قال الأعجمى: «يا حسن احضر العدّة».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فما صدّق حسن بهذا الحديث وقد خرج مثل المهر إذا انطلق من القيد حتى أتى إلى الدكان وأخذ العدة ورجع ووضعها بين يديه. فأخرج الأعجمى قرطاسًا من الورق وقال: «يا حسن وحق الخبز والملح لولا أنت أعزّ من ولدى ما أطلعتك على هذه الصنعة وما بقى معى شيء من هذا الإكسير إلا هذا القرطاس، ولكن تأمل حين أركّب العقاقير وأضعها قدامك واعلم يا ولدى حسن أنك تضع على كل عشرة أرطال نحاسًا نصف درهم من هذا الذى فى الورقة فتصير العشرة أرطال ذهبًا خالصًا ابريزًا». ثم قال له: «يا ولدى حسن إن فى هذه الورقة ثلاث أواق بالوزن المصرى وبعد أن يفرغ ما فى هذه الورقة أعمل لك غيره»

فأخذ حسن الورقة فرأى فيها شيئًا أصفر أنعم من الأول فقال: «يا سيدى ما اسم هذا وأين يوجد وفى أى شىء يعمل؟» فضحك الأعجمى وطمع فى حسن وقال له: «عن أى شىء تسأل اعمل وأنت ساكت؟» وأخرج طاسة من البيت وقطعها وألقاها فى البودقة ورمى عليها قليلاً من الذى فى الورقة فصارت سبيكة من الذهب الخالص. فلما رأى حسن ذلك فرح فرحًا شديدًا وصار مشغولاً بتلك السبيكة.

فعند ذلك أخرج الأعجمى صرّة من رأسه بسرعة وفيها بنج لو شمّه الفيل لرقد من الليل إلى الليل وقطعها ووضعها فى قطعة من الحلوى وقال له: «يا حسن أنت بقيت ولدى وصرت عندى أعزّ من روحى ومالى وعندى بنت أزوّجك بها». فقال حسن: «أنا غلامك ومهما فعلته معى كان عند الله تعالى». فقال الأعجمى: «يا ولدى طوّل بالك وصبّر نفسك فيحصل لك الخير». ثم ناوله القطعة الحلوى فأخذها وقبّل يده ووضعها فى فمه وهو لا يعلم ما له فى الغيب. ثم بلع القطعة الحلوى فسبق رأسه رجليه وغاب من الدنيا. فلما رآه الأعجمى قد حلّ به البلاء فرح فرحًا شديدًا وقام على أقدامه وقال: «وقعت يا كلب العرب فى شركى لى أعوام كثيرة أفتش عليك حتى حصلتك يا حسن».

ثم إن الأعجمى شدّ وسطه وكتف حسنًا وربط رجليه على يديه وأخذ صندوقًا وأخرج منه الحوائج التى كانت فيه ووضع حسنًا فيه وقفله عليه، وفرّغ صندوقًا آخر وحطّ فيه جميع المال الذى عند حسن والسبائك الذهب التى عملها أولاً وثانيًا وقفله. ثم خرج يجرى إلى السوق وأحضر حمالاً وحمل الصندوقين وخرج بهما إلى ظاهر المدينة وحطهما على ساحل البحر وتقدم إلى المركب الراسى وكان ذلك المركب معينا ومهيئا للأعجمى ورئيسه منتظر له. فلما نظرته بحريته أوتوا إليه وحملوا الصندوقين ووضعوهما فى المركب. وصرخ الأعجمى على الرئيس وعلى جميع البحرية وقال لهم: «قوموا قد انقضت الحاجة وبلغنا المراد». فصرخ الرئيس على البحرية وقال: «أقلعوا المراسى وحلوا القلوع». وساروا بريح طيّبة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : هذا ما كان من أمر الأعجمى وحسن. وأما ما كان من أمر أم حسن فإنها انتظرته إلى العشاء فلم تسمع له صوتًا ولا خبرًا فصبرت جملة كافية، فجاءت إلى البيت فرأته مفتوحًا فدخلته ولم ترَ فيه أحدا ولم تجد الصناديق ولا المال. فعرفت أن ولدها قد فُقد ونفذ القضاء فلطمت وجهها وشقت أثوابها وصاحت وصارت تقول: «واولداه!» ثم أنشدت:

لقد قل صبرى ثم زاد تململى	وزاد نحيبى بعدكم وتململى
ولا صبر لى والله بعد فراقكم	وكيف اصطبارى بعد فرقة مأملى
وبعد حبيبى كيف ألتذّ بالكرى	ومن ذا الذى يهنا بعيش التذلل
رحلتَ فأوحشت الديار وأهلها	وكدّرتَ من صفوى مشارب منهلى
وكنتَ معينى فى الشدائد كلها	وعزّى وجاهى فى الورى وتوسلى
فلا كان يومٌ كنتَ فيه مباعدًا	عن العين إلا أن أراك تعود لى

ثم إنها صارت تبكى وتنوح إلى الصباح. فدخلوا عليها الجيران وسألوها عن ولدها

فأخبرتهم بما جرى له مع الأعجمى واعتقدت أنها لا تراه بعد ذلك أبدًا. وجعلت تدور فى البيت وتبكى. فبينما وهى دائرة فى البيت إذا رأت سطرين مكتوبين على الحائط فأحضرت فقيهًا فقرأها لها فإذا فيهما:

سرى طيف ليلى عندما غلب الكرى ... سحيرًا وصحبى فى الفلاة رقودُ

فلما انتبهنا للخيال الذى سرى ... أرى قفرًا والمزار بعيدُ

فلما سمعت أم حسن هذه الأبيات صاحت وقالت: «نعم يا ولدى إن الدار قفراء والمزار بعيد». ثم إن الجيران ودّعوها بعد أن دعوا لها بالصبر وجمع الشمل قريبًا وانصرفوا ولم تزل أمّ حسن تبكى آناء الليل وأطراف النهار. وبنَت فى وسط البيت قبرًا وكتبت عليه اسم حسن وتاريخ فقده، وكانت لا تفارق ذلك القبر من حين ما فارقها ولدها.

هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر ولدها حسن مع الأعجمى فإن الأعجمى كان مجوسيا وكان يبغض المسلمين كثيرًا وكان كل ما قدر على أحد من المسلمين يهلكه وهو خبيث لئيم مطالبى كيماوى فاجر كما قال فيه الشاعر:

هو الكلب وابن الكلب والكلب جدّه ... ولا خير فى كلب تناسل من كلب

ابن اللئام وابن كلب مارد ... وابن الزنا وابن البغىّ جاحد

وكان اسم ذلك الملعون بهرام المجوسى وكان له فى كل سنة واحد من المسلمين يأخذه ويذبحه على مطلب، فلما تمت حيلته على حسن الصائغ وسار به أوّل النهار إلى الليل رسا المركب على برّ إلى الصباح. فلما طلعت الشمس سار المركب أمر الأعجمى عبيده وغلمانه أن يحضروا له الصندوق الذى فيه حسن. فأحضروه له، ففتحه وأخرجه منه ونشّقه بالخل ونفخ فى أنفه ذرورًا فعطس وتقيأ البنج وفتح عينيه ونظر يمينًا وشمالاً، فوجد نفسه فى وسط البحر والمركب سائر والأعجمى قاعد عنده. فعلم أنها حيلة عملت عليه وقد عملها الملعون المجوسى وأنه وقع فى الأمر الذى كانت أمه تحذره منه. فقال كلمة لا يخجل قائلها وهى: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم إنا لله وإنّا إليه راجعون اللهم الطف بى فى قضائك وصبرنى على بلائك يا رب العالمين». ثم التفت إلى الأعجمى وكلمه بكلامه رفيق وقال له: «يا والدى ما هذه الفعال وأين الخبز والملح واليمين التى حلفتها لى؟» فنظر إليه وقال له: «يا كلب هل مثلى يعرف خبزًا وملحًا وأنا قد قتلت مثلك ألف صبى إلا صبيا وأنت تمام الألف».

ثم إن الأعجمى صاح عليه فسكت وعلم أن سهم القضاء نفذ فيه. فعند ذلك أمر الملعون بحل أكتافه ثم سقوه قليلاً من الماء والمجوسى يضحك ويقول: «وحقّ النار والنور والظل والحرور ما كنت أظن أنك تقع فى شبكتى، ولكن النار قوتنى عليك وأعانتنى على قبضك حتى أقضى حاجتى وأرجع وأجعلك قربانًا لها حتى ترضى عنى» فقال له حسن: «قد خنت الخبز والملح». فرفع المجوسى يده وضربه ضربة فوقع وعض الأرض بأسنانه وغشى عليه وجرت دموعه على خده، ثم أمر المجوسى غلمانه أن يوقدوا له نارًا. فقال له حسن: «ما تصنع بها؟» فقال له: «هذه النار صاحبة النور والشرور وهى التى أعبدها فإن كنت تعبدها مثلى فأنا أعطى لك نصف مالى وأزوّجك بنتى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد : فصاح حسن عليه وقال له: «ويلك إنما أنت مجوسى كافر تعبد النار دون الملك الجبار خالق الليل والنهار، وما هذه إلا مصيبة فى الأديان». فعند ذلك غضب المجوسى وقال له: «أما توافقنى يا كلب العرب وتدخل فى دينى». فلم يوافقه حسن على ذلك فقام المجوسى الملعون وسجد للنار وأمر غلمانه أن يمدوا حسنًا على وجهه فمدوه على وجهه وصار المجوسى يضربه بسوط مضفور من جلد حتى شرح جوانبه وهو يستغيث فلا يُغاث ويستجير فلا يجيره أحد، فرفع طرفه إلى الملك القهار، وتوسل إليه بالنبى المختار، وقد عدم الاصطبار، وجرت دموعه على خديّه كالأمطار، وأنشد هذين البيتين:

صبرًا لحكمك يا إلهى فى القضا ... أنا صابرٌ إن كان فى هذا رضا

جاروا علينا واعتدوا وتحكموا ... فعساك بالإحسان تغفر ما مضى

ثم إن المجوسى أمر العبيد أن يقعدوه وأمر أن يأتوا إليه بشىء من المأكول والمشروب فأحضروه فلم يرض أن يأكل ويشرب. وصار المجوسى يعذبه ليلاً ونهارًا مسافة الطريق وهو صابر ويتضرّع إلى الله عزّ وجل وقد قسا قلب المجوسى عليه. ولم يزالوا سائرين فى البحر مدة ثلاثة أشهر وحسن معه فى العذاب. فلما كملت الثلاثة أشهر أرسل الله تعالى على المركب ريحًا فاسود البحر وهاج بالمركب من كثرة الريح. فقال الرئيس والبحرية: لا يحل هذا من الله تعالى». ثم إنهم قاموا على المجوسى وقتلوا غلمانه وكل من معه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما رآهم المجوسى قتلوا الغلمان أيقن بالهلاك وخاف على نفسه وحلّ حسنًا من كتافه وقلعه ما كان عليه من الثياب الرثة وألبسه غيرها وصالحه ووعده أن يعلمه الصنعةَ ويردّه إلى بلده وقال له: «يا ولدى لا تؤاخذنى بما فعلت معك». فقال له حسن: «كيف بقيت أركن إليك؟» فقال له: «يا ولدى لولا الذنب ما كانت المغفرة وأنا ما فعلت معك هذه الفعال إلا لأجل أن أنظر صبرك وأنت تعلم أن الأمر كله بيد الله» ففرحت البحرية والرئيس بخلاصه ودعا لهم حسن وحمد الله تعالى وشكره فسكنت الريح وانكشفت الظلمة وطابت الريح والسفر. ثم إن حسنًا قال للمجوسى: « يا أعجمى إلى أين تتوجه؟» قال: «يا ولدى أتوجه إلى جبل السحاب الذى فيه الإكسير الذى نعمله كيمياء». وحلف المجوسى بالنار والنور أنه ما بقى لحسن عنده ما يخيفه، فطاب قلب حسن وفرح بكلام المجوسى وصار يأكل معه ويشرب وينام ويلبسه من ملبوسه. ولم يزالوا مسافرين مدة ثلاثة أشهر أُخر. وبعد ذلك رسا بهم المركب على برّ طويل كله حصى أبيض وأصفر ومن جميع الألوان. فلما رسا المركب نهض الأعجمى قائمًا وقال: «يا حسن قم اطلع فإننا قد وصلنا إلى مطلوبنا ومرادنا». فقام حسن وطلع مع الأعجمى وأوصى المجوسى الرئيس على مصالحه، ثم مشى حسن مع المجوسى إلى أن بعدا عن المركب وغابا عن الأعين. ثم قعد المجوسى وأخرج من جيبه طبلاً نحاسًا وزخمة من حرير منقوشة بالذهب وعليها طلاسم وضرب الطبل فلما فرغ ظهرت غبرة من ظهر البرية، فتعجّب حسن من فعله وخاف منه وندم على طلوعه معه وتغير لونه. فنظر إليه

المجوسى وقال له: «ما لك يا ولدى وحقّ النار والنور ما بقى عليك خوف منى ولولا أن حاجتى ما تقضى إلى على اسمك ما كنت طلّعتك من المركب فأبشر بكل خير وهذه الغبرة غبرة شىء نركبه فيعيننا على قطع هذه البريّة ويسهل علينا مشقّتها».

فما كان إلا قليل حتى انكشفت الغبرة عن ثلاثة نجائب، فركب الأعجمى واحدة وركب حسن واحدة وحمّلا زادهما على الثالثة وسارا سبعة أيام ثم انتهيا إلى أرض واسعة فلما نزلا فى تلك الأرض نظرا إلى قبة معقودة على أربعة أعمدة من الذهب الأحمر. فنزلا من فوق النجائب ودخلا تحت القبة وأكلا وشربا واستراحا. فلاحت التفاتة من حسن فرأى شيئًا عاليًا فقال للمجوسى: «ما هذا يا عمّ؟» فقال المجوسى: «هذا قصر». فقال له حسن: «أما تقوم ندخله لنستريح فيه ونتفرّج عليه؟» فغضب المجوسى وقال له: «لا تذكر لى هذا القصر فإن فيه عدوّى وجرت لى معه حكاية ليس هذا وقت إخبارك بها» ثم دق الطبل فأقبلت النجائب فركبا وسارا سبعة أيام.

فلما كانت اليوم الثامن قال المجوسى: «يا حسن ما الذى تنظره؟» «فقال حسن: أنظر سحابًا وغمامًا بين المشرق والمغرب». فقال له المجوسى: «ما هذا سحاب ولا غمام وإنما هو جبل عظيم شاهق ينقسم عليه السحاب، وليس هناك سحاب يكون فوقه من فرط علوه وعظم ارتفاعه، وهذا الجبل هو المقصود لى وفوقه حاجتنا ولأجل هذا جئت بك معى وحاجتى تُقضى على يديك». فعند ذلك يئس حسن من الحياة ثم قال للمجوسى: «بحق معبودك وبحق ما تعتقده من دينك أىّ شىء الحاجة التى جئت بى من أجلها؟» فقال له: «إن صنعة الكيمياء لاتصحّ إلا بحشيش ينبت فى المحل الذى يمرّ به السحاب ويتقطع عليه وهو هذا الجبل والحشيش فوقه. فإذا حصلنا على الحشيش أريك أى شىء هذه الصنعة» فقال له حسن من خوفه: «نعم يا سيدى». وقد يئس من الحياة وبكى لفراق أمه وأهله ووطنه وندم على مخالفة أمه وأنشد هذين البيتين:

تأمل صُنْع ربك كيف يأتى ... بما تهواه من فرج قريبِ
ولا تيأس إذا ما نلت خطبًا ... فكم فى الخطب من لطفٍ عجيبِ

ولم يزالا سائرين إلى أن وصلا إلى ذلك الجبل ووقفا تحته، فنظر حسن فوق ذلك الجبل قصرًا. فقال للمجوسى: «ما هذا القصر؟» فقال المجوسى: «هذا مسكن الجان والغيلان والشياطين». ثم إن المجوسى نزل من فوق نجيبه وأمره بالنزول وقام إليه وقبّل رأسه وقال له: «لا تؤاخذنى بمافعلته معك فأنا أحفظك عند طلوعك القصر وأحلّفك أنك لا تخوننى فى شىء من الذى تحضره منه وأكون أنا وأنت فيه سواء». فقال له: «السمع والطاعة». ثم إن الأعجمى فتح جرابًا وأخرج منه طاحونًا وأخرج منه أيضًا مقدارًا من القمح وطحنه على تلك الطاحون وعجن منه ثلاثة أقراص وأوقد النار وخبز الأقراص، ثم أخرج الطبل النحاس والزخمة المنقوشة ودقّ الطبل فحضرت النجائب. فاختار منها نجيبًا وذبحه وسلخ جلده. ثم التفت إلى حسن وقال له: «اسمع يا ولدى يا حسن ما أوصيك به» قال: «نعم». قال: «ادخل فى هذا الجلد وأخيط عليك وأطرحك على الأرض فتأتى الطيور الرخم فتحملك وتطير بك إلى أعلى الجبل،

وخذ هذه السكين معك فإذا فرغت من طيرانها وعرفتَ أنها حطتك فوقه فشقّ بها الجلد واخرج فإن الطير يخاف منك ويطير عنك وطلّ لى من فوق الجبل وكلمنى حتى أخبرك بالذى تعمله».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم هيأ له الثلاثة أقراص وركوة فيها ماء وحطها معه فى الجلد وبعد ذلك خيطه عليه ثم بعدَ عنه. فجاء طير الرخم وحمله وطار به إلى أعلى الجبل ووضعه هناك. فلما عرف حسن أن الرخم وضعه على الجبل شقّ الجلدوخرج منه وكلم المجوسى. فلما سمع المجوسى كلامه فرح ورقص من شدة الفرح وقال له «امض إلى ورائك ومهما رأيته فأعلمنى به». فمضى حسن فرأى رممًا كثيرة وعندهم حطب كثير، فأخبره بجميع ما رآه. فقال: «هذا هو المقصود والمطلوب فخذ من الحطب ست حزم وارمها لى فإنها هى التى نعملها كيمياء». فرمى له الست حزم. فلما رأى المجوسى تلك الحزم قد وصلت عنده قال لحسن: «يا كلب قد انقضت الحاجة التى أردتها منك وإن شئت فدُم على هذا الجبل أو ألق نفسك على الأرض حتى تهلك». ثم مضى المجوسى. فقال حسن: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم قد مكر بى هذا الكلب». ثم قعد ينوح على نفسه وأنشد هذه الأبيات:

إذا أراد الله أمــــرًا بـامـــــــرئ	وكــان ذا عــقـل وســمــع وبصــرْ
أصـم أذنـيـه وأعـمــى قـلـبـه	وسلّ منه عـقـلـه سلّ الشـعــر
حـتـى إذا أنفـذ فـيـه حكمـه	ردّ عليـه عـقـلـه ليـعـتـبـر
فـلا تقل فى مـا جـرى كـيف جـرى	فـكـل شـىء بـقـضـاء وقـــدر

ثم إنه وقف على قدميه والتفت يمينًا وشمالاً ثم مضى فوق الجبل وأيقن فى نفسه بالموت وصار يتمشى حتى وصل إلى الطرف الآخر من الجبل. فرأى بجنب الجبل بحرًا أزرق متلاطم الأمواج قد أزبد وكل موجة منه كالجبل العظيم، فقعد وقرأ ما تيسر من القرآن وسأل الله تعالى أن يهون عليه إما بالموت وإما بالخلاص من هذه الشدائد . ثم صلى على نفسه صلاة الجنازة ورمى نفسه فى البحر فحملته الأمواج على سلامة الله تعالى إلى أن طلع من البحر سالما بقدرة الله تعالى. ففرح وحمد الله تعالى وشكره.

ثم قام يبحث على شىء يأكله. فبينما هو كذلك وإذا هو بالمكان الذى كان فيه هو وبهرام المجوسى. ثم مشى ساعة فإذا هو بقصر عظيم شاهق فى الهواء. فدخله فإذا هو القصر الذى كان سأل عنه المجوسى وقال له: «إن هذا القصر فيه عدوّى». فقال حسن: «والله لابدّ من دخولى هذا القصر لعلّ الفرج يحصل لى فيه». فلما جاءه رأى بابه مفتوحًا فدخل من الباب فرأى مصطبة فى الدهليز وعلى المصطبة بنتان كالقمرين بين أيديهما رقعة شطرنج وهما تلعبان. فرفعت واحدة منهما رأسها إليه وصاحت من فرحتها وقالت: «والله إن هذا آدمى وأظنه الذى جاء به بهرام المجوسى فى هذه السنة».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع حسن كلامها رمى نفسه بين أيديها وبكى بكاءً شديدًا وقال: «يا سيدتى هو أنا والله ذلك المسكين». فقالت البنت الصغرى لأختها الكبرى: «اشهدى علىّ يا أختى إن هذا أخى فى عهد الله وميثاقه وإنى أموت لموته وأحيا لحياته وأفرح لفرحه وأحزن لحزنه». ثم قامت له وأخذته من يده ودخلت به القصر وأختها معها، وقلعته ما كان عليه من الثياب الرثة وأتت له ببدلة من ثياب الملوك وألبسته إياها وهيأت له الطعام مع سائر الألوان وقدّمته له وقعدت هى وأختها وأكلتا معه وقالتا له: «حدثنا بحديثك مع الكلب الفاجر الساحر من حين وقعت فى يده إلى حين خلصت منه ونحن نحدثك بما جرى لنا معه من أول الأمر إلى آخره حتى تصير على حذر منه إذا رأيته».

فلما سمع حسن منهما هذا الكلام ورأى الإقبال منهما عليه اطمأنت نفسه ورجع له عقله وصار يحدثهما بما جرى له معه من الأول إلى الآخر. فقالتا له: «هل سألته عن هذا القصر؟» قال: «نعم سألته فقال لى: لا أحب سيرته فإن هذا القصر للشياطين والابالسة» فغضبت البنتان غضبًا شديدًا وقالتا: «هل جعلنا هذا الكافر شياطين وأبالسة؟» فقال لهما حسن: «نعم» فقالت الصغيرة أخت حسن: «والله لأقتلنّه أقبح قتلة وأعدمنه نسيم الدنيا». فقال حسن: «وكيف تصلين إليه وتقتلينه فإنه ساحر غدار؟» قالت: «هو فى بستان يسمى المشيد ولابد من قتله قريبًا» فقالت لها أختها: «صدق حسن وكل ما قاله عن هذا الكلب صحيح، ولكن حدثيه بحديثنا حتى يبقى فى ذهنه».

فقالت البنت الصغيرة : «اعلم يا أخى أننا من بنات الملوك وأبونا ملك من ملوك الجان العظام الشأن وله جنود وأعوان وخدم من المردة ورزقه الله تعالى بسبع بنات من امرأة واحدةولحقه من الحماقة فسأل وزراءه وأصحابه وقال لهم: «هل أنتم تعرفون لى مكانًا لا يطرقه طارق لا من الإنس ولا من الجن، ويكون كثير الأشجار والأثمار والأنهار». فقالوا له: «يا ملك يصلح لهنّ قصر جبل السحاب الذى كان أنشأه عفريت من الجنّ المردة الذين تمردوا على عهد سيدنا سليمان عليه السلام، فلما هلك لم يسكنه أحد بعده لا من الجن ولا من الإنس لأنه منقطع لا يصل إليه أحد، وحوله الأشجار والأثمار والأنهار وحوله ماء جار أحلى من الشهد وأبرد من الثلج ما شرب منه أحد به برص أو جذام أو غيرهما إلا عُوفى من وقته وساعته فلما سمع والدنا بذلك أرسلنا إلى هذا القصر وأرسل معنا العساكر والجنود وجمع لنا فيه ما نحتاج إليه. وكان إذا أراد الركوب يضرب الطبل فيحضر له جميع الجنود فيختار ما يركبه منهم وينصرف الباقون، فإذا أراد والدنا أننا نحضر عنده أمر أتباعه من السحرة بإحضارنا فيأتون ويأخذوننا ويوصلوننا بين يديه حتى يتأنس بنا ونقضى أغراضنا منه ثم يرجموننا إلى مكاننا. ونحن لنا خمس أخوات أخر ذهبن يتصيدنّ فى هذه الفلاة فإن فيها من الوحوش ما لا يعدّ ولا يحصى، وكل اثنين منا عليهما نوبة فى القعود لتسوية الطعام فجاءت النوبة علينا أناوأختى هذه فقعدنا لنسوّى لهنّ الطعام. وكنا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا شخصًا آدميا يؤانسنا فالحمدلله الذى أوصلك إلينا فطب نفسا وقرّ عينًا ما عليك بأس».

ففرح حسن وقال: «الحمد لله الذى هدانا إلى طريق الخلاص وحنن علينا القلوب». ثم قامت أخته وأخذته من يده وأدخلته مقصورة وأخرجت منها من القماش والفرش ما لا يقدر عليه أحد من المخلوقات. ثم بعد ساعة حضرت أخواتهما من الصيد والقنص فأخبرتاهنّ بحديث حسن ففرحنَ به ودخلنَ عليه فى المقصورة وسلّمن عليه وهنّأنه بالسلامة. ثم أقام عندهنّ فى أطيب عيش وأهنى سرور وصار يخرج معهنّ إلى الصيد والقنص ويذبح الصيد واستأنس حسن بهنّ.

ولم يزل معهن على هذه الحالة حتى صحّ جسده وبرئ من الذى كان به وقوى جسمه وغلظ وسمن بسبب ما هو فيه من الكرامة وقعوده عندهنّ فى ذلك الموضع وهو يتفرّج ويتفسّح معهنّ فى ذلك القصر المزخرف وفى جميع البساتين والأزهار وهنّ يأخذن بخاطره ويؤانسنه بالكلام وقد زالت عنه الوحشة وزادت البنات به فرحًا وسرورًا وكذلك هو فرح بهن كثيرًا. ثم إن أخته الصغيرة حدثت أخواتها بحديث بهرام المجوسى وأنه جعلهنّ شياطين وأبالسة وغيلانًا فحلفنَ لها أنه لابدّ لهنّ من قتله. فلما كان العام الثانى حضر الملعون ومعه شاب مليح مسلم كأنه القمر وهو مقيّد بقيد ومعذب غاية العذاب فنزل به تحت القصر الذى فيه البنات وكان حسن جالسًا على النهر تحت الأشجار.

فلما رآه حسن خفق قلبه وتغير لونه وضرب بكفيه وقال للبنات: «بالله يا أخواتى أعنّنى على قتل هذا الملعون فها هو قد حضر وصار فى قبضتكن ومعه شاب مسلم أسير من أولاد الأكابر وهو يعذبه بأنواع العذاب الأليم وقصدى أن أقتله وأشفى فؤادى منه وأريح هذا الشاب من عذابه وأربح الثواب ويرجع الشاب المسلم إلى وطنه فيجتمع شمله مع إخوانه وأهله وأحبابه ويكون ذلك صدقة عنكنّ بالأجر من الله تعالى». فقالت له البنات: «السمع والطاعة لله ولك يا حسن». ثم إنهن ضربن لهنّ لثامات ولبسن آلات الحرب وتقلدنَ السيوف وأحضرن لحسن جوادًا من أحسن الخيل وهيأنه بعدّة كاملة وسلحنه سلاحًا مليحًا. ثم ساروا جميعًا فوجدوا المجوسى قد ذبح جملاً وسلخه وهو يعاقب الشاب ويقول له: «ادخل هذا الجلد». فجاء حسن من خلفه والمجوسى ماعنده علم به. ثم صاح عليه فأذهله وخبله ثم تقدم إليه وقال له: «أمسك يدك يا ملعون يا عدوّ الله وعدوّ المسلمين يا كلب يا غدار، يا عابد النار، يا سالك طريق الفجار، أتعبد النار والنور، وتقسم بالظل والحرور؟» فالتفت المجوسى فرأى حسنًا فقال له: «يا ولدى كيف تخلصت ومن أنزلك إلى الأرض؟» فقال له: «خلصنى الله تعالى الذى جعل قبض روحك على يد أعدائك كما عذبتنى طول الطريق، يا كافر يا زنديق، قد وقعت فى الضيق، وزغت عن الطريق، فلا أمّ تنفعك ولا أخ ولا صديق، ولا عهد وثيق، إنك قلت: «من يخون العيش والملح ينتقم الله منه». وأنت خنت الخبز والملح فأوقعك الله تعالى فى قبضتى وصار خلاصك منى بعيدًا». فقال له المجوسى: «والله يا ولدى أنت عندى أعزّ من روحى ومن نور عينى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فتقدم إليه حسن وعجّل عليه بضربة على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه، وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار. ثم إن حسنًا أخذ الجراب الذى كان معه وفتحه وأخرج الطبل منه والزخمة وضرب بها على الطبل فجاءت النجائب مثل البرق إلى حسن فحلّ الشاب من وثاقه وأركبه نجيبًا ووسق له الآخر زادًا وماءً وقال له: «توجّه إلى مقصدك». فتوجه بعد أن خلصه الله تعالى من الضيق على يد حسن، ثم إن البنات لما رأينَ حسن ضرب رقبة المجوسى فرحنَ به فرحًا شديدًا ودرن حوله وتعجبنَ من شجاعته ومن شدة بأسه وشكرنه على ما فعله وهنينه بالسلامة وقلن له: «يا حسن لقد فعلت فعلاً أشفيت به الغليل، وأرضيت به الملك الجليل».

وسار هو والبنات إلى القصر وأقام معهنّ فى أكل وشرب وضحك ولعب وطابت له الإقامة عندهنّ ونسى أمه. فبينما هو معهنّ فى ألذّ عيش إذ قد طلعت عليهم غبرة عظيمة من صدر البريّة أظلم لها الجو، فقالت له البنات: «قم يا حسن وادخل مقصورتك واختف، وإن شئت فادخل البستان وتوارَ بين الشجر والكروم فما عليك بأس». ثم إنه قام ودخل واختفى فى مقصورته وأغلقها عليه من داخل القصر. وبعد ساعة انكشف الغبار وبان من تحته عسكر جرار مثل البحر العجاج مقبلاً من عند الملك أبى البنات. فلما وصل العسكر أنزلنهم أحسن منزل وضيفنهم ثلاثة أيام وبعد ذلك سألتهم البنات عن حالهم وعن خبرهم. فقالوا: «إننا جئنا من عند الملك فى طلبكنّ». فقلن لهم: «وما يريد الملك منا؟» قالوا: «إن بعض الملوك يعمل فرحًا ويريد أن تحضرنَ ذلك الفرح لتتفرجن». فقالت البنات لهم: «وكم نغيب عن موضعنا؟» فقالوا: «مدّة شهرين».

فقامت البنات ودخلن القصر على حسن وأعلمنه بالحال وقلنَ له: «إن هذا الموضع موضعك وبيتنا بيتك فطب نفسًا وقرّ عينًا ولا تخف ولا تحزن فإنه لا أحد يقدر أن يجىء إلينا فى هذا المكان فكن مطمئن القلب منشرح الخاطر حتى نحضر إليك، وهذه مفاتيح مقاصيرنا معك، ولكن يا أخانا نسألك بحق الأخوة أنك لا تفتح هذا الباب فإنه ليس لك بفتحه حاجة». ثم إنهنّ ودّعنه وانصرفنَ صحبة العساكر وقعد حسن فى القصر وحده. ثم إنه قد ضاق صدره وفرغ صبره وزاد كربه واستوحش وحزن لفراقهنّ حزنًا عظيمًا وضاق عليه القصر مع اتساعه، فلما رأى نفسه وحيدًا تذكرهنّ وأنشد هذه الأبيات:

ضاق الفضاء جميعه فى ناظرى ... وتكدّرت منه جميع خواطرى
مُذ سارت الأحباب صفوى بعدهم ... كدر ويمعى فالظنّ بمحاجرى
والنوم فارق مقلتى لفراقهم ... وتكدرت منى جميع سرائرى
أترى الزمان يعود يجمع شملنا ... ويعود لى إلفى بهم ومسامرى

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم إنه صار يذهب وحده إلى الصيد فى البرارى فيأتى به ويذبحه ويأكل وحده. وزادت به الوحشة والقلق من انفراده فقام ودار فى القصر وفتش جميع جهاته

وفتح مقاصير البنات فرأى فيها من الأموال ما يذهب عقول الناظرين وهو لا يلتذ بشيء من ذلك بسبب غيبتهنّ ، والتهبت فى قلبه النار من أجل الباب الذى أوصته أخته بعدم فتحه وأمرته أنه لا يقربه ولا يفتحه أبدًا. فقال فى نفسه: «ما أوصتنى أختى بعدم فتح هذا الباب إلا لكونه فيه شيء تريد ألاّ يطلع عليه أحد، والله إنى لأقوم وأفتحه وأنظر ما فيه ولو كان فيه المنية». فأخذ المفتاح وفتحه فلم يرَ فيه شيئًا من المال ولكنه رأى سلّمًا فى صدر المكان معقودًا بحجر من جزع يمانى، فرقى على ذلك السلّم وصعد إلى أن وصل إلى سطح القصر. فقال فى نفسه: «هذا الذى منعتنى عنه». ودار فوقه فأشرف على مكان تحت القصر مملوء بالمزارع والبساتين والأشجار والأزهار والوحوش والطيور وهى تغرد وتسبّح الله تعالى الواحد القهار. وصار يتأمل فى تلك المنتزهات فرأى بحرًا متلاطمًا بالأمواج ولم يزل دائرًا حول ذلك القصر يمينًا وشمالاً حتى انتهى إلى قصر على أربعة أعمدة فرأى فيه مقعدًا منقوشًا بسائر الأحجار كالياقوت والزمرد والبلخش وأصناف الجواهر وهو مبنى طوبة من ذهب وطوبة من فضة وطوبة من ياقوت وطوبة من زمرد أخضر، وفى وسط ذلك القصر بحيرة ملآنة بالماء وعليها مكعب من الصندل وعود الند وهو مشبّك بقضبان الذهب الأحمر والزمرد الأخضر ومزركش بأنواع الجواهر واللؤلؤ التى كل حبة منه قدر بيضة الحمامة وعلى جانب البحيرة تخت من العود الند مرصّع بالدر والجوهر مشبّك بالذهب الأحمر وفيه من سائر الفصوص الملونة والمعادن النفيسة وهى فى الترصيع يقابل بعضها بعضًا وحوله الأطيار تغرّد بلغات مختلفة وتسبح الله تعالى بحسن أصواتها واختلاف لغاتها، وهذا القصر لم يملك مثله كسرى ولا قيصر.

فاندهش حسن لما رأى فيه ذلك وجلس ينظر ما حوله. وبينما هو جالس فيه وهو متعجّب من حسن صنعته ومن بهجة ما حواه من الدرّ والياقوت وما فيه من سائر الصناعات ومتعجب أيضًا من تلك المزارع والأطيار التى تسبح الله الواحد القهار ويتأمل فى آثار من قدّره الله تعالى على عمارة هذا القصر فإنه عظيم الشأن وإذا هو بعشرة طيور قد أقبلت من جهة البرّ وهم يقصدون ذلك القصر وتلك البحيرة، فعرف حسن أنهم يقصدون البحيرة ليشربوا من مائها فاستتر منهم خوفًا أن ينظروه فيفرّوا منه. ثم إنهم نزلوا على شجرة عظيمة مليحة وداروا حولها ونظر منهم طيرًا عظيمًا مليحًا وهو أحسن ما فيهم والبقية محتاطون به وهم فى خدمته فتعجب حسن من ذلك وصار ذلك الطير ينقر التسعة بمنقاره ويتعاظم عليهم وهم يهربون منه وحسن واقف يتفرّج عليهم من بعيد. ثم إنهم جلسوا على السرير وشقّ كل طير منهم جلده بمخالبه وخرج منه. فإذا هو ثوب من ريش، وقد خرج من الثياب عشر بنات أبكار يفضحنّ بحسنهن بهجة الأقمار. فلما تعرينّ من ثيابهن الريش وبقين لابسات ثيابًا من الخزّ جلسن على المشب يتحدثنّ. ويتضاحكن وحسن واقف ينظر إليهنّ ويقول فى نفسه: «والله ما قالت لى أختى لا تفتح هذا الباب إلا من شأن هؤلاء البنات».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن البنات لم يزلنَ فى ضحك ولعب وهو واقف على قدميه ينظر إليهنّ ونسى الأكل والشرب إلى أن قرب العصر. فقالت الصبية لصواحبها : «يا بنات الملوك إن الوقت أمسى علينا وبلادنابعيدة ونحن قد سئمنا المقام هنافقمن لنروح محلنا». فقامت كل واحدة منهن ولبست ثوبها الريش فلما اندرجن فى ثيابهن صرن طيورًا كما كن أولاً وطرن كلهن سوية وتلك الصبية فى وسطهن . فيئس حسن منهن وأراد أن يقوم وينزل فلم يقدر أن يقوم وصار دمعه يجرى على خده . ثم إن حسنًا مشى قليلا وهو لا يهتدى إلى الطريق حتى نزل إلى أسفل القصر ، ولم يزل يزحف إلى أن وصل إلى باب المخدع فدخل وأغلقه عليه واضطجع عليها لا ياكل ولايشرب وهو غريق فى بحر أفكاره فبكى وناح على نفسه إلى الصباح فلما أصبح الصباح فتح باب المخدع وطلع إلى المكان الذى كان فيه أولا وجلس فى مكان قبال المنظرة إلى أن أقبل الليل فلم يحضر أحد من الطيور وهو جالس فى انتظارهم ، فبكى بكاء شديدا حتى غشى عليه ووقع على الأرض مطروحًا . فلما أفاق من غشيته زحف ونزل إلى أسفل القصر وقد أقبل الليل وضاقت عليه الدنيا بأسرها وما زال يبكى وينوح على نفسه طول ليله إلى أن أتى الصباح وطلعت الشمس على الروابى والبطاح . وهو لا ياكل ولا يشرب ولا ينام ولا يقرّ له قرار وفى نهاره حيران وفى ليله سهران مدهوش سكران من الفكر الذى هو فيه ولم يجد من يؤانسه.

فبينما هوفى شدة ولهه وإذا بغبرة قد طلعت من البرّ، فقام يجرى إلى أسفل واختفى وعرف أن أصحاب القصر قد أتوا، فلم يكن غير ساعة إلا والعسكر قد نزلوا ونزعوا آلة الحرب،وأما البنت الصغيرة أخته فإنها لم تنزع ما عليها من آلة الحرب بل جاءت إلى مقصورة حسن فلم تره ففتشت عليه فوجدته فى مخدع من المخادع وهو ضعيف نحيل قد كلّ جسمه ورقّ عظمه واصفرّ لونه وغابت عيناه فى وجهه من قلة الأكل والشرب ومن كثرة الدموع. فلما رأته أخته الجنية على هذه الحالة اندهشت وغاب عنها عقلها. فسألته عن حاله وما هو فيه وأى شىء أصابه وقالت له: «أخبرنى يا أخى حتى أتحيل لك فى كشف ضرّك وأكون فداءك». فبكى بكاءً شديدًا .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فقالت له : «يا أخى متى وقعت فى هذا الأمر الذى أنت فيه ومتى حصل لك فإنى أراك ترخى الدموع الغزار، فبالله عليك يا أخى وحرمة الحب الذى بيننا أن تخبرنى بحالك وتطلعنى على سرّك ولا تخف عنى شيئًا مما جرى لك فى غيابنا فإنه قد ضاق صدرى وتكدّر عيشى بسببك». فتنهد وأرخى الدموع مثل المطر وقال: «أخاف يا أختى إذا أخبرتك أنك تتركينى أموت كمدًا بغصتى». فقالت: «لا والله يا أخى ما أتخلى عنك ولو كانت روحى تروح». فحدثها بما جرى له وما عاينه حتى فتح الباب وأن له عشرة أيام لم يستطعم بطعام ولا شراب. ثم إنه بكى بكاءً شديدًا فبكت أخته لبكائه ورقت لحاله ورحمت غربته. ثم قالت له: «يا أخى طب نفسًا وقرّ عينًا فأنا أخاطر بنفسى معك وأبذل روحى فى رضائك وأدبر لك حيلة ولو كان فيها ذهاب نفائسى ونفسى، ولكن أوصيك يا أخى بكتمان السرّ عن

أخواتى فلا تظهر حالك على واحدة منهنّ لئلا تروح روحك، وإن سألتك عن فتح الباب فقل لهنّ: ما فتحته أبدًا ولكن أنا مشغول القلب من أجل غيابكنّ عنى ووحشتى إليكنّ وقعودى فى القصر وحدى».

فقال لها: «نعم هذا هو الصواب». ثم إنه قبل رأسها وطاب خاطره وانشرح صدره وكان خائفًا من أخته بسبب فتح الباب فرُدّت إليه روحه بعد أن كان مشرفًا على الهلاك من شدة الخوف. ثم إنه طلب من أخته شيئًا يأكله. فقامت وخرجت من عنده. ثم إنها دخلت على أخواتها وهى حزينة باكية عليه. فسألنها عن حالها فأخبرتهنّ أن خاطرها مشغول على أخيها وأنه مريض وله عشرة أيام ما نزل فى بطنه زاد أبدًا. فسألنها عن سبب مرضه فقالت لهنّ: «سببه غيابنا عنه حيث أوحشناه فإن هذه الأيام التى غبناها عنه كانت عليه أطول من ألف عام وهو معذور لأنه غريب ووحيد ونحن تركناه وحده وليس عنده من يؤانسه ولا من يطيب خاطره وهو شاب صغير على كل حال وربما تذكر أهله وأمه وهى امرأة كبيرة فظنّ أنها تبكى عليه آناء الليل وأطراف النهار ولم تزل حزينة عليه وكنا نسلّيه بصحبتنا له». فلما سمع أخواتها كلامها بكينَ من شدة التأسف عليه وقلنَ لها: «والله إنه معذور» ثم خرجنَ إلى العسكرُ وصرفنهم ودخلن على حسن فسلّمن عليه ورأينه قد تغيرت محاسنه وأصفر لونه وانتحل جسمه فبكين شفقةً عليه وقعدن عنده وآنسنه وطيبنَ قلبه بالحديث وحكين له جميع ما أرينَ من العجائب والغرائب وما جرى للعريس مع العروسة ثم إن البنات أقمن عنده مدة شهر كامل وهنّ يؤانسنه ويلاطفنه وهو فى كل يوم يزداد مرضًا على مرضه وكلما رأينه على هذه الحالة يبكين عليه بكاءً شديدًا وأكثرهنّ بكاء البنت الصغيرة ثم بعد الشهر اشتاقت البنات إلى الركوب للصيد والقنص فعزمن على ذلك وسألن أختهنّ الصغيرة أن تركب معهنّ. فقالت لهنّ: «والله يا أخواتى ما أقدر أن أخرج معكن وأخى على هذه الحالة حتى يتعافى ويزول عنه ما هو فيه من الضرر بل أجلس عنده لأعلّله». فلما سمعنَ كلامها شكرنها على مُروءتها وقلن لها: «كلما تفعلينه مع هذا الغريب تؤجرين عليه». ثم تركنها وركبن وأخذن معهنّ زاد عشرين يومًا.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما بعدنَ عن القصر وعرفت أختهنّ أنهنّ قطعن مسافة بعيدة أقبلت على أخيها وقالت له «يا أخى قم أرنى هذا الموضع الذى رأيت فيه الطيور». فقال: «بسم الله على الرأس». وفرح بقولها. فجاءت به وفتحت له باب السلّم وصعدت به إلى فوق القصر، فلما صارا فوقه أراها الموضع الذى رأى فيه البنات وأراها المقعد فوصف لها ما رأى منهنّ وخصوصًا البنت الكبيرة. فلما سمعت وصفها عرفتها فاصفرّ وجهها وتغير حالها فقال لها: «يا أختى قد اصفر وجهك وتغيرت حالتك». فقالت له: «يا أخى اعلم أن هذه الصبية بنت ملك من ملوك الجان العظام الشأن قد ملك أبوها إنسًا وجانًا وسحرة وكهانًا وأرهاطًا وأعوانًا وأقاليم وبلدانًا وجزائر كثيرة وأموالاً عظامًا، وأبونا نائب من جملة نوابه فلا يقدر عليه أحد من كثرة عساكره واتساع مملكته وكثرة ماله، وقد جعل لأولاده البنات التى رأيتهنّ مسيرة سنة كاملة طولاً وعرضًا وقد دار على ذلك القطر نهر عظيم محيط به فلا يقدر أحد أن يصل إلى

ذلك المكان لا من الإنس ولا من الجان، وله عسكر من البنات الضاريات بالسيوف الطاعنات وبالرماح خمسة وعشرون ألفًا كل واحدة منهنّ إذا ركبت جوادها ولبست آلة حربها تقاوم ألف فارس من الشجعان.

«وله سبع بنات فيهنّ من الشجاعة والفروسية ما فى أخواتهنّ وأزيد. وقد ولّى الملك القصر على هذا القطر الذى عرّفتك به ابنته الكبرى وهى أكبر أخواتها وفيها من الشجاعة والفروسية والخداع والمكر والسحر ما تغلب به جميع أهل مملكتها، وأما البنات اللاتى معها فهنّ أرباب دولتها وأعوانها وخواصها من ملكها، وهذه الجلود الريش التى يطرن بها إنما هى صنعة سحرة الجان. وإذا أردت أن تملك هذه الصبية وتتزوّج بها فاقعد هناوانتظرها لأنهنّ يحضرنَ على رأس كل شهر فى هذا المكان، فإذا رأيتهنّ قد حضرن فاختفِ وإياك أن تظهر فتروح أرواحنا جميعًا فاعرف الذى أقوله لك واحفظه فى ذهنك واقعد فى مكان يكون قريبًا منهنّ بحيث أنك تراهنّ وهن لا يرينك. فإذا قلعن ثيابهنّ الريش فألق نظرك على ثوب الريش الذى هو للكبيرة وخذه ولا تأخذ شيئًا غيره فإنه هو الذى يوصلها إلى بلادها فإنك إذا ملكته ملكتها. وإياك أن تخدعك وتقول«يا من سرق ثوبى ردّه علىّ وها أنا عندك وبين يديك وفى حوزتك، فإنك إن أعطيتها إياه قتلتك وتخرب علينا القصور وتقتل أبانا. فاعرف حالك كيف تكون فإذا رأى أخواتها أن ثوبها قد سُرق طرنَ وتركنها. واحتفظ بعد هذا بالثوب الريش فإنه مادام عندك فهى فى قبضتك وأسرك لأنها لا تقدر أن تطير إلى بلادها إلا به، ولا تبين لها أنك أخذت الثوب».

فلما سمع حسن كلام أخته اطمأن قلبه وسكن روعه. ثم انتصب قائمًا على قدميه وقبل رأس أخته وبعد ذلك قام ونزل من فوق القصر هو وأخته. ثم إنه ثانى يوم قام وفتح الباب وطلع إلى فوق وقعد ولم يزل قاعدًا إلى المشاء. فطلعت له أخته بشىء من الأكل والشرب وغيرت ثيابه ولم يزل على هذه الحالة فى كل يوم إلى أن هلّ الشهر. فلما رأى الهلال صار يرتقبهنّ فبينما هوكذلك وإذا بهنّ قد أقبلن مثل البرق. فلما رآهنّ اختفى فى مكان بحيث يراهنّ ولايرينه فنزلت الطيور وقعدت كل طيرة منهنّ فى مكان وقلعن ثيابهنّ الريش وكان ذلك فى مكان قريب من حسن ثم ابتعدنّ فعند ذلك قام حسن ومشى قليلاً وهو متخف فستر الله عليه فأخذ الثوب ولم تنظره واحدة منهنّ بل كنّ يلعبن مع بعضهنّ ويضحكن. فلما رجعن لبست كل واحدة منهنّ ثوبها الريش. فجاءت الكبيرة لتلبس ثوبها فلم تجده فصاحت ولطمت على وجهها وشقّت ثيابها، فاقبلت عليها أخواتها وسألنها عن حالها فأخبرتهن أن ثوبها الريش قد فقد فبكين وصرخن ولطمن على وجوههن وحين أمسى الليل لم يقدرنَ أن يقعدن عندها فتركنها فوق القصر.

فلمارآهنّ حسن طرنَ وغبن عنهاوعن عينه أصغى إليها فسمعها تقول: «يا من أخذ ثوبى سألتك أن تردّه علىّ فلا أذاقك الله حسرتى». فلما سمع حسن هذا الكلام منها قام من مكانه وصار يجرى حتى أمسكها بيدها ونزل بها أسفل القصر وهى تبكى وتعضّ على يدها فأغلق عليها الباب وراح لأخته وأعلمها أنه حصلها وظفر بها ونزل بها إلى مقصورته. وقال لها: «إنها الآن قاعدة تبكى وتعضّ على يديها».

فلما سمعت أخته كلامه قامت وتوجهت إلى المقصورة ودخلت عليها فرأتها تبكى وهى حزينة. فقبّلت الأرض بين يديها ثم سلّمت عليها. فقالت لها الصبية: «يابنت الملك أهكذا تفعل الناس مثلكم هذه الفعال الرديئة مع بنات الملوك وأنت تعرفين أن أبى ملك عظيم وأن جميع ملوك الجان تفزع منه وتخاف من سطوته وعنده من السحرة والحكماء والكهان والشياطين والمردة من لا طاقة لأحد عليه وتحت يده خلق لا يعلم عددهم إلا الله وكيف يصح لكنّ يا بنات الملوك أن تأوين رجال الإنس عندكنّ وتطلعنهم على أحوالنا وأحوالكن، وإلا فمن أين يصل هذا الرجل إلينا؟».

فقالت لها أخت حسن: «يا بنت الملك هذا الإنسى كامل المروءة». فلما سمعت كلامها يئست من الخلاص. فعند ذلك قامت أخت حسن وخرجت من عندها وأحضرت لها شيئًا من الأكل والشرب فأكلت هى وإياها وطيبت قلبها وسكّنت من روعها، ولم تزل تلاطفها بلين ورفق وترضيها وتحسن لها القول والعبارة وهى تبكى إلى أن طلع الفجر وطابت نفسها وأمسكت عن بكائها لما علمت أنها وقعت ولم يمكن خلاصها. فقالت لأخت حسن: «يا بنت الملك بهذا حكم الله على ناصيتى من غربتى وانقطاعى عن بلدى وأهلى وأخواتى فصبرٌ جميل على ما قضاه ربى».

وهنا أدرك شهرزادالصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : ثم إن أخت حسن أخلت لها مقصورة فى القصر لم يكن هناك أحسن منها. ولم تزل عندها تسلّيها وتطيّب خاطرها حتى رضيت وانشرح صدرها وضحكت وزال ما عندها من الكدر وضيق الصدر من فراق الأهل والأوطان وفراق أخواتها وأبويها وملكها. ثم إن أخت حسن خرجت إليه وقالت له: يا حسن «قم قبل يديها». فدخل وفعل ذلك. ثم قال لها: «يا سيدتى كونى مطمئنة القلب أنا ما أخذتك إلا لأجل أن أكون عبدك إلى يوم القيامة وأختى هذه جاريتك، وأنا يا سيدتى ما قصدى إلا أن أتزوجك بسنّة الله ورسوله وأسافر إلى بلادى وأكون أنا وأنت فى مدينة بغداد وأشترى لك الجوارى والعبيد، ولى والدة من خيار النساء تكون فى خدمتك وليس هناك أحسن من بلادنا وكل ما فيها أحسن مما فى غيرها من سائر البلاد وأهلها، وناسها طيبون بوجوه صباح». فبينما هو يخاطبها ويؤانسها وهى لا تخاطبه بحرف واحد وإذا بداقّ يدق باب القصر فخرج حسن ينظر من بالباب وإذا هنّ البنات قد حضرن من الصيد والقنص، ففرح بهنّ وتلقاهنّ وحيّاهنّ. فدعين له بالسلامة والعافية ودعا لهنّ هو الآخر. ثم نزلن عن خيولهن ودخلن القصر ودخلت كل واحدة منهنّ فى مقصورتها ونزعت ما كان عليها من الثياب الرثة ولبست قماشًا مليحًا وخرجت. ثم طلبن الصيد والقنص فأحضرن شيئًا كثيرًا من الغزلان وبقر الوحش والأرانب والسباع والضباع وغير ذلك وقدمنَ منه شيئًا إلى الذبح وتركن الباقى عندهنّ فى القصر. وحسن واقف بينهن مشدود الوسط يذبح لهنّ وهنّ يلعبنَ وينشرحنَ وقد فرحنَ بذلك فرحًا شديدًا.

فلما فرغن من الذبح قعدن يعملنَ شيئًا ليتغذينَ به. فتقدم حسن للخدمة فقلن له «لقد

أكثرت التنازل إلينا يا أخانا وعجبنا من فرط توددك إلينا وحاشاك يا أخانا هذا شىء يلزمنا أن نفعله معك لأنك آدمى وأنت أفضل منا ونحن من الجن». فدمعت عيونه وبكى بكاءً شديدًا. فقلن له: «ما الخبر وما يبكيك فقد كدرت عيشنا ببكائك فى هذا اليوم كأنك اشتقت إلى والدتك وإلى بلادك فإن كان الأمر كذلك فنجهزك ونسافر بك إلى وطنك وأحبابك؟» فقال لهنّ: «والله ما مرادى فراقكنّ». فقلن له: «ومن شوّش عليك منّا حتى تكدرت؟» فسكت ولم يعلمهنّ بشىء من حاله، فقامت أخته وقالت لهنّ: «إنه اصطاد طيرة من الهواء ويريد منكنّ تُمنّه على تأهليها». فالتفتنّ إليه كلهنّ وقلن له: «نحن كلنا بين يديك ومهما طلبته فعلناه لكن قصّ علينا خبرك ولا تكتم عنا شيئًا من حالك». فقال لأخته: «قصّى خبرى عليهنّ».

فقالت أخته لهنّ: «يا أخواتى إننا لما سافرنا وخلّينا هذا المسكين وحده ضاق عليه القصر وخاف أن يدخل عليه أحد، وأنتنّ تعرفن أن عقول بنى آدم خفيفة. ففتح الباب الموصل إلى سطح القصر حين ضاق صدره وصار منفردًا وحده وطلع فوقه وقعد هناك وأشرف على الوادى وصار يطلّ على جهة الباب خوفًا من أن يقصد أحد القصر. فبينما هو جالس يومًا من الأيام وإذا بالعشرة طيور قد أقبلنَ عليه قاصدات القصر، ولم يزلنَ سائرات حتى جلسنَ فوق المنظرة. فنظر إلى الطيرة التى هى أحسنهنّ وهى تنقرهنّ وما فيهنّ واحدة تقدر أن تمدّ يدها إليها. ثم جعلن مخالبهنّ فى أطواقهنّ فشققن الثياب الريش وخرجن منها وصارت كل واحدة منهنّ صبية مثل البدر ليلة تمامه وحسن واقف ينظر إليهنّ إلى أن قرب العصر، فدخلنَ فى القماش الريش التففنَ فيه وطرنَ.

«ثم إن حسن اشتغل فؤاده من أجل الطيرة الكبيرة وندم لكونه لم يسرق قماشها الريش فندم وأقام فوق القصر ينتظرها فامتنع من الأكل والشرب والنوم ولم يزل كذلك حتى لاح الهلال. فبينما هو قاعد وإذا بهنّ قد أقبله على عادتهن فقلعن ثيابهنّ الريش فسرق ثوب الكبيرة، فلما عرف أنها لم تقدر أن تطير إلا به أخذه وأخفاه أن يطلعنَ عليه فيقتلنه. ثم صبر حتى طرن فقام وقبضها ونزل بها من فوق القصر». فقالت لها أخواتها: «وأين هى؟» قالت لهنّ: «هى عنده فى المخدع الفلانى».

فلما سمعت البنات هذا الكلام التفتن إلى حسن وقلن له: «أرنا إياها». فقام معهنّ إلى أن أتى بهن إلى المخدع الذى فيه بنت الملك وفتحه ودخل قدّامهن وهنّ خلفه. فلما رأينها وعاينّ جمالها قبّلن الأرض بين يديها وتعجبنّ من حسن صورتها وظرف معانيها وسلّمن عليها وقلن لها: «والله يا بنت الملك الأعظم إن هذا شىء عظيم، ولو سمعت بوصف هذا الإنسى لكنت تتعجبين منه طول دهرك إلا أنه يا بنت الملك لم يطلب فاحشة وما طلبك إلا فى الحلال وأخبرناأنه أحرق الثوب الريش وإلا كنّا أخذناه منه». ثم إن واحدة من البنات اتفقت هى وإياها وتوكلت فى العقد وعقدت عقدها على حسن ووضع يده فى يدها وزوّجتها له بإذنها وعملنَ فى فرحها ما يصلح لبنات الملوك.

ثم إن حسنًا أقام معها مدة أربعين يومًا فى حظ وسرور والبنات تجدد له كل يوم فرحًا ونعمةوهدايا وتحفًا، وهو بينهنّ فى سرور وانشراح وطاب لبنت الملك القعود بينهن ونسيت

أهلها، ثم بعد الأربعين يومًا كان حسن نائمًا فرأى والدته حزينة عليه وقد دقّت عظامها وانتحل جسمها واصفرّ لونها وتغير حالها وكان هو فى حالة حسنة، فلما رأته على هذه الحالة قالت له: «يا ولدى يا حسن كيف تعيش فى الدنيا منعمًا وتنسانى فانظر لحالى بعدك وأنا ما أنساك ولا لسانى يترك ذكرك حتى أموت، وقد عملت لك قبرًا عندى فى الدار حتى لا أنساك أبدًا، أترى أعيش ياولدى وأنظرك عندى ويعود شملنا مجتمعًا كما كان»؟ فانتبه حسن من نومه وهو يبكى وينوح ودموعه تجرى على خديه مثل المطر وكان حزينًا كئيبًا لا تنشف دموعه ولم يجئه نوم ولم يقرّ له قرار ولم يبق عنده اصطبار، فلما أصبح دخلت عليه البنات وصبحنَ عليه وانشرحن معه على عادتهنّ فلم يلتفت إليهنّ، فسألن زوجته عن حاله فقالت لهنّ: «ما أدرى»، فقلنَ لها: «اسأليه عن حاله». فتقدمت إليه وقالت له «ما الخبر يا سيدى» فتنهد وأخبرها بما رآه فى منامه ثم أنشد:

قد بقينا موسوسين حيارى ... نطلب القرب ماإليه سبيل
فدواهى الهوى تحنّ إلينا ... وخفيف الهوى علينا ثقيل

فأخبرتهن زوجته بما قال لها، فلما سمعت البنات الشعر رثين لحاله وقلنَ له: «تفضل باسم الله ما نقدر أن نمنعك من زيارتها بل نساعدك على زيارتها بكل ما نقدر عليه، ولكن ينبغى أن تزورنا ولا تنقطع عنا ولو فى كل سنة مرة واحدة». فقال لهنّ: «سمعًا وطاعةً». فقامت البنات من وقتهنّ وعملن له الزاد وجهزن له العروسة بالحلىّ والحلل وكل شىء غال يعجز عنه الوصف وهيأنَ له تحفًا تعجز عن حصرها الأقلام، ثم إنهنّ ضربنَ الطبل فجاءت النجائب إليهن من كل مكان فاخترنَ منها ما يحمل جميع ما جهزنه وأركبنَ الجارية وحسنًا وحملنَ إليهما خمسة وعشرين تختًا من الذهب وخمسين من الفضة ثم سرن معهما ثلاثة أيام فقطعنَ فيها مسافة ثلاثة أشهر، ثم إنهنّ ودعنهما وأردن الرجوع عنهما فاعتنقته أخته الصغيرة وبكت حتى غشى عليها، فلما أفاقت أنشدت هذين البيتين:

لا كان يوم الفراق ... أصلا لم يبق فى المقلتين نوما
شتت منى ومنك شملا ... فسر يوما وساء يوما

فلما فرغت من شعرها ودعته وأكدت عليه أنه إذا وصل إلى بلده واجتمع بأمه واطمأن قلبه لا يقطعها من الزيارة فى كل ستة أشهر مرة ، وقالت له : « إذا أهمك أمر أو خفت مكروها فدق طبل المجوسى فتحضر النجائب واركب وارجع إلينا ولا تتخلف عنا » . فحلف لها على ذلك ثم أقسم عليهن أن يرجعن ، فرجعن بعد أن ودعنه وحزن على فراقه وأكثرهن حزنا أخته الصغيرة فإنها لم يستقر لها قرار وصارت تبكى ليلا ونهارا.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

◆◆◆

قالت شهر زاد : هذا ما كان منهن ، وأما ما كان من أمر حسن فإنه صار طول الليل والنهار يقطع مع زوجته البرارى والقفار ، والأودية والأوعار ، فى الهواجر والأسحار، وكتب الله لهما السلامة فسلما ووصلا إلى مدينة البصرة، ولم يزالا سائرين حتى أناخا على باب

داره نجائبهما، ثم صرف النجائب وتقدم إلى الباب ليفتحه فسمع والدته وهى تبكى بصوت رقيق من كبد ذاقت عذاب الحريق، وهى تنشد هذه الأبيات:

وكيف يذوق النوم من عدم الكرى ويسهر ليلاً والأنام رقودُ
وقد كان ذا مال وأهل وعزة فأضحى غريب الدار وهو وحيدُ
له جمرة بين الضلوع وأنة وشوقٌ شديدٌ ما عليه مزيدُ
تولّى عليه الوجد والوجد حاكمٌ يبوح بما يلقاه وهو جليدُ
وحالته فى الحب تخبر أنه حزينٌ كئيبٌ والدموع شهودُ

فبكى حسن لما سمع والدته تبكى وتندب، ثم طرق الباب طرقة مزعجة، فقالت أمه: «من بالباب»؟ فقال لها: «افتحى»، ففتحت الباب ونظرت إليه، فلما عرفته خرت مغشيا عليها، فما زال يلاطفها إلى أن أفاقت فعانقها وعانقته وقبّلته، ثم نقل حوائجه ومتاعه إلى داخل الدار والجارية تنظر إلى حسن وأمه، ثم إن أم حسن لما اطمأن قلبها وجمع الله شملها بولدها أنشدت هذه الأبيات:

رقّ الزمان لحالتى ورثى لطول تحرّقى
وأنالنى ما أشتهى وأزال مما أتقى
فلأصفحنّ عما جنا ه من الذنوب السبق
حتى جنايته بما فعل المشيب بمفرقى

ثم إن والدة حسن قعدت هى وإياه يتحدثان وصارت تقول له: «كيف حالك يا ولدى مع الأعجمى» فقال لها: «يا أمى ما كان أعجميا بل كان مجوسيا يعبد النار دون الملك الجبار». ثم إنه أخبرها بما فعل به من أنه سافر به وحطه فى جلد الجمل وخيطه عليه وحملته الطيور وحطته فوق الجبل، وأخبرها بما رآه فوق الجبل من الخلائق الميتين الذين كان يحتال عليهم المجوسى ويتركهم فوق الجبل بعد أن يقضوا حاجته، وكيف رمى روحه فى البحر من فوق الجبل وسلّمه الله تعالى وأوصله إلى قصر البنات ومؤاخاة البنت له وقعوده عند البنات،وكيف أوصل الله المجوسى إلى المكان الذى هو فيه وقتله إياه وأخبرها بقصة زوجته كلها إلى أن جمع الله شملهما ببعضهما.

فلما سمعت أمه حكايته تعجبت وحمدت الله تعالى على عافيته وسلامته، ثم قامت إلى تلك الحمول فنظرتها وسألته عنها فأخبرها بما فيها ففرحت فرحًا عظيمًا، ثم تقدمت إلى الجارية تحدثهاوتؤانسها، فلما وقعت عينها عليها اندهش عقلها من ملاحتها وفرحت وتعجبت من حسنها وجمالها وقدّها واعتدالها ، ثم قالت له«يا ولدى الحمد لله على السلامة وعلى رجوعك سالمًا». ثم إن أمه قعدت بجنب الصبية وآنستها وطيبت خاطرها، ثم نزلت فى بكرة النهار إلى السوق فاشترت عشر بدلات أفخر ما فى المدينة من الثياب وأحضرت لها الفرش العظيم وألبست الصبية وجمّلتها بكل شىء مليح.

ثم أقبلت على ولدها وقالت : «يا ولدى نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش فى هذه المدينة وأنت تعرف أننا ناس فقراء والناس يتهموننا بعمل الكيمياء فقم بنا نسافر إلى مدينة

بغداد دار السلام فى حرم الخليفة وتقعد أنت فى دكان فتبيع وتشترى ونتقى الله عزّ وجلّ فيفتح عليك بهذا المال». فلما سمع حسن كلامها استصوبه وقام من وقته وخرج من عندها وباع البيت وأحضر النجائب وحمل عليها جميع أمواله وأمتعته وأمه وزوجته وسار، ولم يزل سائرًا إلى أن وصل إلى دجلة فاكترى مركبًا لبغداد ونقل فيها جميع أمواله وحوائجه ووالدته وزوجته وكل ما كان عنده، ثم ركب وسار بهم المركب فى ريح طيبة مدة عشرة أيام حتى أشرفوا على بغداد، فلما أشرفوا عليها فرحوا ودخل بهم المركب المدينة فطلع من وقته وساعته إلى المدينة واكترى مخزنًا فى بعض الخانات ثم نقل حوائجه من المركب إليه وطلع فأقام ليلة فى الخان فلما أصبح غير ما عليه من الثياب.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما رآه الدلال سأله عن حاجته وعما يريد. فقال له: «أريد دارًا تكون مليحة واسعة». فعرض عليه الدور التى عنده فأعجبته دار كانت لبعض الوزراء فاشتراها منه بمائة ألف دينار من الذهب وأعطاه الثمن ثم عاد إلى الخان الذى نزل فيه ونقل جميع ماله وحوائجه إلى الدار ثم خرج إلى السوق وأخذ ما تحتاج إليه الدار من آنية وفرش وغير ذلك واشترى خدمًا ومن جملتها عبد صغير للدار، وأقام مطمئنًا مع زوجته فى ألذّ عيش وسرور مدة ثلاث سنين وقد رزق منها بغلامين سمّى أحدهما ناصرًا والآخر منصورًا .

وبعد هذه المدة تذكر أخواته البنت وتذكر إحسانهن إليه وكيف ساعدنه على مقصوده فاشتاق إليهنّ، وخرج إلى أسواق المدينة فاشترى منها شيئًا من حلىّ وقماش نفيس ونقل ما رأين مثله قط ولا يعرفنه. فسألته أمه عن سبب اشتراء تلك التحف. فقال لها: «إنى عزمت على أن أسافر إلى أخواتى اللاتى فعلن معى كل جميل ورزقى الذى أنا فيه من خيرهن وإحسانهنّ إلىّ فإنى أريد أن أسافر إليهنّ وأنظرهنّ وأعود قريبًا إن شاء الله تعالى. فقالت له: «يا ولدى لا تغب عنى». فقال لها: «اعلمى يا أمى كيف تكونين مع زوجتى وهذا ثوبها الريش فى صندوق مدفون فى الأرض فاحرصى عليه لئلا تقع فيه فتأخذه وتطير هى وأولادها ويروحون وأبقى لا أقع لهم على خبر فأموت كمدًا من أجلهم واعلمى يا أمى أنى أحذرك من أن تذكرى ذلك لها». ثم إن حسنًا قال: «واعلمى أنها بنت ملك الجان وما فى ملوك الجان أكبر من أبيها ولا أكثر منه جنودًا ولا مالاً، واعلمى أنها سيدة قومها وأعزّ ما عند أبيها فهى عزيزة النفس جدا اخدميها أنت بنفسك ولا تمكنيها من أن تخرج من الباب أو تطلّ من الطاقة أو من حائط فإنى أخاف عليها من الهواء إذا هبّ، وإذا جرى عليها أمر من أمور الدنيا فأنا أقتل روحى من أجلها». فقالت أمه: «أعوذ بالله من مخالفتك يا ولدى هل أنا مجنونة حتى توصينى بهذه الوصية وأخالفك فيها سافر يا ولدى وطب نفسًا وسوف تحضر فى خير وتنظرها إن شاء الله تعالى وتخبرك بما جرى لها منى، ولكن يا ولدى لا تقعد غير مسافة الطريق». وكانت زوجته بالأمر المقدّر تسمع كلامه لأمه وهما لا يعرفان ذلك.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : ثم إن حسنًا قام وخرج إلى خارج المدينة ودق الطبل فحضرت له النجائب فحمل عشرين حملاً من تحف العراق وودّع زوجته وأولاده وكان عمر واحد من ولديه سنة وعمر الآخر سنتين ثم إنه رجع إلى والدته وأوصاها ثانيًا ثم إنه ركب وسار إلى أخواته. ولم يزل مسافرًا ليلاً ونهارًا فى أودية وجبال وسهول وأوعار مدة عشرة أيام. وفى اليوم الحادى عشر وصل إل القصر ودخل على أخوته ومعه الذى أحضره إليهنّ. لما رأينه فرحنّ به وهنَّينه بالسلامة. وأما أخته فإنها زينت القصر ظاهره وباطنه. ثم إنهنّ أخذنّ الهدية وأنزلنه فى مقصورة مثل العادة وسألنه عن والدته وعن زوجته، فأخبرهنّ أنها ولدت منه ولدين. ثم إن أخته الصغيرة لما رأته طيبًا بخير فرحت فرحًا شديدًا وأنشدت تقول:

أستنشق الريحَ من أكناف أرضكمُ عند الهبوب إذا مرّت بكم سحرا
وأسألُ الريح عنكم كلما خطرت وغيركم فى فؤادى قط ما خطرا

ثم إنه قام عندهن فى الضيافة والكرامة مدة ثلاثة أشهر وهو فى فرح وسرور وغبطة وحبور وصيد وقنص. هذا ما كان من حديثه. وأما ما كان من حديث أمه وزوجته فإنه لما سافر حسن أقامت زوجته يومًا وثانيًا مع أمه وقالت لها فى اليوم الثالث: «سبحان الله هل أقعد معه ثلاث سنين ما أدخل الحمام؟». وبكت. فرقّت أمه لحالها وقالت لها: «يا بنتى نحن هنا غرباء وزوجك ما هو فى البلد فلو كان حاضرًا كان يقوم بخدمتك أما أنا فلا أعرف أحدًا ولكن يا بنتى أسخن لك الماء وأغسل رأسك فى حمام البيت». فقالت لها: «يا سيدتى لوقلت هذا القول لبعض الجوارى كانت طلبت منك البيع فى السوق وما كانت تقعد عندكم، ولكن يا سيدتى إن الرجال معذورون فإن عندهم غيرة وعقولهم تقول إن المرأة إذا خرجت من بيتها ربما تعمل فاحشة، والنساء يا سيدتى ما كلهنّ سواء وأنت تعرفين أن المرأة إذا كان لها غرض فى شىء ما يغلبها أحد ولا يقدر أن يحرص عليها ولا يصونها ولا يمنعها من الحمام ولا من غيره وتعمل كل ما تختاره».

ثم إنها بكت ودعت على نفسها وصارت تعدّد على نفسها وغربتها، فرقّت لحالها أمّ زوجها وعلمت أن كل ما قالته لابدّ منه، فقامت وهيأت حوائج الحمام التى تحتاجان إليها وأخذتها وراحت إلى الحمام. فلما دخلتا الحمام صار النساء جميعًا ينظرن إليها ويسبحنّ الله عزّ وجلّ ويتأملن فيما خلق من الصورة البهية. وصار كل من جاز من النساء على الحمام يدخل ويتفرّج عليها وشاع فى البلد ذكرها وازدحم الناس عليها، وصار الحمام لا ينشق من كثرة النساء التى فيه. فاتفق بسبب ذلك الأمر العجيب أنه حضر إلى الحمام فى ذلك اليوم جارية من جوارى أمير المؤمنين هارون الرشيد يقال لها تحفة العوّادة، فرأت النساء فى زحمة والحمام لا ينشقّ من كثرة النساء والبنات فسألت عن الخبر فأخبرنها بالصبية فجاءت عندها ونظرت إليها وتأملت فيها فتحير عقلها من حسنها وجمالها وسبحت الله جلّ جلاله على ما خلق من الصور الملاح. ولم تدخل ولم تغتسل وإنما صارت قاعدة وباهتة فى الصبية إلى أن فرغت من الغسل ولبست ثيابها فزادت حسنًا على حسنها.

فلما خرجت من الحرارة قعدت على البساط والمساند وصارت النساء ناظرات إليها،

فالتفتت إليهنّ وخرجت، فقامت تحفة العوّادة جارية الخليفة وخرجت معها حتى عرفت بيتها وودّعتها ورجعت إلى قصر الخليفة. وما زالت سائرة حتى وصلت بين أيادى السيدة زبيدة وقبّلت الأرض بين يديها. فقالت السيدة زبيدة: «يا تحفة ما سبب إبطائك فى الحمام؟» فقالت: «يا سيدتى رأيت جارية فى الحمام معها ولدان صغيران كأنهما قمران ما رأى أحد مثلها لا قبلها ولا بعدها وليس مثل صورتها فى الدنيا بأسرها، وحق نعمتك يا سيدتى إن عرّفت بها أمير المؤمنين قتل زوجها وأخذها منه لأنه لا توجد مثلها واحدة فى النساء، وقد سألت عن زوجها فقالوا إن زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصرى، وتبعتها من خروجها من الحمام إلى أن دخلت بيتها فرأيته بيت الوزير الذى له بابان باب من جهة البحر وباب من جهة البرّ، وأنا أخاف يا سيدتى أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوّج بها».

فقالت السيدة زبيدة : «ويلك يا تحفة هل بلغت هذه الجارية من الحسن والجمال أن أمير المؤمنين يبيع دينه بدنياه ويخالف الشرع لأجلها، والله لابدّ لى من النظر إلى هذه الصبية فإن لم تكن كما ذكرت أمرت بضرب عنقك، يا فاجرة إن فى سراية أمير المؤمنين ثلاثمائة وستين جارية بعدد أيام السنة ما فيهن واحدة بالصفات التى تذكرينها». فقالت: «يا سيدتى لا والله ولا فى بغداد بأسرها مثلها بل ولا فى العجم ولا فى العرب ولا خلق الله عزّ وجلّ مثلها». فعند ذلك دعت السيدة زبيدة بمسرور فحضر وقبّل الأرض بين يديها فقالت له: «يا مسرور اذهب إلى دار الوزير التى بالبابين باب على البحر وباب على البرّ وائتنى بالصبية التى هناك هى وأولادها والعجوز التى عندها لا تبطئ»، فقال مسرور: «السمع والطاعة». ثم خرج من بين يديها وسار حتى وصل إلى باب الدار فطرق الباب فخرجت له العجوز أم حسن وقالت: «من بالباب؟» فقال لها مسرور: «أنا مسرور خادم أمير المؤمنين».

ففتحت الباب ودخل وسلّم عليها وردّت عليه السلام وسألته عن حاجته. فقال لها: «إن السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد من بنى العباس عمّ النبى ﷺ تدعوك إليها أنت وزوجة ابنك وأولادها، فإن النساء أخبرنها عنها وعن حسنها». فقالت أم حسن: «يا مسرور نحن ناس غرباء وزوج البنت ولدى ما هو فى البلد ولم يأمرنى بالخروج أنا ولا هى لأحد من خلق الله تعالى وأنا أخاف أن يجرى أمر ويحضر ولدى فيقتل روحه، فمن إحسانك يا مسرور إلاّ تكلفنا ما لا نطيق». فقال مسرور: «يا سيدتى لو علمت أن فى هذا خوفًا عليكم ما كلفتكم الرواح، وإنما مراد السيدة زبيدة أن تنظرها وترجع فلا تخالفى تندمى، وكما آخذكما أردكما إلى هنا سالمتين إن شاء الله تعالى». فما قدرت أم حسن أن تخالفه فدخلت وهيأت الصبية وأخرجتها هى وأولادها وساروا خلف مسرور وهو قدامهم إلى قصر الخليفة، فطلع بهم حتى أوقفهم قدام السيدة زبيدة فقبّلوا الأرض بين يديها ودعوا لها والصبية مستورة الوجه. فقالت لها السيدة زبيدة: «أما تكشفين عن وجهك لأنظره؟» فقبّلت الصبية الأرض بين يديها وأسفرت عن وجه يخجل البدر فى أفق السماء، فلما نظرتها السيدة زبيدة شخصت إليها وسرّحت فيها البصر وأضاء القصر من نورها وضوء وجهها واندهشت

زبيدة من حسنها وكذلك كل من فى القصر وصار كل من رآها مجنونًا لا يقدر أن يكلّم أحدًا. ثم إن السيدة زبيدة قامت وأوقفت الصبية وضمتها إلى صدرها وأجلستها معها على السرير وأمرت أن يزينوا القصر. ثم أمرت أن يحضروا لها بدلة من أفخر الملبوس وعقدًا من أنفس الجواهر وألبست الصبية إياهما وقالت لها: «يا سيدتى إنك أعجبتنى وملأت عينى أى شىء عندك من الصنائع؟» فقالت الصبية: «يا سيدتى لى ثوب ريش لو لبسته بين يديك لرأيت من أحسن الصناع ما تتعجبين منه ويتحدث بحسنه كل من يراه جيلاً بعد جيل». فقالت لها: «وأين ثوبك هذا؟» قالت: «هو عند أمّ زوجى فاطلبيه لى منها». فقالت السيدة زبيدة: «يا أمى بحياتى عندك أن تنزلى وتأتى لها بثوبها الريش حتى تفرّجنا على الذى تعمله وخذيه ثانيًا». فقالت العجوز: «يا سيدتى هذه كذابة هل رأيتِ أحدًا من النساء له ثوب من الريش فهذا لا يكون إلا للطيور».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

◆ ◆ ◆

فقالت الصبية للسيدة زبيدة: «وحياتك يا سيدتى لى عندها ثوب ريش وهو فى صندوق مدفون فى الخزانة التى فى الدار». فقلعت السيدة زبيدة من عنقها عقد جوهر يساوى خزائن كسرى وقيصر وقالت لها: «يا أمى خذى هذا العقد». وناولتها إياه وقالت لها: «بحياتى أن تنزلى وتأتى بهذا الثوب لتتفرج عليه وخذيه بعد ذلك». فحلفت لها أنها ما رأت هذا الثوب ولا تعرف له طريقًا. فصرخت السيدة زبيدة على العجوز وأخذت منها المفتاح ونادت مسرورًا فحضر فقالت له: «خذ هذا المفتاح واذهب إلى الدار وافتح الخزانة التى بابها كذا وكذا وفى وسطها صندوق فاطلعه واكسره وهات الثوب الريش الذى فيه وأحضره بين يدىّ». فقال: «سمعًا وطاعة».

ثم إنه تناول المفتاح من يد السيدة وذهب. فقامت العجوز أمّ حسن وهى باكية العين ندمانة على مطاوعتها الجارية ورواحها إلى الحمام معها ولم تكن الصبية طلبت الحمام إلا مكيدة، ثم إن العجوز دخلت هى ومسرور وفتحت باب الخزانة فدخل وأخرج الصندوق وأخرج القميص الريش ولفه معه فى فوطة وأتى به إلى السيدة زبيدة. فأخذته وقلّبته وقد تعجبت من حسن صناعته. ثم ناولته وقالت لها: «هل هذا ثوبك الريش؟» قالت: «نعم يا سيدتى». ومدت الصبية يدها إليه وأخذته منها وهى فرحانة. ثم إن الصبية تفقدته فرأته صحيحًا كما كان عليها ولم يضع منه ريشة ففرحت به، وقامت من جنب السيدة زبيدة وأخذت القميص وفتحته وأخذت أولادها فى حضنها واندرجت فيه وصارت طيرة بقدرة الله عزّ وجلّ.

فتعجبت السيدة زبيدة من ذلك وكذلك كل من حضر وصار الجميع يتعجبون من فعلها، ثم إن الصبية تمايلت وتمشت ورقصت ولعبت وقد شخص لها الحاضرون وتعجبوا من فعلها. ثم قالت لهم بلسان فصيح: «يا سادتى هل هذا مليح؟» فقال لها الحاضرون: «نعم يا سيدة الملاح كل ما فعلتيه مليح». فقالت لهم: «وهذا الذى أعمله أحسن منه يا سادتى». وفتحت أجنحتها وطارت بأولادها وصارت فوق قبة القصر ووقفت على سطح القاعة، فنظروا إليها

بالأحداق وقالوا لها: «والله إن هذه صنعة غريبة مليحة ما رأينا مثلها قط» ثم إن الصبية لما أرادت أن تطير إلى بلادها تذكرت حسنًا وقالت: «اسمعوا يا سادتي». وأنشدت هذه الأبيات:

يا من خلا عن ذى الديار وسارا ... نحو الحبائب مسرعًا فرّارا
أتظنُّ أنى فى نعيم بينكم ... والعيش منكم لم يكن أكدارا
لما اختفى ثوبى تيقّن أننى ... لم أدعُ فيه الواحد القهارا
قد صار يوصى أمه بحفاظه ... فى مخدع وعدا علىّ وجارا
فسمعت ما قالوه ثم حفظته ... ورجوت خيرًا زائدًا مدرارا
فرواحى الحمّام كان وسيلةً ... حتى غدت فىّ العقول حيارى
وتعجبت عرس الرشيد لبهجتى ... إذ شاهدتنى يمنةً ويسارا
ناديت يا امرأة الخليفة إن لى ... ثوبًا من الريش العلى فخارا
لو كان فوقى تنظرين عجائبًا ... تمحو العنا وتبدد الأكدارا
فاستفصلت عرس الخليفة أين ذا ... فأجبت فى دار الذى قد دارا
فانقضّ مسرورٌ وأحضره لها ... وإذا به قد أشرق الأنوارا
فأخذته من كفه وفتحته ... ورأيت منه الجيب والأزرارا
فدخلت فيه ثم أولادى معى ... وفردت أجنحتى وطرتُ فرارا
يا أمّ زوجى أخبريه إذا أتى ... إن حبَّ وصلى فليفارق دارا

فلما فرغت من شعرها قالت لها السيدة زبيدة: «أما تنزلين عندنا حتى نمتلئ بحسنك يا سيدة الملاح سبحان من أعطاك الفصاحة والصباحة؟» قالت: «هيهات أن يرجع مافات» ثم قالت لأم حسن الحزين المسكين: «والله يا سيدتى يا أمّ حسن إنك توحشينى، فإذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق واشتهى القرب والتلاق، فليلحقنى إلى جزائر واق». ثم طارت هى وأولادها وطلبت بلادها.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما رأت أم حسن ذلك بكت ولطمت وجهها وانتحبت حتى غشى عليها. فلما أفاقت قالت لها السيدة زبيدة: «يا سيدتى الحاجة ما كنت أعرف أن هذا يجرى ولو كنت أخبرتنى بها ما كنت أتعرض لك، وما عرفت أنها من الجن الطيارة إلا فى هذا الوقت، ولو عرفت أنها على هذه الصفة ما كنت مكنتها من لبس الثوب ولا كنت أخليها تأخذ أولادها، ولكن يا سيدتى اجعلينى فى حلّ». فقالت العجوز وما وجدت فى يدها حيلة: «أنت فى حلّ». ثم خرجت من قصر الخلافة ولم تزل سائرة حتى دخلت بيتها وصارت تلطم وجهها حتى غشى عليها. فلما أفاقت من غشيتها استوحشت إلى الصبية وإلى أولادها وإلى رؤية ولدها فأنشدت هذه الأبيات:

يوم الفراق بعادكم أبكانى ... أسفًا لبعدكم عن الأوطانِ

ناديت من ألم الفراق بحرقة والدمع قرّح بالبكا أجفاني
هذا الفراق فهل لنا من عودة لقد أزال فراقكم كتماني
يا ليتهم عادوا إلى الوفا فلعلّ إن عادوا يعود زماني

ثم قامت وحفرت في البيت ثلاثة قبور وأقبلت عليها بالبكاء أثناء الليل وأطراف النهار وحين طالت فيه غيبة ولدها وزاد بها القلق والشوق والحزن أنشدت هذه الأبيات:

خيالك بين طابقة الجفون وذكرك في الخوافق والسكون
وحبك قد جرى في العظم مني كجري الماء في ثمر الغصون
ويومٌ لا أراك يضيق صدري وتعذرني العواذل في شجوني
أيا من قد تملكني هواه وزاد على محبته جنوني
خَفِ الرحمن فيّ وكن رحيمًا هواك أذاقني ريب المنون

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : هذا ما كان من أمر أمّ حسن. أما ما كان من أمر ولدها حسن فإنه لما وصل إلى البنات حلفنَ عليه أن يقيم عندهنّ ثلاثة أشهر. ثم بعد ذلك جهزنَ له المال وهيأن له عشرة أحمال خمسة من الذهب وخمسة من الفضة وهيأن له من الزاد حملاً واحدًا وسفّرنه وخرجنَ معه. فحلف عليهنّ أن يرجعن فاقبلنَ على عناقه من أجل التوديع. ثم إن حسنًا ودعهنّ وبكى إلى أن غشى عليه بسبب فراقه لهنّ. ثم إنه جدّ في المسير حتى وصل إلى بغداد دار السلام وحرم الخلافة العباسية ولم يدر بالذي جرى بعد سفره.

فدخل الدار على والدته ليسلم عليها فرآها قد انتحل جسمها ورقّ عظمها من كثرة النوح والسهر والبكاء والعويل حتى صارت مثل الخلال ولم تقدر أن تردّ الكلام. فصرف النجائب وتقدّم إلى أمه فسألها عن زوجته وأولاده فبكت حتى غشى عليها. فلما رآها على تلك الحالة قام في الدار وفتش على زوجته وعلى أولاده فلم يجد لهم أثرًا. ثم إنه نظر في الخزانة فوجدها مفتوحة والصندوق مفتوحًا ولم يجد فيه الثوب. فعند ذلك عرف أنها تمكنت من الثوب الريش وأخذته وطارت وأخذت أولادها معها.

فرجع إلى أمه فرآها قد أفاقت من غشيتها فسألها عن زوجته وعن أولاده. فبكت وقالت: «يا ولدي عظّم الله أجرك فيهم وهذه قبورهم الثلاثة» فلما سمع كلام أمه صرخ صرخة عظيمة وخر مغشيا عليه واستمر كذلك من أول النهار إلى الظهر، فازدادت أمه غما على غمها وقد يئست من حياته. فلما أفاق بكى ولطم على وجهه وشقّ ثيابه وصار دائرًا في الدار متحيرًا. ثم أنشد يقول هذين البيتين :

شكى ألم الفراق الناس قبلي ورُوّع بالنوى حيٌّ وميتٌ
وأما مثل ما ضمّت ضلوعي فإني لا سمعتُ ولا رأيتُ

فلما فرغ من شعره أخذ سيفه وسلّه وجاء أمه وقال لها: «إن لم تعلميني بحقيقة الحال ضربت عنقك وقتلت روحي». فقالت له: «ياولدي لا تفعل ذلك وأنا أخبرك». ثم قالت له:

«أغمد سيفك واقعد حتى أحدثك بالذى جرى». فلما أغمد سيفه وجلس إلى جانبها أعادت عليه القصة من أولها إلى آخرها وقالت له: «يا ولدى لولا أنى رأيتها بكت على طلب الحمام وخفت منك أن تجىء وتشكو إليك فتغضب علىّ ما كنت ذهبت بها إليه، ولولا أن السيدة زبيدة غضبت علىّ وأخذت منى المفتاح قهرًا ما كنت أخرجت الثوب ولو كنت أموت، يا ولدى وأنت تعرف أن يد الخلافة لا تطاولها يد، فلما أحضروا لها الثوب أخذته وقلبته وكانت تظن أنه قد فقد منه شىء فوجدته لم يصبه شىء ففرحت وأخذت أولادها وشدّتهم فى وسطها ولبست الثوب الريش بعد ما قلعت لها السيدة زبيدة كل ما عليها إكرامًا لها ولجمالها. فلما لبست ثوب الريش انتفضت وصارت طيرة ومشت فى القصر وصاروا ينظرون إليها ويتعجبون من حسنها وجمالها. ثم طارت وصارت فوق القصر وبعد ذلك نظرت إلىّ وقالت لى: «إذا جاء ولدك وطالت عليه ليالى الفراق واشتهى القرب منى والتلاق، فليفارق وطنه ويذهب إلى جزائر واق».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع حسن كلام أمه حين حكت له جميع ما فعلت زوجته وقت ما طارت صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشيا عليه، ولم يزل كذلك إلى آخر النهار. فلما أفاق لطم على وجهه وصار يتقلب على الأرض مثل الحية، فقعدت أمه تبكى عند رأسه إلى نصف الليل. فلما أفاق من غشيته بكى بكاءً عظيمًا وأنشد هذه الأبيات:

قفوا انظروا حال الذى تهجرونه ... لعلكم بعد الجفا ترحمونهُ

فإن تنظروه تنكروه لسقمه ... كأنكمُ والله لا تعرفونه

وما هو إلا ميتٌ فى هواكم ... يُعدُّ من الأموات لولا أنينهُ

ولا تحسبوا أن التفرّق هيّنٌ ... يعزُّ على المشتاق والموت دونهُ

فلما فرغ من شعره قام وجعل يدور فى البيت وينوح ويبكى وينتحب مدة خمسة أيام لم يذق فيها طعامًا ولا شرابًا، فقامت إليه أمه وحلفته وأقسمت عليه أن يسكت من البكاء وهو لا يقبل كلامها. ومازال يبكى وينتحب وأمه تسليه وهو لا يسمع منها شيئًا، ومازال حسن على هذه الحالة يبكى إلى الصباح، ثم إنه أغفت عيناه فرأى زوجته حزينة وهى تبكى فقام من نومه وهو صارخ وأنشد هذين البيتين:

خيالك عندى ليس يبرح ساعةً ... جعلت له فى القلب أشرف موضع

ولولا رجاء الوصل ما عشت لحظةً ... ولولا خيال الطيف لم أتهجعِ

فلما أصبح الصباح زاد نحيبه وبكاؤه، ولم يزل باكى العين حزين القلب ساهر الليل قليل الأكل واستمرّ على هذه الحالة مدة شهر كامل. فلما مضى ذلك الشهر خطر بباله أن يسافر إلى أخواته لأجل أن يساعدنه على قصده من حصولها فأحضر النجائب ثم حمل خمسين هجينة من تحف العراق وركب واحدة منهنّ. ثم أوصى والدته على البيت وأودع جميع حوائجه إلا قليلاً أبقاه فى الدار ثم سار متوجهًا إلى أخواته لعله أن يجد عندهنّ مساعدة على اجتماع زوجته ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى قصر البنات فى جبل السحاب فلما دخل عليهنّ

قدّم إليهنّ الهدايا ففرحنّ بها وهنينه بالسلامة وقلن له: «يا أخانا ما سبب مجيئك بسرعة ومالك غير شهرين؟» فبكى وأنشد هذه الأبيات:

أرى النفس فى فكر لفقد حبيبها ... فلا تتهنى بالحياة وطيبها
سقامى داءٌ ليس يعرف طبه ... وهل يبرئ الأسقام غير طبيبها
فيا مانعى طيب المنام تركتنى ... أسائل عنك الريح عند هبوبها
قريبة عهد من حبيبى وقد حوى ... محاسن تدعو مقلتى لصبيبها
فيا أيها الشخص الملم بأرضه ... عسى نفحةً تحيى القلوب بطيبها

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما فرغ من شعره صرخ صرخةً عظيمة وخرّ مغشيا عليه وقعدت البنات حوله يبكينَ عليه. فلما سمعت كلامه أخته خرجت إليه فرأته راقدًا مغشيا عليه فصرخت ولطمت وجهها، فسمعها أخواتها فخرجن إليها فرأينَ حسنًا راقدًا مغشيا عليه فاحطن به وبكين عليه. ولم يخفَ عليهنّ حين رأينه ما حلّ به من الوجد والشوق. فسألنه عن حاله فبكى وأخبرهنّ بما جرى له فى غيابه حيث طارت زوجته وأخذت أولادها معها. فحزنَّ عليه وسألنه عن الذى قالت عندما راحت. قال:«يا أخواتى إنها قالت لوالدتى: قولى لولدك إذا جاء وطالت عليه ليالى الفراق، واشتهى القرب والتلاق، فليجئنى إلى جزائر واق» فلما سمعن كلامه تغامزن وتلاكزنَ وصارت كل واحدة تنظر إلى أختها وحسن ينظرهنّ. ثم أطرقنَ رؤوسهنّ إلى الأرض ساعة بعد ذلك ثم رفعنها وقلن: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». ثم قلن له: «امدد يدك إلى السماء فإن وصلت إلى السماء تصل إلى زوجتك وأولادك».

فلما قلنَ له ذلك جرت دموعه على خديه مثل المطر حتى بلّت ثيابه، وبكت البنات لبكائه وأخذتهنّ الشفقة والغيرة عليه وصرنّ يتلطفن معه ويصبرنه ويدعينّ له بجمع الشمل فأقبلت عليه أخته وقالت له: «يا أخى طب نفسًا وقرّ عينًا واصبر تبلغ مرادك فمن صبر وتأنى نال ما تمنى والصبر مفتاح الفرج». فقد قال الشاعر:

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتنَّ إلا خالىَ البالِ
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حالِ

ثم قالت له: «قوّ قلبك واشدد عزمك فإن ابن عشرة لا يموت وهو فى تسعة وبالبكاء والغم والحزن تمرض وتسقم، واقعد عندنا حتى تستريح وأنا أتحيل لك فى الوصول إلى زوجتك وأولادك إن شاء الله تعالى» فبكى بكاءً شديداً ثم جلس إلى جانب أخته وصارت تحدّثه وتسليه وتسأله عن الذى كان سببًا فى رواحها. فأخبرها عن سبب ذلك. فقالت له: «والله يا أخى إنى أردت أن أقول لك أحرق الثوب الريش فأنسانى الشيطان ذلك». وصارت تحدثه وتلاطفه. فلما طال عليه الأمر زاد به القلق. فلما نظرت أخته إلى ما هو فيه من الوجد قامت إلى أخواتها وهى باكية العين حزينة القلب وبكت بين أيديهنّ ورمت نفسها عليهنّ وقبلت أقدامهنّ وسألتهنّ مساعدة أخيها على قضاء حاجته واجتماعه بأولاده وزوجته وعاهدتهنّ على

أن يدبرن أمرًا يوصله إلى جزائر واق ومازالت تبكى بين يدى أخواتها حتى أبكتهنّ وقلن لها: «طيبى قلبك فإننا مجتهدات فى اجتماعه بأهله إن شاء الله تعالى». ثم أقام عندهنّ سنة كاملة وعينه لم تمسك عن الدموع.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : وكان لأخواتها عمّ أخو والدهنّ وشقيقه وكان اسمه عبد القدوس وكان يحبّ البنت الكبيرة محبة كثيرة وكان فى كل سنة يزورها مرة واحدة ويقضى حوائجها، وكانت البنات قد حدثنه بحديث حسن وما وقع له مع المجوسى وكيف قدر على قتله ففرح عمهنّ بذلك ودفع للبنت الكبيرة صرّة فيها بخور وقال لها: «يا بنت أخى إذا أهمك أمرٌ أو نالك مكروه أو عرضت لك حاجة فألقى هذا البخور فى النار واذكرينى فإنى أحضر لك بسرعة وأقضى حاجتك». وكان هذا الكلام فى أول يوم من السنة. فقالت تلك البنت لبعض أخواتها: «إن السنة مضت بتمامها وعمى لم يحضر،قومى اقدحى الزناد وائتينى بعلبة البخور». فقامت البنت وهى فرحانة وأحضرت علبة البخور وفتحتها وأخذت منها شيئًا يسيرًا وناولته لأختها فأخذته ورمته فى النار وذكرت عمها. فما فرغ البخور إلا وغبرة ظهرت من صدر الوادى. ثم بعد ذلك انكشف الغبار فبان من تحته شيخ راكب على فيل وهو يصيح من تحته. فلما نظرته البنات صار يشير إليهنّ بيديه ورجليه، ثم بعد ساعة وصل إليهنّ فنزل عن الفيل ودخل عليهنّ فعانقنه وقبلن يديه وسلمن عليه. ثم إنه جلس وصارت البنات يتحدثن معه ويسألنه عن غيابه فقال: «إنى كنت فى هذا الوقت جالسًا أنا وزوجة عمكن فشممت البخور فحضرت إليكنّ على هذا الفيل فما تريدين يا بنت أخى؟» قالت: «يا عمّ إننا اشتقنا إليك وقد مضت السنة وما عادتك أن تغيب عنا أكثر من سنة» فقال لهنّ: «إنى كنت مشغولاً وكنت عزمت على أن أحضر إليكن غدًا». فشكرنه ودعينّ له وقعدن يتحدثن معه. فقالت له البنت الكبيرة: «يا عمى إننا كنا حدّثناك بحديث حسن البصرى الذى جاء به بهرام المجوسى وكيف قتله وحدّثناك بالصبية بنت الملك الأكبر التى أخذها وما قاسى من الأمور الصعاب والأهوال وكيف اصطاد بنت الملك وتزوّج بها وكيف سافر بها إلى بلاده». قال: «نعم فما حدث له بعد هذا» قالت له: «إنها غدرت به وقد رزق منها بولدين فأخذتهما وسافرت بهما إلى بلادها وهو غائب وقالت لأمه: «إذا حضر ولدك وطالت عليه ليالى الفراق، وأراد منى القرب والتلاق، وهزته أرياح المحبة والاشتياق، فليجيئنى إلى جزائر واق». فحرك رأسه وعضّ على أصبعه ثم أطرق رأسه إلى الأرض وصار ينكت فى الأرض بأصبعه. ثم التفت يمينًا وشمالاً وحرّك رأسه وحسن ينظره وهو متوار.

فقالت البنات لعمهنّ : «ردّ علينا الجواب فقد تفتتت منا الأكباد». فهزّ رأسه إليهنّ وقال لهنّ: «يا بناتى لقد أتعب هذا الرجل نفسه ورمى روحه فى هول عظيم وخطر جسيم فإنه لا يقدر أن يقبل على جزائر واق». فعند ذلك نادت البنات حسنًا فخرج إليهنّ وتقدّم إلى الشيخ عبد القدّوس وقبّل يده وسلّم عليه. ففرح به وأجلسه بجانبه. فقالت البنات لعمهن: «يا عم بين

لأخينا حقيقة ماقلته». فقال له: «يا ولدى اترك عنك هذا العذاب الشديد فإنك لا تقدرأن تصل إلى جزائرواق ولو كان معك الجن الطيارة والنجوم السيارة لأن بينك وبين الجزائر سبعة أودية وسبعة بحار وسبعة جبال عظام. وكيف تقدر أن تصل إلى هذا المكان ومن يوصلك إليه؟ بالله عليك أن ترجع من قريب ولا تتعب سرّك».

فلما سمع حسن كلام الشيخ عبد القدوس بكى حتى غشى عليه وقعدت البنات حوله يبكين لبكائه. وأما البنت الصغيرة فإنها شقت ثيابها ولطمت على وجهها حتى غشى عليها فلما رآهن الشيخ عبد القدوس على هذه الحالة من الهمّ والوجد والحزن رقّ لهن وأخذته الرأفة عليهن فقال لهن: «اسكتن». ثم قال لحسن: «طيّب قلبك وأبشر بقضاء حاجتك إن شاء الله تعالى». ثم قال له: «يا ولدى قم وشدّ حيلك واتبعنى». فقام حسن على حيله بعد أن ودّع البنات وتبعه وقد فرح بقضاء حاجته.

ثم إن الشيخ عبد القدوس استدعى الفيل فحضر فركبه وأردف حسن خلفه وسار به مدة ثلاثة أيام بلياليها مثل البرق الخاطف حتى وصل إلى جبل عظيم أزرق وحجارته كلها زرق وفى وسط ذلك الجبل مغارة وعليها باب من الحديد الصينى، فأخذ الشيخ بيد حسن وأنزله ثم نزل الشيخ وأطلق الفيل. ثم تقدم إلى باب المغارة وطرقه فانفتح الباب وخرج إليه عبد أسود أجرد كأنه عفريت وبيده اليمنى سيف وبالأخرى ترس من فولاذ.

فلما نظر الشيخ عبد القدوس رمى السيف والترس من يده وتقدّم إلى الشيخ عبد القدوس وقبّل يده. ثم أخذ الشيخ بيد حسن ودخل هو وإياه وقفل العبد الباب خلفهما. فرأى حسن المغارة كبيرة واسعة جدا ولها دهليز معقود، ولم يزالوا سائرين مقدار ميل. ثم انتهى بهم السير إلى فلاة عظيمة وتوجهوا إلى ركن فيه بابان عظيمان مسبوكان من النحاس الأصفر ففتح الشيخ عبد القدوس بابًا ودخل ورده وقال لحسن: «اقعد على هذا الباب واحذر أن تفتحه وتدخل حتى أدخل وأرجع إليك عاجلاً». فلما دخل الشيخ غاب مدة ساعة فلكية ثم خرج ومعه حصان مسرج ملجم إن سار طار وإن طار لم يلحقه غبار. فقدمه الشيخ لحسن وقال له «اركب». ثم إن الشيخ فتح الباب الثانى فبان منه برّية واسعة فركب حسن الحصان وخرج الاثنان من الباب وصارا فى تلك البرّية.

فقال الشيخ لحسن: «يا ولدى خذ هذا الكتاب وسر على هذا الحصان إلى الموضع الذى يوصلك إليه فإذا نظرته وقف على باب مغارة مثل هذه فانزل عن ظهره واجعل عنانه فى قربوس السرج وأطلقه فإنه يدخل المغارة فلا تدخل وقف على باب المغارة مدة خمسة أيام ولا تضجر، فإنه فى اليوم السادس يخرج إليك شبح أسود عليه لباس أسود وذقنه بيضاء طويلة نازلة إلى سرّته، فإذا رأيته فقبّل يديه وامسك ذيله واجعله على رأسك وابك بين يديه حتى يرحمك فإنه يسألك عن حاجتك.

فإن قال لك: ما حاجتك؟ فادفع إليه هذا الكتاب فإنه يأخذه منك ولا يكلمك ويدخل ويخليك. فقف مكانك خمسة أيام أخر ولا تضجر، وفى اليوم السادس انتظره فإنه يخرج إليك

فإن خرج بنفسه فاعلم أن حاجتك تقضى وإن خرج إليك أحد من غلمانه فاعلم أنه يريد قتلك. والسلام».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم قال له الشيخ: «اعلم يا ولدى أن كل من خاطر بنفسه أهلك نفسه فإن كنت تخاف على نفسك فلا تلق بها إلى الهلاك. وإن كنت لا تخاف فدونك وما تريد فقد بيّنت لك الأمور، وإن شئت الرواح لصواحبك فهذا الفيل حاضر فإنه يسير بك إلى بنات أخى وهنّ يوصلنك إلى بلادك ويرددنك إلى وطنك ويرزقك الله خيرًا». فقال حسن للشيخ: «وكيف تطيب لى الحياة من غير أن أبلغ مرادى والله إنى لا أرجع أبدًا حتى أحصل زوجتى أو تدركنى منيتى؟» ثم بكى.

وأنشد هذه الأبيات :

على فقد حبى مع تزايد صبوتى	وقفت أنادى بانكسارى وذلتى
وقبّلت ترب الربع شوقًا لأجله	ولم يُجدنى إلا تزايد حسرتى
رعى الله من بانوا وفى القلب ذكرهم	فواصلت آلامى وفارقت لذتى
يقولون لى صبرًا وقد رحلوا به	وقد أضرموا يوم الترحل زفرتى
وما راعنى إلا الوداع وقوله	إذا غبت فاذكرنى ولا تنس صحبتى
لمن التجى ومن أرتجى بعد فقدهم	وكانوا رجائى فى رخائى وشدتى
فوا حسرتا لما رجعت مودّعًا	وسرّت عداى المبغضون برجعتى
فوا أسفا هذا الذى كنت حاذرًا	ويا لوعتى زيدى لهيبًا بمهجتى
فإن غاب أحبابى فلا عيش بعدهم	وإن رجعوا يا فرحتى ومسرتى
فوالله لم ينفضّ دمعى من البكا	على فقدهم بل عبرة بعد عبرةٍ

فلما سمع الشيخ عبد القدوس إنشاده وكلامه علم أنه لا يرجع عن مراده وأن الكلام لايؤثر فيه وتيقن أنه لابد أن يخاطر بنفسه ولو تلفت مهجته. فقال: «اعلم يا ولدى أن جزائر واق سبع جزائر فيها عسكر عظيم وذلك المسكر كله بنات أبكار وسكان الجزائر الجوانية شياطين ومردة وسحرة وأرهاط مختلفة وكل من دخل أرضهم لا يرجع وما وصل إليهم أحد قط، ورجع، فبالله عليك يا ولدى أن ترجع إلى أهلك من قريب، واعلم أن البنت التى قصدتها بنت ملك هذه الجزائر كلها، وكيف تقدر أن تصل إليها؟ فاسمع منى يا ولدى ولعلّ الله يعوّضك خيرًا منها». فقال حسن: «والله يا سيدى لو قُطعت فى هواها إربًا إربًا ماازددت إلا حبا وطربًا ولابدّ من رؤية زوجتى وأولادى والدخول فى جزائر واق وإن شاء الله تعالى ما أرجع إلا بها وبأولادى». فقال له الشيخ عبد القدوس: «حينئذ لابد لك من السفر». فقال: «نعم وإنما أريد منك الدعاء بالإسعاف والإعانة لعلّ الله يجمع شملى بزوجتى وأولادى عن قريب». ثم بكى وأنشد هذه الأبيات:

أنتم مرادى وأنتم أحسن البشر ‏ أحلّكم فى محل السمع والبصر
ملكتمُ القلب منى وهو منزلكم ‏ وبعدكم سادتى أصبحت فى كدر
فلاتظنوا انتقالى عن محبتكم ‏ فحبكم صير المسكين فى ضرر
غبتم فغاب سرورى بعد غيبتكم ‏ وأصبح الصفو عندى غاية الكدر
تركتمونى أراعى النجم من ألم ‏ أبكى بدمع يحاكى هاطل المطر
يا ليل طلتَ على من بات فى قلقٍ ‏ من شدة الوجد يرعى طلعة القمر
إن جزت يا ريح حيا فيه قد نزلوا ‏ بلّغ سلامى لهم فالعمر فى قصر
وقل لهم بعض ما لاقيت من ألم ‏ إن الأحبة لايدرون من خبرى

فلم فرغ حسن من شعره بكى بكاءً شديدًا حتى غشى عليه. فلما أفاق قال له الشيخ عبد القدوس: «ياولدى إن لك والدة فلا تُذقها فقدك». فقال حسن للشيخ: «والله ياسيدى مابقيت ارجع إلا بزوجتى أو تدركنى منيتى». ثم بكى وأنشد يقول:

وحقّ الهوى ما غيَّر البعد عهدكم ‏ ولا أنا ممن للعهود يخونُ
وعندى من الأشواق ما لو شرحته ‏ إلى الناس قالوا قد عراه جنونُ
فوجدٌ وحزنٌ وانتحابٌ ولوعةٌ ‏ ومن حاله هذا فكيف يكونُ

فلما فرغ من شعره علم الشيخ أنه لا يرجع عما هو فيه ولو ذهبت روحه فناوله الكتاب ودعا له وأوصاه بالذى يفعله وقال له: «إنى قد أكدت لك فى الكتاب على أبى الرويش ابن بلقيس بنت معين فهو شيخى ومعلمى وجميع الإنس والجن يخضعون له ويخافون منه». ثم قال له: «توجه على بركة الله». فتوجه وأرخى عنان الحصان فطار به أسرع من البرق ولم يزل حسن مسرعًا بالحصان مدة عشرة أيام حتى نظر أمامه شبحًا عظيمًا أسود من الليل قد سدّ ما بين المشرق والمغرب، فلما قرب منه صهل الحصان تحته فاجتمعت خيول كثيرة مثل المطر لا يحصى لها عدد ولا يعرف له مدد وصارت تتمسح فى الحصان. فخاف حسن منه وفزع. ولم يزل حسن سائرًا والخيول حوله إلى أن وصل إلى المغارة التى وصفها له الشيخ عبد القدوس. فوقف الحصان على بابها فنزل حسن من فوقه وقنطر لجامه فى قربوس سرجه فدخل الحصان المغارة ووقف حسن على الباب كما أمره الشيخ عبد القدوس وصار متفكرًا فى عاقبة أمره كيف يكون حيران ولهان لا يعلم الذى يجرى له.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ولم يزل واقفًا على باب المغارة خمسة أيام بلياليها وهو سهران حزين حيران متفكر حيث فارق الأهل والأوطان والأصحاب والخلان باكى العين حزين القلب، ثم إنه تذكر والدته وتفكر فيما يجرى له وفى فراق زوجته وأولاده فأنشد هذه الأبيات:

لديكم دواء والقلب ذاهبُ ‏ ومن سفح أجفانى دموعٌ سواكبُ
فراقٌ وحزنٌ واشتياقٌ وغربةٌ ‏ وبعدٌ عن الأوطان والشوق غالبُ

فلم يفرغ حسن من شعره إلا والشيخ أبو الرويش قد خرج له وهو أسود وعليه لباس

أسود، لما نظره حسن عرفه بالصفات التى أخبره بها الشيخ عبدالقدوس فرمى نفسه عليه ومرّغ خديه على قدميه ومسك رجله وحطها على رأسه وبكى قدامه. فقال له الشيخ أبو الرويش: «ما حاجتك ياولدى؟» فمد يده بالكتاب وناوله للشيخ أبى الرويش فأخذه منه ودخل المغارة ولم يردّ عليه جوابا. فقعد حسن فى موضعه على الباب مثل ما قال له الشيخ عبد القدوس وهو يبكى، ومازال قاعدًا مكانه مدة خمسة أيام وقد ازداد به القلق واشتدّ به الخوف ولازمه الأرق. فصار يبكى ويتضجَّر من ألم البعاد، ثم أنشد:

سبحان جبّار السما أن المحبَّ لفى عنا
من لم يذق طعم الهوى لم يدر ماجهد البلا
لو كنت أحبس عبرتى لوجدت أنهار الدما
كم من صديق قد قسا قلبًا وأولع بالشقا
فإذا تعطف لامنى فأقول ما بى من بكا
لكن ذهبت لأرتدى فأصابنى عين الردا
بكت الوحوش لوحشتى وكذاك سكان الهوا

ولم يزل حسن يبكى إلى أن لاح الفجر، وإذا بالشيخ أبى الرويش قد خرج إليه وهو لابس لباسًا أبيض وأومى إليه بيده أن يدخل، فدخل حسن فأخذه الشيخ من يده ودخل به المغارة، ففرح وأيقن أن حاجته قد قضيت. ولم يزل الشيخ سائرًا ومعه حسن مقدار نصف نهار، ثم وصلا بابًا مقنطرًا عليه باب من الفولاذ ففتح الباب ودخل هو وحسن فى دهليز معقود بحجارة من الجزع المنقوش بالذهب ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى قاعة كبيرة مرخمة واسعة فى وسطها بستان فيه من سائر الأشجار والأزهار والأثمار، والأطيار على الأشجار تناغى وتسبح الملك القهار،وفى القاعة أربعة أواوين يقابل بعضها بعضًا وفى كل إيوان مجلس فيه فسقية، وعلى كل ركن من أركان كل فسقية صورة سبع من الذهب، وفى كل مجلس كرسى وعليه شخص جالس وبين يديه كتب كثيرة جدا وبين أيديهم مجامر من ذهب فيها نار وبخور.

فلما دخلا عليهم قاموا إليهما وعظموهما، فأقبل عليهم وأشار لهم أن يصرفوا الحاضرين فصرفوهم. وقام الأربعة مشايخ وجلسوا بين يدى الشيخ أبى الرويش وسألوه عن حال حسن. فعند ذلك أشار الشيخ أبى الرويش إلى حسن وقال له: «حدّث الجماعة بحديثك وبجميع ما جرى لك من أول الأمر إلى آخره».

فعند ذلك بكى حسن بكاءً شديدًا وحدثهم بحديثه إلى آخره فلما فرغ حسن من حديثه صاحت المشايخ كلهم وقالوا: «هل هذا هو الذى أطلعه المجوسى إلى جبل السحاب بالنسور وهو فى جلد الجمل؟» فقال لهم حسن: «نعم». فأقبلوا على الشيخ أبى الرويش وقالوا له: «يا شيخنا إن بهرام تحيل فى طلوعه على الجبل وكيف نزل وما الذى رآه فوق الجبل من العجائب؟» فقال الشيخ أبى الرويش: «يا حسن حدّثهم كيف نزلت وأخبرهم بالذى رأيته من العجائب». فأعاد عليهم ما جرى له من أوله إلى آخره وكيف ظفر به وقتله وكيف خلص من الرجل وكيف صاد الصبية وكيف غدرت به زوجته وأخذت أولاده وطارت وبجميع ما قاساه من

الأهوال والشدائد، فتعجب الحاضرون مما جرى له ثم أقبلوا على الشيخ أبى الرويش وقالوا له: «يا شيخ الشيوخ والله إن هذا الشاب مسكين فعساك أن تساعده على خلاص زوجته وأولاده».

فقال لهم الشيخ أبو الرويش: «يا إخوانى إن هذا أمر عظيم خطر وما رأيت أحدًا يكره الحياة غير هذا الشاب. وأنتم تعرفون أن جزائر واق صعبة الوصول وما وصل إليها أحد إلا خاطر بنفسه. وتعرفون قوّتهم وأعوانهم، وأنا حالف ما أدوس لهم أرضًا ولا أتعرّض لهم فى شىء، وكيف يصل هذا إلى بنت الملك الأكبر ومن يقدر أن يوصله إليها أو يساعده على هذا الأمر؟» فقالوا: «يا شيخ الشيوخ إن هذا الرجل قد خاطر بنفسه وحضر إليك بكتاب أخيك الشيخ عبد القدوس فحينئذ يجب عليك مساعدته». فقام حسن وقبّل قدم أبى الرويش ورفع ذيله ووضعه على رأسه وبكى وقال له: «سألتك بالله أن تجمع بينى وبين أولادى وزوجتى ولو كان فى ذلك ذهاب مهجتى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فبكى الحاضرون لبكائه وقالوا للشيخ أبى الرويش: «اغتنم أجر هذا المسكين وافعل معه جميلاً لأجل أخيك الشيخ عبد القدوس». فقال: «إن هذا الشاب مسكين ما يعرف الذى هو قادم عليه ولكن نساعده على قدر الطاقة». ففرح حسن لما سمع كلامه وقبل يديه وقبّل أيادى الحاضرين واحدًا بعد واحد وسألهم المساعدة. فعند ذلك أخذ أبو الرويش ورقة ودواة وكتب كتابًا وختمه وأعطاه لحسن ودفع له خريطة من الأدم فيها بخور وآلات نار من زناد وغيره وقال له: «احتفظ على هذه الخريطة ومتى وقعت فى شدة فبخر بقليل منه واذكرنى فإنى أحضر عندك وأخلصك منها».

ثم أمر بعض الحاضرين أن يحضر له عفريتًا من الجنّ الطيارة فى ذلك الوقت فحضر. فقال له الشيخ: «ما اسمك؟» قال: «عبدك دهنش بن فقطش». فقال له أبو الرويش: «ادنُ منى». فدنا منه. فوضع الشيخ أبو الرويش فاه على أذن العفريت وقال له كلامًا فحرّك العفريت رأسه. ثم قال الشيخ لحسن: «ياولدى قم اركب على كتف هذا العفريت دهنش الطيار، فإذا رفعت إلى السماء وسمعت تسبيح الملائكة فى الجو فلا تسبح فتهلك أنت وهو». فقال حسن: «لا أتكلم أبدًا». ثم قال له الشيخ: «يا حسن إذا سار بك فإنه يضعك ثانى يوم فى وقت السحر على أرض بيضاء نقية مثل الكافور، فإذا وضعك هناك فامش عشرة أيام وحدك حتى تصل إلى باب المدينة، فإذا وصلت إليها فادخل واسأل عن ملكها. فإذا اجتمعت به فسلّم عليه وقبّل يده وأعطه هذا الكتاب ومهما أشار به إليك فافهمه». فقال حسن: «سمعًا وطاعةً». وقام مع العفريت وقام المشايخ ودعوا له ووصوا العفريت عليه. فلما حمله العفريت على عاتقه ارتفع به إلى عنان السماء ومشى به يومًا وليلة حتى سمع تسبيح الملائكة بالسماء فلما كان الصبح وضعه فى أرض بيضاء مثل الكافور وتركه وانصرف. فلما أدرك حسن أنه على الأرض ولم يكن عنده أحد سار فى الليل والنهار مدة عشرة أيام إلى أن وصل إلى باب المدينة فدخلها وسأل عن الملك فدلّوه عليه وقالوا: «إن اسمه الملك حسون ملك أرض الكافور وعنده من

العساكر والجنود ما يملأ الأرض فى طولها والعرض». فاستأذن فأذن له. فلما دخل عليه وجده ملكًا عظيمًا فقبّل الأرض بين يديه فقال له الملك: «ما حاجتك؟» فقبّل حسن الكتاب وناوله إياه: فأخذه وقرأه ثم حرّك رأسه ساعة. ثم قال لبعض خواصه: «خذ هذا الشاب وأنزله فى دار الضيافة». فأخذه وسار حتى أنزله هناك. فأقام بها مدة ثلاثة أيام وليس عنده إلا الخادم الذى معه.

فصار ذلك الخادم يحدثه ويؤانسه ويسأله عن خبره وكيف وصل إلى هذه الديار. فأخبره بجميع ما حصل له وكل ماهو فيه وفى اليوم الرابع أخذه الغلام وأحضره بين يدى الملك. فقال له: «يا حسن أنت قد حضرت عندى تريد تدخل جزائر واق كما ذكر لنا شيخ الشيوخ، ياولدى أنا أرسلك فى هذه الأيام إلا أن فى طريقك مهالك كثيرة وبرارى معطشة كثيرة المخاوف، ولكن اصبر ولا يكون إلا خيرًا فلابدّ أن أتحيل وأوصلك إلى ما تريد إن شاء الله تعالى. واعلم ياولدى أن هنا عسكرًا من الديلم يريدون الدخول فى جزائر واق مهيئون بالسلاح والخيل والعدد وما قدروا على الدخول ولكن يا ولدى لأجل شيخ الشيوخ أبى الرويش بن بلقيس بنت معين ما أقدر أن أردّك إليه إلا مقضى الحاجة، وعن قريب تأتى إلينا مراكب من جزائر واق وما بقى لها إلا القليل».

ثم إن الملك قال له: «فإذا ما حضر واحد منها أنزلتك فيه وأوصى البحرية عليك ليحفظوك ويرسلوك إلى جزائر واق وكل من سألك عن حالك وخبرك فقل له: أنا صهر الملك حسون صاحب أرض الكافور وإذا رسا المركب على جزائر واق وقال لك الرئيس: «اطلع البرّ» فاطلع ترَ دككًا كثيرة فى جميع جهات البرّ، فاختر لك دكة واقعد تحتها ولا تتحرك فإذا جنّ الليل ورأيت عسكر النساء قد أحاط بالبضائع فمد يدك وأمسك صاحبة هذه الدكة التى أنت تحتها واستجر بها . واعلم يا ولدى أنها إذا أجارتك قضيت حاجتك فتصل إلى زوجتك وأولادك ، وإن لم تجرك فاحزن على نفسك وايأس من الحياة وتيقن بهلاك نفسك ، واعلم يا ولدى أنك مخاطر بنفسك إما تسلم وإما تعدم وتندم، ولا أقدر لك على شىء غير هذا، واعلم أنه لولا أنها حصلت لك عناية من رب السماء ما وصلت إلى هنا». فلما سمع حسن كلام الملك بكى حتى غشى عليه. فلما أفاق أنشد هذين البيتين:

لابدّ لى من مدة محتومة ... فإذا انقضت أيامها متُّ
لو صارعتنى الأسد فى غاباتها ... لقهرتها ما دام وقتُ

فلما فرغ حسن من شعره قبل الأرض بين يدى الملك وقال له: «أيها الملك العظيم وكم بقى من الأيام حتى تأتى المركب؟» قال: «مدة شهر ويمكثون هنا لبيع ما فيها مدة شهرين ثم يرجعون إلى بلادهم، فلا تترج سفرك فيها إلا بعد ستة أشهر كاملة». ثم إن الملك أمر حسنًا أن يذهب إلى دار الضيافة وأمر أن يحمل له كل ما يحتاج إليه من مأكول ومشروب وملبوس من الذى يناسب الملوك فأقام فى دار الضيافة شهرًا، وبعد الشهر حضرت المراكب فخرج الملك والتجار وأخذ حسنًا معه إلى المراكب. فرأى مركبًا فيه خلق كثير مثل الحصى ما يعلم عددهم إلا الذى خلقهم وذلك المركب فى وسط البحر وله زوارق صغار تنقل ما فيه من البضائع إلى البر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فأقام حسن عندهم حتى نزع أهلها البضائع منها إلى البرّ وباعوا واشتروا وما بقى للسفر إلا ثلاثة أيام، فأحضر الملك حسنًا بين يديه وجهز له ما يحتاج إليه وأنعم عليه إنعامًا عظيمًا. ثم بعد ذلك استدعى رئيس ذلك المركب وقال له: «خذ هذا الشاب معك فى المركب ولا تُعلم به أحدًا وأوصله إلى جزائر واق واتركه هناك ولا تأت به». فقال الرئيس: «سمعًا وطاعةً» ثم إن الملك أوصى حسنًا وقال له: «لا تُعلم أحدًا من الذين معك فى المركب بشىء من حالك ولا تُطلع أحدًا على قصتك فتهلك». قال: «سمعًا وطاعةً». ثم ودعه بعد أن دعا له بطول البقاء والدوام والنصر على جميع الحساد والأعداء. وشكره الملك على ذلك ودعا له بالسلامة وقضاء حاجته ثم سلّمه للرئيس. فأخذه وحطّه فى صندوق وأنزله فى قارب ولم يطلعه فى المركب إلا والناس مشغولون فى نقل البضائع، وبعد ذلك سافرت المراكب ولم تزل مسافرة مدة عشرة أيام.

فلم كان اليوم الحادى عشر وصلوا إلى البرّ فطلّعه الرئيس من المركب. فلما طلع من المركب إلى البرّ رأى فيه دككًا لايعلم عددها إلا الله، فمشى حسن حتى وصل إلى دكة ليس لها نظير واختفى تحتها. فلما أقبل الليل جاءت خلق كثير من النساء مثل الجراد المنتشر وهنّ ماشيات على أقدامهنّ وسيوفهنّ مشهورة فى أيديهنّ ولكنهنّ غائصات فى الزرد فلما رأت النساء البضائع اشتغلن بها، ثم بعد ذلك جلسنَ لأجل الاستراحة فجلست واحدة منهنّ على الدكة التى تحتها حسن. فأخذ حسن طرف ذيلها وحطه فوق رأسه وصار يقبل يديها وقدميها وهو يبكى. فقالت له: «يا هذا قم واقفًا قبل أن يراك أحد فيقتلك». فعند ذلك خرج حسن من تحت الدكة ونهض قائمًا على قدميه وقبّل يديها وقال لها: «يا سيدتى أنا فى حسبك» ثم بكى وقال لها: «ارحمى من فارق أهله وزوجته وأولاده وبادر إلى الاجتماع بهم وخاطر بروحه ومهجته فارحمينى وأيقنى أنك تؤجرين على ذلك بالجنة، وإن لم تقبلينى فأسألك بالله العظيم الستّار أن تسترى علىّ». فصارت التجار شاخصة إليه وهو يكلمها ويتوسل إليها.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمعت كلامه ونظرت تضرّعه رحمته ورقّ قلبها إليه وعلمت أنه ما خاطر بنفسه وجاء إلى هذا المكان إلا لأمر عظيم. فعند ذلك قالت لحسن: «يا ولدى طب نفسًا وقرّ عينًا وطيّب قلبك وخاطرك وارجع إلى مكانك واختف تحت الدكة كما كنت أولاً إلى الليلة الآتية يفعل الله ما يريد». ثم ودعته ودخل حسن تحت الدكة كما كان. ثم إن العساكر بتنّ يوقدن الشموع الممزوجة بعود الند والعنبر الخام إلى الصباح. فلما طلع النهار رجعت المراكب إلى البرّ واشتغل التجار بنقل البضائع والأمتعة إلى أن أقبل الليل وحسن مختف تحت الدكة باكى العين حزين القلب ولم يعلم بالذى قدّر له فى الغيب.

فبينما هو كذلك إذ أقبلت عليه المرأة التاجرة التى كان استجار بها وناولته زردية وسيفًا وحياصة مذهبة ورمحًا ثم انصرفت عنه خوفًا من العسكر. فلما رأى ذلك علم أن التاجرة ماأحضرت له هذه العدّة إلا ليلبسها. فقام حسن ولبس الزردية وشدّ الحياصة على وسطه

وتقلد بالسيف تحت إبطه وأخذ الرمح بيده وجلس على تلك الدكة ولسانه لم يغفل عن ذكر الله تعالى بل يطلب منه الستر.

فبينما هو جالس إذ أقبلت المشاعل والفوانيس والشموع وأقبلت عساكر النساء، فقام حسن واختلط بالعسكر وصار كواحدة منهنّ. فلما قرب طلوع الفجر توجهت العساكر وحسن معهنّ حتى وصل إلى خيامهن ودخلت كل واحدة خيمتها .فدخل حسن خيمةواحدة منهنّ وإذا هى خيمة صاحبته التى كان استجار بها. فلما دخلت خيمتها ألقت سلاحها وقلعت الزردية والنقاب، وألقى حسن سلاحه ونظر إلى صاحبته فوجدها عجوزًا شمطاء زرقاء العينين كبيرة الأنف وهى داهية من الدواهى ما يكون فى الخلق بوجه أجدر وحاجب أمعط وأسنان مكسرة وخدود معجرة وشعر شائب ومخاط سائل وفم بالريالة سائل. وهى كما قال فى مثلها الشاعر:

لها فى زوايا الوجه تسع مصائب ... فواحدةٌ منهنّ تبدى جهنما

بوجه بشيع ثم ذات قبيحة ... كصورة خنزير تراهُ مُرَمّرِمَا

وهى بذيَّة معطاء كحية رقطاء، فلما نظرت العجوز إلى حسن تعجبت وقالت: «كيف وصل هذا إلى هذه الديار وفى أى المراكب حضر وكيف سلمَ؟» وصارت تسأل عن حاله وتتعجب من وصوله. فعند ذلك وقع حسن على أقدامها ومرغ وجهه على رجليها وبكى حتى غشى عليه. فلما أفاق أنشد هذه الأبيات:

متى الأيام تسمح بالتلاقى ... ويجمع شملنا بعد الفراقِ

وأحظى بالذى أرضاه منهم ... عتابًا ينقضى والسعودُ باقِ

لو أنّ النيل يجرى مثل دمعى ... لما خلىّ على الدنيا شراقىّ

وفاض على الحجاز وأرض مصر ... كذاك الشام مع أرض العراقِ

وذاك لأجل صدّك يا حبيبى ... ترفّق بى وأوعد بالتلاقى

فلما فرغ حسن من شعره أخذ ذيل العجوز ووضعه فوق رأسه وصار يبكى ويستجير بها، فلما رأت العجوز احتراقه ولوعته وكربته حنّ قلبها إليه وأجارته وقالت له: «لا تخف أبدًا». ثم سألته عن حاله فحكى لها جميع ماجرى له من المبتدأ إلى المنتهى فتعجبت العجوز من حكايته وقالت له:«طيّب قلبك وطيّب خاطرك ما بقى عليك خوف وقد وصلت إلى مطلوبك وقضاء حاجتك إن شاء الله تعالى» ففرح حسن بذلك فرحًا شديدًا ثم إن العجوز أرسلت إلى قواد العسكر أن يحضروا وكان ذلك فى آخر يوم من الشهر فلما حضروا بين يديها قالت لهم: «اخرجوا ونادوا فى جميع العساكر أن يخرجوا فى غد النهار ولا يتخلف أحد منهم فإن تخلف أحد راحت روحه».

فعند ذلك خرجوا ونادوا فى جميع العساكر بالرحيل فى غد بكرة النهار ثم عادوا وخبروها بذلك. فعلم حسن أنها هى رئيسة العسكر وصاحبة الرأى فيه وهى المقدمة عليه. ثم إن حسنًا لم يقلع السلاح من فوق بدنه فى ذلك النهار. وكان اسم تلك العجوز التى هو عندها شواهى تكنى بأمّ الدواهى.فما فرغت العجوز من أمرها ونهيها إلا وقد طلع الفجر فحضر العسكر جميعه من أماكنه ولم تخرج العجوز معهم. فلما سار العسكر وخلت منه

الأماكن قالت شواهى لحسن: «ادن منى ياولدى»: فدنا منها ووقف بين يديها فأقبلت عليه وقالت له: «ما السبب فى مخاطرتك بنفسك ودخولك إلى هذه البلاد وكيف رضيت لنفسك بالهلاك؟ فأخبرنى بالصحيح عن جميع شانك ولاتُخف عنى شيئًا ولا تخف فإنك قد صرت فى عهدى وقد أجرتك ورحمتك ورثيت لحالك، فإن أخبرتنى بالصدق أعنتك على قضاء حاجتك ولو كان فيها رواح الأرواح وهلاك الأشباح، وحيث وصلت إلىّ ما بقى عليك بأس ولا أخلى أحدا يصل إليك بسوء أبدًا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فحكى لها قصته من أولها إلى آخرها وعرّفها بشأن زوجته والطيور وكيف اصطادها من بين العشرة وكيف تزوج بها ثم أقام معها حتى رزق منها بولدين وكيف أخذت ولديها وطارت حين عرفت طريق الثوب الريش. ولم يخف من حديثه شيئًا من أوله إلى يومه الذى هو فيه. فلما سمعت العجوز كلامه حركت رأسها وقالت له: «سبحان الله الذى سلمك وأوصلك إلى هنا وأوقعك عندى ولو كنت وقعت عند غيرى كانت روحك راحت ولم تُقضَ لك حاجة ولكن صدق نيتك ومحبتك وفرط شوقك إلى زوجتك وولديك هو الذى أوصلك إلى حصول بغيتك، ولولا أنك لها محب ما كنت خاطرت بنفسك هذه المخاطرة، والحمدلله على السلامة وحينئذ يجب علينا أن نقضى حاجتك ونساعدك على مطلوبك حتى تنال بغيتك عن قريب إن شاء الله تعالى.» «ولكن اعلم يا ولدى أن زوجتك فى الجزيرة السابعة من جزائر واق ومسافة ما بيننا سبعة أشهر ليلاً ونهارًا. فإننا نسير من هنا حتى نصل إلى أرض يقال لها أرض الطيور فمن شدة صياح الطيور وخفقان أجنحتها لا يسمع بعضها كلام بعض». «ثم نسير فى تلك الأرض مدة أحد عشر يومًا ليلاً ونهارًا. ثم بعد ذلك نخرج منها إلى أرض يقال لها أرض الوحوش فمن شدة صياح السباع والضباع والوحوش وعواء الذئاب وزئير الأسود لا نسمع شيئًا فنسير فى تلك الأرض مدة عشرين يومًا. ثم نخرج منه إلى أرض يقال لها أرض الجنّ. فمن شدة صياح الجان وصعود النيران وتطاير الشرار والدخان من أفواههم وتصاعد زفراتهم وتمردهم يسدّون الطريق قدامنا وتصمّ آذاننا وتغشى أبصارنا حتى لا نسمع ولا نرى، ولا يمكن أن يلتفت منا أحد إلى خلفه فيهلك. ويضع الفارس فى ذلك المكان رأسه على قربوس سرجه ولا يرفعه مدة ثلاثةأيام، وبعد ذلك يقابلنا جبل عظيم ونهر جار متصلان بجزائر واق. واعلم يا ولدى أن جميع هذا العسكر بنات أبكار والحاكم علينا من الملوك امرأة من جزائر واق السبع ومسيرة تلك السبع جزائر سنة كاملة للراكب المجدّ فى السير. وعلى شاطئ هذا النهر جبل آخر يسمّى جبل واق. وهذا الاسم على شجرة أغصانها تشبه رؤوس بنى آدم».

«فإذا طلعت عليها الشمس تصيح تلك الرؤوس جميعًا وتقول فى صياحها: «واق واق سبحان الملك الخلاق». فإذا سمعنا صياحها نعلم أن الشمس قد طلعت. وكذلك إذا غربت الشس تصيح تلك الرؤوس وتقول فى صياحها أيضًا: «واق واق سبحان الملك الخلاق». فنعلم

أن الشمس قد غربت. ولا يقدر أحد من الرجال أن يقدم عندنا ولا يصل إلينا ولا يطأ أرضنا. وبيننا وبين الملكة التى تحكم على هذه الأرض مسافة شهر من البرّ وجميع الرعية التى فى ذلك البرّ تحت يد تلك الملكة. وتحت يدها أيضًا قبائل الجان المردة والشياطين وتحت يدها من السحرة ما لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم. فإن كنت تخاف أرسلت معك من يوصلك إلى الساحل وأجيء بالذى يحملك معه فى مركب ويوصلك إلى بلادك. وإن كان يطيب على قلبك الإقامة معنا فلا أمنعك. وأنت عندى فى عينى حتى تُقضى حاجتك إن شاء الله تعالى».

فقال لها : «يا سيدتى ما بقيت أفارقك حتى أجتمع بزوجتى أو تذهب روحى». فقالت له: «هذا أمرٌ يسيرفطيّب قلبك وسوف تصل إلى مطلوبك إن شاء الله تعالى، ولابد أن أطلع الملكة عليك حتى تكون مساعدة لك على بلوغ قصدك». فدعا لها حسن وقبّل يديها ورأسها وشكرها على فعلها وفرط مروءتها وسار معها وهو متفكر فى عاقبة أمره وأهوال غربته فصار يبكى وينتحب وجعل ينشد الأبيات. ثم إن العجوز أمرت بدقّ طبل الرحيل وسار العسكر وسار حسن صحبة العجوز وهو غريق فى بحر الأفكار وينشد الأشعار والعجوز تصبره وتسليه وهو لا يعى ما إليه تُلقيه. ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى أول جزيرة من الجزائر السبع وهى جزيرة الطيور. فلما دخلوها ظن حسن أن الدنيا قد انقلبت من شدة الصياح وأوجعه رأسه وطاش عقله وعمى بصره وانسدّت أذناه وخاف خوفًا شديدًا وأيقن بالموت وقال فى نفسه: «إذا كانت هذه أرض الطيور فكيف تكون أرض الوحوش؟».

فلم رأته العجوز المسماة بشواهى على هذه الحالة ضحكت عليه وقالت له: «يا ولدى إذا كان هذا حالك من أول جزيرة فكيف بك إذا وصلت إلى بقية الجزائر». فسأل الله وتضرّع إليه وطلب من الله أن يمينه على ما بلاه به وإن يبلغه مناه، ولم يزالوا سائرين حتى قطعوا أرض الطيور وخرجوا منها ودخلوا أرض الوحوش، فخرجوا منها ودخلوا فى أرض الجان. فلما رآها حسن خاف وندم على دخوله فيها معهم. ثم استعان بالله تعالى وسار معهم فعند ذلك خلصوا من أرض الجان ووصلوا إلى النهر فنزلوا تحت جبل عظيم شاهق ونصبوا خيامهم على شاطئ النهر. ووضعت العجوز لحسن دكة من المرمر مرصعة بالدرّ والجوهر وسبائك الذهب الأحمر على جانب النهر فجلس عليه. وتقدمت العساكر فعرضتهم عليه. ثم بعد ذلك نصبواخيامهم حوله واستراحوا ساعة ثم أكلوا وشربوا وناموا مطمئنين لأنهم وصلوا إلى بلادهم. وكان حسن واضعًا على وجهه لثامًا بحيث لم يظهرمنه غير عينيه. وإذا بجماعة من البنات مشينَ إلى قرب خيمة حسن. ثم أمرت أن ينادى فى جميع العسكر أن يجتمعن قدام خيمته لعلّ زوجته أن تكون فيهنّ فيعرفها. وصارت العجوز تسأله عنهنّ طائفة بعد طائفة فيقول: «ما هى فى هؤلاء يا سيدتى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد ثم بعد ذلك تقدمت جارية فى آخر الناس وفى خدمتها عشر جوار وثلاثون خادمة كلهنّ أبكار وكانت تخطر بين العسكر هى وجواريها. فلما رآها حسن طار قلبه

وقال: «هذه أشبه الناس بالطيرة التى رأيتها فى قصر أخواتى البنات وكانت تتدلل على أتباعها مثلها». فقالت العجوز: «يا حسن هل هذه زوجتك؟» فقال: «وحياتك يا سيدتى ما هذه زوجتى ولا عمرى رأيتها وما فى جميع البنات التى رأيتهنّ فى هذه الجزيرة مثل زوجتى ولا مثل قدّها واعتدالها وحسنها وجمالها». فقالت العجوز: «صفها لى وعرفنى بجميع أوصافها حتى تكون فى ذهنى فأنا أعرف كل بنت فى جزائر واق لأنى نقيبة عسكر البنات والحاكمة عليهن، وإن وصفتها لى عرفتها وتحيلت لك فى أخذها».

فوصفها لها فأطرقت العجوز برأسها إلى الأرض ساعة من الزمان ثم رفعت رأسها إلى حسن وقالت: «سبحان الله عظيم الشأن إنى بليت بك يا حسن فيا ليتنى ما كنت عرفتك لأن المرأة التى وصفتها لى هى زوجتك بعينها فإنى قد عرفتها بصفاتها وهى بنت الملك الأكبر الكبيرة التى يحكم على جزائر واق بأسرها فافتح عينيك وتدبر أمرك وإن كنت نائمًا فانتبه فإنه لا يمكنك الوصول إليها أبدًا وإن وصلت إليها لا تقدر على تحصيلها لأن بينك وبينها مثل مابين السماء والأرض، فارجع ياولدى من قريب ولا ترم نفسك فى الهلاك وترميني معك فإنى أظن أنه ليس لك فيها نصيب وارجع من حيث أتيت لئلا تروح أرواحنا». وخافت على نفسها وعليه. فلما سمع حسن كلام العجوز بكى بكاءً شديدًا حتى غشى عليه. فمازالت العجوز ترشّ على وجهه الماء حتى أفاق من غشيته وصار يبكى حتى بلّ ثيابه بالدموع من عظم ما لحقه من الهم والغم من كلام العجوز وقد يئس من الحياة. ثم قال للعجوز: «يا سيدتى وكيف أرجع بعد أن وصلت إلى هنا وما كنت أظن أنانفسى أنك تعجزين عن تحصيل غرضى خصوصًا وأنت نقيبة عسكر البنات والحاكمة عليهن؟» فقالت: «بالله عليك يا ولدى أن تختار لك بنتًا من هؤلاء البنات وأنا أعطيك إياها عوضًا عن زوجتك لئلا تقع فى يد الملك فلا يبقى لى فى خلاصك حيلة فبالله عليك أن تسمع منى وتختار لك واحدة من هؤلاء البنات غير تلك البنت وترجع إلى بلادك من قريب سالمًا ولاتُجرّعنى غصتك، والله لقد رميت نفسك فى بلاء عظيم وخطر جسيم لا يقدر أحد أن يخلصك منه».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فعند ذلك أطرق حسن برأسه وبكى بكاءً شديدًا وأنشد هذه الأبيات :

فقلت لعذالى لا تعذلونى ... لغير الدمع ما خُلقت جفونى

مدامع مقلتى طفحت ففاضت ... على خدى وأحبابى جفونى

ويا أحباب قد زاد اشتياقى ... إليكم ما لكم لا ترحمونى

جفوتم بعد ميثاقى وعهدى ... وخنتم صحبتى وتركتمونى

ويوم البين لما قد رحلتم ... سقيت من الصدود شراب هونِ

فيا قلبى عليهم ذُبّ غرامًا ... وجودى بالمدامع يا عيونى

فلما فرغ من شعره بكى حتى غشى عليه. فما زالت العجوز ترش الماء على وجهه حتى أفاق من غشيته. ثم أقبلت عليه وقالت له: «يا سيدى ارجع إلى بلادك فإنى متى سافرت بك إلى المدينة راحت روحك وروحى لأن الملكة إذا علمت بذلك تلومنى على دخولى بك إلى بلادها

وجزائرها التى لم يصلها أحد من أولاد بنى آدم وتقتلنى حيث حملتك معى». وقالت له: «يا ولدى ارجع إلى بلادك وأنا أعطيك من المال والذخائر والتحف ما تستغنى به عن جميع النساء فاسمع كلامى وارجع عن قريب ولا تخاطر بنفسك فقد نصحتك».

فلما سمع حسن كلامها بكى ومرغ خديه على أقدامها وقال: «يا سيدتى ومولاتى وقرة عينى كيف أرجع بعد ما وصلت إلى هذا المكان ولا أنظر من أريد، وقد قربت من دار الحبيب، وترجيت اللقاء عن قريب. ولعله أن يكون لى فى الاجتماع نصيب؟» ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد هذه الأبيات:

يا ملوك الجمال رفقًا بأسرى ... لجفون تملكت مُلك كسرى

قد غلبتم روائح المسك طيبًا ... وبهرتم محاسن الورد زهرا

ونسيم النعيم حيث حللتم ... فالصبا من هناك تعبق نشرا

عاذلى كفّ عن ملامى ونصحى ... إنما جئت بالنصيحة نكرا

أنثر الدمع حين أنظم شعرى ... هاك منى الحديث نظمًا ونثرا

خبرانى متى تركت حديثى ... فبأىّ الحديث أشرح صدرا

فلما فرغ حسن من شعره رقّت له العجوز ورحمته وأقبلت عليه وطيبت خاطره وقالت له: «طب نفسًا وقرّ عينًا وأخل فكرك من الهمّ لأخاطرنّ معك بروحى حتى تبلغ مقصودك أو تدركنى منيتى». فطاب قلب حسن وانشرح صدره وجلس يتحدث مع العجوز إلى آخر النهار. فلما أقبل الليل تفرقت البنات كلهنّ فمنهنّ من دخلت قصرها فى البلد ومنهنّ من باتت فى الخيام. ثم إن العجوز أخذت حسنا معها ودخلت به البلد فأخلت له مكانًا وحده لئلا يطلع عليه أحد فيعلم الملكة فتقتله وتقتل من أتى به. ثم صارت تخدمه بنفسها وتخوفه من سطوة الملك الأكبر أبى زوجته وهو يبكى بين يديها ويقول: «يا سيدتى قد اخترت الموت لنفسى وكرهت الدنيا إن لم أجتمع بزوجتى وولدىّ فأنا أخاطر بروحى إما أن أبلغ مرادى وإما أن أموت». فصارت العجوز تتفكر فى كيفية وصاله واجتماعه بزوجته وكيف تكون الحيلة فى أمر هذا المسكين الذى رمى روحه فى الهلاك ولم ينزجر عن قصده بخوف ولا غيره وقد سلا نفسه. وكانت تلك البنت ملكة الجزيرة التى هم نازلون فيها وكان اسمها نور الهدى وكان لهذه الملكة سبع أخوات بنات أبكار مقيمات عند أبيهنّ الملك الأكبر الذى هو حاكم على السبع جزائر وأقطار واق، وكان تحت ذلك الملك فى المدينة التى هى أكبر مدن ذلك البرّ، وكانت ابنته الكبيرة وهى نور الهدى هى الحاكمة على تلك المدينة التى فيها حسن وعلى سائر أقطارها. ثم إن العجوز لما رأت حسنًا محترقًا على الاجتماع بزوجته وولديه قامت وتوجهت إلى قصر الملكة نور الهدى فدخلت عليها وقبلت الأرض بين يديها، وكان للعجوز فضل عليها لأنها ربّت بنات الملك جميعًا ولها على الجميع سلطنة وهى مكرّمة عندهم عزيزة عند الملك.

فلما دخلت العجوز على الملكة نور الهدى قامت لها وعانقتها وأجلستها جنبها وسألتها عن سفرتها. فقالت لها: «والله يا سيدتى إنها كانت سفرة مباركة وقد استصحبت لك معى هدية سأحضرها بين يديك» ثم قالت لها: «يا بنتى يا ملكة العصر والزمان إنى قد أتيت معى

بشىء عجيب أريد أن أطلعك عليه لأجل أن تساعدينى على قضاء حاجته». فقالت لها: «وما هو؟» فأخبرتها بحكاية حسن من أولها إلى آخرها وهى ترتعد كالقصبة فى يوم الريح العاصف حتى وقعت بين يدى بنت الملك وقالت لها: «يا سيدتى قد استجار بى شخص على الساحل كان مختفيا تحت الدكة فأجرته وأتيت به معى بين عسكر البنات وأدخلته البلد» ثم قالت لها: «وقد خوّفته من سطوتك وكلما أخوفه يبكى ويقول: لابدّ من زوجتى وولدىّ أو أموت ولا أرجع إلى بلادى من غيرهم، وقد خاطر بنفسه وجاء إلى جزائر واق ولم أر عمرى آدميا أقوى منه ولا أشدّ بأسًا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فلما سمعت الملكة كلامها وفهمت قصة حسن غضبت غضبًا شديدًا وقالت للعجوز: «يا عجوز النحس هل بلغ من خبثك أنك تحملين الذكور وتأتين بهم معك إلى جزائر واق وتدخلين بهم علىّ وحق رأس الملك لولا مالك علىّ من التربية والحرمة لقتلتك أنت وإياه فى هذه الساعة حتى يعتبر المسافرون بك يا ملعونة لئلا يفعل واحد مثلما فعلت، ولكن اخرجى وأحضريه فى هذه الساعة حتى أنظره» فخرجت العجوز من بين يديها وهى مدهوشة لا تدرى أين تذهب وتقول: «كل هذه المصيبة ساقها الله لى من هذه الملكة على يد حسن». ومضت إلى أن دخلت على حسن». فقالت له: «قم كلّم الملكة يا من آخر عمره قد دنا». فقام معها ولسانه لا يفتر عن ذكر الله تعالى ويقول: «اللهم الطف بى فى قضائك وخلصنى من بلائك». فسارت به حتى أوقفته بين يدى الملكة وأوصته العجوز فى الطريق بما يتكلم. فلما تمثّل بين يدى نور الهدى رآها ضارية لثامًا فقبل الأرض بين يديها وسلّم عليها وأنشد هذين البيتين:

أدام الله عــزّك فــى ســرور	وخــوّلك الإلــه بما حــبــاك
وزادك ربّنا عــزا ومـــجـــدًا	وأيّدك القــدير على عــداك

فلما فرغ من شعره أشارت الملكة إلى العجوز أن تخاطبه قدامها لتسمع مجاوبته. فقالت العجوز: «إن الملكة ترد عليك السلام وتقول لك: ما اسمك ومن أى البلاد أنت وما اسم زوجتك وولديك الذين جئت من أجلهم وما اسم بلادك؟» فقال لها: «يا ملكة الزمان أما أنا فاسمى حسن وبلدى البصرة، وأما زوجتى فما أعرف لها اسمًا، وأما ولداى فواحد اسمه ناصر والآخر اسمه منصور». فلما سمعت الملكة كلامه وحديثه قالت: «فمن أين أخذت ولديها؟» فقال لها: «من مدينة بغداد من قصر الخلافة». فقالت له: «وهل قالت لكم شيئًا عندما طارت؟» قال: «إنها قالت لوالدتى: «إذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق، واشتهى القرب والتلاق، فليجيئنى إلى جزائر واق». فحركت الملكة نور الهدى رأسها ثم قالت له: «إنها لو كانت ما تريدك ماقالت لأمك هذا الكلام ولولا أنها تريدك وتشتهى قربك ما كانت أعلمتك بمكانها ولا طلبتك إلى بلادها».

فقال حسن : «يا سيدة الملوك والحاكمة على كل ملك وصعلوك الذى جرى أخبرتك به وأنا أستجير بالله وبك ألاّ تظلمينى فارحمينى واربحى أجرى وثوابى وساعدينى على الاجتماع

بزوجتى وولدىّ وأسعفنى برؤيتهم». ثم بكى وأنشد هذين البيتين:

لأشكرنّك ما ناحت مطوّقة ... جهدى وإن كنت لا أقضى الذى وجبا

فما تقلبت فى نعماء سابقة ... إلا وجدتك فيها الأصل والسببا

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فأطرقت الملكة نور الهدى رأسها إلى الأرض وحركته زمانًا طويلاً. ثم رفعته وقالت له: «قد رحمتك ورثيت لك وقد عزمت على أن أعرض عليك كل بنت فى المدينة وفى بلاد جزيرتى، فإن عرفت زوجتك سلمتها إليك وإن لم تعرفها قتلتك وصلبتك على باب دار العجوز». فقال لها حسن: «قبلت ذلك منك يا ملكة الزمان ورضيت بالشرط الذى شرطته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم».

فعند ذلك أمرت الملكة نور الهدى الاّ تبقى بنت فى المدينة حتى تطلع القصر وتمرّ أمامه. ثم إن الملكة جلست فى قصرها، وصارت الملكة تُدخل البنات على حسن مائة بعد مائة حتى لم تبقَ فى المدينة بنت إلا وقد عرضتها على حسن فلم يرَ زوجته فيهن. فسألته الملكة وقالت له: «هل رأيتها فى هؤلاء؟» فقال لها: «وحياتك يا ملكة ما هى فيهن». فاشتد غضب الملكة عليه وقالت للعجوز: «أخرجى كل من كان فى القصر واعرضيهم عليه».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما عرضت عليه كل من فى القصر لم يرَ زوجته فيهن وقال للملكة: «وحياة رأسك يا ملكة ما هى فيهن». فغضبت وصرخت على من حولها وقالت: «خذوه واسحبوه على وجهه فوق الأرض واضربوا عنقه لئلا يخاطر بنفسه أحد بعده ويطلع على حالنا ويجوز علينا فى بلادنا ويطأ أرضنا وجزائرنا». فسحبوه على وجهه وطرحوا ذيله فوقه وغمضوا عينيه ووقفوا بالسيوف على رأسه ينتظرون الإذن.

فعند ذلك تقدمت شواهى إلى الملكة وقبّلت الأرض بين يديها ومسكت ذيلها ورفعته فوق رأسها وقالت لها: «يا ملكة بحق التربية لا تعجلى عليه خصوصًا وأنت تعرفين أن هذا المسكين غريب قد خاطر بنفسه وقاسى أموراً ماقاساها أحد قبله ونجّاه الله عزّ وجلّ من الموت لطول عمره وقد سمع بعدلك فدخل بلادك وحِماك، فإن قتلته تنتشر الأخبار عنك مع المسافرين بأنك تبغضين الأغراب وتقتلينهم، وهو على كل حال تحت قهرك ومقتول سيفك إن لم تظهر زوجته فى بلدك أى وقت تشتهين حضوره فأنا قادرة على رده إليك، وأيضًا فأنا ما أجرته إلا طمعا فى كرمك بسبب ما لى عليك من التربية حتى ضمنت له أنك توصلينه إلى بغيته لعلمى بعدلك وشفقتك ولولا أنى أعلم منك هذا ما كنت أدخلته بلدك وقلت فى نفسى: إن الملكة تتفرّج على هذا الرجل وعلى ما يقول من الأشعار والكلام المليح الفصيح الذى يشبه الدرّ المنظوم. هذا وقد دخل بلادنا وأكل زادنا فوجب حقه علينا، خصوصًا وقد وعدته بالاجتماع بك، وأنت تعرفين يا مولاتى أن الفراق صعب وتعرفين أيضًا أن الفراق قتّال خصوصًا فراق

الأولاد، وما بقى علينا من النساء، واحدة إلا أنت فأريه وجهك». فتبسمت الملكة وقالت: «من أين له أن يكون زوجى وخلّف منى أولادًا حتى أريه وجهى؟» ثم أمرت الملكة بحضوره. فأدخلوه عليها وأوقفوه بين يديها وكشفت وجهها. فلما رآه حسن صرخ صرخة عظيمة كاد منها القصر أن يسقط على من فيه ثم وقع مغشيا عليه. فمازالت العجوز شواهى تلاطفه حتى أفاق وسألته عن حاله فقال: «إن هذه الملكة إما زوجتى وإما شبه الناس بزوجتى». فقالت الملكة للعجوز: «ويلك يا داية إن هذا الغريب مجنون أو مختلّ لأنه ينظر فى وجهى ويحملق عينيه» فقالت لها العجوز: «يا ملكة إن هذا الرجل معذور فلا تؤاخذيه فإنه يقال فى المثل: مريض الهوى، ما له دواء، وهو والمجنون سواء. ثم إن حسنًا بكى بكاءً شديدًا وأنشد هذين البيتين:

أرى آثارهم فأذوب شوقًا ... وأسكب فى مواطنهم دموعى
وأسأل من بفرقتهم رمانى ... يمنُّ علىّ منهم بالرجوع

ثم إن حسنًا قال للملكة: «والله ما أنت زوجتى ولكنك أشبه الناس بها». فضحكت الملكة نور الهدى، ثم التفتت إلى شواهى أم الدواهى وقالت لها: «يا أمى أرجعيه إلى موضعه الذى كان فيه عندك واخدميه أنت بنفسك حتى أتفحص عن أمره، فإن كان هذا الرجل صاحب مروءة بحيث يحفظ الرفق والصحبة والودّ وجب علينا مساعدته على قضاء حاجته، وخصوصًا وقد نزل أرضنا وأكل طعامنا مع ماتحمّله من مشقات الأسفار ومكابدة أهوال الأخطار ولكن إذا أوصلته إلى بيتك فأوصى عليه أتباعك وارجعى إلىّ بسرعة وإن شاء الله تعالى لا يكون إلا الخير».

فعند ذلك خرجت العجوز وأخذت حسنًا ومضت به إلى منزلها وأمرت جواريها وخدمها وحشمها بخدمته وأمرتهم أن يحضروا له جميع ما يحتاج إليه وألا يقصروا فى حقه، ثم عادت إلى الملكة بسرعة، فأمرتها أن تحمل سلاحها وتأخذ معها ألف فارس من الشجعان. فامتثلت العجوز شواهى أمرها ولبست درعها وأحضرت الألف فارس، ولما وقفت بين يديها وأخبرتها بإحضار الألف فارس أمرتها أن تسير إلى مدينة الملك الأكبر أبيها وتنزل عند بنته منار السناء أختها الصغيرة وتقول لها: «ألبسى الدرعين اللذين عملتهما لها وأرسليهما إلى خالتهما فإنها مشتاقة إليهما». وقالت لها «أوصيك ياأمى بكتمان أمر حسن فإذا أخذتهما منها قولى لها: «أختك تستدعيك إلى زيارتها، فإذا أعطتك ولديها وخرجت بهما قاصدة الزيارة فاحضرى بهما سريعًا وخليهما تحضر على مهلها وتعالى من طريق غير الطريق التى تجىء منها ويكون سفرك ليلاً ونهارًا، واحذرى أن تطلعى على هذا الأمر أحدًا أبدًا، ثم إنى أحلف بجميع الأقسام إن طلعت أختى زوجته وظهر أن ولديها ولداه لا أمنعه من أخذها ولا من سفرها معه بولديها إلى بلاده».

فوثقت العجوز بكلامها ولم تعلم بماأضمرته فى نفسها، وقد أضمرت العاهرة فى نفسها أنها إن لم تكن زوجته ولا ولداها يشبهانه تقتله.

ثم إن الملكة قالت للعجوز: «يا أمى إن صدق حذرى تكون زوجته أختى منار السناء والله أعلم، فإن هذه الصفات صفاتها وجميع الأوصاف التى ذكرها من الجمال البارع والحسن الباهر لا يوجد فى أحد غير أخواتى خصوصًا الصغيرة». ثم إن العجوز قبلت يدها ورجعت

إلى حسن وأعلمته بما قالته الملكة فطار عقله من الفرح وقام إلى العجوز وقبل رأسها فقالت له «يا ولدى طب نفسًا وقرّ عينًا ولا يكن صدرك إلا منشرحًا» ثم ودّعته وانصرفت.

فأنشد حسن هذين البيتين :

شهيدان لو بكت السماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يقضيا المعشار من حقيهما شرخ الشباب وفرقة الأحباب

ثم إن العجوز حملت سلاحها وأخذت معها ألف فارس حاملين السلاح وتوجهت إلى تلك الجزيرة التى فيها أخت الملكة وسارت إلى أن وصلت إلى أخت الملكة، وكان بين مدينة نور الهدى وبين مدينة أختها ثلاثة أيام. فلما وصلت شواهى إلى المدينة وطلعت إلى أخت الملكة منار السناء سلّمت عليها وبلّغتها السلام من أختها نور الهدى وأخبرتها باشتياقها إليها وإلى ولديها وعرّفتها أن الملكة نور الهدى تعتب عليها بسبب عدم زيارتها إياها. فقالت لها الملكة منار السناء: «إن الحق علىّ لأختى وأنا مقصرة بعدم زيارتى لها ولكن أزورها الآن». ثم أمرت بتبريز خيامها إلى خارج المدينة وأخذت لأختها معها ما يصلح لها من الهدية الثمينة. ثم إن الملك أباها نظر من طيقان القصر فرأى الخيام منصوبة فسأل عن سبب ذلك فقالوا له: «إن الملكة منار السناء نصبت خيامها بتلك الطريق لأنها تريد زيارة أختها نور الهدى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع الملك بذلك جهز لها عسكرًا يوصلها إلى أختها وأخرج من خزائنه من الأموال ومن المآكل والمشرب ومن التحف والجواهر ما يعجز عنه الوصف، وكانت بنات الملك السبعة من أب واحد وأمّ واحدة إلا الصغيرة، وكان اسم الكبيرة نور الهدى، والثانية نجم الصباح، والثالثة شمس الضحى، والرابعة شجرة الدر، والخامسة قوت القلوب، والسادسة شرف البنات، والسابعة منار السناء وهى الصغيرة فيهنّ وهى زوجة حسن. ثم إن العجوز تقدمت وقبلت الأرض بين يدى منار السناء. فقالت لها منار السناء: «هل لك حاجة يا أمى؟» فقالت لها: «إن الملكة نور الهدى أختك تأمرك أن تغيرى على ولديك وتلبسيهما الدرعين اللذين فصلتهما لهما وأن ترسليهما معى إليها فآخذهما وأسبق بهما وأكون المبشرة بقدومك عليها». فلما سمعت منار السناء كلام العجوز أطرقت برأسها إلى الأرض وقد تغير لونها ولم تزل مطرقة زمانًا طويلاً، ثم حركت رأسها ورفعته إلى العجوز وقالت لها: «يا أمى قد ارتجف فؤادى وخفق قلبى عندما ذكرت ولدىّ فإنهما من حين ولادتهما لم ينظر أحد وجوههما من الجن والبشر، لا أنثى ولا ذكر، وأنا أغار عليهما من النسيم إذا سرى».

فقالت لها العجوز: «أى شىء هذا الكلام يا سيدتى أتخافين عليهما من أختك، سلامة عقلك، وإن خالفت الملكة فى هذا الأمر لا يمكنك المخالفة لأنها تعتب عليك، ولكن يا سيدتى ولداك صغيران وأنت معذورة فى الخوف عليهما والمحبّ مولع بسوء الظن، ولكن يا ابنتى أنت تعلمين شفقتى ومحبتى لك ولولديك وقد ربيتكم قبلهما وأنا أتسلمهما وآخذهما وأفرش لهما خدّى وأفتح قلبى وأجعلهما فى داخله ولا أحتاج إلى الوصية عليهما فى مثل هذا الأمر،

فطيبى نفسًا وقرّى عينًا وأرسليهما لها وأكثر ما أسبقك به يوم واحد أو يومان».

ولم تزل تلحّ بها حتى لان جانبها وخافت من غيظ أختها ولم تدر ما هو مخبوء لها فى الغيب، فسمحت بإرسالهما مع العجوز. ثم إنها دعت بهما وأدخلتهما الحمام وهيأتهما وغيرت عليهما وألبستهما الدرعين وسلّمتهما للعجوز فأخذتهما وسارت بهما مثل الطير على غير الطريق التى تسير فيها أمهما مثل ما أوصتها الملكة نور الهدى.

ولم تزل تجدّ السير وهى خائفة عليهما إلى أن وصلت بهما إلى مدينة الملكة نور الهدى. فعدت البحر ودخلت المدينة وتوجهت إلى الملكة نور الهدى خالتهما. فلما رأتهما الملكة فرحت بهما وعانقتهما وضمتهما إلى صدرها وأجلست واحدًا على فخذها الأيمن والثانى على فخذها الأيسر. ثم التفتت إلى العجوز وقالت لها: «احضرى الآن حسنًا فأنا قد أعطيته ذمامى، وأجرته من حسامى، وقد تحصن بدارى، ونزل فى جوارى بعد أن قاسى الأهوال والشدائد، وتعدّى أسباب الموت التى همُّها متزايد، مع أنه إلى الآن لم يسلم من شرب كأسه، وقطع رأسه».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد: فقالت لها العجوز: «إذا أحضرته بين يديك هل تجمعين بينه وبينهما، وإن لم يظهر أنهما ولداه تعفى عنه وتردّيه إلى بلاده». فلما سمعت الملكة كلامها غضبت غضبًا شديدًا وقالت: «ويلك يا عجوز النحس إلى متى هذه المخادعة فى شأن هذا الرجل الغريب الذى تجاسر علينا وكشف سترنا واطلع على أحوالنا هل يظنّ أنه يجىء أرضنا وينظر وجوهنا ويوسخ أعراضنا ويرجع إلى بلاده سالمًا فيفضح أحوالنا فى بلاده وبين أهله ويبلغ أخبارنا سائر الملوك فى أقطار الأرض وتسافر التجار بأخبارنا فى جميع الجهات ويقولون: إنسى دخل جزائر واق وعدّى بلاد السحرة والكهنة وتخطى أرض الجان وأرض الوحوش والطيور ورجع سالمًا؟ فهذا لا يكون أبدًا، وأنا أقسم بخالق السماء وبانيها وساطح الأرض وداحيها، وبخالق الخلق ومحصيها، إن لم يكونا ولديه لأقتلنه شر قتلة، وأنا التى أضرب عنقه بيدى».

ثم إنها صرخت على العجوز فوقعت من الخوف، وأغرت عليها الحاجب وعشرين مملوكًا وقالت لهم: «امضوا مع هذه العجوز وائتونى بالصبى الذى عندها فى بيتها بسرعة» فخرجت العجوز مجرورة مع الحاجب والمماليك وقد اصفر لونها وارتعدت فرائصها، ثم سارت إلى منزلها ودخلت على حسن. فلما دخلت عليه قام إليها وقبّل يديها وسلّم عليها فلم تسلّم عليه وقالت له: «قم كلّم الملكة أما قلت لك ارجع إلى بلادك ونهيتك عن هذا كله فما سمعت قولى، وقلت لك أعطيك شيئًا لا يقدر عليه أحد وارجع إلى بلادك من قريب، فما أطعتنى ولا سمعت منى بل خالفتنى واخترت الهلاك لى ولك، فدونك وما اخترت فإن الموت قريب قم وكلّم هذه الفاجرة العاهرة الظالمة الغاشمة».

فقام حسن وهو مكسور الخاطر حزين القلب خائف ويقول: «يا سلام سلم اللهم الطف

بى فى ما قدّرته علىّ من بلائك واسترنى يا أرحم الراحمين». وقد يئس من الحياة وتوجه مع المشرين مملوكًا والحاجب والعجوز. فدخلوا على الملكة بحسن فوجد ولديه ناصرًا ومنصورًا جالسين فى حجرها وهى تلاعبهما وتؤانسهما. فلما وقع نظره عليهما عرفهما وصرخ صرخة عظيمة ووقع على الأرض مغشيا عليه من شدة الفرح بولديه.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما عرف ولديه وعرفاه فحركتهما المحبة الفريزية فتخلصا من حجر الملكة ووقفا عند حسن وأنطقهما الله عزّ وجل بقولهما: «يا أبانا». فبكت العجوز والحاضرون رحمةً لهما وشفقة عليهما وقالوا: «الحمد لله الذى جمع شملكما بأبيكما». فلما أفاق حسن من غشيته عانق ولديه ثم بكى حتى غشى عليه.

فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات :

وحقكم إن قلبى لم يطق جلدًا ... على الفراق ولو كان الوصال ردى

يقول لى طيفكم أن اللقاء غدًا ... وهل أعيش على رغم العداة غدا

وحقكم سادتى من يوم فرقتكم ... ما لذّ لى طيب عيش بعدكم أبدا

وإن قضى الله نحبى فى محبتكم ... أموت فى حبكم من أعظم الشهدا

فلما تحققت الملكة أن الصغيرين ولدا حسن وأن أختها منار السناء زوجته التى جاء فى طلبها غضبت عليها غضبًا شديدًا ما عليه من مزيد وصرخت فى وجه حسن فغشى عليه فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات :

بعدتم وأنتم أقرب الناس فى الحشى ... وغبتم وأنتم فى الفؤاد حضورُ

فوالله ما قد ملتُ عنكم لغيركم ... وإنى على جور الزمان صبورُ

تمرُّ الليالى فى هواكم وتنقضى ... وفى القلب منى زفرةٌ وسعيرُ

وكنت فتى لا أرتضى البعد ساعةً ... فكيف وقد مرت علىّ شهورُ

فلما فرغ حسن من شعره خر مغشيا عليه. فلما أفاق رآهم قد أخرجوه مسحوبًا على وجهه فقام يمشى ويتعثر فى أذياله وهو لم يصدق بالنجاة مما قاساه منها، فعزّ على العجوز شواهى ولم تقدر أن تخاطب الملكة من شدة غضبها. فلما خرج حسن من القصر صارمتحيرًا لا يعرف أين يروح ولا أين يجىء ولاأين يذهب وضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد من يحدثه ولا من يسليه ولا من يستشيره ولا من يقصده ويلجأ إليه فأيقن بالهلاك لأنه لا يقدر على السفر ولا يعرف من يسافر معه ولا يعرف الطريق ولا يقدر أن يجوز على وادى الجان وأرض الوحوش وجزائر الطيور فيئس من الحياة.

ثم بكى حسن على نفسه حتى وقع على الأرض مغشيا عليه. فلما أفاق تفكر فى ولديه وزوجته وقدومها على أختها وتفكر فى ما يجرى لها مع الملكة أختها. ثم ندم على حضوره فى هذه الديار وعلى كونه لم يسمع كلام أحد فأنشد هذه الأبيات:

دعوا مقلتى تبكى على فقد من أهوى ... فقد عزّ سلوانى وزادت بى البلوى

وكأس صرف البين صرفًا شربتها فمن ذا على فقد الأحبة لم يقوى
بسطتم بساط العتب بينى وبينكم ألا يا بساط العتب عنا منى تطوى
سهرتم ونمتم إذ زعمتم بأننى سلوت هواكم إذ سلوت عن السلوى
ألا إن قلبى مولعٌ بوصالكم وأنتم أطبائى حفظتم من الأدوا
ألم تنظروا ما حل بى من صدودكم ذللت لمن يسوى ومن لم يكن يسوى
فرقوا لحالى وارحمونى لأننى أقمت على الميثاق فى السرّ والنجوى
فيا هل ترى الأيام تجمعنى بكم فأنتم مُنى قلبى وروحى لكم تهوى
فؤادى جريحٌ بالفراق فليتكم تفيدوننا عن حبكم خبرًا يروى

ثم إنه لما فرغ من شعره لم يزل ذاهبًا إلى أن خرج إلى ظاهر المدينة فوجد النهر فسار على جانبه وهو لا يعلم أين يتوجه. هذا كان من أمر حسن. وأما ما كان من أمر زوجته منار السناء فإنها أرادت الرحيل فى اليوم الثانى بعد اليوم الذى رحلت فيه العجوز.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فبينما هى عازمة على الرحيل إذ دخل عليها حاجب الملك أبيها وقبّل الأرض بين يديها وقال لها: «يا ملكة إن أباك الملك الأعظم يسلّم عليك ويدعوك إليه». فنهضت متوجهة مع الحاجب إلى أبيها تنظر حاجته. فلما رآها أبوها أجلسها إلى جانبه فوق السرير وقال لها: «يا بنتى اعلمى انى رأيت فى هذه الليلة رؤيا وأنا خائف عليك منها وخائف أن يصل إليك من سفرك هذا همّ طويل». فقالت له: «لأى شىء يا أبت وأى شىء رأيت فى المنام؟» قال: «رأيت كأنى دخلت كنزًا فرأيت فيه أموالاً عظيمة جواهر ويواقيت كثيرة وكأنه لم يعجبنى من ذلك الكنز جميعه ولا من تلك الجواهر جميعها إلاسبع حبات وهى أحسن ما فيه فاخترت من السبع جواهر واحدة وهى أصغرها وأحسنها وأعظمها نورًا وكأنى أخذتها فى كفى لما أعجبنى حسنها وخرجت بها من الكنز، فلما خرجت من بابه فتحت يدى وأنا فرحان وقلبت الجوهرة وإذا بطائر غريب قد أقبل من بلاد بعيدة ليس من طيور بلادنا قد انقض علىّ من السماء وخطف الجوهرة من يدى ورجع بها إلى المكان الذى أتيت بها منه، فلحقنى الهمّ والحزن والضيق ففزعت فزعًا عظيمًا أيقظنى من المنام فانتبهت وأنا حزين متأسف على تلك الجوهرة، فلما انتبهت من النوم دعوت بالمعبرين والمفسرين وقصصت عليهم منامى فقالوا لى: إن لك سبع بنات تفقد الصغيرة منهنّ وتؤخذ منك قهرًا بغير رضاك، وأنت يا بنتى أصغر بناتى وأعزهنّ عندى وأكرمهنّ على قلبى وها أنت مسافرة إلى عند أختك الملكة نور الهدى ولا أعلم ما يجرى عليك منها فلا تروحى وارجعى إلى قصرك». فلما سمعت منار السناء كلام أبيها خفق قلبها وخافت على ولديها وأطرقت برأسها إلى الأرض ساعة ثم رفعته إلى أبيها وقالت له: «أيها الملك إن الملكة نور الهدى قد هيأت لى ضيافة وهى بانتظار قدومى عليها ساعة بعد ساعة، ولها أربع سنين ما رأتنى وإن قعدت عن زيارتها تغضب علىّ ومعظم قعودى عندها شهر زمان وأحضر عندك، ومن هذا الذى يطرق بلادنا ويصل إلى جزائر واق ومن

يقدر أن يصل إلى الأرض البيضاء والجبل الأسود ويصل إلى جزيرة الكافور وقلعة الطيور وكيف يستطيع أن يقطع وادي الطيور ثم وادي الوحوش ثم وادي الجان ثم يدخل جزائرنا، ولو دخل إليها غريب لغرق في بحار الهلكات، فطب نفسًا وقرّ عينًا من شأن سفري لا قدرة لأحد على أن يدوس أرضنا». ولم تزل تستعطفه حتى أنعم عليها بالإذن في المسير.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : ثم إنه أمر ألف فارس أن يسافروا معها ليوصلوها إلى النهر ثم يقيموا مكانهم حتى تصل إلى مدينة أختها فتدخل قصر أختها، وأمرهم أن يقيموا عندها حتى يأخذوها ويحضروا بها إلى أبيها. وأوصاها أبوها أن تقعد عند أختها يومين ثم تعود بسرعة. فقالت: «سمعًا وطاعةً». ثم إنها نهضت وخرجت وخرج معها أبوها وودّعها وقد أثّر كلام أبيها في قلبها فخافت على ولديها، ولا ينفع التحصن بالحذر من هجوم القدر فجدّت السير ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلت إلى النهر وضربت خيامها على ساحله. ثم عدّت النهر ومعها بعض غلمانها وحاشيتها ووزرائها. ولما وصلت إلى مدينة الملكة نور الهدى طلعت القصر ودخلت عليها فرأت ولديها يبكيان عندها ويصيحان: «يا أبانا». فجرت الدموع من عينيها وبكت.

ثم ضمت ولديها إلى صدرها وقالت لهما: «هل رأيتما أباكما؟ فلا كانت الساعة التي فارقته فيها ولو عرفت أنه في دار الدنيا لكنت أوصلتكما إليه» ثم ناحت على نفسها وعلى زوجها وعلى بكاء ولديها وأنشدت هذين البيتين:

أحبابنا إني على البعد والجفا ... أحنُّ إليكم حيث كنتم وأعطفُ

وطرفي إلى أوطانكم متلفتٌ ... وقلبي على أيامكم متلهفُ

فلما رأتها أختها قد ضمت ولديها وقالت: «أنا التي فعلت بنفسي وبولديّ هكذا وأخربت بيتي». لم تسلّم عليها أختها نور الهدى بل قالت لها: «يا عاهرة من أين لك هذان الولدان هل تزوجت بغير علم أبيك زنيت فإن كنت زنيت وجب قتلك وإن كنت تزوجت من غير علمنا فلأي شيء فارقت زوجك وأخذت ولديك وفرّقت بينهما وبين أبيهما وجئت بلادنا وقد أخفيت ولديك عنا؟ أتظنين أننا لا ندري بذلك والله تعالى علاّم الغيوب قد أظهر لنا أمرك وكشف حالك وبيّن عوراتك».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : ثم بعد ذلك أمرت أعوانها أن يمسكوها فقبضوا عليها فكتفتها وقيدتها بالقيود الحديد وضربتها ضربًا وجيعًا حتى شرحت جسدها وصلبتها من شعرها ووضعتها في سجن وكتبت كتابًا إلى الملك الأكبر أبيها تخبره بخبرها وتقول له: «إنه قد ظهر في بلادنا رجل من الإنس وأختي نور السناء تدّعي أنها زوجته في الحلال وجاءت منه بولدين وقد أخفتهما عنا وعنك، ولم تظهر على نفسها شيئًا إلى أن أتانا الرجل الذي من الإنس وهو يسمّى حسنًا وأخبرنا أنه تزوّج بها وقعدت عنده مدة طويلة من الزمان ثم أخذت ولديها

وراحت من غير علمه، وأخبرت والدته عند رواحها وقالت لها: قولى لولدك إذا حصل له اشتياق، أن يجيئنى إلى جزيرة واق، فقبضنا على الرجل عندنا وأرسلت إليها العجوز شواهى تحضرها عندى هى وولديها فجهزت نفسها وحضرت، وقد كنت أمرت العجوز أن تحضر لى ولديها أولاً فتسبق بهما إلىّ قبل حضورها فجاءت العجوز شواهى بالولدين قبل حضورها فأرسلت إلى الرجل الذى ادّعى أنها زوجته». «فلما دخل علىّ ورأى الولدين عرفهما وعرفاه، فتحققت أن الولدين ولداه وأنها زوجته وعلمت أن كلام الرجل صحيح ولم يكن عنده عيب ورأيت أن القبح والعيب عند أختى فخفت من هتك عرضنا عند أهل جزائرنا. فلما دخلت علىّ هذه الفاجرة الخائنة غضبت عليها وضربتها ضربًا وجيعًا وصلبتها من شعرها. وقد أعلمتك بخبرها والأمر أمرك فالذى تأمرنا به نفعله. وأنت تعلم أن هذا الأمر فيه هتيكة لنا وعيب فى حقنا وحقك. وربما تسمع أهل الجزائر بذلك فنصير بينهم مثلة فينبغى أن ترد لنا جوابًا سريعًا». ثم أعطت المكتوب للرسول وسار به إلى الملك. فلما قرأه الملك الأكبر اغتاظ غيظًا شديدًا على ابنته منار السناء وكتب إلى ابنته نور الهدى مكتوبًا يقول لها فيه: «أنا قد فوضت أمرها إليك وحكّمتك فى دمها فإن كان الأمر كما ذكرتِ فاقتليها ولا تشاورينى فى أمرها». فلما وصلَ إليها كتاب أبيها وقرأته أرسلت إلى منار السناء وأحضرتها بين يديها وهى غريقة فى دمائها مكتفة بشعرها مقيدة بقيد ثقيل من حديد. ثم أوقفوها بين يدى الملكة فوقفت حقيرة ذليلة. فلما رأت نفسها فى هذه المذلة العظيمة والهوان الشديد تفكرت بما كانت فيه من العزّ وبكت بكاءً شديدًا وأنشدت هذين البيتين :

يا رب إن العدى يسعون فى تلفى ... ويزعمون بأنى لست بالناجى
وقد رجوتك فى إبطال ما صنعوا ... يا رب أنت ملاذ الخائف الراجى

ثم بكت بكاءً شديدًا حتى وقعت مغشيا عليها. فلما أفاقت أنشدت هذين البيتين:

ألف الحوادث مهجتى وألفتها ... بعد التنافر والكريم ألوفُ
ليس الهموم علىّ صنفًا واحدًا ... عندى بحمد الله منها ألوفُ

ثم أنشدت أيضًا هذين البيتين :

ولربَّ نازلة يضيق لها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

ثم إن أختها أحضرت لها سلمًا من خشب ومدتها عليه وأمرت الخدام أن يربطوها على ظهرها فوق السلم ومدّت سواعدها وربطتها فى الحبال، ثم كشفت رأسها ولفّت شعرها على السلم الخشب وقد انتزعت الشفقة عليها من قلبها. فلما رأت منار السناء نفسها فى هذه الحالة من الذل والهوان صاحت وبكت فلم يغثها أحد، فقالت لها: «يا أختى كيف قسا قلبك علىّ فما ترحمينى ولا ترحمين هذين الطفلين الصغيرين؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمعت هذا الكلام ازدادت قسوتها وشتمتها وقالت لها: «يا عاهرة لا رحم الله من يرحمك كيف أشفق عليك يا خائنة؟» فقالت لها منار السناء وهى

مشبوحة: «احتسبت عليك برب السماء فى ما تسبّيننى به وأنا بريئة منه والله ما زنيت وإنما تزوجته فى الحلال وربى يعلم هل قولى صحيح أم لا وقلبى قد غضب عليك من شدة قسوة قلبك علىّ فكيف ترمينى بالزنا من غير علم، ولكن ربى يخلصنى منك وإن كان الذى قذفتنى به من الزنا حقا فيعاقبنى الله عليه».

فتفكرت أختها فى نفسها حين سمعت كلامها وقالت لها: «كيف تخاطبيننى بهذا الكلام؟» ثم قامت لها وضربتها حتى غشى عليها، فرشوا على وجهها الماء حتى أفاقت من غيبوبتها وقد تغيرت محاسنها من شدّة الضرب ومن قوّة الرياط ومن فرط ما حصل لها من الإهانة ثم أنشدت هذين البيتين :

وإذا جنيت جناية ... وأتيت شيئًا منكرا
أنا تائبٌ عما مضى ... وأتيتكم مستغفرا

فلما سمعت شعرها نور الهدى غضبت غضبًا شديدًا وقالت لها: «أتتكلمين يا عاهرة قدامى بالشعر تستعذرين من الذى فعلته من الكبائر، وكان مرادى أن ترجعى إلى زوجك حتى أشاهد فجورك وقوة عينك لأنك تفتخرين بالذى وقع منك من الفجور والفحش والكبائر؟» ثم إنها أمرت الغلمان أن يحضروا لها الجريد فأحضروه، فقامت وشمّرت عن ساعديها ونزلت عليها بالضرب من رأسها إلى قدميها، ثم دعت بسوط مضفور لو ضُرب به الفيل لهرول مسرعًا، فنزلت بذلك السوط على ظهرها وبطنها وجميع أعضائها حتى غشى عليها، فلما رأت العجوز شواهى ذلك من الملكة خرجت هاربة من بين يديها وهى تبكى وتدعو عليها، فصاحت على الخدم وقالت لهم: «ائتونى بها»، فتجاروا عليها ومسكوها وأحضروها بين يديها، فأمرت برميها على الأرض وقالت للجوارى: «اسحبوها على وجهها وأخرجوها»، فسحبوها وأخرجُوها من بين يديها.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : هذا ما كان من أمر هؤلاء ، وأما ما كان من أمر حسن فإنه قام متجلدًا ومشى فى شاطئ النهر واستقبل البرية وهو حيران مهموم وقد يئس من الحياة وصار مدهوشًا لا يعرف الليل من النهار لشدّة ما أصابه، وما زال يمشى إلى أن قرب من شجرة فوجد عليها ورقة معلقة، فتناولها حسن بيده ونظرها فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات:

دبّرت أمرك عندما ... كنت الجنين فى بطن أمك
وعطفت قد حننتها ... حتى لقد جادت بضمّك
إنّا لنكفيك الذى ... يأتى بهمّك أو بغمك
فاضرع إلينا ناهضًا ... نأخذ بكفّك من مهمّك

فلما فرغ من قراءة الورقة أيقن بالنجاة من الشدّة وظفره بجمع الشمل، ومشى خطوتين فوجد نفسه وحيدًا فى موضع قفر ذى خطر لا يجد أحدًا يستأنس به فطار قلبه من الوحدة والخوف وارتعدت فرائصه من هذا المكان وأنشد هذين البيتين :

نسيم الصبا إن جزت أرض أحبتى ... فبلّغهم عنى جزيل سلامى

عسى عطفة منها يهبُّ نسيمها فيحيا بها قوزًا رميم عظامى

ثم إن حسنًا مشى على جانب النهر خطوتين فوجد ولدين صغيرين من أولاد السحرة والكهان وبين أيديهما قضيب من النحاس منقوش بالطلاسم وبجانب القضيب طاقية من الأدم بثلاثة نزول منقوش عليها بالفولاذ أسماء وخواتم، والقضيب والطاقية مرميان على الأرض والولدان يختصمان ويتضاربان عليهما حتى سال الدم بينهما، وهذا يقول: «ما يأخذ القضيب إلا أنا؟» والآخر يقول: «ما يأخذ القضيب إلا أنا». فدخل حسن بينهما وخلّصهما من بعضهما وقال لهما: «ما سبب هذه المخاصمة؟» فقال له: يا عمّ احكم بيننا فإن الله تعالى ساقك إلينا لتقضى بيننا بالحق». فقال: «قصّا علىّ حكايتكما وأنا أحكم بينكما». فقالا له: «نحن الاثنين شقيقان وكان أبونا من السحرة الكبار وكان مقيمًا فى مغارة فى هذا الجبل، ثم مات وخلّف لنا هذه الطاقية وهذا القضيب، وأخى يقول ما يأخذ القضيب إلا أنا، وأنا أقول كذلك، فاحكم بيننا وخلصنا من بعضنا».

فلما سمع حسن كلامهما قال لهما: «ما الفرق بين القضيب والطاقية وما مقدارهما فإن القضيب بحسب الظاهر يساوى ستة جدد والطاقية تسوى ثلاثة جدد». فقالا له: «أنت ما تعرف فضلهما». فقال لهما: «أى شيء فضلهما؟» قالا له: «فى كل منهما سر عجيب وهو أن القضيب يساوى خراج جزائر واق بأقطارها والطاقية كذلك». فقال حسن يا ولدىّ بالله اكشفا عن سرهما». فقالا له: «يا عمّ إن سرهما عظيم لأن أبانا عاش مائة وخمسًا وثلاثين سنة يعالج تدبيرهما حتى أحكمهما غاية الإحكام وركب فيهما السرّ المكنون واستخدمهما الاستخدامات الغريبة ونقشهما على مثل الفلك الدائر وحل بهما جميع الطلسمات، وعندما فرغ من تدبيرهما أدركه الموت الذى لابد لكل أحد منه، أما الطاقية فإن سرّها أن كل من وضعها على رأسه اختفى عن أعين الناس جميعًا فلا ينظره أحد ما دامت على رأسه، وأما القضيب فإن سرّه أن كل من ملكه يحكم على سبع طوائف من الجنّ والجميع يخدمون ذلك القضيب فكلهم تحت أمره وتحت حكمه، وكل من ملكه وصار فى يده إذا ضرب به الأرض خضعت له ملوكها وتكون جميع الجنّ فى خدمته».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع حسن هذا الكلام أطرق برأسه إلى الأرض ساعة، ثم قال فى نفسه: والله إنى لمنصور بهذا القضيب وبهذه الطاقية إن شاء الله تعالى فأنا أحق بهما منهما، ففى هذه الساعة أتحيّل على أخذهما منهما لأستعين بهما على خلاصى وخلاص زوجتى وولدىّ من هذه الملكة الظالمة ونسافر من هذا المكان المظلم الذى ما لأحد من الإنس خلص منه ولا مفر، ولعلّ الله ما ساقنى لهذين الغلامين إلا لأستخلص منهما القضيب والطاقية. ثم رفع رأسه إلى الغلامين وقال لهما: «إذا شئتما فصل القضية فأنا أمتحنكما فمن غلب رفيقه يأخذ القضيب ومن عجز يأخذ الطاقية، فإن امتحنتكما وميزت بينكما عرفت ما يستحق كل منكما». فقالا: «يا عمّ وكلناك فى امتحاننا واحكم بيننا ما تختار». فقال لهما حسن: «هل تسمعان منى وترجعان إلى قولى؟» فقالا له: «نعم». فقال لهما حسن: «أنا آخذ

حجرًا وأرميه فمن سبق منكما إليه وأخذه قبل رفيقه يأخذ القضيب ومن تأخر ولم يلحقه يأخذ الطاقية»، فقالا : «قبلنا منك هذا الكلام ورضينا به». ثم إن حسنًا أخذ حجرًا ورماه بعزمه حتى غاب عن العيون فتسارع الغلامان تحته، فلما بعدا أخذ حسن الطاقية ولبسها وأخذ القضيب فى يده وانتقل من موضعه لينظر صحة قولهما فى شأن سرّ أبيهما، فسبق الولد الصغير إلى الحجر وأخذه ورجع إلى المكان الذى فيه حسن فلم ير له أثرًا، فصاح على أخيه وقال له: «أين الرجل الحاكم بيننا؟» فقال: «لا أراه أعرف هل طلع إلى السماء العليا أو نزل إلى الأرض السفلى؟» ثم إنهما فتشا عليه فلم ينظراه وحسن واقف فى مكانه، فشتما بعضهما وقالا: «قد راح القضيب والطاقية لا لى ولا لك، وكان أبونا قد قال هذا الكلام بعينه ولكنا نسينا ما أخبرنا به».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إنهما رجعا على أعقابهما، ودخل حسن المدينة وهو لابس الطاقية وفى يده القضيب ولم يره أحد من الناس، ثم دخل القصر وطلع إلى المكان الذى فيه شواهى ذات الدواهى، فدخل عليها وهو لابس الطاقية فلم تره، ومشى حتى تقرّب من رفّ كان فوق رأسها وعليه زجاج وصينى فحركه بيده فوقع الذى فوقه على الأرض، فصاحت شواهى ذات الدواهى ولطمت على وجهها، ثم قامت وأرجعت الذى وقع إلى مكانه وقالت فى نفسها: «والله ما أظن إلا أن الملكة نور الهدى أرسلت إلىّ شيطانًا فعمل معى هذه العملة، فأنا أسأل الله تعالى أن يخلصنى منها، فيا رب إذا كان فعلها هذا القبيح من الضرب والصلب مع أختها وهى عزيزة عند أبيها فكيف فعلها مع الغريب مثلى إذا غضبت عليه؟». ثم إنها قالت: «أقسمت عليك أيها الشيطان بالحنّان المنّان العظيم الشأن القوى السلطان خالق الإنس والجان وبالنقش الذى على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام أن تكلمنى وتجيبنى»، فأجابها حسن وقال لها: «ما أنا شيطان أنا حسن الولهان الهائم الحيران». ثم قلع الطاقية من فوق رأسه فظهر للعجوز وعرفته فأخذته واختلت به وقالت له: «أى شىء حصل لك فى عقلك حتى عبرت إلى هنا رُح اختف فإن الفاجرة صنعت بزوجتك ما صنعت من العذاب وهى أختها فكيف إذا وقعت بك يا مسكين؟». ثم حكت لحسن جميع ما وقع لزوجته وما هى فيه من الضيق والعقوبة والعذاب، وكذلك حكت له ما وقع لها من العذاب، ثم قالت له: «إن الملكة ندمت حيث أطلقتك وقد أرسلت إليك من يحضرك لها وتعطيه من الذهب قنطارًا وتجعله فى رتبتى عندها، وحلفت إن أرجعوك قتلتك وتقتل زوجتك وولديك». ثم إن العجوز بكت وأظهرت لحسن ما فعلته الملكة بها، فبكى حسن وقال: «يا سيدتى كيف الخلاص من هذه الديار ومن هذه الملكة الظالمة وما الحيلة التى توصلنى إلى أن أخلص زوجتى وولدىّ ثم أرجع بهم إلى بلدى سالمًا». فقالت له العجوز: «ويلك انجُ بنفسك»، فقال: «لابد من خلاصها وخلاص ولدىّ منها قهرًا عنها». فقالت له العجوز: «وكيف تخلصهم قهرًا عنها رُح واختف يا ولدى حتى يأذن الله تعالى».

ثم إن حسنًا أراها القضيب النحاس والطاقية، فلما رأتهما العجوز فرحت بهما فرحًا شديدًا وقالت له: «سبحان من يحيى العظام وهى رميم، والله يا ولدى ما كنت أنت وزوجتك إلا من الهالكين والآن يا ولدى قد نجوت أنت وزوجتك وولداك لأنى أعرف القضيب وأعرف صاحبه، فإنه كان شيخى الذى علمنى السحر وكان ساحرًا عظيمًا مكث مائة وخمسًا وثلاثين سنة حتى أتقن هذا القضيب وهذه الطاقية، فلما انتهى إتقانهما أدركه الموت الذى لابد منه، وسمعته مرّة يقول لولديه: يا ولدىّ هذان ما هما من نصيبكما وإنما يأتى شخص غريب عن هذه الديار يأخذهما منكما قهرًا ولا تعرفان كيف يأخذهما، فقالا له: يا أبانا كيف يصل هذا الغريب إلى أخذهما منا؟ فقال: لا أعرف ذلك، فكيف وصلت يا ولدى إلى أخذهما؟».

فحكى لها كيف أخذهما من الولدين، فلما حكى لها فرحت بذلك وقالت له: «يا ولدى كما ملكت زوجتك وولديك اسمع منى ما أقول لك عليه: أنا ما بقى لى عند هذه الفاجرة إقامة بعدما تجاسرت علىّ ونكلتنى، وأنا راحلة عنها إلى مغارة السحرة لأقيم عندهم وأعيش معهم إلى أن أموت، وأنت البس الطاقية وخذ القضيب فى يدك وادخل على زوجتك وولديك فى المكان الذى هم فيه واضرب الأرض بالقضيب وقل: يا خدّام هذه الأسماء، تطلع إليك خدامه، فإن طلع إليك أحد من رؤوس القبائل فأمره بما تريد وتختار».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إنه ودّعها وخرج ولبس الطاقية وأخذ القضيب معه ودخل المكان الذى فيه زوجته فرآها فى حالة العدم مصلوبة على السلم وشعرها مربوط فيه وهى باكية العين حزينة القلب فى أسوأ حال لا تدرى طريقًا لخلاصها، وولداها تحت السلم يلعبان وهى تنظرهما وتبكى عليهما وعلى نفسها بسبب ما جرى لها مما أصابها وهى تقاسى من العذاب والضرب المؤلم أشدّ النكال، فلما رآها، فى أسوأ الحالات سمعها تنشد هذه الأبيات:

لم يبقَ إلا نفسٌ هافتٌ	ومقلةٌ إنسانها باهتٌ
ومغرمٌ تضرم أحشاؤه	بالنار إلا أنه ساكتٌ
يرثى له الشامت مما رأى	يا ويح من يرثى له الشامتُ

ثم إن حسنًا لما رأى ما هى فيه من العذاب والذل والهوان بكى حتى غشى عليه، فلما أفاق ورأى ولداه وهما يلعبان وقد غشى على أمهما من كثرة التألم كشف الطاقية عن رأسه فصاحا: «يا أبانا». فغطى رأسه، واستفاقت أمهما من غشيتها على صياحهما فلم تنظر زوجها وإنما نظرت ولديها وهما يبكيان ويصيحان: «يا أبانا». فبكت أمهما لما سمعتهما يذكران أباهما وهما يبكيان وانكسر قلبها وتقطعت أحشاؤها ونادت من كبد قد تصدّع وقلب موجع: «أين أنتما وأين أبوكما؟» ثم تذكرت أوقات اجتماع شملها وتذكرت ما جرى عليها بعد فراقه فبكت بكاءً شديدًا حتى جرحت بدموعها خدّيها وبلّت الأرض وصارت خدودها غريقة بدموعها من كثرة البكاء وليس لها يد مطلوقة حتى تمسح دموعها، وشبع الذباب من جلدها، ولم تجد لها مساعدًا غير البكاء وإنشاد الأشعار فأنشدت تقول:

وتذكرت يوم البين بعد مودعى فجرت دموعى أنهرًا فى مرجعى
وحدا بهم حادى الركاب فلم أجد صبرًا ولا جلدًا ولا قلبى معى
ورجعت لا أدرى الطريق ولم أفق من لوعتى وتولعى وتوجعى
وأضرُّ ما بى فى رجوعى شامتٌ قد جاءنى فى صورة المتخشع
يا نفس إذا بعد الحبيب ففارقى طيب الحياة وفى البقا لا تطمعى

فلما سمع حسن شعرها بكى حتى غشى عليه وجرت دموعه على خديه مثل المطر، ودنا من ولديه وكشف الطاقية عن رأسه، فلما رأياه صاحا: «يا أبانا».. فبكت أمهما حين سمعتهما يذكران أباهما وقالت: «لا حيلة فى قدر الله»، وقالت فى نفسها: «يا للعجب ما سبب ذكرهما لأبيهما فى هذا الوقت وندائهما له؟»، ثم بكت وأنشدت هذه الأبيات:

خلت الديار من البدور الطلَّع يا مقلتى جودى بفيض الأدمع
رحلوا فكيف تصبرى من بعدهم أقسمت ما قلبى ولا صبرى معى
يا راحلين وفى الفؤاد محلهم هل بعد ذا يا سادتى من مرجع
ما ضر لو رجعوا وفزت بأنسهم ورثوا لفيض مدامعى وتوجعى
أجروا سحائب مقلتى يوم النوى عجبًا ولم يطفا تضرُّم أضلعى
وطمعت أن يبقوا فعاندنى البقا فيهم وخيَّب بالتفرّق مطمعى
بالله يا أحبابنا عودوا لنا فلقد كفى ما قد جرى من أدمعى

فلم يطق حسن الصبر دون أن كشف الطاقية عن رأسه فنظرته زوجته فلما عرفته زعقت زعقة أزعجت جميع من فى القصر، ثم قالت له: «وكيف وصلت إلى هاهنا هل من السماء نزلت أو من الأرض؟»، ثم تغرغرت عيونها بالدموع فبكى حسن. فقالت له: «يا رجل ما هذا وقت بكاء ولا وقت عتاب قد نفذ القضاء وعمى البصر، وجرى القلم بما قد حكم الله فى القدم، فبالله عليك من أى مكان جئت رُح واختف لئلا ينظرك أحد فيعلم أختى بذلك فتذبحنى وتذبحك». فقال لها حسن: «يا سيدتى وسيدة كل ملكة أنا خاطرت بروحى وجئت إلى هنا فإما أن أموت وإما أن أخلصك من الذى أنت فيه وأسافر أنا وأنت وولدانا إلى بلادى على رغم أنف هذه الفاجرة أختك».

فلما سمعت كلامه تبسمت وضحكت وصارت تحرّك رأسها زمانًا طويلاً وقالت له: «هيهات يا روحى هيهات أن يخلصنى أحد مما أنا فيه إلا الله تعالى، فنز بنفسك وارحل ولا ترم روحك فى الهلاك فإن لها عسكرًا جرارًا ما يقدر أحد أن يقابله، وهب أنك أخذتنى وخرجت فكيف تصل إلى بلادك وتخلص من هذه الجزائر وصعوبة هذه الأماكن الخطرة، وقد رأيت فى الطريق التى نظرتها من العجائب والغرائب والأهوال والشدائد ما لا يخلص منه أحد من الجنّ، فرُح ولا تزدنى هما على همى ولا غما على غمى ولا تدّعى أنك تخلصنى من هذا فمن يوصلنى إلى بلادك فى هذه الأرض المعطشة والأماكن المهلكة؟». فقال لها حسن: «وحياتك يا نور عينى ما أخرج من هنا ولا أسافر إلا بك». فقالت له: يا رجل كيف تقدر على هذا الأمر أى شىء جنسك فإنك لا تعرف الذى تقوله ولو كنت تحكم على جان وعفريت

وسحرة وأرهاط وأعوان فإنه لا يقدر أحد أن يتخلص من هذه الأماكن ففز أنت بنفسك سالمًا وخلّنى لعل الله يحدث بعد الأمور أمورًا». فقال لها حسن: «يا سيدة الملاح أنا ما جئت إلا لأخلصك بهذا القضيب وبهذه الطاقية، ثم حكى لها حكايته مع الولدين.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فبينما هو فى الحديث وإذا بالملكة دخلت عليهما فسمعت حديثهما، فلما رأى حسن الملكة لبس الطاقية، فقالت لأختها: «يا فاجرة من الذى كنت تتحدثين معه؟» فقالت لها: « ومن عندى يكلمنى غير هذين الطفلين؟» فأخذت السوط وصارت تضربها به وحسن واقف ينظر، ولم تزل تضربها حتى غشى عليها، ثم أمرت بنقلها من المحلّ إلى محلّ آخر، فحلوها وخرجوا بها إلى محل غيره، وخرج حسن معهم، ثم ألقوها مغشيا عليها ووقفوا ينظرون إليها، فلما أفاقت من غشيتها أنشدت هذه الأبيات:

ولقد ندمت على تفرّق شملنا ... ندمًا أفاض الدمع من أجفانى

ونذرت إن عاد الزمان يلمنا ... ما عدت أذكر فرقة بلسانى

وأقول للحساد موتوا حسرةً ... والله إنى قد بلغت أمانى

طفح السرور علىّ حتى إنه ... من فرط ما قد سرّنى أبكانى

يا عين ما بال البكا لك عادة ... تبكين فى فرح وفى أحزان

فلما فرغت من شعرها خرج من عندها الجوارى، فعند ذلك قلع حسن الطاقية، فقالت له زوجته: «انظر يا رجل ما حلّ بى هذا كله إلا لكونى عصيتك وخالفت أمرك وخرجت من غير إذنك فبالله عليك يا رجل لا تؤاخذنى بذنبى، واعلم أن المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتى تفارقه، وأناأذنبت وأخطأت ولكن أستغفر الله العظيم مما وقع منى، وإن جمع الله شملنا لا أعصى لك أمرًا بعد ذلك أبدًا».

فقال لها حسن وقد أوجعه قلبه عليها: «أنت ما أخطأت وما أخطأ إلا أنا لأنى سافرت وخليّتك عند من لا يعرف قدرك ولا يعرف لك قيمة ولا مقدارا، واعلمى يا حبيبة قلبى ثمرة فؤادى ونور عينى أن الله سبحانه أقدرنى على تخليصك فهل تحبين أن أوصلك إلى ديار أبيك وتستوفى عنده ما قدّره الله عليك أو تسافرين إلى بلادنا عن قريب حيث حصل لك الفرج؟» فقالت له: «ومن يقدر على تخليصى إلا رب السماء؟ فرُح يا رجل إلى بلادك وخلّ عنك الطمع فإنك لا تعرف أخطار هذه الديار وإن لم تطعنى سوف تنظر» ثم إنها أنشدت هذه الأبيات:

علىّ وعندى ما تريد من الرضا ... فما لك غضبانًا علىّ ومعرضا

وما قد جرى حاشا الذى كان بيننا ... من الودّ أن ينسى قديمًا وينقضا

ومابرح الواشى لنا متجنّبًا فلما ... رأى الإعراض منا تعرضا

فإنى بحسن الظنّ منك لواثقٌ ... وإن جهل الواشى وقال وحرّضا

فنكتم سرا بيننا ونصونه ... ولو كان سيف العذل باللوم منتضى

أظلّ نهارى كله متشوقًا ... لعلّ بشيرًا منك يقبل بالرضا

ثم بكت هى وولداه، وسمع الجوارى بكاءهم فدخلن عليهم فوجدن الملكة منار السناء تبكى وولداها ولم ينظرن حسنًا عندهم، فبكى الجوارى رحمة لهم ودعين على الملكة نور الهدى، فصبر حسن إلى أن أقبل الليل وذهب الحراس الموكلون إلى مراقدهم، ثم بعد ذلك قام وشد وسطه وجاء إلى زوجته وحلّها وقبّل رأسها وقال لها: «ما أطول شوقنا إلى ديارنا واجتماع شملنا هناك فهل اجتماعنا هذا فى المنام أو فى اليقظة؟».

ثم إنه حمل ولده الكبير وحملت هى ولدها الصغير وخرجا من القصر وقد أسبل الله عليهما الستر وسارا، فلما وصلا إلى خارج القصر وقفا عند الباب الذى يقفل على سراية الملكة، فلما صارا هناك رأياه مقفولاً فقال حسن: «لا حول ولا قوة إلا بالله إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، ثم إنهما يئسا من الخلاص، فقال حسن: «يا مفرج الكروب»، ودقّ يدا على يد وقال: «كل شىء حسبته ونظرت عاقبته إلا هذا فإنه إذا طلع علينا النهار يأخذوننا وكيف تكون الحيلة فى هذا الأمر؟» ثم إن حسنًا أنشد هذين البيتين:

حسّنت ظنك فى الأيام إذا حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدرُ
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدرُ

ثم بكى حسن وبكت زوجته منار السناء لبكائه ولما هى فيه من الإهانة وآلام الزمان فالتفت حسن إلى زوجته وأنشد هذين البيتين :

يعاندنى دهرى كأننى عدوّه ... وفى كل يوم بالكريهة يلقانى
وإن رمت خيرًا جاء دهرى بضدّه ... وإن يصفُ لى يومًا تكدر فى الثانى

وأنشد أيضًا هذين البيتين :

تنكّر لى دهرى ولم يدر أننى ... أعزُّ وأن النائبات تهونُ
وبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه ... وبتُّ أريه الصبر كيف يكونُ

فقالت زوجته : «والله ما لنا فرج إلا أن نقتل أرواحنا ونستريح من هذا التعب العظيم، ولا نصبح نقاسى العذاب الأليم»، فبينما هما فى الكلام وإذا بقائل من خارج الباب: «والله ما أفتح لك يا سيدتى منار السناء وزوجك حسن إلا أن تطوعانى فيما أقوله لكما»، فلما سمعا منه هذا الكلام سكتا وأرادا الرجوع إلى المكان الذى كانا فيه، وإذا بقائل يقول: «ما بالكما سكتما ولم تردا الجواب فعرفا صاحب القول وهى العجوز شواهى ذات الدواهى فقالا لها: «مهما تأمرينا به نعمله ولكن افتحى لنا الباب أولاً لأن هذا الوقت ما هو وقت كلام»، فقالت لهما: «والله ما أفتح لكما حتى تحلفا لى أنكما تأخذانى معكما ولا تتركانى عند هذه العاهرة الماكرة ومهما أصابكما أصابنى وإن سلمتما سلمت وإن عطبتما عطبت فإن هذه الفاجرة تحتقرنى وفى كل ساعة تنكلنى من أجلكما وأنت يا بنتى تعرفين مقدارى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما عرفاها اطمأنا بها وحلفا لها بالأيمان التى تثق بها، فلم حلفا لها بما تثق فتحت لهما الباب وخرجا فلما خرجا وجداها راكبة على زير رومىّ من فخار أحمر وفى حلق الزير حبل من ليف وهو ينقلب تحتها ويجرى جريًا أقوى من جرى المهر النجدىّ

فتقدمت قدامهما وقالت لهما: «اتبعانى ولا تفزعا من شىء فإنى أحفظ أربعين بابًا من السحر أقرب باب منها أجعل به هذه المدينة بحرًا عجاجًا متلاطما بالأمواج وأسحر كل صاحبة بيت فيها فتصير سمكة وكل ذلك أعمله قبل الصبح، ولكنى لا أقدر أن أفعل شيئًا من ذلك الشرّ خوفًا من الملك أبيها ورعاية لأخواتها لأنهم مستعزّون بكثرة الأعوان والأرهاط والخدم، ولكن سوف أريكما عجائب سحرى فسيرا بنا على بركة الله تعالى وعونه».

فعند ذلك فرح حسن وزوجته وأيقنا بالخلاص، ثم خرجوا إلى ظاهر المدينة، فأخذ حسن القضيب بيده وضرب به الأرض وقوّى جنانه وقال: «يا خدام هذه الأسماء احضروا لى وأطلعونى على أحوالكم»، وإذ بالأرض قد انشقت وخرج منها عشرة عفاريت كل عفريت منهم رجلاه فى تخوم الأرض ورأسه فى السحاب فقبلوا الأرض بين يدى حسن ثلاث مرات وقالوا له كلهم بلسان واحد: «لبيك يا سيدنا الحاكم علينا بأى شىء تأمرنا فنحن لأمرك سامعون إن شئت نيبس لك البحار وننقل لك الجبال من أماكنها».

ففرح حسن بكلامهم وبسرعة جوابهم فشجع قلبه وقوّ جنانه وعزمه وقال لهم: «من أنتم وما أسمكم ولمن تنتسبون من القبائل ومن أى طائفة أنتم ومن أى قبيلة ومن أى رهط؟» فقبلوا الأرض ثانيًا وقالوا بلسان واحد: «نحن سبعة ملوك كل ملك منا يحكم على سبع قبايل من الجن والشياطين والمردة فنحن سبعة نحكم على تسع وأربعين قبيلة من سائر طوائف الجن والشياطين والمردة والأرهاط والأعوان الطيارة والغواصة وسكان الجبال والبرارى والقفار وعمار البحار، فأمرنا بما تريد، فنحن لك خدام وعبيد، وكل من ملك هذا القضيب ملك رقابنا جميعًا ونصير تحت طاعته». فلما سمع حسن كلامهم فرح فرحًا عظيمًا وكذلك زوجته والعجوز، فعند ذلك قال حسن للجان: «أريد منكم أن تطلعونى على رهطكم وجندكم وأعوانكم». فقالوا: «يا سيدنا إذا أطلعناك على رهطنا نخاف عليك وعلى من معك لأنهم جنود كثيرة مختلفة الصور والخلق والألوان والوجوه والأبدان، فمنا رؤوس بلا أبدان ومنا أبدان بلا رؤوس ومنا من هو على صورة الوحوش ومنا من هو على صورة السباع، ولكن إن شئت فلابد لنا من أن نعرض عليك أولاً من هم على صفة الوحوش، ولكن ماذا تريد منا فى هذا الوقت؟» فقال لهم حسن: «أريد منكم أن تحملونى أنا وزوجتى وأولادى وهذه المرأة الصالحة فى هذه الساعة إلى مدينة بغداد».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما سمعوا كلامه أطرقوا برؤوسهم فقال لهم حسن «لمَ لا تجيبون؟» فقالوا بلسان واحد: «أيها السيد الحاكم علينا إننا من عهد سليمان بن داود عليهما السلام وكان حلفنا أننا لا نحمل أحدًا من بنى آدم على ظهورنا، فنحن من ذلك الوقت لم نحمل أحدًا من بنى آدم على أكتافنا ولا على ظهورنا، ولكن نحن فى هذه الساعة نشد لك من خيول الجنّ ما يبلغك بلادك أنت ومن معك». فقال لهم حسن: «وكم بيننا وبين بغداد؟» فقالوا له: «سبع سنين للفارس المجدّ». فتعجب حسن من ذلك وقال لهم: «كيف جئت أنا إلى هنا فيما دون السنة؟» فقالوا له: «أنت قد حنن الله عليك قلوب عباده الصالحين ولولا ذلك ما كنت تصل

إلى هذه الديار والبلاد ولا تراها بعينك أبدًا لأن الشيخ عبد القدوس الذى أركبك الفيل وأركبك الجواد الميمون قطع بك فى ثلاثة أيام مسافة ثلاث سنين للفارس المجدّ للسير، وأما الشيخ أبو الرويش الذى أعطاك لدهنش فإنه قد قطع بك فى اليوم والليلة مسافة ثلاث سنين، وهذا من بركة الله العظيم لأن الشيخ أبا الرويش من ذرية آصف بن برخيا وهو يحفظ اسم الله الأعظم، ومن بغداد إلى قصر البنات سنة، فهذه هى السبع سنين». فلما سمع حسن كلامهم تعجب عجبًا عظيمًا وقال: «سبحان الله مهوّن العسير، وجابر الكسير، ومقرّب البعيد، ومذلّ كل جبار عنيد، الذى هوّن علينا كل أمر شديد، وأوصلنى إلى هذه الديار وسخر لى هؤلاء العالم وجمع شملى بزوجتى وولدىّ، فما أدرى هل أنا نائم أم يقظان، وهل أنا صاح أم سكران؟».

ثم إن حسنًا التفت إليهم وقال لهم: «إذا أركبتمونى خيولكم فبكم يوم تصل بنا إلــى بغداد ؟» فقالوا: «تصل بك فيما دون السنة بعد أن تقاسى الأمور الصعاب والشدائد والأهوال وتقطع أودية معطشة وقفارًا موحشة وبرارى ومهالك كثيرة، ولا نأمن عليك يا سيدى من أهل هذه الجزائر ولا من شرّ الملك الأكبر ولا من هذه السحرة والكهنة، فربما يقهروننا ويأخذونكم منّا ونبتلى بهم، وكل من بلغه الخبر بعد ذلك يقول لنا: «أنتم الظالمون كيف قدمتم على الملك الأكبر وحملتم الإنس من بلاده وحملتم أيضًا ابنته معكم» ولو كنت معنا وحدك لهان علينا الأمر، ولكن الذى أوصلك إلى هذه الجزائر قادر أن يوصلك إلى بلادك ويجمع شملك بأمك قريبًا غير بعيد، فاعزم وتوكل على الله ولا تخف فنحن بين يديك حتى نوصلك إلى بلادك».

فشكرهم حسن على ذلك وقال لهم: «جزاكم الله خيرًا». ثم قال لهم: «عجّلوا بالخيل». فقالوا: «سمعًا وطاعة» ، ثم دقّوا الأرض بأرجلهم فانشقت فغابوا فيها ساعة ثم حضروا وإذا بهم قد طلعوا ومعهم ثلاثة أفراس مسرجة ملجمة وفى مقدم كل سرج خرج فى إحدى عينيه ركوة ملآنة ماء والعين الأخرى ملآنة زادًا، ثم قدموا الخيل فركب حسن جوادًا وأخذ ولدًا قدامه وركبت زوجته الجواد الثانى وأخذت ولدًا قدامها ثم نزلت العجوز من فوق الزير وركبت الجواد الثالث وساروا، ولم يزالوا سائرين طول الليل حتى أصبح الصباح فعرجوا عن الطريق وقصدوا الجبل وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله وساروا النهار كله تحت الجبل، فبينما هم سائرون إذ نظر حسن إلى جبل قدامه مثل العامود وهو طويل كالدخان المتصاعد إلى السماء فقرأ شيئًا من القرآن وعوّذ بالله من الشيطان الرجيم فصار ذلك السواد يظهر كلما تقربوا منه، فلما دنوا منه وجدوه عفريتًا رأسه كالقبة العظيمة وأنيابه كالكلاليب وحنكه كالزقاق ومنخراه كالإبريق وأذناه كالأدراق وفمه كالمغارة وأسنانه كعواميد الحجارة ويداه كالمدارى ورجلاه كالصوارى ورأسه فى السحاب وقدماه فى تخوم الأرض تحت التراب.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما نظر حسن إلى العفريت انحنى وقبل الأرض بين يديه، فقال له: «يا حسن لاتخف منى أنا رئيس عمار هذه الأرض وهذه أول جزيرة من جزائر واق وأنا مسلم موحد الله وسمعت بكم وعرفت بقدومكم ولما اطلعت على حالكم اشتهيت أن أرحل من بلاد

السحرة إلى أرض غيرها تكون خالية من السكان بعيدة من الإنس والجان أعيش فيها منفردًا وحدي وأعبد الله حتى يدركني أجلي، فأردت أن أرافقكم وأكون دليلكم حتى تخرجوا من هذه الجزائر، وأنا ما أظهر إلا بالليل، فطيّبوا قلوبكم من جهتي فأنا مسلم مثلما أنتم مسلمون». فلما سمع حسن كلام العفريت فرح فرحًا شديدًا وأيقن بالنجاة، ثم التفت إليه وقال له:«جزاك الله خيرًا فسر معنا على بركة الله»، فسار العفريت قدامهم وصاروا يتحدثون ويلعبون وقد طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وصار حسن يحكي لزوجته جميع ما جرى له، ولم يزالوا سائرين طول الليل والخيل تسير بهم كالبرق الخاطف. فلما طلع النهار مد كل واحد يده في خرجه وأخرج منه شيئًا وأكله وأخرج ماء وشربه، ثم جدّوا في السير، ولم يزالوا سائرين والعفريت أمامهم وقد عرج بهم عن الطريق إلى طريق غير مسلوكة على شاطئ البحر، ومازالوا يقطعون الأودية والقفار مدة شهر كامل وفي اليوم الحادي والثلاثين طلعت عليهم غبرة سدّت الأقطار وأظلم منها النهار، فلما نظرها حسن حار ولحقه الاصفرار وقد سمعوا ضجات مزعجة، فالتفت العجوز إلى حسن وقالت له: «يا ولدي هذه عساكر جزائر واق قد لحقونا وفي هذه الساعة يأخذوننا قبضًا باليد»، فقال له حسن: «ما أصنع يا أمي؟» فقالت له: «اضرب الأرض بالقضيب»، ففعل فطلع إليه السبعة ملوك وسلّموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له: «لا تخف ولا تحزن» ففرح حسن بكلامهم وقال: «أحسنتم يا سادة الجنّ والعفاريت وهذا وقتكم». قالوا له: «اطلع أنت وزوجتك وولداك ومن معك فوق الجبل وخلونا نحن وإياهم لأننا نعرف أنكم على الحق وهم على الباطل وينصرنا الله عليهم»، فنزل حسن وزوجته وولداه والعجوز عن ظهور الخيل وطلعوا على طرف الجبل.

ثم بعد ذلك أقبلت الملكة نور الهدى بعساكر ميمنة وميسرة ودارت عليهم النقباء وصفّوهم جملة بعد جملة، وقد التقى العسكران وتصادم الجمعان، والتهبت النيران، وأقدمت الشجعان، وفرّ الجبان، ورمت الجنّ من أفواهها لهيب الشرر، إلى أن أقبل الليل المعتكر، فافترق الجمعان، وانفصل الفريقان، ولما نزلوا عن خيولهم واستقروا على الأرض أشعلوا النيران، وطلع السبعة الملوك إلى حسن وقبلوا الأرض بين يديه، فأقبل عليهم وشكرهم ودعا لهم بالنصر وسألهم عن حالهم مع عسكر الملكة نور الهدى، فقالوا له: «إنهم لا يثبتون معنا غير ثلاثة أيام فنحن كنا اليوم ظافرين بهم وقد قبضنا منهم مقدار ألفين وقتلنا منهم خلقًا كثيرًا فطب نفسًا وانشرح صدرًا».

ثم إنهم ودعوه ونزلوا إلى عسكرهم يحرسونه، ومازلوا يشعلون النيران إلى أن طلع الصباح، وأضاء بنوره ولاح، فركبت الفرسان الخيل القراح، وتضاربوا بمرهفات الصفاح، وتطاعنوا بسمر الرماح، وباتوا على ظهور الخيل وهم يلتطمون التطام البحار، واستمر بينهم في الحرب لهيب النار، ولم يزالوا في نضال وسباق حتى انهزمت عساكر واق وانكسرت شوكتهم، وانحطت همتهم، وزلّت أقدامهم، وأينما هربوا فالهزيمة قدامهم فولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وقتل أكثرهم وأسرت الملكة نور الهدى وكبار مملكتها وخواصها، فلما أصبح الصباح حضر الملوك السبعة بين يدي حسن ونصبوا له سريرًا من المرمر، مصفحًا بالدر

والجوهر، فجلس فوقه، ونصبوا عنده سريرًا آخر للسيدة منار السناء زوجته وذلك السرير من العاج ، المصفح بالذهب الوهاج، وجلست فوقه ونصبوا جنبه سريرًا آخر للعجوز شواهى ذات الدواهى وجلست فوقه.ثم إنهم قدموا الأسارى بين يدى حسن ومن جملتهم الملكة نور الهدى وهى مكتفة اليدين مقيدة الرجلين فلما رأتها العجوز قالت لها: «ما جزاؤك يا فاجرة يا ظالمة إلا من يجوع كلبتين ويعطش فرسين ويربطك معهما فى أذنابهما ويسوقهما إلى البحر والكلبتين وراءك حتى يتمزق جلدك وبعد ذلك يقطع من لحمك ويطعمك، كيف فعلت بأختك هذه الفعال يا فاجرة مع أنها تزوجت بالحلال بسنّة الله ورسوله لأنه لا رهبانية فى الإسلام، والزواج من سنن المرسلين عليهم السلام؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فعند ذلك أمر حسن بقتل الأسارى جميعهم، فصاحت العجوز وقالت: «اقتلوهم ولا تبقوا منهم أحدًا»، فلما رأت الملكة منار السناء أختها فى هذه الحالة وهى مقيدة مأسورة بكت عليها وقالت لها: «يا أختى ومن هذا الذى أسرنا فى بلادنا وغلبنا؟». فقالت لها: «هذا أمْر عظيم إن هذا الرجل الذى اسمه حسن قد ملكنا وحكّمه الله فينا وفى سائر ملكنا وتغلب علىنا وعلى ملوك الجنّ». فقالت لها أختها: «إنه ما نصره الله عليكم ولا قهركم ولا أسركم إلا بهذه الطاقية والقضيب». فتحققت أختها ذلك وعرفت أنه خلصها بهذا السبب فتضرعت لأختها حتى حنّ قلبها عليها ثم قالت لزوجها حسن: «ما تريد أن تفعل بأختى فها هى بين يديك وهى ما فعلت مكروهًا حتى تؤاخذها به»؟ فقال لها: «كفى تعذيبها إياك مكروهًا». فقالت له: «كل مكروه فعلته معى كانت معذورة فيه، وأما أنت فإنك قد أحرقت قلب أبى فكيف يكون حاله بعد أختى؟» فقال لها حسن: «الرأى رأيك مهما أردت فافعليه».

فعند ذلك أمرت الملكة منار السناء بحل الأسارى جميعهم، فحلوهم لأجل أختها وكذلك أختها، وبعد ذلك أقبلت أختها وعانقتها وصارت تبكى هى وإياها . ولم تزالا كذلك ساعة زمانية، ثم قالت الملكة نور الهدى لأختها: «يا أختى لا تؤاخذينى بما فعلته معك» فقالت لها السيدة منار السناء: «يا أختى إن هذا كان مقدرا علىّ». ثم جلست هى وأختها على أحسن ما يكون وطابت قلوبهما، ثم إن حسنًا صرف العسكر الذين كانوا فى خدمة القضيب وشكرهم على ما فعلوه من نصره على أعدائه. ثم إن السيدة منار السناء حكت لأختها جميع ما جرى لها مع زوجها حسن وجميع ما جرى له وما قاساه من أجلها وقالت لها: «يا أختى من كانت هذه الفعال فعاله وهذه القوة قوته وقد أيّده الله تعالى بشدّة البأس حتى دخل بلادنا وأخذك وأسرك وهزم عسكرك وقهر أباك الملك الأكبر الذى يحكم على ملوك الجنّ يجب ألاّ يفرط فى حقه». فقالت أختها: «والله يا أختى لقد صدقت فيما أخبرتنى به من العجائب التى قاساها هذا الرجل وهل كل هذا من أجلك يا أختى؟» فقالت لها: «نعم يا أختى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إنهم باتوا يتحدثون إلى الصباح فلما طلعت الشمس أراد الرحيل فودّع بعضهم بعضًا وودّعت منار السناء العجوز بعدما أصلحت بينها وبين أختها نور الهدى. فعند ذلك ضرب حسن الأرض بالقضيب فطلع له خدامه وسلّموا عليه وقالوا: «الحمد لله على هدوّ سرّك فأمرنا بما تريد حتى نعمله لك فى أسرع من لمح البصر». فشكرهم على قولهم وقال لهم: «جزاكم الله خيرًا». ثم إنه قال لهم: «شدّوا لنا جوادين من أحسن الخيل». ففعلوا ما أمرهم به فى الوقت وقدموا له جوادين مسرجين فركب حسن جوادًا منهما وأخذ ولده الكبير قدامه وركبت زوجته الجواد الآخر وأخذت ولدها الصغير قدامها، وركبت الملكة نور الهدى والعجوز وتوجه الجميع إلى بلادهم، فسار حسن وزوجته يمينا، وسارت الملكة نور الهدى والعجوز شمالاً.

ولم يزل حسن سائرًا هو وزوجته وولداه مدة شهر كامل. وبعد الشهر أشرفوا على مدينة فوجدوا حولها أشجارا وأنهارًا. فلما وصلوا إلى تلك الأشجار نزلوا عن ظهور الخيل وأرادوا الراحة ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هم بخيول كثيرة قد أقبلت عليهم. فلما رآهم حسن قام على رجليه وتلقاهم وإذا هم الملك حسون صاحب أرض الكافور وقلعة الطيور. فعند ذلك تقدم حسن إلى الملك وقبّل يديه وسلّم عليه. ولما رآه الملك ترجّل عن ظهر جواده وجلس هو وحسن على الفرش تحت الأشجار بعد أن سلم على حسن وهنأه بالسلامة وقال له: «يا حسن أخبرنى بماجرى لك من أوله إلى آخره». فأخبره حسن بجميع ذلك.

فتعجب منه الملك حسون وقال له: «يا ولدى ما وصل أحد إلى جزائر واق ورجع منها أبدًا إلا أنت فأمرك عجيب، ولكن الحمدلله على السلامة». ثم بعد ذلك قام الملك وركب وأمر حسنًا أن يركب ويسير معه ففعل، ولم يزالوا سائرين إلى أن أتوا إلى المدينة فدخلوا دار الملك، فنزل الملك حسون ونزل حسن وزوجته وولداه فى دار الضيافة فلما نزلوا أقاموا عنده ثلاثة أيام فى أكل وشرب ولعب وطرب. ثم بعد ذلك استأذن حسن الملك حسون فى السفر إلى بلاده فأذن له. فركب هو وزوجته وولداه وركب الملك معهم وساروا عشرة أيام. فلما أراد الملك الرجوع ودّع حسنًا وسار حسن وزوجته وولداه ولم يزالوا سائرين مدة شهر كامل. فلما كان بعد الشهر أشرفوا على مغارة كبيرة أرضها من النحاس الأصفر. فقال حسن لزوجته: «انظرى هذه المغارة هل تعرفينها؟» قالت: «لا» قال: «إن فيها شيخًا يسمى أبا الرويش له علىّ فضل كبير لأنه هو الذى كان سببًا بالمعرفة بينى وبين الملك حسون». وصار يحدّث بخبر أبى الرويش وإذا بالشيخ أبى الرويش قد خرج من باب المغارة.

فلما رآه حسن نزل عن جواده وقبّل يديه. فسلم عليه الشيخ أبو الرويش وهنأه بالسلامة وفرح به وأخذه ودخل به المغارة وجلس هو وإياه. وصار حسن يحدّث الشيخ أبا الرويش بما جرى له فى جزائر واق. فتعجب الشيخ أبو الرويش غاية العجب وقال: «يا حسن كيف خلّصت زوجتك وولديك؟» فحكى له حسن حكاية القضيب والطاقية. فلما سمع الشيخ أبو الرويش تلك الحكاية تعجب.

وقال : «يا حسن ياولدى لولا هذا القضيب وهذه الطاقية ما كنت خلّصت زوجتك

وولديك». فقال له حسن: «نعم ياسيدى». فبينما هما فى الكلام وإذا بطارق يطرق باب المغارة. فخرج الشيخ أبو الرويش وفتح الباب فوجد الشيخ عبد القدوس قد أتى وهو راكب فوق الفيل فتقدم الشيخ أبو الرويش وسلم عليه واعتنقه وفرح به فرحًا عظيمًا وهناه بالسلامة وبعد ذلك قل الشيخ أبو الرويش لحسن: «احك للشيخ عبد القدوس جميع ما جرى لك يا حسن». فشرع حسن يحكى للشيخ عبد القدوس جميع ما جرى له من أوله إلى آخره.

فلما وصل إلى حكاية القضيب والطاقية قال الشيخ عبد القدوس لحسن: «يا ولدى أما أنت فقد خلّصت زوجتك وولديك بالقضيب والطاقية ولم يبقَ لك حاجة بهما، وأما نحن فإننا كنا السبب فى وصولك إلى جزائر واق وقد عملت معك الجميل لأجل بنات أخى وأنا أسألك من فضلك وإحسانك أن تعطينى القضيب وتعطى الشيخ أبا الرويش الطاقية».

لما سمع حسن كلام الشيخ عبد القدوس أطرق برأسه إلى الأرض واستحى أن يقول: «ما أعطيهما لكما»، ثم قال فى نفسه إن هذين الشيخين قد فعلا معى جميلاً عظيمًا وهما اللذان كانا السبب فى وصولى إلى جزائر واق، ولولاهما ما وصلت إلى هذه الأماكن ولا خلّصت زوجتى وولدىَّ ولا حصلت هذا القضيب وهذه الطاقية». ثم رفع رأسه وقال:«نعم أنا أعطيهما لكما، ولكن يا سادتى إنى أخاف من الملك الأكبر والد زوجتى أن يأتينى بعساكر إلى بلادنا فيقاتلوننى ولا أقدر على دفعهم إلا بالقضيب والطاقية».

فقال الشيخ عبد القدوس لحسن: «يا ولدى لا تخف فنحن نبقى لك جاسوسًا ورداءً فى هذا الموضع وكل من أتى إليك من عند والد زوجتك ندفعه عنك ولا تخف من شىء أصلاً جملة كافية، فطب نفسًا وقرّ عينًا وانشرح صدرًا ما عليك بأس».

فلما سمع حسن كلام الشيخ أخذه الحياء وأعطى الطاقية للشيخ أبى الرويش وقال للشيخ عبد القدوس: «اصحبنى إلى بلادى وأنا أعطيك القضيب».

ففرح الشيخان بذلك فرحًا شديدًا وجهزا لحسن من الأموال والذخائر ما يعجّز عنه الوصف ثم أقام عندهما ثلاثة أيام وبعد ذلك طلب السفر، فتجهز الشيخ عبد القدوس للسفر معه. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما ركب حسن دابة وأركب زوجته دابة صفّر الشيخ عبد القدوس وإذا بفيل عظيم قد أقبل يهرول بيديه ورجليه من صدر البرية، فأخذه الشيخ عبد القدوس وركبه وسار هو وحسن وزوجته وولداه أما الشيخ أبو الرويش فإنه دخل المغارة ومازال حسن وزوجته وولداه والشيخ عبد القدوس سائرين يقطعون الأرض بالطول والعرض والشيخ عبد القدوس يدلهم على الطريق السهلة والمنافذ القريبة حتى قربوا من الديار وفرح حسن بقربه من ديار والدته وبرجوع زوجته ووالدته إليه، وحيث وصل حسن إلى تلك الديار بعد هذه الأهوال الصعبة حمد الله تعالى على ذلك وشكره وأنشد هذه الأبيات:

لعلّ الله يجمعنا قريبًا ... فنصبح فى مكانفة العناق

وأخبركم بأعجب ما جرى لى ... وما لاقيت من ألم الفراق

وأشفى مقلتى نظرًا إليكم ... فإن القلب أصبح فى اشتياق

خبأت لكم حديثًا في فؤادي   لأخبركم به عند التلاقي
أعاتبكم على ما كان منكم   عتابًا ينقضي والودّ باقِ

فلما فرغ حسن من شعره نظر وإذا هم قد لاحت لهم القبة الخضراء والفسقية والقصر الأخضر ولاح لهم جبل السحاب من بعيد. فقال لهم الشيخ عبد القدوس: «يا حسن أبشر بالخير فأنت الليلة ضيف عند بنات أخي».ففرح حسن بذلك فرحًا شديدًا وكذلك زوجته. ثم إنهم نزلوا عند القبة واستراحوا وأكلوا وشربوا ثم ركبوا وساروا حتى قربوا من القصر.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد : فلما أشرفوا عليه خرجت لهم بنات أخي الشيخ عبد القدوس وتلقينهم وسلمن عليهم وعلى عمهنّ وسلم عليهن عمهنّ وقال لهن: «يا بنات أخي ها أنا قد قضيت حاجة أخيكنّ حسن وساعدته على خلاص زوجته وولديه».

فتقدمن إليه وعانقنه وفرحن به وهنينه بالسلامة والعافية وجمع الشمل بزوجته وولديه وكان عندهنّ يوم عيد. ثم تقدمت أخت حسن الصغيرة وعانقته وبكت بكاءً شديدًا وكذلك حسن بكى معها على طول الوحشة، ثم شكت له ما تجده من ألم الفراق وأنشدت هذين البيتين:

وما نظرتْ من بعدك مقلتي   إلى أحد إلا وشخصك ماثلُ
وما غمضت إلا رأيتك في الكرى   كأنك بين الجفن والعين نازلُ

فلما فرغت من شعرها فرحت فرحًا شديدًا. فقال لها حسن: «يا أختي أنا ما أشكر أحدًا في هذا الأمر إلا أنتِ من دون سائر الأخوات فالله تعالى يكون لك بالعون والعناية» ثم إنه حدّثها بجميع ما جرى له في سفره من أوله إلى آخره وما قاساه وما اتفق له مع أخت زوجته وكيف خلص زوجته وولديه.

وحدّثها أيضًا بما رآه من العجائب والأهوال الصعاب حتى إن أختها كانت أرادت أن تذبحه وتذبحها وتذبح ولديها وما سلمهم منها إلا الله تعالى. ثم حكى لها حكاية القضيب والطاقية وأن الشيخ أبا الرويش والشيخ عبد القدوس طلباها منه وأنه ما أعطاهما لهما إلا من شأنها. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فشكرته على ذلك ودعت له بطول البقاء. فقال: «والله ما أنسى كلّ ما فعلته معي من الخير من أول الأمر إلى آخره».

فالتفتت أخته إلى زوجته منار السناء وعانقتها وضمت ولديها إلى صدرها ثم قالت لها: يا بنت الملك الأكبر أما في قلبك رحمة حتى فرّقت بينه وبين ولديه وحرقت قلبه عليهما فهل كنت تريدين بهذا الفعل أن يموت؟» فضحكت وقالت: «بهذا حكم الله سبحانه وتعالى ومن خادع الناس خدعه الله».

ثم أحضروا شيئًا من الأكل والشرب وأكلوا وشربوا. ثم إنه أقام عندهم عشرة أيام في

أكل وشرب وفرح وسرور. ثم بعد العشرة أيام تجهز حسن للسفر، فقامت أخته وجهزت له من المال والتحف ما يعجز عنه الوصف،ثم إن حسنًا أعطى الشيخ عبد القدوس القضيب، ففرح به فرحًا شديدًا وشكر حسنًا على ذلك وبعد أن أخذه منه ركب ورجع إلى محله. ثم ركب حسن وزوجته وولداه من قصر البنات، ثم خرجن معه يودعنه وبعد ذلك رجعن، ثم توجه حسن إلى بلاده فسار فى البرّ الأقفر مدة شهرين وعشرة أيام حتى وصل إلى مدينة بغداد دار السلام.

فجاء إلى داره من باب السرّ الذى يفتح إلى جهة الصحراء والبريّة وطرق الباب، وكانت والدته من طول الغيبة قد هجرت المنام ولزمت الحزن والبكاء والعويل حتى مرضت وصارت لا تأكل طعامًا ولا تلتذ بمنام بل تبكى فى الليل والنهار ولا تفتر عن ذكر ولدها وقد يئست من رجوعه إليها.

فلما وقف على الباب سمعها تبكى وتنشد:

بالله ياسادتى طبّوا مريضكمُ	فجسمهُ ناحلٌ والقلب مكسورُ
فإن سمحتم بوصل منكمُ كرمًا	فالصبُّ من نعم الأحباب مغمورُ
لا يأس من قربكم فالله مقتدرٌ	فبينما العسرُ إذ دارت مياسيرُ

فلما فرغت من شعرها سمعت ولدها حسنًا ينادى على الباب: «يا أماه إن الأيام قد سمحت بجمع الشمل».

فلما سمعت كلامه عرفته فجاءت إلى الباب وهى ما بين مصدّق ومكذّب، فلما فتحت الباب رأت ولدها واقفًا وزوجته وولداه معه.

فصاحت من شدّة الفرح ووقعت على الأرض مغشيا عليها. فمازال حسن يلاطفها حتى أفاقت وعانقته ثم بكت. وبعد ذلك نادت غلمانه وعبيده وأمرتهم أن يُدخلوا جميع ما معه فى الدار فأدخلوا الأحمال فى الدار. ثم دخلت زوجته وولداه. فقامت لها أمه وعانقتها وقبلت رأسها وقبّلت قدميها وقالت لها: «يا بنت الملك الأكبر إن كنت أخطأت فى حقك فها أنا أستغفر الله العظيم». ثم التفتت إلى ابنها وقالت له: «يا ولدى ما سبب هذه الغيبة الطويلة»؟ فلما سألته عن ذلك أخبرها بجميع ما جرى له من أوله إلى آخره. فلما سمعت كلامه صرخت صرخة عظيمة ووقعت فى الأرض مغشيا عليها من ذكر ما جرى لولدها. فلم يزل يلاطفها حتى أفاقت قالت له «يا ولدى والله لقد فرّطت فى القضيب والطاقية فلو كنت احتفظت عليهما وأبقيتهما لكنت ملكت الأرض بالطول والعرض،ولكن الحمد لله يا ولدى على سلامتك أنت وزوجتك وولديك».

وباتوا فى أهنأ ليلة وأطيبها فلما أصبح الصباح غيّر ما عليه من الثياب ولبس بدلة من أحسن القماش. ثم خرج إلى السوق وصار يشترى العبيد والجوارى والقماش والشىء النفيس من الحلى والحلل والفراش ومن الأوانى المثمنة التى لا يوجد مثلها عند الملوك، ثم اشترى الدور والبساتين والعقارات وغير ذلك، ثم إنه أقام هو وأولاده وزوجته ووالدته فى أكل وشرب ولذة. ولم يزالوا فى أرغد عيش وأهنأه حتى أتاهم هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، فسبحان ذى الملك والملكوت، وهو الحى الباقى الذى لا يموت. جل جلال الله تعالى.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية خليفة الصياد مع الخليفة هارون الرشيد

قالت شهرزاد : ومما يحكى أيضًا أنه كان فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، بمدينة بغداد رجل صياد يسمّى خليفة، وكان ذلك الرجل فقير الحال صعلوكًا لم يتزوّج فى عمره قط. فاتفق له يومًا من الأيام أنه أخذ شبكة ومضى بها إلى البحر مثل عادته ليصطاد قبل الصيادين. فلما وصل إلى البحر تحزّم وتشمّر ثم تقدم إلى البحر ونشر شبكته ورماها أول مرّة وثانى مرّة فلم يطلع فيها شىء. ولم يزل يرميها إلى أن رماها عشر مرات فلم يطلع فيها شىء أبدًا فضاق صدره وتحير فكره فى أمره وقال: «أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هوالحى القيوم وأتوب إليه، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، الرزق على الله عزّ وجلّ، وإذاأعطى الله عبدًا لا يمنعه أحد وإذا منع عبدًا لا يعطيه أحد».

ثم إنه من كثرة ما حصل له من الغمّ أنشد هذين البيتين :

إذا ما رماك الدهر منه بنكبة ... فهيئ لها صبرًا وأوسع لها صدرا

فإنّ إله العالمين بجوده ... سيعقب بعد العسر من فضله يسرا

ثم جلس ساعة يتفكّر فى أمره وهو مطرق برأسه إلى الأرض وبعد ذلك أنشد:

اصبر على حلو الزمان ومرّه ... واعلم بأن الله بالغ أمره

طربٌ ليل فى الهموم كـمثل ... عالجته حتى ظفرت بفجره

ولقد تمرُّ الحادثات على الفتى ... وتزول حتى لا تعود لفكره

ثم قال فى نفسه: «أرمى هذه المرة الأخرى وأتوكل على الله لعله لا يخيب رجائى». ثم إنه تقدم ورمى الشبكة على طول باعه فى البحر وطوى حبلها وصبر عليها ساعة زمانية ثم بعد ذلك سحبها فوجدها ثقيلة.

فلما عرف أنها ثقيلة مارسها بلطف وسحبها حتى طلعت إلى البّر وإذا فيها قرد أعور أعرج، فلما رآه خليفة قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنّا إليه راجعون، أى شىء هذا البخت المبخوس، والطالع المنحوس، ما الذى حصل لى فى هذا النهار المبارك؟ ولكن هذا كله بتقادير الله تعالى».

ثم أخذ القرد وربطه فى حبل وتقدم إلى شجرة طالعة على ساحل البحر وربط فيها القرد وكان معه سوط فأخذه فى يده ورفعه فى الهواء وأراد أن ينزل به على القرد. فأنطق الله هذا القرد بلسان فصيح وقال له:«يا خليفة أمسك يدك ولا تضربنى وخلنى مربوطًا فى هذه الشجرة ورُح إلى البحر وارم شبكتك وتوكل على الله فإنه يأتيك برزقك».

فلما سمع خليفة كلام القرد أخذ الشبكة وتقدم إلى البحر ورماها وأرخى لها الحبل، ثم سحبها فوجدها أثقل من المرة الأولى، فلم يزل يعالج فيها حتى طلعت إلى البرّ وإذا فيها قرد آخر مفلج الثنايا مكحل العينين مخضب اليدين وهو يضحك وفى وسطه ثوب خلق. فقال خليفة: «الحمد لله الذى أبدل سمك البحر بقرود». ثم أتى إلى ذلك القرد المربوط فى الشجرة وقال له: «انظر يا مشئوم ما أقبح ما أشرت به علىّ فما أوقعنى فى القرد الثانى إلا أنت فإنك

لما صبحتنى بعرجك وعورك أصبحت غلبانا تعبانًا لا أملك درهمًا ولا دينارًا». ثم إنه أخذ مسوقة فى يده ولفها فى الهواء ثلاث مرات وأراد أن ينزل بها على القرد فاستغاث منه وقال له: سألتك بالله أن تعفو عنى لأجل صاحبى هذا، واطلب منه حاجتك فإنه يدلّك على ما تريد».

فرمى خليفة المسوقة وعفا عنه، ثم أتى إلى القرد الثانى ووقف عنده. فقال له القرد: «يا خليفة هذا الكلام ما يفيدك شيئًا إلا إذا سمعت منى ما أقول لك، فإن سمعت منى وطاوعتنى ولم تخالفنى كنت أنا السبب فى غناك». فقال له خليفة: «ما الذى تقوله حتى أطيعك فيه؟» فقال له: «خلنى مربوطًا مكانى ورح إلى البحر وارم شبكتك حتى أقول لك أى شىء تفعله بعد هذا». فأخذ خليفة الشبكة ومضى إلى البحر ورماها وصبر عليها ساعة، ثم سحبها فوجدها ثقيلة. فما زال يعالج فيها حتى طلّعها إلى البرّ وإذا فيها قرد آخر إلا أن هذا القرد أحمر وفى وسطه ثياب زرق وهو مخضب اليدين والرجلين مكحل العينين فلما نظره خليفة قال: «سبحان الله العظيم مالك الملك إن هذا اليوم يوم مبارك من أوله إلى آخره لأن طالعه سعيد بوجه القرد الأول والصحيفة تظهر من عنوانها، فهذا اليوم يوم قرود ولم يبقَ فى البحر ولا سمكة ونحن ما خرجنا اليوم إلا لنصطاد القرود، الحمد لله الذى بدل السمك بقرود». ثم التفت إلى القرد الثالث وقال له: «أى شىء تكون أنت الآخر يا مشئوم؟» فقال له: «هل أنت لا تعرفنى يا خليفة؟» قال: «لا». قال: «أنا قرد أبى السعادات اليهودى الصيرفى». قال له خليفة: «وأى شىء تصنع» فقال له: «أصحبه من أول النهارفيكتسب خمسة دنانير، وأمسيه فى آخر النهار فيكتسب خمسة دنانير». فالتفت خليفة إلى القرد الأول وقال له: «انظر يا مشئوم ما أحسن قرود الناس وأما أنت فتصبحنى بعرجك وعورك وشؤم طلعتك فأصير فقيرًا مفلسًا جائعًا». ثم إنه أخذ المسوقة ولفها فى الهواء ثلاث مرات وأراد أن ينزل بها عليه. فقال له قرد أبى السعادات: «اتركه يا خليفة وارفع يدك وتعال عندى حتى أقول لك أى شىء تعمل». فرمى خليفة المسوقة من يده وتقدم إليه وقال له: «على أى شىء تقول لى يا سيد القرود كلها؟» فقال له: «خذ الشبكة وارمها فى البحر وخلنى أنا وهؤلاء القرود قاعدين عندك ومهما طلع لك فيها فهاته وتعال عندى وبعد ذلك أنا أخبرك بما يسرّك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فقال له خليفة : «سمعًا وطاعةً» . ثم إنه أخذ الشبكة وطواها وأنشد هذه الأبيات:

إذا ضاق صدرى أستعين بخالق ... قدير على تيسير كل عسير
فقبل ارتداد الطرف عن لطف ربنا ... فكاك أسير وانجبار كسير
فسلم إلى الله الأمور جميعها ... فألطافه يدريه كل بصير

ثم أنشد أيضًا هذين البيتين :

أنت الذى قد رميت الناس فى تعب ... تنفى الهموم وأسباب البليات

لا تطمعني بشيء لست أدركه كم طامع فات تحصيل الإرادات

فلما فرغ من شعره تقدم إلى البحر ورمى فيه الشبكة وصبر عليها قدر ساعة. ثم سحبها وإذا فيها فرخ سمك كبير الرأس وذنبه كأنه مغرفة وعيناه كأنهما ديناران، فلما رآه خليفة فرح به لأنه ما اصطاد نظيره في عمره. فأخذه وأتى به إلى قرد أبي السعادات اليهودي وهو كأنه ملك الدنيا بحذافيرها. فقال له: «ما تريد أن تصنع بهذا يا خليفة وأي شيء تعمل في قردك؟» فقال له خليفة: «أنا أخبرك يا سيد القرود كلها بما أفعله. اعلم أني قبل كل شيء أتدبر في هلاك الملعون قردي وأتخذك عوضًا عنه وأطعمك كل يوم ما تشتهيه». فقال له القرد: «حيث إنك قد اخترتني فأنا أقول لك كيف تفعل أنت ويكون فيه صلاح حالك إن شاء الله تعالى، فافهم ما أقوله لك وهو أنك تهيئ لي أنا الآخر حبلاً وتربطني به في شجرة ثم تتركني وتذهب إلى وسط الرصيف وتطرح شبكتك في بحر الدجلة، وإذا طرحتها فاصبر عليها قليلاً واسحبها فإنك تجد فيها سمكة ما رأيت أظرف منها طول عمرك فهاتها وتعال عندي وأنا أقول لك كيف تفعل بعد ذلك».

فعند ذلك قام خليفة من وقته وساعته وطرح الشبكة في بحر الدجلة وسحبها فرأى فيها سمكة بيضاء قدر الخروف ما رأى مثلها في طول عمره وهي أكبر من الحوت الأول فأخذها وذهب بها إلى القرد. فقال له القرد: «هات لك قدرًا من الحشيش الأخضر واجعل نصفه في قفة وحط السمكة عليها وغطها بالنصف الآخر واتركنا مربوطين، ثم احمل القفة على كتفك وادخل بها مدينة بغداد وكل من كلمك أو سألك فلا ترد عليه جوابًا حتى تدخل سوق الصيارف فتجد في صدر السوق دكان المعلم أبي السعادات اليهودي شيخ الصيارف وتراه قاعدًا على مرتبة ووراءه مخدة وبين يديه صندوقان واحد للذهب والآخر للفضة وعنده مماليك وعبيد وغلمان، فتقدم إليه وحط القفة قدامه وقل له: يا أبا السعادات إني قد خرجت اليوم إلى الصيد وطرحت الشبكة على اسمك فبعث الله تعالى هذه السمكة. فيقول هل أريتها لغيري؟ فقل له: لا والله. فيأخذها منك ويعطيك دينارًا فرده عليه. فيعطيك دينارين فردهما عليه وكلما يعطيك شيئًا رده عليه ولو أعطاك وزنها ذهبًا فلا تأخذ منه شيئًا. فيقول لك: قل لي ما تريد؟ فقل له: والله ما أبيعها إلا بكلمتين. فإذا قال لك: وما هما الكلمتان؟ فقل له: قم على رجليك وقل اشهدوا يا من حضر في السوق أني أبدلت قرد خليفة الصياد بقردي وأبدلت قسمه بقسمي وبخته ببختي وهذا ثمنها وما لي حاجة بالذهب.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: «فإذا فعل معك ذلك فأنا كل يوم أصبحك وأمسيك وتبقى كل يوم تكسب عشرة دنانير ذهبًا ويصير أبو السعادات اليهودي يصحبه قرده هذا الأعور الأعرج فيبليه الله كل يوم بغرامة يغرمها. ولا يزال كذلك حتى يفتقر ويصير لا يملك شيئًا أبدًا. فاسمع مني ما أقوله لك تسعد وترشد». فلما سمع خليفة الصياد كلام القرد قال له: «قبلت ما أشرت به علي يا ملك القرود كلها. وأما هذا المشئوم لا بارك الله فيه فإني لا أدري أي شيء

أعمل معه». فقال له: «سيبه وسيبنى أنا الآخر». فقال: «سمعًا وطاعةً». ثم تقدم إلى القرود وحلها وتركها. فنزلت فى البحر وتقدم خليفة إلى السمكة وأخذها وجعل تحتها حشيشًا فى المقطف وغطاها بحشيش أيضًا وحملها على كتفه وصار يغنى هذا الموال:

سلم أمورك إلى رب السما تسلم وافعل جميلاً بطول عمرك ولا تندم

ولا تعاشر لأرباب التهم تتهم وصن لسانك ولا تَشتم به تُشتم

ثم إن خليفة الصياد لما فرغ من مغانيه حمل القفة على كتفه وسار ولم يزل سائرًا إلى أن دخل مدينة بغداد. فلما دخل عرفه الناس فصاروا يصيحون عليه ويقولون: «أى شىء معك يا خليفة؟» وهو لا يلتفت إلى أحد منهم حتى وصل إلى سوق الصيارف وفات الدكاكين كما أوصاه القرد. ثم نظر إلى ذلك اليهودى فرآه جالسًا فى الدكان والغلمان فى خدمته وهو كأنه ملك من ملوك خراسان.

فلما رآه خليفة عرفه فمشى حتى وقف بين يديه. فرفع اليهودى إليه رأسه فعرفه وقال له: «أهلاً بك يا خليفة ما حاجتك وما الذى تريد فإن أحداً كلّمك أو خاصمك قل حتى أروح معك إلى الوالى فيأخذ لك حقك منه؟» فقال: «لا وحياة رأسك يا قيّم اليهود ما كلمنى أحد وإنما أنا سرحت اليوم من بيتى على بختك ومضيت إلى البحر ورميت شبكتى فى الدجلة فطلعت هذه السمكة». ثم فتح المقطف ورمى السمكة قدام اليهودى. فلما رآها اليهودى استحسنها وقال: «وحق التوراة والعشر كلمات إنى كنت نائمًا البارحة فرأيت فى المنام كأنى بين يدى العذراء وهى تقول لى: اعلم يا أبا السعادات أنى قد أرسلت إليك هدية مليحة، فلعلّ الهدية هذه السمكة من غير شك».

ثم إنه التفت إلى خليفة وقال له: «بحق دينك هل رآها أحد غيرى؟» فقال له خليفة: «لا والله وحق أبى بكر الصديق يا قيم اليهود ما رآها أحد غيرك». فالتفت اليهودى إلى بعض غلمانه وقال له: «تعال خذ هذه السمكة ورُح بها إلى البيت وخلّ سعادة تجهزها وتقلى وتشوى إلى حين أقضى شغلى وأجىء» فقال له خليفة أيضًا: «رح يا غلام خلّ امرأة المعلم تقلى منها وتشوى منها». فقال الغلام: «سمعًا وطاعةً يا سيدى». ثم إنه أخذ السمكة وذهب بها إلى البيت. وأما اليهودى فإنه مدّ يده بدينار وناوله لخليفة الصياد وقال له: «خذ هذا لك يا خليفة واصرفه على عيالك». فلما نظره خليفة فى كفه قال: «سبحان مالك الملك». وكأنه ما نظر شيئًا من الذهب فى عمره وأخذ الدينار ومشى قليلاً ثم إنه تذكر وصية القرد فرجع ورمى له الدينار وقال له: «خذ ذهبك وهات سمك الناس هل أنت عندك الناس سخرية؟».

فلما سمع اليهودى كلامه ظنّ أنه يلعب معه فناوله دينارين على الدينار الأول. فقال له خليفة: «هات السمك بلا لعب هل أنت تعرف أنى أبيع السمك بهذا الثمن؟» فمد اليهودى يده إلى اثنين آخرين وقال له: «خذ هذه الخمسة دنانير حق السمك واترك الطمع» فأخذها خليفة فى يده وتوجه بها وهو فرحان وصار ينظر إلى الذهب ويتعجب منه ويقول: «سبحان الله ليس مع خليفة بغداد مثل ما معى اليوم». ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى رأس السوق. ثم تذكر كلام القرد والوصية التى أوصاه بها فرجع إلى اليهودى ورمى له الذهب فقال له: «مالك يا خليفة

أى شىء تطلب أتأخذ صرف دنانيرك دراهم؟» فقال له: «لا أريد دراهم ولا دنانير وإنما أريد أن تعطينى سمك الناس». فغضب اليهودى وصرخ عليه وقال له: «يا صياد أتجىء لى بسمكة لا تساوى دينارًا وأعطيتك فيها خمسة دنانير فلا ترضى، هل أنت مجنون. قل لى بكم تبيعها؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فقال له خليفة: «أنا لا أبيعها بفضة ولا بذهب وما أبيعها إلا بكلمتين تقولهما لى». فلما سمع اليهودى قوله كلمتين قامت عيناه فى أم رأسه وضاقت أنفاسه وقرط على أضراسه وقال له: «يا قطاعة المسلمين هل تريد أن أفارق دينى لأجل سمكتك وتفسد علىّ ملتى وعقيدتى التى وجدت عليها آبائى من قبلى. وصاح على غلمانه فحضروا بين يديه فقال لهم: «ويلكم دونكم هذا النحس قطعوا بالصك قفاه، وأكثروا من الضرب أذاه» فنزلوا عليه بالضرب ومازالوا يضربونه حتى وقع تحت الدكان. فقال لهم اليهودى: «خلوا عنه حتى يقوم». فقام خليفة على حيله كأنه لم يكن به شىء. فقال لهم اليهودى: «قل لى أى شىء تريده فى ثمن هذه السمكة وأنا أعطيك إياه فإنك ما نلت منا خيرًا فى هذه الساعة؟» فقال خليفة: «لا تخف علىّ يا معلم من الضرب لأنى آكل ضربًا قدر عشرة حمير». فضحك اليهودى من كلامه وقال له: «بالله عليك قل لى أى شىء تريد وأنا وحقّ دينى أعطيك إياه؟» فقال له: «لا يرضينى منك فى ثمن هذه السمكة إلا كلمتين» فقال له اليهودى: «أظن أنك تطلب منى أن أسلم؟» فقال له خليفة: «والله يا يهودى إن أسلمت فإسلامك لا ينفع المسلمين ولا يضرّ اليهود، وإن بقيت على كفرك فكفرك لا يضرّ المسلمين ولا ينفع اليهود، ولكن الذى أطلبه منك أن تقوم على قدميك وتقول: أشهدوا علىّ يا أهل السوق أنى قد أبدلت قردى بقرد خليفة الصياد وحظى فى الدنيا بحظه وبختى ببخته». فقال اليهودى: «إن كان هذا مرادك فهو علىّ هين».

ثم قام اليهودى من وقته وساعته ووقف على قدميه وقال مثل ما قال له خليفة الصياد. وبعد ذلك التفت إليه وقال له: «هل بقى لك عندى شىء؟» فقال الصياد: «لا». فقال له اليهودى: «مع السلامة». فنهض خليفة من وقته وساعته وأخذ قفته وشبكته وجاء إلى بحر دجلة ورمى الشبكة، ثم سحبها فوجدها ثقيلة فما طلعها إلا بعد جهد. فلما طلعها رآها ملآنة بالسمك من جميع الأصناف. فجاءت له امرأة ومعها طبق فأعطته دينارًا فأعطاها به سمكًا، وجاء إليه خادم آخر وأخذ منه بدينار. وهكذا حتى باع سمكًا بعشرة دنانير. ولم يزل على هذه الحال إلى نهاية عشرة أيام حتى جمع مائة دينار ذهبًا.

وكان لذلك الصياد بيت من داخل ممرّ التجار، فبينما هو نائم فى بيته ليلة من الليالى إذ قال فى نفسه: «يا خليفة إن الناس كلهم يعرفون أنك رجل فقير صياد وقد حصل معك مائة دينار من الذهب فلابدّ أن أمير المؤمنين هارون الرشيد يسمع بخبرك من آحاد الناس فربما يحتاج إلى مال فيرسل إليك ويقول لك : «إنى محتاج إلى مبلغ من الدنانير وقد بلغنى أن عندك مائة دينار فأقول كذب علىّ وليس معى ولا عندى شىء من ذلك، فيسلمنى إلى الوالى ويقول له: جردّه من ثيابه وعاقبه بالضرب وقرّره عسى أن يقرّ بالذهب الذى عنده فى

الصندوق. فالرأى الصواب الذى يخلّص من هذه الورطة أنى أقوم فى هذه الساعة وأعاقب نفسى بالسوط لأكون قد تمرّنت على الضرب». وقال له حشيشه: «قم تجرّد من ثيابك» فقام من وقته وساعته وتجرّد من ثيابه وأخذ فى يده سوطًا كان عنده، وكان عنده مخدّة من جلد فصار يضرب على تل المخدّة ضربة وعلى جلده ضربة ويقول: «آه آه والله إن هذا كلام باطل يا سيدى وإنهم يكذبون علىّ وأنا رجل فقير صياد وليس معى شىء من حطام الدنيا». فسمع الناس خليفة الصياد وهو يعاقب نفسه ويضرب فوق المخدّة بالسوط ولوقع الضرب على جسده وعلى المخدّة دوىٌّ فى الليل، ومن جملة من سمعه التجار فقالوا: «يا ترى ما لهذا المسكين يصيح ونسمع وقع الضرب نازلاً عليه، فكأن اللصوص قد نزلوا عليه وهم الذين يعاقبونه؟». فعند ذلك قاموا كلهم على حسّ الضرب والصياح وخرجوا من منازلهم وجاءوا إلى بيت خليفة فرأوه مقفولاً. فقالوا لبعضهم: «ربما تكون اللصوص نزلوا عليه من وراء القاعة فينبغى أن نطلع من السطوح، فطلعوا المطلوح ونزلوا من المسرق فرأوه عريانًا وهو يعاقب نفسه. فقالوا له: «مالك يا خليفة أى شىء خبرك؟» فقال لهم: «اعلموا يا جماعة أنى حصلت بعض الدنانير وأنا خائف أن يُرفع أمرى إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد فيحضرنى بين يديه ويطلب منى تلك الدنانير فأنكر، وإذا أنكرت أخاف أن يعاقبنى فها أنا أعاقب نفسى وأجعل ذلك تمرينًا لنفسى على ما يأتى». فضحك عليه التجار وقالوا له: «اترك هذه الفعال لا بارك الله فيك ولا فى الدنانير التى جاءتك فقد أقلقتنا فى هذه الليلة وأزعجت قلوبنا». فبطل خليفة الضرب عن نفسه ونام إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فلما قام من النوم وأراد أن يذهب إلى شغله تفكر فى أمر المائة الدينار التى حصلت معه وقال فى نفسه: «إذا تركتها فى البيت يسرقها اللصوص وإن وضعتها فى كمر على وسطى فربما ينظرها أحد فيترصدنى إذا انفردت فى مكان خال عن الناس فيقتلنى ويأخذها منى، ولكن أنا أفعل شيئًا من الحيل وهو مليح نافع جداً». ثمّ إنه نهض من وقته وساعته وخيَّط له جيبًا فى طوق جبتّه وربط المائة الدينار فى صرّة ووضعها فى ذلك الجيب، ثم قام وأخذ شبكته وقفّته وعصاه وسار حتى وصل إلى بحر دجلة ورمى شبكته فيه ثم سحبها فلم يطلع له شىء ينتقل من مكان إلى مكان حتى بعد عن المدينة مسافة نصف يوم وهو يرمى الشبكة ولم يطلع له شىء. فقال فى نفسه: «والله إنى ما بقيت أرمى شبكتى فى الماء إلا هذه المرة فإما عليها وإما بها». فطرح الشبكة بقوّة عزمه وشدّة غيظه فطارت الصرة التى فيها المائة الدينار من طوقه ووقعت فى البحر وراحت فى التيّار. فرمى الشبكة من يده وتجرّد من ثيابه وتركها على البرّ ونزل فى البحر وغطس خلف الصرّة، ولم يزل يغطس ويطلع نحوه مائة مرة حتى ضعفت قوّته وطلع هفتانًا فلم يقع بتلك الصرّة فلما يئس منها طلع إلى البرّ فلم يجد سوى العصا والشبكة والقفة وطلب ثيابه فلم يقع لها على أثر. فقال فى نفسه: «أهجن ما يُضرب به المثل: لا تكمل الحجة إلا بأخذ الجمل». ثم إنه فرد الشبكة والتفّ فيها وأخذ العصا فى يده

والقفة على كتفه وصار يهرول مثل الجمل الهائم يجرى يمينًا وشمالاً وخلفًا وأمامًا أشعث أغبر كالعفريت المتمرّد إذا انطلق من السجن السليمانى. وهذا ما كان من أمر خليفة الصياد.

وأما ما كان من أمر هارون الرشيد فإنه كان له صاحب جوهرى يقال له ابن القرناص وقد كان جميع الناس والتجار والدلالين والسماسرة يعرفون أن ابن القرناص تاجر الخليفة وجميع ما يباع فى مدينة بغداد من التحف وغيرها من الأمور المثمنة لا يباع حتى يُعرض عليه ومن جملة ذلك المماليك والجوارى. فبينما ذلك التاجر الذى هو ابن القرناص جالس فى دكانه يومًا من الأيام وإذا بشيخ الدلالين قد أقبل عليه ومعه جارية ما رأى الراؤون مثلها فى غاية من الحسن والجمال والقد والاعتدال. ومن جملة محاسنها أنها تعرف فى جميع العلوم والفنون وتنظم الأشعار وتضرب على جميع آلات الطرب.

فاشتراها ابن القرناص الجوهرى بخمسة آلاف دينار ذهبًا وكساها بألف دينار وأتى بها إلى أمير المؤمنين. فاختبرها الخليفة فى كل علم وفى كل فنّ فرآها عارفة بجميع العلوم والصنائع ليس لها فى عصرها نظير. وكان اسمها قوت القلوب. فلما أصبح الصباح أرسل الخليفة هارون الرشيد إلى ابن القرناص الجوهرى. فلما حضر رسم له بعشرة آلاف دينار ثمن تلك الجارية. ثم إن الخليفة اشتغل قلبه بتلك الجارية المسمّاة بقوت القلوب وترك السيدة زبيدة بنت القاسم وهى بنت عمه وترك جميع المحاظى وقعد شهرًا كاملاً لا يخرج إلا لصلاة الجمعة ثم يعود على الفور. فعظم ذلك على أرباب الدولة.

ثم إن أرباب الدولة شكوا هذا الأمر إلى الوزير جعفر البرمكى فصبر الوزير على أمير المؤمنين حتى كان يوم الجمعة فدخل الجامع واجتمع بأمير المؤمنين وحكى له جميع ما وقع من القصص الغريبة التى تتعلق بالعشق لأجل أن يستخرج ما عنده. فقال له الخليفة: «يا جعفر والله إن ذلك الأمر ليس باختيارى ولكن قلبى تعلّق فى شرك الهوى وما أدرى كيف يكون العمل». فقال له الوزير جعفر: «اعلم يا أمير المؤمنين أن هذه المحظية قوت القلوب قد صارت تحت أمرك ومن جملة خدمك وما تملكه اليد تزهده النفس، وأنا أخبرك بشىء آخر وهو أن أحسن ماتفتخر به الملوك وأبناء الملوك هو الصيد والقنص، واغتنام اللهو والفرص، فإذا فعلت ذلك ربما تشتغل به عنها وربما تنساها». فقال له الخليفة: «نعم ما قلته يا جعفر فامض بنا على الفور فى هذه الساعة إلى الصيد». فلما انقضت صلاة الجمعة خرجا من الجامع وركبا من وقتهما إلى الصيد والقنص.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

ثم إنهما سارا حتى وصلا مع البرية. وقد كان أمير المؤمنين والوزير جعفر راكبين على بغلتين فتشاغلا فى الحديث مع بعضهما وسبقهما العسكر وقد حمى عليهما الحرّ. فقال الرشيد: «يا جعفر إنى قد لحقنى العطش الشديد». ثم إن الرشيد مد نظره فرأى زوالا على كوم عال. فقال للوزير : «هل أنت ناظر ما أنا ناظره؟» فقال له الوزير: «نعم يا أمير المؤمنين أنظر زوالا على كوم عال وهو إما حارس بستان أو حارس مقات وعلى كل حال فلا تخلو جهته

من الماء». ثم قال الوزير: «أنا أمضى إليه وآتيك بالماء من عنده». فقال الرشيد: «إن بغلتى أسرع من بغلتك فقف أنت هنا من أجل العسكر وأنا أروح بنفسى وأشرب من عند هذا الشخص وأعود». ثم إن الخليفة ساق بغلته فخرجت مثل الريح فى المسير، أو مثل الماء فى الغدير. ولم تزل منطلقة به حتى وصل إلى ذلك الزوال فى مقدار لمح البصر. فلم يجد ذلك الزوال إلا خليفة الصياد. فرآه الرشيد وهو عريان ملتف بالشبكة وعيناه من غاية الاحمرار، كأنهما مشاعل النار، بصورة هائلة، وقامة مائلة، وهو أشعث أغبر كأنه عفريت أو غضنفر. فسلّم عليه الرشيد، فردّ عليه السلام وهو غضبان ومن نفسه تلتهب النيران. فقال له الرشيد: «يا رجل هل عندك شىء من الماء؟» فقال له خليفة: «يا هذا هل أنت أعمى أو مجنون فدونك وبحر دجلة فإنه وراء هذا الكوم». فدار الرشيد من خلف الكوم ونزل إلى بحر دجلة وشرب منه وسقى بغلته أيضًا.

ثم طلع من وقته وساعته ورجع إلى خليفة الصياد فقال له: «ما شأنك يا رجل واقفًا هنا وما صنعتك؟» فقال له خليفة: «إن هذا السؤال أعجب وأغرب من سؤالك عن الماء، أما ترى آلة صنعتى على كتفى؟» فقال له الرشيد: «فأين جبتك وأين شملتك وأين حزامك وأين ثيابك؟» وقد كانت الحوائج التى راحت من خليفة مثل الذى ذكرها له سواء بسواء، فلما سمع خليفة ذلك الكلام من الخليفة ظن فى نفسه أنه هو الذى أخذ ثيابه من على شاطئ البحر، فنزل خليفة من وقته وساعته من فوق الكوم أسرع من البرق الخاطف وقبض على لجام بغلة الخليفة وقال له: «يا رجل هات لى حوائجى وخل عنك اللعب والمزاح». فقال له الخليفة: «أنا والله ما رأيت ثيابك ولا أعرفها». وقد كان الرشيد له خدود كبار وفم صغير، فقال له خليفة: «لعل صنعتك أنك مغنّ أو زمّار، ولكن هات لى ثيابى بالتى أحسن وإلا أضربك بهذه العصا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم إن الخليفة لما عاين العصا مع خليفة الصياد وغلبته عليه قال فى نفسه: «والله أنا ما أتحمل من هذا الصعلوك الهوترى نصف ضربة بهذه العصا»، وكان على الرشيد قباء من أطلس فخلعه وقال لخليفة: «يا رجل خذ هذا القباء عوضًا عن ثيابك». فأخذه خليفة وقلّبه وقال: «إن ثيابى تساوى عشرة مثل هذه العباءة المزوقة». فقال الرشيد: «البسه حتى أجىء لك بثيابك». فأخذه خليفة ولبسه فرآه طويلاً عليه، وقد كان مع خليفة سكين مربوطة فى أذان القفة فأخذها وقطع بها ذيل القباء مقدار ثلثه حتى صار لتحت ركبته.ثم إنه التفت إلى الرشيد وقال: «بحق الله عليك يا زمّار أن تخبرنى عن قدر جامكيتك فى كل شهر عند أستاذك فى صنعة المزمار».فقال له الخليفة: «جامكيتى فى كل شهر عشرة دنانير ذهبًا». فقال له خليفة: «والله يا مسكين لقد حملتنى همك، والله إن العشرة دنانير أكتسبها فى كل يوم، فهل تريد أن تكون معى فى خدمتى وأنا أعلمك صنعة الصيد وأشاركك فى المكسب فتعمل فى كل يوم بخمسة دنانير وتكون غلامى وأحميك من أستاذك بهذه العصا؟» فقال له الرشيد: «رضيت بذلك».

فقال له خليفة: «انزل الآن من فوق ظهر الحمارة واربطها حتى تبقى تنفعنا فى حمل السمك وتعال حتى أعلمك الصيد فى هذه الساعة». فعند ذلك نزل الرشيد عن ظهر بغلته وربطها وشمر أذياله فى دور منطقته، فقال له خليفة: «يا زمّار امسك هذه الشبكة كذا واعملها على ذراعك كذا وارمها فى بحر دجلة كذا»، فقوّى الرشيد قلبه وفعل مثل ما أراه خليفة ورمى الشبكة فى البحر وسحبها فما قدر أن يطلعها، فجاء إليه خليفة وسحبها معه فلم يقدرا على تطليعها، فقال له خليفة: «يا زمّار النحس إن كنت أخذت عباءتك عوضًا عن ثيابى فى المرة الأولى ففى هذه المرة آخذ حمارتك فى شبكتى إن رأيتها تقطعت وأضربك حتى تنساب روحك».

فقال له الرشيد: «أسحب أنا وأنت معًا». فسحبها الاثنان معًا فما قدرا أن يطلعا تلك الشبكة إلا بالمشقة، فلما أطلعاها نظراها فإذا هى ملآنة من جميع أنواع السمك ومن سائر ألوانه.

فقال له خليفة: «والله يا زمّار إنك قبيح، ولكن إذا عانيت الصيد تكون صيادًا عظيمًا، فالرأى الصواب أنك تركب حمارتك وتروح إلى السوق وتأتى بفردين وأنا أحفظ هذا السمك حتى تحضر ونحمله أنا وأنت على ظهر حمارتك، وعندى الميزان والأرطال وجميع ما نحتاج إليه فنأخذ الجميع معنا وليس عليك إلا أن تمسك الميزان وتقبض الأثمان فإن معنا سمكًا يساوى عشرين دينارًا فأسرع بمجىء الفردين ولا تبطئ». فقال له الخليفة: «سمعًا وطاعة»، ثم تركه وترك السمك وساق بغلته وهو فى غاية الفرح ولم يزل يضحك على ما جرى له مع الصياد حتى وصل إلى جعفر.

فلما رآه جعفر قال له: «يا أمير المؤمنين لعلك لما رحت إلى الشرب وجدت بستانًا طيبًا فدخلته وتفرّجت فيه وحدك؟» فلما سمع الرشيد كلام جعفر ضحك، ثم إن جميع البرامكة قاموا وقبّلوا الأرض بين يديه وقالوا له: «يا أمير المؤمنين أدام الله عليك الأفراح وأذهب عنك الأتراح ما سبب تأخيرك حين ذهبت إلى الشرب وما الذى جرى لك» فقال لهم الخليفة: «لقد جرى لى حديث غريب، وأمر مطرب عجيب». ثم أعاد عليهم حديث خليفة الصياد وما جرى له معه من قوله أنت سرقت ثيابى ومن كونه أعطاه قباءه ومن كون الصياد قطع القباء لما رآه طويلاً فقال جعفر: «والله يا أمير المؤمنين لقد كان فى خاطرى أنى أطلب القباء منك ولكن أروح فى هذه الساعة إلى الصياد وأشتريه منه». فقال له الخليفة: «والله لقد قطع ثلثه من جهة ذيله وأتلفه، ولكن يا جعفر قد كللت من صيدى فى البحر لأنى قد اصطدت سمكًا كثيرًا وهو على شاطئ البحر عند معلمى خليفة فإنه واقف هناك ينتظرنى حتى أرجع إليه وآخذ له فردين ومهما الساطور ثم أروح أنا وإياه إلى السوق فنبيعه ونقسم ثمنه». فقال له: «يا أمير المؤمنين وأنا أجيء إليكم بالذى يشترى منكم»، فقال له الخليفة: «يا جعفر وحق آبائى الطاهرين إن كل من جاء لى بسمكة من السمك الذى قدام خليفة أعطيه فيه دينارًا ذهبًا».

فنادى المنادى فى العسكر أن اطلعوا واشتروا سمكًا لأمير المؤمنين، فطلع المماليك وقصدوا شاطئ البحر، فبينما خليفة ينتظر أمير المؤمنين حتى يحضر له فردين وإذا بالمماليك قد انقضّوا عليه مثل العقبان وأخذوا السمك ووضعوه فى مناديل مزركشة من الذهب وصاروا

يتضاربون عليه، فقال خليفة: «لا شك أن هذا السمك من سمك الجنة»، ثم أخذ سمكتين بيده اليمنى وسمكتين بيده اليسرى ونزل فى الماء إلى حلقه وصار يقول: «يا الله بحق هذا السمك إن عبدك الزمار شريكى يجىء فى هذه الساعة». وإذ بعبد قد أقبل عليه وكان ذلك مقدمًا على جميع العبيد الذين كانوا عند الخليفة، وكان سبب تأخيره عن المماليك أن جواده وقف يبول فى الطريق، فلما وصل عندخليفة وجد السمك لم يبقَ منه شىء لا قليل ولا كثير، فنظر يمينًا وشمالاً فرأى خليفة الصياد واقفًا فى الماء ومعه السمك، فعند ذلك قال له: «يا صياد تعال»، فقال له الصياد: «رح بلا فضول»، فتقدم إليه الخادم وقال له: «هات هذا السمك وأنا أعطيك الثمن»، فقال خليفة الصياد للخادم: «هل أنت قليل العقل أنا لا أبيعه»؟ فسحب عليه الدبوس، فقال له خليفة: «لا تضرب يا شقىّ فالإنعام خير من الدبوس».

ثم إنه رمى إليه السمك، فأخذه الخادم وجعله فى منديله وحطّ يده فى جيبه فلم يجد ولا درهمًا واحدًا، فقال العبد: « يا صياد إن بختك مشئوم وأنا والله ما معى شىء من الدراهم ولكن فى غد تعال فى دار الخلافة وقل دلّونى على الطواشى صندل، فيدلك الخدّام علىّ، فإذا جئتنى هناك يحصل لك الذى فيه النصيب فتأخذه وتروح إلى حال سبيلك»، فعند ذلك قال خليفة: «إن هذا اليوم مبارك وبركته ظاهرة من أوله»، ثم إنه أخذ شبكته على كتفه ومشى حتى دخل بغداد ومشى فى الأسواق، فرأى الناس خلعة الخليفة عليه وصاروا ينظرون إليه حتى دخل الحارة، وكان دكان خياط أمير المؤمنين على باب الحارة، فنظر الخياط خليفة الصياد وعليه خلعة تساوى ألف دينار وهى من ملابس الخليفة فقال: «يا خليفة من أين لك هذه الفرجية؟» فقال له خليفة: «وأى شىء لك فى الفضول أنا أخذتها من الذى علّمته الصيد وصار غلامى وعفوت عنه من قطع يده لأنه سرق ثيابى وأعطانى هذه العباءة عوضًا عنها؟» فعلم الخياط أن الخليفة قد عبر عليه وهو يصطاد ومزح معه وأعطاه الفرجية، ثم توجه الصياد إلى بيته.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد : هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الخليفة هارون الرشيد فإنه ما طلع إلى الصيد والقنص إلا لأجل ما يشتغل عن الجارية قوت القلوب،وكانت زبيدة لما سمعت بالجارية واشتغال الخليفة بها أخذها ما يأخذ النساء من الغيرة حتى امتنعت من الطعام والشراب وهجرت لذيذ المنام وصارت تنتظر غياب الخليفة أو سفره حتى تنصب لقوت القلوب شرك المكايد، فلما علمت أن الخليفة خرج إلى الصيد والقنص أمرت الجوارى أن يفرشن الدار وأكثرت من الزينة والافتخار، ووضعت الأطعمة والحلويات وعملت من جملة ذلك طبقًا صينيا به حلاوة من ألطف ما يكون ووضعت فيه البنج وبنجته.

ثم إنها أمرت بعض الخدام أن يمضى إلى الجارية قوت القلوب ويدعوها إلى زاد السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين ويقول لها: «إن زوجة أمير المؤمنين قد شربت اليوم دواءً وقد سمعت بطيب نغمك، فاشتهت أن تتفرّج على شىء من صناعتك». فقالت: «سمعًا وطاعة لله وللسيدة زبيدة»، ثم إنها نهضت قائمة من وقتها وساعتها ولم تعلم بما هو

مخبوء لها فى الغيب وأخذت معها ماتحتاج من الآلات وسارت مع الخادم ولم تزل سائرة حتى دخلت على السيدة زبيدة فلما دخلت عليها قبّلت الأرض بين يديها مرارًا عديدة، ثم نهضت قائمة على قدميها وقالت: «السلام على الستر الرفيع، والجناب المنيع، والسلالة العباسية، والبضعة النبوية، بلغك الله الإقبال والسلام،فى الأيام والأعوام»، ثم وقفت من جملة الجوارى والخدام.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فعند ذلك رفعت إليها السيدة زبيدة رأسها ونظرت إلى حسنها وجمالها فرأت جارية أسيلة الخدود، بوجه أقمر وجبين أزهر، قد سكنت جفونهافتورًا، وابتهج وجهها نورًا كأن الشمس تطلع من غرتها، وظلام الليل من طرّتها، والمسك يفوح من نكهتها، والأزهار تزهو من بهجتها، والقمر يبدو من جبينها، والغصن يميل من قدّها، كأنها البدر التام، قد أشرق فى جنح الظلام، وقد تقوّس حاجباها، وصيغت من المرجان شفتاها، تدهل بحسنها من نظرها وتسحر بطرفها كل من رآها، جلّ من خلقها وكملها وسوّاها، وهى كما قال الشاعر فى من ضاهاها:

إذا غضبت رأيت الناس قتلى ... وإن رضيت فأرواحٌ تعود

ثم إن السيدة زبيدة قالت لها: «أهلاً وسهلاً ومرحبًا بك يا قوت القلوب اجلسى حتى تفرّجينا على أشغالك وحسن صناعتك». فقالت: «سمعًا وطاعةً». ثم جلست ومدّت يدها وأخذت الدف الذى قال فيه بعض واصفيه هذه الأبيات:

أيا ذا الطار قلبى طار شوقًا ... ويصرخ من جواه وأنت تضرب

فلم تأخذ سوى قلب جريح ... على توقيعك الإنسان يرغب

فقل قولاً ثقيلاً أو خفيفًا ... ولحّن ما تشاء فأنت تطرب

ثم ضربت الدف كثيرًا وغنّت حتى أوقفت الطير وهاج بهم المكان، ثم حطت الدف وأخذت الشبابة التى قيل فيها هذا البيت:

لها أعينٌ إنسانها بأصابع ... يشير إلى لحن صحيح بلا شكل

ثم إنها حطت الشبابة بعد أن طرب بها كل من حضر ثم أخذت العود الذى قيل فيه:

وغصن رطيب عاد عودا لقينة ... تحنّ إليه الأكرمون الأفاضل

تجس وتبلوه لفرط ذكائها ... بأنملها ما اقتنته السلاسلُ

فشدت أوتاره وعركت آذانه وحطته فى حجرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها فكأن الشاعر قال فيها وفى وعودها هذين البيتين :

قد أفصحت بالوتر الأعجمىّ ... وأفهمت من كان لم يفهم

جاريةٌ لله من كفها ... مصورٌ ينطق عن ذى فم

ثم ضربت أربع عشرة طريقة وغنت عليه نوبة كاملة حتى أذهلت الناظرين وأطربت السامعين، ثم أنشدت هذين البيتين :

قسمٌ عليك مباركٌ فيه السرور مجددٌ
إقباله متواترٌ ونعيمه لا ينفد

ثم إن قوت القلوب قامت بعد ذلك ولعبت بالشعبذة والدكيات وكل فنّ مليح حتى إن السيدة زبيدة افتتنت بها وقالت فى نفسها: «ما يلام ابن عمى الرشيد فى محبتها»، ثم إن الجارية قبلت الأرض بين يدى زبيدة وقعدت فقدموا لها الطعام، ثم قدموا الحلوى وقدموا الصحن الذى فيه البنج فأكلت منه، فما استقرّت الحلوى فى جوفها حتى انقلب رأسها وانطرحت على الأرض نائمة، فقالت السيدة زبيدة للجوارى: «ارفعنها إلى بعض المقاصير حتى أطلبها»، فقلن لها: «سمعًا وطاعةً».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد: ثم قالت لبعض الخدام: «اعمل لنا صندوقًا وائتنى به»، ثم أمرت أن يعمل صورة قبر ويشيعوا أن الجارية قد شرقت وماتت ونبهت على خواصها أن كل من قال لها إنها بالحياة تضرب رقبته، وإذا بالخليفة قد أتى فى تلك الساعة من الصيد والقنص وأول ما سأل سأل عن الجارية، فتقدم إليه بعض خدمه وقد كانت أوصته السيدة زبيدة أنه إذا سأله الخليفة عنها يقول له: «إنها ماتت»، فقبل الأرض بين يديه وقال له: «يا سيدى يعيش رأسك وتبقى، إن قوت القلوب غصت بالطعام فماتت»، فقال الخليفة: «لا بشرك الله بالخير يا عبد السوء»، ثم قام ودخل القصر فسمع بموتها من كل من فى القصر، فقال: «أين قبرها؟» فأتوا به التربة وأروه القبر الذى عمل تزويرًا وقالوا له: «هذا قبرها». فلما نظره صاح واعتنق القبر وبكى وأنشد هذين البيتين:

بالله يا قبر هل آلت محاسنها وهل تغير ذاك المنظر النضر
يا قبر ما أنت لا روضٌ ولا فلكٌ فكيف يجمع فيك الغصن والقمر

ثم إن الخليفة بكى عليها بكاء شديدًا ومكث هناك ساعة زمانية، ثم قام من عند القبر وهو فى غاية الحزن. فعلمت السيدة زبيدة أن حيلتها قد تمت فقالت للخادم: «هات الصندوق»، فأحضره بين يديها، فأحضرت الجارية ووضعتها فيه وقالت للخادم: «اجتهد فى بيع الصندوق واشترط على من يشتريه أنه يشتريه وهو مقفل ثم تصدّق بثمنه»، فأخذه الخادم وخرج من عندها وامتثل أمرها، هذا ما كان من أمر هؤلاء.

وأما ما كان من أمر خليفة الصياد فإنه لما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح قال: «ليس لى شغل فى هذا اليوم أحسن من رواحى إلى الطواشىّ الذى قد اشترى منى السمك فإنه وعدنى أن أروح إليه فى دار الخلافة»، ثم إن خليفة خرج من داره قاصدًا دار الخلافة، فلما وصل إليها وجد المماليك والعبيد والخدم قيامًا وقعودًا، فتأملهم وإذا بالخادم الذى أخذ منه السمك جالس والمماليك فى خدمته، فصاح عليه غلام من المماليك، التفت إليه الخادم لينظر

من هو وإذا هو بالصياد، فلما عرف الصياد أنه رآه وتحقق ذاته قال له: «ما قصرت يا شقير هكذا تكون أصحاب الأمانات».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع الخادم كلامه ضحك عليه وقال له: «والله لقد صدقت يا صياد»، ثم إن الخادم صندل أراد أن يعطيه شيئًا فمدّ يده إلى جيبه وإذا بصياح عظيم، فرفع الخادم رأسه لينظرما الخبر، وإذا بالوزير جعفر البرمكيّ خارج من عند الخليفة، فلما رآه الخادم نهض إليه قائمًا ومشى بين يديه وصارا يتحدثان وهما ماشيان حتى طال الوقت، فوقف خليفة الصياد مدة والخادم لم يلتفت إليه، فلما طال وقوفه تطاول إليه الصياد وهو بعيد عنه وأشار إليه بيده وقال: «يا سيدى شقير خلّنى أروح»، فسمعه الخادم واستحى أن يردّ عليه بسبب حضور الوزير جعفر وصار الخادم يتحدث مع الوزير ويتشاغل عن الصياد، فقال خليفة: «يا مماطل قبح الله كل ثقيل وكل من يأخذ متاع الناس، أنا دخيلك يا سيدى كرش النخال الذى بجانبك أن تعطينى الذى لى لأجل أن أروح». فسمعه الخادم فاستحى من جعفر، ورآه أيضًا جعفر وهو يشير بيديه ويتحدث مع الخادم ولكنه لم يعرف ما يقول له فقال للخادم وقد أنكر عليه: «يا طواشىّ أى شيء يطلب منك هذا السائل المسكين؟» فقال له صندل الخادم: «أما تعرف هذا يا مولانا الوزير؟» فقال الوزير جعفر: «والله ما أعرفه ومن أين أعرف هذا وأنا ما رأيته إلا فى هذه الساعة؟» فقال له الخادم: «يا مولانا هذا الصياد الذى نهبنا سمكه من شاطئ دجلة وكنت أنا ما لحقت شيئًا واستحييت أن أرجع إلى أمير المؤمنين بلا شيء وكل المماليك قد أخذوا، فلما وصلت إليه وجدته واقفًا فى وسط البحر يدعو الله ومعه أربع سمكات فقلت له: هات ما معك وخذ حقه، فلما أعطانى السمك أدخلت يدى فى جيبى وأردت أن أعطيه شيئًا فما رأيت فيه شيئًا، فقلت له: «تعال إلىّ فى القصر وأنا أعطيك شيئًا تستعين به على فقرك، فجاءنى فى هذا اليوم، فمددت يدى وأردت أن أعطيه شيئًا فجئت أنت فقمت فى خدمتك واشتغلت بك عنه فطال الأمر، فهذاسبب وقوفه».

فلما سمع الوزير كلام الطواشى تبسم منه وقال: «يا طواشىّ كيف جاء هذا الصياد فى وقت حاجته ولم تقضها له أما تعرفه يا رئيس الطواشية؟» قال: «لا». قال: «هذا معلم أمير المؤمنين وشريكه وقد أصبح اليوم مولانا الخليفة ضيق الصدر حزين القلب مشتغل البال وما شيء يشرح صدره إلا هذا الصياد، فلا تخلّه حتى أروح أشاور عليه الخليفة وأحضره بين يديه فلعلّ الله يفرج ما به ويسليه على فقد قوت القلوب بسبب حضوره فيعطيه شيئًا يستعين به فتكون أنت السبب فى ذلك». فقال له الخادم: «يا مولاى افعل ما تريد فالله تعالى يبقيك ركنًا لدولة أمير المؤمنين أدام الله ظلها وحفظ فرعها وأصلها»، ثم إن الوزيرجعفرًا نهض متوجهًا إلى الخليفة، والخادم أمر المماليك أنهم لا يفارقون الصياد، فقال خليفة الصياد عند ذلك: «ما أجمل إحسانك يا شقير قد صار الطالب مطلوبًا لأنى جئت لأطلب مالى فحبسونى على البواقى». فلما دخل جعفر على الخليفة وجده قاعدًا وهو مطرق برأسه إلى الأرض يترنم بقول الشاعر:

تكلفنى السلوان عنها عواذلى ... وما لى على قلبى إذا لم يطع أمرى
وكيف يكون الصبر عن حبّ طفلة ... على حبها فى الهجر لم يحدنى صبرى

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما صار جعفر بين يدى الخليفة قال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامى الدين وابن عم سيد المرسلين ﷺ وعلى آله أجمعين»، فرفع الخليفة رأسه وقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»،فقال جعفر: «عن إذن أمير المؤمنين يتكلم خادمه ولا حرج عليه». فقال الخليفة: «ومتى كان عليك حرج فى الكلام وأنت سيد الوزراء، تكلم بما تريد». فقال له الوزير جعفر: «إنى خرجت يا مولانا من بين يديك أريد دارى فرأيت أستاذك ومعلمك وشريكك خليفة الصياد واقفًا بالباب وهو متغير عليك ويشتكى منك ويقول: سبحان الله قد علمته الصيد وذهب ليأتينى بفردين فلم يعد إلىّ وما هذا شأن الشركة ولا شأن المعلمين، فإن كان لك غرض فى الشركة فلا بأس وإلا فعرّفه ليشارك غيرك»، فلما سمع الخليفة كلامه تبسم وزال ما كان عنده من ضيق الصدر، ثم قال لجعفر: «بحياتى عليك أحق ما تقوله من أن الصياد واقف بالباب»؟ قال جعفر: «وحياتك يا أمير المؤمنين إنه واقف بالباب»، فعند ذلك قال الخليفة: «يا جعفر والله لأسعينّ فى قضاء حقه، فإن يُرد الله على يدى شقاوة نالها وإن يرد له سعادة نالها».

ثم إن الخليفة أخذ ورقة وقطعها قطعًا وقال: «يا جعفر اكتب بيدك عشرين قدرًا من دينار إلى ألف دينار ومراتب الولاية والإمارات من أقل العمل إلى الخلافة وعشرين صنفًا من أنواع النكال من أقل التعزير إلى القتل». فقال جعفر: «سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين»، ثم كتب الأوراق بيده كما أمره الخليفة، ثم بعد ذلك قال الخليفة: «يا جعفر اقسم بحق آبائى الطاهرين واتصالى بحمزة وعقيل إنى أريد أن أحضر خليفة الصياد وآمره أن يأخذ ورقة من هذه الأوراق لا يعرف ما فيها إلا أنا وأنت، فأى شىء كان فيها ملكته له، ولو كان فيها الخلافة نزعت نفسى منها وملكته إياها ولا أبخل بها عليه وإن كان فيها شنق أو قطع أو هلاك فعلته به. فاذهب وأتنى به». فلما سمع جعفر هذا الكلام قال فى نفسه«لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ربما يطلع لهذا المسكين شىء بإتلافه فأكون أنا السبب، ولكن الخليفة قد حلف وما بقى إلا أنه يدخل ولا يكون إلا ما يريده الله»، ثم توجه إلى خليفة الصياد وقبض على يده وأراد الدخول به، فطار عقل خليفة من رأسه وقال فى نفسه: «أى شىء كان فضولى حتى جئت إلى هذا العبد النحس شقير فجمع بينى وبين كرش النخال»،ثم إن جعفرًا لم يزل سائرًا به والمماليك خلفه وقدامه وهو يقول: «ما كفى الحبس حتى يكون هؤلاء خلفى وقدامى فيحرمونى أن أهرب»، ولم يزل جعفر سائرًا به حتى قطع سبعة دهاليز ثم قال لخليفة«ويلك يا صياد إنك تقف بين يدى أمير المؤمنين وحامى حرمة الدين»، ثم رفع الستر فوقعت عين الصياد على الخليفة وهو جالس على سريره والكل فى خدمته.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فلما عرفه تقدم إليه وقال: «أهلاً وسهلاً يا زمّار ما يصح منك أن تعمل صيادًا ثم تتركني قاعدًا أحرس السمك وتروح ولا تجيء، فما شعرت إلا والمماليك قد أقبلوا على دواب مختلفة الألوان فخطفوا السمك منى وأنا واقف وحدى وهذا كله من تحت رأسك، فلوكنت جئت بالأفراد سريعًا كنا بعنا منها بمائة دينار، ولكن أنا جئت فى طلب حقى فحبسونى، وأنت من حبسك فى هذا الموضع؟ فتبسم الخليفة ثم رفع طرف الستارة وأخرج رأسه من تحتها وقال له: «تقدم وخذ لك ورقة من هذه الأوراق». فقال خليفة الصياد لأمير المؤمنين: «أنت كنت صيادًا وأراك اليوم صرت منجمًا، ولكن من كثرت صنائعه كثر فقره». فقال جعفر: «خذ الورقة بسرعة من غير كلام وامتثل ما أمرك به أمير المؤمنين»، فتقدم خليفة الصياد ومدّ يده وقال: «هيهات إن كان هذا الزمار يرجع غلامى ويصطاد معى»، ثم أخذ الورقة وناولها للخليفة وقال له: «يا زمّار أى شىء طلع لى فيها لا تخف منه شيئًا»؟.

فأخذها الخليفة بيده وناولها للوزير جعفر وقال له: «اقرأ ما فيها». فنظر إليها جعفر وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم». فقال الخليفة: «خبر خير يا جعفر ما رأيت فيها». فقال: «يا أمير المؤمنين طلع فى الورقة: يُضرب الصياد مائة عصا». فأمر الخليفة بضربه مائة عصا، فامتثلوا أمره وضربوا خليفة مائة عصا، ثم قام وهو يقول: «لعن الله هذا اللعب يا كرش النخال هل الحبس والضرب من جملة اللعب»؟ فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين إن هذا المسكين جاء إلى البحر وكيف يرجع عطشانًا، نرجو من صدقات أمير المؤمنين أن يأخذ له ورقة أخرى فلعله يطلع له فيها شىء فيرجع به ليستعين به على فقره». فقال الخليفة: «والله يا جعفر إن أخذ ورقة وطلع له فيها قتل لأقتلنه فتكون أنت السبب». فقال جعفر: «إن كان يموت فإنه يستريح». فقال له خليفة الصياد: «لا بشرك الله بالخير هل أنا ضيّقت عليكم بغداد حتى تطلبوا قتلى» فقال جعفر: «خذ لك ورقة واستخر الله تعالى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : فمدّ يده وأخذ ورقة وأعطاها لجعفر، فأخذها منه وقرأها وسكت، فقال له الخليفة: «ما لك سكتّ يا ابن يحيى»؟ فقال: «يا أمير المؤمنين إنه طلع فى الورقة: لا يُعطى الصياد شيئًا». فقال الخليفة: «ما له رزق عندنا قل له يروح من وجهى». فقال جعفر: «بحق آبائك الطاهرين أن تخليه يأخذ الثالثة لعله يطلع له فيها رزق». فقال الخليفة: «دعه يأخذ له ورقة لا شىء غيرها»، فمدّ يده وأخذ الورقة الثالثة وإذا فيها: «يُعطى الصياد دينارًا». فقال جعفر لخليفة الصياد: «طلبت لك السعادة فما أراد الله لك إلا هذا الدينار». فقال خليفة الصياد: «كل مائة عصا بدينار خير كثير لا أصحّ الله لك بدنا». فضحك الخليفة منه، وأخذ جعفر بيد خليفة وخرج به.

فلما وصل إلى الباب رآه صندل الخادم فقال له: «تعال يا صياد أنعم علينا مما أعطاك أمير المؤمنين وهو يمزح معك». فقال له خليفة: «والله صدقت يا شقير وهل تريد أن تقاسمنى يا أسود الجلد وقد أكلت مائة عصا وأخذت دينارًا واحدًا أنت فى حل منه». ثم رمى الدينار

للخادم وخرج ودموعه تجرى على صحن خده، لما نظره الخادم وهو على تلك الحالة عرف أنه صادق فرجع إليه وصاح على الغلمان أن ردّوه، فمدّ يده إلى جيبه فأخرج منه كيسًا أحمر ففتحه ونفضه وإذا فيه مائة دينار من الذهب، وقال: «يا صياد خذ هذا الذهب حقّ سمكك وامضِ إلى حال سبيلك». فعند ذلك فرح خليفة الصياد وأخذ المائة الدينار ودينار الخليفة وخرج وقد نسى الضرب.

ولما أراد الله تعالى إنفاذ ما قضاه عبر خليفة الصياد فى سوق الجوارى فرأى حلقة كبيرة وفيها خلق كثير، فقال خليفة فى نفسه: «أى شىء هؤلاء الناس»؟ ثم تقدم وشق بين الناس من تجار وغيرهم، فقال التجار: «وسعوا للناخوذة زليط»، فوسعوا له. فنظر خليفة وإذا بشيخ قائم على رجليه وبين يديه صندوق وعليه خادم جالس والشيخ ينادى ويقول: «يا تجار يا أرباب الأموال من يخاطر ويبادر بالعطاء لهذا الصندوق المجهول من دار السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين الرشيد، بكم عليكم بارك الله فيكم»؟ فقال واحد من التجار: «والله إن هذه مخاطرة فأنا أقول كلامًا وما علىّ فيه ملام، هو علىّ بعشرين دينارًا». فقال آخر: «بخمسين دينارًا».

ثم تزايد التجار فيه إلى أن وصل مائة دينار، فقال المنادى: «هل عندكم زيادة يا تجار»؟ فقال خليفة الصياد: «علىّ بمائة دينار ودينار». فلما سمع التجار كلام خليفة حسبوه يلعب فضحكوا عليه وقالوا: «يا طواشىّ بع إلى خليفة بالمائة دينار ودينار». فقال الطواشى: «والله ما أبيع إلا له، خذ يا صياد بارك الله لك فيه وهات الذهب». فأخرج خليفة الذهب وسلمه إلى الخادم ووقعت المعاقدة، ثم إن الخادم تصدق بالذهب وهو فى موضعه ورجع إلى القصر وأعلم السيدة زبيدة بما فعل ففرحت بذلك، ثم إن خليفة الصياد حمل الصندوق على كتفه فلم يقدر على حمله لعظم ثقله، فحمله على رأسه وأتى به إلى الحارة ووضعه عن رأسه وكان قد تعب فقعد يتفكر فيما جرى له وصار يقول فى نفسه: «يا ليت شعرى ما فى الصندوق»؟ ثم فتح باب داره وعالج فى الصندوق حتى أدخله داره وبعد ذلك عالج أن يفتحه فلم يقدر. فقال فى نفسه: «أى شىء حصل فى عقلى حتى اشتريت هذا الصندوق فلابدّ من كسره وأنظر ما فيه»، ثم عالج القفل فلم يقدر، فقال فى نفسه أنا أخليه إلى غد». ثم طلب أن ينام فلم يجد موضعًا لأن الصندوق جاء على قياس البيت فطلع ونام فوقه واستمر ساعة وإذا بشىء يتحرّك.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : ففزع خليفة وفرّ عنه النوم وقد طار عقله وقام من النوم وقال: «كأن فيه جانا، الحمد لله الذى ما جعلنى أفتح لأنى لو كنت فتحته لقاموا على فى الظلام وأهلكونى ولم يحصل لى منهم خير». ثم إنه رجع ونام، وإذا بالصندوق يتحرّك ثانى مرة أكثر من الأول فنهض خليفة قائمًا وقال: «هذه نوبة أخرى لكنها مزعجة»، ثم بادر إلى سراج لم يجده ولم يكن معه ما يشترى به سراجًا فخرج من البيت وصاح: «يا أهل الحارة»، وكان أكثر أهل الحارة نائمين فانتبهوا على صياحه وقالوا: «ما لك يا خليفة؟». فقال: «الحقونى بسراج فإن الجانّ خرجوا علىّ».

فضحكوا عليه وأعطوه سراجًا فأخذه ودخل به بيته وضرب قفل الصندوق بحجر فكسره وفتح الصندوق، وإذا هو بجارية كأنها حورية وهى نائمة فى الصندوق وكانت مبنجة وقد تقايت البنج فى تلك الساعة فاستفاقت وفتحت عينيها وأحست بالضيق فتحركت، فلما رآها خليفة نهض إليها وقال: «بالله يا سيدتى من أين أنت؟» ففتحت عينيها وقالت: «هات لى ياسمينًا ونرجسًا». فقال خليفة: «ما هنا إلا تمر حناء»، فاستفاقت فى نفسها ونظرت خليفة فقالت له: «أى شىء أنت؟» ثم إنها قالت: «وأين أنا؟» قال لها: «أنت فى بيتى». قالت: «أما أنا فى قصر الخليفة هارون الرشيد»؟ فقال لها: «أى شىء الرشيد يا مجنونة ما أنت إلا جارية وفى هذا اليوم اشتريتك بمائة دينار ودينار وجئت بك إلى بيتى وكنت فى هذا الصندوق نائمة».

فلما سمعت الجارية كلامه قالت له: «ما اسمك؟» قال: «اسمى خليفة، ما بال نجمى قد سعد وأنا أعرف نجمى غير ذلك». فضحكت وقالت: «دعنى من هذا الكلام هل عندك شىء يؤكل؟» فقال: «والله ولا شىء يشرب وأنا والله لى يومان ما أكلت شيئًا وأنا الآن محتاج إلى لقمة». فقالت له: «أما معك دراهم؟» فقال: الله يحفظ هذا الصندوق الذى أفقرنى لأنى أوردت ما كان معى فيه وبقيت مفلسًا». فضحكت عليه الجارية وقالت: «قم اطلب من جيرانك شيئًا آكله فإنى جائعة» فقام خليفة وخرج من البيت وصاح: «يا أهل الحارة»، وقد كانوا راقدين فانتبهوا وقالوا: «مالك يا خليفة»؟ فقال: «يا جيرانى أنا جائع وما عندى شىء آكله». فنزل له واحد برغيف وآخر بكسرة وآخر بقطعة جبن وآخر بخيارة فامتلأ حجره ودخل البيت وحط الجميع بين يديها وقال لها: «كلى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فضحكت عليه وقالت له: «كيف آكل من هذا ولا عندى كوز ماء أشرب منه فأخاف أن أشرق بلقمة فأموت». فقال خليفة: «أنا أملأ لك هذه الجرّة»، ثم أخذ الجرة وخرج فى وسط الحارة وصاح: «يا أهل الحارة». فقالوا له: «ما مصيبتك فى هذه الليلة يا خليفة»؟ فقال لهم: «أنتم أعطيتمونى طعامًا فأكلت ولكن عطشت فاسقونى». فنزل له هذا بكوز وهذا بإبريق وهذا بقلة، فملأ الجرة ودخل بها البيت وقال لها: «يا سيدتى ما بقى لك حاجة». فقالت: «صحيح ما بقى لى حاجة فى هذه الساعة».فقال لها: «كلمينى وحدّثينى بحديثك». فقالت: «ويلك إن كنت لم تعرفنى فأنا أعرّفك بنفسى، أنا قوت القلوب جارية الخليفة هارون الرشيد،وقد غارت منى السيدة زبيدة وبنجتنى ووضعتنى فى هذا الصندوق». ثم قالت: «الحمد لله الذى كان هذا الأمر السهل ولم يكن غيره ولكن ما جرى لى هذا إلا من أجل سعادتك فلابدّ أن تأخذ من الخليفة الرشيد مالاً كثيرًا يكون سببًا فى غنائك».

فقال لها خليفة: «أما هو الرشيد الذى كنت فى قصره محبوسًا»؟ قالت: «نعم». قال: «والله ما رأيت أبخل منه ذلك الزمّار القليل الخير واعقل فإنه ضربنى أمس مائة عصا وأعطانى دينارًا واحدًا مع أنى علمته الصيد وشاركته فغدر بى». فقالت له: «دع عنك هذا

الكلام القبيح وافتح عينيك وعليك بالأدب إذا رأيته بعد هذه المرة فإنك تبلغ مرادك». فلما سمع كلامها كان كأنه نائم واستيقظ وكشف الله عن بصيرته لأجل سعادته، فقال لها: «على الرأس والعين». ثم قال لها: «بسم الله نامى».

فعند ذلك قامت ونامت ونام هو بعيدًا عنها إلى الصباح، فلما أصبحت طلبت منه دواة وورقة، فأحضرهما لها، فكتبت إلى التاجر الذى هو صاحب الخليفة تخبره بحالها وما جرى لها من أنها عند خليفة الصياد وقد اشتراها، ثم دفعت له الورقة وقالت له: «خذهذه الورقة وامض بها إلى سوق الجواهر واسأل عن دكان ابن القرناص الجوهرىّ وأعطه هذه الورقة ولاتتكلم». فقال لها خليفة: «سمعًا وطاعةً»، ثم إنه أخذ الورقة من يدها ومضى بها إلى سوق الجواهر وسأل عن دكان ابن القرناص، فارشدوه إليه فأتاه وسلّم عليه، فردّ عليه السلام واحتقره فى عينه وقال له: «أىّ حاجة لك؟» فناوله الورقة فأخذها ولم يقرأها لظنه أنه صعلوك يطلب منه صدقة، فقال لبعض غلمانه: «أعطه نصف درهم» فقال له خليفة: «لا حاجة لى بالصدقة ولكن اقرأ الورقة».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فعند ذلك أخذ الورقة وقرأها ففهم ما فيها، فلما عرف مضمونها قبّلها ووضعها على رأسه ونهض قائمًا وقال له: «يا أخى أين بيتك؟» فقال له خليفة: «وما تريد ببيتى فهل مرادك أن تروح إليه وتسرق جاريتى؟» فقال له: «لا بل أشترى لك شيئًا تأكله أنت وإياها». فقال له: «بيتى فى الحارة الفلانية». فقال له: «أحسنت لا أعطاك الله عافية يا مدبور». ثم صاح على عبدين من عبيده وقال لهما: «امضيا مع هذا الرجل إلى دكان محسن الصيرفىّ وقولا له: يا محسن أعطِ هذا ألف دينار من الذهب وارجعا به إلىّ بسرعة». فمضى العبدان مع خليفة إلى دكان الصيرفىّ وقالا له: «يا محسن اعط هذا الرجل ألف دينار من الذهب». فأعطاه إياها فأخذها خليفة ورجع مع العبدين إلى دكان سيدهمافوجدوه راكبًا زرزورية تساوى ألف دينار والمماليك والغلمان حوله وفى جنب بغلته مثلهامسرجة ملجمة، فقال لخليفة: «بسم الله اركب هذه البغلة». فقال: «أنا لا أركب والله إنى أخاف أن ترمينى». فقال التاجر: «لابدّ من ركوبك». فتقدم خليفة ليركبها فركبها مقلوبًا ومسك ذنبها وصرخ فرمته على الأرض فضحكوا عليه، ثم قام وقال: «أنا ما قلت لك ما أركب هذا الحمار الكبير؟» ثم إن ابن القرناص ترك خليفة فى السوق وراح إلى أمير المؤمنين وأعلمه بالجارية ثم رجع ونقلها إلى بيته. ثم إن خليفة ذهب إلى البيت لينظر الجارية فرأى أهل الحارة مجتمعين وهم يقولون: «إن خليفة اليوم مرهوب بالكلية يا ترى هذه الجارية من أين له؟» فقال واحد منهم: «هذا قواد مجنون لعله وجدها فى الطريق سكرانة فحملها وأتى بها إلى بيته وما غاب إلا لأنه عرف ذنبه». فبينما هم فى الكلام وإذا بخليفة أقبل عليهم، فقالوا له: «أى شىء حالك يا مسكين أما تعرف أى شىء جرى لك؟» فقال: «لا والله». فقالوا: «فى هذه الساعة جاء مماليك وأخذوا جاريتك التى سرقتها وطلبوك فيما وجدوك». فقال خليفة: «كيف أخذوا جاريتى؟» فقال واحد: «لو كان وقع كانوا قتلوه». فلم يلتفت خليفة إليهم بل رجع يجرى إلى دكان ابن القرناص

فرآه راكبًا فقال له: «والله ما يصح منك فإنك شاغلتني وأرسلت مماليكك فأخذوا جاريتي». فقال: «يا مجنون تعال وأنت ساكت».

ثم أخذه وأتى به إلى دار مليحة البناء فدخل به هناك، فنظر الجارية قاعدة على سرير من ذهب وحولها عشر جوار كأنهنّ الأقمار، فلما رآها ابن القرناص قبّل الأرض بين يديها، فقالت له: «ما فعلت بسيدى الجديد الذى اشترانى بجميع ما يملك؟» فقال لها: «يا سيدتى أعطيته ألف دينار من الذهب»، وحكى لها خبر خليفة من أوله إلى آخره، فضحكت وقالت: «لا تؤاخذه فإنه رجل عامى». ثم قالت: «وهذه ألف دينار أخرى هبة منى إليه وإن شاء الله تعالى يأخذ من الخليفة ما يغنيه».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فبينما هم فى الحديث وإذا بخادم من عند الخليفة قد أقبل يطلب قوت القلوب لأنه علم أنها فى بيت ابن القرناص وحين علم ذلك لم يصبر عنها فأمر بإحضارها، فلما توجهت إليه أخذت خليفة معها وذهبت حتى أقبلت على الخليفة، فلما وصلت إليه قبلت الأرض بين يديه، فقام إليها وسلّم عليها ورحب بها وسألها كيف كان حالها مع من اشتراها. فقالت له: «إنه رجل يسمّى خليفة الصياد وها هو واقف بالباب، وقد ذكر لى أن له مع مولانا أمير المؤمنين محاسبة من أجل الشراكة التى كانت بينه وبينه فى الصيد». فقال: «هل هو واقف»؟ فقالت: «نعم». فأمر بإحضاره فحضر وقبل الأرض بين يدى الخليفة ودعا له بدوام العزّ والنعم، فتعجب الخليفة منه واستخبره عن أمره فأعاد عليه خليفة الصياد جميع ما جرى له من الأول إلى الآخر وصار الخليفة يضحك عليه، ثم إنه حدثه بحديث الخادم وما جرى له معه وكيف أعطاه المائة دينار على الدينار الذى أخذه من الخليفة،وحدثّه أيضًا بدخوله السوق وشرائه الصندوق بالمائة دينار ودينار وهو لا يعلم ما فيه، وحكى له جميع الحكاية من المبتدأ إلى المنتهى.

فضحك عليه الخليفة وانشرح صدره وقال له: «نحن على ما تريد يا موصل الحق إلى أهله». ثم سكت، وبعد ذلك أمر له الخليفة بخمسين ألف دينار ذهبًا وخلعة سنية من ملابس الخلفاء الكبار وبغلة وأهدى إليه عبيدًا من السودان يخدمونه وصار كأنه بعض الملوك الموجودة فى ذلك الزمان. وقد فرح الخليفة بقدوم جاريته، وعلم أن هذا كله من فعال السيدة زبيدة بنت عمه فزاد غضبه عليها وصار لا يميل إليها.

فلما تحققت ذلك حصل لها من غيظه همٌّ واصفرّ لونها، فلما أعياها الصبر أرسلت إلى ابن عمها أمير المؤمنين تعتذر إليه وتقر بذنبها وقد أنشدت هذه الأبيات:

أميل إلى ما كان منك من الرضا	لأطفئ منى حسرةً وتأسف
أيا سادتى رقّوا لفرط صبابتى	فهذا الذى لاقيته منكم كفى
لقد عيل صبرى بعدكم يا أحبتى	وكدّر ما قد كان من عيشنا صفا
حياتى إذا أوفيتم بعهودكم	وموتى إذا لم تسمحوا لى بالوفا
هبوا أننى أذنبت ذنبًا فسامحوا	فوالله ما أحلى الحبيب إذا عفا

فلما وصلت مراسلة السيدة زبيدة إلى أمير المؤمنين وقرأها عرف أنها اعترفت بذنبها وأرسلت تعتذر إليه مما فعلت، فقال فى نفسه: «إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم»، وأرسل إليها ردّ الجواب عن مراسلتها مشتملاً على الرضا والسماح والعفو عمّا مضى فحصل لها الفرح العظيم، ثم إن الخليفة رتب لخليفة الصياد فى كل شهر خمسين دينارًا جائزة له وصار له عند الخليفة منزلة عظيمة ومقام عال وحرمة واحتشام، ثم إن خليفة قبل الأرض بين يدى أمير المؤمنين عند خروجه وخرج يمشى ويتبختر .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فلما وصل إلى الباب نظر إليه الخادم الذى أعطاه المائة دينار فعرفه وقال له: «يا صياد من أين لك هذا كله»؟ فحدثه بما جرى له من أوله إلى آخره، ففرح الخادم بذلك حيث كان هو السبب فى غنائه وقال له: «أما تعطينى إنعامًا من هذا المال الذى صار لك»؟، فمدّ خليفة يده إلى جيبه فطلّع منه كيسًا فيه ألف دينار من الذهب وناوله للخادم. فقال له الخادم: «خذ مالك بارك الله لك فيه». وتعجب من مروءته وسماحة نفسه على فقره، ثم إن خليفة خرج من عند الخادم وهو راكب على البغلة والخدام ماسكة كفلها وهو سائر إلى أن أتى إلى الخان والناس يتفرّجون عليه ويتعجبون مما حصل له من العزّ، فتقدم إليه الناس بعد ما نزل من فوق البغلة وسألوه عن سبب تلك السعادة فأخبرهم بما جرى له من الأول إلى الآخر، ثم إنه اشترى دارًا مليحة الأركان وأنفق عليها جملة من المال حتى صارت كاملة المعانى وسكن فى تلك الدار وصار ينشد هذين البيتين:

انظر الدار شبه دار النعيم ... الهمّ تنفيه وتشفى السقيم
قد جعلت بنيانها للعلى ... والخير فيها كلّ وقت مقيم

ثم إنه لما استقرّ فى داره خطب له بنتًا من بنات أعيان أهل المدينة من البنات الحسان وحصل له غاية الأنس والحظ الزائد والانبساط وصار فى نعمة زائدة وسعادة كاملة، فلما رأى نفسه فى ذلك النعيم شكر الله سبحانه وتعالى على ما أعطاه من النعم الوافرة والمكارم المتواترة وصار لربه حامدًا حمد الشاكر مترنمًا بقول الشاعر:

لك الحمد يا من فضله متواترٌ ... ويا من له جودٌ عميم وغامر
لك الحمد منى فاقبل الحمد إننى ... لجودك والإحسان والفضل ذاكر
لقد جدت إنعامًا علىّ ومنة ... وفضلاً وإحسانًا فها أنا شاكر
وكل الورى من بحر جودك ناهلٌ ... وأنت لهم عند الشدائد ناصر
وخولتنا يا رب آثار نعمة ... وأسبغتها يا من لذنبى غافر

ثم إن خليفة صار يتردد على الخليفة هارون الرشيد مع القبول عنده، وصار الرشيد يشمله بإحسانه وجوده، ولم يزل خليفة فى أتم نعمة وسرور، وعزّ وحبور، وفى نعمة زائدة، ورفعةمتصاعدة، وعيشة طيبة هنية ولذة صافية مرضية، إلى أن أتاه هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، فسبحان من له العزّ والبقاء، وهو دائم لا يموت أبدًا .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية

قالت شهر زاد: ومما يحكى أنه كان فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، رجل تاجر بالديار المصرية يسمّى تاج الدين وكان من أكابر التجار، ومن الأمناء الأحرار، إلا أنه كان مولعًا بالسفر إلى جميع الأقطار، ويحب السير فى البرارى والقفار، والسهول والأوعار، وجزائر البحار، فى طلب الدرهم والدينار، وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوار، وطالما ركب الأخطار، وقاسى فى السفر ما يشيب الأطفال الصغار.

وكان أكثر التجار فى ذلك الزمان مالاً، وأحسنهم مقالاً، صاحب خيول وبغال، وبخاتى وجمال، وغرائر وأعدال، وبضائع وأموال، وأقمشة عديمة المثال، من شدود حمصية، وثياب بعلبكية، ومقاطع سندسية، وثياب مروزية، وتفاصيل هندية، وأزرار بغدادية وبرانس مغربية، ومماليك تركية، وخدم حبشية، وجوار رومية وغلمان مصرية، وكانت غرائر أحماله من الحرير لأنه كان كثير الأموال، بديع الجمال مائس الأعطاف، شهىّ الانعطاف، وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمّى عليا نور الدين، كأنه البدر إذا بدر، فى ليلة أربعة عشر، بديع الحسن والجمال، ظريف القدّ والاعتدال، فجلس ذلك الصبىّ يومًا من الأيام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والأخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار فصار هو بينهم كأنه القمر بين النجوم، بجبين أزهر، وخد أحمر، وعذار أخضر، وجسم كالمرمر، كما قال فيه الشاعر:

ومليح قال صفنى ... أنت فى الوصف رجيح
قلت قولاً باختصار ... كل ما فيك مليح

فعزمه أولاد التجار وقالوا: «يا سيدى نور الدين نشتهى فى هذا اليوم أننا نتفرّج نحن وأنت فى البستان الفلانىّ». فقال لهم: «حتى أشاور والدى فإنى لا أقدر أن أروح إلا بإجازته». فبينما هم فى الكلام وإذا بوالده تاج الدين قد أتى. فنظر إليه ولده وقال: «يا أبى إن أولاد التجار قد عزمونى لأجل أن أتفرّج أنا وإياهم فى البستان الفلانىّ فهل تأذن لى فى ذلك»؟ فقال: «نعم يا ولدى». ثم أعطاه شيئا من المال وقال له: «توجه معهم». فركب أولاد التجار حميرًا وبغالاً وركب نور الدين بغلة وسار معهم إلى بستان فيه ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وهو مشيد الأركان رفيع البنيان، له باب مقنطر كأنه إيوان وباب سماوى يشبه أبواب الجنان، وبوابه اسمه رضوان، وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الألوان، الأحمر كأنه مرجان، والأسود كأنه أنوف السودان، والأبيض كأنه بيض الحمام، وفيه الخوخ والرمان، والكمثرى والبرقوق والتفاح، كل هذه الأنواع مختلفة الألوان، صنوان وغير صنوان، كما قال فيه الشاعر:

عنب طعمه كطعم الشراب ... حالكٌ لونه كلون الغراب
بين أوراقه زهاء فتراه ... كبنان النساء بين الخضاب

وكما قال فيه الشاعر أيضًا:

عناقيد حكت لما تدلّت ... على قضبانها جسمى نحولا
حكت عسلاً وماءً فى إناء ... وعادت بعد حصرمها شمولا

ثم انتهوا إلى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسًا فى تلك العريشة كأنه رضوان خازن الجنان. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد : ورأوا مكتوبًا على باب المريشة هذين البيتين :

سقى الله بستانًا تدلت قطوفه فمالت بها الأغصان من شدّة الشرب
إذا رقصت أغصانه بيد الصبا تنطقها الأنواء باللؤلؤ الرطب

ورأوا مكتوبًا فى داخل المريشة هذين البيتين :

ادخل بنا يا صاح فى روضة تجلو عن القلب صدا همّه
نسيمها يعثر فى ذيله وزهرها يضحك فى كمه

وفى ذلك البستان فواكه ذات أفنان، وأطيار من جميع الأصناف والألوان، مثل فاخت وبلبل وكروان، وقمرى وحمام يغرّد على الأغصان، وأنهار بها الماء الجارى، وقد راقت المجارى، بأزهار وأثمار ذات لذّات كما قال الشاعر هذين البيتين:

سرّت النسيم على الغصون فشابهت خودًا تعثّر فى جميل ثيابها
وحكت جداولها السيوف إذا انتضت أيدى الفوارس من غلاف قرابها

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكرالقيروان، كما قال فيه الشاعر وأجاد:

ورمان رقيق القشر يحكى نهود البكر إذا برزت فحولا
إذا قشرته يبدو لدينا من الياقوت ما بهر العقولا

وكما قال فيه الشاعر أيضًا :

ململمةٌ تبدى لقاصد جوفها يواقيت حمرًا فى معاطف عبقر
ورمانة شبهتها إذ رأيتها بنهد العذارى أو بقبة مرمر
وفيها شفاء للمريض وصحةٌ وفيها حديثٌ للنبىّ المطهّر
وفيها يقول الله جل جلاله مقالاً بليغًا فى الكتاب المسطر

وفى ذلك البستان تفاح سكّرى ومسكى ودامانىّ يدهش الناظر، وفيه مشمش لوزىّ وكافورىّ وجيلانىّ وعنتابىّ كما قال فيه الشاعر:

انظر إلى المشمش فى زهره حدائق يجلو سناها الحدق
كالأنجم الزهر إذا ما زهت الغصن يزهو بها فى الورق

وفى ذلك البستان برقوق وقراصيا وعنّاب، تشفى السقيم من الأوصاب، وتقطع الدوخة والصفراء من الرأس، والتين فوق أغصانه ما بين أحمر وأخضر، كما قال فيه الشاعر:

كأنما التين يبدو منه أبيضه مع أخضر بين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد جنّ الظلام بهم باتوا على حذر

❖ ❖ ❖

أهلاً بتين جاءنا منضّدًا على طبق
كسفرة مضمومة قد جُمعت بلا حلق

وقال آخر وأجاد :

أنعم بتين طاب طعمًا واكتسى حسنًا وقارب منظرًا من مخبر
يُبدى تعاطيه إذا ما ذقته ريح الأقاح وطيب طعم السكّر

وحكى إذا مـا صُبَّ فى أطباقـه ... أكرًا صُنِعنَ من الحرير الأخضـر

وما أحسن قول بعضهم:

قالوا وقد ألفت نفسى تفكهـا ... بغير فاكهـة فى حُبهـا هامـوا
لأى شىء تحب التين قلت لهم ... للتين قومٌ وللجميز أقوامُ

وأحسن منه قول الآخر:

التين يعجبنى عن كل فاكهـة ... لما استوى والتوى فى غصنه الزاهى
كأنه عابدٌ والسحب ماطـرةٌ ... فاضت مدامعـه مـن خشيـة اللـه

وفى ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ما هو مختلف الألوان، صنوان وغير صنوان: ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر، كما قال فيه الشاعر:

يهنيك كمثـرى غدا لونها ... لـون محـب زائـد الصفـره
شبيهـةً بالبكر فـى خدرها ... والوجه منها مسبل الستـره

وفى ذلك البستان من الخوخ ما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر:

كأنما الخوخ فى روضـة ... وقـد بدا أحمـرهُ العندمى
بنادقٌ مـن ذهب أصفـر ... قـد خُضبت وجوهـا بالدم

وفى ذلك البستان من اللوز الأخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبّه فى داخل ثلاثة أبواب، صنعة الملك الوهّاب، كما قال فيه الشاعر:

ثلاثـة أبواب على جسد رطب ... مخالفة الأشكال من صنعة الرب
تريه الردى فـى ليلـه ونهـاره ... وإن يكن المسجون فيهـا بلا ذنب
أما ترى اللوز حتـى تظهـره ... مـن الأفانيـن كـفّ مقتطـف
وقشره قـد جلا القلوب لنا ... كأنـه الـدرّ داخـل الصدف

وأحسن منه قول الشاعر الآخر فى وصف ذلك اللوز:

يا حسـن لوز أخضـر ... أصغـر ملء اليـد
كأنمـا زئبـرهُ ... نبت عـذار الأمـرد
قلوبـه يـا صـاح مـن ... مزدوج ومفـرد
كأنهـا لآلـئٌ ... تصـان فـى زبرجـد

وقال آخر وأجاد :

مـا أبصرت عيناى مثل اللوز فى ... جمالـه لما بـدت أنـواره
الرأس منـه باشتعال شائـب ... حين انتشا واخضرّ منه عذاره

وفى ذلك البستان النبق مختلف الألوان، صنوان وغير صنوان، كما قال فيه بعض واصفيه:

انظر إلى النبق فى الأغصان منتظمًا ... كمشمش مُعجب يزهو على القضب
كأنّ صفرته للناظرين غـدت ... تحكى جلاجل قد صيغت من الذهب

◆ ◆ ◆

وسدرة كل يوم من حسنها فى فنون
كأنما النبق فيها وقد بدا للعيون
جلاجل من نضار قد عُلقت فى غصون

وفى ذلك البستان النارنج كأنه خولجان، كما قال فيه الشاعر الولهان:

وحمراء ملء الكف تزهو بحسنها فظاهرها نارٌ وباطنها ثلجُ
ومن عجب ثلج مع النار لم يذب ومن عجب نارٌ وليس لها وهجُ

ومن أجمل ما قيل فى وصف ذلك النارنج أيضًا:

كأنّ رُبى النارنج إذا هبّت الصبا وأضحت به الأغصان وهى تميدُ
خدودٌ عليها بهجة السن أقبلت عليها بأوقات السلام خدود
وشادن قلنا له صف لنا بستاننا هذا ونارنجنا
قال لى بستانكم طلعتى ومن جنى النارنج نارًا جنى

وفى ذلك البستان الأترج لونه كلون التبر وفد من أعلى مكان، وتدلّى فى الأغصان، كأنه سبائك العقيان، وقد قال فيه الشاعر الولهان:

أما ترى أيكة الأترج مثمرة يخشى عليها إذا مالت من العطب
كأنها عند ما مرّ النسيم بها غصنٌ تحمّل قضبانًا من الذهب

وفى ذلك البستان الكباد، متدل فى أغصانه وهو على غاية المراد، كما قال فيه الشاعر:

وكبادة بين الرياض نظرتها على غصن رطب كقلمة أغيد
إذا مالتها الريح مالت كأكرة بدت ذهبًا فى صولجان زبرجد

وفى ذلك البستان الليمون زاكى الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرته زينة مجانيه، وريحه يزهو لجانيه، كما قال فيه بعض واصفيه:

أما ترى الليمون لما بدا يأخذ من إشراقه بالعيان
كأنه بيض دجاج وقد لطخه المخمس بالزعفران

وفى ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضراوات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفلفل والسنبل العنبرىّ والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الأجناس، وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه، إذا دخله العليل خرج منه كالأسد الغضبان، ولم يقدر على وصفه اللسان، لما فيه من العجائب والغرائب التى لا توجد إلا فى الجنان، كيف لا واسم بوّابه رضوان.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فلما تفرّج أولاد التجار فى ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على إيوان من أواونيه وأجلسوا نور الدين فى وسط الإيوان على نطع من الأديم المزركش متكئًا على مخدة محشوة بريش وظهارتها مدوّرة سنجابية، ثم ناولوه مروحة مكتوبًا عليها هذان البيتان:

ومروحة معطرة النسيم تذكر طيب أوقات النسيم

وتهدى طيبها فى كل وقت ... إلى وجه الفتى الحر الكريم

ثم إن هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب وجلسوا يتحدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم وكل منهم يتأمل فى نور الدين وينظر إلى حسن صورته، وبعد أن اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أوان من الصينى والبلور لأن بعض أولاد التجار كان وصى أهل بيته به قبل خروجه من البستان، وكانت تلك السفرة مما درج وطار، وسبح فى البحار، كالقطا والسمانىّ وأفراخ الحمام وشياه الضان وألطف السمك.

فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية، ولما فرغوا من الأكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافى والصابون الممسك، وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب، وقدموا لنور الدين منديلاً مطرزًا بالذهب الأحمر فمسح به يديه، وجاءت القهوة فشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث، وإذا بخولى البستان ذهب وجاء بسلّ مملوء بالورد وقال: «ما تقولون يا ساداتنا فى المشموم»؟ فقال بعض أولاد التجار: «لا بأس به خصوصًا الورد فإنه لا يُرد». فقال البستانىّ: «نعم ولكن من عادتنا ألا نعطى الورد إلا بالمنادمة، فمن أراد أخذه فليأت بشىء من الشعر».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : وكان أولاد التجار عشرة أشخاص فقال واحد منهم: «نعم أعطنى وأنا أنشدك شيئًا من الشعر يناسب المقام». فناوله حزمة من الورد فأخذهاوأنشد هذه الأبيات:

للورد عندى محلٌ ... لأنه لا يملُّ
كل الرياحين جند ... وهو الأمير الأجل
إن غاب عزّوا وتاهوا ... حتى إذا جاء ذلوا

ثم ناوله الثانى حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:

دونك يا سيدى وردةً ... يذكرك المسك أنفاسها
كغادة أبصرها عاشق ... غطّت بأكمامها رأسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:

وردٌ نفيس تسرُّ القلب رؤيته ... تحكى روائحه ما طاب من ندٌ
قد ضمّه الغصن فى أوراقه طربًا ... كقبلة بفم من غير ما صدٌ

ثم ناول الرابع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:

أما ترى دوحة الورد التى ظهرت ... لها بدائع قد ركبن فى قضب
كأنهن يواقيت يطوف بها ... زبرجد قد حوى شيئًا من الذهب

ثم ناول الخامس حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:

قضب الزبرجد قد حُملن وإنما ... أثمارهن سبائك العقيان
وكأنّ وقع القطر من أوراقه ... دمع بكته فواتر الأجفان

ثم ناول السادس حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:

يا وردةً لبديع الحسن قد جمعت وأودع الله فيها لطف أسرار
كأنه خد محبوب ونقطه لدى التواصل مشتاق بدينار
ثم ناول السبع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:
قلتُ للورد ما لشوكك يؤذى كل من مسه سريع الجراح
قال لى معشر الرياحين جندى أنا سلطانها وشوكى سلاحى
ثم ناول الثامن حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:
رعى الله وردًا غدا أصفرًا بهيا نضيرًا يحاكى النضارا
وحسن غصون به أثمرت وحمّلنَ به شموسًا صفارا
ثم ناول التاسع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين:
شجرة ورد أصفر جنيت فى قلب كل متيم طربا
عجبًا لها من دوحة سقيت ماء اللجين فأثمرت ذهبًا
ثم ناول العاشر حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين :
ألم ترَ أنّ جند الورد يزهو بصفر من مطالعه وحمر
وقد شبهته والشوك فيه نصال زمرد فى ترس تبر
فلما استقرّ الورد فى أيديهم أحضر البستانىّ سفرة المدام فوضع بينهم صينية مزركشة بالذهب الأحمر وأنشد يقول هذين البيتين:
هتف الفجر بالسنا فاسق خمرًا عانسًا تجعل الحليم سفيها
لست أدرى من لطفها وصَفاها أبكأس تُرى أم الكأس فيها
وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن خولى البستان ملأ وشرب ودار الدور إلى أن وصل إلى نور الدين ابن التاجر تاج الدين فملأ خولى البستان كأسًا وناوله إياه، فقال نور الدين: «أنت تعرف أن هذا شىء لا أعرفه ولا شربته قط لأن فيه إثمًا كبيرًا وقد حرمه فى كتابه الرب القدير». فقال خولى البستان: «يا سيدى نور الدين إن كنت ما تركت شربه إلا من أجل الإثم فإن الله سبحانه وتعالى كريم حليم، غفور رحيم، يغفر الذنب العظيم، ورحمته وسعت كل شىء، ورحمة الله تعالى كما قال بعض الشعراء:

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم وما عليك إذا أذنبت من بأس
إلا اثنتين فلا تقربهما أبدًا الشرك بالله والإضرار للناس

ثم قال واحد من أولاد التجار: «بحياتى عليك يا سيدى نور الدين أن تشرب هذا القدح»، وتقدّم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق، وآخر وقف بين يديه على أقدامه، فاستحى نور الدين وأخذ القدح من خولى البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها، وقال: «هذا مرّ»، فقال له الشاب خولى البستان: «يا سيدى نور الدين لولا أنه مر ما كانت فيه هذه المنافع، ألم تعلم أن كل حلو إذا أكل على سبيل التداوى يجده الآكل مرا؟ وإن هذه الخمرة منافعها كثيرة، فمن جملة منافعها أنها تهضم الطعام، وتصرف الهم والغمّ وتزيل الأرياح وتروّق الدم وتصفى اللون

وتنعش البدن وتشجع الجبان، ولو كنا ذكرنا منافعها كلها لطال علينا شرح ذلك(١) وقد قال بعض الشعراء:

شربنا وعفو الله من كل جانب   داويت أسقامى بمرتشف الكأس
وما غرّنى فيها وأعرف إثمها   سوى قوله فيها منافع للناس.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد ثم إن خولى البستان نهض قائمًا على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعًا من مخادع ذلك الإيوان وأخرج منه قمع سكر مكرّر وكسر منه قطعة كبيرة وضعها لنور الدين فى القدح وقال له: «يا سيدى إن كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا». فعند ذلك أخذ نور الدين القدح وشربه، ثم ملأ الكأس واحد من أولاد التجار: وقال: «يا سيدى نور الدين أنا عبدك». وكذا الآخر قال: «من أجل خاطرى». وقام آخر وقال: «بالله عليك يا سيدى نور الدين اجبر بخاطرى». ولم يزل العشرة أولاد التجار بنور الدين إلى أن سقوه عشرة أقداح كل واحد قدحًا، وكان نور الدين باطنه بكر عمره ما شرب خمرًا قطّ إلا فى تلك الساعة، فدار الخمر فى دماغه وقوى عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه، وقال: «يا جماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح إلا أنه يحتاج إلى سماع طيب فإن الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده كما قال فيه الشاعر هذين البيتين:

أدرها بالكبير وبالصغير   وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فإنى   رأيت الخيل تشرب بالصفير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية، كأنها فضة نقية، أو دينار فى صينية، أو غزال فى برية، بوجه يخجل الشمس المضيئة، وتلك الصبية كأنها البدر إذا بدر، فى ليلة أربعة عشر، وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر، فوق جبين أزهر، وهى فى غاية من الحسن والجمال، ورشاقة القد والاعتدال، كأنها المرادة بقول الشاعر:

أقبلت فى غلالة زرقاء   لازوردية كلون السماء
فتحققت فى الغلالة منها   قمر الصيف فى ليالى الشتاء

ثم إن الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية: «اعلمى يا سيدة الملاح، وكل كوكب لاح،أننا ما قصدنا بحضورك هذا المكان إلا أن تنادمى هذا الشاب المليح الشمائل سيدى نورالدين فإنه لم يأت محلّنا هذا إلا فى هذا اليوم». فقالت له الصبية: «ليتك كنت أخبرتنى لأجل أن أجىء بالذى كان معى». فقال لها: «يا سيدتى أنا أروح وأجىء به إليك». فقالت: «افعل مابدا لك». فقال: «أعطنى أمارة». فأعطته منديلاً.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

(١) من يوم أن حرمت فقدت كل المنافع ولم يبق لها إلا الإثم وضرر الجسم عياذا بالله منها.

قالت شهر زاد : فعند ذلك خرج سريعًا وغاب ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشكلين من الذهب، فأخذته الصبية منه وحلته ونفضته فنزل منه اثنان وثلاثون قطعة خشب، ثم ركبت الخشب فى بعضه وكشفت عن معاصمها وأقامته فصار عودًا محكومًا مجرودًا صنعة الهنود ، ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناء الوالدة على ولدها، وزغزغته بأنامل يدها، فعند ذلك أنّ العود ورنّ، ولأماكنه القديمة حنّ، وقد تذكر المياه التى قد سقته والأرض التى نبت منها وتربى فيها وتذكر النجارين الذى قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التى حملته فصرخ وصاح، وعدد وناح، وكأنها سألته عن ذلك كله فأجابها بلسان الحال منشدًا هذه الأبيات:

لقد كنت عودًا للبلابل منزلاً ... أميل بها وجدًا وفرعىَ أخضرُ
ينوحون من فوقى فعلّمت نوحهم ... ومن أجل النوح سرّىَ مجهر
رمانى بلا ذنب على الأرض قاطعى ... وصيرنى عودًا نحيلاً كما تروا
ولكنّ ضربى بالأنامل مخبر ... بأنى قتيلٌ فى الأنام مصبرُ
فمن أجل هذا صار كل منادم ... إذا ما رأى نوحى يهيم ويسكرُ
وقد حنن المولى علىّ قلوبهم ... وقد صرت فى أعلى الصدور أصدرُ
فلا فرّق الله المهيمن بيننا ... ولا عاش محبوبٌ يصد ويهجرُ

ثم سكتت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت العود فى حجرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها وضربت عليه طرقًا عديدة، ثم عادت إلى طريقتها الأولى وأنشدت:

لوأنهم جنحوا للصبّ أو زاروا ... لحطّ عنه من الأشواق أوزارُ
وعندليب على غصن يشاجره ... كأنه عاشقٌ شطت به الدارُ
قم وانتبه فليالى الوصل مقمرةٌ ... كأنها باجتماع الشمل أسحارُ
أما ترى أريحًا للهو قد جُمعت ... آسٌ ووردٌ ومنثورٌ وأنوارُ
فاظفر بحظك فى الدنيا فلذتها ... تفنى وتبقى رواياتٌ وأخبارُ

فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام، والشعر والنظام، تعجب من فصاحة لسانها، وشكرها على ظرافة افتتانها، فلما سمعت الصبية ثناء نور الدين عليها شكرته وقبلت يديه، ثم إن نور الدين قام من ذلك المجلس ووقف على قدميه، فقالت له الصبية: «إلى أين يا سيدى؟» فقال لها: «إلى بيت والدى». فحلف عليه أولاد التجار أنه ينام عندهم، فأبى نور الدين وركب بغلته وانصرف.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم إنه لم يزل سائرًا حتى وصل إلى بيت والده، فقامت له أمه وقالت له: «يا ولدى ما سبب غيابك إلى هذا الوقت والله إنك قد شوّشت علىّ وعلى والدك بغيابك عنا وقد اشتغل خاطرنا عليك؟» ثم إن أمه تقدمت إليه لتقبله فى فمه فشمت منه رائحة

الخمر فقالت: «يا ولدى كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر، وتعصى من له النهى والأمر؟» فبينما هما فى هذا الكلام وإذا بوالده قد أقبل.

ثم إن نور الدين ارتمى فى الفراش ونام، فقال أبوه: «ما لنور الدين هكذا؟» قالت له أمه: «كان رأسه أوجعه من هواء البستان» فعند ذلك تقدم إليه والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر، وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر، فقال له: «ويلك يا ولدى هل بلغ بك السفه إلى هذا الحد حتى تشرب الخمر؟ فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو فى سكره ولطمه بها، فجاءت اللطمة بالأمر المقدّر على عين والده اليمنى فسالت على خده فوقع على الأرض مغشيا عليه واستمرّ فى غشيته ساعة، فرشّوا عليه ماء الورد.

فلما أفاق من غشيته أراد أن يضربه فمنعته أمه فحلف بالطلاق منها أنه إذا أصبح الصباح لابدّ من قطع يده اليمنى. فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره إلى أن غلب عليه النوم، فصبرت إلى أن طلع القمر وأتت إلى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له: «يا نور الدين ما هذا الفعل القبيح الذى فعلته مع والدك»؟ فقال لها: «وما الذى فعلته مع والدى؟» فقالت: إنك لطمته بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده فقد حلف بالطلاق أنه إذا أصبح الصباح لابدّ أن يقطع يدك اليمنى». فندم نور الدين على ما وقع منه.

ثم إن أمه قالت له: «يا ولدى إن هذا الندم لا ينفعك وإنما ينبغى لك أن تقوم فى هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفى عند خروجك حتى تصل إلى أحد من أصحابك، وانتظر ما يفعل الله فإنه يغير حالاً بعد حال». ثم إن أمه فتحت صندوق المال وأخرجت منه كيسًا فيه مائة دينار وقالت له: «يا ولدى خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالح حالك، فإذا فرغت منك يا ولدى فأرسل أعلمنى حتى أرسل إليك غيرها، وإذا راسلتنى فأرسل إلىّ أخبارك سرا، ولعلّ الله يقدّر لك فرجًا وتعود إلى منزلك».

ثم إنها ودعته، وبكت بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد، فعند ذلك أخذ نور الدين كيس الدنانير من أمه وأراد أن يخرج فرأى كيسًا كبيرًا قد نسيته أمه بجنب الصندوق فيه ألف دينار فأخذه نورالدين ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الزقاق وتوجه إلى جهة بولاق قبل الفجر، فلما أصبح الصباح وقامت الخلائق توحد الله الملك الفتاح وخرج كل واحد منهم إلى مقصده ليحصل ما قسم الله له كان نور الدين وصل إلى بولاق فصار يمشى على ساحل البحر فرأى مركبًا سقالته ممدودة والناس تطلع فيه وتنزل منه ومراسيه أربع مدقوقة فى البرّ ورأى البحرية واقفين، فقال لهم نور الدين: «إلى أين أنتم مسافرون؟» فقالوا له: «إلى مدينة إسكندرية». فقال لهم نور الدين: «خذونى معكم». فقالوا له: «أهلاً وسهلاً ومرحبًا بك يا شاب يا مليح».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فعند ذلك نهض نور الدين من وقته وساعته ومضى إلى السوق واشترى ما يحتاج إليه من زوادة وفرش وغطاء، ثم رجع إلى المركب وكان ذلك المركب تجهز للسفر،فلما نزل نور الدين فى المركب لم يمكث إلا قليلاً وسار من وقته وساعته، ولم يزل ذلك المركب سائرًا حتى وصل إلى مدينة رشيد، فلما وصلوا إلى هناك رأى نور الدين زورقًا صغيرًا سائرًا إلى إسكندرية فنزل فيه وعدى الخليج،ولم يزل سائرًا إلى أن وصل إلى قنطرة تسمى قنطرة الجامى، فطلع نور الدين من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة، وقد ستر الله عليه فلم ينظره أحد من الواقفين فى الباب، فمشى نور الدين حتى دخل مدينة إسكندرية، فرأى مدينة حصينة الأسوار حسنة المتنزهات تلذ لسكانها وترغب فى إيطانها، قد ولّى عنها فصل الشتاء ببرده، وأقبل عليها فصل الربيع بورده، وازدهت أزهارها، وأورقت أشجارها، وأينعت أثمارها وتدفقت أنهارها، وهى مدينة مليحة الهندسة والقياس، وأهلها من خيار الناس، إذاغلقت أبوابها، أمنت أصحابها، وهى كما قيل فيها:

قد قلت يومًا لخلٍّ	له مقالٌ فصيح
إسكندرية صفها	فقال ثغرٌ مليح
قلت وفيها معاشٌ	فقال إن هب ريح

وقال بعض الشعراء:

اسكندرية ثغرٌ	رُضابه يستطابُ
ما أحسن الوصل فيها	إن لم يُصبها غرابُ

فمشى نور الدين فى تلك المدينة، ولم يزل ماشيًا فيها إلى أن وصل إلى سوق النجارين ثم إلى سوق الصرافين ثم إلى سوق الفاكهانية، ثم إلى سوق العطارين، وهو يتعجب من تلك المدينة لأن وصفها قد شاكل اسمها، فبينما هو يمشى فى سوق العطارين وإذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه، ثم أخذه من يده ومضى به إلى منزله، فرأى نور الدين زقاقًا مليحًا مكنوسًا مرشوشًا قد هبّ عليه النسيم وراق، وظللته من الأشجار أوراق، وفى ذلك الزقاق ثلاث دور وفى صدر ذلك الزقاق دار أساسها راسخ فى الماء، وجدرانها شاهقة إلى عنان السماء، قد كنسوا الساحة قدامها ورشوها، ويشمّ روائح الأزهار قاصدوها، يقابلها النسيم كأنه من جنان النعيم، فأول ذلك الزقاق مرشوش وآخره بالرخام مفروش.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فدخل الشيخ بنور الدين إلى تلك الدار وقدم له شيئًا من المأكول وأكل هو وإياه، فلما فرغ من الأكل قال له الشيخ: «متى كان القدوم من مدينة مصر إلى هذه المدينة؟» فقال له: «يا والدى فى هذه الليلة». فقال له: «مااسمك»؟ قال: علىّ نور الدين». فقال له الشيخ : «يا ولدى نور الدين يلزمنى الطلاق ثلاثًا أنك ما دمت مقيمًا فى هذه المدينة لا تفارقنى وأنا أخلى لك موضعًا تسكن فيه». فقال له نور الدين: «يا سيدى الشيخ زدنى بك معرفة». فقال: «يا ولدى اعلم أنى دخلت مصر فى بعض السنين بتجارة فبعتها فيها واشتريت

متجرًا آخر فاحتجت إلى ألف دينار فوزنها عنى والدك تاج الدين من غير معرفة له بى ولم يكتب علىّ بها منشورًا، وصبر علىّ بها إلى أن رجعت إلى هذه المدينة وأرسلتها إليه مع بعض غلمانى ومعها هدية، وقد رأيتك وأنت صغير وإن شاء الله تعالى أجازيك ببعض ما فعل والدك معى». فلما سمع نور الدين هذا الكلام، أظهر الفرح والابتسام، وأخرج الكيس الذى فيه الألف الدينار وأعطاه لذلك الشيخ وقال له: «خذ هذا وديعة عندك حتى أشترى به شيئًا من البضائع لأتجر فيه».

ثم إن نور الدين أقام فى مدينة إسكندرية مدة أيام وهو يتفرّج كل يوم فى شارع من شوارعها ويأكل ويشرب ويتلذّذ ويطرب إلى أن فرغت منه المائة الدينار التى كانت معه برسم النفقة،فأتى إلى الشيخ العطار ليأخذ منه شيئًا من الألف الدينار وينفقه فلم يجده فى الدكان فجلس فى دكانه ينتظره إلى أن يعود وصار يتفرّج على التجار ويتأمل ذات اليمين وذات الشمال، فبينما هو كذلك وإذا بأعجمى قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه جارية كأنها فضة نقية، أو بلطية فى فسقية، أو غزالة فى برية، بوجه يخجل الشمس المضيئة، كاملة الحسن والجمال، ورشاقة القدّ والاعتدال.

ثم إن الأعجمىّ نزل من بغلته وأنزل الصبية وصاح على الدلال فحضر بين يديه فقال له: «خذ هذه الجارية وناد عليها فى السوق». فأخذها الدلال ونزل بها إلى وسط السوق وغاب ساعة، ثم عاد ومعه كرسى من الأبنوس مزركش بالعاج الأبيض، فوضعه الدلال على الأرض وأجلس عليه تلك الصبية، ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحته وجه كأنه ترس ديلمىّ، أو كوكب درّى، وهى كأنها البدر إذا بدر، فى ليلة أربعة عشر، بغاية الجمال الباهر، كما قال الشاعر:

قد عارض البدر جهلاً عن حسن صورتها ... فراح منكسفًا وانشق بالغضب
وسرحةُ البان إن قيست بقامتها ... تبّت يدًا من غدت حمّالة الحطب

فعند ذلك قال الدلال للتجار: «كم دفعتم فى درّة الغواص، وفلية القناص؟» فقال له تاجر من التجار: «علىّ بمائة دينار». وقال آخر: «بمائتين»، وقال آخر: «بثلاثمائة»، ولم يزل التجار يتزايدون فى تلك الجارية إلى أن أوصلوا ثمنها إلى تسعمائة وخمسين دينارًا وتوقف البيع على الإيجاب والقبول.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فعند ذلك أقبل الدلال على الأعجمىّ سيدها وقال له: «إن جاريتك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارًا فهل تبيع ونقبض لك الثمن؟» فقال الأعجمىّ: «هل هى راضية بذلك فإنى أحب مراعاة خاطرها لأنى ضعفت فى هذه السفرة وخدمتنى هذه الجارية غاية الخدمة فحلفت أنى لا أبيعها إلا لمن تشتهى وتريد وجعلت بيعها بيدها فشاورها، فإن قالت: رضيت فبعها لمن أرادته وإن قالت لا فلا تبعها»، فعند ذلك تقدم الدلال إليها وقال لها: «يا سيدة الملاح اعلمى أن سيدك قد جعل بيعك بيدك وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارًا

أفتأذنين أن أبيعك»؟ فقالت الجارية للدلال: «أرني الذي يريد أن يشتريني قبل انعقاد البيع».

فعند ذلك جاء الدلال بها إلى رجل من التجار وهو شيخ كبير هرم، فنظرت إليه الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت إلى الدلال وقالت له: «يا دلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك»؟ فقال لها: «لأي شيء يا سيدة الملاح تقولين لي هذا الكلام»؟ فقالت له الجارية: «أيحل لك من الله أن تبيع مثلي لهذا الشيخ الهرم»؟ فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الكلام اغتاظ غيظًا شديدًا ما عليه من مزيد وقال للدلال: «يا أنحس الدلالين ما جئت لنا في السوق إلا بجارية مشئومة تتجارى عليه وتحتقرني بين التجار؟» فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها: «يا سيدتي لا تكوني قليلة الأدب إن هذا الشيخ الذي احتقرته هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب مشورة التجار». فضحكت وأنشدت هذه الأبيات:

يصلح للحكام في عصرنا ... وذاك للحكام مما يجب
الشنق للوالي على بابه ... والضرب بالدرة للمحتسب

ثم إن تلك الجارية قالت للدلال: «والله يا سيدي أنا لا أباع لهذا الشيخ فبعني إلى غيره لأنه ربما أبغضني فيبيعني إلى غيره فأصير ممتهنة، ولا ينبغي لي أن أدنس نفسي بالامتهان وقد علمت أن أمر بيعي مفوض إليّ»، فقال لها الدلال: «سمعًا وطاعةً»، ثم توجه بها إلى رجل من التجار الكبار، فلما وصل بها إلى ذلك الرجل قال لها: «يا سيدتي هل أبيعك إلى سيدي شريف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارًا»؟.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فنظرت إليه الجارية فرأته شيخًا ولكن لحيته مصبوغة، فقالت للدلال: «هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك حتى تبيعني إلى هذا الشيخ الفاني، فهل أنا من كتكت المشاق، أو مهلهل الأخلاق، حتى تطوف بي على شيخ بعد شيخ وكلاهما كجدار آئل إلى السقوط أو عفريت محقه النجم بالهبوط؟» أما الأول فإنه ناطق لسان الحال بقول من قال:

قالوا بياض الشعر نورٌ ساطعٌ ... يكسو الوجوه مهابةً وضياء
حتى بدا خط المشيب بمفرقي ... فوددت أن لا أعدم الظلماء
لو أنّ لحية من يشيب صحيفةً ... بمعادِهِ ما اختارها بيضاءَ

وأحسن منه ما قال فيه الآخر:

ضيفٌ ألمّ برأسي غير محتشمٍ ... السيف أحسن فعلاً منه باللممِ
أبعد بعدت بياضًا لا بياض له ... لأنت أسود في عيني من الظلمِ

وأما الآخر فإنه ذو عيب وريب، ومسود وجه الشيب، قد أتى في خضاب شيبه بأقبح مين وأنشد لسان حاله هذين البيتين:

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها ... كتمته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت إن ذا عجبٌ ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وما أحسن قول الشاعر:

يا من يخضب بالسواد مشيبه كى يستقرّ له الشباب ويحصلّ
ها فاختضب بسواد حظى مرة ولك الضمان بأنه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذى صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاظ غيظًا شديدًا ما عليه من مزيد وقال للدلال: «يا أنحس الدلالين ما جئت فى هذا اليوم سوقنا إلا بجارية سفيهة على كل من فى السوق واحدًا بعد واحد وتهجوهم بالأشعار، والكلام الفشار». ثم إن ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه، فأخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال لها: «والله إنى ما رأيت عمرى جارية أقل حياء منك وقد قطعت رزقى ورزقك فى هذا النهار، وقد بغضنى من أجلك جميع التجار». فرآهما فى الطريق رجل من التجار فزاد فى ثمنها عشرة دنانير، وكان اسم التاجر شهاب الدين، فاستأذن الدلال الجارية فى البيع فقالت: «أرنى إياه حتى أنظر إليه وأسأله عن حاجة، فإن كانت تلك الحاجة فى بيته فأنا أباع له، وإلا فلا». فخلاها الدلال واقفة ثم تقدم إليه وقال: «يا سيدى شهاب الدين اعلم أن هذه الجارية قالت لى إنها تسألك عن حاجة فإن كانت عندك فإنها تباع لك، وها أنت قد سمعت ما قالته لأصحابك من التجار، فأنا والله خائف أن أجيء بها إليك فتعمل معك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحًا، فإن أذنت لى فى المجيء بها أجيء بها إليك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فقال له: «ائتنى بها». فقال الدلال: «سمعًا وطاعة». ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية إليه ، فنظرته الجارية وقالت له: «يا سيدى شهاب الدين هل فى بيتك مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب؟» فقال لها: «نعم يا سيدة الملاح عندى منها فى البيت عشر مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فبالله عليك ماذا تصنعين بهذه المدورات؟» فقالت: «أصبر عليك حتى ترقد فأجعلها على فمك وأنفك حتى تموت». ثم إنها التفتت إلى الدلال وقالت له: «ياأخسّ الدلالين كأنك مجنون حتى تعرضنى منذ ساعة على اثنين من الشيوخ فى كل واحد منهما عيبان، وبعد ذلك تعرضنى على شهاب الدين وفيه ثلاثة عيوب، الأول أنه قصير، والعيب الثانى أن أنفه كبير، والعيب الثالث أن لحيته طويلة؟» وقد قال فيه بعض الشعراء هذين البيتين:

ما رأينا ولا سمعنا بشخص مثل هذا بين الخلائق أجمع
فله لحية ذراعٌ وأنفٌ طول شبرٍ وقامةٌ طول أصبع

وقال بعضهم أيضًا:

منارة الجامع فى وجهه كرقة الخنصر فى الخاتم
لو دخل العالم فى أنفه أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق الدلال قال له: «ياأنحس الدلالين كيف تأتى لنا بجارية توبخنا وتهجونا واحدًا بعد واحد بالأشعار، والكلام الفشار»؟

فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها: «والله طول عمري وأنا في هذه الصناعة ما رأيت جارية أقل أدبًا منك، فإنك قد قطعتِ رزقي في هذا اليوم ولا ربحت منك إلا الصفع على القفا والأخذ بالطوق».

ثم إن الدلال وقف بتلك الجارية أيضًا على تاجر صاحب عبيد وغلمان وقال لها: «اتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين؟» فنظرته فوجدته أحدب فقالت: «إن هذا أحدب». وقد قال الشاعر:

قصرت مناكبه وطال فقاره ... فحكاه شيطانٌ يصادف كوكبا
وكأنه قد ذاق أول درةٍ ... وأحسَّ ثانيةً فصار محدّبا

وقال فيه بعض الشعراء أيضًا:

لما رقى أحدبكم بغلة ... صار بها بين الورى مُثله
أماله الضحك فلا تعجبوا ... إن جفلت من تحته البغله
ولرب أحدب زاد في حدباته ... قبحًا وقاطبة العيون تمجّه
فكأنه غصنٌ تقلص يابسٌ ولواه ... من طول المدى أترجّه

فعند ذلك أسرع الدلال إليها وأتى بها إلى تاجر آخر وقال: «أتباعين لهذا؟» فنظرت إليه فوجدته أعمش، فقالت: إن هذا أعمش كيف تبيعني له؟» وقد قال فيه بعض الشعراء:

رمدٌ به أمراضةٌ ... هدّت قواه لحينه
يا قوم قوموا فانظروا ... هذا القذى في عينه

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فعند ذلك أخذها الدلال وأتى بها إلى تاجر آخر وقال لها: «أتباعين لهذا؟» فنظرت إليه فرأت لحيته كبيرة فقالت للدلال: «ويلك إن هذا الرجل كبش ولكن طلع ذيله في حلقه كيف تبيعني له ياأنحس الدلالين؟ أما سمعت أن كل طويل الذقن قليل العقل وعلى قدر اللحية يكون نقصان العقل، وهذا أمر مشهور بين العقلاء؟» وقد قال الشاعر:

ما رجلٌ طالت له لحيةً ... فزادت اللحية في هيبته
إلا وما ينقص من عقله ... يكون طولاً زاد في لحيته

وكما قال فيه بعض الشعراء:

لنا صديقٌ وله لحيةٌ ... طوّلها الله بلا فائده
كأنها بعض ليالي الشتا ... طويلة مظلمةً بارده

فعند ذلك أخذها الدلال ورجع، فقالت له: «إلى أين تتوجه بي؟» فقال لها: «إلى سيدك الأعجميّ وكفانا ما جرى لنا بسببك في هذا النهار، وقد تسببت في منع رزقي ورزقه بقلّة أدبك»، ثم إن الجارية نظرت في السوق والتفتت يمينًا وشمالاً وخلفًا وأمامًا فوقع نظرها بالأمر المقدّر على نور الدين عليّ المصريّ فرأته شابا مليحًا نقيّ الخدّ، رشيق القد، وهو ابن

أربع عشرة سنة، بديع الحسن والجمال، والظرف والدلال، كأنه البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بجبين أزهر، وعنق كالمرمر، كما قال فيه بعض واصفيه:

بدت لتحاكي حسنه وجماله ... بدورٌ وغزلان فقلت لها قفي

رويدك يا غزلان تتشبهي ... بهذا ويا أقمار لا تتكلفي

ومأحسن قول بعض الشعراء:

ومهفهف من شعره وجبينه ... تغدو الورى في ظلمة وضياء

لا تنكروا الخال الذي في خده ... كل الشقيق بنقطة سوداء

فلما نظرت تلك الجارية إلى نور الدين حال بينها وبين عقلها ووقع في خاطرها موقعًا عظيمًا، فالتفتت إلى الدلال وقالت له: «هل هذا الشاب التاجر الذي هو جالس بين التجار وعليه الفرجية الجوخ هل زاد في ثمني شيئا فقال لها الدلال: «يا سيدة الملاح إن هذا الشاب غريب مصري ووالده من أكابر التجار بمصر وله فضل على جميع تجارها وأكابرها وله مدة يسيرة في المدينة وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان». فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعت من أصبعها خاتم ياقوت مثمنًا وقالت للدلال: «أوصلني عند هذا الشاب المليح فإن اشتراني كان هذا الخاتم لك في نظير تعبك في هذا اليوم معنا». ففرح الدلال وتوجه بها إلى نور الدين.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه بدر التمام لأنه ظريف الجمال، رشيق القد والاعتدال، فقالت له: «لأي شيء رأيت التجار كلهم زادوا في ثمني وأنت ساكت ما تكلمت بشيء ولا زدت في ثمني دينارًا واحدًا كأنني ما أعجبتك يا سيدي؟» فقال لها: «يا سيدتي لو كنت في بلدي كنت اشتريتك بجميع ما تملكه يدي من المال».

فقالت له : « يا سيدي أنا ما قلت لك اشترني على غيرمرادك ولكن لو زدت في ثمني شيئًا لجبرت بخاطري ولو كنت لا تشتريني لأجل أن تقول التجار: لولا أن هذه الجارية مليحة ما زاد فيها هذا التاجر المصريّ، لأن أهل مصر لهم خبرة بالجواري». فعند ذلك استحى نورالدين من كلام الجارية الذي ذكرته واحمرّ وجهه وقال للدلال: «كم بلغ ثمن هذه الجارية؟» قال: «بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارًا غير الدلالة وأما قانون السلطان فإنه على البائع». فقال نور الدين للدلال: «خلّها عليّ بألف دينار دلالةً وثمنًا». فبادرت الجارية وتركت الدلال وقالت: «بعت نفسي لهذا الشاب المليح بألف دينار» فسكت نور الدين، فقال واحدٌ: «بعناه»، وقال آخر: «يستاهل».

وقال آخر : «ملعون من يزيد ولا يشتري». وقال آخر: «والله إنهما يصلحان لبعضهما». فلم يشعر نور الدين إلا والدلال أحضر القضاة والشهود وكتبوا عقد البيع والشراء في ورقة وناولها لنور الدين وقال له: «تسلم جاريتك الله يجعلها مباركة عليك فهي ما تصلح إلا لك ولا تصلح أنت إلا لها». وأنشد الدلال هذين البيتين:

أتتــه الســعـادة منقــادة إليــه تجــرّر أذيــالـهــا
فلم تك تصلــح إلا لـــه ولم يك يصلــح إلا لهــا

فعند ذلك استحى نورالدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الألف الدينار التى كان وضعها عند العطار صاحب أبيه وأخذ الجارية وأتى بها إلى البيت الذى أسكنه فيه الشيخ العطار، فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطًا خلقًا ونطعًا عتيقًا فقالت له: «يا سيدى هل أنا ما لى منزلة عندك ولا أستحق أن توصلنى إلى بيتك الأصلىّ الذى فيه مصالحك، ولأى شىء ما دخلت بى عند أبيك؟» فقال لها نور الدين: «والله يا سيدة الملاح إن هذا بيتى الذى أنا فيه ولكنه ملك لشيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أخلاه لى وأسكننى فيه وقد قلت لك إننى غريب وإننى من أولاد مدينة مصر».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فقالت له الجارية: «ياسيدى أقلّ البيوت يكفى إلى أن ترجع إلى بلدك، ولكن يا سيدى بالله عليك أن تقوم وتأتى لنا بشىء من اللحم المشوىّ والمدام والنقل والفاكهة». فقال لها نور الدين: «والله يا سيدة الملاح ما كان عندى من المال غير الألف الدينار الذى وزنته فى ثمنك ولا أملك غير تلك الدنانير شيئا من المال، وكان معى بعض دراهم صرفتها بالأمس». فقالت له: «أما لك فى هذه المدينة صديق تقترض منه خمسين درهمًا وتأتينى بها حتى أقول لك أى شىء تفعل بها؟» فقال لها: «ما لى صديق سوى العطار»، ثم ذهب من وقته وتوجه إلى العطار وقال له: «السلام عليك يا عمّ»، فردّ عليه السلام وقال له: «يا ولدى أى شىء اشتريت بالألف الدينار فى هذا اليوم؟» فقال له: «اشتريت بها جارية». فقال له: يا ولدى هل أنت مجنون حتى تشترى جارية واحدة بألف دينار، يا ليت شعرى ما جنس هذه الجارية؟» فقال له نور الدين: «يا عمّ إنها جارية غريبة وأعتقد أنها من أولاد الإفرنج».

فقال له الشيخ : « اعلم يا ولدى أن خيار أولاد الإفرنج عندنا فى هذه المدينة ثمنهم مائة دينار، ولكن والله يا ولدى قد عُملت عليك حيلة فى هذه الجارية فاتركها عندك فى هذه الليلة وأصبح وانزل بها السوق وبعها ولو كنت تخسر فيها مائتى دينار وقدّر أنك غرقت فى البحر أو طلع عليك اللصوص فى الطريق». فقال نور الدين: «كلامك صحيح ولكن يا عم أنت تعرف أنه ما كان معى غير الألف الذى اشتريت به الجارية، ولم يبق معى شىء أنفقه ولا درهم واحد، وإنما أريد من فضلك وإحسانك أن تقرضنى خمسين درهمًا أنفقها إلى غد فأبيع الجارية وأردّها لك من ثمنها». فقال الشيخ: «أعطيك يا ولدىّ على الرأس». ثم وزن له خمسين درهمًا وقال له: «يا ولدى أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مليحة،وربما تعلق بها قلبك فما يهون عليك أن تبيعها وأنت ما تملك شيئًا تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهمًا فتأتينى فأقرضك أول مرة وثانى مرة وثالث مرة إلى عشر مرات، فإذا أتيتنى بعد ذلك فلا أرد عليك السلام وتضيع محبتنا مع والدك».

ثم ناوله الشيخ خمسين درهمًا فأخذها نور الدين وأتى بها إلى الجارية، فقالت له: «يا

سيدى رح إلى السوق فى هذه الساعة وهات لنا بعشرين درهمًا حريرًا ملونًا خمسة ألوان وهات لنا بالثلاثين الأخرى لحمًا وخبزًا وفاكهة وشرابًا ومشمومًا». فعند ذلك ذهب نور الدين إلى السوق واشترى منه كل ما طلبته تلك الجارية وأتى به إليها، فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعامًا وأتقنته غاية الإتقان، ثم قدمت له الطعام فأكل وأكلت معه حتى اكتفيا، ثم قدمت المدام وشربت هى وإياه، ولم تزل تسقيه وتؤانسه إلى أن سكر ونام، فقامت الجارية من وقتها وساعتها وأفرجت من بقجتها جرابًا من أديم طائفىّ وفتحته وأخرجت منه مسمارين وقعدت عملت شغلها إلى أن فرغت فصار زنارًا مليحًا فلفته فى خرقة بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخدة، ثم قامت ونامت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، انتبه نور الدين من نومه فرآها أحضرت الماء فاغتسل هو وإياها وأدّى ما عليه من الصلاة لربه، ثم أتته بما تيسر من المأكول والمشروب فأكل وشرب، ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة، وأخرجت الزنار الذى صنعته بالليل وناولته إياه وقالت له: «ياسيدى خذ هذا الزنار». فقال لها: «من أين هذا الزنار»؟ قالت: «يا سيدى هو الحرير الذى اشتريته البارحة بالعشرين درهمًا، فقم واذهب به إلى سوق العجم وأعطه للدلال لينادى عليه ولا تبعه إلا بعشرين دينارًا سالمة ليدك». فقال لها نور الدين: «يا سيدة الملاح هل شىء بعشرين درهمًا يباع بعشرين دينارًا يعمل فى ليلة واحدة»؟ قالت له الجارية:«يا سيدى أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن اذهب به إلى السوق وأعطه للدلال فإذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته».

فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى به إلى سوق الأعاجم وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادى عليه وقعد نور الدين على مصطبة دكان، فغاب الدلال عنه ساعة ثم أتى إليه وقال له: «يا سيدى قم اقبض ثمن زنارك فقد بلغ عشرين دينارًا سالمة ليدك». فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب منه غاية العجب واهتز من الطرب وقام ليقبض العشرين دينارًا وهو ما بين مصدق ومكذب، فلما قبضها ذهب من ساعته واشترى بها كلها حريرًا من سائر الألوان لتعمله الجارية كله زنانير، ثم رجع إلى البيت وأعطاها الحرير وقال لها: «اعمليه كله زنانير وعلمينى أيضًا حتى أعمل معك فإنى طول عمرى ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة وإنها والله أحسن من التجارة بألف مرة».

فضحكت الجارية من كلامه وقالت له: «يا سيدى نور الدين امض إلى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهمًا، وفى غد ادفعها له من ثمن الزنار هى والخمسين درهمًا التى اقترضتها منه قبلها». فقام نور الدين وأتى إلى صاحبه العطاروقال له: «يا عم أقرضنى ثلاثين درهمًا وفى غد إن شاء الله تعالى أجىء لك بالثمانين درهمًا جملة واحدة». فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهمًا فأخذها نور الدين وأتى بها إلى السوق واشترى بها لحمًا وخبزًا ونقلاً وفاكهة ومشمومًا كما فعل بالأمس وأتى به الجارية، وكان اسم تلك الجارية مريم

الزنارية، فلما أخذت اللحم قامت من وقتها وساعتها وهيأت طعامًا فاخرًا ووضعته قدام سيدها نور الدين ثم بعد ذلك هيأت سفرة المدام وتقدمت تشرب هي وإياه وصارت تملأ وتسقيه إلى أن غلب عليه السكر ونام، فقامت من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار ولما فرغت أصلحته ولفته في ورقة ثم نامت إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم قام نور الدين فناولته الزنار وقالت له: «امض إلى السوق وبعه بعشرين دينارًا كما بعت نظيره بالأمس»، فعند ذلك أخذه ومضى به إلى السوق وباعه بعشرين دينارًا وأتى إلى العطار ودفع له الثمانين درهمًا وشكر فضله ودعا له، فقال له: «يا ولدي هل أنت بعت الجارية؟» فقال نور الدين: «أنت تدعو عليّ، كيف أبيع روحي من جسدي؟» ثم إنه حكى له الحكاية من المبتدأ إلى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له، ففرح الشيخ العطار بذلك فرحًا شديدًا ما عليه من مزيد وقال له: «والله يا ولدي إنك قد فرحتني وإن شاء الله أنت بخير دائمًا فإني أودّ لك الخير لمحبتي لوالدك وبقاء صحبتي معه».

ثم إن نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته إلى السوق واشترى اللحم والفاكهة والشراب وجميع ما يحتاج إليه على جرى العادة وأتى به إلى تلك الجارية، ولم يزل نور الدين هو والجارية في أكل وشرب وانشراح وودّ ومنادمة مدة سنة، وهي تعمل في كل ليلة زنارًا ويصبح يبيعه بعشرين دينارًا ينفق منها ما يحتاج إليه والباقي يعطيه لها تحفظه عندها إلى وقت الحاجة إليه، وبعد السنة قالت له الجارية: «يا سيدي نور الدين إذا بعت الزنار في غد فخذ لي من حقه حريرًا ملونًا ستة ألوان فإنه قد خطر ببالي أن أصنع لك منديلاً تجعله على كتفك ما فرحت بمثله أولاد التجار ولا أولاد الملوك».

فعند ذلك خرج نور الدين إلى السوق وباع زنارًا واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به إليها، فقعدت مريم الزنارية تصنع في المنديل جمعة كاملة، لأنها كلما فرغت من زنار في ليلة تعمل في المنديل شيئًا إلى أن خلصته، ثم ناولته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يمشي في السوق، فصار التجار والناس وأكابر البلد يقفون عنده صفوفًا ليتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعته.

فاتفق أن نور الدين كان نائمًا ذات ليلة من الليالي فانتبه من منامه فوجد جاريته تبكي بكاءً شديدًا وتنشد هذه الأبيات:

دنا فراق الحبيب واقتربا ... واحربًا للفراق واحربا
تفتتت مهجتي فوا أسفي ... على ليال مضت لنا طربا
لابدّ أن ينظر الحسود لنا ... بعين سوء ويبلغ الإربا
فما علينا أضرُّ من حسد ... ومن عيون الوشاة والرقبا

فقال لها نور الدين : « يا سيدتي مريم مالك تبكين»، فقالت له : «أبكي من ألم الفراق فقد أحس قلبي به». فقال لها: «يا سيدة الملاح ومن الذي يفرّق بيننا وأنا الآن أحبّ الخلق

إليك؟» فقالت له: «إن عندي أضعاف ما عندك ولكن حسن الظن بالليالي يوقع الناس في الأسف»، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ
وفي السماء نجومٌ لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ
وكم على الأرض من خضر ويابسة ... وليس يُرجم إلا ما له ثمرُ
أما ترى البحر يعلو فوقه جيفٌ ... وتستقرُّ بأقصى قاعه الدررُ

ثم قالت: « ياسيدي نور الدين إذا كنت تحرص على عدم الفراق فخذ حذرك من رجل إفرنجيّ أعور العين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر الوجه مكلثم اللحية لأنه هو الذي يكون سببًا لفراقنا، وقد رأيته حضر إلى هذه المدينة وأظنه أنه ما جاء إلا في طلبي». فقال لها نور الدين: «يا سيدة الملاح إن وقع بصري عليه قتلته ومثّلت به». فقالت له مريم: «يا سيدي لا تقتله ولا تكلمه ولاتبايعه ولا تشاره ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تتحدث معه بكلام، وادعُ الله أن يكفينا شرّه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فلما أصبح الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب به إلى السوق وجلس على مصطبة دكان هو وأولاد التجار، فأخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان، فبينما هو نائم وإذا بذلك الإفرنجيّ مر على ذلك السوق في تلك الساعة ومعه سبعة من الإفرنج فرأى نور الدين نائمًا على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه في يده، فقعد الإفرنجيّ عنده وأخذ طرف المنديل وقلّبه في يده واستمرّ يقلب فيه ساعة، فاستحس به نور الدين فأفاق من النوم فرأى الإفرنجيّ الذي وصفته الجارية بعينه جالسًا عند رأسه، فصرخ عليه نور الدين صرخة عظيمة أرعبته، فقال له الإفرنجيّ: «لأي شيء تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيئًا»؟ فقال له نور الدين: «والله يا معلوم لوكنت أخذت من شيئًا لكنت ذهبت بك إلى الوالي » فقال له الإفرنجي: « مسلم بحق دينك أن تخبرني من أين لك هذا المنديل؟» فقال: «هو شغل والدتي عملته لي بيدها». فقال له الإفرنجي: «أتبيعه لي وتأخذ ثمنه مني؟» فقال له نور الدين: «والله يا ملعون لا أبيعه لك ولا لغيرك، فإنها ما عملته إلا على اسمي ولم تعمل غيره». فقال: «بعه لي وأنا أعطيك ثمنه في هذه الساعة خمسمائة دينار ودع التي عملته تعمل لك غيره أحسن منه». فقال له نور الدين: «أنا ما أبيعه أبدًا لأنه لا نظير له في هذه المدينة». فقال له الإفرنجي: «يا سيدي ولا تبيعه بستمائة دينار من الذهب الخالص؟» ولم يزل يزيده مائة بعد مائة إلى أن أوصله إلى تسعمائة دينار. فقال نور الدين : «يفتح الله عليّ بغير بيعه ولا بألفي دينار ولا بأكثر أبدًا». ولم يزل ذلك الإفرنجي يرغّب نور الدين بالمال في ذلك المنديل إلى أن أوصله إلى ألف دينار من الذهب».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فقال له جماعة من التجار الحاضرين: «نحن بعناك هذا المنديل فادفع ثمنه». فقال نور الدين: «أنا ما أبيعه والله». فقال له تاجر من التجار: «اعلم يا ولدى أن هذا المنديل قيمته مائة دينار إن كثرت ووجد له راغب وأن هذا الإفرنجي دفع فيه ألف دينار جملة فربحك تسعمائة دينار فأى ربح تريد أكثر من هذا الربح؟ فالرأى عندى أنك تبيع هذا المنديل وتأخذ الألف الدينار وتقول للتى عملته لك تعمل لك غيره أو أحسن منه واربح أنت الألف دينار من هذا الإفرنجيّ الملعون عدوّ الدين». فاستحى نور الدين من التجار وباع الإفرنجيّ المنديل بألف دينار ودفع له الثمن فى الحضرة، وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضى إلى جاريته مريم ليبشرها بما كان من أمر الإفرنجيّ فقال الإفرنجيّ: «يا جماعة التجار احجزوا نور الدين فإنكم وإياه ضيوفى فى هذه المدينة فإن عندى بقية خمر رومىّ من معتق الخمر وخاروفًا سمينًا ونقلاً ومشمومًا، فأنتم تؤانسونا فى هذه الليلة بحضوركم ولا يتأخر أحد منكم أبدًا».

فقال أحد التجار: «يا سيدى نور الدين نشتهى أن تكون معنا فى مثل هذه الليلة لنتحدث وإياك فمن فضلك وإحسانك أن تكون معنا فنحن وإياك ضيوف عند هذا الإفرنجيّ لأنه رجل كريم». ثم إنهم حلفوا عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح إلى بيته. ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين وأخذوا نور الدين معهم وراحوا مع الإفرنجيّ إلى قاعة مطيبة رحيبة بإيوانين، فأجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة غريبة الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر ومكسور، وعاشق ومعشوق، وسائل ومسئول. ثم وضع الإفرنجيّ على تلك السفرة الأوانى النفيسة من الصينى والبلور وكلها مملوءة بنفائس النقل والفاكهة والمشموم، ثم قدم لهم الإفرنجى بتية ملآنة بالخمر الرومىّ المعتق وأمر بذبح خروف سمين، ثم إن الإفرنجى أوقد النار وصار يشوى من ذلك اللحم ويطعم التجار ويسقيهم من ذلك الخمر ويغمزهم على نور الدين أن ينزلوا عليه بالشراب.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم إن التجار لم يزالوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده، فلما رآه الإفرنجى مستغرقًا فى السكر قال: «آنستنا يا سيدى نور الدين فى هذه الليلة فمرحبًا بك ثم مرحبًا بك»، وصار الإفرنجيّ يؤانسه بالكلام، ثم تقرّب منه وجلس بجانبه وسارقه فى الحديث ساعة زمانية، ثم قال له: «يا سيدى نور الدين هل تبيعنى جاريتك التى اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بألف دينار من مدة سنة وأنا أعطيك فى ثمنها الآن خمسة آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف؟» فأبى نور الدين، ولم يزل ذلك الإفرنجى يطعمه ويسقيه ويرغبه فى المال حتى أوصل الجارية إلى عشرة آلاف دينار. فقال نور الدين وهو فى سكره قدام التجار: «بعتك إياها هات العشرة آلاف الدينار». ففرح الإفرنجى بذلك القول فرحًا شديدًا وأشهد عليه التجار، وباتوا فى أكل وشرب وانشراح إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : فلما أصبح الصباح صاح الإفرنجى على غلمانه وقال لهم: «ائتونى بالمال» فأحضروا له المال، فعدّ لنور الدين العشرة آلاف الدينار نقدًا وقال له: «يا سيدى نور الدين تسلّم هذا المال ثمن جاريتك التى بعتها لى الليلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين». فقال نور الدين: «يا ملعون أنا ما بعتك شيئًا وأنت تكذب علىّ وليس عندى جوارى». فقال له الإفرنجى: «قد بعتنى جاريتك وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع». فقال التجار كلهم: «نعم يا نور الدين أنت بعته جاريتك قدّامنا ونحن نشهد عليك أنك بعته إياها بعشرة آلاف دينار، قم اقبض الثمن وسلم إليه الجارية والله يعوّضك خيرًا منها، أتكره يا نور الدين أنك اشتريت جارية بألف دينار ولها سنة ونصف عندك وبعد ذلك ربحت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الأصلىّ، وفى كل يوم تعمل لك زنارًا تبيعه بعشرين دينارًا وبعد ذلك كله تنكر البيع وتستقلّ الربح، أىّ ربح أكثر من هذا الربح وأى مكسب أكثر من هذا المكسب؟ فإن كنت تحبها فها أنت قد شبعت من منادمتها فى هذه المدة فاقبض الثمن واشتر غيرها أحسن منها، أو نزوّجك بنتًا من بناتنا بمهر أقلّ من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجمل منها ويصير معك باقى المال رأس مال فى يدك». ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة إلى أن قبض العشرة آلاف الدينار، وأحضر الإفرنجى من وقته القضاء والشهود فكتبوا له حجة باشتراء الجارية التى اسمها مريم الزنارية من نور الدين.

هذا ما كان من أمر نور الدين، وأما ما كان من أمر مريم الزنارية فإنها قعدت تنتظر سيدها جميع ذلك اليوم إلى المغرب ومن المغرب إلى نصف الليل فلم يعد إليها سيدها، فجزعت وصارت تبكى بكاءً شديدًا فسمعها الشيخ العطار وهى تبكى فأرسل إليها زوجته فدخلت عليها فرأتها تبكى فقالت لها: «ياسيدتى ما لك تبكين؟» فقالت لها: «يا أمى إنى قعدت أنتظر مجىء سيدى نور الدين فما جاء إلى هذا الوقت، وأنا خائفة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من أجلى لأجل أن يبيعنى فدخلت عليه الحيلة وباعنى».

فقالت لها زوجة العطار : «يا سيدتى مريم لو أعطوا سيدك فيك ملء هذه القاعة ذهبًا لم يبعك لما أعرفه من محبته لك، ولكن يا سيدتى مريم ربما يكون جماعة أتوا من مدينة مصر من عند والديه فعمل لهم عزومة فى المحل الذى هم نازلون فيه واستحى أن يأتى بهم إلى هذا المحلّ لأنه لا يسعهم أو لأن مرتبتهم أقلّ من أن يجىء بهم إلى البيت أو أحب أن يخفى أمرك عنهم فبات عندهم إلى الصباح، ويأتى إن شاء الله تعالى إليك فى غد بخير، فلا تحمّلى نفسك هما ولا غما يا سيدتى فهذا هو سبب غيابه عنك فى هذه الليلة، وها أنا أبيت عندك فى هذه الليلة وأسليك إلى أن يأتى سيدك».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن زوجة العطار صارت تلاهى مريم وتسليها بالكلام إلى أن ذهب الليل كله، فلما أصبح نظرت مريم سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الإفرنجى وراءه وجماعة التجار حواليه، فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد

كأنها سفينة فى وسط بحر من شدّة الريح، فلما رأتها امرأة العطار قالت لها: «يا سيدتى مريم ما لى أراك قد تغير حالك واصفر وجهك وزاد به الذبول؟ فقالت لها الجارية: «يا سيدتى والله إن قلبى قد أحسّ بالفراق، وبُعد التلاق». ثم إن الجارية أنشدت هذه الأبيات:

لا تركنن إلى الفراق فإنه مرّ المذاق
الشمس عند غروبها تصفرّ من ألم الفراق
وكذاك عند شروقها تبيضّ من فرح التلاق

ثم إن مريم الزنارية بكت بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد وتيقنت الفراق وقالت لزوجة العطار: «يا سيدتى أما قلت لك إن سيدى نور الدين قد عُملت عليه حيلة من أجل بيعى، فما أشك أنه باعنى فى هذه الليلة لهذا الإفرنجىّ، وقد كنت حذّرته منه، ولكن لا ينفع حذرٌ من قدر فقد بانَ لك صدق قولى».

فبينما هى وزوجة العطار فى الكلام وإذا بسيدها نور الدين قد دخل عليها فى تلك الساعة، فنظرت إليه الجارية فرأته قد تغير لونه وارتعدت فرائصه ويلوح على وجهه أثر الحزن والندامة، فقالت له: «يا سيدى كأنك بعتنى؟» فبكى وأنشد هذه الأبيات:

هىَ المقادير فما يغنى الحذر إن كنتُ أخطأتُ فما أخطى القدر
إذا أراد الله أمرًا بامرئ وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصمّ أذنيه وأعمى عينه وسلّ منه عقله سلّ الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه ردّ إليه عقله ليعتبر
فلا تقل فى ما جرى كيف جرى فكل شىء بقضاء وقدر

ثم إن نور الدين اعتذر إلى الجارية وقال لها: «والله يا سيدتى مريم إنه قد جرى القلم بما حكم الله والناس قد عملوا علىّ حيلة من أجل بيعك فدخلت علىّ الحيلة فبعتك، وقد فرّطت فيك أعظم تفريط ولكن عسى من حكم بالفراق، أن يمنّ بالتلاق». فقالت له: «قد حذّرتك من هذا وكان فى وهمى وقد أنشدت هذه الأبيات:

وحقّ هواكم ما سلوتُ ودادكم ولو تلفت روحى هوى وتشوّقا
أنوح وأبكى كل يوم وليلة كما ناح قمرى على شجر النقا
تنغّص عيشى بعدكم يا أحبتى متى غبتم عنى فما لى ملتقى

فبينما هما على هذه الحالة وإذا بالإفرنجىّ قد طلع عليهما وتقدّم ليقبل أيادى السيدة مريم، فلطمته بكفها على خده وقالت له: «ابعد يا ملعون مازلت ورائى حتى خدعت سيدى ولكن يا ملعون إن شاء الله تعالى لا يكون إلا خيرًا». فضحك الإفرنجىّ من قولها وتعجب من فعلها واعتذر إليها وقال لها: «ياسيدتى مريم أى شىء ذنبى أنا وإنما سيدك نور الدين هو الذى باعك برضا نفسه وطيب خاطره؟ وإنه وحق المسيح لو كان يحبك ما فرط فيك ولولا أنه هجرك ما باعك». وقد قال بعض الشعراء:

من ملّنى فليمض عنى عامدًا إن عدتُ أذكره فلست براشد
ما ضاقت الدنيا على بأسرها حتى ترانى راغبًا فى زاهد

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك إفرنجة وهى مدينة واسعة الجهات كثيرة المصانع والغرائب والنبات تشبه مدينة القسطنطينية، وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة أبيها حديث غريب، وأمر عجيب، نسوقه على الترتيب حتى يطرب السامع ويطيب.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : وذلك أنها تربّت عند أبيها وأمها فى العزّ والدلال وتعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة، وتعلمت جميع الصنائع مثل الزركشة والخياطة والحياكة وصنعة الزنار والعقادة ورمى الذهب على الفضة والفضة على الذهب،وتعلمت جميع صنائع الرجال والنساء حتى صارت فريدة زمانها، ووحيدة عصرها وأوانها. وقد أعطاها الله عز وجلّ من الحسن والجمال والظرف والكمال، ما فاقت به على جميع أهل عصرها، فخطبها ملوك الجزائر من أبيها وكل من خطبها منه يأبى أن يزوجها له لأنه كان يحبها حبا عظيمًا ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة، ولم يكن عنده بنت غيرها وكان له من الأولاد الذكور كثير ولكنه كان مشغوفًا بحبها أكثر منهم.

فاتفق أنها مرضت فى بعض السنين مرضًا شديدًا حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها إذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير الفلانىّ فى الجزيرة الفلانية، وكان ذلك الدير معظمًا عندهم وينذرون له النذور ويتبركون به. فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت أن توفى بنذرها الذى نذرته على نفسها لذلك الدير، فأرسلها والدها ملك افرنجة إلى ذلك الدير فى مركب صغير وأرسل معها بعضًا من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لأجل خدمتها، فلما قربت من الدير خرج مركب من مراكب المسلمين المجاهدين فى سبيل الله أخذوا جميع ما فى ذلك المركب من البطارقة والبنات والأموال والتحف، فباعوا ما أخذوه فى مدينة القيروان فوقعت مريم فى يد رجل أعجمىّ تاجر فجعلها للخدمة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ثم إن ذلك الأعجمىّ مرض مرضًا شديدًا حتى أشرف على الهلاك وطال عليه المرض مدة شهور، فخدمته مريم وبالغت فى خدمته إلى أن عافاه الله من مرضه، فتذكّر ذلك الأعجمى منها الشفقة والحنّية عليه والقيام بخدمته فأراد أن يكافئها على ما فعلته معه من الجميل فقال لها: «تمنى علىّ يا مريم»، فقالت: «يا سيدى تمنيت عليك أن لا تبيعنى إلا لمن أريده وأحبه». فقال لها: «نعم لك علىّ ذلك والله يا مريم ما أبيعك إلا لمن تريدينه وقد جعلت بيعك بيدك». ففرحت فرحًا شديدًا.

وكان الأعجمىّ قد عرض عليها الإسلام فأسلمت وعلّمها العبادات، فتعلمت من ذلك الأعجمىّ فى تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها وحفظها القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والأحاديث النبوية، فلما دخل بها مدينة إسكندرية باعها لمن أرادته وجعل بيعها بيدها كما ذكرنا فأخذها علىّ نور الدين كما أخبرنا.

هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها. وأما ما كان من أمر أبيها ملك إفرنجة فإنه لما بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال الأبطال، فلم يقعوا لها على خبر بعد التفتيش فى جزائر المسلمين ورجعوا إلى أبيها بالويل والثبور وعظائم الأمور، فحزن عليها أبوها حزنًا شديدًا فأرسل وراءها ذلك الأعور اليمين الأعرج الشمال لأنه كان أعظم وزرائه وكان جبارا عنيدا ذا حيل وخداع، وأمره أن يفتش عليها فى جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بملء مركب ذهبًا، ففتش عليها ذلك الملعون فى جزائر البحار وسائر المدن فلم يقع لها على خبر إلى أن وصل إلى مدينة إسكندرية وسأل عنها فوقع على خبرها عند نور الدين علىّ المصرىّ فجرى له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها بالمنديل الذى لا يحسن صنعته غيرها، وكان قد اتفق مع التجار على خلاصها بالحيلة.

فلما صارت عنده مكثت فى بكاء وعويل، فقال لها: «يا سيدتى مريم خلّى عنك هذا الحزن والبكاء وقومى معى إلى مدينة أبيك ومحل مملكتك ومنزل عزّك ووطنك لتكونى بين خدمك وغلمانك واتركى هذا الذل وهذه الغربة ويكفى ما قد حصل لى من التعب والسفر من أجلك وصرف الأموال فإن لى فى السفر والتعب وصرف الأموال نحو سنة ونصف، وقد أمرنى والدك أن أشتريك ولو بملء مركب ذهبًا». ثم إن وزير ملك إفرنجة صار يقبل قدميها ويتخضع لها، ولم يزل يكرر تقبيل يديها وقدميها ويزداد غضبها عليه كلما فعل ذلك أدبًا معها. وقالت له: «يا ملعون الله تعالى لا يبلغك ما فى مرادك».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم قدم إليها الغلمان فى تلك الساعة بغلة بسرج مزركش وأركبوها عليها ورفعوا فوق رأسها سحابة من حرير بعواميد من ذهب وفضة وصار الإفرنج يمشون حولها حتى طلعوا بها من باب البحر وأنزلوها فى قارب صغير وصاروا يقذفون بها إلى أن أوصلوها إلى المركب الكبير وأنزلوها فيه. فعند ذلك نهض الوزير الأعور وقال لبحرية المركب: «ارفعوا الصارى». فرفعوه من وقتهم وساعتهم فردوا القلوع والأعلام ونشروا القطن والكتان وأعملوا المقاذيف وسافر بهم ذلك المركب، هذا كله ومريم تنظر إلى ناحية إسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكى فى سرّها بكاء شديدًا وانشدت هذه الأبيات:

أيا منزل الأحباب هل لك عودةٌ ... إلينا وما علمى بما الله صانع
فسارت بنا سفن الفراق وأسرعت ... وطرفى قريحٌ قد محته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدى ... به يشتفى سقمى وتمحى المواجع
ألا يا إلهى كن عليه خليفتى ... فعندك يومًا لا تضيع الودائعُ

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ولم تزل مريم كلما تذكرته تبكى وتنوح، فأقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل منهم كلامًا بل شغلها داعى الوجد، ثم إنها بكت واشتكت، وأنشدت هذه الأبيات:

ولى كبدٌ جمر الهوى قد أذابها ... وقلبى جريحٌ من فراقك خافقٌ

وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى ... فجفنى قريحٌ والدموع سوابقٌ

ولم تزل مريم على هذه الحالة لا يقرّ لها قرار ولا يطاوعها اصطبار مدة سفرها، هذا ما كان من أمرها هى والوزير الأعور الأعرج. وأما ما كان من أمر نور الدين علىّ المصرىّ ابن التاجر تاج الدين فإنه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقرّ له قرار ولا يطاوعه اصطبار، فتوجه إلى القاعة التى كان مقيمًا بها هو ومريم فرآها فى وجهه سوداء مظلمة، ورأى المدّة التى كانت تشتغل عليها الزنانير وثيابها التى كانت تلبسها، فبكى وفاضت من جفنه العبرات، وأنشد هذه الأبيات:

ترى هل يعود الشمل بعد تشتتى ... وبعد توالى حسرتى وتلفتى

فهيهات ما قد كان ليس براجع ... فيا هل ترى أحظى بوصل حبيبتى

ويا هل ترى قد يجمع الله شملنا ... وتذكر أحبابى عهود مودتى

ويحفظ ودى من بجهلى أضعته ... ويرعى عهودى ثم سالف صحبتى

فما أنا إلا ميتٌ بعد بُعدهم ... وهل ترتضى الأحباب يومًا منيتى

فيا أسفى إن كان يجديني أسفى ... لقد ذبت وجدًا من تزايد حسرتى

وضاع زمانٌ كان فيه تواصلى ... فيا هل ترى دهرى يجود بمنيتى

فيا قلب زد وجدًا ويا عين اهملى ... دموعًا ولا تبقى الدموع بمقلتى

ويا بعد أحبابى وفقد تصبرى ... وقد قلّ أنصارى وزادت بليتى

سألت إله العالمين يجود لى ... بعود حبيبى والوصال كعادتى

ثم إن نور الدين بكى بكاءً شديدًا ونشر إلى زوايا القاعة.

وأنشد هذين البيتين :

أرى آثارهم فأذوب شوقًا ... وأجرى فى مواطنهم دموعى

وأسأل من قضى بالبعد عنهم ... يمنّ علىّ يومًا بالرجوع

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن نور الدين نهض من وقته وساعته وقفل باب الدار وخرج يجرى إلى البحر وصار يتأمل فى موضع المركب الذى سافر بمريم، ثم بكى وصعد الزفرات، وأنشد هذه الأبيات:

سلامٌ عليكم ليس لى عنكم غنى ... وإنى على الحالين فى القرب والبعد

أحنّ إليكم كل وقت وساعة ... وأشتاقكم شوق العطاش إلى الورد

وعنكم شوقى ولبى وناظرى ... وتذكاركم عندى ألذ من الشهد
فيا أسفى لما استقلت ركابكم ... وحادت بكم تلك السفينة عن قصدى

ثم إن نور الدين ناح وبكى وأنّ وحنّ واشتكى ونادى: «يا مريم يا مريم هل كانت رؤيتى لك فى المنام، أم أضغاث أحلام، ولما زادت به الحسرات، أنشد هذه الأبيات:

فهل بعد هذا البعد عينى تراكمُ ... وأسمع من قرب الديار نداكمُ
وتجمعنا الدار التى أنست بنا ... وأعطى مُنى قلبى وأنتم مناكم
خذوا لعظامى أين سرتم محفةً ... وأين حللتم فادفنونى حذاكم
فلوكان لى قلبان عشت بواحد ... وأترك قلبًا مغرمًا فى هواكم
ولوقيل لى ماذا على الله تشتهى ... لقلت رضى الرحمن ثم رضاكم

فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكى ويقول: «يا مريم يا مريم». وإذا بشيخ قد طلع من مركب وأقبل عليه فرآه يبكى وينشد هذين البيتين:

يامريم الحسن عودى إن لى مقلاً ... سحائب المزن تجرى من سواكبها
واستخبرى عُذّلى دون الأنام ترى ... أجفان عينىّ غرقى فى كواكبها

فقال له الشيخ: يا ولدى كأنك تبكى على الجارية التى سافرت البارحة مع الإفرنجى».

فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خرّ مغشيا عليه ساعة زمانية، ثم أفاق وبكى بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد وأنشد هذه الأبيات:

فهل بعد هذا البعد يرجى وصالها ... ولذّة أنسى يعود كمالها
فإنّ بقلبى لوعةً وصبابةً ... ويزعجنى قيل الوشاة وقالها
أقيم نهارى باهتًا متحيرًا ... وفى الليل أرجو أن يزور خيالها
فوالله لا أسلو عن العشق ساعة ... وكيف ونفس فى الوشاة ملالها

فلما نظر ذلك الشيخ إلى نور الدين ورأى جماله، وقده واعتداله، وفصاحة لسانه، ولطف افتتانه، حزن قلبه عليه ورقّ لحاله، وكان ذلك الشيخ رئيس مركب مسافر إلى مدينة تلك الجارية وفيه مائة تاجر من التجار المسلمين المؤمنين، فقال له: «اصبر ولا يكون إلا خيرًا فإن شاء الله سبحانه وتعالى أوصلك إليها». فقال له نور الدين: «متى السفر؟» قال الرئيس: «قد بقى لنا ثلاثة أيام ونسافر فى خير وسلامة».فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحًا شديدًا وشكر فضله وإحسانه وبعد ذلك تذكر أيام الوصال واجتماع الشمل بجاريته عديمة المثال فبكى بكاء شديدًا وأنشد هذه الأبيات:

فهل يجمع الرحمن لى ولكم شملا ... وهل أبلغ المقصود يا سادتى أم لا
ويسمح صرف الدهر منكم بزورة ... وأطبق أجفانى على ذاتكم بخلا
ولو كان وصلكم يباع اشتريته ... بروحى ولكنى أرى وصلكم أغلى

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه إلى السوق وأخذ منه جميع ما يحتاج إليه من الزاد وأدوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس، فلما رآه قال له: «يا ولدى ما هذا الذى معك؟» قال: «زوادتى وما أحتاج إليه فى السفر». فضحك الرئيس من كلامه وقال له: «يا ولدى هل أنت رائح تتفرّج على عمود الصوارى، إن بينك وبين مقصدك شهرين إذا طابت الريح وصفت الأوقات». ثم إن ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيئًا من الدراهم وطلع إلى السوق واشترى له جميع ما يحتاج إليه فى السفر على قدر كفايته وملأ له بتية ماءً حلوًا، ثم أقام نور الدين فى المركب ثلاثة أيام إلى أن تجهزّ التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا فى المركب، ثم حلّ الرئيس قلوعه وساروا مدة واحد وخمسين يومًا.

وبعد ذلك خرج عليهم القرصان قطاع الطريق فنهبوا المركب وأسروا جميع من فيه وأتوا بهم إلى مدينة إفرنجة وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جملتهم، فأمر الملك بحبسهم، وفى وقت نزولهم من عند الملك إلى الحبس وصل الغراب الذى فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الأعور، فلما وصل الغراب إلى المدينة طلع الوزير إلى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمة، فدقوا البشائر وزينوا المدينة بأحسن زينة، وركب الملك فى جميع عسكره وأرباب دولته وتوجهوا إلى البحر ليقابلوها، فلما وصل المركب طلعت ابنته مريم فعانقها وسلّم عليها وسلمت عليه وقدّم لها جوادًا فركبته، فلما وصلت إلى القصر قابلتها أمها وعانقتها، وسلمت عليها وسألتها عن حالها وهل هى متزوّجة، فقالت لها مريم: «يا أمى بعد أن يباع الإنسان فى بلاد المسلمين من تاجر إلى تاجر ويصير محكومًا عليه كيف يمكنه ألا يتزوّج؟ إن التاجر الذى اشترانى هددّنى بالضرب واضطررت إلى الزواج من رجل مسلم». فلما سمعت أمها منها هذا الكلام صار الضياء فى وجهها ظلامًا.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن أمها أعادت على أبيها هذا الكلام فصعب ذلك عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته، فقالوا له: «أيها الملك إنها تنجست من المسلمين وما يطهرها إلا ضرب مائة رقبة من المسلمين».

فعند ذلك أمر الملك بإحضار الأسارى المسلمين الذين فى الحبس، فأحضروهم جميعًا بين يديه ومن جملتهم نور الدين، فأمر الملك بضرب رقابهم فأول من ضربوا رقبة رئيس المركب، ثم ضربوا رقاب التجار واحدًا بعد واحد حتى لم يبق إلا نور الدين، فشرطوا ذيله وعصبوا عينيه وقدموه إلى نطع الدم وأرادوا أن يضربوا رقبته، وإذا بامرأة عجوز أقبلت على الملك فى تلك الساعة وقالت له: «يا مولاى أنت كنت نذرت لكل كنيسة خمسة أسارى من المسلمين إن ردّ الله بنتك مريم لأجل أن يساعدوا فى خدمتها، والآن قد وصلت إليك بنتك السيدة مريم فأوف بنذرك الذى نذرته». فقال لها الملك: «يا أمى وحق المسيح، والدين الصحيح، لم يبق عندى من الأسارى غير هذا الأسير الذى يريدون قتله فخذيه معك يساعدك فى خدمة الكنيسة إلى أن يأتى إلينا أسارى من المسلمين فأرسل إليك أربعة

آخرين، ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب هؤلاء الأسارى لأعطيناك كل ما تريدينه».

فشكرت العجوزُ صنيع الملك ودعت له بدوام العزّ والبقاء والنعم. ثم تقدمت العجوز من وقتها وساعتها إلى نور الدين وأخرجته من نطع الدم ونظرت إليه فرأته شابا لطيفًا ظريفًا رقيق البشرة وجهه كأنه البدر إذا بدر فى ليلة أربعة عشر، فأخذته ومضت به إلى الكنيسة وقالت له: «يا ولدى اقلع ثيابك التى عليك فإنها لا تصلح إلا لخدمة السلطان».

ثم إن العجوز جاءت لنور الدين بجبة من صوف أسود ومئزر من صوف أسود وسير عريض فألبسته الجبة وعممته بالمئزر وشدّت وسطه بالسير وأمرته أن يخدم الكنيسة، فخدم الكنيسة مدة سبعة أيام.

فبينما هو كذلك إذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له: «يا مسلم خذ ثيابك الحرير والبسها وخذ هذه العشرة دراهم واخرج فى هذه الساعة تفرّج فى هذا اليوم ولا تقف هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك». فقال لها نور الدين: «يا أمى أى شىء الخبر؟» فقالت له العجوز: «اعلم يا ولدى أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة فى هذا الوقت لأجل أن تزورها وتتبرّك بها وتقرّب لها قربانًا حلوان السلامة بسبب خلاصها من بلاد المسلمين وتوفى لها النذور التى نذرتها إن نجاها المسيح ومعها أربعمائة بنت ما واحدة منهن إلا كاملة فى الحسن والجمال، ومن جملتهنّ بنت الوزير وبنات الأمراء وأرباب الدولة، وفى هذه الساعة يحضرن وربما يقع نظرهنّ عليك فى هذه الكنيسة فيقطعنك بالسيوف». عند ذلك أخذ نور الدين العشرة دراهم وخرج إلى السوق وصار يتفرج فى شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم رجع إلى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربعمائة بنت نهد أبكار، كأنهن الأقمار، ومن جملتهنّ بنت الوزير الأعور وبنات الأمراء وأرباب الدولة وهى تمشى بينهنّ كأنها القمر بين النجوم، فلما وقع نظر نور الدين عليها لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال: «يا مريم يا مريم». لما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادى يا مريم هجمن عليه وجردنَ بيض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله فى تلك الساعة، فالتفتت إليه مريم وتأملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات: «اتركنَ هذا الشاب فإنه مجنون بلا شك لأن علامة الجنون لائحة على وجهه».

فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحملق عينيه وأشاح بيديه وعوّج رجليه وأخرج الزبد من فمه وشدقيه، فقالت السيدة مريم: «أما قلت لكنّ إن هذا مجنون؟ أحضرنه عندى وابعدن عنه حتى أسمع ما يقول فإنى أعرف كلام العرب وأنظر حاله وهل داء جنونه يقبل المداواة أم لا ». فعند ذلك حملته البنات وجئن به بين يديها ثم بعدنَ عنه، فقالت له: «هل جئت إلى هنا من أجلى وخاطرت بنفسك وعملت نفسك مجنونًا، والله يا نور الدين إنك الجانى على نفسك فإنى حذّرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولى وتبعت هوى

نفسك، وأنا ما أخبرتك لا من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا فى المنام وإنما هو من باب المشاهدة والعيان لأنى رأيت الوزير الأعور فعرفت أنه ما دخل فى هذه البلدة إلا فى طلبى». فقال لها: «يا سيدتى مريم نعوذ بالله من زلة العاقل». ثم تزايد بنور الدين الحال، فأنشد هذا المقال:

هب لى جناية من زلّت به القدم ... قد يشمل العبد من ساداته كرمُ

حسب المسيء بذنب من جنايته ... فرط الندامة إذ لا ينفع الندم

فعلت ما يقتضى التأديب معترفًا ... فأين ما يقتضيه العفو والكرم

ولم يزل نور الدين هو والسيدة مريم الزنارية فى عتاب يطول شرحه، وكل منهما يحكى لصاحبه ما جرى له ويتناشدان الأشعار، ودموعهما تجرى على خدودهما شبه البحار، ويشكوان شدة الهوى، وأليم الوجد والجوى، إلى أن لم يبقَ لأحدهما قوة على الكلام.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن السيدة مريم قالت له: «يا نور الدين كم يومًا لك فى هذه المدينة؟» فقال: «سبعة أيام». فقالت له: «هل سرت فى هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارجها وأبوابها التى من ناحية البر والبحر؟» قال: «نعم». قالت: «هل تعرف طريق صندوق النذر الذى فى الكنيسة؟» قال: «نعم». قالت: «حيث كنت تعرف ذلك كله إذا كانت الليلة القابلة ومضى ثلث الليل الأول فاذهب فى تلك الساعة إلى صندوق النذر وخذ منه ما تريد وتشتهى وافتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة التى توصل إلى البحر فإنك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية، فمتى رآك الرئيس يمد يده إليك، فناوله يدك فإنه يطلعك فى السفينة فاقعد عنده حتى أجيء إليك، والحذر ثم الحذر من أن يلحقك النوم فى تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم».

ثم إن السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت من عنده فى تلك الساعة وأخذت سائر البنات وأتت إلى باب الكنيسة ودقته ففتحت العجوز الباب، فلما طلعت منه رأت الخدام والبطارقة وقوفًا فقدموا لها بغلة زرزورية فركبتها وأرخوا عليها ناموسية من الحرير وأخذ البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بها الجاووشية وبأيديهم السيوف مسلولة وساروا بها إلى أن وصلوا بها إلى قصر أبيها، هذا ما كان من أمر مريم الزنارية.

وأما ما كان من أمر نور الدين المصرى فإنه قضى شغله فى الكنيسة إلى أن مضى النهار، وأقبل الليل بدياجى الاعتكار. فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خفّ حمله وغلا ثمنه من الجواهر، ثم صبر إلى أن مضى ثلث الليل الأول وقام ومشى إلى باب الخوخة التى توصل إلى البحر وهو يطلب الستر من الله، ولم يزل يمشى إلى أن وصل إلى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وراح إلى البحر، فوجد السفينة راسية على شاطىء البحر بجوار الباب ووجد الرئيس شيخًا كبيرًا ظريفًا لحيته طويلة وهو واقف فى وسطها على رجليه والعشرة رجال واقفون قدامه. فناوله نور الدين يده كما أمرته مريم فأخذه من يده وجذبه من

البرّ فصار فى وسط السفينة. فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم: «اقلعوا مرساة السفينة من البرّ وعوموا بنا قبل أن يطلع النهار». فقال واحد من العشرة البحرية: «يا سيدى الرئيس كيف نعوم والملك أخبرنا أنه فى غد يركب السفينة فى هذا البحر ليطلع على ما فيه لأنه خائف على ابنته مريم من سراق المسلمين؟» فصاح عليهم الرئيس وقال: «ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم أنكم تخالفونى وتردون كلامى؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن ذلك الشيخ الرئيس سلّ سيفه من غمده، وضرب به المتكلم على عنقه فخرج السيف يلمع من رقبته. فقال له واحد: «وأى شىء عمل صاحبنا من الذنوب حتى تضرب رقبته؟» فمد يده إلى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم، ولم يزل ذلك الرئيس يضرب أعناق البحرية واحدًا بعد واحد حتى قتل العشرة ورماهم على شاطئ البحر ثم التفت إلى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته وقال له: «انزل اقلع الوتد». فخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب فى البرّ وقلع الوتد، ثم طلع فى السفينة أسرع من البرق الخاطف. وصار الرئيس يقول له: «افعل كذا وكذا ودورّ كذا وكذا وانظر فى النجوم». وهو يفعل جميع ما يأمره به وقلبه مرعوب.

ثم رفع شراع المركب وسار بهما فى البحر العجاج المتلاطم بالأمواج وقد طابت لهما الريح، كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق فى بحر الأفكار، ولم يزل مستغرقًا فى الفكر ولم يعلم بما هو مخبوء له فى الغيب وكلما نظر إلى الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم بالجهة التى يتوجه إليها الرئيس بل صار مشغولاً فى فكر ووسواس إلى أن تضحى النهار. فعند ذلك نظر نور الدين إلى الرئيس فرآه قد أخذ لحيته الطويلة بيده وجذبها فطلعت من موضعها فى يده وتأملها نور الدين فوجدها لحية كانت ملصقة زورًا. ثم تأمل نور الدين فى ذات الرئيس ودقق نظره فيها فرآها السيدة مريم. وكانت قد تحيّلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلحيته وأخذت جلده وركبته على وجهها، فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طار عقله من الفرح. واتسع صدره وانشرح. وقال لها: «مرحبًا يا سيدتى وغاية مطلبى». ثم إن نور الدين هزّه الشوق والطرب. وأيقن ببلوغ الأمل والأرب. فردد أطيب النغمات، وأنشد هذه الأبيات:

ذكرهم عندى يزيل السقما ... عن فؤادى ويزيح الألما
زاد شوقى وهيامى عندما ... أصبح القلب كئيبًا مغرما
وبه فى الناس سار المثلْ

أنا لا أقبل فيهم لومةً ... لا ولا أقصد منهم سلوةً
لكن الحب رمانى حسرةً ... أشعلت منه بقلبى جمرةً
حرها فى كبدى يشتعلْ

من عجيب قد أباحوا سقمى ... مع سهادى طول ليل مظلمِ

كيف راموا بالتجافى عدمى   استحلوا فى الهوى سفك دمى
وهمُ فى جورهم قد عدلوا

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه السيدة مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له: «مَن هذه حالته ينبغى أن يسلك مسالك الرجال، ولا يفعل فعل الأنذال والأرذال». وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب فى البحر المالح وتعرف الأهواء كلها واختلافها وتعرف جميع طرق البحر. فقال لها نور الدين: «والله يا سيدتى لو أطلت علىّ هذا الأمر لمتّ من شدة الخوف والفزع خصوصًا من نار الوجد والاشتياق، وأليم عذاب الفراق». فضحكت من كلامه وقامت من وقتها وساعتهاوأخرجت شيئًا من المأكول والمشروب فأكلا وشربا وطربا. وبعد ذلك أخرجت من اليواقيت والجواهر وأصناف المعادن والذخائر الغالية وأنواع الذهب والفضة ما خفّ حمله وغلا ثمنه من الذى جاءت به وأخرجته من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح. كل ذلك والريح معتدل والمركب سائر.

ولم يزالا سائرين حتى أشرفا على مدينة إسكندرية وشاهدا أعلامها القديمة والجديدة وشاهدا عمود الصوارى. فلما وصلا إلى الميناء طلع نورالدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها فى حجر من أحجار القصارين وأخذ معه شيئًا من الذخائر التى جاءت بها الجارية معها وقال للسيدة مريم: «اقعدى يا سيدتى فى السفينة حتى أطلع بك إلى إسكندرية مثل ما أحبّ وأشتهى». فقالت له: «ولكن ينبغى أن يكون ذلك بسرعة لأن التراخى فى الأمور يورث الندامة». فقال لها: «ما عندى تراخ». فقعدت مريم فى السفينة وتوجه نور الدين إلى بيت العطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقابًا وحبرة وخفا وأزارًا كعادة نساء إسكندرية، ولم يعلم بما لم يكن فى حساب من تصرفات الدهر أبى العجب العجاب. هذا ما كان من أمر نورالدين ومريم الزنارية.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : وأما ما كان من أمر أبيها ملك إفرنجة فإنه لماأصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها فسأل عنها من جواريها وخدّامها فقالوا له: «يا مولانا إنها خرجت بالليل وراحت إلى الكنيسة وبعد ذلك لم نعرف لها خبرًا». فبينما الملك يتحدث مع الجوارى والخدم فى تلك الساعة وإذا بصرختين عظيمتين تحت القصر دوى لهما المكان. فقال الملك: «ما الخبر؟» فقالوا له: «أيها الملك إنه وجد عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا باب الخوخة الذى فى الكنيسة من جهة البحر مفتوحًا والأسير الذى كان فى الكنيسة يخدمها قد فقد». فقال الملك: «إن كانت سفينتى فقدت فبنتى فيها بلا ريب».

ثم إن الملك دعا من وقته وساعته برئيس الميناء وقال له: «وحقّ المسيح والدين الصحيح إن لم تلحق سفينتى فى هذه الساعة بعسكر وتأتينى بها وبمن فيها لأقتلنك أشنع قتلة وأمثّل بك». ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب العجوز من الكنيسة وقال لها:

«ما كنت تسمعين من الأسير الذى كان عندك فى شأن بلاده ومن أى البلاد هو؟» فقالت له: «كان يقول أنا من مدينة إسكندرية». فلما سمع الرئيس كلام العجوز رجع من وقته وساعته إلى المينا وصاح على البحرية وقال لهم: «تجهزوا وحلّوا القلوع». ففعلوا ما أمرهم به وتجهزوا وسافروا.

ولم يزالوا مسافرين ليلاً ونهارا حتى أشرفوا على مدينة إسكندرية فى الساعة التى طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم، وكان من جملة الإفرنج الوزير الأعور الأعرج الذى كان اشتراها من نور الدين فرأوا السفينة مربوطة فعرفوها فربطوا مراكبهم بعيدًا عنها وأتوا إليها فى مركب صغير من مراكبهم يعوم على ذراعين من الماء وفى ذلك المركب مائة مقاتل ومن جملتهم الوزير الأعور الأعرج لأنه كان جبّارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا ولصا محتالاً لا يقدر أحد على احتياله يشبه أبا محمد البطال. ولم يزالوا يقذفون ويسيرون إلى أن وصلوا إلى تلك السفينة فهجموا عليها وحملوا حملة واحدة. فلم يجدوا فيها أحدا إلا السيدة مريم فأخذوها هى والسفينة التى هى فيها بعد أن طلعوا على الشاطئ وأقاموا زمانًا طويلاً. ثم عادوا إلى مراكبهم وقد فازوا ببغيتهم من غير قتال ولا شهر سلاح ورجعوا قاصدين بلاد الروم وسافروا وقد طابت لهم الريح.

ولم يزالوا مسافرين على حماية إلى أن وصلوا إلى مدينة إفرنجة وطلعوا بالسيدة مريم إلى أبيها وهو فى تخت مملكته. فلما نظر إليها أبوها قال لها «ويلك يا خائنة كيف تركت دين الآباء والأجداد، وحصن المسيح الذى عليه الاعتماد، واتبعت دين السوّاحين يعنى دين الإسلام، الذى قام بالسيف على رغم الأصنام؟» فقالت له مريم : «أنا ما لى ذنب لأنى خرجت فى الليل إلى الكنيسة لأزور السيدة مريم وأتبرك بها، فى غفلة وإذا بسرّاق المسلمين قد هجموا علىّ وسدوا فمى وشدوا وثاقى وحطونى فى السفينة وسافروا بى إلى بلادهم، فخادعتهم وتكلمت معهم فى دينهم إلى أن فكوا وثاقى، وما صدّقت أن رجالك أدركونى وخلصونى، وأنا وحق المسيح، والدين الصحيح، وحقّ الصليب ومن صُلب عليه قد فرحت بفكاكى من أيديهم غاية الفرح، واتسع صدرى وانشرح، حيث خلصت من أسر المسلمين». فقال لها أبوها: «كذبت يا فاجرة يا عاهرة وحقّ ما فى محكم الإنجيل، ومن منزل التحريم والتحليل، لابدّ لى من أن أقتلك أقبح قتلة، وأمثل بك أشنع مثلة، أما كفاك الذى فعلته فى الأول ودخل علينا محالك حتى رجعت إلينا ببهتانك؟» ثم إن الملك أمر بقتلها وصلبها على باب القصر.

فدخل عليه الوزير الأعور فى تلك الساعة وكان مغرمًا بحبها قديمًا وقال له: «أيها الملك لا تقتلها وزوّجنى بها وأناأحرص عليها غاية الحرص وما أدخل عليها حتى أبنى لها قصرًا من الحجر الجلمود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود على سطحه، وإذا فرغت من بنيانه ذبحت على بابه ثلاثين من المسلمين وأجعلهم قربانًا للمسيح عنى وعنها». فأنعم عليه الملك بزواجها وأذن للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يزوجوها له، فزوّجوها للوزير الأعور وأذن أن يشرعوا لها فى بنيان قصر مشيد يليق بها. فشرعت العمال فى العمل. هذا ما كان من أمر الملكة وأبيها والوزير الأعور.

وأما ما كان من أمر نور الدين والشيخ العطار فإن نور الدين لما توجه إلى العطار صاحب أبيه استعار من زوجته إزارًا ونقابًا وخفا وثيابًا كثياب نساء إسكندرية ورجع بها إلى البحر وقصد السفينة التى فيها السيدة مريم فوجد الجوّ قفرًا والمزار بعيدًا . فصار قلبه حزينًا فبكى بدمع متواتر، وأنشد قول الشاعر:

سرى طيف سعدى فاستفزنى ... سُحيرًا وصحبى فى الفلاة رقودُ
فلما انتبهنا للخيال الذى سرى ... إذا الجو قفرٌ والمزار بعيدُ

فمشى نور الدين على شاطئ البحر يلتفت يمينًا وشمالاً فرأى ناسًا مجتمعين على الشاطئ وهم يقولون: «يا مسلمون ما بقى لمدينة إسكندرية حرمة حتى صار الإفرنج يدخلونهاويخطفون من فيها ويعودون إلى بلادهم على هنية ولا يخرج وراءهم أحد من المسلمين ولا من العساكر الغازين؟» فقال لهم نور الدين: «ما الخبر؟» فقالوا له: «يا ولدى إن مركبًا من مراكب الإفرنج فيه عساكر هجموا فى تلك الساعة على تلك الميناء وأخذوا سفينة كانت راسية هنا بمن فيها وراحوا على حماية إلى بلادهم». فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا عليه، فلما أفاق سألوه عن قضيته، فأخبرهم بخبره من الأول إلى الآخر. فلما فهموا خبره صار كل منهم يشتمه ويسبّه ويقول له: «لأى شىء ما تخرجها إلا بإزار ونقاب؟» وصار كل واحد من الناس يقول له كلامًا مؤلمًا. ومنهم من يقول: «خلّوه فى حاله يكفيه ما جرى له». وصار كل واحد يوجعه بالكلام ويرميه بسهم الملام حتى وقع على الأرض مغشيا عليه.

فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة وإذا بالشيخ العطار مقبلاً فرأى الناس مجتمعين فتوجه إليهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدًا بينهم وهو مغشى عليه فقعد عند رأسه ونبهه. فلما أفاق قال له: «يا ولدى ما هذا الحال الذى أنت فيها؟» فقال له: «يا عمّ إن الجارية التى كانت راحت منى قد جئت بها من مدينة أبيها فى مركب وقاسيت ما قاسيت فى المجىء بها، فلما وصلت بها إلى هذه المدينة ربطت السفينة فى البرّ وتركت الجارية فيها وذهبت إلى منزلك وأخذت من زوجتك مصالح للجارية لأطلعها بها إلى المدينة، فجاء الإفرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها وراحوا على حماية».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما سمع الشيخ العطار من نور الدين هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلامًا وتأسف على نور الدين تأسفًا عظيمًا وقال له: «يا ولدى لأى شىء ما أخرجتها من السفينة إلى المدينة من غير إزار؟ ولكن فى هذا الوقت ما ينفع الكلام قم يا ولدى، واطلع معى إلى المدينة لعلّ الله يرزقك بجارية أحسن منها فتتسلى بها عنها، والحمد لله الذى ما خسرك فيها شيئًا، واعلم يا ولدى أن الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال».

فقال له نور الدين: «والله يا عمّ إنى ما أقدر أن أسلوها أبدًا ولا أترك طلبها ولو سُقيت من أجلها الردى». فقال له العطار: «يا ولدى وأى شىء فى ضميرك تريد أن تفعله؟» فقال له: «نويت أن أرجع إلى بلاد الروم وأدخل مدينة إفرنجة وأخاطر بنفسى فإما عليها وإما بها».

فقال له: «يا ولدى إن فى الأمثال السائرة: ما كل مرة تسلم الجرّة، وإن كانوا ما فعلوا بك فى المرة الأولى شيئًا ربما يقتلونك فى هذه المرة ولاسيما وقد عرفوك حق المعرفة». فقال نورالدين: « يا عمى دعنى أسافر وأقتل فى هواها سريعًا ولا أقتل بتركها صبرًا وتحيرًا». وكان بمصادفة القدر مركب راس فى المينا مجهز للسفر وركابّه قد قضت جميع أشغالها وفى تلك الساعة قلعوا أوتاده فنزل فيه نور الدين وسافر ذلك المركب مدة أيام وقد طاب لركابه الوقت والريح. فبينما هم سائرون وإذا بمركب من مراكب الإفرنج دائر فى البحر العجاج وهم لا يرون مركبًا إلا ويأسرونه خوفًا على بنت الملك من سراق المسلمين وإذا أخذوا مركبًا يوصلون جميع من فيه إلى ملك إفرنجة يذبحهم ويوفى بهم نذره الذى كان نذره من أجل ابنته مريم.فرأوا ذلك المركب الذى فيه نور الدين فأسروه وأخذوا كل من كان فيه وأتوا بهم إلى الملك أبى مريم. فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من المسلمين فأمر بذبحهم فى الوقت والساعة ومن جملتهم نور الدين، فذبحوهم كلهم ولم يبقَ منهم غير نور الدين. وكان الجلاد قد أخّره شفقة عليه لصغر سنه ورشاقة قده. فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة فقال له: «أما أنت نور الدين الذى كنت عندنا فى المرة الأولى قبل هذه المرة؟» فقال له: «ما كنت عندكم وليس اسمى نور الدين وإنما اسمى إبراهيم» فقال له الملك: «تكذب بل أنت نور الدين الذى وهبتك للعجوز القيّمة على الكنيسة لتساعدها فى خدمة الكنيسة». فقال له نور الدين: «يا مولاى أنا اسمى إبراهيم». فقال له الملك: «إن العجوز قيّمة الكنيسة إذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو غيره».

فبينما هم فى الكلام وإذا بالوزير الأعور الذى تزوّج بنت الملك قد دخل فى تلك الساعة وقبّل الأرض بين أيادى الملك وقال له: «أيها الملك اعلم أن القصر قد فرغ بنيانه وأنت تعرف أنى نذرت للمسيح إذا فرغت من بنائه أن أذبح على بابه ثلاثين من المسلمين، وقد أتيتك لآخذ من عندك ثلاثين مسلمًا فأذبحهم وأوفى بهم نذر المَسيح، ويكونون فى ذمتى على سبيل القرض ومتى جاءنى أسارى أعطيك بدلهم». فقال الملك: «وحق المسيح، والدين الصحيح، ما بقى عندى غير هذا الأسير». وأشار إلى نور الدين وقال له: «خذه واذبحه فى هذه الساعة حتى أرسل إليك البقية إذا جاءنى أسارى من المسلمين». فعند ذلك قام الوزير الأعور وأخذ نور الدين ومضى به إلى القصر ليذبحه على عتبة بابه. فقال له الدهانون: «يا مولانا قد بقى علينا من الدهن شغل يومين فاصبر علينا وأخّر ذبح هذا الأسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن يأتى إليك بقية الثلاثين فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفى بنذرك فى يوم واحد».

فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين. فأخذوه مقيدًا إلى الاصطبل جائعًا عطشانًا يتحسر على نفسه وقد نظر الموت بعينيه، وكان بالأمر المقدّر والقضاء المبرم للملك حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والآخر اسمه لاحق. وكانت بحسرة تحصيل واحد منهما الملوك الأكاسرة، وكان أحدهما أشهب نقيا والآخر أدهم كالليل الحالك. وكان ملوك الجزائر يقولون: «كل من سرق لنا حصانًا من هذين الحصانين نعطيه جميع ما يطلبه من الذهب الأحمر والدرّ والجواهر». فلم يقدر أحد على سرقة واحد من هذين الحصانين. فحصل

لأحدهما مرض صفر وبياض فى عينيه، فأحضر الملك جميع البياطرة لدوائه فعجزوا عنه كلهم، فدخل على الملك الوزير الأعور الذى تزوّج بنته فرآه مهمومًا من قبل ذلك الحصان، فأراد أن يزيل همه فقال: «أيها الملك أعطنى هذا الحصان وأنا أداويه». فأعطاه له فنقله فى الاسطبل الذى فيه نور الدين محبوس.

فلما فارق هذا الحصان أخاه صاح صيحة عظيمة وصهل حتى أزعج الناس من الصياح، فعرف الوزير أنه ما حصل منه هذا الصياح إلا لفراقه أخيه فراح وأعلم الملك بذلك فلما تحقق الملك كلامه قال: «إذا كان ذلك حيوانًا ولم يصبر على فراق أخيه فكيف بذوى العقول». ثم أمر الغلمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم: «قولوا للوزير إن الملك يقول لك إن الحصانين إنعام منه عليك لأجل خاطر ابنته مريم». فبينما نور الدين نائم فى الإسطبل وهو مقيد مكبّل إذ نظر الحصانين فوجد على عينى أحدهما غشاوة، وكان عنده بعض معرفة بأحوال الخيل وممارسة دوائها فقال فى نفسه: «هذا والله وقت فرصتى فأقوم وأكذب على الوزير وأقول له: «أنا أداوى هذا الحصان»، وأعمل له شيئًا يتلف عينيه فيقتلنى وأستريح من هذه الحياة الذميمة». ثم إن نور الدين انتظر الوزير إلى أن دخل الإصطبل ينظرالحصانين.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فلما دخل قال له نور الدين: «يا مولاى أى شىء يكون لى عليك إذا أنا داويت لك هذا الحصان وأعمل له شيئًا يطيب عينيه؟» فقال له الوزير وحياة رأسى إن داويته أعتقك من الذبح وأخليك تتمنى علىّ». فقال له: «يا مولاى مر بفكّ يدى». فأمر الوزير بإطلاقه. فنهض نور الدين وأخذ زجاجًا بكرًا وسحقه وأخذ جيرًا بلا طفء وخلطه بماء البصل ثم وضع الجميع فى عينى الحصان وربطهما وقال فى نفسه: «الآن تغور عيناه فيقتلونى وأستريح من هذه العيشة الذميمة».

ثم إن نور الدين نام فى تلك الليلة بقلب خال من وسواس الهمّ وتضرّع إلى الله تعالى وقال: «يا ربّ فى علمك ما يغنى من السؤال». فلما أصبح الصباح، وأشرقت الشمس على الروابى والبطاح. جاء الوزير إلى الاصطبل وفكّ الرباط عن عينى الحصان ونظر إليهما فرآهما أحسن عيون ملاح، بقدرة الملك الفتاح. فقال له الوزير: «يا مسلم ما رأيت فى الدنيا مثلك فى حسن معرفتك، وحق المسيح، والدين الصحيح، إنك أعجبتنى غاية الإعجاب فإنه عجز عن دواء هذا الحصان كل بيطار فى بلادنا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

ثم تقدم إلىَ نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه حلة سنية وجعله ناظرًا على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه فى طبقة على الاصطبل. وكان فى القصر الجديد الذى بناه للسيدة مريم شباك مطلّ على بيت الوزير وعلى الطبقة التى فيها نور الدين، فقعد نور

الدين مدة أيام يأكل ويشرب ويتلذذ ويطرب ويأمر وينهى على خَدَمة الخيل. وكل من غاب منهم ولم يعلّق على الخيل المربوط على الطاولة التى فيها خدمته يرميه ويضربه ضربًا شديدًا ويضع فى رجليه القيد الحديد. وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح، فاتسع صدره وانشرح، ولم يدر ما يؤول إليه أمره، وكان نور الدين كل يوم ينزل إلى الحصانين ويمسحهما بيده لما يعلم من معزّتهما عند الوزير ومحبته لهما. وكان للوزير الأعور بنت بكر فى غاية الجمال فاتفق أنها كانت جالسة ذات يوم من الأيام فى الشباك المطلّ على بيت الوزير وعلى المكان الذى فيه نور الدين إذ سمعت نور الدين يغنى ويسلى نفسه على المشقّات بإنشاد هذه الأبيات:

يا عاذلاً أصبح فى ذاته ... منعّمًا يزهو بلذّاته
لو عضّك الدهر بآفاته ... لقلت من ذوق مراراته:
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
لكن سلمت اليوم من غدره ... ومن تناهيه ومن جوره
فلا تلم من حار فى أمره ... وقال من فرط صباباته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
قد كنت من قبلك بين العباد ... كمثل من بات خلى الفؤاد
لم أعرف العشق وطعم السهاد ... حتى دعانى لمقاماته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
لم يدر ما العشق وما ذلّه ... إلا الذى أسقمه طولاته
وضاع منه فى الهوى عقله ... وشُربه من مُرّ جرعاته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
كم عين صب فى الدجى أسهرا ... وأحرم الجفن لذيذ الكرى
وكم أسال دمعه أنهرا ... تجرى على الخدّ بلوعاته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
كم من الورى من مغرم مستهان ... سهران من وجد بعيد المنام
ألبسه ثوب الضنى والسقام ... من قد نفى عنه منامه
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
مسكين من فى الناس مثلى عشقًا ... وبات فى جنح الليالى أرقا
إن عام فى بحر التجافى غرقا ... يشكو من العشق وزفراته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته
يا ربّ دبر من به قد بُلى ... واكفله نعم أنت من كافل
وارزقه منك بالثبات الجلى ... والطف به فى كل آفاته
آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبى بحراراته

فلما استتم نور الدين أقصى كلامه، وفرغ من شعره ونظامه، قالت فى نفسها بنت الوزير: «وحق المسيح، والدين الصحيح، إن هذا الشاب المسلم شاب مليح، لكنه ولا شك عاشق

مفارق». وكانت مريم الزنارية زوجة الوزير قد نقلت إلى القصر أمس ذلك اليوم. وعلمت منها بنت الوزير ضيق الصدر فعزمت أن تذهب إليها وتحدثها بخبر هذا الغلام، وما سمعت منه من النظام. فما استتمت الفكر فى هذا الكلام حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها لأجل أن تؤنسها بالحديث، فذهبت إليها فرأت صدرها ضيقًا ودموعها جارية على خدّها وهى تبكى بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد. تُكفكف العبرات، وتنشد هذه الأبيات:

مضى عمرى وعمر الوجد باقِ ... وصدرى ضاق من فرط اشتياقى
وقلبى ذاب من ألم الفراقِ ... يؤمل عود أيام التلاقِ
لينظم الوصال على انتساق

فقالت بنت الوزير للسيدة مريم: «ما لك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتّتة الفكر؟» فلما سمعت مريم كلامها تذكرت ما فات وأنشدت هذين البيتين:

سأصبرُ توطينًا على هجر صاحبى ... وأرسل الدمع نثرًا على نثرِ
عسى فرج يأتى به الله إنه ... طوى كل يسر تحت جناحه العسرِ

فقالت لها بنت الوزير: «أيتها الملكة لا تضيقى صدرًا وقومى معى فى هذه الساعة إلى شباك القصر فإن عندنا فى الاصطبل شابا مليحًا رشيق القوام، حلو الكلام، كأنه عاشق مفارق». فقالت لها السيدة مريم: «بأى علامة عرفت إنه عاشق مفارق؟» فقالت لها بنت الوزير: «أيتها الملكة عرفت ذلك بإنشاده القصائد والأشعار، آناء الليل وأطراف النهار». فقالت السيدة مريم فى نفسها: «إن كان قول بنت الوزير بيقين، فهذه صفات الكئيب المسكين علىّ نور الدين، فيا هل ترى هو ذلك الشاب الذى ذكرته بنت الوزير؟» ثم إن السيدة مريم قامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير إلى الشباك ونظرت منه فرأته سيدها نور الدين ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة. ولكنه سقيم من كثرة نار الوجد وألم الفراق، وقد زاد به النحول، فصار ينشد ويقول:

القلب مملوكٌ وعينى جارية ... ليس لها سحابةٌ مجارية
بين بكائى وسهادى والجوى ... والنوح والحزن على أحبابية
واحرقتى واحسرتى والوعتى ... تكاملت أعدادها ثمانية
وتابعتها خمسةٌ فى خمسة ... ألا قفوا واستمعوا مقالية
ذكرٌ وفكرٌ وزفيرٌ وضنى ... وفرط شوقٍ واشتغال بالية
فى محنة وغربةٍ وصبوةٍ ... ولهفةٍ وفرحة ترانية
قلّ اصطبارىّ واحتمالى للجوى ... لما نأى صبرى عنا محالية
قد زاد فى قلبى تباريح الجوى ... يا سائلاً عن نار قلبى ما هية
ما بال دمعى موقدًا فى مهجتى ... فنار قلبى لا تزال حامية
أصبحت فى طوفان دمعى غارقًا ... ومن لظى هذا الهوى فى هاوية

فلما رأت السيدة مريم سيدها نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نثره تحققت أنه هو ولكنها كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها: «وحقّ المسيح، والدين الصحيح، ما كنت

أحسب أن عندك خبرًا بضيق صدرى». ثم نهضت من وقتها وساعتها وقامت من الشباك ورجعت إلى مكانها ومضت بنت الوزير إلى شغلها. ثم صبرت السيدة مريم ساعة زمانية ورجعت إلى الشباك وجلست فيه وصارت تنظر إلى سيدها نور الدين وتتأمل فى لطفه ورقة معانيه، فرأته كالبدر إذا بدَر، فى ليلة أربعة عشر، لكنه دائم الحسرات جارى العبرات، لأنه تذكر ما فات. فأنشد هذه الأبيات:

أملت وصل أحبتى ما نلته ... أبدًا ومرُّ العيش قد واصلته
دمعى يحاكى البحر فى جريانه ... وإذا رأيتُ عواذلى كفكفته
آه على داع دعا بفراقنا ... لو نلتُ منه لسانهُ لقطعته
لا عتب للأيام فى أفعالها ... مزجتْ بصرف المرّ ما جرّعته
فلمن أسير إلى سواكم قاصدًا ... والقلب فى مرصادكم خلّفته
من منصفى من ظالم متحكم ... يزداد ظلمًا كلما حكّمته
ملّكتهُ روحى ليحفظ ملكه ... فأضاعنى وأضاع ما ملّكته
وجرت دموعى مثل بحر زاخر ... لو كنتُ أعرف مسلكًا لسلكته
وخشيت خوفًا أن أموت بحسرة ... ويفوت منى كلما أمّلته

فلما سمعت مريم من نور الدين المسكين إنشاد هذه الأشعار، حصل عندها من كلامه إشعار، فأفاضت دموع العين، وأنشدت هذين البيتين:

تمنيتُ من أهوى فلما لقيته ... ذهلتُ فلم أملك لسانًا ولا طرفا
وكنتُ معدا للعتاب دفاترًا ... فلما اجتمعنا ما وجدتُ ولا حرفا

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاءً شديدًا وقال: «والله إن هذه نغمة السيدة مريم الزنارية بلا شك ولا ريب، ولا رجم ولا غيب، فيا ترى هل ظنى صحيح وإنها هى بعينها أو غيرها؟» ثم إن السيدة مريم أحضرت دواةً وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة الشريفة: «أما بعد فسلام الله عليك ورحمته وبركاته، وأخبرك أن الجارية مريم تسلم عليك وهى كثيرة الشوق إليك، وهذه مراسلتها إليك، فساعة وقوع هذه الورقة بين يديك، انهض من وقتك وساعتك واهتمّ بما تريده منك غاية الاهتمام، والحذر كل الحذر من المخالفة ومن أن تنام، فإذا مضى ثلث الليل الأول فإن تلك الساعة من أسعد الأوقات فلا يكون لك فيها شغل إلا أن تشدّ الفرسين وتخرج بهما خارج المدينة. وكل من قال لك: أين أنت رائح؟ فقل له: أنا رائح أسيرهما. فإذا قلت ذلك لا يمنعك أحد فإن أهل المدينة واثقون بقفل الأبواب». ثم إن السيدة مريم لفّت الورقة فى منديل حرير ورمتها إلى نور الدين من الشباك. فأخذها وقرأها وفهم ما فيها وعرف أنها خط السيدة مريم. فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل له معها من طيب الوصال، فأسال دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

أتانى كتابٌ منكمُ جنح ليلة ... فهيجنى شوقًا إليكم وأبرانى

وذكرنى عيشًا مضى بوصالكم   فسبحان ربٍّ بالتفرّق ابلانى

ثم إن نور الدين لما جنّ عليه الليل اشتغل بإصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل ثلثه الأول، ثم قام من وقته وساعته إلى الحصانين ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج وخرج بهما من باب الاصطبل وقفل الباب وسار بهما إلى باب المدينة وجلس ينتظر السيدة مريم. هذا ما كان من أمر نور الدين.

وأما ما كان من أمر الملكة مريم فإنها ذهبت من وقتهاوساعتها إلى المجلس الذى هو معد لها فى القصر فوجدت الوزير الأعورجالسًا فى ذلك المجلس متكئًا على مخدة محشوة من ريش النعام وهو مستحى أن يخاطبها. فلما رأته ناجت ربها فى قلبها وقالت: «اللهم أسعفنى على ما دبرته». ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست فى جانبه ولاطفته وقالت له: «يا سيدى ما هذا الإعراض عنا هل هو منك تيهٌ ودلال علينا، ولكن صاحب المثل السائر يقول: إذا بار السلام، سلّمت القعود على القيام، فإن كنت يا سيدى ما تجىء عندى وتخاطبنى أجىء أنا عندك وأخاطبك». فقال لها الوزير: «الفضل والجميل لك يا ملكة الأرض» فى الطول والعرض، وهل أنا إلا من بعض خدامك، وأقل غلمانك؟ وأنا مستحى أن أتهجم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الدرة اليتيمة ووجهى منك فى الأرض فقالت له: «دعنا من هذا الكلام وأتنا بالمآكل والمشرب».

فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدمه وأمرهم بإحضار المآكل والمشرب، فقدموا له سفرة فيها ما درج وطاب، وسبح فى البحار، من قطا وسمانى وأفرخ الحمام ورضيع الضأن وأوزّ سمين وفيها دجاج محمّر وفيها من سائر الأشكال والألوان فمدت السيدة مريم يدها إلى السفرة وأكلت، وصارت تلقم الوزير بأناملها ومازالا يأكلان حتى اكتفيا من الأكل ثم غسلا أيديهما. وبعد ذلك رفع الخدم سفرة الطعام وأحضروا سفرة المدام. فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه وقامت بخدمته حق القيام حتى كاد يطير من الفرح.

فلما غاب عقله عن الصواب، وتمكن منه الشراب، مدت يدها إلى جيبها وأخرجت قرصًا من البنج البكر المغربى الذى إذا شم منه الفيل أدنى رائحة نام من العام إلى العام كانت أعدّته لهذه الساعة. ثم غافلت الوزير وفركته فى القدح وملأته وأعطته إياه. فطار عقله من الفرح وما صدق أنها تناوله إياه فأخذ القدح وشربه. فما استقرّ فى جوفه حتى خرّ صريعًا على الأرض فى الحال. فقامت السيدة مريم على قدميها وعمدت إلى خرجين كبيرين وملأتهما مما خفّ حمله وغلا ثمنه منَ الجواهر واليواقيت وأصناف المعادن المثمنة. ثم حملت معها شيئًا من المآكل والمشرب ولبست آلة الحرب والكفاح، ومن العدة والسلاح. وأخذت معها لنور الدين ما يسرّه من الملابس الملوكية الفاخرة، وأهبة السلاح القاهرة، ثم إنها رفعت الخرجين على كتفها وخرجت من القصر وتوجهت إلى نور الدين هذا ما كان من أمر مريم.

وأما ما كان من أمر نور الدين المسكين فإنه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين فى يده، فأرسل الله عزّ وجلّ عليه النوم فنام وسبحان من لا ينام. وكانت ملوك الجزائر فى ذلك الزمان يبذلون المال رشوة على سرقة هذين الحصانين أو واحد منهما. وكان موجودًا فى تلك الأيام عبد أسود تربى فى الجزائر يعرف سرقة الخيل. فصار ملوك الإفرنج يرشونه بمال

كثير لأجل أن يسرق أحد الحصانين ووعدوه أنه إن سرق الحصانين أن يعطوه جزيرة كاملة ويخلعوا عليه خلعًا سنية. وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور فى مدينة إفرنجة وهو مختف فلم يقدر على أخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبهما للوزير الأعور ونقلهما إلى اصطبله فرح العبد فرحًا شديدًا وطمع فى أخذهما وقال: «وحق المسيح والدين الصحيح لأسرقنهما».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : ثم إن العبد خرج فى تلك الليلة قاصدًا الاصطبل ليسرق الحصانين: فبينما هو ماش فى الطريق إذ لاحت منه التفاتة فرأى نور الدين نائمًا ومقاود الحصانين فى يده. فنزع المقاود من رؤوسهما وأراد أن يركب واحدًا ويسوق الآخر قدامه وإذا بالسيدة مريم قد أقبلت وهى حاملة الخرجين على كتفها، فظنت أن العبد هو نور الدين فناولته أحد الخرجين فوضعه على الحصان، ثم ناولته الثانى فوضعه على الحصان الآخر وهو ساكت وهى تظن أنه نور الدين. ثم إنها خرجت من باب المدينة والعبد ساكت. فقالت له: «يا سيدى نور الدين مالك ساكتًا؟» فالتفت العبد وهو مغضب وقال لها: «أى شىء تقولين يا جارية؟» فسمعت بربرة العبد فعرفت أنها غير لغة نور الدين فرفعت رأسها إليه ونظرته فوجدت له مناخير كالإبريق، فلما نظرته صار الضياء فى وجهها ظلامًا فقالت له: «من تكون يا شيخ بنى حام، وما اسمك بين الأنام؟» فقال لها: «يا بنت اللئام، وأنا اسمى مسعود سراق الخيل والناس نيام». فما ردّت عليه بشىء من الكلام، بل جردّت من وقتها الحسام، وضربته على عاتقه، فطلع يلمع من علائقه فوقع صريعًا على الأرض يتخبط فى دمه وعجل الله بروحه إلى النار، وبئس القرار.

فعند ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدًا وقبضت الآخر بيدها ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين، فلقيته راقدًا فى المكان الذى واعدته بالاجتماع فيه والمقاود فى يدها وهو نائم يغط فى نومه ولم يعرف يديه من رجليه. فنزلت عن ظهر الحصان ولكزته بيده فانتبه من نومه مرعوبًا وقال لها: «يا سيدتى الحمد لله على مجيئك سالمة». فقالت له: «قم اركب هذا الحصان وأنت ساكت». فقام وركب الحصان والسيدة مريم ركبت الحصان الثانى وخرجا من المدينة وسارا ساعة زمانية، وبعد ذلك التفتت مريم إلى نور الدين وقالت له: «أما قلت لك لا تنم فإنه لا أفلح من ينام؟» فقال: «يا سيدتى أنا ما نمت إلا من برد فؤادى بميعادك وأى شىء جرى يا سيدتى؟» فأخبرته بحكاية العبد، فقال لها نور الدين: «الحمد لله على السلامة».

ثم جدا فى المسير، وقد سلما أمرهما إلى اللطيف الخبير، وصارا يتحدثان حتى وصلا إلى العبد الذى قتلته مريم فرآه مرميًا فى التراب كأنه عفريت. فقالت مريم لنور الدين: «انزل جرده من ثيابه وخذ سلاحه». فقال لها: «يا سيدتى والله أنا لا أقدر أنزل عن ظهر الحصان ولا أقف عنده ولا أقترب منه». وتعجب نور الدين من خلقته وشكر السيدة مريم على فعلها

وتعجب من شجاعتها وقوة قلبها. ثم سارا ولم يزالا سائرين سيرًا عنيفًا بقية الليل إلى أن أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، وانتشرت الشمس على الروابى والبطاح، فوصلا إلى مرج أفيح، وقد اخضرّت منه الجوانب، وتشكلت فيه الأثمار من كل جانب، وأزهاره كبطون الحيات، والطيور فيه عاكفات، وجداوله تجرىَ مختلفة الصفات. كما قال فيه الشاعر وأجاد، ووفى بالمراد:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ   وقاه مضاعف النبت العميمِ
نزلنا دوحه فحنا علينا   حنوّ المرضعات على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأ زلالاً   ألذ من المدامة للنديمِ
يصدّ الشمس أنّى واجهتنا   فيحجبها ويأذن للنسيمِ
تروع حصاةُ حالية العذارى   فتلمس جانب العِقد النظيمِ

وكما قال الآخر:

وإذا ترنم طيره وغديرهُ   يشتاقه الولهان فى الأسحار
فكأنه الفردوس فى جنّاته   ظلٌّ وفاكهةٌ ومـاءٌ جارِ

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هى ونور الدين ليستريحا فى ذلك الوادى وأكلا من أثماره وشربا من أنهاره، وأطلقا الحصانين يأكلان فى المرعى فأكلا وشربا من ذلك الوادى. وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران حكايتهما وما جرى لهما. وكل منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق، وما قاساه من البعد والاشتياق. فبينما هما كذلك وإذا بغبار قد ثار، حتى سدّ الأقطار، وسمعا صهيل الخيل وقعقعة السلاح. وكان السبب فى ذلك أن الملك لما زوّج ابنته للوزير وأصبح الصباح أراد الملك أن يصبح عليهما كما جرت به العادة عند الملوك فى بناتهم، فقام وأخذ معه أقمشة من الحرير ونثر الذهب والفضة ليتخاطفها الخدمة والمواشط.

ولم يزل الملك يتمشى هو وبعض الغلمان إلى أن وصل إلى القصر الجديد فوجد الوزير مرميًا على الفراش لم يعرف رأسه من رجليه، فالتفت الملك فى القصر يمينًا وشمالاً فلم يرَ ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله وغاب عن صوابه، وأمر بإحضار الماء السخن والخلّ البكر والكندر. فلما أحضروا له ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هزّه فخرج البنج من جوفه كقطع الجبن، ثم إن الملك سعط الوزير بذلك ثانى مرة فانتبه فسأله عن حالته وعن حال ابنته مريم. فقال له: «أيها الملك الأعظم لا علم لى بها غير أنها أسقتنى قدحاً من الخمر بيدها فمن ذلك الوقت ما عرفت روحى إلا فى هذه الساعة ولا أعلم ما كان من أمرها» فلما سمع الملك كلام الوزير صار الضياء فى وجهه ظلامًا وسحب السيف وضرب به الوزير على رأسه فخرج يلمع من أضراسه، ثم إن الملك أرسل من وقته وساعته إلى الغلمان والسياس. فلما حضروا طلب منهم الحصانين فقالوا له «أيها الملك إن الحصانين فقدا فى هذه الليلة وكبيرنا فقد معهما أيضاً فإننا لمّا أصبحنا وجدنا الأبواب كلها مفتوحة». فقال

الملك : «وحق دينى ، وما يعتقده يقينى ، ما أخذ الحصانين إلا هى والأسير الذى كان يخدم الكنيسة وكان قد أخذها فى المرة الأولى وعرفته حق المعرفة ولم يخلصه من يدى إلا هذا الوزير وقد جوزى بفعله» .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد : ثم إن الملك دعا فى الوقت بأولاده الثلاثة وكانوا أبطالاً شجعاناً كل واحد منهم يقوم بألف فارس فى حومة الميدان ، ومقام الضرب والطعان ، ثم صاح الملك عليهم وأمرهم بالركوب فركبوا وركب بجملتهم مع خواص بطارقته وأرباب دولته وأكابرهم وصاروا يتبعون أثرهما فلحقوهما فى ذلك الوادى . فلما رأتهم مريم نهضت وركبت جوادها وتقلدت بسيفها وحملت آلة سلاحها وقالت لنور الدين : «ما حالك وكيف قلبك فى القتال، والحرب والنزول ؟ فقال لها : « إن ثباتى فى النزول ، مثل الوتد فى النخال » ثم أنشد وقال :

يا مريم اطرحى أليم عتابى لا تقصدى قتلى وطول عذابى
من أين لى أن أكون محاربًا إنى لأفزع من نعيق غراب

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام ، والشعر والنظام ، أظهرت له الضحك والابتسام . ، وقالت له : « يا سيدى نور الدين استقم مكانك وأنا أكفيك شرهم ولو كانوا عدد الرمل » . ثم إنها تهيأت من وقتها وساعتها وركبت ظهر جوادها وأطلقت من يدها طرف العنان ، وأدارت من الرمح جهة السنان ، فخرج ذلك الحصان من تحتها كأنه الريح الهبوب . أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنبوب ، وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها ، وفريدة عصرها وأوانها ، لأن أباها علّمها وهى صغيرة الركوب على ظهر الخيل ، وخوض بحار الحرب فى ظلام الليل . فقالت لنور الدين : « اركب جوادك وكن خلف ظهرى وإذا انهزمنا فاحرص على نفسك من الوقوع فإن جوادك ما يلحقه لاحق » فلما نظر الملك ابنته مريم عرفها غاية المعرفة والتفت إلى ولده الأكبر وقال له : « يا برطوط يا ملقب برأس القلوط ، إن هذه أختك مريم لا شك فيها ولا ريب ، قد حملت علينا وطلبت حربنا وقتالنا فابرز إليهاواحمل عليها ، وحق المسيح ، والدين الصحيح ، أنك إن ظفرت بها لا تقتلها حتى تعرض عليها دين النصارى فإن رجعت إلى دينها القديم فارجع بها أسيرة وإن لم ترجع إليه فاقتلهاأقبح قتلة، ومثّل بها أشنع مثلة ، وكذلك هذا الملعون الذى معها مثل به أقبح مثلة » . فقال له برطوط : « السمع والطاعة» ثم برز لأخته مريم من وقته وساعته وحمل عليها ، فلاقته وحملت عليه ودنت منه وتقربت إليه . فقال لها برطوط « يا مريم أما يكفى ما جرى منك حيث تركت دين الآباء والأجداد . واتبعت دين السياحين فى البلاد ، يعنى دين الإسلام ؟ » ثم قال : « وحق المسيح ، والدين الصحيح . إن لم ترجعى إلى دين آبائك وأجدادك من الملوك ، وتسلكى فيه أحسن السلوك ، لأقتلنك شرّ قتلة ، وأمثل بك أقبح مثلة » فضحكت من كلام أخيها وقالت : « هيهات هيهات أن يعود ما فات ، أو يعيش من مات ، بل أجرّعك أشدّ الحسرات ، أنا والله لست

براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذى عم هداه فإنه الدين الحقّ ، فلا أترك الهدى ، ولوسُقيت كؤوس الردى ».

فلما سمع برطوط من أخته هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلامًا وعظم ذلك عليه وكبر لديه والتهب بينهما القتال ، واشتدّ الحرب والنزال ، وغاص الاثنان فى الأودية العراض الطوال ، وصبرا على الشدائد وشخصت لهما الأبصار ، فأخذهما الانبهار ، ثم تجاولا مليا واعتركا طويلاًوصار برطوط كلما يفتح لأخته مريم بابًا من الحرب تبطله عليه وتسدّه بحسن صناعتهاوقوّة براعتهاومعرفتها وفروسيتها . ولم يزالا على تلك الحالة حتى انعقدعلى رؤوسهما الغبار ، وغاب الفرسان عن الأبصار ، ولم تزل مريم تحاوله وتسدّعليه طريقه حتى كل وبطلب همته واضمحل عزمه وضعفت قوّته ، فضربته بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه . ثم إن مريم جالت فى حومة الميدان ، وموقف الحرب والطعان ، وطلبت البراز، وسألت الإنجاز وقالت : « هل من مقاتل هل من مناجز ، لا يبرز لى اليوم كسلان ولا عاجز ، ولا يبرز لى إلا أبطال أعداء الدين ، لأسقيهم كأس العذاب المهين ، يا عبدة الأوثان ، وذوى الكفر والطغيان ، هذا يوم تبيضّ فيه وجوه أهل الإيمان ، وتسودّ وجوه أهل الكفر بالرحمن ؟».

فلما رأى الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه وشقّ أثوابه وصاح على ولده الوسطانى وقال له : « يا برطوس أبرز يا ولدى بسرعة إلى قتال أختك مريم وخذ منها ثار أخيك برطوط وأتنى بها أسيرة ذليلة حقيرة ». فقال له : « يا أبتِ السمع والطاعة » . ثم إنه برز لأخته مريم وحمل عليها، فلاقته وحملت عليه فتقاتلت هى وإياه قتالاً شديداً أشدّ من الأول . فرأى أخوها الثانى نفسه عاجزًا عن قتالها فأراد الفرار والهروب فلم يمكنه ذلك من شدّة بأسها لأنه كلما ركن إلى الفرار تقرّبت منه ولاصقته وضيقته ، ثم ضربته بالسيف على رقبته فخرج يلمع من لبّته وألحقته بأخيه .

وبعد ذلك جالت فى حومة الميدان ، وموقف الحرب والطعان ، وقالت : « أين الفرسان والشجعان ، أين الوزيرالأعور الأعوج صاحب الدين الأعوج ؟» فعند ذلك صاح الملك أبوها بقلب جريح ، وطرف من الدموع قريح وقال : « إنها قتلت ولدى الأوسط وحقّ المسيح والدين الصحيح » . ثم إنه صاح على ولده الصغير وقال له : « اخرج يا ولدى إلى قتال أختك وخذ منها ثار أخويك ، وصادمهاإما لك أو عليك وإن ظفرت بها فاقتلها أقبح قتلة » .فعند ذلك برز لها أخوها الصغير وحمل عليها ، فنهضت إليه ببراعتها ، وحملت عليه بحسن صناعتها وشجاعتها ، ومعرفتها بالحرب وفروسيتها ، وقالت له : « يا ملعون يا عدوّ الله وعدوّ المسلمين لألحقنّك بأخويك وبئس مثوى الكافرين » . ثم إنها جذبت سيفها من غمده وضربته فقطعت عنقه وذراعيه، وألحقته بأخويه . فلما رأى الفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاده الثلاثة قد قتلوا وكانو أشجع أهل زمانهم وقع فى قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة ونكسوا رؤوسهم إلى الأرض وأيقنوا بالهلاك والدمار ، والذلّ والبوار ، واحترقت قلوبهم من الغيظ بلهيب النار ، فولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار . فلما نظر الملك إلى أولاده قد قُتلوا وإلى عساكره قد انهزموا أخذته الحيرة والانبهار ، واحترق قلبه بلهيب النار . وقال فى نفسه : « إن السيدة مريم قد استقلّت بنا وإن جازفت بنفسى وبرزت إليها وحدى ربما غلبت علىّ وقهرتنى

فتقتلنى أشنع قتلة وتمثل بى أقبح مثلة كما قتلت أخوتها لأنها لم يبقَ لها فينا رجاء ولا لنا فى رجوعها طمع ، والرأى عندى أن أحفظ حرمتى وأرجع إلى مدينتى ».

ثم إن الملك لوى عنان فرسه ورجع إلى مدينته فلما استقر فى قصره انطلقت فى قلبه النار من أجل قتل أولاده الثلاثة وانهزام عسكره وهتك حرمته .فما استقر نصف ساعة حتى طلب أرباب دولته وكبراء مملكته وشكا إليهم فعل ابنته مريم معه من قتلها لأخوتها وما لاقاه من القهر والحزن . واستشارهم فأشاروا عليه كلهم بأن يكتب كتابًا إلى خليفة الله فى أرضه أمير المؤمنين هارون الرشيد ويعلمه بهذه القضية . فكتب إلى الرشيد مكتوبًا مضمونه : « بعد السلام على أمير المؤمنين إن لنا بنتًا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسير من أسرى المسلمين اسمه نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصرى وأخذها ليلاً وخرج بها ناحية بلاده ، وأنا أسأل من فضل مولانا أمير المؤمنين أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين بتحصيله وإرسالها إلينا مع رسول أمين من خدام أمير المؤمنين » .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد : ومن جملة مضمون ذلك الكتاب : « إننا نجعل لكم فى نظير مساعدتكم لنا على هذا الأمر نصف مدينة رومة الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل إليكم خراجها » . وبعد أن كتب الكتاب برأى أهل مملكته وكبراء دولته طواه ودعا بوزيره الذى جعله وزيرًا مكان الوزير الأعور وأمره أن يختم الكتاب بختم الملك ، وكذلك ختمه أرباب دولته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم فيه . ثم قال لوزيره : « إن أتيت بها فلك عندى إقطاع أميرين ، وأخلع عليك خلعة بطرازين ». ثم ناوله الكتاب وأمره أن يسافر الى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب إلى أمير المؤمنين من يده إلى يده . ثم سافر الوزير بالمكتوب وسار يقطع الأودية والقفار حتى وصل إلى مدينة بغداد .

فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح ، ثم سأل عن قصر أمير المؤمنين هارون الرشيد فدلوه عليه . فلما وصل إليه طلب إذنا من أمير المؤمنين فى الدخول عليه فأذن له فى ذلك ، فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب الذى من ملك إفرنجية وصحبته من الهدايا والتحف العجيبة ما يليق بأمير المؤمنين . فلما فتح الخليفة المكتوب وقرأه وفهم مضمونه أمر وزراءه أن يكتبوا المكاتيب إلى سائر بلاد المسلمين ، ففعلوا ذلك وبينوا فى المكاتيب صفة مريم وصفة نور الدين واسمه وأنهما هاربان فكل من وجدهما فليقبض عليهما وليرسلهما إلى أمير المؤمنين ، وحذرهم من أن يعطوا فى ذلك إمهالاً أو إهمالاً أو غفلة . ثم ختمت الكتب وأرسلت مع السعاة إلى العمال ، فبادروا فى امتثال الأمر وساروا يفتشون فى سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة .

هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك وأتباعهم ، وأما ما كان من أمر نور الدين المصرى ومريم الزنارية بنت ملك إفرنجة فإنهما ركبا من وقتهما وساعتهما وسارا إلى بلاد الشام وقد ستر عليهما الستار فوصلا إلى مدينة دمشق ، وكانت الطوالع التى أرسلها الخليفة قد سبقتهما بيوم ، فعلم أمير دمشق أنه مأمور بالقبض عليهما متى وجدهما ليحضرهما بين يدى

الخليفة . فلما كان يوم دخولهما إلى دمشق أقبل عليهما الجواسيس فسألوهما عن اسمهما فأخبراهم بالصحيح وقصا عليهم قصتهما وجميع ما جرى عليهما فعرفوهما وقبضوا عليهما وأخذوهما وساروا بهما إلى أمير دمشق فأرسلهما إلى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : فلما وصلوا إليها استأذنوا في الدخول على أمير المؤمنين هارون الرشيد فأذن لهم. فلما دخلوا عليه قبلوا الأرض بين يديه وقالوا له: «ياأمير المؤمنين إن هذه مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة وهذا نور الدين ابن التاجر تاج الدين المصري الأسير الذي أفسدها على أبيها وسرقها من بلاده ومملكته وهرب بها إلى دمشق، فوجدناهما وقت دخولهما دمشق وسألناهما فأجابانا بالصحيح، فعند ذلك أتينا بهما وأحضرناهما بين يديك».

فنظر أمير المؤمنين إلى مريم فرآها رشيقة القد والقوام، فصيحة الكلام، مليحة أهل زمانها، فريدة عصرها وأوانها، حلوة اللسان، ثابتة الجنان، قوية القلب. فلما وصلت إليه قبلت الأرض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم، وزوال البؤس والنقم، فأعجب الخليفة حسن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها فقال لها: «هل أنت مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة؟» قالت: «نعم يا أمير المؤمنين، وإمام الموحدين، وحامي حرمة الدين، وابن عم سيد المرسلين». فعند ذلك التفت الخليفة فرأى عليا نور الدين شابا مليحًا حسن الشكل كأنه البدر المنير في ليلة تمامه. فقال له الخليفة: «هل أنت عليّ نور الدين الأسير ابن تاج الدين المصري؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين، وعمدة القاصدين» فقال الخليفة: «كيف أخذت هذه الصبية من مملكة أبيها وهربت بها؟» فصار نور الدين يحدث الخليفة بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى آخره. فلما فرغ من حديثه تعجب الخليفة من ذلك غاية العجب، وأخذه من التعجب فرط الطرب.

ثم إنه التفت إلى السيدة مريم فقال لها: «يا مريم اعلمي أن والدك ملك إفرنجة قد كاتبنا في شأنك فما تقولين؟» قالت: «يا خليفة الله في أرضه، وقائمًا بسنّة نبيه وفرضه، خلد عليك النعم، وأجارك من البؤس والنقم، أنت خليفة الله في أرضه، إني دخلت في دينكم وقد صرت مؤمنة بالله الكريم ومصدقة بما جاء به رسوله الرحيم، أعبد الله سبحانه وتعالى وأوحده، وأسجد خاضعة إليه وأمجده، وأنا قائلة بين يدي الخليفة: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فهل في وسعك يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك الملحدين، وترسلني إلى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام، ويعبدون الأصنام، فإن فعلت بي ذلك يا خليفة الله، أتعلّق بأذيالك يوم العرض على الله، وأشتكيك إلى ابن عمك رسول الله ﷺ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؟» فقال أمير المؤمنين: «يا مريم معاذ الله أن أفعل ذلك أبدًا كيف أرد امرأة مسلمة موحّدة بالله ورسوله إلى ما نهى الله عنه ورسوله؟» فقالت مريم: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله». فقال لها أمير المؤمنين: «يا مريم بارك الله فيك وزادك هداية إلى الإسلام، وحيث كنت مسلمة موحّدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب وهو أنني لا أفرط فيك أبدًا ولو بذل لي من أجلك ملء الأرض جواهر وذهبًا، فطيبي نفسًا وقري عينًا وانشرحي صدرا، ولا يكن خاطرك إلا طيبا، فهل رضيت أن

يكون هذا الشاب علىّ المصرى لك بعلاً، وتكونين له أهلاً؟» فقالت مريم: «يا أمير المؤمنين كيف لا أرضى أن يكون لى بعلاً وقد اشترانى بماله وأحسن إلىّ غاية الإحسان، ومن تمام إحسانه أنه خاطر بروحه من أجلى مرات عديدة؟» فزوجها به مولانا أمير المؤمنين وعمل لها مهرًا وأحضر القاضى والشهود وأكابر دولته يوم زواجها عند كتب الكتاب وكان يومًا مشهودًا.

ثم بعد ذلك التفت أمير المؤمنين من وقته وساعته إلى وزير ملك الروم وكان حاضرًا فى تلك الساعة وقال له: «هل سمعت كلامها، كيف أرسلها إلى أبيها وهى مسلمة موحدة وربما ساءها وأغلظ عليها خصوصًا وقد قتلت أولاده فأتحمل أنا ذنبها يوم القيامة، وقد قال الله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾. فارجع إلى ملكك وقل له: ارجع عن هذا الأمر ولا تطمع فيه». وكان ذلك الوزير أحمق. فقال للخليفة: وحق المسيح، والدين الصحيح، إنى لا يمكننى الرجوع بدون مريم ولو كانت مسلمة لأنى لو رجعت إلى أبيها بدونها يقتلنى» فقال الخليفة: خذوا هذا الملعون واقتلوه» وأنشد:

هذا جزاء من عصا من فوقه وعصيانه

ثم أمر بضرب عنق الوزير الملعون وحرقه. فقالت السيدة مريم: «يا أمير المؤمنين لا تنجس سيفك بدم هذا الملعون». ثم جردت سيفها وضربته به فأطاحت رأسه عن جثته. فتعجب الخليفة من صلابة ساعدها وقوة جنانها، ثم خلع على نور الدين خلعة سنية وأفرد لها مكانًا فى قصره هى ونور الدين ورتب لهما المرتبات، والجوامك والعلوفات. وأمر بأن ينقل إليهما جميع ما يحتاجان إليه من الملابس والمفارش والأوانى النفيسة. وأقاما فى بغداد مدة من الزمان وهما فى أرغد عيش وأهناه. وبعد ذلك اشتاق نور الدين إلى أمه وأبيه فعرض الأمر على الخليفة وطلب منه إذنًا فى التوجه إلى بلاده وزيارة أقاربه، ودعا بمريم وأحضرها بين يديه فأجازه بالتوجه وأتحفه بالهدايا والتحف المثمنة وأوصى مريم ونور الدين ببعضهما. ثم أمر بالمكاتيب إلى أمراء مصر المحروسة وعلمائها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو ووالديه وجاريته وإكرامهم غاية الإكرام.

فلما وصلت الأخبار إلى مصر فرح التاجر تاج الدين بعود ولده نور الدين، وكذلك أمه فرحت بذلك غاية الفرح، وخرج للقائه الأكابر والأمراء وأرباب الدولة من أجل وصية الخليفة فلاقوا نور الدين. وكان لهم يوم مشهود مليح عجيب اجتمع فيه المحب والمحبوب واتصل الطالب بالمطلوب، وصارت الولائم كل يوم عند أحد من الأمراء وفرحوا بهم الفرح الزائد، وأكرموهم الإكرام المتصاعد. فلما اجتمع نور الدين بوالدته ووالده فرحوا ببعضهم غاية الفرح، وزال عنهم الهمّ والترح، وكذلك فرحوا بالسيدة مريم وأكرموها غاية الإكرام، ووصلت إليهم الهدايا والتحف من سائر الأمراء والتجار العظام، وساروا كل يوم فى انشراح شديد، وسرور معظم من سرور مدة العيد. ولم يزالوا فى فرح ولذات، ونعم جزيلة مطربات، وأكل وشرب وفرح وسرور مدة من الزمان إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات، ومخرب الدور والقصور، ومعمر بطون القبور، فانتقلوا من الدنيا بالممات، وصاروا فى عداد الأموات، فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده مقاليد الملك والملكوت جل جلال الله تعالى.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية

قالت شهر زاد: ومما يحكى أيضًا أن الأمير شجاع الدين محمدًا متولى القاهرة قال: بتنا عند رجل من بلاد الصعيد فضيفنا وأكرمنا، وكان ذلك الرجل أسمر شديد السمرة وهو شيخ كبير وكان له أولاد صغار بيض بياضهم مشرب بحمرة. فقلنا: «يا فلان ما بال أولادك هؤلاء بيضًا وأنت شديد السمرة؟» فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية أخذتها ولى معها حديث عجيب» فقلنا له: «أتحفنا به» فقال: «نعم».

اعلموا أنى قد كنت زرعت كتّانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته وصرفت عليه خمسمائة دينار ثم أردت بيعه فلم يجىء لى منه بشىء أكثر من ذلك، فقالوا لى «اذهب به إلى عكاء لعلك تربح فيه ربح عظيم». وكانت عكاء فى ذلك الوقت فى يد الإفرنجة، فذهبت به إلى عقاء وبعت بعضه صبرًا إلى ستة أشهر. فبينما أنا أبيع إذا مرّت بى امرأة إفرنجية، وعادة نساء الإفرنج أن تمشى فى السوق بلا نقاب، فأتت لتشترى منى كتّانًا فرأيت من جمالها ما بهر عقلى فبعت لها شيئًا وتساهلت فى الثمن فأخذته وانصرفت. ثم عادت إلىّ بعد أيام فبعت لها شيئًا وتساهلت معها أكثر من المرّة الأولى، فكررت مجيئها إلىّ وعرفت أنى أحبها. وكان عادتها أن تمشى مع عجوز. فقلت للعجوز التى معها: «إنى قد شُغفت بحبها فهل تتحيلين لى فى الاتصال بها؟» فقالت: «أتحيل لك فى ذلك ولكن السر لا يخرج من بين ثلاثتنا أنا وأنت وهى ومع ذلك لابد من أن تبذل مالا» فقلت لها: «إذا ذهبت روحى باجتماعى عليها ما هو كثير».

واتفق الحال على أن يدفع لها خمسين دينارًا وتجىء إليه، فجهز الخمسين دينارًا وسلمها للعجوز. فلما أخذت الخمسين دينارًا قالت له: «هيئ لها موضعًا فى بيتك وهى تجىء إليك فى هذه الليلة» ثم قال فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكل ومشرب وشمع وحلوى، وكانت دارى مطلّة على البحر وكان ذلك فى زمن الصيف ففرشت على سطح الدار وجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا وجنّ الليل. فنمنا تحت السماء والقمر يضىء علينا وصرنا ننظر خيال النجوم فى البحر. فقلت فى نفسى: «أما تستحى من الله عزّ وجل وأنت غريب وتحت السماء وعلى البحر وتعصى الله مع نصرانية وتستوجب عذاب النار؟ اللهم إنى أشهد أنى قد عففت عن هذه النصرانية فى هذه الليلة حياء منك وخوفًا من عقابك».

ثم إنى نمت إلى الصبح وقامت فى السحر وهى غضبى ومضت إلى مكانها، ومشيت أنا إلى حانوتى فجلست فيه.، وإذا هى قد عبرت علىّ هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر. فهلكت وقلت فى نفسى: «من هو أنت حتى تترك هذه الجارية هل أنت السرّى السقطى أو بشر الحافى أو الجنيد البغدادى أو الفضل بن عياض؟» ثم لحقت العجوز وقلت لها: «ارجعى إلىّ بها» فقالت العجوز: «وحق المسيح ما ترجع إليك إلا بمائة دينار». فقلت: «أعطيك مائة دينار».

ثم أعطيتها المائة دينار وجاءت إلىّ ثانى مرّة. فلما صارت عندى رجعت إلى تلك الفكرة فعففت عنها وتركتها لله تعالى، ثم مضيت ومشيت إلى موضعى. ثم عبرت علىّ العجوز وهى غضبى فقلت لها: «ارجعى بها إلىّ» فقالت: «وحق المسيح ما بقيت تفرح بها عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمدًا». فارتعدت لذلك وعزمت أن أغرم ثمن الكتان جميعه وأفدى نفسى بذلك.

فما شعرت إلا والمنادى ينادى ويقول: «يا معشر المسلمين إن الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين جمعة ليقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم».

فانقطعت عنى وأخذت معى بضاعة حسنة ثمن الكتان الذى اشتراه منى الناس مؤجلاً والمقايضة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكاء وأنا فى قلبى من الإفرنجية ما فيه من شدّة المحبة لأنها أخذت قلبى ومالى. ثم خرجت وسرت حتى وصلت إلى دمشق وبعت البضاعة التى أخذتها من عكاء بأقصى ثمن لانقطاع وصولها بسبب انقضاء مدّة الهدنة ومنَّ الله سبحانه وتعالى علىّ بكسب جيد وصرت أتجر فى جوارى السبى ليذهب ما بقلبى من الإفرنجية ولازمت التجارة فيهن. فمضت علىَّ ثلاث سنوات وأنا بتلك الحالة. وجرى للملك الناصر صلاح الدين مع الإفرنج ما جرى من الوقائع ونصره الله عليهم وأسر جميع ملوكهم وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى. فاتفق أنه جاءنى رجل وطلب منى جارية للملك الناصر.

وكان عندى جارية حسناء فعرضتها عليه فاشتراها له منى بمائة دينار فأوصلنى تسعين دينار وبقى لى عشرة دنانير فلم يجدوها فى خزانته ذلك اليوم لأنه أنفق الأموال جميعها فى حرب الإفرنج، فأخبروه بذلك فقال الملك: «امضوا به إلى الخزانة التى فيها السبى وخيروه بين بنات الإفرنج ليأخذ واحدة منهن فى العشرة دنانير». فأخذونى وتوجهوا بى إلى خزانة السبى.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما نظرت ما فيها وتأملت فى جميع السبى فرأيت الجارية الإفرنجية التى كنت تعلقت بها وعرفتها حق المعرفة وكانت امرأة فارس من فرسان الإفرنج فقلت: «أعطونى هذه».

فأخذتها ومضيت إلى خيمتى وقلت لها: «أتعرفيننى؟» قالت: «لا» قلت: «أنا صاحبك الذى كنت أتاجر فى الكتان وقد جرى لى معك ما جرى وأخذت منى الذهب وقلت: ما بقيت تنظرنى إلا بخمسمائة دينار، وقد أخذتك ملكًا بعشرة دنانير».

فقالت: «هذا سرّ دينك الصحيح أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله». فأسلمت وحسُن إسلامها. فقلت فى نفسى: «والله لا أفضى إليها إلا بعد عتقها وإطلاع القاضى». فرحت إلى ابن شدّاد وحكيت له ما جرى وعقد لى عليها. ثم بعد ذلك رحل العسكر وأتينا دمشق.

فما كان إلا أيام قلائل وأتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبى باتفاق وقع بين الملوك، فردّ كل من كان أسيرًا من النساء والرجال ولم يبق إلا المرأة التى عندى فقالوا: «إن امرأة الفارس فلان لم تحضر».

وسألوا عنها وألحوا فى السؤال والكشف فأخبروا بأنها عندى فطلبوها منى.

فحضرت وأنا فى شدة الوله وقد تغير لونى. فقالت لى: «مالك وما الذى أصابك؟»

فقلت: «جاء رسول الملك يأخذ الأسارى جميعهم وطلبوك منى». فقالت: «لا بأس عليك أوصلنى إلى الملك وأنا أعرف الذى أقوله بين يديه». فأخذتها وأحضرتها قدام السلطان الملك الناصر ورسول ملك الإفرنج جالس عن يمينه وقلت: «يا مولاى هذه المرأة التى عندى». فقال لها الملك الناصر والرسول: «أتروحين إلى بلادك أم زوجك فقد فك الله أسرك أنت وغيرك؟» فقالت للسلطان: ««إنما قد أسلمت وتزوجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بى» فقال الرسول: «أيما أحب إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟» فقالت له كما قالت للسلطان. فقال الرسول لمن معه من الإفرنج: «هل سمعتم كلامها؟» قالوا «نعم».

ثم قال لى الرسول: «خذ امرأتك وامض بها». فمضيت بها. ثم إنه أرسل خلفى عاجلاً وقال: «إن أمها أرسلت إليها معى وديعة وقالت: إن ابنتى أسيرة وهى عريانة ومرادى أن توصل لها هذا الصندوق، فخذه وسلمه إليها» فتسلمت الصندوق ومضيت به إلى الدار وأعطيته لها، ففتحته فرأيت فيه قماشها بعينه ووجدت الصرّتين الذهب والخمسين دينارًا والمائة دينار.

فرأيت الجميع برباطى لم يتغير منها شيء وحمدت الله تعالى. وهؤلاء الأولاد منها وهى تعيش إلى الآن وهى عملت لكم هذا الطعام. فتعجبنا من حكايته وماحصل له من الحظ - والله أعلم.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية البغدادى مع جاريته

قالت شهر زاد: ومما يحكى أيضًا أنه كان فى قديم الزمان رجل ببغداد من أولاد أهل النعم ورث عن أبيه مالاً جزيلاً، وكان اشترى جارية وكانت تحبه كما يحبها، ولم يزل ينفق عليها إلى أن ذهب جميع ماله ولم يبقَ منه شيء. فطلب شيئًا من أسباب المعاش يتعيش به فلم يقدر. وكان ذلك الفتى فى أيام غناه يحضر مجالس العارفين بصناعة الغناء فبلغ فيها الغاية القصوى فاستشار بعض إخوانه فقال له: «أنا لا أعرف لك صنعة أحسن من أن تغنى أنت وجاريتك فتأخذ على ذلك المال الكثير وتأكل وتشرب». فكره ذلك هو والجارية. فقالت له جاريته: «قد رأيت لك رأيًا» قال: «وما هو؟» قالت: «تبيعنى ونخلص من هذه الشدّة أنا وأنت وأكون فى نعمة فإن مثلى ما يشتريه إلا ذو نعمة وبذلك أكون سببًا فى رجوعى إليك». فأطلعها صاحبها إلى السوق.

وكان أول من رآها رجل هاشمى من أهل البصرة وكان ذلك الرجل أديبًا ظريفًا كريم النفس فاشتراها بألف وخمسمائة دينار. (قال ذلك الفتى صاحب الجارية) فلما قبضت الثمن ندمت وبكيت أنا والجارية وطلبت الإقالة فلم يرضَ، فوضعت الدنانير فى الكيس وأنا لا أدرى أين أذهب لأن بيتى موحش منها وحصل لى من البكاء واللطم والنحيب ما لم يحصل لى قطّ. فدخلت بعض المساجد وقعدت أبكى فيه واندهشت حتى صرت لا أُلم بنفسى، فنمت وتركت الكيس تحت رأسى كالمخدة فلم أشعر إلا وإنسان قد جذبه من تحت رأسى ومضى يهرول. فانتبهت فزعًا فلم أجد الكيس فقمت أجرى خلفه وإذا برجلى مربوطة فى حبل فوقعت على

وجهى وصرت أبكى والطم وقلت فى نفسى: «فارقتك روحك وضاع مالك». وزاد بى الحال فجئت إلى الدجلة وحملت ثوبى على وجهى والقيت نفسى فى البحر.

ففطن بى الحاضرون وقالوا: «إن ذلك لعظيم همّ حصل له». فرموا أرواحهم خلفى وأطلعونى وسألونى عن أمرى فأخبرتهم بما حصل لى فتأسفوا لذلك. ثم جاءنى شيخ منهم وقال: «قد ذهب مالك وكيف تتسبب فى روحك فتكون من أهل النار؟ قم معى حتى أرى منزلك». ففعلت ذلك. فلما وصلنا إلى منزلى قعد عندى ساعة حتى سكن ما بى، فشكرته على ذلك ثم انصرف. فلما خرج من عندى كدت أن أقتل روحى فتذكرت الآخرة والنار فخرجت من بيتى هاربًا إلى بعض الأصدقاء فأخبرته بما جرى لى. فبكى رحمةً لى وأعطانى خمسين دينارًا وقال: «اقبل رأيى واخرج فى هذه الساعة من بغداد واجعل هذه نفقة لك إلى أن يشتغل قلبك عن حبها وتسلو عنها، أنت من أولاد أهل الإنشاء والكتابة وخطك جيد وأدبك بارع فاقصد من شئت من العمال واطرح نفسك عليه لعلّ الله يجمعك بجاريتك فهو على كل شىء قدير».

فسمعت منه وقد قوى عزمى وزال عنى بعض همى وعزمت على أن أقصد أرض واسط لأن لى بها أقارب، فخرجت إلى ساحل البحر فرأيت سفينة راسية والبحرية ينقلون إليها أمتعة وقماشًا فاخرًا فسألتهم أن يأخذونى معهم. فقالوا: «إن هذه السفينة لرجل هاشمى لا يمكننا أخذك على هذه الصورة» ورغّبتهم فى الأجرة فقالوا: «إن كان ولابدّ فاقلع هذه الثياب الفاخرة التى عليك والبس ثياب الملاحين واجلس معنا كأنك واحد منا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد: فرجعت واشتريت شيئًا من ثياب الملاحين ولبسته وجئت إلى السفينة وكانت متوجهة إلى البصرة فنزلت معهم. فما كان إلا ساعة حتى رأيت جاريتى بعينها ومعها جاريتان تخدمانها فسكن ما عندى من الغيظ وقلت فى نفسى: «ها أنا أراها وأسمع غناءها إلى البصرة». فما أسرع أن جاء الهاشمى راكبًا ومعه جماعة فنزلوا فى تلك السفينة وانحدرت بهم وأخرج الطعام فأكل هو والجارية وأكل الباقون فى وسط السفينة. ثم قال الهاشمى للجارية: «كم هذا التمنع عن الغناء لزوم الحزن والبكاء ما أنت أول من فارق من يحبّ؟» فعلمتُ ما كان عندها من أمر حبى. ثم ضرب ستارة على الجارية فى جانب السفينة واستدعى الذين كانوا فى ناحيتى وجلس معهم خارج الستارة. فسألت عنهم فإذا هم إخوته. ثم أخرج لهم ما يحتاجون إليه من الخمر والنقل. فلم يزالوا يحثّون الجارية على الغناء إلى أن استدعت بالعود وأصلحته وأخذت تغنى فأنشدت هذين البيتين:

بان الخليط بمن أحب فأدلجوا — وعن السرى بمنادى لم يتحرّجوا
والصبّ بعد أن استقلّ ركابهم — جمر الغضا فى قلبه يتأجّجُ

ثم غلبها البكاء ورمت العود وقطعت الغناء فتنغص القوم ووقعت أنا مغشيا على ففطن القوم أنى قد صرعت فصار بعضهم يقرأ فى أذنى، ولم يزالوا يلاطفونها ويطلبون منها الغناء

إلى أن أصلحت العود وأخذت تغنى فأنشدت:

فوقفت أندب ظاعنين تحملوا هم فى الفؤاد وإن نأوا وترحلوا

وقالت أيضًا:

ووقفت بالأطلال أسأل عنهم والدار قفر والمنازل بلقعُ

ثم وقعت مغشيا عليها وارتفع البكاء من الناس وصرخت أنا ووقعت مغشيا على وضع الملاحون منى. فقال بعض غلمان الهاشمى: «كيف حملتم هذا المجنون؟» ثم قال بعضهم لبعض: «إذا وصلتم إلى بعض القرى فاخرجوه وأريحونا منه». فحصل لى من ذلك هم عظيم وعذاب أليم فتجلدت غاية التجلد وقلت فى نفسى: «لا حيلة لى فى الخلاص من أيديهم إلا إذا أعلمتها بمكانى من السفينة لتمتنع من إخراجى» ثم سرنا حتى وصلنا إلى قرب ضيعة فقال صاحب السفينة: «اصعدوا بنا إلى الشاطئ». فطلع القوم وكان ذلك وقت المساء فقمت حتى صرت خلف الستارة وأخذت العود وغيرت الطرق طريقة بعد طريقة وضربتُ على الطريقة التى قد تعلمتْها منى ثم رجعت إلى موضعى.

وبعد ذلك نزل القوم من الشاطئ ورجعوا إلى مواضعهم فى السفينة وقد انبسط القمر على البر والبحر. فقال الهاشمى للجارية: «بالله عليك لا تنغصى علينا عيشنا». فأخذت العود وجسته بيدها وشهقت فظنوا أن روحها قد خرجت ثم قالت: «والله إن أستاذى معنا فى هذه السفينة» فقال الهاشمى: «والله لو كان معنا ما ضيعته من معاشرتنا لأنه ربما يخفف ما بك فننتفع بغنائك ولكن كونه فى السفينة أمر بعيد». فقالت: «لا أقدر على ضرب العود وتقليب الأهوية ومولاى معنا». قال الهاشمى «نسأل الملاحين». فقالت: «افعل». فسألهم وقال: «هل حملتم معكم أحدًا» فقالوا: «لا» وخفت أن ينقطع السؤال وضحكت وقلت: «نعم أنا أستاذها وعلمتها حين كنت سيدها». فقالت: «والله إن هذا كلام مولاى». فجاءنى الغلمان وأخذونى إلى الهاشمى. فلما رآنى عرفنى فقال: «ويحك ما هذا الذى أنت فيه وما أصابك حتى صرت فى هذه الحالة؟» فشكيت له ما جرى من أمرى وبكيت بكاءً شديدًا.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فعند ذلك علا نحيب الجارية من خلف الستارة وبكى الهاشمى هو وأخوته بكاءً شديدًا رأفةً بى ثم قال: «والله ما دنوت من هذه الجارية ولا سمعت لها غناءً إلى اليوم وأنا رجل قد وسع الله على وإنما وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقى من أمير المؤمنين وقد بلغت الأمرين ولما أردت الرجوع إلى وطنى قلت فى نفسى: أسمع شيئًا من غناء بغداد، فاشتريت هذه الجارية ولم أعلم أنكما على هذه الحالة، فأنا أشهد الله على أن هذه الجارية إذا وصلت إلى البصرة أعتقتها وأزوجك إياها وأجرى لكما ما يكفيكما وزيادة ولكن على شرط أنى إذا أردت السماع يضرب لها ستارة وتغنى من خلف الستارة وأنت من جملة إخوانى وندمائى» ففرحت بذلك، ثم إن الهاشمى استدعى بغلام له وقال له: «خذ بيد هذا الشاب وانزع ثيابه وألبسه ثيابًا فاخرة وبخره وقدمه إلينا». فأخذنى الغلام وفعل بى ما أمره

سيده وقدّمنى إليه، فوضع بين يدى الشراب مثل ما وضعه بين أيديهما. ثم اندفعت الجارية تغنى بأحسن النغمات وتنشد هذه الأبيات:

عيرونى بأن سكبت دموعى حين جاء الحبيب للتوديع
لم يذوقوا طعم الفراق ولا ما أحرقت لوعة الأسى ضلوعى
إنما يعرف الغرام كئيب ساقط القلب بين تلك الربوع

قال: فطرب القوم من ذلك طربًا شديدًا وزاد فرح الفتى بذلك حتى أخذت العود من الجارية وضربت عليه أحسن النغمات، وأنشدت هذه الأبيات:

اسأل العرف إن سألت كريمًا لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزا وسؤال اللئيم يورث عارا
وإذا لم يكن من الذل بدٌّ فالق بالذل إن سألت الكبارا
ليس إجلالك الكريم بذلٍّ إنما الذل أن تجل الصغارا

ففرح القوم بى وزاد فرحهم. ولم يزالوا فى فرح وسرور وأنا أغنى ساعة والجارية ساعة إلى أن جئنا إلى بعض السواحل فرست السفينة هناك وصعد كل من فيها وصعدت أنا أيضًا وكنت سكرانًا فقعدت فغلبنى النوم فنمت. ورجعت الركاب إلى السفينة وانحدرت بهم ولم يعلموا بى لأنهم كانوا سكارى، وكنت دفعت النفقة إلى الجارية ولم يبق معى شىء، ووصلوا إلى البصرة ولم أنتبه إلا من حرّ الشمس. فقمت فى ذلك الوقت والتفت فما رأيت أحدًا ونسيت أن أسأل الهاشمى عن اسمه وأين داره بالبصرة وبأى شىء يعرف وبقيت حيرانَ وكأن ما كنت فيه من الفرح بلقاء الجارية منام.

ولم أزل متحيرًا حتى اجتاز بى مركب عظيم فنزلت فيه ودخلت البصرة، وما كنت أعرفُ بها أحدًا ولا أعرف بيت الهاشمى. فجئت إلى بقال وأخذت منه دواة وورقة وقعدت أكتب فاستحسن خطى، ورأى ثوبى دنسًا فسألنى عن أمرى فأخبرته أنى غريب فقير. فقال: «أتقيم عندى ولك فى كل يوم نصف درهم وأكلك وكسوتك وتضبط لى حساب دكانى؟» فقلت له «نعم». وأقمت عنده وضبطت أمره ودبرت له دخله وخرجه. فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائدًا وخرجه ناقصًا فشكرنى على ذلك. ثم إنه جعل لى فى كل يوم درهمًا إلى أن حال الحول فدعانى أن أتزوج بابنته ويشاركنى فى الدكان، فأجبته إلى ذلك ولزمت الدكان إلا أنى منكسر الخاطر والقلب ظاهر الحزن.

وكان البقال يشرب ويدعونى إلى ذلك فأمتنع حزنًا. فمكثت على تلك الحالة مدّة سنتين. فبينما أنا فى الدكان وإذا بجماعة معهم طعام وشراب، فسألت البقال عن القضية فقال: «هذا يوم المتنعمين يخرج فيه أهل الطرب واللعب والفتيان من ذوى النعمة إلى شاطئ البحر يأكلون ويشربون بين الأشجار على نهر الأبلة». فدعتنى نفسى إلى الفرجة على هذا الأمر وقلت فى نفسى: «لعلى إذا شاهدت هؤلاء الناس أجتمع بمن أحب». فقلت للبقال: «إنى أريد ذلك». فقال: «شأنك والخروج معهم». ثم جهز لى طعامًا وشرابًا وسرت حتى وصلت إلى نهر الأُبُلّة فإذا الناس منصرفون فأردت الانصراف معهم وإذا برئيس السفينة التى كان فيها الهاشمى والجارية بعينه، وهو سائر فى نهر الأبلة.

فعند ذلك صحت عليهم، فعرفني هو ومن معه وأخذوني عندهم وقالوا لي: «هل أنت حي؟» وعانقوني وسألوني عن قصتي فأخبرتهم بها. فقالوا لي: «إنا ظننا إنه قوى عليك السكر وغرقت في الماء». فسألتهم عن حال الجارية فقالوا: «إنها لما علمت بفقدك مزّقت ثيابها وأحرقت العود وأقبلت على اللطم والنحيب. فلما رجعنا مع الهاشمي إلى البصرة قلنا لها: اتركي هذا البكاء والحزن. فقالت: أنا ألبس السواد وأجعل لي قبرًا في جانب هذا الدار فأقيم عند ذلك القبر وأتوب عن الغناء، فمكناها من ذلك وهي على تلك الحالة إلى الآن». ثم أخذوني معهم إلى الدار فرأيتها على تلك الحالة.

فلما رأتني شهقت شهقة عظيمة حتى ظننت أنها ماتت. ثم قال لي الهاشمي: «خذها». فقلت: «نعم ولكن أعتقها كما وعدتني وزوّجني بها». ففعل ذلك ودفع إلينا أمتعة نفيسة وثيابًا كثيرة وفرشًا وخمسمائة دينار وقال: «هذا مقدار ما أردت إجراءه لكما في كل شهر ولكن بشرط المنادمة وسماع الجارية». ثم أخلى لنا دارًا وأمر بأن ينقل إليها جميع ما نحتاج إليه. فلما توجهت إلى تلك الدار وجدتها قد عمرت بالفرش والقماش وحملت إليها الجارية. ثم إنني جئت إلى البقّال وأخبرته بجميع ما حصل لي وسألته أن يجعلني في حلّ من طلاق ابنته من غير ذنب ودفعت إليها مهرها وما يلزمني وأقمت مع الهاشمي على ذلك سنتين وصرت صاحب نعمة عظيمة وعادت لي حالتي التي كنت فيها أنا والجارية في بغداد وقد فرج الله الكريم عنّا وأسبغ جزيل النعم وجعل مآل صبرنا إلى الظفر بالمراد، فله الحمد في المبدأ والمعاد. والله أعلم.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الملك جليعاد وابنه وردخان والوزير شماس

قالت شهر زاد: ومما يحكى أيضًا أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك في بلاد الهند وكان ملكًا عظيمًا طويل القامة حسن الصورة حسن الخلق كريم الطبائع محسنًا للفقراء محبا للرعية ولجميع أهل دولته وكان اسمه جليعاد. وكان في مملكته اثنان وسبعون ملكًا ولبلاده ثلاثمائة وخمسون قاضيًا وكان له سبعون وزيرًا وقد جعل على كل عشرة من عسكره رئيسًا، وكان أكبر وزرائه شخص يقال له شماس وكان عمره اثنتين وعشرين سنة وكان حسن الخلق والطباع لطيفًا في كلامه لبيبًا في جوابه حاذقًا في جميع أموره حكيمًا مدبرًا رئيسًا مع صغر سنه عارفًا بكل حكمة وأدب. وكان الملك يحبه محبة عظيمة ويميل إليه لمعرفته بالفصاحة والبلاغة وأحوال السياسة ولما أعطاه الله من الرحمة وخفض الجناح للرعية.

وكان ذلك الملك عادلاً في مملكته حافظًا لرعيته مواصلاً كبيرهم بالإحسان وما يليق بهم من الرعاية والعطايا والأمان والطمأنينة ومخففًا للخراج عن كامل الرعية، وكان محبا لهم كبيرًا وصغيرًا ومعاملاً لهم بالإحسان إليهم والشفقة عليهم. وأتى بحسن سيرته بينهم بما لم يأت به أحد قبله. ومع هذا كله لم يرزقه الله تعالى بولد فشق ذلك عليه وعلى أهل مملكته. فاتفق أن الملك كان مضطجعا في ليلة من الليالي وهو مشغول الفكر في عاقبة أمر مملكته ثم

غلب عليه النوم فرأى فى منامه كأنه يصب ماءً فى أصل شجرة وحول تلك الشجرة أشجار كثيرة وإذا بنار قد خرجت من تلك الشجرة وأحرقت ما كان حولها من الأشجار. فعند ذلك انتبه الملك من منامه فزعًا مرعوبًا واستدعى أحد غلمانه وقال له: «اذهب بسرعة وأتنى بشماس الوزير عاجلاً».

فذهب الغلام إلى شماس وقال له: «إن الملك يدعوك فى هذه الساعة لأنه انتبه من نومه مرعوبًا فأرسلنى إليك لتحضر عنده عاجلاً». فلما سمع شماس كلام الغلام قام من وقته وساعته وتوجه إلى الملك ودخل عليه فرآه قاعدًا على فراشه فسجد بين يديه داعيًا له بدوام العز والنعم وقال له: «لا أحزنك الله أيها الملك ما الذى أقلقك فى هذه الليلة وما سبب طلبك إياى بسرعة؟». فأذن له الملك بالجلوس وصار يقص عليه ما رآه قائلاً: «إنى رأيت فى ليلتى هذه منامًا أهالنى وهو كأنى أصب ماء فى أصل شجرة وحول تلك الشجرة أشجار كثيرة، فبينما أنا فى هذه الحالة وإذا بنار قد خرجت من أصل تلك الشجرة وأحرقت جميع ما حولها من الأشجار، ففزعت من ذلك وأخذنى الرعب فانتبهت عند ذلك وأرسلت أدعوك لكثرة معرفتك وتعبيرك للرؤيا ولما أعلمه من اتساع علمك».

فاطرق شماس برأسه ساعة ثم تبسم. فقال له الملك: «ماذا رأيت يا شماس أصدقنى الخبر ولا تخف عنى شيئًا؟». فأجابه شماس وقال له: «أيها الملك إن الله تعالى خولك وأقر عينك، وأمر هذه الرؤيا يؤول إلى كل خير. وهو أن الله تعالى يرزقك ولدًا ذكرًا يكون وارثًا للملك عنك من بعد طويل عمرك، غير أنه يكون فيه شىء لا أحب تفسيره فى هذا الوقت لأنه غير موافق لتفسيره». ففرح الملك بذلك فرحًا عظيمًا وزاد سروره وذهب عنه فزعه وطابت نفسه وقال: «إن كان الأمر كذلك من حسن تأويل هذا المنام فكمل لى تأويله إذا جاء الوقت الموافق لكمال تأويله، فالذى لا ينبغى تأويله الآن ينبغى أن تؤله لى إذا آن أوانه لأجل أن يكمل فرحى لأنى لا أبتغى بذلك غير رضا الله تعالى».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهر زاد: فلما رأى شماس من الملك أنه مصمم على تمام تفسيره احتج له بحجة دفع بها عن نفسه. فعند ذلك دعا الملك بالمنجمين وجميع المعبرين للأحلام الذين فى مملكته، فحضروا جميعًا بين يديه وقصّ عليهم ذلك المنام وقال لهم: «أريد منكم أن تخبرونى بصحة تفسيره» فتقدم واحد منهم وأخذ بإذن من الملك بالكلام. فلما أذن له قال: «اعلم أيها الملك أن وزيرك شماسًا ليس بعاجز عن تفسير ذلك وإنما هو احتشم منك وسكّن روعك ولم يظهر لك جميع التأويل بالكلية ولكن إذا أذنت لى بالكلام تكلمت».

فقال له الملك: «تكلم أيها المفسر بلا احتشام وأصدق فى كلامك».

حكاية جليعاد مع المفسر

فقال المفسر: «اعلم أيها الملك أنه يظهر منك غلام يكون وارثًا للملك عنك بعد طول حياتك ولكنه لا يسير فى الرعية بسيرك يخالف رسومك ويجور على رعيتك ويصيبه ما أصاب الفأر مع السنور فاستعاذ بالله تعالى». فقال الملك: «وما حكاية السنور والفأر؟».

فقال الشماس: «أطال الله عمر الملك إن السنور وهو القط سرح ليلة من الليالي إلى شيء يفترسه في بعض الغيطان فما وجد شيئًا وضعف من شدة البرد والمطر الذى صار في تلك الليلة فأخذ يحتال لنفسه بشيء يفوز به. فبينما هو دائر على تلك الحالة إذ رأى وكرًا فى أسفل شجرة فدنا منه وصار يشمشم ويدندن حتى أحسّ بأن داخل الوكر فأرًا فحاوله وهمّ بالدخول عليه لكى يأخذه : فلما أحس به الفأر أعطاه قفاه وصار يزحف على يديه ورجليه لكى يسدّ باب الوكر عليه. فعند ذلك صار السنور يصوّت صوتًا ضعيفًا ويقول له: «لم تفعل ذلك يا أخى وأنا ملتجيء إليك لتفعل معى رحمة بأن تقرّنى فى وكرك هذه الليلة لأنى ضعيف الحال من كبر سنى وذهاب قوتى ولست أقدر على الحركة وقد توغلت فى هذا الغيط هذه الليلة، وكم مرة دعوت بالموت على نفسى لكى أستريح وها أنا على بابك طريح من البرد والمطر، وأسألك بالله من صدقتك أن تأخذ بيدى وتدخلنى عندك وتؤوينى فى دهليز وكرك لأنى غريب ومسكين، وقد قيل: من آوى بمنزله غريبًا مسكينًا كان مأواه الجنة يوم الدين، فأنت يا أخى حقيق بأن تكسب أجرى وتأذن لى فى أن أبيت عندك هذه الليلة إلى الصباح ثم أروح إلى حال سبيلى».

فلما سمع الفأر كلام السنور قال له: «كيف تدخل وكرى وأنت لى عدو بالطبع ومعاشك من لحمى وأخاف أن تغدر بى لأن ذلك من شيمتك لأنه لا عهد لك، وقد قيل: لا ينبغى الأمان للرجل الزانى على المرأة الحسناء ولا للفقير العائل على المال ولا للنار على الحطب، وليس بواجب علىّ أن استأمنك على نفسى، وقد قيل: «عداوة الطبع كلما ضعف صاحبها كانت أقوى».

فأجاب السنور قائلاً بأخمد صوت وأسوأ حال: «إن الذى قلته من المواعظ حقّ ولست أنكر عليك ولكن أسألك الصفح عما مضى من العداوة الطبيعية التى بينى وبينك لأنه قد قيل: من صفح عن مخلوق مثله صفح خالقه عنه وقد كنت قبل ذلك عدوا لك وها أنا اليوم طالب صداقتك. وقد قيل: إذا أردت أن يكون عدوك صديقًا لك فافعل معه خيرًا. وأنا يا أخى أعطيك عهد الله وميثاقه أنى لا أضرك أبدًا، ومع هذا ليس لى قدرة على ذلك، فثق بالله وافعل خيرًا واقبل عهدى وميثاقى».

فقال الفأر: «كيف أقبل عهد من تأسست العداوة بينى وبينه وعادته أن يغدر بى؟ ولو كانت العداوة بيننا على شيء من الأشياء غير الدم لهان علىّ ذلك ولكنها عداوة طبيعية بين الأرواح، وقد قيل: من استأمن عدوه على نفسه كمن أدخل يده فى فم الأفعى».

فقال السنور وهو ممتلىء غيظًا: «قد ضاق صدرى وضعفت نفسى وها أنا فى النزع وعن قليل أموت على بابك ويبقى إثمى عليك لأنك قادر على نجاتى مما أنا فيه وهذا آخر كلامى معك».

فحصل للفأر خوف من الله ونزلت فى قلبه الرحمة وقال فى نفسه: «من أراد المعونة من الله تعالى على عدوه فليصنع معه رحمة وخيرًا، وأنا متوكل على الله فى هذا الأمر وأنقذ السنور من هذا الهلاك لأكسب أجره».

فعند ذلك خرج الفأر إلى السنور وأدخله فى وكره سحبًا. فأقام عنده إلى أن اشتد واستراح وتعافى قليلاً فصار يتأسف على ضعفه وذهاب قوّته وقلّة أصدقائه. فصار الفأر يترفق به ويأخذ بخاطره ويتقرب منه ويسعى حوله.

وأما السنور فإنه زحف إلى الوكر حتى ملك المخرج خوفًا أن يخرج منه الفأر. فلما أراد الخروج قرب السنور على عادته، فلما صار قريبًا منه قبض عليه وأخذه بين أظافره وصار يعضه وينثره ويأخذه فى فمه ويرفعه عن الأرض ويرميه ويجرى وراءه وينهشه ويعذّبه. فعند ذلك استغاث الفأر وطلب الخلاص من الله وجعل يعاتب السنور ويقول: «أين العهد الذى عاهدتنى به وأين أقسامك التى أقسمت بها، أهذا جزائى منك وقد أدخلتك وكرى واستأمنتك على نفسى؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: ولكن صدق من قال: من أخذ عهدًا من عدوه لا يبتغى لنفسه نجاة، ومن قال: من سلّم نفسه لعدوّه كان مستوجبًا لنفسه الهلاك، ولكن توكلت على خالقى فهو الذى يخلصنى منك».

فبينما هو على تلك الحالة مع السنور وهو يريد أن يهجم عليه ليفترسه وإذا برجل صيّاد معه كلاب جارحة معوّدة على الصيد، فمرّ منها كلب على باب الوكر فسمع فيه معركة كبيرة فظنّ أن فيه ثعلبًا يفترس شيئًا. فاندفع الكلب منحدرًا ليصطاده فصادف السنور فجذبه إليه.

فلما وقع السنور بين يدى الكلب التهى بنفسه وأطلق الفأر حيا ليس فيه جرح. وأما هو فإنه خرج به الكلب الجارح بعد أن قطع عصبه ورماه ميتًا. وصدق فى حقهما قول من قال: «من رَحم رُحم آجلاً ومن ظَلم ظُلم عاجلاً».

هذا ما جرى لهما أيها الملك. فلذلك لا ينبغى لأحد أن ينقض عهد من استأمنه، ومن غدر وخان يحصل له مثل ما حصل للسنور، لأنه كما يدين الفتى يُدان ومن يرجع إلى الخير ينل الثواب ولكن لا تحزن أيها الملك ولا يشق عليك ذلك لأن ولدك بعد ظلمه وعسفه ربما يعود إلى حسن سيرتك.

وإن هذا العالم الذى هو وزيرك شماس أحبّ أن لا يكتم عليك شيئًا فيما رمزه إليك وذلك رشدٌ منه لأنه قد قيل: «أكثر الناس خوفًا أوسعهم علمًا وأغبطهم خيرًا». فأذعن الملك عند ذلك وأمر لهم بإكرام جزيل ثم صرفهم وقام ودخل مكانه وصار يفكر فى عاقبة أمره. ثم إن بعض نسائه وكانت أكرمهنّ عنده وأحبهن إليه حبلت. فلما مضى لها نحو أربعة أشهر تحرّك الحمل فى بطنها ففرحت بذلك فرحًا شديدًا وأعلمت الملك بذلك.

فقال: «صدقت رؤياى والله المستعان».

ثم إنه أنزلها أحسن المنازل وأكرمها غاية الإكرام وأعطاها إنعامًا جزيلاً وخولها

بشيء كثير. وبعد ذلك دعا ببعض الغلمان وأرسله ليحضر شماسًا، فلما حضر حدثه الملك بما صار من حمل زوجته وهو فرحان قائلاً: «قد صدقت رؤياى واتصل رجائى فلعل ذلك الحمل يكون ولدًا ذكرًا ويكون وارثًا لملكى، فما تقول يا شماس فى ذلك؟».

فسكت شماس ولم ينطق بجواب. فقال له الملك: «ما لى أراك لا تفرح لفرحى ولا ترد لى جوابًا يا ترى هل أنت كاره لهذا الأمر يا شماس؟» فسجد عند ذلك شماس بين يدى الملك.

وقال: «أيها الملك أطال الله عمرك ما الذى ينفع المستظل بشجرة إذا كانت النار تخرج منها، وما لذة شارب الخمر الصافى إذا حصل له بها الشرق، وما فائدة الناهل من الماء العذب البارد إذا غرق فيه؟ إنما أنا عبد الله ولك أيها الملك، ولكن قد قيل: ثلاثة أشياء لا ينبغى للعاقل أن يتكلم بها إلا إذا تمت: المسافر حتى يرجع من سفره، والذى فى الحرب حتى يقهر عدوه، والمرأة الحامل حتى تضع حملها. فاعلم أيها الملك أن المتكلم فى شأن شيء لم يتمّ مثل الناسك المدفوق على رأسه السمن». فقال له الملك: «وكيف حكاية الناسك وما جرى له؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية خطاب شماس قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد: فقال له شماس: اعلم أيها الملك أنه كان ناسك عند شريف من أشراف بعض المدن وكان للناسك جراية فى كل يوم من رزق ذلك الشريف وهى ثلاثة أرغفة مع قليل من السمن والعسل وكان السمن فى ذلك البلد غاليًا. وكان الناسك يجمع الذى يجيء إليه فى جرة عنده حتى ملأها وعلّقها فوق رأسه خوفًا واحتراسًا. فبينما هو ذات ليلة من الليالى جالس على فراشه وعصاه فى يده إذ عرض له فكر فى أمر السمن وغلائه فقال فى نفسه: «ينبغى أن أبيع هذا السمن الذى عندى جميعه وأشترى بثمنه نعجة وأشارك عليها أحدًا من الفلاحين، فإنها فى أول عام تلد ذكرًا وأنثى وثانى عام تلد أنثى وذكرًا، ولا تزال هذه الغنم تتوالد ذكورًا وإناثًا حتى تصير شيئًا كثيرا، وأقسم حصتى بعد ذلك وأبيع ما شئت وأشترى الأرض الفلانية وأنشيء فيها غيطًا وأبنى فيها قصرًا عظيما وأقتنى ثيابا وملبوسا وأشترى عبيدًا وجوارى وأتزوج بنت التاجر الفلانى وأعمل عرسًا ما صار مثله قطّ وأذبح الذبائح وأعمل الأطعمة الفاخرة والحلويات والملبسات وغيرها وأجمع فيه أهل الملاعب وأرباب الفنون وآلات السماع وأجهز الأزهار والمشمومات وأصناف الرياحين وأدعو الأغنياء والفقراء والعلماء والرؤساء وأرباب الدولة، وكل من طلب شيئًا أحضرته إليه، وأجهز أنواع المأكل والمشرب وأطلق مناديًا ينادى من يطلب شيئًا يناله.

«وبعد ذلك أدخل على عروستى بعد جلائها وأتمتع بحسنها وجمالها وآكل وأشرب وأطرب وأقول لنفسى: قد بلغت مناك. وأستريح من النسك والعبادة، وبعد ذلك تحمل زوجتى وتلد غلامًا ذكرًا فأفرح به وأعمل له الولائم وأربيه فى الدلال وأعلمه الحكمة والأدب والحساب وأشهر اسمه بين الناس وأفتخر به عند أرباب المجالس وآمره بالمعروف فلا يخالفنى

وأنهاه عن الفاحشة والمنكر وأوصيه بالتقوى وفعل الخير وأعطيه العطايا الحسنة السنية، فإن رأيته لزم الطاعة زدته عطايا صالحة، وإن رأيته مال إلى المعصية أنزل عليه بهذه العصا، ورفعها ليضرب بها ولده فأصابت جرّة السمن التى فوق رأسه فكسرتها، فعند ذلك نزلت بشقفاتها على دماغه وساح السمن على رأسه وعلى ثيابه وعلى لحيته وصار عبرة فلأجل ذلك أيها الملك لا ينبغى للإنسان أن يتكلم على شىء قبل أن يصير».

فقال له الملك: «لقد صدقت فيما قلت ونعم الوزير أنت لكونك بالصدق نطقت وبالخير أشرت ولقد صارت رتبتك عندى على ما تحب ولم تزل مقبولاً». فسجد شماس لله وللملك ودعا له بدوام النعم، وقال له: «أدام الله أيامك وأعلى شانك واعلم أننى لست أكتم عنك شيئًا لا فى السرّ ولا فى العلانية ورضاك رضاى وغضبك غضبى وليس لى فرح إلا بفرحك ولا يمكننى أن أبيت وأنت ساخط على لأن الله تعالى رزقنى بكل خير بإكرامك، إياى، فاسأل الله تعالى أن يحرسك بملائكته ويحسن ثوابك عند لقائه».

فابتهج الملك عند ذلك. ثم قام شماس وانصرف من عند الملك. ثم بعد مدة وضعت زوجة الملك غلاما ذكرًا فنهض المبشرون إلى الملك وبشروه بغلام. ففرح بذلك فرحًا شديدًا وشكر الله شكرًا جزيلاً وقال: «الحمد لله الذى رزقنى ولدًا بعد اليأس وهو الشفوق الرؤوف على عباده». ثم إن الملك كتب إلى سائر أهل مملكته ليعلمهم بالخبر ويدعوهم إلى منزله. فحضر له الأمراء والرؤساء والعلماء وأرباب الدولة الذين تحت أمره أما ما كان من أمر ولده قد دقت له البشائر والأفراح فى سائر المملكة وأقبل أهلها إلى الحضور من سائر الأقطار وأقبل أهل العلوم والفلسفة والأدباء والحكماء ودخلوا جميعهم إلى الملك ووصل كل منهم إلى حد مقامه. ثم أشار إلى الوزراء السبعة الكبار الذين رئيسهم شماس أن يتكلم كل واحد منهم على قدر ما عنده من الحكمة فى شأن ما هو بصدده. فابتدأ رئيسهم الوزير شماس واستأذن الملك فى الكلام فأذن له.

فقال: «الحمد لله الذى أنشأنا من العدم إلى الوجود المنعم على عباده الملوك أهل العدل والإنصاف بما أولاهم من الملك والعمل الصالح وبما أجراه على أيديهم لرعيته من الرزق وخصوصا ملكنا الذى أحيا به موات بلادنا بما أسداه الله علينا من النعم ورزقنا من سلامته برخاء العيش والطمأنينة والعدل، فأى ملك يصنع بأهل مملكته ما صنع هذا الملك بنا من القيام بمصالحنا وأداء حقوقنا وإنصاف بعضنا من بعض وقلّة الغفلة عنّا ورد مظالمنا ومن فضل الله على الناس أن يكون ملكهم متعهدًا لأمورهم وحافظًا لهم من عدوّهم لأن العدوّ غاية قصده أن يقهر عدوّه وأن يملكه فى يده، وكثير من الناس يقدمون أولادهم إلى الملوك خدمًا فيصيرون عندهم بمنزلة العبيد لأجل أن يمنعوا عنهم الأعداء.

«وأما نحن فلم يطأ بلادنا أعداء فى زمن ملكنا لهذه النعمة الكبرى والسعادة العظمى التى لم يقدر الواصفون على وصفها وإنما هى فوق ذلك، وأنت أيها الملك حقيق بأنك أهل لهذه النعمة العظيمة ونحن تحت كنفك وفى ظل جناحك أحسن الله ثوابك وأدام بقاءك لأننا كنا قبل ذلك نجد فى الطلب من الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بالإجابة ويبقيك لنا

ويعطيك ولدًا صالحًا تقرّ به عيناك والله سبحانه وتعالى قد تقبّل واستجاب دعاءنا وآتانا بالفرج القريب مثل ما أتى لبعض السمك فى غدير الماء».

فقال الملك: «وما حكاية السمك وكيف ذلك، أيها الوزير؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية شماس قصة السمكات قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد: فقال شماس: «اعلم أيها الملك أنه كان فى بعض الأماكن غدير ماء وكان فيه بعض سمكات، فعرض لذلك الغدير أنه قلّ ماؤه وصار ينضم بعضه إلى بعض ولم يبق من الماء ما يسعفها فكادت أن تهلك وقالت: «ما عسى أن يكون من أمرنا وكيف نحتال ومن نستشيره فى نجاتنا؟». فقامت سمكة منهن وكانت أكبرهن عقلاً وسنا وقالت: «ما لنا حيلة فى خلاصنا إلا الطلب من الله، ولكن نلتمس الرأى من السرطان فإنه أكبرنا، فهلمّ بنا إليه لننظر ما يكون من رأيه لأنه أكثر منّا معرفة بحقائق الكلام».

فاستحسن رأيها وجئن بأجمعهن إلى السرطان فوجدنه رابضًا فى موضعه وليس عنده علم ولا خبر مما هن فيه. فسلّمن عليه وقلن له: «يا سيدنا أما يعنيك أمرنا وأنت حاكمنا ورئيسنا؟»، فأجابهم السرطان قائلاً: «وعليكن السلام. ما الذى بكنّ وما تردن؟»، فقصصن عليه قصتهن وما دهاهن من أمر نقص الماء وإنه متى نشف حصل لهنّ الهلاك. ثم قلن له: «وقد جئناك منتظرات رأيك وما يكون فيه النجاة لأنك كبيرنا وأعرَف منّا».

فعند ذلك أطرق برأسه مليا ثم قال: «لا شك أن عندكنّ نقص عقل ليأسكن من رحمة الله تعالى وكفالته بأرزاق خلائقه جميعًا، ألم تعلمن أن الله سبحانه وتعالى يرزق عباده بغير حساب وقدّر أرزاقهم قبل أن يخلق شيئًا من الأشياء وجعل لكل شخص عمرًا محدودًا ورزقًا مقسومًا بقدرته الإلهية، فكيف نحمل همّ شىء هو فى الغيب مسطورًا؟ والرأى عندى أنه لم يكن شىء أحسن من الطلب من الله تعالى، فينبغى أن كل واحد منّا يصلح سريرته مع ربّه فى سره وعلانيته ويدعو الله أن يخلصنا وينقذنا من الشدائد لأن الله تعالى لا يخيب رجاء من توكل عليه ولا يرد طلب من توسل إليه، فإذا أصلحنا أحوالنا استقامت أمورنا وحصل لنا كل خير ونعمة، وإذا جاء الشتاء وغمر أرضنا بدعاء صالحنا فلا يهدم الخير الذى بناه، فالرأى أن نصبر وننتظر ما يفعله الله بنا، فإن كان يحصل لنا موت على العادة استرحنا، وإن كان يحصل لنا ما يوجب الهرب هربنا ورحلنا من أرضنا إلى حيث يريد الله». فأجاب السمك جميعه من فم واحد: «صدقت يا سيدنا جزاك الله عنا خيرًا». وتوجهت كل واحدة منهن إلى موضعها. فما مضى إلا أيام قلائل وأتاهن الله بمطر شديد حتى ملأ محل الغدير زيادة عمّا كان أولاً.

وهكذا نحن أيها الملك كنّا يائسين من أن يكون لك ولد. وحيث منّ الله علينا وعليك بهذا الولد المبارك فنسأل الله تعالى أن يجعله ولدًا مباركًا وأن يقرّ به عينك ويجعله خليفة صالحا ويرزقنا منه مثل ما رزقنا منك فإن الله تعالى لا يخيّب من قصده ولا ينبغى لأحد أن يقطع رجاءه من الله». ثم قام الوزير الثانى وسلّم على الملك، فأجابه الملك قائلاً «وعليكم

السلام». فقال ذلك الوزير: «إن الملك لا يسمّى ملكًا إلا إذا أعطى وعدل وحكم وأكرم وأحسن سيرته مع رعيته بإقامة الشرائع والسنن المألوفة بين الناس وأنصف بعضهم من بعض وحقن دماءهم وكف الأذى عنهم، ويكون موصوفًا بعدم الغفلة عن فقرائهم وإسعاف أعلاهم وأدناهم وإعطائهم الحق الواجب لهم حتى يصيروا جميعًا داعين له ممتثلين لأمره. لأنه لا شكّ أن الملك الذى بهذه الصفة محبوب عند الرعية مكتسب من الدنيا علاها ومن الآخرة شرفها ورضا خالقها. ونحن معاشر العبيد معترفون لك أيها الملك بأن جميع ما وصفناه عندك كما قيل: خير الأمور أن يكون ملك الرعية عادلا وحكيمها ماهرا وعالمها خبيرا عاملا بعلمه، ونحن الآن متنعمون بهذه السعادة، وكنا قبل ذلك قد وقعنا فى اليأس من حصول ولد لك يرث ملكك، ولكن الله جلّ اسمه لم يخيب رجاءك وقبل دعاءك لحسن ظنك به وتسليم أمرك إليه، فنعم الرجاء رجاؤك، وقد صار فيك ما صار للغراب والحية». فقال الملك: «كيف ذلك وما حكاية الغراب والحية؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الوزير الثانى وقصة الغراب والحية قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد: فقال الوزير: اعلم أيها الملك أنه كان غراب ساكنًا فى شجرة هو زوجته فى أرغد عيش إلى أن بلغا زمان تفريخهما وكان زمن القيظ، فخرجت حية من وكرها وقصدت تلك الشجرة فتعلقت بفروعها إلى أن صعدت إلى عشّ الغراب وربضت فيه ومكثت مدّة أيام الصيف وصار الغراب مطرودًا لا يجد له فرصة ولا موضعًا يرقد فيه.

فلما انقضت أيام الحر ذهبت إلى موضعها. فقال الغراب لزوجته: «نشكر الله تعالى الذى نجانا وخلّصنا من هذه الآفة ولو كنا حُرمنا من الزاد فى هذه السنة لأن الله تعالى لا يقطع رجاءنا، فنشكره على ما منّ علينا من السلامة وصحة أبداننا وليس لنا اتكال إلا عليه، وإذا أراد الله وعشنا إلى العام القابل عوّض الله علينا نتاجنا».

فلما كان وقت تفريخهما خرجت الحية من موضعها وقصدت الشجرة. فبينما هى متعلقة ببعض أغصانها وهى قاصدة عشّ الغراب على العادة إذا بحدأة قد انقضت عليها وضربتها فى رأسها فخدشتها فعند ذلك سقطت الحية على الأرض مغشيا عليها وطلع عليها النمل فأكلها، وصار الغراب مع زوجته فى سلامة وطمأنينة وفرخا أولادًا كثيرة وشكرا الله على سلامتهما وعلى حصول الأولاد. ونحن أيها الملك يجب علينا شكر الله على ما أنعم به عليك وعلينا بهذا المولود المبارك السعيد بعد اليأس وقطع الرجاء».

ثم قام الوزير الثالث وقال: أبشر أيها الملك العادل بالخير العاجل والثواب الآجل، لأن كل من تحبه أهل الأرض تحبه أهل السماء والله تعالى قسم لك المحبة وجعلها فى قلوب أهل مملكتك. فله الشكر وله الحمد منّا ومنك ولكى يزيد نعمته عليك وعلينا بك. واعلم أيها الملك أن الإنسان لا يستطيع شيئًا إلا بأمر الله تعالى وأنه هو المعطى وكل خير عند شخص إليه ينتهى، قسم النعم على عبيده كما يجب. فمنهم من أعطاه مواهب كثيرة، ومنهم من شغله

بتحصيل القوت، ومنهم من جعله رئيسًا، ومنهم من جعله زاهدًا في الدنيا راغبًا إليه لأنه هو الذى قال: «أنا الضار النافع، أشفى وأمرض وأغنى وأفقر وأميت وأحيى وبيدى كل شيء وإلىّ المصير، فواجب على جميع الناس شكره. وأنت أيها الملك من السعداء الأبرار كما قيل: إن أسعد الأبرار من جمع الله له بين خيرى الدنيا والآخرة ويقنع بما قسم الله له ويشكره على ما أقامه، ومن تعدّى وطلب غير ما قدّر الله له وعليه يشبه حمار الوحش والثعلب». قال الملك: «وما حديثهما؟».

حكاية الوزير الثالث وقصة حمار الوحش والثعلب قدام الملك جليعاد

قال الوزير: «اعلم أيها الملك أن ثعلبًا كان يخرج كل يوم من وطنه ويسعى على رزقه. فبينما هو ذات يوم فى بعض الجبال وإذا بالنهار قد انقضى وقصد الرجوع فاجتمع على ثعلب رآه ماشيًا، وصار كل منهما يحكى لصاحبه حكايته مع ما افترسه.

فقال أحدهما: «إننى الأمس وقعت فى حمار وحشى وكنت جائعاً وكان لى ثلاثة أيام ما أكلت، ففرحت بذلك وشكرت الله تعالى الذى سخره لى. ثم إنى عمدت إلى قلبه فأكلته وشبعت، ثم رجعت إلى وطنى ومضى على ثلاثة أيام لم أجد شيئًا آكله ومع ذلك أنا شبعان الآن». فلما سمع الثعلب الحكاية حسده على شبعه وقال فى نفسه: «لابد لى من أكل قلب حمار الوحش». فترك الأكل أيامًا حتى انهزل وأشرف على الموت وقصر سعيه واجتهاده وربض فى وطنه.

فبينما هو فى وطنه ذات يوم من الأيام وإذا بصيادين ماشيين قاصدين الصيد فوقع لهما حمار وحش فاقاما النهار كله فى أثره طردًا. ثم إن بعضهما رماه بسهم مشعب فأصابه ودخل جوفه واتصل بقلبه فقتله مقابل وكر الثعلب المذكور فأدركه الصيادان فوجداه ميتًا فأخرجا السهم الذى أصابه فى قلبه. فلم يخرج إلا العود وبقى السهم مشعبًا فى بطن حمار الوحش. فلما كان المساء خرج الثعلب من وطنه وهو يتضجر من الضعف والجوع فرأى حمار الوحش على بابه طريحًا ففرح فرحًا شديدًا حتى كاد يطير من الفرح فقال: «الحمد لله الذى يسر لى شهوتى من غير تعب لأنى كنت لا أؤمل أنى أصيب حمار وحش ولا غيره، ولعلّ الله أوقع هذا وساقه إلى فى موضعى».

ثم وثب عليه وشقّ بطنه وأدخل رأسه وصار يجول بفمه فى أمعائه إلى أن وجد القلب فالتقمه بفمه وابتلعه. فلما صار داخل حلقه اشتبك شعب السهم فى عظم رقبته ولم يقدر على إدخاله فى بطنه ولا على إخراجه من حلقه وأيقن بالهلاك وقال: «حقا لا ينبغى لمخلوق أن يطلب لنفسه فوق ما قسمه الله له لأننى لو قنعت لما صرت إلى الهلاك» فلهذا أيها الملك ينبغى للإنسان أن يرضى بما قسمه الله له ويشكر نعمه عليه ولا يقطع رجاءه من مولاه. وها أنت أيها الملك بحسن نيتك وإسداء معروفك رزقك الله ولدًا بعد اليأس. فنسأل الله تعالى أن يرزقه عمرًا طويلاً وسعادة دائمة ويجعله خلفًا مباركًا موفيًا بعدك من بعد طول عمرك».

ثم قام الوزير الرابع وقال: «إن الملك إذا كان فهيمًا عالمًا بأبواب الحكمة والأحكام والسياسة مع صلاح النية والعدل فى الرعية وإكرام من يجب إكرامه وتوقير من يجب توقيره

والعفو عند القدرة فيما لابد منه ورعاية الرؤساء والمرؤوسين والتخفيف عنهم والإنعام عليهم وصون دمائهم وستر عوراتهم والوفاء بعهدهم كان حقيقًا بالسعادة الدنيوية والأخروية. فإن ذلك مما يعينه منهم ويعينه على ثبات ملكه ونصرته على أعدائه وبلوغ مأموله مع زيادة نعمة الله عليه وتوفيقه لشكره والفوز بعنايته، وأن الملك إذا كان بخلاف ذلك فإنه لم يزل فى مصائب وبلايا هو وأهل مملكته لكون جوره على الغريب والقريب، ويصير فيه ما صار لابن الملك السائح». فقال الملك: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الوزير الرابع وقصة ابن الملك السائح قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد : قال الوزير: «اعلم أيها الملك أنه كان فى بلاد الغرب ملك جائر فى حكمه ظالم غاشم عاسف مضيع لرعيته وجميع من يدخل فى مملكته. فكان لا يدخل فى مملكته أحد إلا وتأخذ عمّاله منه أربعة أخماس ويبقون له الخمس لا غير. فقدر الله تعالى أنه كان له ولد سعيد موفق. فلما رأى أحوال الدنيا غير مستقيمة تركها وخرج سائحًا عابدًا لله تعالى من صغره ورفض الدنيا وما فيها وخرج فى طاعة الله تعالى يسرح فى البرارى والقفار ويدخل المدن. ففى بعض الأيام دخل تلك المدينة فلما وقف على المحافظين أخذوه وفتشوه فلم يروا معه شيئًا سوى ثوبين أحدهما جديد والآخر عتيق. فنزعوا منه الجديد وتركوا له العتيق بعد الإهانة والتحقير. فصار هو يشكو ويقول:

«ويحكم أيها الظالمون أنا رجل فقير سائح وما عسى أن ينفعكم من هذا الثوب وإذا لم تعطوه لى ذهبت إلى الملك وشكوتكم إليه». فأجابوه قائلين: «إننا فعلنا ذلك بأمر الملك فما بدا لك أن تفعله فافعله». فصار السائح يمشى إلى أن وصل إلى بلاد الملك وأراد الدخول فمنعه الحجّاب، فرجع وقال فى نفسه: «ما لى إلا أن أرصده حتى يخرج، وأشكو إليه حالى وما أصابنى». فبينما هو على تلك الحالة ينتظر خروج الملك إذ سمع أحد الأجناد يخبر عنه، فأخذ يتقدم قليلاً قليلاً حتى وقف قبال الباب فما شعر إلا والملك خارج، فعارضه السائح ودعا له بالنصر وأخبره بما وقع له من المحافظين وشكا إليه حاله وأخبره أنه رجل من أهل الله رفض الدنيا وخرج طالباً رضاء الله تعالى فصار سائحًا فى الأرض وكل من وفد عليه من الناس أحسن إليه بما أمكنه وصار يدخل كل مدينة وكل قرية وهو على هذه الحالة. ثم قال: «فلما دخلت هذه المدينة ترجيت أن يفعل بى أهلها مثل ما يفعل بغيرى من السائحين، فعارضنى أتباعك ونزعوا أحد أثوابى وأشبعونى ضربًا، فانظرفى شانى وخذ بيدى وخلص لى ثوبى وأنا لا أقيم بهذه المدينة ساعة واحدة».

فأجاب الملك الظالم قائلا: «من أشار عليك بدخولك هذه المدينة وأنت غير عالم بما يفعل ملكها؟». فقال: «بعد أن آخذ ثوبى افعل بى مرادك». فلما سمع ذلك الملك الظالم من السائح هذا الكلام حصل عنده تغير مزاج فقال: «أيها الجاهل نزعنا عنك ثوبك لكى تذلّ وحيث وقع منك هذا الصياح عندى فأنا أنزع نفسك منك».

ثم أمر بسجنه. فلما دخل السجن جعل يندم على ما وقع منه من الجواب وعنّف نفسه حيث لم يترك ذلك ويفوز بروحه. فلما كان نصف الليل قام على قدميه وصلّى صلاة مطولة وقال: «يا الله إنك أنت الحكم العدل تعلم بحالى وما انطوى عليه أمرى مع هذا الملك الجائر، وأنا عبدك المظلوم أسألك من فيض رحمتك أن تنقذنى من يد هذا الملك الظالم وتحلّ به نقمتك لأنك لا تغفل عن ظلم كل ظالم. فإن كنت تعلم أنه ظلمنى فأحلل نقمتك عليه هذه الليلة وأنزل به عذابك لأن حكمك عدل وأنت غياث كل ملهوف يا من له القدرة والعظمة إلى آخر الدهر».

فلما سمع السجان دعاء هذا المسكين صار جميع ما فيه من الأعضاء مرعوبًا، فبينما هو كذلك وإذا بنار اتقدت فى القصر الذى فيه الملك فأحرقت جميع ما فيه حتى باب السجن ولم يخلص سوى السجان والسائح، فانطلق السائح وسار هو والسجان ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى غير تلك المدينة، وأما مدينة الملك الظالم فإنها احترقت عن آخرها».

«وأما نحن أيها الملك السعيد فما نمسى ونصبح إلا ونحن داعون لك وشاكرون الله تعالى على فضله بوجودك مطمئنين بعدلك وحسن سيرتك، وكان عندنا غمّ كثير لعدم ولد لك يرث ملكك خوفًا من أن يصير علينا ملك غيرك من بعدك. والآن قد أنعم الله بكرمه علينا وأزال عنّا الغمّ وأتانا بالسرور بوجود هذا الغلام المبارك، فنسأل الله تعالى أن يجعله خليفة صالحا ويرزقه العزّ والسعادة الباقية والخير الدائم».

ثم قام الوزير الخامس وقال: «تبارك الله العظيم مانح العطايا الصالحة والمواهب السنية، وبعد فإنّا تحققنا أن الله ينعم على من يشكره ويحافظ على دينه، وأنت أيها الملك السعيد الموصوف بهذه المناقب الجليلة والعدل والإنصاف بين رعيتك بما يرضى الله تعالى، فلأجل ذلك أعلى الله شأنك وأسعد أيامك ووهب لك هذه العطية الصالحة التى هى هذا الولد السعيد بعد اليأس،وصار لنا بذلك الفرح الدائم والسرور الذى لا ينقطع، لأننا قبل ذلك كنّا فى همّ شديد وغمّ زائد بسبب عدم ولد لك فى أفكار فيماأنت منطو عليه من عدلك ورأفتك بنا وخوفنا أن يقضى الله عليك بالموت ولم يكن لك من يخلفك ويرثُ الملك من بعدك فيختلف رأينا ويقع بيننا الشقاق ويصير بيننا ما صار للغراب». فقال الملك: «وما حكاية الغراب؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الوزير الخامس وقصة الغراب قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد : فأجابه الوزير قائلاً : «اعلم أيها الملك السعيد أنه فى بعض البرارى واد متسع وكان به أنهار وأشجار وأثمار، وبه أطيار تسبح الله الواحد القهار خالق الليل والنهار، وكان من جملة الطيور غربان وكانت فى أطيب عيش، وكان المقدّم عليها والحاكم بينها غراب رءوف بها شفوق عليها وكانت معه فى أمان وطمأنينة، ومن حسن تصرّفها فيما بينها لم يكن أحد من الطيور يقدر عليها. فاتفق أن مقدمها توفى وجاءه الأمر المحتوم على سائر

الخلق، فحزنت عليه حزنًا شديدًا، ومن زيادة حزنها أنه لم يكن فيها أحد مثله يقوم مقامه. فاجتمعت جميعًا وائتمرت فيما بينها على من يقوم عليها بحيث يكون صالحًا. فطائفة منها اختارت غرابًا وقالت: «إن هذا يصلح أن يكون ملكًا علينا». وأخرى اختلفت فيه ولم ترده فوقع بينها الشقاق والجدال وعظمت الفتنة.

وبعد ذلك حصل بينها توافق وتعاهدت على أن تنام تلك الليلة ولا يبكر أحد إلى السروح فى طلب المعيشة غدًا بل تصبر جميعًا إلى الصباح. وعند طلوع الفجر تكون مجتمعة فى موضع واحد ثم تنظر إلى كل طير يسبق فى الطيران. وقالت: «إنه هو الذى يكون مأمورًا من الله علينا ومختارًا عندنا للملك فنجعله ملكًا علينا ونوليه أمرنا».

فرضيت كلها بذلك وعاهدت بعضها بعضًا واتفقت على هذا العهد. فبينما هى على ذلك الحال إذ طلع باز فقالت له «يا أبا الخير نحن اخترناك واليًا علينا لتنظر فى أمرنا». فرضى الباز بما قالته وقال لها: «إن شاء الله تعالى سيكون لكم منى خير عظيم». ثم إنها بعد ما ولته عليها صار كل يوم إذا سرح وسرح الغربان يستفرد بأحدها ويضربه ويأكل دماغه وعينيه ويترك الباقى، ولم يزل يفعل معها هكذا حتى فطنت به فرأت غالبها قد هلك فأيقنت بالهلاك وقال بعضها لبعض: «كيف نصنع وقد هلك أكثرنا فينبغى لناأن نتحفظ لأنفسنا». فلما أصبحت نفرت منه وتفرّقت من حوله.

ونحن الآن نخشى أن يقع لنا مثل هذا ويصير علينا ملك غيرك، ولكن قد منّ الله علينا بهذه النعمة ووجّهك إلينا، ونحن واثقون الآن بالصلاح وجمع الشمل والأمن والأمانة والسلامة فى الوطن، فتبارك الله العظيم وله الحمد والشكر والثناء الجميل، وبارك الله للملك ولنا معشر الرعية ورزقنا وإياه السعادة العظمى وجعله سعيد الوقت قائم الجدّ».

ثم قام الوزير السادس وقال: «هنّأك الله أيها الملك بأحسن الهناء فى الدنيا والآخرة، فقد تقدّم من قول المتقدمين أن من صلّى وصام وقام بحقوق الوالدين وعدل فى حكمه لقى ربه وهو راض عنه، وقد وُلّيت علينا فعدلت فكنت فى ذلك سعيد الحركات. فنسأل الله تعالى أن يجزل ثوابك ويأجرك على إحسانك، وقد سمعت ما قال هذا العالم فيما نتخوف من حرمان حظنا بعدم الملك أو بوجود ملك آخر لا يكون نظيره فيعظم اختلافنا بعده ويقع البلاء فى الاختلاف وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فالواجب علينا أن نبتهل إلى الله تعالى بالدعاء لعله يهب للملك ولدًا سعيدًا ويجعله وارثًا للملك بعده. ثم بعد ذلك ربما كان الذى يحبُّه الإنسان من الدنيا ويشتهيه مجهول العاقبة له، وحينئذ لا ينبغى للإنسان أن يسأل ربه أمرًا لا يدرى عاقبته، لأنه ربما كان ضرر ذلك أقرب إليه من نفعه فيكون هلاكه فى مطلوبه مثل ما أصاب الحاوى وزوجته وأولاده وأهل بيته». قال الملك: «وما حكاية الحاوى وأولاده وزوجته وأهل بيته؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الوزير السادس قصة الحاوى قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد : فقال الوزير : «اعلم أيها الملك أنه كان حاويًا وكان يربى الحيات وهذه كانت صنعته. وكان عنده سلّة كبيرة فيها ثلاث حيات لم يعلم بها أهل بيته. وكان كل يوم يخرج يدور بها فى المدينة ويتسبب بها لتحصيل رزقه ورزق عياله ويرجع عند المساء إلى بيته ويضع الأحناش فى السلّة سرا. وعند الصباح يأخذها ويدور بها فى المدينة فكان هذا دأبه على الدوام ولم يعلم أهل بيته بما فى السلّة. فاتفق أنه لما عاد الحاوى إلى بيته على غير عادته سألته زوجته وقالت له: «ما فى السلة؟».

فقال لها الحاوى : «وما مرادك منها، أليس الزاد عندكم كثيرا زائدًا، فاقنعى بما قسم الله لك ولا تسألى عن غيره؟». فسكتت عنه تلك المرأة صارت تقول فى نفسها: «لابد لى أن افتش هذه السلة وأعرف ما فيها». وصمّمت على ذلك وأعلمت أولادها وأكّدت عليهم أن يسألوا والدهم عن تلك السلة ويلحوا عليه فى السؤال لأجل أن يخبرهم، فعند ذلك تعلق خاطر الأولاد بأن فيها شيئًا يؤكل، فصار الأولاد كل يوم يطلبون من أبيهم أن يريهم ما فى السلة، وكان أبوهم يدافعهم ويراضيهم وينهاهم عن هذا السؤال. فمضت لهم مدّة وهم على ذلك الحال وأمّهم تحثهم على ذلك، ثم اتفقوا معها على أنهم لا يذوقون طعامًا ولا يشربون شرابًا لوالدهم حتى يبلغهم طلبتهم ويفتح لهم السلة».

فبينما هم كذلك ذات ليلة إذ حضر الحاوى ومعه شيء كثير من الأكل والشرب فقعد ودعاهم ليأكلوا معه، فأبوا الحضور إليه وبينوا له الغيظ، فجعل يلاطفهم بالكلام الحسن ويقول لهم: «انظروا ماذا تريدون حتى أجيء به إليكم أكلا أو شربًا أو ملبوسًا؟». فقالوا له: «يا والدنا ما نريد منك إلا فتح هذه السلة لننظر ما فيها وإلا قتلنا أنفسنا». فقال لهم: «يا أولادى ليس لكم فيها خير وإنما فتحها ضرر لكم». فعند ذلك ازدادوا غيظًا. فلما رآهم على هذه الحالة أخذ يهددهم ويشير لهم بالضرب إن لم يرجعوا عن تلك الحالة، فلم يزدادوا إلا غيظًا ورغبةً فى السؤال، فعند ذلك غضب عليهم وأخذ عصًا ليضربهم بها فهربوا قدّامه فى الدار. وكانت السلة حاضرة لم يخفها الحاوى فى مكان. فخلّت المرأة الرجل مشغولاً بالأولاد وفتحت السلة بسرعة لكى تنظر ما فيها، وإذا بالحيّات قد خرجت من السلة ولدغت المرأة أولاً فقتلتها، ثم دارت فى الدار وأهلكت الكبار والصغار ما عدا الحاوى. فترك الحاوى الدار وخرج.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد: فلما تحققتُ ذلك أيها الملك السعيد علمت أن الإنسان ليس له أن يتمنّى شيئًا لم يرده الله تعالى بل يطيب نفسًا بما قدره الله له وأراده، وها أنت أيها الملك مع غزارة علمك وجودة فهمك أقرّ الله عينك بحضور ولد لك بعد اليأس وطيّب قلبك، ونحن نسأل الله تعالى أن يجعله من الخلفاء العادلين المرضين لله تعالى والرعية».

ثم قام الوزير السابع وقال: «أيها الملك إنى قد علمت وتحققت ما ذكره لك إخوتى

هؤلاء الوزراء العلماء والحكماء وما تكلّموا به فى حضرتك أيها الملك وما وصفوه من عدلك وحسن سيرتك وما تميّزت به عمن سواك من الملوك حيث فضّلوك عنهم، وذلك من بعض الواجب علينا أيها الملك، وأما أنا فاقول: الحمد لله الذى تولاّك لنعمته وأعطاك صلاح الملك برحمته وأعانك وإيّانا على أن نزيده شكرًا، وما ذاك إلا بوجودك، وما دمت فينا لم نتخوف جورًا ولا نبغ ظلمًا ولا يستطيع أحد أن يستطيل علينا مع ضعفنا وقد قيل: إن أحسن الرعايا من كان ملكهم عادلاً، وشرّهم من كان ملكهم جائرًا.

«وقيل أيضًا : السكنى مع الأسود الكواسر ولا السكنى مع السلطان الجائر، فالحمد لله تعالى على ذلك حمدًا دائمًا حيث أنعم علينا بوجودك، ورزقك هذا الولد المبارك بعد اليأس والطعن فى السنّ، لأن أجل العطايا فى الدنيا الولد الصالح، وقد قيل: من لا ولد له لا عاقبة له ولاذكر، وأنت بقويم عدلك وحسن ظنك بالله تعالى أعطيت هذا الولد السعيد فجاءك هذا الولد منّة من الله علينا وعليك بحسن سيرتك وجميل صبرك، وصار فيك ذلك مثل ما صار فى العنكبوت والريح». فقال الملك: «وما حكاية العنكبوت والريح؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الوزير السابع وقصة العنكبوت والريح قدام الملك جليعاد

قالت شهر زاد : قال الوزير : «اعلم أيها الملك أن عنكبوتا تعلّقت فى باب مرتفع عال وعملت لها بيتًاوسكنت فيه بأمان، وكانت تشكر الله تعالى الذى يسر لها هذا المكان وأمنَّ خوفها من الهوام، فمكثت على هذه الحال مدّة من الزمان وهى شاكرة لله على راحتها واتصال رزقها. فامتحنها خالقها بأن أخرجها لينظر شكرها وصبرها فأرسل إليها ريحًا عاصفة شرقية فحملتها ببيتها ورمتها فى البحر فجرّتها الأمواج إلى البر، فعند ذلك شكرت الله تعالى على سلامتها وجعلت تعاتب الريح قائلة لها: «أيتها الريح لِمَ فعلت بى ذلك وما الذى حصل لك من الخير فى نقلى من مكانى إلى هنا وقد كنت آمنة مطمئنة فى بيتى بأعلى ذلك الباب؟».

فقالت لها الريح: «انتهى عن العتاب فإنى سأرجع بك وأوصلك إلى مكانك كما كنت أولاً». فلبثت العنكبوت صابرة على ذلك راجية أن ترجع إلى مكانها حتى ذهبت ريح الشمال ولم ترجع بها، وهبّت ريح الجنوب فمرّت بها واختطفتها وطارت بها إلى جهة ذلك البيت. فلما مرّت عرفته فتعلّقت به.

«ونحن نسأل الله الذى أثاب الملك على وحدته وصبره ورزقه هذا الغلام بعد يأسه وكبر سنّه ولم يخرجه من هذه الدنيا حتى رزقه قرّة عين ووهب له ما وهب من الملك والسلطان فرحم رعيته وأولاهم نعمته». فقال الملك: «الحمد لله فوق كل حمد والشكر له فوق كل شكر، لا إله إلا هو خالق كل شىء الذى عرفنا بنور آثاره جلال عظمته يؤتى الملك والسلطان من يشاء من عباده فى بلاده لأنه ينتخب منهم من يشاء ليجعله خليفة ووكيلاً على خلقه ويأمره فيهم بالعدل والإنصاف وإقامة الشرائع والسنن والعمل بالحق والاستقامة فى أمورهم على ما أحب وأحبوه، فمن عمل منهم بما أمر الله كان لحظه مصيبًا ولأمر ربه مطيعًا فيكفيه هول

دنياه ويحسن جزاءه فى أخراه إنه لا يُضيع أجر المحسنين. ومن عمل منهم بغير ما أمر الله أخطأ خطأ بليغًا وعصى ربه وآثر دنياه على أخراه فليس له فى الدنيا أثر ولا فى الآخرة نصيب، لأن الله لا يمهل أهل الجور والفساد ولا يهمل أحدا من العباد وقد ذكر وزراؤنا هؤلاء أن من عدلنا بينهم وحسن تصرفنا معهم أنعم الله علينا وعليهم بالتوفيق لشكره المستوجب لمزيد إنعامه، وكل واحد منهم قال ما ألهمه الله فى ذلك وبالغوا فى الشكر لله تعالى والثناء عليه بسبب نعمته وفضله.

«وأنا أشكر الله لأنى أنا عبد مأمور وقلبى بيده ولسانى تابع له راض بما حكم علىّ وعليهم بأى شىء صار. وقد قال كل واحد منهم ما خطر بباله من أمر هذا الغلام وذكروا ما كان من متجدّد النعمة علينا حين بلغتُ من السن حدا يغلب معه اليأس وضعف اليقين، والحمد لله الذى نجانا من الحرمان، واختلاف الحكام كاختلاف الليل والنهار وقد كان ذلك إنعامًا عظيمًا عليهم وعلينا، فنحمد الله تعالى الذى رزقنا هذا الغلام سميعًا مطيعًا وجعله وارثًا من الخلافة محلا رفيعًا. نسأله من كرمه وحلمه أن يجعله سعيد الحركات موفقًا للخيرات حتى يصير ملكًا وسلطانًا على رعيته بالعدل والإنصاف، حافظًا لهم من هلكات الاعتساف بمنه وكرمه وجوده».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية تعلم ورد خان العلوم من العلماء والحكماء

قالت شهر زاد : فلما فرغ الملك من كلامه قام الحكماء والعلماء وسجدوا لله وشكروا الملك وقبّلوا يديه وانصرف كل واحد منهم إلى بيته. فعند ذلك دخل الملك بيته وأبصر الغلام ودعا له وسمّاه وردخان. فلما مضى له من العمر اثنتا عشرة سنة أراد الملك أن يعلمه العلوم فبنى له قصرًا فى وسط المدينة وبنى فيه ثلثمائة وستين مقصورة وجعل الغلام فيه ورتب له ثلاثة من الحكماء والعلماء وأمرهم أن لا يغفلوا عن تعليمه ليلاً ولا نهارًا وأن يجلسوا معه فى كل مقصورة يومًا ويحرصوا على أن لا يكون علم إلا ويعلمونه إياه حتى يصير بجميع العلوم عارفا، ويكتبوا على باب كل مقصورة ويعلمونه له فيها من أصناف العلوم ويرفعوا إليه فى كل سبعة أيام ما عرفه من العلوم.

ثم إن العلماء أقبلوا على الغلام وصاروا لا يفترون عن تعليمه ليلاً ولا نهارًا ولا يؤخرون عنه شيئًا مما عندهم من العلوم، فظهر للغلام من ذكاء العقل وجودة الفهم وقبول ما لأحد قبله وجعلوا يرفعون للملك فى كل أسبوع مقدار ما تعلمه ولده وأتقنه، فكان الملك يستظهر من ذلك علمًا حسنًا وأدبًا جميلاً. وقال العلماء: «إننا ما رأينا قطّ من أعطى فهمًا مثل هذا الغلام، فبارك الله فيه ومتعك بحياته».

فلما أتمّ الغلام مدّة اثنتى عشرة سنة حفظ من كل علم أحسنه، وفاق جميع العلماء والحكماء الذين فى زمانه، فأتى به العلماء على الملك والده وقالوا له: «أقرّ الله عينك أيها الملك بهذا الولد السعيد وقد أتيناك به بعد أن تعلم كل علم حتى لم يكن أحد من علماء الوقت

وحكمائه بلغ ما بلغه». ففرح الملك بذلك فرحًا شديدًا وزاد فى شكر الله تعالى وخر ساجدًا له عزّ وجلّ وقال: «الحمد لله على نعمه التى لا تحصى». ثم دعا بشماس الوزير وقال له: «اعلم يا شماس أن العلماء قد أتونى وأخبرونى أن ابنى هذا قد تعلّم كل علم ولم يبق من العلوم علم إلا وقد علّموه له حتى فاق من تقدمه فى ذلك فما تقول يا شماس؟». فسجد عند ذلك لله عزّ وجلّ وقبل يد الملك وقال: «أبت الياقوتة ولو كانت فى الجبل الأصمّ إلا أن تكون مضيئة كالسراج، وابنك هذا جوهرة فما تمنعه حداثته من أن يكون حكيمًا، والحمد لله على ما أولاه، وأنا إن شاء الله تعالى فى غد أسأله وأستنطقه بما عنده فى مجمع أجمعه له من خواصّ العلماء والأمراء».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية امتحان شماس ابن الملك وجوابه بالصواب له

قالت شهر زاد : فلما سمع الملك جليعاد كلام شماس أمر جهابذة العلماء وأذكياء الفضلاء ومهرة الحكماء أن يحضروا إلى قصر الملك فى غد فحضروا جميعًا، فلما اجتمعوا على باب الملك أذن لهم بالدخول، ثم حضر شماس الوزير وقبل يدى ابن الملك. فقام ابن الملك وسجد شماس. فقال له شماس: «ليس يجب على شبل الأسد أن يسجد لأحد من الوحوش ولا ينبغى أن يقترن النور بالظلام». قال الغلام: «إن شبل الأسد لما رأى وزير الملك سجد له». فعند ذلك قال شماس: «أخبرنى ما الدائم المطلق وما كوناه وما الدائم من كونيه؟». قال الغلام: «أمّا الدائم المطلق فهو الله عز وجل لأنه أوّل بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، وأما كوناه فالدنيا والآخرة، وأما الدائم من كونيه فهو نعيم الآخرة».

قال شماس : «صدقت فيما قلت وقبلته منك، غير أنى أحب أن تخبرنى من اين علمت أن أحد الكونين هو الدنيا وثانيهما هو الآخرة؟» قال الغلام: «لأن الدنيا خُلقت ولم يكن من شىء كائن فآل أمرها إلى الكون الأول، غير أنها عرض سريع الزوال مستوجب الجزاء على الأعمال وذلك يستدعى إعادة الفانى فالآخرة هى الكون الثانى». قال شماس: «صدقت فيما قلت وقبلته منك، غير أنى أحب أن تخبرنى من أين علمت أن نعيم الآخرة هو الدائم من الكونين؟» قال الغلام : علمت ذلك من أنها دار الجزاء على الأعمال التى أعدّها الباقى بلا زوال».

قال شماس : «أخبرنى أى أهل الدنيا أحمد عملاً؟». قال الغلام: «من يؤثر آخرته على دنياه». قال شماس : «ومن الذى يؤثر آخرته على دنياه؟» قال الغلام: «من كان يعلم أنه فى دار منقطعة وأنه ما خُلق إلا للفناء وإنه بعد الفناء يحاسَب وإنه لو كان فى هذه الدنيا أحد مخلدًا أبدًا لا يؤثر الدنيا على الآخرة». قال شماس: «أخبرنى هل تستقيم آخرة بغير دنيا؟» قال الغلام: «من لم يكن له دنيا فلا آخرة له، ولكن رأيت الدنيا وأهلها والمعاد الذى هم صائرون إليه كمثل أهل هؤلاء الضياع الذين ابتنى لهم أمير بيتًا ضيقًا وأدخلهم فيه وأمرهم بعمل يعملونه، وضرب لكل واحد منهم أجلاً ووكل به شخصًا، فمن عمل منهم ما أمر به أخرجه

الشخص الموكل به من ذلك الضيق، ومن لم يعمل ما أمر به وقد انقضى الأجل المضروب له عُوقب، فبينما هم كذلك إذ رشح لهم من شقوق البيت عسل. فلما أكلوا من ذلك العسل وذاقوا طعمه وحلاوته توانوا فى العمل الذى أمروا به ونبذوه وراء ظهورهم وصبروا على ما هم فيه من الضيق والغمّ مع ما علموا من تلك العقوبة التى هم صائرون إليها وقنعوا بتلك الحلاوة اليسيرة، وصار الموكل لا يدع أحدًا منهم إذا جاء أجله ولا ويخرجه من ذلك البيت، فعرفنا أن الدنيا دار تتحير فيها الأبصار وضُرب لأهلها فيها الآجال، فمن وجد الحلاوة القليلة التى تكون فى الدنيا وأشغل نفسه بها كان من الهالكين، حيث آثر أمر دنياه على آخرته، ومن يؤثر أمر آخرته على دنياه ولم يلتفت إلى تلك الحلاوة القليلة كان من الفائزين».

قال شماس: «قد سمعت ما ذكرت من أمر الدنيا والآخرة وقبلت ذلك منك ولكنى قد رأيتهما مسلّطين على الإنسان فلابدّ له من إرضائهما معًا وهما مختلفان، فإن أقبل العبد على طلب المعيشة فذلك إضرار بروحه فى المعاد، وإن أقبل على الآخرة كان ذلك إضرارًا بجسده، وليس له سبيل إلى إرضاء المتخالفين معًا». قال الغلام: «إنه من حصل المعيشة فى الدنيا تقويه على الآخرة، فإنى رأيت أمر الدنيا والآخرة مثل ملكين عادل وجائر، وكانت أرض الملك الجائر ذات أشجار وأثمار ونبات، وكان ذلك الملك لا يدع أحدًا من التجار إلا أخذ ماله وتجارته وهم صابرون على ذلك لما يصيبون من خصب تلك الأرض فى المعيشة. وأما الملك العادل فإنه بعث رجلاً من أهل أرضه وأعطاه مالاً وافرًا وأمره أن ينطلق به إلى أرض الملك الجائر ليبتاع به جواهر منها.

«فانطلق ذلك الرجل بالمال حتى دخل تلك الأرض، فقيل للملك: «إنه جاء إلى أرضك رجل تاجر ومعه مال كثير يريد أن يبتاع به جواهر منها». فأرسل إليه وأحضره وقل له: «من أنت ومن أين أتيت ومن جاء بك إلى أرضى وماحاجتك؟» فقال له: «إنى من أرض كذا وكذا وإن ملك تلك الأرض أعطانى مالاً وأمرنى أن أبتاع له به جواهر من هذه الأرض فامتثلت أمره وجئت» فقال له الملك: «ويحك أما علمت صنعى بأهل أرضى من أنى آخذ مالهم فى كل يوم فكيف تأتينى بمالك وها أنت مقيم فى أرضى منذ كذا وكذا؟». فقال له التاجر «إن المال ليس لى منه شىء وإنما هو أمانة تحت يدى حتى أوصله إلى صاحبه». فقال له: «إنى لست بتاركك تأخذ معيشتك من أرضى حتى تفدى نفسك بهذا المال جميعه أو تهلك». فقال الرجل فى نفسه: «قد وقعت بين ملكين وقد علمت أن جور هذا الملك عام على من أقام بأرضه، فإن لم أرضه كان هلاكى وذهاب المال لابد منهما ولم أصب حاجتى، وإن أعطيته جميع المال كان هلاكى عند الملك صاحب المال لابدّ منه، وليس لى حيلة سوى أنى أعطيته من هذا المال جزءًا يسيرًا وأرضيه به وأدفع عن نفسى وعن هذا المال الهلاك، وأصيب من خصب هذه الأرض قوت نفسى حتى أبتاع ما أريد من الجواهر وأكون قد أرضيته بما أعطيته وآخذ نصيبى من أرضه هذه وأتوجه إلى صاحب المال بحاجته، فإنى أرجو من عدله وتجاوزه مالا نخاف معه عقوبة فيما أخذه هذاالملك من المال خصوصًا إذا كان يسيرًا» ثم إن التاجر دعا للملك وقال له: «أيها الملك أنا أفتدى نفسى وهذا المال بجزء صغير منه منذ دخلت أرضك حتى أخرج

منها». فقبل الملك منه ذلك وخلّى سبيله سنة. فاشترى الرجل بماله جميعه جواهر وانطلق إلى صاحبه، فالملك العادل مثال للآخرة. والجواهر التى بأرض الملك الجائر مثال للحسنات والعمل الصالح، والرجل صاحب المال مثال لمن طلب الدنيا، والمال الذى معه مثال لحياة الإنسان. فلما رأيت ذلك علمت أنه ينبغى لمن يطلب المعيشة فى الدنيا أن لا يخلى يومًا عن طلب الآخرة. فيكون قد أرضى الدنيا بما ناله من خصب الأرض وأرضى الآخرة بما يصرف من حياته فى طلبها».

قال شماس: «فأخبرنى هل الجسد والروح سواء فى الثواب والعقاب أو إنما يختصّ بالعقاب صاحب الشهوات وفاعل الخطيئات؟» قال الغلام: «قد يكون الميل إلى الشهوات والخطيئات موجبًا للثواب بحبس النفس فيها والتوبة منها، والأمر بيد من يفعل ما يشاء، وبضدها تتميز الأشياء، على أن المعاش لابدّ منه للجسد ولا جسد إلا بالروح، وطهارة الروح بإخلاص النية فى الدنيا والالتفات إلى ما ينفع فى الآخرة ، فهما فرسا رهان، ورضيعا لبان، ومشتركان فى الأعمال، وباعتبار النية تفصيل الإجمال، وكذلك الجسدوالروح مشتركان فى الأعمال وفى الثواب والعقاب.

«وذلك مثل الأعمى والمقعد اللذين أخذهما رجل صاحب بستان وأدخلهما بستانه وأمرهما أن لا يفسدا فيه ولا يصنعان فيه أمرًا يضرّ به. فلما طابت أثمار البستان قال المقعد للأعمى: «ويحك إنى أرى أثمارا طيبة وقد اشتهيتها ولست أقدر على القيام إليها لأكل منها، فقم أنت لأنك صحيح الرجلين وائتنا منها بما نأكل».

فقال الأعمى: «ويحك قد ذكرتها لى وقد كنت عنها غافلاً ولست أقدر على ذلك لأنى لست أبصرها فما الحيلة فى تحصيل ذلك؟». فبينما هما كذلك إذا أتاهما الناظر على البستان وكان رجلا عالمًا. فقال له المقعد: «ويحك يا ناظر أنا قد اشتهيت شيئًا من هذه الثمار ونحن كما ترى أنا مقعد وصاحبى هذا أعمى لا يبصر شيئًا فما حيلتنا؟». فقال لهما الناظر: «ويحكما ألستما تعلمان ما قد عاهدكما عليه صاحب البستان من أنكما لا تتعرّضا لشىء مما يؤثر فيه الفساد فانتهيا ولا تفعلا؟» فقالا له: «لابد لنا من أن نصيب من هذه الثمار ما نأكله فأخبرنا بما عندك من الحيلة».

فلما لم ينتهيا عن أيهما قال لهما: «الحيلة فى ذلك أن يقوم الأعمى ويحملك أيها المقعد على ظهره ويدنيك من الشجرة التى تعجبك أثمارها حتى إذا أدناك منها تجنى أنت ما أصبت من الثمار».

فقام الأعمى وحمل المقعد وجعل المقعد يهديه إلى السبيل حتى أدناه إلى شجرة فصار المقعد يأخذ منها ما أحب، ولم يزل ذلك دأبهما حتى أفسدا ما فى البستان من الشجر، وإذا بصاحب البستان قد جاء وقال لهما: «ويحكما ما هذه الفعال، ألم أعاهدكما على أن لا تفسدا فى هذا البستان؟».

فقالا له: «قد علمت أننا لم نقدر أن نصل إلى شىء من الأشياء لأن أحدنا مقعد لا يقوم والآخر أعمى لا يبصر ما بين يديه فما ذنبنا؟». فقال لهما صاحب البستان: «لعلكما

تظنان أنى لست أدرى كيف صنعتما وكيف أفسدتما فى بستانى، كأنى بك أيها الأعمى قد قمت وحملت المقعد على ظهرك وصار يهديك السبيل حتى أوصلته إلى الشجر». ثم إنه أخذهما وعاقبهما وأخرجهما من البستان.

«فالأعمى مثال للجسد لأنه لا يبصر إلا بالنفس، والمقعد مثال للنفس التى لا حركة لها إلا بالجسد، وأما البستان فإنه مثال للعمل الذى يجازى به العبد، والناظر مثال للعقل الذى يأمر بالخير وينهى عن الشرّ، فالجسد والروح مشتركان فى الثواب والعقاب». قال له شماس: «صدقت وقد قبلت قولك هذا، «فأخبرنى أى العلماء عندك أحمد؟». قال الغلام : «من كان بالله عالمًا وينفعه علمه».

قال شماس : «ومن ذلك؟». قال الغلام: «من يلتمس رضا ربه ويتجنب سخطه». قال: «فأيهم أفضل»؟ . قال الغلام: «من كان بالله أعلم». قال شماس: «فمن أشدّهم اختبارًا؟». قال: «من كان على العمل بالعلم صبارًا». قال شماس: «أخبرنى من أرقهم قلبًا؟» قال: «أكثرهم استعدادًا للموت وذكرًا وأقلّهم أملاً، لأن من أدخل على نفسه طوارق الموت كان مثل الذى ينظر فى المرآة الصافية فإنه يعرف الحقيقة ولا تزداد المرآة إلا صفاءً وبريقًا».

قال شماس : «أى الكنوز أحسن؟» قال: «كنوز السماء». قال: «فأى كنوز السماء أحسن؟» قال: تعظيم الله وتحميده». قال: «فأى كنوز الأرض أفضل؟». قال: «اصطناع المعروف».

قال شماس : «صدقت وقد قبلت قولك هيا، فأخبرنى عن الثلاثة المختلفة العلم والرأى والذهن وعن الذى يجمع بينها؟». قال الغلام: «إنما العلم من التعلم، وأما الرأى فإنه من التجارب، وأما الذهن فإنه تفكير، وثباتها واجتماعها فى العقل، فمن اجتمعت فيه الثلاث الخصال كان كاملاً ومن جمع إليهن تقوى الله كان مصيبًا». قال شماس: «صدقت وقد قبلت منك ذلك، فأخبرنى عن العالم العليم ذى الرأى السديد والفطنة الوقّادة والذهن الفائق الرائق هل يغيره الهوى والشهوة عن هذه الحالات التى ذكرت؟».

قال الغلام : «إن هاتين الخصلتين إذا دخلتا على الرجل غيرتا علمه وفهمه ورأيه وذهنه، وكان مثل العقاب الكاسر الذى عن القنص محاذر المقيم فى جوّ السماء لفرط حذقه. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : فبينما هو كذلك إذ نظر رجلا صيادًا قد نصب شركه، فلما فرغ الرجل من نصب الشرك وضع فيه قطعة لحم، فعند ذلك أبصر العقاب قطعة اللحم فغلب عليه الهوى والشهوة حتى نسى ما شاهد من الشرك ومن سوء الحال لكل من وقع من الطير فانقض من جو السماء حتى وقع فى قطعة اللحم فاشتبك فى الشرك.

«فلما جاء الصياد رأى العقاب فى شركه فتعجب عجبا شديدًا وقال: أنا نصبت شركى ليقع فيه حمام أو نحوه من الطيور الضعيفة فكيف وقع فيه هذا العقاب؟ وقد قيل: إن الرجل العاقل إذا حمله الهوى والشهوة على أمر يتدبر عاقبة ذلك الأمر بعقله فيمتنع مما حسَّنَاه ويقهر بعقله شهوته وهواه.

فإذا حمله الهوى والشهوة على أمر ينبغى أن يجعل عقله مثل الفارس الماهر فى فروسيته إذا ركب الفرس الأرعن فإنه يجذبه باللجام الشديد حتى يستقيم ويمضى معه على ما يريد.

وأما من كان سفيهًا لا علم له ولا رأى عنده والأمور مشتبهة عليه والهوى والشهوة مسلطان عليه فإنه يعمل بشهوته وهواه فيكون من الهالكين ولا يكون فى الناس أسوأ حالا منه».

قال شماس : «صدقت فيما قلت وقد قبلت ذلك منك، فأخبرنى متى يكون العلم نافعًا والعقل لوبال الهوى والشهوة دافعًا؟» قال الغلام: «إذا صرفهما صاحبهما فى طلب الآخرة، لأن العقل والعلم كليهما نافعان ولكن ليس ينبغى لصاحبهما أن يصرفهما فى طلب الدنيا إلا بمقدار ما يصيب به قوته منها ويدفع عن نفسه شرها ويصرفهما فى عمل الآخرة» قال: «فأخبرنى ما أحق أن يلزم الإنسان ويشغل به قلبه؟».

قال الغلام : «العمل الصالح». قال: «فإذا فعل الرجل ذلك شغله عن معاشه فكيف يفعل فى المعيشة التى لابد له منها؟» قال الغلام: «إن نهاره أربع وعشرون ساعة فينبغى له أن يجعل منها جزءًا وحدًا فى طلب المعيشة وجزءًا واحدًا للدعة والراحة ويصرف الباقى فى طلب العلم، لأن الإنسان إذا كان عاقلاً وليس عنده علم فإنما هو كالأرض المجدبة التى ليس فيها موضع للعمل والغرس والنبات، فإذا لم تهيأ للعمل وتغرس لا ينفع فيه ثمر، وإذا هُيئت للعمل وغرست أنبتت ثمرًا حسنًا، كذلك الإنسان بغير علم لا نفع به حتى يغرس فيه العلم فإذا غرس فيه العلم أثمر».

قال شماس : «فأخبرنى عن العلم بغير عقل ما شأنه؟» قال: «كعلم البهيمة التى تعلمت أوان مطعمها ومشربها وأوان يقظتها ولا عقل لها». قال شماس: «قد أوجزت فى الإجابة عن ذلك ولكن قد قبلت منك هذا الكلام، فأخبرنى كيف ينبغى أن أتوقى السلطان؟» قال الغلام: «لا تجعل له عليك سبيلاً» قال: «وكيف أستطيع أن لا أجعل له على سبيلاً وهو مسلّط علىّ وزمام أمرى بيده؟» قال الغلام: «إنما سلطانه عليك بحقوقه التى قِبَلك، فإذا أعطيته حقه فلا سلطان له عليك».

قال شماس : «ما حق الملك على الوزير؟» قال: «النصيحة والاجتهاد فى السر والعلانية والرأى السديد وكتم سره وأن لا يخفى عنه شيئًا مما هو حقيق بالاطلاع عليه وقلّة الغفلة عما قلده إياه من قضاء حوائجه وطلب رضاه بكل وجه واجتناب سخطه عليه». قال شماس: «فأخبرنى ما الذى يفعله الوزير مع الملك؟» قال: إذا كنت وزيرًا للملك وأحببت أن تسلم منه فليكن سمعك وكلامك له فوق ما يؤمله منك وليكن طلبك منه الحاجة على قدر منزلتك عنده، واحذر أن تنزل نفسك منزلة لم يَرَك لها أهلاً فيكون ذلك منك الجرأة عليه، فإذا اغتررت بحمله ونزلت نفسك منزلة لم يرك لها أهلا تكون مثل الصياد الذى يصطاد الوحوش فيسلخ جلودها لحاجته إليها ويطرح لحومها، فجعل الأسد يأتى إلى ذلك المكان فيأكل من تلك الجيفة. فلما كثر تردده إلى ذلك المحل استأنس الصّياد وألفه، وأقبل الصياد يرمى إليه

ويمسح بيده على ظهره وهو يلعب بذيله، فعندما رأى الصياد سكون الأسد له واستئناسه به وتذلله إليه قال فى نفسه: إن هذا الأسد قد خضع إلى وملكته وما أرى إلا أنى أركبه وأسلخ جلده مثل غيره من الوحوش. فتجاسر الصياد ووثب على ظهر الأسد وطمع فيه.

« فلما رأى الأسد ما صنع الصياد غضب غضبًا شديدًا ثم رفع يده وضرب الصياد فدخلت مخالبه فى أمعائه ثم طرحه تحت قوائمه ومزقه تمزيقًا. فمن ذلك علمت أنه ينبغى للوزير أن يكون عند الملك على حسب ما يرى حاله ولا يتجاسر عليه لفضل رأيه فيتغير الملك عليه». قال شماس: «فأخبرنى ما الذى يتزين به الوزير عند الملك؟». قال الغلام «أداء الأمانة التى فوّض إليه أمرها من النصيحة وسداد الرأى وتنفيذه لأوامره» قال له شماس: «أما ما ذكرت من أن حقّ الملك على الوزير أن يتجنب سخطه ويفعل ما يقضى رضاه ويهتمّ بما قلده إياه فإنه أمر واجب، ولكن أخبرنى ما الحيلة إذا كان الملك إنما رضاه بالجور وارتكاب الظلم والعسف فما حيلة الوزير إذا هو ابتلى بعشرة ذلك الملك الجائر، فإنه إن أراد أن يصرفه عن هواه وشهوته ورأيه فلا يقدر على ذلك، وإن هو تابعه على هواه وحسن له رأيه حمل وزر ذلك وصار للرعية عدوا، فما تقول فى هذا؟».

فأجاب الغلام قائلاً : «إن ما ذكرت أيها الوزير من الوزر والإثم إنما هو إذا تابعه على ما ارتكبه من الخطأ ، ولن يجب على الوزير إذا شاوره الملك فى مثل هذا أن يبين له طريق العدل والإنصاف، ويحذره من الجور والاعتساف، ويعرّفه حسن السيرة فى الرعية ويرغّبه فيما فى ذلك من العقاب ويرغبه فى الثواب ويحذره عمّا يلزمه من العقاب. فإن مال وعطف إلى كلامه حصل المراد وإلا فلا حيلة له إلا بمفارقته إياه بطريقة لطيفة لأن فى المفارقة لكل واحد منهما الراحة». قال الوزير: «فأخبرنى ما حقّ الملك على الرعية وما حقّ الرعية على الملك؟» قال: «الذى يأمرهم به يعملونه بنيّة خالصة ويطيعونه فيما يرضيه ويرضى الله ورسوله، وحق الرعية على الملك حفظ أموالهم وصون حريمهم، كما أن للملك على الرعية السمع والطاعة وبذل الأنفس دونه وإعطاؤه واجب حقه وحسن الثناء عليه بما أولاهم من عدله وإحسانه». قال شماس: «قد بيّنت لى ما سألتك عنه من حق الملك والرعية، فأخبرنى هل بقى للرعية شىء على الملك غير ما قلت؟».

قال الغلام : «نعم حق الرعية على الملك أوجب من حق الملك على الرعية، وهو أن ضياع حقهم عليه أضرّ من ضياع حقه عليهم لأنه لا يكون هلاك الملك وزوال ملكه ونعمته إلا من ضياع حق الرعية، فمن تولّى ملكًا يجب عليه أن يلزم ثلاثة أشياء وهى: إصلاح الدين وإصلاح الرعية وإصلاح السياسة. فبملازمة هذه الثلاثة يدوم ملكه».

قال شماس : «أخبرنى كيف ينبغى أن يستقيم فى إصلاح الرعية؟» قال: «بأداء حقهم وإقامة سننهم واستعمال العلماء والحكماء وإنصاف بعضهم من بعض وحقن دمائهم والكفّ عن أموالهم وتخفيف الثقل عنهم وتقوية جيوشهم». قال «فأخبرنى ما حق الوزير على الملك؟» قال الغلام: «ليس على الملك حق لأحد من الناس أوجب من الحق الواجب عليه للوزير لثلاث خصال: الأولى الذى يصيبه معه عند خطأ الرأى والانتفاع العام للملك والرعية عند سداد

الرأى، والثانية ليعلم الناس حسن منزلة الوزير عند الملك فتنظر إليه الرعية بعين الإجلال والتوقير وخفض الجناح، والثالثة أن الوزير إذا شاهد ذلك من الملك والرعية دفع عنهم ما يكرهونه ووفى لهم بما يحبونه».

قال شماس : «قد سمعت جميع ما قلته لى من صفات الملك والوزير والرعية وقبلته منك، فأخبرنى ما ينبغى لحفظ اللسان عن الكذب والسفاهة وسبّ العرض والإفراط فى الكلام؟» قال الغلام: «ينبغى للإنسان أن لا يتكلم إلا بالخير والحسنات ولا ينطق فى شأن ما لا يعنيه، ويترك النميمة ولا ينقل عن أحد حديثًا سمعه منه لعدوّه، ولا يطلب لصديقه ولا لعدّوه ضررًا عند سلطانه، ولا يعبأ بمن يرتجى خيره ويتقى شره إلا الله تعالى لأنه هو الضار النافع على الحقيقة، ولا يذكر لأحد عيبًا ولا يتكلم بجهل لئلا يلزمه الوزر والإثم من الله والبغض بين الناس، واعلم أن الكلام مثل السهم إذا نفذ لا يقدرأحد على ردّه، وليحذر أن يودع سره عند من يفشيه فربما يقع فى ضرر إفشائه بعد أن يكون على ثقة من الكتمان، وأن يكون مختفيًا لسره عن صديقه أكثر من إخفائه عن عدوّه فإن كتمان السر عند جميع الناس من أداء الأمانة».

قال شماس : «أخبرنى عن حسن الخلق مع الأهل والأقارب؟» قال: «إنه لا راحة لبنى آدم بحسن الخلق، ولكن ينبغى أن يصرف إلى الأهل ما يستحقونه وإلى الإخوان ما يجب لهم». قال: «فأخبرنى ما الذى يجب أن يصرفه إلى الأهل؟». قال: أما الذى يصرفه للوالدين فخفض الجناح وحلاوة اللسان ولين الجانب والإكرام والوقار، وأما الذى يصرفه للإخوان فالنصيحة وبذل المال ومساعدتهم على أسبابهم والفرح لفرحهم والإغضاء عما يقع منهم من الهفوات، فإذا عرفوا منه ذلك قابلوه بأعزّ ما عندهم من النصيحة وبذلوا الأنفس دونه، فإذا كنت من أخيك على ثقة فابذل له ودّك وكن مساعدًا له على جميع أموره». فقال شماس: «إنى أرى الإخوان صنفين إخوان ثقة وإخوان معاشرة أما إخوان الثقة فإنه يجب لهم ما وصفت، فأسألك عن غيرهم من إخوان المعاشرة».

قال الغلام : «أما إخوان المعاشرة فإنك تصيب منهم لذّة وحسن خلق وحلاوة لفظ وحسن معاشرة. فلا تقطع منهم لذّاتك بل ابذل لهم مثل ما يبذلونه لك وعاملهم بمثل ما يعاملونك به من طلاقة الوجه وعذوبة اللسان فيطيب عيشك ويكون كلامك مقبولاً عندهم». قال شماس: «قد عرفنا هذه الأمور كلها، فأخبرنى عن الأرزاق المقدّرة للخلق من الخالق هل هى مقسومة بين الناس والحيوان لكل واحد رزق إلى تمام أجله، وإذا كان الأمر كذلك ما الذى يحمل طالب المعيشة على ارتكاب المشقة فى طلب ما عرفه أنه إن كان مقدرًا له فلابدّ من حصوله وإن لم يرتكب مشقة السعى، وإن لم يكن مقدرًا له فلا يتحصل له ولو سعى إليه غاية السعى ويكون على ربه متوكلاً، ولجسده ونفسه مريحًا؟» قال الغلام : «إنا قد رأينا أن لكل أحد رزقًا مقسومًا وأجلاً محتومًا، ولكن لكل رزق طريق وأسباب. فصاحب الطلب يصيب فى طلبه الراحة بترك الطلب ومع ذلك لابدّ من طلب الرزق، غير أن الطالب على ضربين، إما أن يصيب وإما أن يُحرم. فراحة المصيب فى الحالتين إصابة رزقه، وكون عاقبة طلبه حميدة،

وراحة المحروم فى ثلاث خصال: الاستعداد لطلب رزقه والتنزّه عن أن يكون كَلاً على الناس، والخروج عن عهدة اللائمة» قال شماس: «أخبرنى عن باب طلب المعيشة» قال الغلام: «يستحل الإنسان ما أحلّه الله ويحرّم ما حرّمه الله عزّوجلّ».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية سؤال ابن الملك لشماس وجوابه له

قالت شهر زاد : وانقطع بينهما الكلام لما وصل إلى هذا الحدّ. ثم قام شماس وهو ومن حضر من العلماء وسجدوا للغلام وعظموه وبجلوه وضمّه أبوه إلى صدره. ثم بعد ذلك أجلسه على سرير الملك وقال: «الحمد لله الذى رزقنى ولدًا تقرّ به عيناى فى حياتى». ثم قال الغلام لشماس ومن حضر من العلماء: «أيها العالم صاحب المسائل الروحانية إن لم يكن فتح الله على من العلم إلا بشىء قليل فإنى قد فهمت قصدك فى قبولك منى ما أتيت به جوابًا عمّا سألتنى سواء كنت به مصيبًا أو مخطئًا ولعلك صفحت عن خطئه، وأنا أريد أن أسألك عن شىء عجز عنه رأيى وضاق منه ذرعى وكَلّ من وصفه لسانى لأنه أشكل علىّ إشكال الماء الصافى فى الإناء الأسود، فأحب منك أن تشرحه لى حتى لا يكون شىء منه مبهمًا على مثلى فيما يستقبل مثل إبهامه علىّ فيما مضى، لأن الله كما جعل الحياة بالماء والقوة بالطعام وشفاء المريض بمداواة الطبيب جعل شفاء الجاهل بعلم العالم فانصت إلى كلامى». قال شماس: «أيها المضىء العقل صاحب المسائل الصالحة من شهد له العلماء كلهم بالفضل لحسن تفضيلك للأشياء وتقسيمك إياها وحسن إصابتك فى إجابتك عمّا سألتك عنه قد علمت أنك لست تسألنى عن شىء إلا وأنت فى تأويله أصوب رأيًا وأصدق مقالاً لأن الله قد آتاك من العلم مالم يؤت أحدًا من الناس فأخبرنى عن هذه الأشياء التى تريد أن تسألنى عنها» قال الغلام: «أخبرنى عن الخالق جلّت قدرته من أى الأشياء خلق الخلق ولم يكن قبل ذلك شىء وليس يُرى فى هذه الدنيا شىء إلا وهو مخلوق من شىء، والبارئ تبارك وتعالى قادر على أن يخلق الأشياء من لا شىء ولكن اقتضت إرادته مع كمال القدرة والعظمة أنه لم يخلق شيئًا إلا من شىء».

قال الوزير شماس : «أما صنّاع الآلات من الفخار وغيره من الصنائع لا يقدرون على ابتداع شىء إلا إذ هم مخلوقون، وما الخالق الذى صنع العالم بهذه الصنعة العجيبة فإن شئت أن تعرف قدرته تبارك وتعالى على إيجاد الأشياء فأطل الفكر فى أصناف الخلق فإنك ستجد آيات وعلامات دالة على كمال قدرته وأنه قادر على أن يخلق الأشياء من لا شىء بل أوجدها بعد العدم المحض لأن العناصر التى هى مادة الأشياء كانت عدما محضا وقد أوضحت لك ذلك لأن تكون فى شكّ منه، ويبين لك ذلك آية الليل والنهار فإنهما يتعاقبان حتى إذا ذهب النهار وجاء الليل خفى علينا النهار ولم نعرف له مقرا، وإذا ذهب الليل بظلمته ووحشته جاء النهار ولم نعرف لليل مقرا، وإذا أشرقت علينا الشمس لا نعرف أين يطوى نورها وإذا غربت

لم نعرف مستقرّ غروبها، وأمثال ذلك من أفعال الخالق عزّ اسمه وجلّت قدرته كثير مما يحير أفكار الأذكياء من المخاليق».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : قال الغلام: «أيها العالم إنك عرّفتنى من قدرة الخالق مالا يستطاع إنكاره، ولكن أخبرنى كيف إيجاده لخلقه؟» قال شماس: «إنما الخلق مخلوق بكلمته التى هى موجودة قبل الدهر وبها خلق جميع الأشياء». قال الغلام: «وبإرادته خلقهم بكلمته فلولا أن له نطقا وأظهر كلمة لم تكن الخليقة موجودة» ثم قال شماس: «إن الله تعاظم اسمه وارتفعت قدرته إنما أراد إيجاد الخلق قبل وجودهم» قال شماس: «يا بنى إنه لا يخبرك أحد من الناس بغير ما قلته إلا بتحريف الكلام الوارد فى الشرائع عن موضعه وصرف الحقائق عن وجوهها، ومن ذلك قولهم إن الكلمة لها استطاعة أعوذ بالله من هذه العقيدة بل قولنا فى الله عزوجل أنه خلق الخلق بكلمته معناه أنه تعالى واحد فى ذاته وصفاته وليس معناه أن كلمة الله قدرة بل القدرة صفة لله كما أن الكلام وغيره من صفات الكمال صفات لله تعالى شانه وعز سلطانه فلا يوصف هو دون كلمته ولا توصف كلمته دونه فالله جلّ ثناؤه خلق بكلمته جميع خلقه وبغير كلمته لم يخلق شيئًا، وإنما خلق الأشياء بكلمته الحق فبالحق نحن مخلوقون». قال الغلام: «قد فهمت من أمرالخالق وعزّة كلمته ما ذكرت وقبلت ذلك منك بفهم، ولكنى سمعتك تقول إنما خلق الخلق بكلمته الحق والحق ضد الباطل فمن أين عرض الباطل وكيف يمكن عروضه للحق حتى يشتبه به ويلتبس على المخلوقين فيحتاجون إلى الفصل بينهما، وهل الخالق عزّ وجلّ لمحبّ لهذا الباطل أم باغض له، فإن قلت إنه محبٌّ للحقّ وبه خلق خلقه وباغضٌ للباطل فمن أين دخل هذا الذى يبغضه الخالق على ما يحبه وهو الحقّ». قال شماس: «إن الله لما خلق الإنسان بالحق ولم يكن الإنسان محتاجًا إلى توبة حتى دخل الباطل على الحق الذى هو مخلوق به بسبب الاستطاعة والكسب الذى هو الجزء الاختيارى مع ضعف طبيعة الإنسان. فخلق الله له التوبة لتصرف عنه ذلك الباطل وتثيبه على الحق، وخلق له العقوبة إن هو أقام على ملابسة الباطل» قال الغلام «فأخبرنى ما سبب عروض هذا الباطل للحق حين التبس به وكيف وجبت العقوبة على الإنسان حتى احتاج إلى التوبة؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهر زاد : قال شماس: «إن الله لما خلق الإنسان بالحق جعله محبا له ولم يكن له عقوبة ولا توبة واستمر كذلك حتى ركّب الله فيه النفس التىَ هى من كمال الإنسانية مع ما هى مطبوعة عليه من الميل للشهوات فنشأ من ذلك عروض الباطل والتباسه بالحق الذى خلق الإنسان به وطبع على حبه، فلما صار الإنسان إلى هذه الغاية زاغ عن الحق بالمعصية ومن زاغ عن الحق إنما يقع فى الباطل». قال الغلام: «إن الحق إنما دخل عليه الباطل بالمعصية والمخالفة؟». قال شماس: «وهو كذلك لأن الله يحبّ الإنسان، ومن زيادة محبته له خلق الإنسان

محتاجًا إليه وذلك هو الحق بعينه ولكن ربما استرخى الإنسان عن ذلك بسبب ميل النفس إلى الشهوات ومال إلى الخلاف فصار إلى ذلك الباطل بالمعصية التى بها عصى ربّه فاستوجب العقوبة، وبإزاحة الباطل عنه بتوبته ورجوعه إلى محبة الحق استوجب الثواب». قال الغلام «أخبرنى عن مبدأ المخالفة مع أن الخلق مرجعهم إلى آدم وقد خلقه الله بالحق فكيف جلب المعصية لنفسه ثم قرنت معصيته بالتوبة بعد تركيب النفس فيه ليكون عاقبته الثواب أو العقاب، ونحن نرى بعض الخلق مقيمًا على المخالفة مائلاً إلى مالا يحبه مخالفًا لمقتضى أصل خلقته من حب الحق مستوجبًا لسخط ربّه عليه، ونرى بعضهم مقيمًا على رضا خالقه وطاعته مستوجبًا للرحمة والثواب فما سبب الاختلاف الحاصل بينهم؟» قال شماس: «إن أول نزول هذه المعصية بالخلق إنما كان بسبب إبليس الذى كان أشرف ما خلق الله جل اسمه من الملائكة والإنس والجن وكان مطبوعًا على المحبة لا يعرف غيرها. فلما انفرد بهذا الأمر داخله العجب والعظمة والتجبر والتكبر عن الإيمان والطاعة لأمر خالقه، فرده الله دون الخلائق جميعهم وأخرجه من المحبة وصير مثواه إلى نفسه فى المعصية، فحين علم أن الله جل اسمه لا يحب المعصية ورأى آدم ما هو فيه من ذلك الحق والطاعة لخالقه داخله الحسد فاستعمل الحيلة فى صرفه لآدم عن الحق ليكون مشتركًا معه فى الباطل».

«فلزم آدم العقوبة لميله إلى المعصية التى زينها له عدوه وانقياده إلى هواه حيث خالف وصية ربه بسبب عروض الباطل. ولما علم الخالق جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ضعف الإنسان وسرعة ميله إلى عدوه وتركه الحق جعل له الخالق برحمته التوبة لينهض بها من ورطة الميل إلى المعصية ويحمل سلاح التوبة فيقهر به عدوّه إبليس وجنوده ويرجع إلى الحق الذى هو مطبوع عليه. فلما نظر إبليس أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه قد جعل له أمدًا ممتدًا بادر إلى الإنسان بالمحاربة وأدخل عليه الحيل ليخرجه من نعمة ربه ويجعله شريكًا له فى السخط الذى استوجبه هو وجنوده. فجعل الله جل ثناؤه للإنسان استطاعة للتوبة وأمره أن يلزم الحق ويداوم عليه ونهاه عن المعصية والخلاف وألهمه أن له على الأرض عدوا محاربا لا يفتر عنه ليله ونهاره. فبذلك استحق الإنسان ثوابًا إن لازم الحق الذى جبلت طبيعته على حبه، وعقابًا إن غلبته نفسه ومالت به إلى الشهوات». ثم إن الغلام لما سأل شماس عن المسائل المتقدمة وأجابه عنها قال له بعد ذلك: «أخبرنى بأى قوة استطاع الخلق أن يخالفوا خالقهم وهو فى غاية العظمة كما وصفت مع أنه لا يقهره شىء ولا يخرج عن إرادته، ألا ترى أنه قادر على صرف خلقه عن هذه المعصية وإلزامهم المحبة دائمًا؟».

قال شماس : «إن الله تعالى جلّ اسمه عادل، منصف رؤوف بأهل محبته قد بين لهم طريق الخير ومنحهم الاستطاعة والقدرة على فعل ما أرادوا من الخير، فإن عملوا بخلاف ذلك صاروا فى الهلاك والمعصية». قال الغلام: «إذا كان الخالق هو الذى منحهم الاستطاعة وهم بسببها قادرون على فعل ما أرادوا فلأى شىء لم يُخل بينهم وبين ما يريدون من الباطل حتى يردّهم إلى الحق؟».

قال شماس : «ذلك لعظيم رحمته وباهر حكمته لأنه كما سبق منه لإبليس السخط ولم

يرحمه كذلك سبقت منه لآدم الرحمة بالتوبة فرضى عنه بعد سخطه عليه» قال الغلام: «هذا هو الحق بعينه لأنه هو المجازى لكل أحد على عمله وليس خالق غير الله له القدرة على كل شىء». ثم قال الغلام: «هل خلق الله ما يحب أو ما لا يحب أو إنما خلق ما يحب لا غيره؟» قال شماس: «قد خلق كل شىء ولم يرض إلا ما يحب».

قال الغلام: «ما بال الشيئين أحدهما يرضى الله ويوجب الثواب لصاحبه والآخر يغضب الله فيحل العذاب بصاحبه؟» قال شماس: «بين لى هذين الأمرين وفهمنى إياهما حتى أتكلم فى شأنهما». قال الغلام: «هما الخير والشر المركبان فى الجسم والأرواح». قال شماس: «أيها العاقل أراك قد علمت أن الخير والشر من الأعمال التى يعملها الجسد والروح فسمى الخير منهما خيرًا لكونه فيه رضا الله، وسمى الشر شرا لكونه فيه سخط الله. وقد وجب عليك أن تعرف الله وترضيه بفعل الخير لأنه أمرنا بذلك ونهانا عن فعل الشر». قال الغلام: «إنى أرى هذين الشيئين أعنى الخير لأنه والشر إنما يعملهما الحواس الخمس المعروفة فى جسد الإنسان وهى محل الذوق الناشئ عنه الكلام والسمع والبصر والشم واللمس، فأحب أن تعرفنى هل هذه الحواس الخمس خلقت للخير جميعًا أم للشر؟» قال شماس: «افهم أيها الإنسان بيان ما سألت عنه وهو الحجة الواضحة وضعها فى ذهنك وأشربها قلبك، وهو أن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان بالحق وطبعه على حبه ولم يصدر عنه مخلوق إلا بالقدرة العلية المؤثرة فى كل حادث، ولا ينسب تبارك إلا إلى الحكم بالعدل والإنصاف والإحسان، وقد خلق الإنسان لمحبته وركَّب فيه النفس المطبوعة على الميل إلى الشهوات وجعل له الاستطاعة وجعل هذه الحواس الخمس سببًا للنعيم الدائم أو الجحيم»

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: قال الغلام: «وكيف ذلك؟» قال شماس: «لأنه خلق اللسان للنطق واليدين للعمل الرجلين للمشى والبصر للنظر والأذنين للسماع، وقد أعطى كل واحدة من هذه الحواس استطاعة وهيجها على العمل والحركة وأمر كل واحدة منها أن لا تعمل إلا برضاه، والذى يرضيه من البصر صرف النظر إلى ما يحبه الله وترك ضده وهو صرف النظر إلى ما يكرهه الله كالنظر إلى الشهوات، ومما يرضيه من السمع أن لا يسمع إلا إلى الحق كالموعظة وما فى كتب الله وترك ضده هو أن يسمع إلى ما يوجب سخط الله، ومما يرضيه من اليدين أن لا يقبضا إلا على ما خولهما الله بل يصرفه على وجه يرضيه وترك ضده وهو الإمساك أو صرف ما خولهما الله فى معصية، ومما يرضيه من الرجلين أن يكون سعيهما فى الخير كقصد التعليم وترك ضده وهو أن يمشيا فى غير سبيل الله، وما سوى ذلك من الشهوات التى يعملها الإنسان فإنه يصدرمن الجسد بأمر الروح. ثم الشهوة التى تصدر من الجسد نوعان شهوة التناسل وشهوة البطن، فالذى يرضى الله من شهوة التناسل أنها لا تكون إلا حلالاً، وسخطه أن تكون حرامًا. وأما شهوة البطن الأكل والشرب، والذى يرضى الله من ذلك أن لا يتعاطى منه كل أحد إلا ما أحله الله له قليلاً كان أو كثيرًا ويحمد الله ويشكره، والذى يغضب

الله منه أن يتناول ما ليس له بحق، وما سوى ذلك من هذه الأحكام باطل وقد علمت أن الله خلق كل شيء ولا يرضى إلا بالخير، وأمر كل عضو من أعضاء الجسد أن يفعل ما أوجبه عليه لأنه هو العليم الحكيم».

قال الغلام: «فأخبرني هل سبق في علم الله جلّت قدرته أن آدم يأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها حتى كان من أمره ما كان وبذلك خرج من الطاعة إلى المعصية؟». قال شماس: «نعم أيها العالم قد سبق ذلك في علم الله تعالى قبل أن يخلق آدم، وبيان ذلك ودليله ما تقدم له من التحذير عن الأكل وإعلامه بأنه إذا أكل منها يكون عاصيًا، وذلك من طريق العدل والإنصاف لئلا يكون لآدم حجة يحتج بها على ربه.

«فلما سقط آدم في الورطة والهفوة وعظمت عليه المعيرة والمعتبة جرى ذلك في نسله من بعده، فبعث الله تعالى الأنبياء وأعطاهم كتبًا فأعلمونا بالشرائع وبينوا لنا ما فيها من المواعظ والأحكام وفصلوه لنا وأوضحوا لنا السبيل الموصل وبينوا لنا ما يجب أن نفعله وما يجب أن نتركه فنحن مسلطون بالاستطاعة، فمن عمل بهذه الحدود قد أصاب وربح، ومن تعدَّى هذه الحدود وعمل بغير هذه الوصايا قد خالف وخسر في الدارين، وهذه سبيل الخير والشرّ، فقد علمت أن الله قادر على جميع الأشياء وما خلق الشهوات لنا إلا برضاه وإرادته، وأمرنا أن نأخذها على وجه الحلال لتكون لنا خيرًا، وإذا استعملناها على وجه الحرام فإنها تكون لنا شرا. فما أصابنا من حسنة فمن الله تعالى، وما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا معاشر المخلوقين لا من الخالق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا».

ثم إن الغلام ابن الملك جليعاد لما سأل الوزير شماس عن هذه المسائل وردّ له أجوبتها قال له: «ما وصفته لي مما ينسب إلى الله تعالى ومما ينسب إلى خلقه قد فهمته، فأخبرني عن هذا الأمر الذي حيَّر عقلي فرط التعجب منه، فإني عجبت من ولد بني آدم وغفلتهم عن الآخرة وتركهم الذكرى لها ومحبته للدنيا وقد علموا أنهم يتركونها ويخرجون منها وهم صاغرون؟». قال شماس: «نعم فإن الذي تراه من تغيرها وغدرها بأهلها دليل أنه لا يدوم لصاحب النعيم نعيمه ولا لصاحب البلاء بلاؤه. فليس يأمن صاحبها تغيُّرها وإن كان قادرًا عليها ومغتبطًا بها فلابد أن يتغير حاله ويسرع إليه الانتقال وليس الإنسان منها على ثقة ولا ينتفع بما هو فيه من زخرفها. وحيث عرفنا ذلك عرفنا أن أسوأ الناس حالاً من اغترَّ بها وسها عن الآخرة. وأن ذلك النعيم الذي قد أصابه لا يعادل ذلك الخوف والمشقة والأهوال التي تحصل له بعد الانتقال منها. وعلمنا أنه لو كان العبد يعلم ما يصيبه عند حضور الموت وفراقه ما هو فيه من اللذات والنعيم لكان رفض الدنيا وما فيها، وتيقنا أن الآخرة خيرٌ لنا وأنفع».

قال الغلام: «أيها العالم قد زالت هذه الظلمة التي كانت على قلبي بمصباحك المضيء وأرشدتني إلى السبل التي سلكتها من اتباع الحق وأعطيتني سراجًا أنظر به». فعند ذلك قام أحد الحكماء الذين كانوا بالحضرة وقال: «إنه إذا كان زمان الربيع فلابد أن يطلب الأرانب مع الفيل مرعى وقد سمعت منكما أشياء من المسائل والتفاسير ما لم أرَ أني أسمعه أبدًا، فدعاني ذلك إلى أن أسألكما عن شيء فأخبراني ما خير مواهب الدنيا؟».

قال الغلام: «صحة الجسم ورزق حلال وولد صالح» قال «فأخبرنى ما الكبير وما الصغير؟» قال الغلام: «أما الكبير فهو ما صبر ولأصغر منه، وأما الصغير فهو ما صبر لأكبر منه». قال: «فأخبرنى ما الأربعة الأشياء التى تجتمع الخلائق فيها؟» قال الغلام: «تجتمع الخلائق فى الطعام والشراب ولذة النوم وفى سكرات الموت». قال: «فما الثلاثة الأشياء التى لا يقدر أحد على تنحية القباحة عنها؟».

قال الغلام : «الحماقة وخسة الطبع والكذب» قال: «فأى الكذب أحسن مع أنه كله قبيح؟» قال الغلام: «الكذب الذى يضع عن صاحبه الضرر ويجر نفعًا» قال: «وأى الصدق قبيح وإن كان كله حسنًا؟» قال الغلام: «كبر الإنسان بما عنده وإعجابه » . قال: وما أقبح القبيح؟ قال الغلام: «إذا أعجب الإنسان بما ليس عنده» قال: «فأى الرجال أحمق؟» قال الغلام: «من كان ليس له همة إلا فى شىء يضعه فى بطنه».

قال شماس : «أيها الملك أنت ملكنا ولكن نحب أن تعهد لولدك بالملك من بعدك ونحن الخوَل (عطية الله) والرعية». فعند ذلك حثّ الملك من حضر من العلماء والناس على أن ما سمعوه منه يحفظونه ويعملون به، وأمرهم أن يمتثلوا أمر ابنه فإنه جعله ولىّ عهده من بعده ليكون خليفة على ملك والده، وأخذ العهد على جميع أهل مملكته من العلماء والشجعان والشيوخ والصبيان وبقية الناس أن لا يتخالفوا عليه ولا ينكثوا عليه أمره .

فلما أتى على ابن الملك سبع عشرة سنة مرض الملك مرضًا شديدًا حتى أشرف على الموت فلما أيقن الملك أن الموت قد نزل به قال لأهله: «هذا داء الموت قد نزل بى، فادعوا لى أقاربى وولدى واجمعوا لى أهل مملكتى حتى لا يبقى منهم أحدًا إلا ويحضره».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية موت الملك جليعاد وجلوس ابنه على سرير ملكه

قالت شهر زاد : فخرجوا ونادوا الناس والقريبين وأجهروا بالنداء للناس البعيدين حتى حضروا بأجمعهم ودخلوا على الملك. ثم قالوا له: «كيف أنت أيها الملك وكيف ترى لنفسك من مرضك هذا؟» قال لهم الملك: «إن مرضى هذا هو الذى فيه القاضية وقد نفذ السهم بما قدَّره الله تعالى علىَّ وأنا الآن فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة».

ثم قال لابنه : «ادن منى» فدنا منه الغلام وهو يبكى بكاء شديدًا حتى كاد أن يبل فراشه والملك قد دمعت عيناه وبكى كل من حضر. ثم قال الملك لولده: «لا تبك يا ابنى فإنى لست بأول من جرى له هذا المحتوم لأنه سائر على جميع ما خلقه الله فاتق الله واعمل خيرًا يسبقك إلى الموضع الذى تقصده جميع الخلائق. ولا تطع الهوى واشغل نفسك بذكر الله فى قيامك وقعودك ويقظتك ونومك، واجعل الحق نصب عينك، وهذا آخر كلامى معك والسلام».

فقال الغلام لأبيه: «قد علمت يا أبت أنى لم أزل لك مطيعًا ولوصيتك حافظًا ولأمرك منفذًا ولرضاك طالبًا وأنت لى نعم الأب فكيف أخرج بعد موتك عمَّا ترضى به وأنت بعد حسن تربيتى مفارق لى ولا أقدر على ردِّك علىَّ، فإذا حفظت وصيتك صرت بها سعيدًا وصار لى النصيب الأكبر».

فقال له الملك وهو فى غاية الاستغراق من سكرات الموت: «يا بنى الزم عشر خصال ينفعك الله بها فى الدنيا والآخرة، وهن: إذا اغتظت فاكتم غيظك، وإذا بليت فاصبر، وإذا نطقت فاصدق، وإذا وعدت فأوف، وإذا حكمت فاعدل، وإذا قدرت فاعفُ، وأكرم قوادك، واصفح عن أعدائك، وابذل معروفك لعدوك وكفّ أذاك عنه، والزم أيضًا عشر خصال أخرى ينفعك الله بها فى أهل مملكتك وهى: إذا قسمت فاعدل، وإذا عاقبت بحق فلا تجر، وإذا عاهدت فأوف بعهدك، واقبل النصح، واترك اللجاجة، والزم الرعية بالاستقامة على الشرائع والسنن الحميدة وكن حاكمًا عادلا بين الناس حتى يحبك كبيرهم وصغيرهم ويخافك عاتيهم ومفسدهم».

ثم قال للحاضرين من العلماء والأمراء الذين كانوا حاضرين عهده لولده بالملك من بعده: «إياكم ومخالفة أمر ملككم وترك الاستماع لكبيركم فإن فى ذلك هلاكًا لأرضكم وتفريقًا لجمعكم وضررًا لأبدانكم وتلفًا لأموالكم فتشمت بكم أعداؤكم، وها أنتم علمتم ما عاهدتمونى عليه فهكذا يكون عهدكم مع هذا الغلام، والميثاق الذى بينى وبينكم يكون أيضًا بينكم وبينه، وعليكم بالسمع والطاعة لأمره لأن فى ذلك صلاح أحوالكم، واثبتوا معه على ما كنتم معى فتستقيم أموركم ويحسن حالكم، وها هو ذا ملككم وولى نعمتكم والسلام».

ثم بعد هذا اشتدت به سكرات الموت والتجم لسانه فضمّ ابنه إليه وقبّله وشكر الله ثم قضى نحبه وطلعت روحه. فناح عليه جميع رعيته وأهل مملكته. ثم إنهم كفنوه ودفنوه بإكرام وتبجيل وإعظام، ثم رجعوا والغلام معهم فألبسوه حلة الملك وتوّجوه بتاج والده وألبسوه الخاتم فى أصبعه وأجلسوه على سرير الملك .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية انهماك ابن الملك فى اللهو واللعب وغفلته عن رعيته

قالت شهر زاد : فسار الغلام فيهم بسيرة أبيه من الحلم والعدل والإحسان مدة يسيرة. ثم تعرضت له الدنيا وجذبته بشهواتها فاستغنم لذاتها وأقبل على زخارف أمورها وترك ما كان قلده أبوه من المواثيق ونبذ الطاعة لوالده وأهمل مملكته ومشى فيما فيه هلاكه واشتد فيه حبّ النساء، فصار لا يسمع بامرأة حسناء إلا ويرسل إليها ويتزوج بها، فجمع من النساء عددًا أكثر مما جمع سليمان بن داود ملك بنى إسرائيل واشتغل بهنّ وصار لا يسأل عن ملكه ولا عن حكمه ولا ينظر فى مظلمة من يشكو إليه من رعيته وإذا كاتبوه فلا يردّ لهم جوابًا. فلما رأوا منه ذلك وعاينوا ما هو منطو عليه من ترك النظر فى أمورهم وإهماله لأمور دولته وأمور رعيته تحققوا أنهم عن قليل يحلّ بهم البلاء فشق ذلك عليهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال بعضهم لبعض: «امشوا بنا إلى شماس كبير وزرائه نقصّ عليه أمرنا ونعرّفه ما يكون من أمر هذا الملك لينصحه وإلا فمن قليل يحلّ بنا البلاء فإن هذا الملك قد دهشته الدنيا بلذاتها وختنته بأشطانها».

فقاموا وأتوا شماسًا وقالوا له: «أيها العالم الحكيم إن هذه الملك قد أدهشته الدنيا

بلذاتها وختنته بأشطانها فاقبل على الباطل وسعى فى فساد مملكته وبفساد المملكة تفسد العامة ويصير أمرنا إلى الهلاك، وسببه أننا نمكث شهرًا وأيامًا لا نراه ولا يبرز إلينا من عنده أمر لا للوزير ولا لغيره. ولا يمكن أن ترتفع إليه حاجة ولا ينظر فى حكومة ولا يتعهد حال أحد من رعيته لغفلته عنهم، وإننا قد أتينا إليك لنخبرك بحقيقة الأمور لأنك أكبرنا وأكمل منا وليس ينبغى أن يكون بلاء فى أرض أنت مقيم بها لأنك أقدر واحد على إصلاح هذا الملك، فانطلق وكلمه لعله يقبل كلامك ويرجع إلى الله».

فقام شماس ومضى إلى حيث اجتمع بمن يمكنه الوصول إليه وقال له: «أيها الولد الجيد أسألك أن تستأذن لى فى الدخول للملك لأن عندى أمرًا أريد أن أنظر وجهه وأخبره به وأسمع ما يجيبنى به عنه». فأجاب الغلام قائلاً: «والله يا سيدى من منذ شهر لم يأذن لأحد فى الدخول عليه ولا أنا، فطول هذه المدة ما رأيت له وجهًا، ولكن أدلك على من يستأذنه لك وهو أنك تتعلق بالوصيف الفلانى الذى يقوم على رأسه ويأخذ له الطعام من المطبخ، فإذا خرج إلى المطبخ ليأخذ الطعام اسأله عما بدا لك فإنه يفعل ما تريد».

فانطلق شماس إلى باب المطبخ وجلس قليلاً وإذا بالوصيف قد أقبل وأراد الدخول فى المطبخ. فكلمه شماس قائلاً له: «يا بنى أحب أن أجتمع بالملك لأخبره بكلام يخصه، فمن فضلك إذا فرغ من غدائه وطابت نفسه أن تكلمه لى وتأخذ لى منه إذنًا بالدخول عليه لكى أكلمه بما يليق به». فقال الوصيف: «سمعًا وطاعة».

فلما أخذ الوصيف الطعام وتوجه به إلى الملك وأكل منه وطابت نفسه قال له الوصيف: إن شماسًا واقف بالباب يريد منك الإذن فى الدخول عليك ليعلمك بأمور تختص بك» ففزع الملك وارتاب من ذلك وأمر الوصيف بإدخاله عليه.

حكاية نصيحة شماس لابن الملك

فخرج الوصيف إلى شماس ودعاه إلى الدخول. فلما دخل على الملك خرَّ لله ساجدًا وقبَّل يدى الملك ودعا له. فقال الملك: «ما أصابك يا شماس حتى طلبت الدخول علىَّ؟» فقال: «إن لى مدة لم أر وجه سيدى الملك وقد اشتقت إليك كثيرًا فها أنا شاهدت طلعتك وجئت إليك بكلام أذكره لك أيها الملك المؤيد بكل نعمة». فقال له: «قل ما بدا لك». فقال شماس: «اعلم أيها الملك أن الله تعالى رزقك من العلم والحكمة على حداثة سنك ما لم يرزقه أحدًا من الملوك قبلك، وأن الله تمم لك ذلك بالملك، وأن الله يحب أنك لا تخرج عمَّا خوّلك إياه إلى غيره بسبب عصيانك كله، فلا تحاربه بذخائرك بل ينبغى أن تكون لوصاياه حافظًا ولأموره طائعًا، لأنى قد رأيتك أيام قلائل نسيت أباك ووصيته ورفضت عهده وأضعت نصحه وكلامه وزهدت عدله وأحكامه، ولم تذكر نعمة الله عليك ولم تقيدها بشكره». قال الملك: «وكيف ذلك وما سببه؟».

قال شماس: «سببه أنك تركت تعهد أمور مملكتك وما قلدك الله إياه من أمور رعيتك، وأقبلت على النفس فيما حسنته لك من قليل شهوات الدنيا، وقد قيل: إن إصلاح الملك والدين والرعية مما ينبغى للملك أن يحافظ عليه، والرأى عندى أيها الملك أن تُحسن النظر فى

عاقبتك فإنك تجد السبيل الواضح الذى فيه النجاة ولا تقبل على اللذة القليلة الفانية الموصلة إلى ورطة الهلاك فيصيبك ما أصاب صياد السمك».

فقال الملك لشماس : «وكيف كان ذلك؟» قال شماس :

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية صياد السمك

قالت شهر زاد : «قد بلغنى أن صيادًا قد أتى إلى نهر ليصطاد منه على عادته. فلما وصل إلى النهر ومشى على الجسر أبصر سمكة عظيمة فقال فى نفسه: «ليس لى حاجة بالمقام ها هنا فأنا أمشى وأتبع هذه السمكة إلى حيث تذهب حتى آخذها وهى تغنينى عن الصيد مدة أيام». فتعرى من ثيابه ونزل خلف السمكة. فأخذه جريان الماء إلى أن ظفر بالسمكة وقبض عليها. ثم التفت فوجد نفسه بعيدًا عن الشاطئ.

فلما رأى ما قد صنع به جريان الماء لم يترك السمكة ويرجع بل خاطر بنفسه وقبض عليها بيديه وترك جسده سابحًا مع جريان الماء. فما زال يسحبه الماء إلى أن رماه فى وسط دوامة لا يدخلها أحد ويخلص منها. فصار يصيح ويقول: «أنقذوا الغريق». فأتاه ناس من المحافظين على البحر وقالوا له: «ما شأنك وما دهاك حتى ألقيت نفسك فى هذا الخطر العظيم» فقال لهم: «أنا الذى تركت السبيل الواضح الذى فيه النجاة وأقبلت على الهوى والهلكة». فقالوا : «يا هذا كيف تركت سبيل النجاة وأدخلت نفسك فى هذه الهلكة وأنت تعرف من قديم أنه ما دخل ها هنا أحد وسلم، فما الذى منعك عن رمى ما فى يدك ونجاة نفسك فكنت تنقذ روحك ولا تقع فى هذا الهلاك الذى لا نجاة منه والآن ليس أحد منا ينقذك من هذه الهلكة». فقطع الرجل الرجاء من حياته وفقد ما كان بيده مما حملته نفسه عليه وهلك هلاكًا عظيمًا. وما ضربت لك أيها الملك هذا المثل إلا لأجل أن تضع هذا الأمر الحقير الذى فيه اللهو عن مصالحك وتنظر فيما أنت متقلده من سياسة رعيتك والقيام بنظام ملكك حتى لا يرى أحد فيك عيبًا». قال الملك: «فما الذى تأمرنى به؟» قال شماس: «إذا كان فى غد وأنت بخير وعافية فأذن للناس بالدخول عليك وانظر فى أحوالهم واعتذر إليهم ثم عدهم من نفسك بالخير وحسن السيرة». فقال الملك: «يا شماس إنك تكلمت بالصواب وإنى فاعل ما نصحتنى به فى غد إن شاء الله تعالى».

فخرج شماس من عنده وأعلم الناس بكل ماذكره له.

حكاية منع زوجة ابن الملك له
من الخروج إلى الرعية

فلما أصبح الصباح خرج الملك من حجابه وأذن للناس فى الدخول عليه وصار يعتذر إليهم ووعدهم أنه يصنع لهم ما يحبون، فرضوا بذلك، وانصرفوا وسار كل واحد إلى منزله، ثم إن بعض نساء الملك وكانت أحبهن إليه وأكرمهن عنده قد دخلت عليه فرأته متغير اللون

متفكرًا فى أموره بسبب ما سمعه من كبير وزرائه. فقالت له: «ما لى أراك أيها الملك قلق النفس هل تشتكى شيئًا؟» فقال لها: «لا وإنما استغرقتنى اللذات عن شئونى فمالى ولهذه الغفلة عن أحوالى وعن أحوال رعيتى، وإن بقيت على ذلك فعن قليل يخرج ملكى عن يدى». فأجابته قائلة: «إنى أراك أيها الملك مع عمالك ووزرائك مغشوشًا فإنهم إنما يريدون نكايتك وكيدك حتى لا تحصل لك من ملكك هذه اللذة ولا تغنم نعيمًا ولا راحة بل يريدون أن تقضى عمرك فى اندفاع المشقة عنهم حتى إن عمرك يفنى بالنصب والتعب وتكون مثل الذى قتل نفسه لإصلاح غيره أو تكون مثل الفتى واللصوص » قال لها الملك: «ما هى حكاية اللصوص والفتى؟» فقالت:

حكاية اللصوص والفتى

«ذكروا أن سبعة من اللصوص خرجوا ذات يوم يسرقون على عادتهم. فمروا على بستان فيه جوز رطب فدخلوا ذلك البستان، وإذا هم بولد صغير واقف بينهم فقالوا له: «يا فتى هل لك أن تدخل معنا هذا البستان وتطلع هذه الشجرة وتأكل من جوزها كفايتك وترمى لنا منها جوزًا؟». فأجابهم الفتى إلى ذلك ودخل معهم. فلما أصعدوه قالوا: «يا فتى لا تلمس من الشجرة شيئًا لئلا يراك أحد فيؤذيك». فقال الفتى: «وكيف أفعل؟» فقالوا له: «اقعد فى وسطها وحرك كل غصن منها تحريكًا قويا حتى يتناثر ما فيه فنلتقطه، وإذا فرغ ما فيها ونزلت إلينا فخذ نصيبك مما التقطناه».

فلما صعد الفتى على الشجرة صار يحرك كل غصن وجده والجوز يتناثر منه واللصوص يجمعونه فبينما هم كذلك وإذا بصاحب الشجرة واقف عندهم وهم على ذلك الحال. فقال لهم: «ما لكم ولهذه الشجرة؟» فقالوا له: «لم نأخذ منها شيئًا غير أننا مررنا بها فرأينا هذا الولد فوقها فاعتقدنا أنه صاحبها فطلبنا منه أن يطعمنا منها فهز بعض الأغصان حتى انتثر منها الجوز، ونحن ما لنا ذنب». فقال صاحب الشجرة للغلام: «فما تقول أنت؟» فقال: «كذب هؤلاء، ولكن أنا أقول لك الحق وهو أننا أتينا جميعًا إلى هنا فأمرونى بالصعود على هذه الشجرة لأهزّ الأغصان كى ينتثر عليهم الجوز فامتثلت أمرهم».

فقال صاحب الشجرة : «لقد ألقيت نفسك فى بلاء عظيم، وهل انتفعت بأكل شىء منها؟» فقال الغلام: «ماأكلت منها شيئًا. فقال له صاحب الشجرة: «لقد علمت الآن حماقتك وجهلك وهو أنك سعيت فى تلف نفسك لإصلاح غيرك». ثم قال للصوص : «ما لى عليكم سبيل امضوا إلى حال سبيلكم». وقبض على الولد وعاقبه.

وهكذا وزراؤك وأهل دولتك يريدون أن يهلكوك لإصلاح أمرهم ويفعلون بك مثل ما فعل اللصوص بالفتى». فقال الملك: «حق ما قلته ولقد صدقت فى خبرك فأنا لا أخرج إليهم ولا أترك لذَّاتى». ثم بات مع زوجته فى أرغد عيش إلى أن أصبح الصباح. فلما أصبح الصباح قام الوزير وجمع أرباب الدولة مع من حضر معهم من الرعية، ثم جاؤوا إلى باب الملك مستبشرين فرحين، فلم يفتح لهم الباب ولم يخرج إليهم ولم يأذن لهم بالدخول عليه. فلما يئسوا من ذلك قالوا لشماس: «أيها الوزير الفاضل والحكيم الكامل أما ترى حال هذا الصبى

الصغير السن القليل العقل الذى قد جمع إلى ذنوبه الكذب، فانظر وعده لك كيف أخلفه ولم يوف بما وعد وهذا ذنب يجب أن تضيفه إلى ذنوبه، ولكن نرجو أن تدخل إليه ثانيًا وتنظر ما السبب فى تأخيره ومنعه عن الخروج، فإنا غير منكرين على طباعه الذميمة مثل هذا الأمر فإنه بلغ غاية القساوة».

ثم إن شماسًا توجه إليه ودخل عليه وقال: «السلام عليك أيها الملك، ما لى أراك قد أقبلت على شىء يسير من اللذة وتركت الأمر الكبير الذى ينبغى الاعتناء به؟ وكنت مثل الذى له ناقة وهو منطو على لبنها فألهاه حسن لبنها عن ضبط زمامها فأقبل يومًا على حلبها ولم يمتن بزمامها، فلما أحسَّت الناقة بترك الزمام جذبت نفسها وطلبت الفضاء، فصار الرجل فاقد اللبن والناقة مع أن ضرر ما لقيه أكثر من نفعه. فانظر أيها الملك فيما فيه صلاح نفسك ورعيتك، فإنه ليس ينبغى للرجل أن يديم الجلوس على باب المطبخ من أجل حاجته إلى الطعام، ولا ينبغى له أن يكثر الجلوس مع النساء من أجل ميله إليهنَّ، وكما أن الرجل يبتغى من الطعام مايدفع ألم الجوع ومن الشراب ما يدفع ألم العطش كذلك ينبغى للرجل العاقل أن يكتفى من هذه الأربعة والعشرين ساعة بساعتين فى أمور جسده فى كل نهار ويصرف الباقى فى مصالح نفسه وفى مصالح رعيته.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد : «واعلم أنه ليس ينبغى للرجل أن يسمع من امرأة كلامًا ولا يطيعها فى أمر ولا يقبل لها رأيًا فى مشورة فإياك أن تلبس ثوب الجهل بعد ثوب الحكمة والعلم، أو تتبع الرأى الفاسد بعد معرفتك للرأى الرشيد النافع، فلا تتبع لذَّة يسير مصيرها إلى الفساد ومآلها الخسران الزائد الشديد». فلما سمع الملك ذلك من شماس قال له: «أنا فى غد أخرج إليهم إن شاء الله تعالى». فخرج شماس إلى الحاضرين من كبراء المملكة وأعلمهم بما قال الملك فبلغ المرأة ما قاله شماس فدخلت على الملك وقالت له:

« إنما الرعية عبيد للملك، والآن رأيت أنك أيها الملك عبد لرعيتك بحيث تهابهم وتخاف شرهم ، وهم إنما يريدون أن يختبروا باطنك فإن وجدوك ضعيفًا تهاونوا بك وإن وجدوك شجاعًاهابوك، وكذلك يفعل وزراء السوء بملكهم لأن حيلهم كثيرة. وقد أوضحت لك حقيقة كيدهم. فإن وافقتهم على ما يريدون أخرجوك من أمرك إلى مرادهم ولا يزالون ينقلونك من أمر إلى أمر حتى يوقعوك فى الهلكة، ويكون مثلك مثل التاجر واللصوص». فقال الملك: «ما هى حكاية التاجر واللصوص؟» قالت:

حكاية التاجر واللصوص

«بلغنى أنه كان تاجر له مال كثير، فانطلق بتجارة ليبيعها فى بعض المدن. فلما انتهى إلى مدينة اكترى له بها منزلاً ونزل فيه، فنظره لصوص كانوا يراقبون التجار لسرقة متاعهم. فانطلقوا إلى منزل التاجر واحتالوا فى الدخول عليه فلم يجدوا لهم سبيلاً إلى ذلك. فقال لهم رئيسهم: «أنا كفيكم أمره». ثم إنه انطلق فلبس ثياب الأطباء وجعل على عاتقه جرابًا فيه شىء

من الدواء وأقبل ينادي: «من يحتاج إلى طبيب؟» حتى وصل إلى منزل ذلك التاجر فرآه جالسًا على غدائه فقال له: «أتريد لك طبيبًا؟» فقال له: «لست محتاجًا إلى طبيب ولكن اقعد وكل معي». فقعد اللص مقابله وجعل يأكل معه. وكان ذلك التاجر جيد الأكل. فقال اللص في نفسه «لقد وجدت فرصتي». ثم التفت إلى التاجر وقال له: «لقد وجب عليَّ نصيحتك لما حصل لي من إحسانك وليس يمكن أن أخفى عليك نصيحة، وهو أني أراك رجلاً كثير الأكل وهذا سببه مرض في معدتك، فإن لم تبادر بالسعي على دائك وإلا آل أمرك إلى الهلاك».

فقال التاجر: «إن جسمي صحيح ومعدتي سريعة الهضم وإن كنت جيد الأكل فليس ببدني مرض ولله الحمد والشكر». فقال له اللص: «إنما ذلك بحسب ما يظهر لك وإلا فقد عرفت أن في باطنك مرضًا خفيا فإن أنت أطعتني فداو نفسك». فقال التاجر «وأين أجد من يعرف دوائي؟» فقال له اللص: «إنما المداوي هو الله ولكن الطبيب مثلي يعالج المريض على قدر إمكانه». فقال له التاجر: «أرني الآن دوائي وأعطني منه شيئًا». فأعطاه سفوفًا فيه صبر كثير وقال له: «استعمل هذا في هذه الليلة» فأخذه منه. ولما كان الليل تعاطى منه شيئًا فرآه صبرًا كريه الطعم فلم ينكر منه شيئًا. فلما تعاطاه وجد منه خفة في تلك الليلة، فلما كانت الليلة الثانية جاء اللص ومعه دواء فيه صبر أكثر من الأول فأعطاه منه شيئًا. فلما تعاطاه أسهله تلك الليلة ولكنه صبر على ذلك ولم ينكره. فلما رأى اللص أن التاجر اعتنى بقوله واستأمنه على نفسه وتحقق على أنه لا يخالفه انطلق وجاء بدواء قاتل وأعطاه له. فأخذه منه التاجر وشربه، فعندما شرب ذلك الدواء تقطعت أمعاؤه وأصبح ميتا. فقام اللصوص وأخذوا جميع ما كان للتاجر».

وإني أيها الملك ما قلت لك هذا إلا لأجل أنك لا تقبل من هذا المخادع كلامًا فتلحقك أمور تُهلك بها نفسك». فقال الملك: «صدقت فأنا لا أخرج إليهم». فلما أصبح الصباح اجتمع الناس وجاءوا إلى باب الملك وقعدوا أكثر النهار حتى يئسوا من خروجه. ثم رجعوا إلى شماس وقالوا له: «أيها الفيلسوف الحكيم والماهر العليم أما ترى هذا الولد الجاهل لا يزداد إلا كذبًا علينا، وإن إخراج الملك من يده واستبدال غيره به فيه الصواب فتنتظم بذلك أحوالنا وتستقيم أمورنا؟ لكن ادخل إليه ثالثًا وأعلمه أنه لا يمنعنا من القيام عليه ونزع الملك منه إلا إحسان والده إلينا وما أخذه علينا من العهود والمواثيق، ونحن مجتمعون في غد عن آخرنا بسلاحنا ونهدم باب هذا الحصن. فإن خرج إلينا وصنع لنا ما نحب فلا بأس وإلا دخلنا عليه وقتلناه وجعلنا المُلك في يد غيره». فانطلق الوزير شماس ودخل على الملك وقال له «أيها الملك المنهمك في شهواته ولهوه ما هذا الذي تصنعه بنفسك، فيا هل ترى من يغريك على هذا، فإن كنت أنت الجاني على نفسك فقد زال ما نعهده لك من الصلاحية والحكمة والفصاحة، فليت شعري من الذي حولك ونقلك من العلم إلى الجهل ومن الوفاء إلى الجفاء ومن اللين إلى القسوة ومن قبولك مني إلى إعراضك عني، فكيف أنصحك ثلاث مرات ولا تقبل نصيحتي وأشير عليك بالصواب وتخالف مشورتي، فأخبرني ما هذه الغفلة وما هذا اللهو ومن أغراك عليه؟.

«اعلم أيها الملك أن أهل مملكتك قد تواعدوا على أنهم يدخلون عليك ويقتلونك ويعطون

ملكك لغيرك، فهل لك قوة على جميعهم والنجاة من أيديهم أو تقدر على حياة نفسك بعد قتلها، فإن كنت أعطيت هذا كله وأمنت من قبله فلا حاجة لك بكلامي، وإن كانت حاجتك إلى الدنيا والملك فافق لنفسك واضبط ملكك وأظهر للناس قوة بأسك وأعلمهم بأعذارك، فإنهم يريدون انتزاع ما في يدك وتسليمه إلى غيرك، وقد عزموا على العصيان والمخالفة وصار دليل ذلك ما يعلمونه من صغر سنك ومن انكبابك على اللهو والشهوات، فإن الحجارة إذا طال مكثها في الماء متى أخرجت منه وضرب بعضها بعضًا انقدحت منها النار، والآن رعيتك خلق كثير وهم يتوازرون عليك ويريدن نقل الملك منك إلى غيرك ويبلغون فيك ما يريدونه من هلاكك، ويكون مثلك مثل الثعالب والذئب» فقال الملك: «وما هو مثل الثعالب والذئب؟». قال.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الثعالب والذئب

قالت شهر زاد: «زعموا أن جماعة من الثعالب خرجوا ذات يوم يطلبون ما يأكلون. فبينما هم يجولون في طلب ذلك وإذا هم بجمل ميت. فقالوا في أنفسهم: «قد وجدنا ما نعيش به زمانًا طويلاً لكن نخاف أن يبغي بعضنا على بعض ويميل القويّ بقوته على الضعيف فيهلك الضعيف منّا، فينبغي لنا أن نطالب حكمًا يحكم بيننا ونجعل له نصيبا فلا يكون للقويّ سلطة على الضعيف». فبينما هم يتشاورون في شأن ذلك وإذا بذئب أقبل عليهم. فقال بعضهم لبعض: «إن أصاب رأيكم فاجعلوا هذا الذئب حكمًا بيننا لأنه أقوى الناس وأبوه سابقًا كان سلطانا علينا ونحن نرجو من الله أن يعدل بيننا». ثم إنهم توجهوا إليه وأخبروه بماصار إليه رأيهم وقالوا: «لقد حكمناك بيننا لأجل أن تعطي كل واحد منا ما يقوته في كل يوم على قدر حاجته لئلا يبغي قوينا على ضعيفنا فيهلك بعضنا بعضًا». فأجابهم الذئب إلى قولهم وتعاطى أمورهم وقسم عليهم في ذلك اليوم ما كفاهم. فلما كان من الغد قال الذئب في نفسه: «إن قسمة هذا الجمل بين هؤلاء العاجزين لا يعود عليّ منها شيء إلا الجزء الذي جعلوه لي، وإن أكلته وحدي فهم لا يستطيعون لي ضرا مع أنهم غنم لي ولأهل بيتي فمن الذي يمنعني عن أخذ هذا لنفسي، ولعل الله مسببه لي بغير جميلة منهم. فالأحسن لي أن أختص به دونهم ومن هذا الوقت لا أعطيهم شيئًا». فلما أصبح الثعالب جاؤوا إليه على العادة يطلبون منه قوته.

فقالوا له: «يا أبا سرحان أعطنا مؤنة يومنا». فأجابهم قائلاً: «ما بقي عندي شيء أعطيه لكم». فذهبوا من عنده على أسوأ حال. ثم قالوا: «إن الله أوقعنا في هم عظيم مع هذا الخائن الخبيث الذي لا يتقي الله ولا يخافه، وليس لنا حول ولا قوة». ثم قال بعضهم لبعض: «إنما حمله على هذا الأمر ضرورة الجوع فدعوه اليوم يأكل حتى يشبع وفي غد نذهب إليه». فلما أصبحوا توجهوا إليه وقالوا له «يا أبا سرحان إنما ولّيناك علينا لأجل أن تدفع لكل واحد منا قوته وتنصف الضعيف من القوي، وإذا فرغ تجتهد لنا في تحصيل غيره ونصير دائمًا تحت كنفك ورعايتك وقد مسَّنا الجوع ولنا يومان ما أكلنا فأعطنا مؤنتنا وأنت في حلّ من جميع ما تتصرَّف فيه من دون ذلك».

فلم يرد عليهم جوابًا بل ازداد قوة. فراجعوه فلم يرجع. فقال بعضهم لبعض: «ليس لنا حيلة إلا أننا ننطلق إلى الأسد ونرمى أنفسنا عليه ونجعل له الجعل، فإن أحسن لنا بشىء منه كان من فضله وإلا فهو أحق به من هذا الخبيث». ثم انطلقوا إلى الأسد وأخبروه بما حصل لهم مع الذئب. ثم قالوا له: «نحن عبيدك وقد جئناك مستجيرين بك لتخلصنا من هذا الذئب ونصير لك عبيدًا». فلما سمع الأسد كلام الثعالب أخذته الحمية وغار لله تعالى ومضى معهم إلى الذئب. فلما رأى الذئب الأسد مقبلاً طلب الفرار من قدامه، فجرى الأسد خلفه وقبض عليه ومزّقه ومكّن الثعالب من فريستهم».

فمن هذا عرفنا أنه لا ينبغى لأحد من الملوك أن يتهاون فى أمر رعيته، فاقبل نصيحتى وصدق القول الذى قلته لك، واعلم أن أباك قبل وفاته قد أوصاك بقبول النصيحة، وهذا آخر كلامى معك والسلام». فقال الملك «إنى سامع منك وفى غد إن شاء الله تعالى أطلع إليهم». فخرج شماس من عنده وأخبرهم بأن الملك قبل نصيحته ووعده أنه فى غد يخرج إليهم. فلما سمعت زوجة الملك ذلك الكلام منقولاً عن شماس وتحققت أنه لابد من خروج الملك إلى الرعية أقبلت على الملك مسرعة وقالت له: «ما أكثر تعجبى من إذعانك وطاعتك لعبيدك، أما تعلم أن وزراءك هؤلاء عبيدٌ لك، فلأى شىء رفعتهم هذه الرفعة العظيمة حتى أوهمتهم أنهم هم الذين أعطوك هذا الملك، ورفعوك هذه الرفعة وأنهم أعطوك العطايا مع أنهم لم يقدروا أن يفعلوا معك أدنى مكروه، فكان من حقك عدم الخضوع لهم بل من حقهم الخضوع لك وتنفيذ أوامرك، فكيف تكون مرعويًا منهم هذا الرعب العظيم؟ وقد قيل : إذا لم يكن قلبك مثل الحديد لا تصلح أن تكون ملكًا، وهؤلاء غرَّهم حلمك حتى تجاسروا عليك ونبذوا طاعتك مع أنه ينبغى أن يكونوا مقهورين على طاعتك مجبورين على الانقياد إليك، فإن سارعت لقبول كلامهم وأهملتهم على ما هم فيه وقضيت لهم أدنى حاجة على غير مرادك ثقّلوا عليك وطمعوا فيك وتصير لهم هذه عادة، فإن أطعتنى لا ترفع لأحد منهم شأنًا ولا تقبل لأحد منهم كلمًا ولا تطمعهم فى التجاسر عليك فتصير مثل الراعى واللصوص». فقال لها: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الراعى واللصوص

قالت شهر زاد : قالت: «زعموا أنه كان رجل راعى غنم فى برية وكان محافظًا على رعايتها . فأتاه لص ذات ليلة يريد أن يسرق من غنمه شيئًا فرآه محافظًا عليها لا ينام ليلاً ولا يغفل نهارًا، فصار يحاوله طول ليله فلم يظفر منه بشىء. فلما أعيته الحيل انطلق إلى البرية واصطاد أسدًا وسلخ جلده وحشاه تبنًا، ثم أتى به ونصبه على محلّ عال فى البرية بحيث يراه الراعى ويتحققه. ثم أقبل اللص على الراعى وقال له: «إن هذا الأسد قد أرسلنى إليك يطلب عشاءه من هذه الغنم». فقال له الراعى: «وأين الأسد؟». فقال له اللص: «ارفع بصرك ها هو واقف». فرفع الراعى رأسه فرأى صورة الأسد.

فلما رآها الراعي ظن أنها أسد حقيقي ففزع منه فزعًا شديدًا وأخذه الرعب وقال للص: «يا أخي خذ ما شئت ليس عندي مخالفة». فأخذ اللص من الغنم حاجته، وازداد طمعه في الراعي بسبب شدة خوفه فصار كل قليل يأتي إليه ويرعبه ويقول له: «إن الأسد يحتاج إلى كذا وقصده أن يفعل كذا». ثم يأخذ من الغنم كفايته، ولم يزل اللص مع الراعي على هذه الحالة حتى أفنى غالب الغنم».

وإنما قلت لك هذا الكلام أيها الملك لئلا يغتر كبراء دولتك هؤلاء بحلمك ولين جانبك فيطمعوا فيك، والرأي السديد أن يكون موتهم أقرب مما يفعلونه بك».

فقبل الملك قولها وقال: «إني قبلت منك هذه النصيحة ولست مطيعًا لمشورتهم ولا خارجًا إليهم». فلما أصبح الصباح اجتمع الوزراء وأكابر الدولة ووجهاء الناس وحمل كل واحد منهم سلاحه معه وتوجهوا إلى بيت الملك ليهجموا عليه يقتلوه ويولوا غيره. فلما وصلوا إلى بيت الملك سألوا البواب أن يفتح لهم الباب فلم يفتح لهم، فأرسلوا ليحضروا نارًا فيحرقوا بها الأبواب ثم يدخلوا، فسمع البواب منهم هذا الكلام فانطلق بسرعة وأعلم الملك أن الخلق مجتمعون على الباب وقال له: «إنهم سألوني أن أفتح لهم فأبيت فأرسلوا ليحضروا نارًا فيحرقوا بها الأبواب ثم يدخلوا عليك ويقتلوك، فماذا تأمرني»؟.

فقال الملك في نفسه : «إني وقعت في الهلكة العظيمة». ثم أرسل خلف المرأة فحضرت. فقال: «إن شماسًا لم يخبرني بشيء إلا قد وجدته صحيحًا، وقد حضر الخاص والعام من الناس يريدون قتلي وقتلكِ، ولما لم يفتح لهم الباب أرسلوا ليحضروا النار فيحرقوا الأبواب فيحترق البيت ونحن داخله فماذا تشيرين علينا؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية تعليم زوجة الملك الحيلة له في قتل شماس ووزرائه

قالت شهر زاد : فقالت له المرأة : «لا بأس عليك ولا يهولنك أمرهم فإن هذا زمان يقوم فيه السفهاء على ملوكهم». فقال لها الملك : «فماذا تشيرين به عليَّ لأفعله ما الحيلة في هذا الأمر؟» فقالت له: «الرأي عندي أنك تعصب رأسك بعصابة وتظهر نفسك أنك مريض، ثم ترسل إلى الوزير شماس فيحضر إليك ويرى حالك الذي أنت فيه، فإذا حضر فقل له: قد أردت الخروج إلى الناس في هذا اليوم فمنعني هذا المرض فاخرج إلى الناس وأخبرهم بما أنا فيه وأخبرهم أني في غد أخرج إليهم وأقضي حوائجهم وأنظر في أحوالهم، ليطمئنوا ويسكن غيظهم، وإذا أصبحت فاستدع بعشرة من عبيد أبيك يكونون من أهل البأس والقوة وتكون آمنًا على نفسك منهم ويكونون سامعين لقولك طائعين لأمرك كاتمين لسرك حافظين لودك، ثم أوقفهم على رأسك وأمرهم أن لا يمكنوا أحدًا من الدخول عليك إلا واحدًا بعد واحد، فإذا دخل واحد فقل لهم: «خذوه واقتلوه»، وإذا اتفقوا معك على ذلك فأصبح ناصبًا كرسيك في ديوانك وافتح بابك، فإنهم إذا رأوك فتحت الباب طابت نفوسهم وأتوا لك بقلب سليم واستأذنوا في الدخول عليك، فأذن لهم في الدخول واحدا بعد واحد كما قلت لك وافعل بهم

مرادك، ولكن ينبغى أن تبدأ بقتل شماس الكبير أولهم فإنه هو الوزير الأعظم وهو صاحب الأمر فاقتله أولاً، ثم بعد ذلك اقتل الجميع واحدًا بعد واحد ولا تبق منهم من تعرف أنه ينكث لك عهدًا وكذلك كل من تخاف صولته، فإنك إذا فعلت بهم ذلك فإنهم لا يبقى لهم قوة عليك وتستريح منهم الراحة الكلية ويصفو لك المُلك وتعمل ما تحبّ واعلم أنه لا حيلة لك أنفع من هذه الحيلة». فقال لها الملك: «إن رأيك هذا سديد وأمرك فيه رشيد، فلابدَّ أن أعمل ما ذكرت». ثم أمر بعصابة فشدَّ بها رأسه وتضاعف وأرسل إلى شماس.

فلما حضر شماس بين يدى الملك قال له: «يا شماس قد علمت أنى لك محب ولرأيك مطيع وأنت لى كالأخ والوالد دون كل أحد، وتعرف أنى أقبل منك جميع ما أمرتنى به، وقد كنت أمرتنى بالخروج إلى الرعية والجلوس لأحكامهم وتحققت أنها نصيحة منك لنا، وقد أردت الخروج إليهم بالأمس فمرض لى هذا المرض ولست أستطيع الجلوس، وقد بلغنى أن أهل المملكة متنفصون من عدم خروجى إليهم وهموا أن يفعلوا بى ما لا يليق من شرهم، فإنهم غير عالمين بما أنا فيه من المرض. فاخرج إليهم وأعلمهم بحالى وما أنا فيه واعتذر إليهم عنى فإنى تابع لما يقولون وفاعل لما يحبون.

«فأصلح هذا الأمر واضمن لهم عنى ذلك فإنك نصيح لى ولوالدى من قبلى وعادتك الإصلاح بين الناس، وإن شاء الله تعالى فى غد أخرج إليهم ولعلَّ مرضى أن يزول عنى فى هذه الليلة ببركة صالح نيتى وما أضمرته لهم من الخير فى سريرتى».

فسجد شماس لله ودعا للملك وقبَّل يديه وفرح بذلك وخرج إلى الناس وأخبرهم بما سمعه من الملك ونهاهم عما أرادوا وأعلمهم بالعذر من سبب امتناع الملك عن الخروج، وأخبرهم أنه وعده فى غد بالخروج إليهم وأنه يصنع لهم ما يحبون. فانصرفوا إلى منازلهم.

حكاية مشاورة الملك مع العبيد بقتل شماس

أما الملك فإنه بعث إلى العشرة العبيد الجبابرة الذين اختارهم من جبابرة أبيه وكانوا ذوى عزم جليد وبأس شديد وقال لهم: «قد علمتم ما كان لكم عند والدى من الحظوة ورفعة الشأن والإحسان إليكم مع لطفه بكم وإكرامه إياكم، فأنا أنزلكم بعده عندى فى درجة أرفع من تلك الدرجة وسأعرِّفكم سبب ذلك وأنتم فى أمان الله منى، ولكن أسألكم عن مسألة هل تكونون معى فيها طائعين لأمرى فيما أقوله لكم كاتمين لسرِّى عن جميع الناس ولكم منى الإحسان فوق ما تريدون حيث امتثلتم أمرى؟».

فأجابه العشرة من فم واحد وكلام متوارد قائلين: «جميع ما تأمرنا به يا سيدنا نحن به عاملون ولا نخرج عمَّا تشير به علينا مطلقًا وأنت ولىّ أمرنا». فقال لهم: «أحسن الله لكم. فأنا الآن أعرِّفكم سبب اختصاصكم لمزيد الإكرام عندى، وهو أنكم قد علمتم ما كان يفعله أبى بأهل مملكته من الإكرام وما عاهدهم عليه من أمرى وإقرارهم له بأنهم لا ينكثون لى عهدًا ولا يخالفون أمرى، وقد نظرتم ما كان منهم بالأمس حيث اجتمعوا جميعًا حولى يريدون قتلى، وأنا أريد أن أصنع بهم أمرًا، وذلك أنى نظرت ما كان منهم بالأمس فرأيت أنهم لا يزجرهم عن مثله إلا نكالهم.

«فلابدّ أن أوكلكم بقتل من أشير لكم بقتله سرا حتى أدفع الشرّ والبلاء عن بلادى بقتل أكابرهم ورؤسائهم، وطريقة ذلك أنى أقعد فى هذا المقعد فى هذه المقصورة فى غد، وآذن لهم بالدخول على واحدًا بعد واحد وأن يدخلوا من باب ويخرجوا من آخر، فقفوا أنتم العشرة بين يدىَّ فاهمين لإشارتى. وكلما يدخل واحد فخذوه وادخلوا به هذا البيت واقتلوه وأخفوا جثته». فقالوا: «سمعًا لقولك وطاعةً لأمرك».

فعند ذلك أحسن إليهم وصرفهم وبات. فلما أصبح طلبهم وأمر بنصب السرير ثم لبس ثياب الملك وأخذ فى يده كتاب القضاء وأمر بفتح الباب ففتح، وأوقف العشرة العبيد بين يديه ونادى المنادى: «من كان له حكومة فليحضر إلى بساط الملك». فأتى الوزراء والقوّاد والحجّاب ووقف كل واحد فى مرتبته. ثم أمر بالدخول واحدًا بعد واحد.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية أمر الملك للعبيد بقتل شماس وغيره

قالت شهر زاد: فدخل شماس الوزير أولاً كما هى عادة الوزير الأكبر. فلما دخل واستقر قدّام الملك لم يشعر إلا والعشرة العبيد محتاطون به وأخذوه وأدخلوه إلى البيت وقتلوه، وأقبلوا على باقى الوزراء ثم العلماء ثم الصلحاء فصاروا يقتلونهم واحدًا بعد واحد حتى فرغوا من الجميع. ثم دعا بالجلادين وأمرهم بحط السيف فى من بقى منهم من أهل الشجاعة وقوّة البأس. فم يتركوا واحدًا ممن يعرفون أن له شهامة إلا قتلوه ولم يتركوا إلا سفلة الناس ورعاعهم. ثم طردوهم ولحق كل واحد منهم بأهله. ثم بعد ذلك اختلى الملك بلذّاته وأعطى نفسه شهواتها واتبع البغى والجور والظلم حتى سبق من تقدّمه من أهل الشر. وكانت بلاد هذا الملك معدن الذهب والفضة والياقوت والجواهر. وجميع من حوله من الملوك يحسدونه على هذه المملكة ويتوقعون له البلاء. فقال بعض الملوك فى نفسه للمجاورين له: «إنى ظفرت بما كنت أريد من أخذ هذه المملكة من يد هذا الولد الجاهل بسبب ما حصل من قتله لأكابر دولته وأهل الشجاعة والنجدة الذين كانوا فى أرضه، فهذا هو وقت الفرصة وانتزاع ما فى يده لكونه صغيرًا ولا دراية له بالحرب ولا رأى له ولم يبقَ عنده من يرشده ولا يعضده، فأنا اليوم أفتح معه باب الشر وهو أنى أكتب له كتابًا وأبعث به فيه وأبكته فيه على ما حصل منه وأنظر بعد ذلك ما يكون من جوابه».

حكاية طلب بعض ملوك الهند من ورد خان بناء قصر فى البحر

فكتب له مكتوبًا مضمونه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فقد بلغنى ما فعلت بوزرائك: وعلمائك وجبابرتك وما أوقعت نفسك فيه من البلاء حتى لم يبق لك طاقة ولا قوّة على دفع من يصول عليك حين طغيت وأفسدت، وإن الله قد أعطانى النصر عليك وظفرنى بك فاسمع كلامى وامتثل أمرى وابن لى قصرًا منيعًا فى وسط البحر. إن لم تقدر على ذلك فاخرج من بلادك وفز بنفسك، فإنى باعث إليك من أقصى الهند اثنى عشر كردوسًا كل

كردوس اثنا عشر ألف مقاتل، فيدخلون بلادك وينهبون أموالك ويقتلون رجالك ويسبون حريمك. واجعل قائدهم بديمًا وزيرى وآمره أن يرسخ عليها محاصرًا إلى أن يملكها، وقد أمرت هذا الغلام المرسل إليك أنه لا يقيم عندك غير ثلاثة أيام. وإن امتثلت أمرى نجوت وإلا أرسلت إليك ما ذكرته لك».

ثم ختم الكتاب وأعطاه للرسول. فسار به حتى وصل إلى تلك المدينة ودخل على الملك وأعطاه الكتاب. فلما قرأه الملك ضعفت قوّته وضاق صدره والتبس عليه أمره وتحقق الهلاك ولم يجد من يستشيره ولا من يستعين به ولا من ينجده، فقام ودخل على زوجته وهو متغير اللون. فقالت له: «ما شأنك أيها الملك؟». فقال لها: «لست اليوم بملك ولكنى عبد الملك». ثم فتح الكتاب وقرأه عليها. فلما سمعته أخذت فى البكاء والنحيب وشقت ثيابها. فقال لها الملك: «هل عندك شىء من الرأى والحيلة فى هذا الأمر العسير؟» فقالت له: «وما عند النساء من الحيلة فى الحروب، النساء لا قوّة لهن وإنما القوّة والرأى والحيلة للرجال فى مثل هذا الأمر». فلما سمع الملك منها الكلام حصل له غاية الندم والتأسف والكآبة على ما فرط منه من قتل وزرائه وأشراف رعيته وتمنى الموت لنفسه قبل أن يرد عليه مثل هذا الخبر الفظيع. ثم قال لنسائه: «لقد وقع لى منكن ما وقع للدرّاج مع السلاحف». فقلن له: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية الدراج مع السلاحف

قالت شهر زاد: فقال الملك: زعموا أن سلاحف كانت فى جزيرة من الجزائر، وكانت تلك الجزيرة ذات أشجار وأثمار وأنهار، فاتفق أن درّاجًا اجتاز بها يومًا وقد أصابه الحرّ والتعب. فلما أضرّ به ذلك حطّ من طيرانه فى تلك الجزيرة التى بها تلك السلاحف. فلما رأى السلاحف التجأ إليها ونزل عندها، وكانت السلاحف ترعى فى جهات الجزيرة ثم ترجع إلى مكانها، فلما رجعت من مسارحها إلى مكانها رأت الدرّاج فيه. فلما رأته أعجبها وزيّنه الله لها فسبحت خالقها وأحبّت هذا الدرّاج حبا شديدًا وفرحت به. ثم قال بعضها لبعض: «لاشك أن هذا من أحسن الطيور». فصارت كلها تلاطفه وتجنح إليه.

فلما رأى منها عين المحبة مال إليها واستأنس بها وصار يطير إلى أى جهة أراد وعند المساء يرجع إلى المبيت عندها فإذا أصبح الصباح يطير إلى حيث أراد، وصارت هذه عادته واستمرّ على هذه الحال مدّة من الزمان، فلما رأت السلاحف أن غيابه عنها يوحشها وتحققت أنه لا تراه إلا فى الليل وإذا أصبح طار مبادرًا ولا تشعر به مع زيادة حبها له قال بعضها لبعض: «إن هذا الدرّاج قد أحببناه وصار لنا صديقًا وما بقى لنا قدرة على فراقه، فما يكون من الحيلة الموصلة إلى إقامته عندنا دائمًا لأنه إذا طار يغيب عنّا النهار كله ولا نراه إلا فى الليل؟».

فأشارت عليها واحدة قائلة: «استرحن يا أخواتى وأنا أجعله لا يفارقنا طرفة عين».

فقال لها الجميع: «إن فعلت ذلك صرنا لك عبيدًا».

فلما حضر الدرّاج من مسرحه وجلس بينها تقربت منه السلحفاة المحتالة ودعت له وهنأته بالسلامة.

وقالت له: «يا سيدى اعلم أن الله قد رزقك منا المحبة وكذلك أودع قلبك محبتنا وصرت لنا فى هذا القفر أنيسًا، وأحسن أوقات المحبين إذا كانوا مجتمعين، والبلاء العظيم فى البعد والفراق.

ولكنك تتركنا عند طلوع الفجر ولم تعد إلينا إلا عند الغروب فيصير عندنا وحشة زائدة، وقد شقّ علينا ذلك كثيرًا ونحن فى وجد عظيم بهذا السبب».

فقال لها الدراج : «نعم أنا عندى محبة لكنّ واشتياق عظيم إليكن زيادة على ما عندكنّ وفراقكن ليس سهلا عندى ولكن ما بيدى حيلة من ذلك لكونى طيرًا بأجنحة فلا يمكننى المقام معكنّ دائمًا لأن هذا ليس من طبعى، فإن الطير ذا الأجنحة ليس له مستقر إلا فى الليل لأجل النوم وإذا أصبح طار وسرح فى أىّ موضع أعجبه». فقالت له السلحفاة: «صدقت ولكن ذو الأجنحة فى غالب الأوقات لا راحة له لكونه لا يناله من الخير ربع ما يحصل له من المشقة، وغاية المقصود للشخص الرفاهية والراحة، ونحن قد جعل الله بيننا وبينك المحبة والألفة ونخشى عليك ممن يصطادك من أعدائك فتهلك ونحرم رؤية وجهك».

فأجابها الدرّاج قائلاً: «صدقت ولكن ما عندك من الرأى والحيلة فى أمرى؟» فقالت له: «الرأى عندى أن تنتف ساعدك التى تسرع بطيرانك وتقعد عندنا مستريحًا وتأكل من أكلنا وتشرب من شربنا فى هذه المسرحة الكثيرة الأشجار اليانعة الأنهار ونقيم نحن وأنت فى هذا الموضع المخصب ويتمتع كل منا بصاحبه».

فمال الدراج إلى قولها وقصد الراحة لنفسه. ثم نتف ريشه واحدة بعد واحدة حكم ما استحسنه من رأى السلحفاة واستقر عندهن عائشًا معهن ورضى باللذة اليسيرة والطرب الزائل.

فبينما هم على تلك الحالة وإذا بابن عرس قد مرّ عليه فرمقه بعينه وتأمله فرآه مقصوص الجناح لا يستطيع النهوض.

فلما رآه على تلك الحالة فرح به فرحًا شديدًا وقال فى نفسه: «إن هذا الدراج سمين اللحم قليل الريش». ثم دنا منه ابن عرس وافترسه.

فصاح الدراج وطلب النجدة من السلاحف فلم ينجدنه بل تباعدن عنه وانكمشن فى بعضهن لما رأينّ ابن عرس قابضًا عليه، وحيث رأين ابن عرس يعذبه خنقهنّ البكاء عليه. فقال لهنّ الدراج: «هل عندكن شىء غير البكاء؟» فقلن له: «يا أخانا ليس لنا قوة ولا طاقة ولا حيلة فى أمر ابن عرس».

فحزن الدراج عند ذلك وقطع الرجاء من حياة نفسه وقال لهنّ: «ليس لكنّ ذنب إنما الذنب لى حيث أطعتكن ونتفت أجنحتى التى أطير بها، فأنا أستحق الهلاك لمطاوعتى ولكنّ لا ألومكن فى شىء».

وأنا الآن لا ألومكنّ أيها النساء بل ألوم نفسى وأؤدبها حيث لم أتذكر أنكنّ سبب الهفوة التى حصلت من أبينا آدم ولأجلها خرج من الجنة، ونسيت أنكنّ أصل كل شرّ فأطعتكن بجهلى

وخطأ رأيى وسوء تدبيرى وقتلت وزرائى وحكام مملكتى الذين كانوا إلىّ نصحاء فى كل الأمور وكانوا عزّتى وقوّتى على كل أمر أهمّنى.

فأنا الآن لم أجد عوضًا عنهم ولا أرى أحدًا يقوم مقامهم. وإن الله لم يفتح علىّ بمن له رأى سديد يرشدنى إلى ما فيه خلاصى وقعت فى الهلكة العظيمة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية خروج وردخان من بيته متنكراً وسماعه غلاماً في المملكة

قالت شهر زاد : ثم إنه قام ودخل مرقده بعد أن نعى الوزراء والحكماء قائلاً: «يا ليت هؤلاء الأسود عندى فى هذا الوقت ولو ساعة واحدة حتى أعتذر إليهم وأنظرهم وأشكوا إليهم أمرى وما حلّ بى بعدهم».

ولم يزل غريقًا فى بحر الهمّ طول نهاره ولا يأكل ولا يشرب. فلما جنّ الليل قام وغير لباسه ولبس ثيابًا رديئة وتنكّر وخرج يسوح فى المدينة لعله يسمع من أحد كلمة يرتاح بها.

فبينما هو يطوف فى الشوارع وإذا هو بغلامين مختليين بأنفسهما يتحدثان مع بعضهما. فدنا منهما الملك بحيث يسمع كلامهما ويفهمه.

فسمع واحدًا منهما يقول للآخر: «اسمع يا أخى ما حكاه لى والدى ليلة أمس من أجل ما وقع له فى زرعه وييسه قبل أوانه بسبب عدم المطر وكثرة البلاء الحاصل فى هذه المدينة». فقال الآخر: «أتعرف ما سبب هذا البلاء؟» قال له: «لا، فإن كنت تعرفه أنت فاذكره لى». فأجابه قائلاً: «نعم أعرفه وأخبرك به، اعلم أن بعض أصحاب والدى قال لى إن ملكنا قد قتل وزراءه وعظماء دولته من غير ذنب جنوه بل من أجل حبه للنساء وميله إليهنّ، وإن الوزراء نهوه عن ذلك فلم ينته وأمر بقتلهم طاعة لنسائه حتى أنه قتل شماسا والدى وزيره ووزير والده من قبله وكان صاحب مشورته، ولكن سوف تنظر ما يفعله الله به بسبب ذنوبهم فسينتقم لهم منه».

فقال الغلام: «وما عسى أن يفعل به بعد هلاكهم؟» قال له: اعلم أن ملك الهند الأقصى قد استخف بملكنا وبعث إليه كتابًا يوبخه فيه ويقول له: «ابن لى قصرًا فى وسط البحر. وإن لم تفعل ذلك فأنا أرسل إليك اثنى عشر كردوسًا كل كردوس فيه مائة ألف مقاتل، وأجعل قائد هذه العساكر بديعًا وزيرى فيأخذ ملكك ويقتل رجالك ويسبيك مع حريمك.

فلما جاءه رسول ملك الهند الأقصى أمهله ثلاثة أيام، واعلم يا أخى أن ذلك الملك جبار وعنيد، ذو قوّة وبأس شديد، وفى مملكته خلق كثير ، وإن لم يحتل ملكنا فيما يمنعه منه وقع فى الهلكة، وبعد هلاك ملكنا يأخذ هذا الملك أرزاقنا ويقتل رجالنا ويسبى حريمنا».

فلما سمع الملك منهما هذا الكلام زاد اضطرابًا ومال إليهما وقال فى نفسه: «إن هذا الغلام لحكيم لكونه أخبر عن شىء لم يبلغه منى، فإن الكتاب الذى جاء من ملك أقصى الهند

عندى والسرّ معى ولم يطلع أحد على هذا الخبر غيرى فكيف علم هذا الغلام به، ولكن أنا ألتجىء إليه وأكلمه وأسأل الله أن يكون خلاصنا لديه». ثم إن الملك دنا من الغلام بلطف وقال له: «أيها الولد الحبيب ما هذا الذى ذكرته من أجل ملكنا فإنه قد أساء كل الإساءة فى قتل وزرائه وكبراء دولته، لكنه فى الحقيقة قد أساء نفسه ورعيته، وأنت صدقت فيما قلته، ولكن عرّفنى أيها الولد من أين عرفت أن ملك الهند الأقصى كتب إلى ملكنا كتابًا ووبخه فيه وقال له هذا الكلام الصعب الذى قلته؟» قال له الغلام: «قد علمت هذا من قول القدماء أنه ليس يخفى على الله خافية، والخلق من بنى آدم فيهم روحانية تُظهر لهم الأسرار الخفية».

فقال له: «صدقت يا ولدى ولكن هل لملكنا حيلة أو تدبير يدفع به عن نفسه وعن مملكته هذا البلاء العظيم؟».

فأجاب الغلام قائلاً : «نعم إذا أرسل الملك إلىّ وسألنى ماذا يصنعه ليدفع به عدوّه وينجو من كيده أخبرته بما فيه نجاته بقوة الله تعالى».

قال له الملك : «ومن يعلم الملك بذلك حتى يرسل إليك ويدعوك؟» فأجابه قائلاً: «إنى سمعت عنه أنه يفتش على أهل الخبرة والرأى الرشيد، وإذا أرسل إلىّ سرت معهم إليه وعرّفته بما فيه صلاحه ودفع البلاء عنه، وإن أهمل هذا الأمر العسير واشتغل بلهوه مع نسائه وأردت أن أعلمه بما فيه نجاته وتوجهت إليه من تلقاء نفسى فإنه يأمر بقتلى مثل أولئك الوزراء وتكون معرفتى به سببًا لهلاكى وتستقلّ الناس بى ويستنقصون عقلى وأكون من مضمون قول من قال: من كان علمه أكثر من عقله هلك ذلك العالم بجهله».

فلما سمع الملك كلام الغلام تحقق حكمته وتبين فضيلته وتيقن أن النجاة تحصل له ولرعيته على يديه، فعند ذلك أعاد الملك الكلام على الغلام وقال له: «من أين أنت وأين بيتك؟».

فقال له الغلام : «إن هذا الحائط يوصل إلى بيتنا». فتعهد الملك ذلك المكان. ثم إنه ودّع الغلام ورجع إلى مملكته مسرورًا .

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية طلب ورد خان ابن شماس عنده ومشاورته معه

قالت شهرزاد: فلما استقر فى بيته لبس ثيابه ودعا بالطعام والشراب ومنع عنه النساء وأكل وشرب وشكر الله تعالى وطلب منه النجاة والمعونة والمغفرة والعفو عما فعل بعلماء دولته ورؤسائهم. ثم تاب إلى الله توبة خالصة وافترض على نفسه الصوم والصلاة الكثيرة بالنذر ودعا بأحد غلمانه الخواص ووصف له مكان الغلام وأمره أن ينطلق إليه ويحضره بين يديه برفق. فمضى ذلك العبد إلى الغلام وقال له: «إن الملك يدعوك لخير يصل إليك من قبله ويسألك سؤالاً ثم تعود فى خير إلى منزلك». فأجاب الغلام قائلاً: «وما حاجة الملك التى دعانى من أجلها؟» قال له الخادم: «إن حاجة مولاى التى دعاك من أجلها هى سؤال وجواب». فقال له الغلام: «ألف سمع وطاعة». ثم سار معه حتى وصل إلى الملك. فلما صار بين يديه سجد لله ودعا للملك بعد أن سلم عليه فرد الملك عليه السلام وأمره بالجلوس فجلس. فقال له: «هل تعرف من تكلم معك بالأمس؟» قال الغلام: «نعم» قال له: «فأين هو؟» فأجابه بقوله: «هو الذى يكلمنى فى هذا الوقت». فقال له الملك: «لقد صدقت أيها الحبيب». ثم أمر بوضع كرسى فى جانب كرسيه وأجلسه عليه وأمر بإحضار أكل وشرب. ثم امتزجا فى الحديث إلى أن قال الملك للغلام: «إنك أيها الوزير حدثتنى بالأمس حديثاً، وذكرت فيه أن معك حيلة تدفع عنا بها كيد ملك الهند، فما هى الحيلة وكيف التدبير فى دفع شره عنا، فأخبرنى لكى أجعلك أول من يتكلم معى فى الملك وأصطفيك وزيراً لى وأكون تابعاً لرأيك فى كل ما أشرت به على وأجيزك جائزة سنية». فقال له الغلام: «جائزتك لك أيها الملك والمشورة والتدبير عند نسائك اللائى أشرن بقتل والدى شماس مع بقية الوزراء».

فلما سمع الملك منه ذلك خجل وتنهد وقال: «أيها الولد الحبيب هل شماس والدك كما ذكرت؟» فأجابه الغلام قائلاً: «إن شماساً والدى حقا وأنا ولده صدقاً». فعند ذلك خشع الملك ودمعت عيناه واستغفر الله وقال: «أيها الغلام إنى فعلت ذلك بجهلى، وسوء تدبير النساء وكيدهن عظيم، ولكن أسألك أن تكون مسامحاً لى، وإنى جاعلك فى موضع أبيك وأعلى مقاماً من مقامه، وإذا زالت هذه النقمة النازلة بنا طوقتك بطوق الذهب وأركبتك أعز مركب وأمرت المنادى أن ينادى قدامك قائلاً: «هذا الولد العزيز صاحب الكرسى الثانى بعد الملك». وأما ما ذكرت من أمر النساء فإنى أضمرت الانتقام منهن وجعلته فى الوقت الذى يريده الله تعالى، فأخبرنى بما عندك من التدبير ليطمئن قلبى». فأجابه الغلام قائلاً: «أعطنى عهداً أنك لا تخالف رأيى فيما أذكره لك وأن أكون مما أخشاه فى أمان». فقال له الملك: «هذا عهد الله بينى وبينك أنى لا أخرج عن كلامك وأنك عندى صاحب المشورة ومهما أمرتنى به فعلته والشاهد هو الله تعالى».

حكاية تعليم ابن شماس وردخان الحيلة فى رد الجواب على كتاب ملك الهند

فعند ذلك انشرح صدر الغلام واتسع عنده مجال الكلام فقال: «أيها الملك إن التدبير والحيلة عندى أنك تنظر الوقت الذى يحضر لك فيه الساعى طالباً الجواب بعد المهلة التى أمهلته إياها، فإذا حضر بين يديك وطلب الجواب ادفعه عنك وأمهله إلى يوم آخر، فعند ذلك يعتذر إليك بأن ملكه حدد له أياماً معلومة ويراجعك فى كلامك، فاطرحه وأمهله إلى يوم آخر

ولا تعين له ذلك اليوم فيخرج من عندك غضبان ويتوجه إلى وسط المدينة ويتكلم جهراً بين الناس ويقول: «يا أهل المدينة إنى ساعى ملك الهند الأقصى هو صاحب بأس شديد وعزم يلين الحديد، وقد أرسلنى بكتاب إلى ملك هذه المدينة وحدد لى أياماً وقال: إن لم تحضر عقب الأيام التى حددتها لك حلت بك نقمتى، وها أنا جئت إلى ملك المدينة وأعطيته الكتاب فلما قرأه أمهلنى ثلاثة أيام ثم لم يعطنى جواب ذلك الكتاب. فأجبته إلى ذلك لطفاً به ورعاية لخاطره، ولما مضت الثلاثة الأيام وأتيت أطلب منه الجواب فأمهلنى إلى يوم آخر، وأنا ليس عندى صبر، فها أنا منطلق إلى سيدى ملك الهند الأقصى وأخبره بما وقع لى، وأنتم أيها القوم شاهدون بينى وبينه.

«فعند ذلك يبلغك كلامه فأرسل إليه وأحضره بين يديك وكلمه بلطف وقل له: «أيها الساعى لإتلاف نفسه ما الذى حملك على ملامتنا بين رعيتنا لقد استحقيت منا التلف عاجلاً، ولكن قال القدماء: العفو من شيم الكرام. واعلم أن تأخير الجواب عنك ليس عجزاً منا وإنما هو لزيادة اشتغالنا وقلة تفرغنا لكتابة جواب ملككم. ثم اطلب الكتاب واقرأه ثانياً، وبعد أن تفرغ من قراءته أكثر من الضحك وقل له: هل معك كتاب غير هذا الكتاب فتكتب جواباً له أيضاً؟ فيقول لك: ليس معى غيره أصلاً فقل له: إن ملككم هذا معدوم العقل حيث ذكر فى هذا الكتاب كلاماً يريد به تقويم نفوسنا لأجل أن نتوجه بعسكرنا إليه فنغزو بلاده ونأخذ مملكته، ولكن لا نؤاخذه فى هذه المرة على إساءة أدبه بهذا المكتوب لأنه قاصر العقل ضعيف الحزم، فالمناسب لمقدرتنا أن ننذره أولاً ونحذره من أن يعود لمثل هذه الهذيانات، فإن خاطر بنفسه وعاد إلى مثلها استحق البلاء عاجلاً وأظن أن الملك الذى أرسلك جاهل أحمق غير مفكر فى العواقب وليس له وزير عاقل سديد الرأى يستشيره، ولو كان عاقلاً لاستشار وزيراً قبل أن يرسل إلينا مثل هذا الكلام السخرية. ولكن له عندى جواب مثل كتابه وأزيد وأنا أدفع كتابه لبعض صبيان المكتب ليجيبه. ثم أرسل إلى واطلبنى فإذا حضرت بين يديك فأذن لى بقراءة الكتاب ورد جوابه».

فعند ذلك انشرح صدر الملك واستحسن رأى الغلام وأعجبته حيلته فأنعم عليه وخوله رتبة والده وصرفه مسروراً. فلما انقضت الثلاثة الأيام التى جعلها مهلة للساعى جاء الساعى ودخل على الملك وطلب الجواب، فأمهله الملك إلى يوم آخر، فخرج الساعى إلى آخر البساط وتكلم بكلام غير لائق مثل ما قال الغلام.

ثم خرج إلى السوق وقال: «يا أهل هذه المدينة إنى رسول ملك الهند الأقصى إلى ملككم جئته برسالة وهو يماطلنى فى جوابها وقد انقضت المدة التى حددها لى ملكنا ولم يبق لملككم عذر فأنتم تكونون شهداء على ذلك».

فلما بلغ الملك هذا الكلام أرسل إلى ذلك الساعى وأحضره بين يديه وقال له: «أيها الساعى فى إتلاف نفسه ألست ناقلاً كتابا من ملك إلى ملك وبينهما أسرار فكيف تخرج بين الناس وتظهر أسرار الملوك على العامة، لقد استحقيت منا القصاص، ولكن نحن نتحمل ذلك لأجل عود جوابك إلى هذا الملك الأحمق، والأنسب الا يرد له جواباً عنا إلا أقل صبيان المكتب». ودعا بحضور ذلك الغلام فحضر.

ولما دخل على الملك والساعى حاضر سجد لله ودعا للملك بدوام العز والبقاء، فعند ذلك رمى الملك الكتاب للغلام وقال له: «اقرأ هذا الكتاب واكتب جوابه بسرعة». فأخذ الغلام الكتاب وقرأه بالضحك وقال للملك: «هل إرسالك خلفى لأجل جواب هذا الكتاب؟» فقال له: «نعم». فأجاب بمزيد السمع والطاعة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية رد الملك ورد خان جواب كتاب ملك الهند

قالت شهرزاد: ثم إن الغلام أخرج الدواة والقرطاس وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من فاز بالأمان، ورحمة الرحمن».

أما بعد فإننى أعلمك أيها المدعو ملكاً كبيراً اسماً لا رسماً أنه قد وصل إلينا كتابك وقرأناه وفهمنا ما فيه من الخرافات وغريب الهذيانات، فتحققنا جهلك وبغيك علينا، وقد مددت يدك إلى مالا تقدر عليه، ولولا أن الرأفة أخذتنا على خلق الله والرعية لما تأخرنا عنك. وأما رسولك فإنه خرج إلى السوق ونشر أخبار كتابك على الخاص والعام فاستحق منا القصاص، ولكن أبقيناه رحمة منا له لكونه معذوراً معك ولم نترك قصاصه وقاراً لك. فأما ما ذكرته من قتلى لوزرائى وعلمائى وكبراء مملكتى فإن ذلك حق ولكن لسبب قام عندى. وما قتلت من العلماء واحدا إلا وعندى من جنسه ألف أعلم منه وأفهم وأعقل، وليس عندى طفل إلا وهو ممتلىء من العلوم، وعندى عوض عن كل واحد من المقتولين من فضلاء نوعه مالا أقدر أن أحصيه. وكل واحد من عسكرى يقاوم كردوساً من عسكرك.

«وأما من جهة المال فإن عندى معمل الذهب والفضة، وأما المعادن فإنها عندى كقطع الحجارة، وأما أهل مملكتى فإنى لا أقدر أن أصف لك حسنهم وجمالهم وغناهم. فكيف تجاسرت علينا وقلت لنا ابن لى قصراً فى وسط البحر؟ فإن هذا أمر عجيب ولعله ناشئ عن سخافات عقلك، لأنه لو كان لك عقل لكنت فحصت عن دفعات الأمواج وحركات الرياح وأنا أبنى لك القصر.

وأما زعمك أنك تظفر بى فحاش لله من ذلك، كيف يبغى علينا مثلك ويظفر بملكنا؟ بل إن الله تعالى أظفرنى بك لكونك معتدياً وباغياً على بغير حق. فاعلم أنك قد استوجبت العذاب من الله ومنى، ولكن أنا أخاف الله فيك وفى رعيتك ولا أركب عليك إلا بعد الإنذار.

فإن كنت تخشى الله فعجل بإرسال خراج هذه السنة وإلا لا أرجع عن الركوب عليك ومعى ألف ألف ومائة ألف مقاتل كلهم جبابرة بأفيال، فأسردهم حول وزيرنا وآمره أن يقيم على محاصرتك ثلاث سنوات نظير الثلاثة الأيام التى أمهلتها لقاصدك وأتملك مملكتك بحيث ألا قتل منها أحداً غير نفسك ولا أسبى منها غير حريمك».

ثم صور الغلام فى المكتوب صورته وكتب بجانبها: «إن هذا الجواب كتبه أصغر أولاد الكتاب». ثم ختمه وسلمه إلى الملك. فأعطاه الملك للساعى، فأخذه الساعى وقبل يدى الملك ومضى من عنده شاكراً الله تعالى وللملك على حلمه عليه وانطلق وهو يتعجب من حذق الغلام. فلما وصل إلى ملكه وكان دخوله عليه اليوم في الثالث بعد الثلاثة الأيام المحدودة له.

وكان الملك فى ذلك الوقت ناصب الديوان بسبب تأخير الساعى عن المدة المحدودة له. فلما دخل عليه سجد بين يديه ثم أعطاه الكتاب. فأخذه وسأل الساعى عن سبب إبطائه وعن أحوال الملك وردخان.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية مشاورة ملك الهند وزراءه فى رد جواب كتاب وردخان

قالت شهرزاد: فقص عليه القصة وحكى له جميع ما نظره بعينه وسمعه بأذنه، فاندهش عقل الملك وقال للساعى: «ويحك ما هذه الأخبار التى تخبرنى بها عن مثل هذا الملك؟» فأجابه الساعى قائلاً: «أيها الملك العزيز ها أنا بين يديك فافتح الكتاب واقرأه يظهر لك الصدق من الكذب». فعند ذلك فتح الملك الكتاب وقرأه ونظر فيه صورة الغلام الذى كتبه فأيقن بزوال ملكه وتحير فيما يكون من أمره. ثم التفت إلى وزرائه وعظماء دولته وأخبرهم بما جرى وقرأ عليهم الكتاب. فارتاعوا لذلك وارتعبوا رعباً عظيماً وصاروا يسكنون روع الملك بكلام من ظاهر اللسان وقلوبهم تتمزق من الخفقان، ثم إن بديعاً الوزير الكبير قال: «اعلم أيها الملك أن الذى يقوله إخوتى من الوزراء لا فائدة فيه، والرأى عندى أنك تكتب لهذا الملك كتاباً وتعتذر إليه فيه وتقول له: أنا محل لك ولوالدك من قبلك وما أرسلنا إليك الساعى بهذا الكتاب إلا على طريق الامتحان لك لننظر إلى عزائمك وما أنت منطو عليه من الكمالات الكلية، ونسأل الله تعالى أن يبارك لك فى مملكتك ويشيد حصون مدينتك ويزيد فى سلطانك حيثما كنت حافظاً لنفسك فتتم أمور رعيتك، وأرسله مع ساع آخر». فقال الملك: «والله العظيم إن فى هذا لعجباً عظيماً كيف يكون هذا ملكاً عظيماً مستعدا للحرب بعد قتله لعلماء مملكته وأصحاب رأيه ورؤساء جنده وتكون مملكته عامرة بعد ذلك ويخرج منها هذه القوة العظيمة، وأعجب من هذا أن صغار مكاتبها يردون عن ملكها مثل هذا الجواب، لكن أنا بسوء طمعى أشعلت مثل هذه النار علىّ وعلى أهل مملكتى ولا أدرى من يطفئها إلا رأى وزيرى هذا»

ثم إنه جهز هدية ثمينة وخدماً وحشماً كثيراً وكتاباً مضمونه «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد أيها الملك العزيز وردخان ولد الأخ العزيز جليعاد رحمه الله وأبقاك، لقد حضر لنا جواب كتابنا فقرأناه وفهمنا ما فيه فرأينا ما يسرنا وهذا غاية طلبنا لك من الله ونسأله أن يعلى شأنك ويشيد أركان مملكتك وينصرك على أعدائك الذين يريدون بك السوء. واعلم أيها الملك أن أباك كان لى أخا وبينى وبينه عهود ومواثيق مدة حياته وما كان يرى منا إلا خيراً. ولما توفى وجلست أنت على كرسى مملكته حصل عندنا غاية الفرح والسرور، ولما بلغنا ما فعلت بوزرائك وأكابر دولتك خشينا أن يصل خبر ذلك إلى ملك غيرنا فيطمع فيك، وكنا نظن أنك فى غفلة من مصالحك وحفظ حصونك مهملاً لأمور مملكتك. فكاتبناك بما ننبهك به. فلما رأيناك قد رددت لنا مثل هذا الجواب اطمأن قلبنا عليك متعك الله بمملكتك وجعلك معاناً على شأنك والسلام».

ثم جهز له الهدية وأرسلها إليه مع مائة فارس. فساروا إلى أن أقبلوا على الملك وردخان وسلموا عليه. ثم أعطوه الكتاب فقرأه وفهم معناه. ثم أنزل رئيس المائة فارس فى محل يصلح

له وأكرمه وقبل الهدية منه وشاع خبرها عند الناس وفرح الملك بذلك فرحاً شديداً. ثم أرسل إلى الغلام ابن شماس وأحضره بين يديه وأكرمه، وأرسل إلى رئيس المائة الفارس. ثم طلب الكتاب الذى أحضره من ملكه وأعطاه للغلام. ففتحه وقرأه فسر الملك بذلك سروراً كبيراً وصار يعاتب رئيس المائة الفارس، وهو يقبل يديه ويعتذر إليه ويدعو له بدوام البقاء وخلود النعيم عليه. فشكره الملك على ذلك وأكرمه إكراماً زائداً وأعطاه وأعطى جميع من معه ما يليق بهم وجهز معهم هدايا وأمر الغلام أن يكتب رد الجواب. فعند ذلك كتب الغلام الجواب وأحسن الخطاب وأوجز فى باب الصلح وذكر أدب الرسول ومن معه من الفرسان. فلما تمم الكتاب عرضه على الملك. فقال له الملك: «اقرأه أيها الوزير لكى نعرف ما كتب فيه». فعند ذلك قرأه الغلام بحضرة المائة الفارس فأعجب الملك هو وكل من حضر نظامه ومعناه. ثم ختمه الملك وسلمه إلى رئيس المائة الفارس وصرفه، وأرسل معه من عسكره طائفة توصلهم إلى أطراف بلادهم.

هذا ما كان من أمر الملك والغلام. وأما ما كان من أمر رئيس المائة فإنه اندهش عقله مما رآه من أمر الغلام ومعرفته وشكر الله تعالى على قضاء مصلحته بسرعة وعلى قبول الصلح، ثم إنه سار إلى أن وصل إلى ملك أقصى الهند وقدم إليه الهدايا والتحف وأوصل إليه العطايا وناوله الكتاب وأخبره بما نظر.

ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً وشكر الله تعالى وأكرم رئيس المائة الفارس وشكر همته على فعله ورفع درجته وصار من ذلك الوقت فى أمن وأمان وطمأنينة وزيادة انشراح. هذا ما كان من أمر ملك أقصى الهند.

وأما ما كان من أمر الملك وردخان فإنه استقام مع الله ورجع عن طريقته الرديئة وتاب إلى الله توبة خالصة عما كان فيه وترك النساء جملة ومال بكليته إلى صلاح مملكته والنظر بخوف الله إلى رعيته. وجعل ولد شماس وزيراً عوضاً عن والده وصاحب الرأى المقدم عنده فى المملكة وكاتما لسره. وأمر بزينة مدينته سبعة أيام وكذلك بقية المدائن، وفرحت الرعية بذلك، وزال الخوف والرعب عنهم واستبشروا بالعدل والإنصاف وابتهلوا بالدعاء للملك والوزير الذى أزال عنه وعنهم هذا الغم. وبعد ذلك قال الملك للوزير: «ما الرأى عندك فى إتقان المملكة ورجوعها إلى ما كانت عليه من وجود المدبرين؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية نصيحة ابن شماس لورد خان فى أمر المملكة

قالت شهرزاد: فعند ذلك أجابه الوزير قائلاً: «أيها الملك العزيز الشأن، الرأى عندى أنك قبل كل شىء تبتدى بقطع أمر المعاصى من قلبك وتترك ما كنت فيه من اللهو والعسف والاشتغال بالنساء لأنك إن رجعت إلى أصل المعاصى تكون الضلالة الثانية أشد من الأولى». فقال الملك: «وما هى أصل المعاصى التى ينبغى أن أقلع عنها؟» فأجابه ذلك الوزير الصغير السن الكبير العقل قائلاً: «أيها الملك الكبير اعلم أن أصل المعصية اتباع هوى النساء والميل إليهن وقبول رأيهن وتدبيرهن، لأن محبتهن تغير العقول الصافية وتفسد الطباع السليمة، والشاهد على قولى من دلائل واضحة لو تفكرت فيها وتتبعت وقائعها بإمعان النظر لوجدت لك

ناصحاً من نفسك واستغنيت عن قولي جملة، فلا تشغل قلبك بذكرهن واقطع من ذهنك رسمهن لأن الله تعالى أمر بعدم الإكثار منهن على يد نبيه موسى، حتى قال بعض الملوك الحكماء لولده: يا ولدى إذا استقمت فى الملك من بعدى فلا تستكثر من النساء لئلا يضل قلبك ويفسد رأيك، وبالجملة فالاستكثار منهن يفضى إلى حبهن وحبهن يفضى إلى فساد الرأى.

«والبرهان على ذلك ما جرى لسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الذى خصه الله بالعلم والحكمة والملك العظيم ولم يعط أحداً من الملوك التى تقدمت مثل ما أعطاه. ومثل هذا كثير أيها الملك إنما ذكرت لك سليمان لتعرف أنه ليس لأحد أن يملك مثل ما ملك حتى أطاعه جميع ملوك الأرض، واعلم أيها الملك أن محبة النساء أصل كل شر وليس لإحداهن رأى، فينبغى للإنسان أن يقتصر منهن على قدر الضرورة ولا يميل إليهن كل الميل فإن ذلك يوقعه فى الفساد والهلكة، فإن أطعت قولى أيها الملك استقامت لك جميع أمورك، وإن تركته ندمت حيث لا ينفعك الندم».

فأجابه الملك قائلاً: «لقد تركت ما كنت فيه من فرط الميل إليهن وأعرضت عن الاشتغال بالنساء جميعاً. ولكن ماذا أصنع فيهن جزاء على ما فعلن لأن قتل شماس والدك كان من كيدهن ولم يكن ذلك مرادى ولا عرفت كيف جرى لى فى عقلى حتى حتى وافقتهن على قتله؟» ثم تأوه وصاح قائلاً: «وا أسفاه على فقد وزيرى وسداد رأيه وحسن تدبيره وعلى فقد نظرائه من الوزراء ورؤساء المملكة وحسن آرائهم الصائبة الرشيدة». فأجابه الوزير قائلاً: «اعلم أيها الملك أن الذنب ليس للنساء وحدهن لأنهن مثل بضاعة مستحسنة تميل إليها شهوات الناظرين، فمن اشتهى واشترى باعوه ومن لم يشتر لم يجبره أحد على الشراء، لكن الذنب لمن اشترى وخصوصاً إذا كان عارفاً بمضرة تلك البضاعة، وقد حذرتك، ووالدى من قبلى كان يحذرك، ولم تقبل منه نصيحة». فأجابه الملك: «إنى أوجبت على نفسى الذنب كما قلت أيها الوزير ولا عذر لى إلا التقادير الإلهية».

فقال الوزير: «اعلم أيها الملك أن الله تعالى خلق لنا استطاعة وجعل لنا إرادة واختياراً فإن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل. ولم يأمرنا الله بفعل ضرر لئلا يلزمنا ذنب فيجب علينا حساب فيما يكون فعله صواباً لأنه تعالى لا يأمرنا إلا بخير على سائر الأحوال وإنما ينهانا عن الشر، ولكن نحن بإرادتنا نفعل ما نفعله صواباً كان أو خطأ».

فقال له الملك: «صدقت وإنما كان من خطئى منى لميلى إلى الشهوات، وقد حذرت نفسى من ذلك مراراً وحذرنى والدك شماس مراراً، فغلبت نفسى على عقلى. فهل عندك شيء يمنعنى عن ارتكاب هذا الخطأ حتى يكون عقلى غالباً على شهوات نفسى؟» فأجاب الوزير: «نعم إنى أرى شيئاً يمنعك من ارتكاب هذا الخطأ وهو أنك تنزع عنك ثوب الجهل وتلبس ثوب العدل وتعصى هواك وتطيع مولاك وترجع إلى سيرة الملك العادل أبيك وتعمل ما يجب عليك من حقوق الله تعالى وحقوق رعيتك وتحافظ على دينك وعلى رعيتك وعلى سياسة نفسك وعلى عدم قتل رعيتك وتنظر فى عواقب الأمور وتنزل عن الظلم والجور والبغى والفساد وتستعمل العدل والإنصاف والخضوع وتمتثل أوامر الله تعالى وتلازم الشفقة على خليقته الذين استخلفك عليهم وتواظب على ما يوجب دعاءهم لك لأنك إذا دام لك ذلك صفا

وقتك وعفا الله برحمته عنك وجعلك مهاباً عند كل من يراك ويتلاشى أعداؤك ويهزم الله تعالى جيوشهم وتصير عند الله مقبولاً وعند خلقه مهاباً محبوباً».

فقال له الملك: «لقد أحييت فؤادى ونورت قلبى بكلامك الحلو وجلوت عين بصيرتى بعد العمى، وأنا عازم على أن أفعل جميع ما ذكرته لى بمعونة الله تعالى وأترك ما كنت عليه من البغى والشهوات وأخرج نفسى من الضيق إلى السعة ومن الخوف إلى الأمن وينبغى أن تكون بذلك فرحاً مسروراً لأنى صرت لك ابناً مع كبر سنى وصرت أنت لى والداً حبيباً على صغر سنك، وصار من الواجب على بذل المجهود فيما تأمرنى به، وأنا أشكر فضل الله تعالى وفضلك فإن الله تعالى أولانى بك من النعم وحسن الهداية وسداد الرأى ما يدفع همى وغمى، وقد حصلت سلامة رعيتى على يديك بإشرافك وحسن تدبيرك.

فأنت الآن مدبر لملكى لا أتشرف عليك بسوى الجلوس على الكرسى، وكلما تفعله جائز علىَّ ولا أردُّ لكلمتك ولو كنت صغير السن لأنك كبير العقل كثير المعرفة. فأشكر الله الذى يسَّرك لى حتى هديتنى إلى سبيل الاستقامة بعد الاعوجاج المهلك».

قال الوزير: «أيها الملك السعيد اعلم أنه لا فضل لى عليك إلا ببذل النصيحة لك لأن قولى وفعلى من بعض ما يلزمنى حيث كنت غريس نعمتك، وليس هكذا أنا وحدى بل والدى من قبلى مغمور بجزيل نعمتك. فنحن الجميع مقرون بجميلك وفضلك. فكيف لا نقر بذلك وأنت أيها الملك راعينا وحاكمنا ومحارب عنا أعداءنا ومتولى حفظنا وحارسنا وباذل جهدك فى سلامتنا. وإننا لو بذلنا أرواحنا فى طاعتك لم نقم بواجب شكرك. ولكن نتضرع لله تعالى الذى ولاك علينا وحكمك فينا ونسأله أن يهب لك العمر الطويل ويمنحك النجاح فى جميع أعمالك ولا يمتحنك بمحنة فى زمانك ويبلغك مرادك ويجعلك مهاباً إلى حين مماتك، ويبسط بالكرم سواعدك حتى تقود كل عالم وتقهر كل معاند ويوجد بك فى مملكتك كل الألفة والمحبة وينزع كل جاهل وجبان ويرفع عن رعيتك الغلاء والبلاء ويزرع بينهم الألفة والمحبة، ويمتعك من الدنيا بفلاحها، ومن الآخرة بصلاحها. بمنه وكرمه وخفىِّ لطفه، آمين. إنه على كل شىء قدير، وليس عليه أمر عسير، وإليه المرجع والمصير».

فلما سمع الملك منه هذا الدعاء حصل عنده غاية الفرح ومال إليه كل الميل وقال له: «اعلم أيها الوزير أنك صرت عندى فى مقام الأخ والولد والوالد وليس يفصلنى منك إلا الموت وجميع ما تملكه يدى لك التصرف فيه، وإن لم يكن لى خلف تجلس على تختى عوضاً عنى فأنت أولى من جميع أهل مملكتى فأوليك ملكى بحضرة أكابر مملكتى وأجعلك ولى عهدى من بعدى إن شاء الله تعالى».

ثم بعد ذلك دعا بكاتبه فحضر بين يديه، فأمره أن يكتب إلى سائر كبراء دولته بالحضور إليه وأجهر بالنداء فى مدينته للحاضرين الخاص والعام. وأمر أن يجتمع الأمراء والقواد والحجاب وسائر أرباب الخدم إلى حضرة الملك وكذلك العلماء والحكماء، وعمل الملك ديواناً عظيماً وسماطاً لم يعمل مثله قط وعزم جميع الناس من الخاص والعام. فاجتمع الجميع على حظ وأكل وشرب مدة شهر وبعد ذلك كسا جميع حاشيته وفقراء مملكته وأعطى العلماء عطايا وافرة. ثم اختار جملة من العلماء والحكماء بمعرفة ابن شماس وأدخلهم عليه وأمره أن ينتخب منهم سبعة ليجعلهم وزراء من تحت كلمته ويكون هو الرئيس عليهم».

فعند ذلك اختار الغلام ابن شماس منهم أكبرهم سناً وأكملهم عقلاً وأكثرهم دراية وأسرعهم حفظاً. ورأى من بهذه الصفة ستة أشخاص فقدمهم إلى الملك وألبسهم ثياب الوزراء وكلمهم قائلاً: «أنتم تكونون وزرائى تحت طاعة ابن شماس وجميع ما يقوله لكم أو يأمركم به وزيرى هذا ابن شماس لا تخرجوا عنه أبداً ولو كان هو أصغركم سناً لأنه أكبركم عقلاً». ثم إن الملك أجلسهم على كراسى مزركشة على عادة الوزراء وأجرى عليهم الأرزاق والنفقة، ثم أمرهم أن ينتخبوا من أكابر الدولة الذين اجتمعوا عنده فى الوليمة من يصلح لخدمة المملكة من الأجناد ليجعل منهم رؤساء الوف ورؤساء مئين ورؤساء عشرات، ورتب لهم المرتبات وأجرى إليهم الأرزاق على عادة الكبراء، ففعلوا ذلك فى أسرع وقت، وأمرهم أيضاً أن ينعموا على بقية من حضر بالإنعامات الجزيلة وأن يصرفوا كل واحد إلى أرضه بعز وإكرام، وأمر عماله بالعدل فى الرعية وأوصاهم بالشفقة على الفقراء والأغنياء وأمر بإسعافهم من الخزنة على قدر درجاتهم. فدعا له الوزراء بدوام العز والبقاء، ثم إنه أمر بزينة المدينة ثلاثة أيام شكراً لله تعالى على ما حصل له من التوفيق. هذا ما كان من أمر الملك ووزيره ابن شماس فى ترتيب المملكة وأمرائها وأعمالهم.

وأما ما كان من أمر النساء المحظيات من السرارى وغيرهن اللاتى كن سبباً لقتل الوزراء وفساد المملكة بحيلهن وخداعهن فإنه لما انصرف جميع من كان فى الديوان من المدينة والقرى إلى محله واستقامت أمورهم أمر الملك الوزير الصغير السن الكبير العقل الذى هو ابن شماس أن يحضر بقية الوزراء. فلما حضروا جميعاً بين يدى الملك اختلى بهم وقال لهم: «اعلموا أيها الوزراء أنى كنت حائداً عن الطريق المستقيم مستغرقاً فى الجهل ومعرضاً عن النصيحة ناقضاً للعهود والمواثيق مخالفاً لأهل النصح، وسبب ذلك كله ملاعبة هؤلاء النساء وخداعهن إياى وزخرفة كلامهن وباطلهن لى وقبولى لذلك لأنى كنت أظن أن كلامهن نصح بسبب عذوبته ولينه فإذا هو سم قاتل، والآن وقد تقرر عندى أنهن لم يردن لى إلا الهلاك والتلف، فقد استحققن العقوبة والجزاء منى على جهة العدل حتى أجعلهن عبرة لمن اعتبر. لكن فما الرأى السديد فى إهلاكهن؟».

فأجابه الوزير ابن شماس قائلاً: «أيها الملك العظيم إننى قلت لك أولاً إن الذنب ليس مختصاً بالنساء وحدهن بل هو مشترك بينهن وبين الرجال الذين يطيعونهن، لكن النساء يستوجبن الجزاء على كل حال لأمرين: الأول تنفيذ قولك لكونك الملك العظيم، والثانى لتجاسرهن عليك وخداعهن لك ودخولهن فيما لا يعنيهن ومالا يصلحن للتكلم فيه، فهن أحق بالهلاك ولكن كفاهن ما هو نازل بهن، ومن الآن اجعلهن بمنزلة الخدم. والأمر لك فى ذلك وغيره». ثم إن بعض الوزراء أشار على الملك بما قاله ابن شماس، وبعض الوزراء تقدم إلى الملك وسجد له وقال: «أدام الله أيام الملك إن كان لابد أن تفعل بهن فعلة بهلاكهن فافعل ما أقوله لك». فقال الملك: «ما الذى تقوله لى؟». فقال له: «الأصوب أن تأمر إحدى محاظيك أن تأخذ النساء اللاتى خدعنك وتدخلهن البيت الذى حصل فيه قتل الوزراء والحكماء وتسجنهن هناك وتأمر أن يعطى لهن قليل من الطعام والشراب بقدر ما يمسك أبدانهن ولا يؤذن إليهن فى الخروج من ذلك الموضع أصلاً، وكل من ماتت بنفسها تبقى بينهن على حالها إلى أن يمتن

عن آخرهن، وهذا أقل جزائهن لأنهن كن سبباً لهذه الفتنة العظيمة بل وأصل جميع البلايا والفتن التى وقعت فى الزمان، وصدق عليهن قول القائل: إن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها».

فقبل الملك رأيه وفعل كما قال له، وأرسل خلف أربع محظيات جبارات وسلم إليهن النساء وأمرهن أن يدخلن محل القتلى ويسجنوهن فيه، وأجرى لهن طعاماً دنيئاً قليلاً وشراباً رديئاً قليلاً. فكان من أمرهن أنهن حزن حزناً عظيماً وندمن على ما فرط منهن وتأسفن تأسفاً كثيراً، وأعطاهن الله جزاءهن فى الدنيا من الخزى وأعد لهن العذاب فى الآخرة ولم يزلن فى ذلك الموضع المظلم المنتن الرائحة وفى كل يوم تموت ناس منهن حتى هلكن عن آخرهن، وشاع خبر هذه الواقعة فى جميع البلاد والأقطار. وهذا ما انتهى إليه أمر الملك ووزرائه ورعيته والحمد لله مفنى الأمم، ومحيى الرمم، المستحق للجلال والإعظام، والتقديس على الدوام.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية أبى قير الصباغ وأبى صير المزين

قالت شهرزاد: ومما يحكى أيضاً أن رجلين كانا فى مدينة الإسكندرية. وكان أحدهما صباغاً واسمه أبو قير، وكان الثانى مزيناً واسمه أبو صير. وكانا جارين لبعضهما فى السوق. وكان دكان المزين فى جانب دكان الصباغ، وكان الصباغ نصاباً كذاباً صاحب شر قوى كأنما صدغه منحوت من الجلمود، أو مشتق من عتبة كنيسة اليهود، لا يستحى من عيبة يفعلها بين الناس، وكان من عادته أنه إذا أعطاه أحد قماشاً ليصبغه يطلب منه الكراء أولاً ويوهمه أنه يشترى بها أجزاء ليصبغ بها، فيعطيه الكراء مقدماً، فإذا أخذه منه يصرفه على أكل وشرب ثم يبيع القماش الذى أخذه بعد ذهاب صاحبه ويصرف ثمنه فى الأكل والشرب وغير ذلك، ولا يأكل إلا طيباً من أفخر المأكول ولا يشرب إلا من أجود ما يُذهب العقول، فإذا أتاه صاحب القماش يقول له: «فى غد تجىء إلىَّ من قبل الشمس فتلقى حاجتك مصبوغة فيروح صاحب الحاجة ويقول: «يوم من يوم قريب».

ثم يأتيه فى ثانى يوم على الميعاد. فيقول له «تعال فى غد» فإنى أمس ما كنت فاضياً لأنه كان عندى ضيوف فقمت بواجبهم حتى راحوا، وفى غد» قبل الشمس تعال خذ قماشك مصبوغاً». فيروح ويأتيه فى ثالث يوم. فيقول له: «إنى كنت أمس معذوراً لأن زوجتى ولدت بالليل وطول النهار وأنا أقضى مصالح، ولكن فى غد» من كل بد تعال خذ حاجتك». فيأتى له على الميعاد. فيطلع له بحيلة أخرى من حيث كان ويحلف له.

ولم يزل يعده ويحلف إذا جاءه حتى يقلق الزبون ويقول له: «كم تقول لى فى غد، أعطنى حاجتى فإنى لا أريد صباغاً» فيقول: «والله يا أخى أنا مستح منك، ولكن أخبرك بالصحيح والله يؤذى كل من يؤذى الناس فى أمتعتهم». فيقول له: «أخبرنى ماذا حصل؟» فيقول: «أما حاجتك فإنى صبغتها صباغاً ليس له نظير ونشرتها على الحبل فسرقت ولا أدرى من سرقها» فإن كان صاحب البدلة من أهل الخير يقول له: «يعوض الله علىَّ»، وإن كان من أهل الشر يستمر معه فى هتيكة وجرسة ولا يحصل منه شيئاً ولو اشتكاه إلى الحاكم. ولم يزل يفعل هذه الأفعال حتى شاع ذكره بين الناس وصار الناس يحذر بعضهم بعضاً من أبى قير

ويضربون به الأمثال وامتنعوا عنه. وصار لا يقع معه إلا الجاهل بحاله. ومع ذلك لابد له كل يوم من جرسة وهتيكة.

ثم إنه حصل له كساد بهذا السبب، فصار يأتي إلى دكان جاره المزين أبي صير ويقعد في داخلها إزاء المصبغة وينظر إلى باب المصبغة. فإن رأى أحداً جاهلاً بحاله واقفاً على باب المصبغة ومعه شيء يريد صباغته يقوم من دكان المزين ويقول له: «مالك يا هذا؟» فيقول له: «خذ اصبغ لي هذا الشيء». فيقول له: «أي لون تطلبه»؟ لأنه مع هذا الخصال الذميمة كان يخرج من يده أن يصبغ سائر الألوان ولكنه لم يصدق مع أحد أبداً والشقاوة غالبة عليه، ثم يأخذ الحاجة منه ويقول له: «هات الكراء لقدام وفي غد تعال خذها». فيعطيه الأجرة ويروح، وبعد أن يتوجه صاحب الشيء إلى حال سبيله يأخذ هو ذلك الشيء ويذهب إلى السوق فيبيعه ويشتري بثمنه اللحم والخضر والدخان والفاكهة وما يحتاج إليه، وإذا رأى أحداً واقفاً على الدكان من الذين أعطوه حاجة ليصبغها فلا يظهر إليه ولا يريه نفسه، ودام على هذه الحالة سنين.

فاتفق له فى يوم من الأيام أنه أخذ حاجة من رجل جبار ثم باعها وصرف ثمنها، وصار صاحبها يجيء إليه فى كل يوم فلم يره فى الدكان، لأنه متى رأى أحداً له عنده شيء يهرب منه فى دكان المزين أبى صير، فلما لم يجده ذلك الجبار فى دكانه وأعياه ذلك ذهب إلى القاضى وأتاه برسول من طرفه وسمَّر باب الدكان بحضرة جماعة من المسلمين وختمها لأنه لم ير فيها غير بعض مواجير مكسرة ولم يجد فيها شيئا يقوم مقام حاجته، ثم أخذ الرسول المفتاح وقال للجيران: «قولوا له يجيء بحاجة هذا الرجل ويأتى ليأخذ مفتاح دكانه». ثم ذهب الرجل والرسول إلى حالهما، فقال أبو صير لأبى قير: «ما داهيتك فإن كل من جاء إليك بحاجة تعدمه إياها، أين راحت حاجة هذا الرجل الجبار؟».

قال: «يا جارى إنها سرقت منى». قال أبو صير: «عجائب، كل من أعطاك حاجة يسرقها منك لص هل أنت معادى جميع اللصوص، ولكن أظن أنك تكذب، فأخبرنى بقصتك». قال: «ياجارى ما أحد سرق منى شيئاً»، قال أبو صير: «وما تفعل فى متاع الناس؟»، فقال له: «كل من أعطانى حاجة أبيعها وأصرف ثمنها». قال له أبو صير: «أيحل لك هذا من الله؟»، قال له أبو قير: «إنما أفعل هذا من الفقر لأن صنعتى كاسدة وأنا فقير وليس عندى شيء».

ثم صار يذكر له الكساد وقلة السبب، وصار أبو صير يذكر له كساد صنعته أيضاً ويقول له: «أنا أسطى ليس لى نظير فى هذا المدينة، ولكن لا يحلق عندى أحد لكونى رجلاً فقيراً، وكرهت هذه الصنعة يا أخى». فقال له أبو قير الصباغ: «وأنا أيضاً كرهت صنعتى من الكساد، ولكن يا أخى ما الداعى لإقامتنا فى هذه البلد فأنا وأنت نسافر منها نتفرج فى بلاد الناس وصنعتنا فى أيدينا رائجة فى جميع البلاد، فإذا سافرنا نشم الهواء ونرتاح من هذا الهم العظيم». وما زال أبو قير يحسِّن السفر لأبى صير حتى رغب فى الارتحال. وفرح أبو قير بأن أبا صير رغب فى أن يسافر وأنشد:

تغرب عن الأوطان فى طلب العـلا ... وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد
وإن قيل فى الأسفار غم وكربة ... وتشتيت شمل وارتكاب شدائد

فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واش وحاسد

وحين عزما على السفر قال أبو قير لأبى صير: «يا جاري نحن صرنا أخوين ولا فرق بيننا، فينبغى أننا نقرأ الفاتحة على أن عمَّالنا يكسب ويُطعم بطَّالنا ومهما فضل نضعه فى صندوق، فإذا رجعنا إلى الإسكندرية نقسمه بيننا بالحق والإنصاف». قال أبو صير: «وهو كذلك». وقرءا فاتحة على أن العمَّال يكتسب ويطعم البطال ثم إن أبا صير قفل الدكان وأعطى المفاتيح لصاحبها، وأبو قير ترك المفتاح عند رسول القاضى وترك الدكان مقفلة مختومة، وأخذا مصالحهما وأصبحا مسافرين ونزلا فى غليون فى البحر المالح وسافرا فى ذلك النهار وحصل لهما إسعاف، ومن تمام سعد المزين أن جميع من كان فى الغليون لم يكن معهم أحد من المزينين، وكان فيه مائة وعشرون رجلاً غير البحرية.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

◆ ◆ ◆

حكاية سفر أبى قير وأبى صير فى الغليون

قالت شهرزاد: ولما حلوا قلوع الغليون قام المزين وقال للصباغ: «يا أخى هذا بحر نحتاج فيه إلى الأكل والشرب وليس معنا إلا قليل من الزاد، وربما يقول لى أحد: تعال يا مزين احلق لى، فأحلق له برغيف أو بنصف فضة أو بشربة ماء فأنتفع بذلك أنا وأنت». فقال له الصباغ: «لاباس». ثم حط رأسه ونام، وقام المزين وأخذ عدته والطاسة ووضع على كتفه خرقة تغنى عن الفوطة لأنه فقير وشق بين الركاب، فقال له واحد: «تعال يا أسطى احلق لى». فحلق له. فلما حلق لذلك الرجل أعطاه نصفاً فضة. فقال له المزين: «يا أخى ليس لى حاجة بهذا النصف فضة ولو كنت أعطيتنى رغيفاً كان أبرك لى فى هذا البحر لأن لى رفيقاً وزادنا شىء قليل». فأعطاه رغيفاً وقطعه جبن وملأ له الطاسة ماء حلواً، فأخذ ذلك وأتى إلى أبى قير وقال له: «خذ هذا الرغيف وكله بالجبن واشرب ما فى الطاسة». فأخذ ذلك منه وأكل وشرب، ثم إن أبا صير المزين بعد ذلك حمل عدته وأخذ الخرقة على كتفه والطاسة فى يده وشق فى الغليون بين الركاب. فحلق لإنسان برغيفين ولآخر بقطعة جبن، ووقع عليه الطلب، وصار كل من يقول له احلق لى يا أسطى يشرط عليه رغيفين ونصفاً فضة، وليس فى الغليون مزين غيره.

فما جاء وقت المغرب حتى جمع ثلاثين رغيفاً وثلاثين نصفاً فضة وصار عنده جبن وزيتون وبطارخ، وصار كلما يطلب حاجة يعطونه إياها حتى صار عنده شىء كثير، وحلق للقبطان وشكا له قلة الزاد فى السفر. فقال له القبطان: «مرحباً بك هات رفيقك فى كل ليلة وتعشيا عندى ولا تحملا هماً ما دمتما مسافرين معنا». ثم رجع إلى الصباغ فرآه لم يزل نائماً فأيقظه، فلما أفاق أبو قير رأى عند رأسه شيئاً كثيراً من عيش وجبن وزيتون وبطارخ فقال له: «من أين لك ذلك؟» فقال: «من فيض الله تعالى». فأراد أن يأكل، فقال له أبو صير: «لا تأكل يا أخى من هذا واتركه ينفعنا فى وقت آخر، واعلم أنى حلقت للقبطان وشكوت إليه قلة الزوادة، فقال لى: مرحباً بك هات رفيقك كل ليلة وتعشيا عندى، فأول عشائنا عند القبطان فى هذه الليلة». فقال له أبو قير: «أنا دائخ من البحر ولا أقدر أن أقوم من مكانى فدعنى أتعش من هذا الشىء ورح أنت وحدك عند القبطان». فقال له: «لا بأس بذلك».

ثم جلس يتفرج عليه وهو يأكل فرآه يقطع اللقمة كما يقطع الحجار من الجبل، ويبلعها ابتلاع الفيل الذى له أيام ما أكل ويلتهم اللقمة قبل ازدراد التى قبلها، ويحملق عينيه فيما بين يديه حملقة الغول، وينفخ نفخ الثور الجائع على التبن والفول، وإذا بنوتى جاء وقال: «يا أسطى يقول لك القبطان هات رفيقك وتعال للعشاء». فقال أبو صير لأبى قير: «أتقوم بنا؟» فقال له: «أنا لا أقدر على المشى». فراح المزين وحده فرأى القبطان جالساً وقدامه سفرة فيها عشرون لوناً أو أكثر وهو وجماعته ينتظرون المزين ورفيقه، فلما رآه القبطان قال له: «أين رفيقك؟» فقال له: «يا سيدى إنه دائخ من البحر». فقال له القبطان: «لا بأس عليه ستزول عنه الدوخة تعال أنت تعش معنا فإنى كنت فى انتظارك». ثم إن القبطان عزل صحن كباب وحط فيه ما يكفى عشرة.

وبعد أن تعشى المزين قال له القبطان: «خذ هذا الصحن معك إلى رفيقك». فأخذه أبو صير وأتى به إلى أبي قير فرآه يطحن بأنيابه فيما عنده من الأكل مثل الجمل، ويلحق اللقمة باللقمة على عجل، فقال له أبو صير: «أما قلت لك لا تأكل فإن القبطان خيره كثير؟ فانظر أى شىء بعث إليك لما أخبرته أنك دائخ». فقال له: «هات». فناوله الصحن، فأخذه منه وهو ملهوف عليه وعلى غيره من الأكل مثل الكلب الكاشر أو السبع الكاسر أو الرخ إذا انقض على الحمام، أو الذى كاد يموت من الجوع ورأى شيئاً من الطعام، وصار يأكل. فتركه أبو صير وراح إلى القبطان وشرب القهوة هناك، ثم رجع إلى أبى قير فرآه قد أكل جميع ما فى الصحن ورماه فارغاً، فأخذه وأوصله إلى بعض أتباع القبطان ورجع إلى أبى قير ونام إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

◆ ◆ ◆

حكاية وصول أبى قير وأبى صير المدينة وسرقة أبى قير لدراهم أبى صير

قالت شهرزاد: فلما كان ثاني الأيام صار أبو صير يحلق وكلما جاء له شىء يعطيه لأبى قير وأبو قير يأكل ويشرب وهو قاعد لا يقوم إلا لإزالة الضرورة، وكل ليلة يأتى له بصحن ملآن من عند القبطان، واستمروا على هذه الحالة عشرين يوماً حتى رسا الغليون على ميناء مدينة، فطلعا من الغليون ودخلا تلك المدينة وأخذا لهما حجرة فى خان، وفرشها أبو صير واشترى جميع ما يحتاجان إليه وجاء بلحم وطبخه وأبو قير نائم من حين دخل الحجرة ولم يستيقظ حتى أيقظه أبو صير ووضع السفرة بين يديه. فلما أفاق أكل وبعد ذلك قال له: «لا تؤاخذنى فإنى دائخ». ثم نام، واستمر على هذه الحالة أربعين يوماً، وكل يوم يحمل المزين العدة ويدور فى المدينة فيعمل بالذى فيه النصيب ويرجع فيجد أبا قير نائماً فينبهه، وحين ينتبه يقبل على الأكل بلهفة فيأكل أكل من لا يشبع ثم ينام.

ولم يزل كذلك مدة أربعين يوماً أخرى، وكلما يقول له أبو صير: «اجلس ارتح واخرج تفسح فى المدينة فإنها فرجة وبهجة وليس لها نظير فى المدائن». يقول له أبو قير الصباغ: «لا تؤاخذنى فإنى دائخ». فلا يرضى أبو صير المزين أن يكدر خاطره ولا يسمعه كلمة تؤذيه، وفى اليوم الحادى والأربعين مرض المزين ولم يقدر أن يسرح، فسخر بواب الخان فقضى لهما حاجتهما وأتى لهما بما يأكلان وما يشربان، كل ذلك وأبو قير يأكل وينام، وما زال المزين يسخّر بواب الخان فى قضاء حاجته مدة أربعة أيام.

وبعد ذلك اشتد المرض على المزين حتى غاب عن الوجود من شدة مرضه، وأما أبو قير فإنه أحرقه الجوع فقام وفتش فى ثياب أبى صير فرأى معه مقداراً من الدراهم فأخذه وقفل باب الحجرة على أبى صير ومضى ولم يعلم أحداً، وكان البواب فى السوق فلم يره حين خروجه، ثم إن أبا قير عمد إلى السوق وكسا نفسه ثياباً نفيسة وصار يدور فى المدينة ويتفرج، فرآها مدينة ما وجد مثلها فى المدائن وجميع ملبوسها أبيض وأزرق من غير زيادة، فأتى إلى صباغ فرأى جميع ما فى دكانه أزرق.

فعند ذلك أخرج له محرمة وقال له: يا معلم خذ هذه المحرمة واصبغها وخذ أجرتك. فقال له: «إن أجرة صباغ هذه عشرون درهماً». فقال له: «نحن نصبغ هذه فى بلادنا بدرهمين». فقال له: «رح اصبغها فى بلادكم وأما أنا فلا أصبغها إلا بعشرين درهماً لا تنقص عن هذا القدر شيئاً». فقال له أبو قير: «أى لون تريد صبغها؟» قال له الصباغ: «أصبغها زرقاء». قال له أبو قير: «أنا مرادى أن تصبغها لى حمراء». قال له: «لا أدرى صباغ الأحمر». قال: «خضراء». قال: «لا أدرى صباغ الأخضر». قال: «صفراء». قال: «لا أدرى صباغ الأصفر». وصار أبو قير يعدد له الألوان لونا بعد لون. فقال له الصباغ: «نحن فى بلادنا أربعون معلماً لا يزيدون واحداً ولا ينقصون واحداً، وإذا مات منا واحد نعلم ولده، وإن لم يخلف ولداً نبقى ناقصين واحداً، والذى له ولدان نعلم واحداً منهما، فإن مات علمنا أخاه، وصنعتنا هذه مضبوطة ولا نعرف أن نصبغ غير الأزرق من غير زيادة».

فقال له أبو قير الصباغ: «اعلم أنى أنا صباغ أعرف أن أصبغ سائر الألوان ومرادى أن تخدمنى عندك بالأجرة وأنا أعلمك جميع الألوان لأجل أن تفتخر بها على كل طائفة الصباغين»فقال له: «نحن لا نقبل غريباً يدخل فى صنعتنا أبداً». فقال له: «وإذا فتحت لى مصبغة وحدى؟» قال له: «لا يمكنك ذلك أبداً». فتركه وتوجه إلى الثانى، فقال له كما قال له الأول. ولم يزل ينتقل من صباغ إلى صباغ حتى طاف على الأربعين معلماً فلم يقبلوه لا أجيراً ولا معلماً. فتوجه إلى شيخ الصباغين وأخبره، فقال له: «إننا لا نقبل غريباً يدخل فى صنعتنا». فحصل عند أبى قير غيظ وطلع يشكو إلى ملك تلك المدينة وقال له: «يا ملك الزمان أنا غريب وصنعتى الصباغة وجرى لى مع الصباغين ما هو كذا وكذا، وأنا أصبغ الأحمر الوانا مختلفة كوردى وعنابى، والأخضر الواناً مختلفة كزرعى وفستقى وزيتى وجناح الدرة، والأسود الوانا مختلفة كفحمى وكحلى، والأصفر الواناً مختفلة كنارنجى وليمونى، وصار يذكر له سائر الألوان، ثم قال: «يا ملك الزمان كل الصباغين الذين فى مدينتك لا يخرج من أيديهم أن يصبغوا شيئاً من هذه الألوان ولا يعرفون إلا صباغ الأزرق ولم يقبلونى أن أكون عندهم معلماً ولا أجيراً».

فقال له الملك: «قد صدقت فى ذلك ولكن أنا أفتح لك مصبغة وأعطيك رأس مال وما عليك منهم وكل من تعرض لك شنقته على باب دكانه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية أمر الملك ببناء مصبغة لأبي قير وصبغه الألوان

قالت شهرزاد: ثم أمر البنائين وقال لهم: «امضوا مع هذا المعلم وشقوا أنتم وإياه فى المدينة وأى مكان أعجبه فأخرجوا صاحبه منه سواء كان دكاناً أو خانًا أو غير ذلك وابنوا له مصبغة على مراده، ومهما أمركم به فافعلوه ولا تخالفوه فيما يقول. ثم إن الملك ألبسه بدلة مليحة وأعطاه ألف دينار وقال له: «اصرفها على نفسك حتى تتم البناية». وأعطاه مملوكين من أجل الخدمة وحصانًا بعدة مزركشة، فلبس البدلة وركب الحصان وصار كأنه أمير.

وأخلى له الملك بيتًا وأمر بفرشه ففرشه له وسكن فيه، وركب فى ثانى يوم وشق فى المدينة والمهندسون قدامه، ولم يزل يتأمل حتى أعجبه مكان، فقال: «هذا المكان طيب». فأخرجوا صاحبه منه واحضروه إلى الملك، فأعطاه ثمن مكانه وزيادة على ما يرضيه، ودارت فيه البناية، وصار أبو قير يقول للبنائين: «ابنوا كذا وكذا وافعلوا كذا وكذا». حتى بنوا له مصبغة ليس لها نظير، ثم حضر إلى الملك وأخبره بأن المصبغة قد تم بناؤها وإنما تحتاج لثمن الصباغ من أجل إدارتها، فقال له الملك: «خذ هذه الأربعة آلاف الدينار واجعلها رأس مال وأرنى ثمرة مصبغتك». فأخذها ومضى إلى السوق فرأى النيلة كثيرة وليس لها ثمن فاشترى جميع ما يحتاج إليه من حوائج الصباغ.

ثم إن الملك أرسل إليه خمسمائة شقة من القماش، فدور الصبغ فيها حتى صبغها من سائر الألوان ثم نشرها قدام باب المصبغة، فلما مر الناس عليها رأوا شيئاً عجيباً عمرهم ما رأوا مثله، فازدحمت الخلائق على باب المصبغة وصاروا يتفرجون ويسألونه ويقولون له: «يا معلم ما اسم هذه الألوان؟» فيقول لهم: «هذا أحمر هذا أصفر وهذا أخضر». ويذكر لهم أسامى الألوان، فصاروا يأتونه بشىء من القماش ويقولون له: «اصبغ لنا مثل هذا وهذا وخذ ما تطلب». ولما فرغ من صباغ قماش الملك أخذه وطلع به إلى الديوان، فلما رأى الملك ذلك الصباغ فرح به وأنعم عليه إنعاماً زائداً. وصار جميع العسكر يأتون إليه بالقماش ويقولون له: «اصبغ لنا هكذا». فيصبغ على أغراضهم ويرمون عليه الذهب والفضة، ثم إنه شاع ذكره وسميت مصبغته مصبغة السلطان ودخل عليه الخير من كل باب وجميع الصباغين لم يقدر أحد منهم أن يتكلم معه وإنما كانوا يأتونه ويقبلون يديه ويمتذرون إليه مما سبق منهم فى حقه ويعرضون أنفسهم عليه ويقولون له: «اجعلنا خدما عندك». فلم يرض أن يقبل واحداً منهم، وصار عنده عبيد وجوار وجمع مالاً كثيراً.

هذا ما كان من أمر أبى قير. وأما ما كان من أمر أبى صير فإنه لما قفل عليه أبو قير باب الحجرة بعد أن أخذ دراهمه راح وخلاه وهو مريض غائب عن الوجود، فصار مرميا فى تلك الحجرة والباب مقفل عليه واستمر كذلك ثلاثة أيام. فانتبه بواب الخان إلى باب الحجرة فرآه مقفلاً ولم ير أحداً من هذين الاثنين إلى المغرب ولم يعلم لهما خبراً. فقال فى نفسه: «لعلهما سافرا ولم يدفعا أجرة الحجرة أو ماتا أو ما خبرهما». ثم إنه أتى إلى باب الحجرة فرآه مقفلاً وسمع أنين المزين فى داخلها ورأى المفتاح فى الضبة، ففتح الباب ودخل فرأى المزين يئن، فقال له: «لا بأس عليك أين رفيقك؟». فقال له: «والله إنى ما أفقت من مرضى إلا فى هذا اليوم وصرت أنادى وما أحد يرد على جواباً، بالله عليك يا أخى أن تنظر الكيس تحت راسى وتأخذ منه خمسة أنصاف وتشترى لى بها شيئاً أقتات به فإنى فى غاية الجوع».

فمد يده وأخذ الكيس فرآه فارغًا، فقال للمزين: «إن الكيس فارغ ما فيه شيء». فعرف أبو صير المزين أن أبا قير أخذ ما فيه وهرب. فقال له: «أما رأيت رفيقى؟». فقال له: «من مدة ثلاثة أيام ما رأيته وما كنت أظن إلا أنك سافرت أنت وإياه». فقال له المزين: «ما سافرنا إنما طمع فى فلوسى فأخذها وهرب حين رآنى مريضاً». ثم إنه بكى وانتحب. فقال له بواب الخان: «لا بأس عليك هو يلقى فعله من الله». ثم إن بواب الخان راح وطبخ له شورية وغرف له صحناً وأعطاه إياه، ولم يزل يتعهده مدة شهرين وهو يكلفه من كيسه حتى عرق وشفاه الله من المرض الذى كان به، ثم قام على أقدامه وقال لبواب الخان: «إن قدرنى الله تعالى جازيتك على ما فعلت معى من الخير، ولكن لا يجازى إلا الله من فضله». فقال له بواب الخان: «الحمد لله على العافية أنا ما فعلت معك ذلك إلا ابتغاء وجه الله الكريم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية رواح أبى صير إلى مصبغة أبى قير

قالت شهرزاد: ثم إن المزين خرج من الخان وشق فى الأسواق فأتت به المقادير إلى السوق الذى فيه مصبغة أبى قير فرأى الأقمشة ملونة بالصباغ منشورة فى باب المصبغة والخلائق مزدحمة يتفرجون عليها، فسأل رجلاً من أهل المدينة وقال له: «ما هذا المكان وما لى أرى الناس مزدحمين؟» فقال له المسئول: «إن هذه مصبغة السلطان التى أنشأها لرجل غريب اسمه أبو قير، وكلما صبغ ثوباً نجتمع عليه نتفرج على صباغه لأن بلادنا ما فيها صباغون يعرفون صباغ هذه الألوان وجرى له مع الصباغين الذين فى البلد ما جرى».

وأخبره بما جرى بين أبى قير وبين الصباغين وأنه شكاهم إلى السلطان فأخذ بيده وبنى له هذه المصبغة وأعطاه كذا وكذا، وأخبره بكل ما جرى. ففرح أبو صير وقال فى نفسه: الحمد لله الذى فتح عليه وصار معلماً والرجل معذور لعله التهى عنك بالصنعة ونسيك، ولكن أنت أكرمته وهو بطال فمتى رآك فرح بك وأكرمك فى نظير ما أكرمته».

ثم إنه تقدم إلى جهة باب المصبغة فرأى أبا قير جالساً على مرتبة عالية فوق مصطبة فى باب المصبغة وعليه بدلة من ملابس الملوك وقدامه أربعة عبيد وأربعة مماليك بيض لابسين أفخر الملابس ورأى الصنائعية عشرة عبيد واقفين يشتغلون لأنه حين اشتراهم علمهم صنعة الصباغة وهو قاعد بين المخدات كأنه وزير أعظم أو ملك أفخم لا يعمل شيئاً بيده وإنما يقول لهم: «افعلوا كذا وكذا». فوقف أبو صير قدامه وهو يظن أنه إذا رآه يفرح به ويسلم عليه ويكرمه ويأخذ بخاطره. فلما وقعت العين فى العين قال له أبو قير: «يا خبيث كم مرة وأنا أقول لك لا تقف فى باب هذا الدولاب، هل مرادك أن تفضحنى مع الناس يا حرامى؟ امسكوه». فجرى خلفه العبيد وقبضوا عليه وقام أبو قير على حيله وأخذ عصاً وقال: «ارموه»، فرموه فضربه على ظهره مائة ثم قلبوه فضربه على بطنه مائة، وقال له: «يا خبيث يا خائن إن نظرتك بعد هذا اليوم واقفاً على باب هذه المصبغة أرسلتك إلى الملك فى الحال فيسلمك إلى الوالى ليرمى عنقك، امش لابارك الله لك». فذهب من عنده مكسور الخاطر بسبب ما حصل له من الضرب والترذيل.

فقال الحاضرون لأبى قير الصباغ: «أى شىء عمل هذا الرجل؟» فقال لهم: «إنه حرامى يسرق أقمشة الناس فكم من مرة سرق منى القماش وأنا أقول فى نفسى سامحه الله فإنه رجل فقير ولم أرض أن أشوّش عليه وأعطى الناس ثمن أقمشتهم وأنهاه بلطف فلم ينته، فإن رجع غير هذه المرة أرسلته إلى الملك فيقتله ويريح الناس من أذاه». فصار الناس يشتمونه بعد ذهابه، هذا ما كان من أمر أبى قير.

حكاية رواح أبى صير إلى الملك وطلبه منه بناء حمام

وأما ما كان من أمر أبى صير فإنه رجع إلى الخان وجلس يتفكر فيما فعل به أبو قير. ولم يزل جالساً حتى برد عليه الضرب، ثم خرج وشق فى أسواق المدينة، فخطر بباله أنه يدخل الحمام، فسأل رجلاً من أهل المدينة وقال له: «يا أخى من أين طريق الحمام؟». فقال له: «وما يكون الحمام؟» فقال له: «موضع يغتسل فيه الناس ويزيلون ما عليهم من الأوساخ وهو من أطيب طيبات الدنيا». فقال له: «عليك بالبحر». قال: «أنا مرادى الحمام». قال له: «نحن لم نعرف الحمام كيف يكون فإننا كنا نروح إلى البحر حتى الملك إذا أراد أن يغتسل فإنه يروح إلى البحر». فلما علم أبو صير أن المدينة لم يكن فيها حمام وأهلها لا يعرفون الحمام ولا كيفيته مضى إلى ديوان الملك ودخل وقبل الأرض بين يديه ودعا له وقال له: «أنا رجل غريب البلاد وصنعتى حمامى فدخلت مدينتك وأردت الذهاب إلى الحمام فما رأيت فيها ولا حماماً واحداً، والمدينة التى تكون بهذه الصفة الجميلة كيف تكون من غير حمام مع أنه من أحسن نعيم الدنيا».

فقال له الملك: «أى شىء يكون الحمام؟» فصار يحكى له أوصاف الحمام وقال له: «لا تكون مدينتك مدينة كاملة إلا إذا كان بها حمام». فقال له الملك: «مرحباً بك». وألبسه بدلة ليس لها نظير وأعطاه حصاناً وعبدين، ثم أنعم عليه بأربع جوار ومملوكين وهيأ له داراً مفروشة وأكرمه أكثر من الصباغ وأرسل معه البنائين وقال لهم: «الموضع الذى يعجبه ابنوا له فيه حماماً». فأخذهم وشق بهم فى وسط المدينة حتى أعجبه مكان فأشار لهم عليه فدوروا فيه البناية وصار يرشدهم إلى كيفيته حتى بنوا له حماماً ليس له نظير، ثم أمرهم بنقشه فنقشوه نقشاً عجيباً حتى صار بهجة للناظرين، ثم طلع إلى الملك وأخبره بفراغ بناء الحمام ونقشه وقال له: «إنه لم يكن ناقصاً غير الفرش». فأعطاه الملك عشرة آلاف دينار فأخذها وفرش الحمام وصف فيه الفوط على الحبال، وصار كل من مر على باب الحمام يشخص له ويحتار فكره فى نقشه.

وازدحمت الخلائق على ذلك الشىء الذى ما رأوا مثله فى عمرهم وصاروا يتفرجون عليه ويقولون: «أى شىء هذا؟». فيقول لهم أبو صير: «هذا حمام». فيتعجبون منه، ثم إنه سخن الماء ودوَّر الحمام وعمل سلسبيلاً فى الفسقية يأخذ عقل من رآه من أهل المدينة. وطلب من الملك عشرة مماليك دون البلوغ، فأعطاه عشرة مماليك مثل الأقمار فصار يكبسهم ويقول لهم: «افعلوا مع الزبائن هكذا»، ثم أطلق البخور وأرسل منادياً ينادى فى المدينة ويقول: «يا خلق الله عليكم بالحمام فإنه يسمى حمام السلطان».

فأقبلت عليه الخلائق وجعل يأمر المماليك أن يغسلوا أجساد الناس، وصار الناس ينزلون المغطس ويطلعون وبعد طلوعهم يجلسون فى الإيوان والمماليك تكبسهم مثل ما علمهم أبو صير،

واستمر الناس يدخلون الحمام ويقضون حاجتهم منه ثم يخرجون بلا أجرة مدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع عزم الملك إلى الحمام فركب هو وأكابر دولته وتوجهوا إلى الحمام.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية وصول الملك إلى الحمام وفرحه به ونشاطه

قالت شهر زاد: فدخل أبو صير وكيّس الملك وأخرج من جسده الوسخ مثل الفتائل وصار يريه له ففرح الملك، وصار لو وضع يده على بدنه صوت من النعومة والنظافة، وبعد أن غسل جسده مزج له ماء الورد بماء المغطس فنزل الملك فى المغطس ثم خرج وجسده قد ترطب فحصل له نشاط عمره ما رآه، ثم بعد ذلك أجلسه فى الإيوان وصارت المماليك يكبسونه والمباخر تفوح بالعود الند، فقال الملك: «يا معلم أهذا هو الحمام؟» قال: «نعم». فقال له: «وحياة رأسى إن مدينتى ما صارت مدينة إلا بهذا الحمام». ثم قال له: «أنت تأخذ على كل رأس أى شيء أجرة؟» قال أبو صير: «الذى تأمر لى به آخذه». فأمر له بألف دينار وقال له: «كل من اغتسل عندك خذ منه ألف دينار». فقال له: «العفو يا ملك الزمان إن الناس ليسوا سواء بل فيهم الغنى والفقير، وإذا أخذت من كل واحد ألف دينار يبطل الحمام فإن الفقير لا يقدر على الألف الدينار». فقال الملك: «وكيف تفعل فى الأجرة؟» قال: «اجعل الأجرة بالمروءة فكل من يقدر على شيء وسمحت به نفسه يعطيه فنأخذ من كل إنسان على قدر حاله، فإن الأمر إذا كان كذلك تأتى إلينا الخلائق والذى يكون غنيًا يعطى على قدر مقامه والذى يكون فقيرًا يعطى على قدر ما تسمح به نفسه، فإذا كان الأمر كذلك يدور الحمام ويبقى له شأن عظيم، وأما الألف الدينار فإنها عطية الملك ولا يقدر عليها كل أحد».

فصدق عليه أكابر الدولة وقالوا: «هذا هو الحق يا ملك الزمان أتحسب أن الناس كلهم مثلك أيها الملك العزيز؟» قال الملك: «إن كلامكم صحيح ولكن هذا رجل غريب فقير وإكرامه واجب علينا فإنه عمل فى مدينتنا هذا الحمام الذى عمرنا ما رأينا مثله ولا تزينت مدينتنا وصار لها شأن إلا به فإذا أكرمناه بزيادة الأجرة ما هو كثير». فقالوا: «إذا كنت تكرمه فأكرمه من مالك ، وإكرام الفقير من الملك بقلة أجرة الحمام لأجل أن تدعو لك الرعية، وأما الألف الدينار فنحن أكابر دولتك ولا تسمح أنفسنا بإعطائها فكيف تسمح بذلك نفوس الفقراء؟» فقال الملك يا أكابر دولتى كل منكم يعطيه فى هذه المرة مائة دينار ومملوكًا وجارية وعبدًا». فقالوا: «نعم نعطيه ذلك ولكن بعد هذا اليوم كل من دخل لا يعطيه إلا ما تسمح به نفسه». فقال: «لا بأس بذلك».

حكاية إعطاء الملك وأكابر دولته إنعاماً لأبي صير

فجعل الأكابر يعطيه كل واحد منهم مائة دينار وجارية ومملوكًا وعبدًا، وكان عدد الأكابر الذين اغتسلوا مع الملك فى هذا اليوم أربعمائة نفس، فصار جملة ما أعطوه من الدنانير أربعين ألف دينار، ومن المماليك أربعمائة مملوك، ومن العبيد أربعمائة عبد، ومن الجوارى أربعمائة جارية، وناهيك بهذه العطية، وأعطاه الملك عشرة آلاف دينار وعشرة مماليك وعشر جوار وعشرة عبيد، فتقدم أبو صير وقبل الأرض بين أيادى الملك وقال له: «أيها الملك السعيد، صاحب الرأى الرشيد، أى مكان يسعنى بهذه المماليك والجوارى والعبيد؟» فقال له الملك: «أنا

ما أمرت دولتى بذلك إلا لأجل أن نجمع لك مقدارًا عظيمًا من المال لأنك ربما تفكرت ببلادك وعيالك واشتقت إليهم وأردت السفر إلى أوطانك فتكون أخذت من بلادنا مقدارًا جسيمًا من المال تستعين به على وقتك فى بلادك». قال: «يا ملك الزمان أعزّك الله إن هذه المماليك والجوارى والعبيد الكثيرة شأن الملوك ولو كنت أمرت لى بمال نقدًا لكان خيرًا لى من هذا الجيش فإنهم يأكلون ويشربون ويلبسون، ومهما حصلته من المال لا يكفيهم فى الإنفاق عليهم». فضحك الملك وقال: «والله إنك قد صدقت فإنهم صاروا عسكرًا جرّارًا وأنت ليس لك مقدرة على الإنفاق عليهم». ولكن أتبيعهم لى كل واحد بمائة دينار؟ فقال: «بعتك إياهم بهذا الثمن».

فأرسل الملك إلى الخازندار ليحضر له المال، فأحضره وأعطاه ثمن الجميع بالتمام والكمال، ثم بعد ذلك أنعم بهم على أصحابهم وقال: «كل من يعرف عبده أو جاريته أو مملوكه فليأخذه فإنهم هدية منى إليكم». فامتثلوا أمر الملك وأخذ كل واحد منهم ما يخصه، فقال له أبو صير: «أراحك الله يا ملك الزمان كما أرحتنى من هؤلاء الغيلان الذين لا يقدر أن يشبعهم إلا الله». فضحك من كلامه وصدق عليه، ثم أخذ أكابر دولته وذهب من الحمام إلى سرايته، وبات تلك الليلة أبو صير وهو يصر الذهب ويضعه فى الأكياس، وكان عنده عشرون عبدًا وعشرون مملوكًا وأربع جوار برسم الخدمة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية دخول الناس والملكة وقبطان الملك فى الحمام وفرحتهم به

قالت شهر زاد: فلما أصبح الصباح فتح الحمام وأرسل مناديًا ينادى ويقول: «كل من دخل الحمام واغتسل فإنه يعطى ما تسمح به نفسه وما تقتضيه مروءته». وقعد أبو صير عند الصندوق وهجمت عليه الزبائن وصار كل من طلع يحط الذى يهون عليه، فما أمسى المساء حتى امتلأ الصندوق من خير الله تعالى، ثم إن الملكة طلبت دخول الحمام، فلما بلغ أبا صير ذلك قسم النهار من أجلها قسمين وجعل من الفجر إلى الظهر قسم الرجال ومن الظهر إلى الغروب قسم النساء، ولما أتت الملكة أوقف جارية خلف الصندوق وكان علّم أربع جوار البلانة حتى صرن بلانات ماهرات. فلما دخلت الملكة أعجبها ذلك وانشرح صدرها وحطت ألف دينار، وشاع ذكره فى المدينة وصار كل من يدخل يكرمه سواء كان غنيًا أو فقيرًا، فدخل عليه الخير من كل باب وتعرف بأعوان الملك وصار له أصحاب وأحباب، وصار الملك يأتى إليه فى الجمعة يومًا ويعطيه ألف دينار وبقية أيام الجمعة للأكابر والفقراء وصار يأخذ بخاطر الناس ويلاطفهم غاية الملاطفة، فاتفق أن قبطان الملك دخل عليه الحمام يومًا من الأيام فقلع أبو صير ودخل معه وصار يكبسه ولاطفه ملاطفة زائدة، ولما خرج من الحمام عمل له الشربات والقهوة، فلما أراد أن يعطيه شيئًا حلف أنه لا يأخذ منه شيئًا، فحمل القبطان جميله لما رأى من مزيد لطفه به وإحسانه إليه وصار متحيرًا فيما يهديه إلى ذلك الحمامى فى نظير إكرامه له، هذا ما كان من أمر أبى صير.

حكاية مجيء أبي قير إلى حمام أبي صير وحيلته عليه

وأما ما كان من أمر أبى قير فإنه سمع جميع الخلائق يلهجون بذكر الحمام وكل منهم يقول: «إن هذا الحمام نعيم الدنيا بلا شك إن شاء الله يا فلان تدخل بنا غدًا هذا الحمام النفيس». فقال أبو قير فى نفسه: «لا بد أن أروح مثل الناس وانظر هذا الحمام الذى أخذ عقول الناس». ثم إنه لبس أفخر ما كان عنده من الملابس وركب بغلة واخذ معه أربعة عبيد وأربعة مماليك يمشون خلفه وقدامه وتوجه إلى الحمام، ثم إنه نزل فى باب الحمام، فلما صار عند الباب شم رائحة العود الندّ ورأى ناسًا داخلين وناسًا خارجين ورأى المساطب ملآنة من الأكابر والأصاغر فدخل الدهليز فرآه أبو صير فقام إليه وفرح به فقال له أبو قير: «هل هذا شرط أولاد الحلال وأنا فتحت لى مصبغة وبقيت معلم البلد وتعرفت بالملك وصرت فى سعادة وسيادة وانت لا تأتى عندى ولا تسأل عنى ولا تقول أين رفيقى، وأنا عجزت وأنا أفتش عليك وأبعث عبيدى ومماليكى يفتشون عليك فى الخانات وفى سائر الأماكن فلا يعرفون طريقك ولا أحد يخبرهم بخبرك؟».

فقال له أبو صير: «أما جئت إليك وجعلتنى لصا وضربتنى وهتكتنى بين الناس»؟ فاغتم أبو قير وقال: «أى شىء هذا الكلام هل هو أنت الذى ضربتك»؟ فقال له أبو صير: «نعم هو أنا» فحلف له أبو قير ألف يمين بأنه ما عرفه وقال: «إنما كان واحد شبيهك يأتى فى كل يوم ويسرق قماش الناس فظننت أنك هو». وصار يتندم ويضرب كفًا على كف ويقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم قد أسأناك، ولكن يا ليتك عرفتنى بنفسك وقلت: أنا فلان، فالعيب عندك لكونك لم تعرفنى بنفسك خصوصًا وأنا مدهوش من كثرة الأشغال». فقال له أبو صير: «سامحك الله يا رفيقى وهذا الشىء كان مقدرًا فى الغيب والجبر على الله، ادخل اقلع ثيابك واغتسل وانبسط». فقال له: «بالله عليك أن تسامحنى يا أخى». فقال له: «أبرأ الله ذمتك وسامحك فإنه كان أمرًا مقدرًا علىّ فى الأزل». ثم قال له أبو قير: «ومن أين لك هذه السيادة؟» فقال له: «الذى فتح عليك فتح علىّ فإنى طلعت على الملك وأخبرته بشأن الحمام فأمر لى ببنائه». فقال له أبو قير: «وكما أنك معرفة الملك فإنا الآخر معرفته، إن شاء الله تعالى أنا أخليه يحبك ويكرمك زيادة على هذا الإكرام من أجلى فإنا لم يعرف أنك رفيقى فانا اعرّفه بانك رفيقى وأوصيه عليك».

فقال له: «ما يحتاج إلى وصية فإن المحنن موجود وقد أحبنى الملك هو وجميع دولته وأعطانى كذا وكذا». وأخبره بالخبر، ثم قال له: «اقلع ثيابك خلف الصندوق وادخل الحمام وأنا ادخل معك لأجل أن أكيسك». فخلع ما عليه ودخل الحمام معه أبو صير وكيسه وصبنه وألبسه واشتغل به حتى خرج. فلما خرج أحضر له الغداء والشربات وصار جميع الناس يتعجبون من كثرة إكرامه له، ثم بعد ذلك أراد أبو قير أن يعطيه شيئًا فحلف أنه لا يأخذ منه شيئًا وقال له: «استح من هذا الأمر وأنت رفيقى وليس بيننا فرق». ثم إن أبا قير قال لأبى صير: «يا رفيقى والله إن هذا الحمام عظيم ولكن صنعتك فيه ناقصة». فقال له: «وما نقصها؟» قال له: «الدواء الذى هو من عقد الزرنيخ والجير الذى يزيل الشعر بسهولة فاعمل هذا الدواء، فإذا أتى الملك فقدمه إليه وعلمه كيف يسقط به الشعر فيحبك حبًا شديدًا ويكرمك» فقال له أبو صير: «صدقت يا رفيقى وإن شاء الله تعالى أصنع ذلك».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية حيلة أبي قير على أبي صير ونميمته عند السلطان

قالت شهر زاد: ثم إن أبا قير خرج وركب بغلته وذهب إلى الملك ودخل عليه وقال له: «أنا ناصح لك يا ملك الزمان». فقال له: «وما نصيحتك؟» فقال: «بلغني خبر هو أنك بنيت حمامًا». قال: «نعم قد أتاني رجل غريب فأنشأته له كما أنشأت لك هذه المصبغة وهو حمام عظيم وقد تزينت مدينتي به»، وصار يذكر له محاسن ذلك الحمام، فقال له أبو قير: «وهل دخلته»؟ قال: «نعم». قال: «الحمد لله الذي نجاك من شر هذا الخبيث عدو الدين وهو الحمامي». فقال له الملك: «وما شأنه»؟ قال أبو قير: «اعلم يا ملك الزمان أنك إن دخلته بعد هذا اليوم فإنك تهلك». فقال له: «لأي شيء؟» فقال له: «إن الحمامي عدوك وعدو الدين فإنه ما حملك على إنشاء هذا الحمام إلا لأن مراده أن يُدخل عليك فيه السم فإنه صنع لك شيئًا وإذا دخلته يأتيك به ويقول لك: هذا دواء كل من دهن به إبطه يرمي الشعر بسهولة، وليس هو بدواء بل هو داء عظيم وسم قاتل، وإن هذا الخبيث قد وعده سلطان النصارى أنه إن قتلك يفك له زوجته وأولاده من الأسر، فإن زوجته وأولاده مأسورون عند سلطان النصارى وكنت مأسوراً معه في بلادهم، ولكن أنا فتحت مصبغة وصبغت لهم ألوانًا فاستعطفوا عليَّ قلب الملك. «فقال لي الملك: أي شيء تطلب؟ فطلبت منه العتق فأعتقني وجئت إلى هذه المدينة ورأيته في الحمام فسألته وقلت له: «كيف كان خلاصك وخلاص زوجتك وأولادك؟ فقال: لم أزل أنا وزوجتي وأولادي مأسورين حتى أن ملك النصارى عمل ديوانًا فحضرت في جملة من حضر وكنت واقفًا من جملة الناس فسمعتهم فتحوا مذاكرة الملك إلى أن ذكروا ملك هذه المدينة، فتأوه ملك النصارى وقال: ما قهرني في الدنيا إلا ملك المدينة الفلانية فكل من تحيَّل لي على قتله فإني أعطيه كل ما يتمنى، فتقدمت أنا إليه وقلت له: إذا تحيَّلت لك على قتله هل تعتقني أنا وزوجتي وأولادي؟ فقال لي: نعم أعتقكم وأعطيك كل ما تتمنى. ثم إني اتفقت أنا وإياه على ذلك وأرسلني في غليون إلى هذه المدينة وطلعت إلى هذا الملك فبنى لي هذا الحمام. وما بقي عليَّ إلا أن أروح إلى ملك النصارى وأفدي أولادي وزوجتي وأتمنى عليه.

«فقلت: وما الحيلة التي دبرتها في قتله حتى تقتله؟ قال لي: هي حيلة سهلة أسهل ما يكون فإنه يأتي إليَّ في الحمام، وقد اصطنعت له شيئًا فيه سم فإذا جاء أقول له: خذ هذا الدواء وادهن به فإنه يسقط الشعر، فيأخذه ويدهن به فيلعب السم فيه يومًا وليلة حتى يسري إلى قلبه فيهلكه والسلام، فلما سمعت منه هذا الكلام خفت عليك لأن خيرك عليَّ، وقد أخبرتك بذلك أيها الملك.

حكاية أمر الملك للقبطان بتغريق أبي صير وتخليص القبطان له

فلما سمع الملك هذا الكلام غضب غضبًا شديدًا وقال للصباغ: «اكتم هذا السر»، ثم طلب الرواح إلى الحمام حتى يقطع الشك باليقين، فلما دخل الملك إلى الحمام تعرى أبو صير على جري عادته وتقيَّد بالملك كيَّسه وبعد ذلك قال: «يا ملك الزمان إني عملت دواءً لتنظيف الشعر». فقال: «احضره لي، فأحضره بين يديه فرأى رائحته كريهة فصح عنده أنه سم، فغضب وصاح على الأعوان وقال: «أمسكوه». فقبض عليه الأعوان وخرج الملك وهو ممتزج بالغضب ولا أحد يعرف سبب غضبه، ومن شدة غضب الملك لم يخبر أحدًا ولم يتجاسر أحد

على أن يسأله، ثم إنه لبس وطلع الديوان، ثم أحضر أبا صير بين يديه وهو مكتّف، ثم طلب القبطان فحضر.

فلما حضر القبطان قال له الملك: «خذ هذا الخبيث وحطه في زكيبة وحط في الزكيبة قنطارين جيرًا من غير إطفاء واربط فمها عليه هو والجير ثم ضعها في الزورق وتعال تحت قصري فتراني جالسًا في شباكه وقل لي: هل أرميه؟ فأقول لك : ارمه. فإذا قلت لك ذلك فارمه حتى ينطفىء الجيرعليه لأجل أن يموت غريقًا حريقًا». فقال له: «سمعًا وطاعة»، ثم أخذه من قدام الملك إلى جزيرة قصاد قصر الملك وقال لأبي صير: «يا هذا أنا جئت عندك مرة واحدة في الحمام فأكرمتني وقمت بواجبي وانبسطت منك كثيرًا وحلفت أنك لم تأخذ مني أجرة وأنا قد أحببتك محبة شديدة فأخبرني ما قضيتك مع الملك وأي شيء صنعت معه من المكاره حتى غضب عليك وأمرني أن تموت هذه الميتة الرديئة؟» فقال له: «والله ما عملت شيئًا وليس عندي علم بذنب فعلته معه».

فقال له القبطان: «إن لك عند الملك مقامًا عظيمًا ماناله أحد قبلك، وكل ذي نعمة محسود، فلعل أحدًا حسدك على هذه النعمة ورمى في حقك بعض كلام عند الملك حتى إن الملك غضب عليك هذا الغضب، ولكن مرحبًا بك وما عليك من بأس، فكما أنك أكرمتني من غير معرفة بيني وبينك فأنا أخلّصك، ولكن إذا خلّصتك تقيم عندي في هذه الجزيرة حتى يسافر من هذه المدينة غليون إلى ناحية بلادك فارسلك معه». فقبّل أبو صير يد القبطان وشكره على ذلك، ثم إنه أحضر الجير ووضعه في زكيبة ووضع فيها حجرًا كبيرًا قدر الرجل وقال: «توكلت على الله»، ثم إن القبطان أعطى أبا صير شبكة وقال له: «ارم هذه الشبكة في البحر لعلك تصطاد شيئًا من السمك، لأن سمك مطبخ الملك مرتب عليَّ في كل يوم وقد اشتغلت عن الصيد بهذه المصيبة التي أصابتك فأخاف أن تأتي غلمان الطباخ ليطلبوا السمك فلا يجدونه، فإذا كنت تصطاد شيئًا فإنهم يجدونه حتى أروح أعمل الحيلة تحت القصر وأجعل أني رميتك». فقال له أبو صير: «أنا أصطاد ورُح أنت والله يعينك». فوضع الزكيبة في الزورق وسار إلى أن وصل تحت القصر فرأى الملك جالسًا في الشباك، فقال : «يا ملك الزمان هل أرميه؟» فقال له: «ارمه». وأشار بيده وإذا بشيء برق ثم سقط في البحر، إذا بالذي سقط في البحر خاتم الملك وكان مرصودًا بحيث إذا غضب الملك على أحد وأراد قتله يشير عليه باليد اليمنى التي فيها الخاتم فيخرج من الخاتم بارقة فتصيب الذي يشير عليه فيقع رأسه من بين كتفيه، وما أطاعته العساكر ولا قهر الجبابرة إلا بسبب هذا الخاتم، فلما وقع الخاتم من إصبعه كتم أمره ولم يقدر أن يقول خاتمي وقع في البحر خوفًا من العسكر أن يقوموا عليه فيقتلوه فسكت. هذا ما كان من أمر الملك.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية اصطياد أبي صير السمكة ووجدان خاتم الملك في خيشومها

قالت شهر زاد: وأما ما كان من أمر أبي صير فإنه بعد ذهاب القبطان أخذ الشبكة وطرحها في البحر وسحبها فطلعت ملآنة سمكًا ثم طرحها ثانيًا فطلعت ملآنة سمكًا أيضًا،

ولم يزل يطرحها وهي تطلع ملآنة سمكًا حتى صار قدامه كوم كبير من السمك، فقال في نفسه: «والله إن لي مدة طويلة ما أكلت السمك». ثم إنه نقى له سمكة كبيرة سمينة وقال: «لما يأتي القبطان أقول له يقلي لي هذه السمكة لأتغدى بها». ثم إنه ذبحها بسكين كانت معه فعلقت السمكة في خيشومها فرأى خاتم الملك فيه لأنها كانت ابتلعته ثم ساقتها القدرة إلى تلك الجزيرة ووقعت في الشبكة، فأخذ الخاتم ولبسه في خنصره وهو لا يعلم ما فيه من الخواص، وإذا بغلامين من خدام الطباخ أتيا لطلب السمك.

فلما صارا عند أبي صير قالا: «يا رجل أين راح القبطان؟» فقال: «لا أدري». وأشار بيده اليمنى وإذا برأسي الغلامين وقعا من بين أكتافهما حين أشار إليهما وقال لا أدري، فتعجب أبو صير من ذلك وجعل يقول: : «يا ترى من قتلهما؟» وصار يتفكر في ذلك.

وإذا بالقبطان أقبل فرأى كومًا كبيرًا من السمك ورأي الاثنين مقتولين، ورأى الخاتم في إصبع أبي صير. فقال له: «يا أخي لا تحرك يدك التي فيها الخاتم فإنك إن حركتها قتلتني» فتعجب من قوله لا تحرك يدك التي فيها الخاتم لأنك إن حركتها قتلتني، فلما وصل إليه القبطان قال: «من قتل هذين الغلامين؟» قال له أبو صير: «والله يا أخي لا أدري». قال: «صدقت، ولكن أخبرني عن هذا الخاتم من أين وصل إليك؟» قال: «رأيته في خيشوم هذه السمكة». قال: «صدقت، فإني رأيته نازلاً يبرق من قصر الملك حتى سقط في البحر وقت أن أشار إليَّ وقال لي ارمه، فإنه لما أشار رميت الزكيبة وكان سقط من إصبعه ووقع في البحر فابتلعته هذه السمكة وساقها الله إليك حتى اصطدتها: فهذا نصيبك، ولكن هل تعرف خواص هذا الخاتم؟» قال أبو صير: «لا أدري له خواصا». فقال القبطان: «اعلم أن عسكر ملكنا ما أطاعوه إلا خوفًا من هذا الخاتم لأنه مرصود فإذا غضب الملك على أحد وأراد قتله يشير به عليه فيقع رأسه من بين كتفيه، فإن بارقة تخرج من هذا الخاتم ويتصل شعاعها بالمغضوب عليه فيموت لوقته».

فلما سمع أبو صير هذا الكلام فرح فرحًا شديدًا، وقال للقبطان: «ردني إلى المدينة». فقال له القبطان: «أردك فإني ما بقيت أخاف عليك من الملك فإنك متى أشرت بيدك وأضمرت على قتله فإن رأسه يقع بين يديه، ولو كنت تطلب قتل الملك وجميع العسكر فإنك تقتلهم من غير عاقة»، ثم أنزله في الزورق وتوجه به إلى المدينة.

حكاية ذهاب أبي صير إلى الملك مع الخاتم

فلما وصل إليها طلع إلى قصر الملك، ثم دخل الديوان فرأى الملك جالسًا والعسكر بين يديه وهو في غم عظيم من شأن الخاتم ولم يقدر أن يخبر أحدًا من العسكر بضياع الخاتم، فلما رآه الملك قال له: «أما رميناك في البحر كيف فعلت حتى خرجت منه؟» فقا له: «يا ملك الزمان لما أمرت برميي في البحر أخذني قبطانك وسار بي إلى جزيرة وسألني عن سبب غضبك عليَّ وقال لي: أي شيء صنعت مع الملك حتى أمر بموتك؟ فقلت له: والله ما أعلم أني عملت معه شيئًا قبيحًا. فقال لي: إن لك مقامًا عظيمًا عند الملك فلعل أحدًا حسدك ورمى فيك كلامًا عند الملك حتى غضب عليك، ولكن أنا جئتك في حمامك فأكرمتني، ففي نظير إكرامك إياي في حمامك أن أخلصك وأرسلك إلى بلادك، ثم حط في الزورق حجرًا عوضًا

عني ورماه في البحر، ولكن حين أشرت له عليَّ وقع الخاتم من يدك في البحر فابتلعته سمكة، وكنت أنا في الجزيرة أصطاد سمكًا فطلعت تلك السمكة في جملة السمك فأخذتها، وأردت أن أشويها فلما فتحت جوفها رأيت الخاتم فيه فأخذته وجعلته في إصبعي، فأتاني اثنان من خدام المطبخ وطلبا السمك، فأشرت إليهما وأنا لا أدري خاصية الخاتم فوقعت راساهما، ثم أتاني القبطان فعرف الخاتم وهو في إصبعي وأخبرني برصده، فأتيت به إليك لأنك عملت معي معروفًا وأكرمتني غاية الإكرام وما عملته معي من الجميل لم يضع عندي، وهذا خاتمك فخذه، وإن كنت فعلت معك شيئًا يجب القتل فعرفني بذنبي واقتلني وأنت في حل من دمي».

ثم خلع الخاتم من إصبعه وناوله للملك، فلما رأى الملك ما فعل أبو صير من الإحسان أخذ الخاتم منه وتختم به وردّت له روحه وقام على أقدامه واعتنق أبا صير وقال: «يا رجل أنت من خواص أولاد الحلال فلا تؤاخذني وسامحني مما صدر مني في حقك، ولو كان أحد غيرك ملك هذا الخاتم ما كان أعطاني إياه». فقال: «يا ملك الزمان إن أردت أن أسامحك فعرفني بذنبي الذي أوجب غضبك حيث أمرت بقتلي». فقال له: «والله إنه ثبت عندي أنك بريء وليس لك ذنب في شيء حيث فعلت هذا الجميل، إنما الصباغ قد قال لي كذا وكذا».

وأخبره بما قاله الصباغ، فقال أبو صير: «والله يا ملك الزمان أنا لا أعرف ملك النصارى ولا عمري رحت إلى بلاد النصارى ولا خطر ببالي أني أقتلك، ولكن هذا الصباغ كان رفيقي وجاري في مدينة إسكندرية، وضاق بنا العيش هناك فخرجنا منها لضيق المعاش وقرأنا مع بعضنا فاتحة على أن العمَّال يطعم البطَّال وجرى لي معه كذا وكذا».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية إخبار أبي صير للملك بحال أبي قير وحيلته وغضب الملك عليه

قالت شهر زاد: وأخبره بجميع ما قد جرى له مع أبي قير الصباغ وكيف أخذ دراهمه وفاته ضعيفًا في الحجرة التي في الخان وأن بواب الخان كان ينفق عليه وهو مريض حتى شفاه الله ثم طلع وسرح في المدينة بعدته على العادة فبينما هو في الطريق إذ رأى مصبغة عليها ازدحام فنظر إلى باب المصبغة فرأى أبا قير جالسًا على مصطبة هناك فدخل ليسلم عليه فوقع له منه ما وقع من الضرب والإساءة وادعى عليه أنه حرامي وضربه ضربًا مؤلمًا، وأخبر الملك بجميع ما جرى له من أوله إلى آخره، ثم قال: «يا ملك الزمان هو الذي قال لي اعمل الدواء وقدمه للملك فإن الحمام كامل في جميع الأمور إلا أن هذا الدواء مفقود منه، واعلم يا ملك الزمان أن هذا الدواء لا يضر ونحن نصنعه في بلادنا وهو من لوازم الحمام وأنا كنت نسيته، فلما أتاني الصباغ ذكرني به وقال لي: اعمل الدواء، وأرسل يا ملك الزمان هات بواب الخان الفلاني وصنيعية المصبغة واسأل الجميع عما أخبرتك».

فأرسل الملك إلى بواب الخان وإلى صنيعية المصبغة، فلما حضر الجميع سألهم فأخبروه بالواقع، فأرسل إلى الصباغ وقال: «هاتوه حافيًا مكشوف الرأس مكتَّفًا». وكان

الصباغ جالسًا في بيته مسرورًا بقتل أبي صير فلم يشعر إلا وأعوان الملك هجموا عليه والضرب على قفاه ثم كتّفوه وحضروا به قدام الملك، فرأى أبا صير جالسًا في جنب الملك وبواب الخان وصنيعة المصبغة واقفين أمامه، فقال له بواب الخان: «أما هذا رفيقك الذي سرقت دراهمه وتركته عندي في الحجرة ضعيفًا وفعلت معه ما هو كذا وكذا؟» وقال صنيعة المصبغة: «أما هذا الذي أمرتنا بالقبض عليه وضربناه». فتبين للملك قباحة أبي قير وأنه يستحق ما هو أشد من تشدد منكر ونكير، فقال الملك: «خذوه وجرّسوه في المدينة والسوق وحطوه في زكيبة وارموه في البحر».

فقال أبو صير: «يا ملك الزمان شفّعني فيه فإني سامحته من جميع ما فعل بي». فقال الملك: «إن كنت سامحته في حقك فأنا لا يمكن أن أسامحه في حقي». ثم صاح قال: «خذوه». فأخذوه وجرّسوه وبعد ذلك وضعوه في زكيبة ووضعوا معه الجير ورموه في البحر فمات غريقًا حريقًا، وقال الملك: «يا أبا صير تمن علي تعط». فقال له: «تمنيت عليك أن ترسلني إلى بلادي فإن ما بقي لي رغبة في القعود ها هنا». فأعطاه شيئًا كثيرًا زيادةً على ماله ونواله ومواهبه، ثم أنعم عليه بغليون مشحون بالخيرات وكان بحريته مماليك فوهبهم له أيضًا بعد أن عرض عليه أن يجعله وزيرًا فما رضي.

ثم ودّع الملك وسافر وجميع ما في الغليون ملكه حتى النوتية مماليكه، وما زال سائرًا حتى وصل إلى أرض إسكندرية ورسوا على جانب إسكندرية وخرجوا إلى البرّ، فرأى مملوكًا من مماليكه زكيبة في جانب البر فقال: «يا سيدي إن في جنب شاطىء البر زكيبة كبيرة ثقيلة وفمها مربوط ولا أدري ما فيها».

فأتى أبو صير وفتحها فرأى فيها أبا قير قد دفعه البحر إلى جهة إسكندرية، فأخرجه ودفنه بالقرب من إسكندرية، وعمل له مزارًا وأوقف عليه أوقافًا وكتب على باب الضريح هذه الأبيات:

المرء يعرف في الأنام بفعله	وفعال الحر الكريم كأصله
لا تستغيب فتستغاب فربما	من قال شيئًا قيل فيه بمثله
وتجنب الفحشاء لا تنطق لها	ما دمت في جد الكلام وهزله
فالكلب إن حفظ المكارم يقتنى	وغدا الهزبر مسلسلاً من جهله
والبحر تعلو فوقه جيف الفلا	والدر منبوذ بأسفل رمله
ما كان عصفورٌ يزاحم باشقًا	إلا لطيشته وخفة عقله
في الجو مكتوبٌ على صحف الهوا	من يفعل المعروف فاز بمثله
إياك تجني سكرًا من حنظل	فالشيء يرجع في المذاق لأصله

ثم إن أبا صير أقام مدة وتوفاه الله، فدفنوه بجوار قبر رفيقه أبي قير، ومن أجل ذلك سمي هذا المكان بأبي قير وأبي صير، واشتهر الآن بأنه أبو قير، وهذا ما بلغنا من حكايتهما فسبحان الباقي على الدوام، وبإرادته تُصرّف الليالي والأيام.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية عبد الله البري مع عبد الله البحري

قالت شهر زاد: ومما يحكى أيضًا أنه كان رجل صياد اسمه عبد الله وكان كثير العيال له تسعة أولاد وأمهم، وكان فقيرًا جدًا لا يملك إلا الشبكة، وكان يروح كل يوم إلى البحر ليصطاد، فإذا اصطاد قليلاً يبيعه وينفقه على أولاده بقدر ما رزقه الله، وإن اصطاد كثيرًا يطبخ طبخة طيبة ويأخذ فاكهة، ولا يزال يصرف حتى لا يبقى معه شيء ويقول في نفسه: «رزق غدٍ يأتي في غدٍ». فلما وضعت زوجته صاروا عشرة أشخاص وكان الرجل في ذلك اليوم لا يملك شيئًا أبدًا، فقالت له زوجته: «يا سيدي انظر لي شيئًا أتقوت به». فقال لها: «ها أنا سارح علي بركة الله تعالي إلى البحر في هذا اليوم علي بخت هذا المولود الجديد حتى ننظر سعده». فقالت له: «توكل علي الله».

حكاية عبد الله البري الصياد مع عبد الله الخباز

فأخذ الشبكة وتوجه إلى البحر. ثم إنه رمى الشبكة علي بخت ذلك الطفل الصغير وقال: «اللهم اجعل رزقه يسيرًا غير عسير وكثيرًا غير قليل». وصبر عليها مدة ثم سحبها فخرجت ممتلئة عفشًا ورملاً وحصى وحشيشًا ولم ير فيها شيئًا من السمك لا كثيرًا ولا قليلا. فرماها ثاني مرة وصبر عليها ثم سحبها فلم ير فيها سمكًا، فرمى ثالثًا، ورابعًا وخامسًا فلم يطلع فيها سمك. فانتقل إلى مكان آخر وجعل ما يطلب رزقه إلا من الله تعالي. ولم يزل على هذه الحالة إلى آخر النهار فلم يصطد ولا صيدة، فتعجب في نفسه وقال: «هل هذا المولود خلقه الله من غير رزق، فهذا لا يكون أبدًا لأن الذي شدَّق الأشداق، تكفل لها بالأرزاق، فالله تعالى كريم رزاق». ثم إنه حمل الشبكة ورجع مكسور الخاطر وقلبه مشغول بعياله فإنه تركهم بغير أكل ولاسيما وزوجته نفساء. وما زال يمشي وهو يقول في نفسه: «كيف العمل وماذا أقول للأولاد في هذه الليلة؟».

ثم إنه وصل قدام فرن خباز فرأى عليه زحمة، وكان الوقت وقت غلاء وفي تلك الأيام لا يوجد عند الناس من المؤونة إلا قليل، والناس يعرضون الفلوس علي الخباز ولا ينتبه لأحد منهم من كثرة الزحام. فوقف ينظر ويشم رائحة العيش السخن فصارت نفسه تشتهيه من الجوع، فنظر إليه الخباز وصاح عليه وقال: «تعال يا صياد». فتقدم الصياد إليه. فقال له: «أتريد عيشًا؟» فسكت. فقال له: «تكلم ولا تستح فالله كريم إن لم يكن معك دراهم، فأنا أعطيك وأصبر عليك حتى يجيئك الخير». فقال له: «والله يا معلم ما معي دراهم لكن أعطني عيشًا كفاية عيالي وأرهن عندك هذه الشبكة إلى غد». فقال له: «يا مسكين إن هذه الشبكة دكانك وباب رزقك فإذا رهنتها فبأي شيء تصطاد، فأخبرني بالقدر الذي يكفيك؟» فقال: «بعشرة أنصاف فضة». فأعطاه خبزًا بعشرة أنصاف فضة وقال له: «خذ هذه العشرة أنصاف واطبخ لك بها طبخة فيبقى عندك عشرون نصف فضة وفي غد هات لي بها سمكًا، وإن لم يحصل لك شيء تعال خذ عيشك وعشرة أنصاف وأنا أصبر عليك حتى يأتيك الخير وبعد ذلك هات لي بما أستحقه عندك سمكًا». فقال له «آجرك الله تعالى وجزاك عني كل خير». ثم أخذ العيش والعشرة الأنصاف الفضة وراح مسرورًا واشترى له ما تيسر ودخل على زوجته فرآها قاعدة تأخذ بخاطر الأولاد وهم يبكون من الجوع وتقول لهم: «في هذا الوقت يأتي

أبوكم بما تأكلونه». فلما دخل عليهم حط لهم العيش فأكلوا وأخبر زوجته بما حصل له. فقالت له: «الله كريم». وفي ثاني يوم حمل شبكته وخرج من داره وهو يقول: «أسألك يا رب أن ترزقني في هذا اليوم بما يبيض وجهي مع الخباز». فلما وصل إلى البحر صار يطرح الشبكة ويجذبها فلم يخرج سمك، ولم يزل كذلك إلى آخر النهار ولم يحصل شيئًا فرجع وهو في غم عظيم وكان طريق بيته على فرن الخباز فقال في نفسه: «من أين أروح إلى داري ولكن أسرع خطوي حتى لا يراني الخباز».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما وصل إلى فرن الخباز رأى زحمة فأسرع في المشي من حيائه حتى لا يراه، وإذا بالخباز رفع بصره عليه فصاح وقال: «يا صياد تعال خذ عيشك ومصروفك فإنك نسيت». فقال: «لا والله ما نسيت وإنما استحييت منك فإني لم أصطد سمكًا في هذا اليوم». فقال له: «لا تستح، أما قلت لك علي مهلك حتى يأتيك الخير؟» ثم أعطاه العيش والعشرة الأنصاف وراح إلى زوجته وأخبرها بالخبر. فقالت له: «الله كريم إن شاء الله تعالى يأتيك الخير وتوفيه حقه»، ولم يزل علي هذه الحالة مدة أربعين يومًا وهو في كل يوم يروح إلى البحر من طلوع الشمس إلى غروبها ويرجع بلا سمك ويأخذ عيشًا ومصروفًا من الخباز ولم يذكر له السمك يومًا من الأيام ولم يمهله مثل الناس بل يعطيه العشرة الأنصاف والعيش. وكلما يقول له: «يا أخي حاسبني». يقول له: «رُح ما هذا وقت الحساب حتى يأتيك الخير فأحاسبك». فيدعو له ويذهب من عنده شاكرًا له. وفي اليوم الحادي والأربعين قال لامرأته: «مرادي أن أقطع هذه الشبكة وأرتاح من هذه العيشة». فقالت له: «لأي شيء؟» قال لها: «كأن رزقي انقطع من البحر فإلى متى هذا الحال، والله إني ذُبت حياءً من الخباز، فأنا ما بقيت أروح إلى البحر حتى لا أجوز على فرنه فإنه ليس لي طريق إلا على فرنه وكلما جزت عليه يناديني ويعطيني العيش والعشرة الأنصاف، فإلى متى وأنا أتداين منه؟» قالت له: «الحمد لله تعالى الذي عطف قلبه عليك فيعطيك القوت، وأي شيء تكره من هذا؟» قال: «بقي له عليّ قدر عظيم من الدراهم ولا بد أن يطلب حقه». قالت له زوجته: «هل آذاك بكلام؟» قال: «لا ولم يرضَ أن يحاسبني ويقول لي: حتى يأتيك الخير». قالت: «فإذا طالبك قل له: حتى يأتي الخير الذي نرتجيه أنا وأنت». فقال لها: «متى يجيء الخير الذي نرتجيه؟» قالت له: «الله كريم». قال: «صدقتِ».

حكاية عبد الله البري الصياد مع عبد الله البحري

ثم حمل شبكته وتوجه إلى البحر وهو يقول: «يا رب ارزقني ولو بسمكة واحدة حتى أهديها إلى الخباز». ثم رمى الشبكة في البحر ثم سحبها فوجدها ثقيلة. فما زال يعالج فيها حتى تعب تعبًا شديدًا. فلما أخرجها رأى فيها حمارًا ميتًا منفوخًا ورائحته كريهة فسئمت نفسه. ثم خلصه من الشبكة وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ما بقي لي رزق في البحر دعيني أترك هذه الصنعة، وهي تقول لي: الله كريم سيأتيك الخير، فهل هذا الحمار الميت هو الخير؟».

ثم إنه حصل له غم شديد وتوجه إلى مكان آخر ليبعد عن رائحة الحمار وأخذ الشبكة ورماها وصبر عليها ساعة زمانية، ثم جذبها فرآها ثقيلة. فلم يزل يعالج فيها حتى خرج الدم من كفيه. فلما أخرج الشبكة رأى فيها آدميًا فظن أنه عفريت من عفاريت السيد سليمان الذين كانوا يحبسهم في قماقم النحاس ويرميهم في البحر فلما انكسر القمقم من طول السنين خرج منه ذلك العفريت وطلع في الشبكة. فهرب منه وصار يقول: «الأمان يا عفريت سليمان».

فصاح عليه الآدمي من داخل الشبكة وقال: «تعال يا صياد لا تهرب مني فإني آدمي مثلك فخلصني لتنال أجري».

فلما سمع كلامه الصياد اطمأن قلبه وجاءه وقال له: «أما أنت عفريت من الجن؟» قال: «لا، إنما أنا إنسي مؤمن بالله ورسوله». قال له: «من رماك في البحر؟». قال له: «أنا من أولاد البحر كنت دائرًا فرميت عليّ الشبكة، ونحن أقوام مطيعون لأحكام الله ونشفق على خلق الله تعالى، ولو أني أخاف وأخشى أن أكون من العاصين لقطعت شبكتك، ولكن رضيت بما قدره الله عليّ، وأنت إذا خلصتني تصير مالكًا لي وأنا أصير أسيرك، فهل لك أن تعتقني ابتغاء وجه الله تعالى وتعاهدني وتبقى صاحبي أجيئك كل يوم في هذا المكان وأنت تأتيني وتجيء لي معك بهدية من ثمار البر، فإن عندكم عنبًا وتينًا وبطيخًا ورمانًا وغير ذلك، كل شيء تجيء به إلي مقبول منك، ونحن عندنا مرجان ولؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وجواهر، فأنا أملأ لك المشنة التي تجيء لي فيها بالفاكهة معادن من جواهر البحر.

فما تقول يا أخي في هذا الكلام؟» فقال له الصياد: «الفاتحة بيني وبينك على هذا الكلام». فقرأ كل منهما الفاتحة وخلصه من الشبكة.

ثم قال له الصياد: «ما اسمك؟» قال: «اسمي عبد الله البحري، فإذا أتيت إلى هذا المكان ولم ترني فنادِ وقل: أين أنت يا عبد الله يا بحري، فأكون عندك في الحال وأنت ما اسمك؟» فقال الصياد: «اسمي عبد الله» قال: أنت عبد الله البري وأنا عبد الله البحري فقف هنا حتى أروح وآتيك بهدية».

فقال له «سمعًا وطاعة». فراح عبد الله في البحر. فعند ذلك ندم عبد الله البري لكونه خلصه من الشبكة وقال في نفسه: «من أين أعرف أنه يرجع إليّ وإنما ضحك عليّ حتى خلصته ولو أبقيته كنت أفرّج عليه الناس في المدينة وآخذ عليه الدراهم وأدخل به بيوت الأكابر».

ثم إنه صار يتندم على إطلاقه ويقول لنفسه: «راح صيدك من يدك». فبينما هو يتأسف على خلاصه من يده وإذا بعبد الله البحري رجع إليه ويداه مملوءتان لؤلؤًا ومرجانًا وزمردًا وياقوتًا وجواهر وقال له: «خذ يا أخي ولا تؤاخذني فإنه ما عندي مشنة لأملأها لك».

فعند ذلك فرح عبد الله البري وأخذ منه الجواهر وقال له: «كل يوم تأتي إلى هذا المكان قبل طلوع الشمس» ثم ودّعه وانصرف ودخل البحر.

وأما الصياد فإنه دخل المدينة وهو فرحان ولم يزل ماشياً حتى وصل إلى فرن الخباز وقال له: «يا أخي قد أتانا الخير فحاسبني». قال له: «ما يحتاج إلى حساب إن كان معك شيء فأعطني وإن لم يكن معك شيء فخذ عيشك ومصروفك ورح إلى أن يأتيك الخير». فقال له: «يا صاحبي قد أتاني الخير من فيض الله وقد بقي لك عندي جملة كثيرة ولكن خذ هذا».

وقبض له قبضة لؤلؤ ومرجان وياقوت وجواهر، وكانت تلك القبضة نصف ما معه، فأعطاها للخباز وقال له: «أعطني شيئاً من المعاملة أصرفه في هذا اليوم حتى أبيع هذه المعادن».

فأعطاه كل ما كان تحت يده من الدراهم وجميع ما في المشنة التي كانت عنده من الخبز وفرح الخباز بتلك المعادن وقال للصياد: «أنا عبدك وخدّامك». وحمل جميع العيش الذي عنده على رأسه ومشى خلفه إلى البيت.

ثم إن الخباز أعطى العيش لزوجته وأولاده، وراح إلى السوق وجاء باللحم والخضر وسائر أصناف الفاكهة وترك الفرن وأقام طول ذلك اليوم وهو يتعاطى خدمة عبد الله البري ويقضي له مصالحه.

فقال له الصياد: «يا أخي أتعبت نفسك». قال له الخباز: «هذا واجب عليَّ لأني صرت خدّامك وإحسانك قد غمرني». فقال له: «أنت صاحب الإحسان عليَّ في الضيق والغلاء». وبات معه تلك الليلة على أكل طيب. ثم إن الخباز صار صديقاً للصياد. وأخبر الصياد زوجته بوقعته مع عبد الله البحري ففرحت وقالت له: «اكتم سرَّك لئلا تتسلّط عليك الحكام».

فقال لها: «إن كتمت سري عن جميع الناس فلا أكتمه عن الخباز». ثم إنه أصبح في ثاني يوم كان قد ملأ مشنة فاكهة من سائر الأصناف في وقت المساء، ثم حملها قبل الشمس وتوجه إلى البحر وحطّها على جنب الشاطئ وقال: «أين أنت يا عبد الله البحري؟» وإذا به يقول له «لبيك».

وخرج إليه. فقدم له الفاكهة، فحملها ونزل بها وغطس في البحر وغاب ساعة زمانية. ثم خرج ومعه المشنة ملآنة من المعادن والجواهر. فحملها عبد الله البري على رأسه وذهب بها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية عبد الله الصياد مع شيخ السوق

قالت شهرزاد: فلما وصل إلى فرن الخباز قال له: «يا سيدي قد خبزت لك أربعين كف شريك وأرسلتها إلى بيتك وها أنا أخبز العيش الخاص، فمتى خلص أوصله إلى البيت وأروح لأجيء لك بالخضر واللحم». فقبض له من المشنة ثلاث قبضات وأعطاه إياها وتوجه إلى البيت وحط المشنة وأخذ من كل صنف من أصناف الجواهر جوهرة نفيسة، ثم ذهب إلى سوق الجواهر ووقف على دكان شيخ السوق وقال: «اشتر مني هذه الجواهر». فقال له: «أرني إياها». فأراه إياها. فقال له: «هل عندك غير هذا؟». قال: «عندي مشنة ممتلئة». قال له: «أين بيتك؟» قال له «في الحارة الفلانية» فأخذ منه الجواهر وقال لأتباعه: «أمسكوه فإنه هو الحرامي الذي سرق مصالح زوجة السلطان». ثم أمرهم أن يضربوه فضربوه وكتّفوه وقام الشيخ هو وجميع أهل سوق الجواهر وصاروا يقولون: «مسكنا الحرامي». وبعضهم يقول: «ما سرق متاع فلان إلا هذا الخبيث». وبعضهم يقول: «ما سرق جميع ما في بيت فلان إلا هو».

وقد جرى كل ذلك والصياد ساكت ولم يرد على أحد منهم جواباً ولم يبد له خطاباً حتى أوقفوه قدّام الملك. فقال الشيخ: «يا ملك الزمان لما سرق عقد الملكة أرسلت أعلمتنا

وطلبت منا وقوع الغريم فاجتهدت أنا من دون الناس وأوقعت لك الغريم وها هو بين يديك وهذه الجواهر خلّصناها من يده». فقال الملك للطواشي: «خذ هذه المعادن وأرها للملكة وقل لها: «هل هذا متاعك الذي ضاع من عندك؟» فأخذها الطواشي ودخل بها قدام الملكة، فلما رآتها تعجبت منها وأرسلت تقول للملك: «إني رأيت عقدي في مكاني وهذا ما هو متاعي ولكن هذه الجواهر أحسن من جواهر عقدي فلا تظلم الرجل وإن كان يبيعها فاشترها منه لبنتك أم السعود لنضمها لها في عقد».

فلما رجع الطواشي وأخبر الملك بما قالته الملكة لعن شيخ الجواهرية هو وجماعته لعنة عاد وثمود فقالوا: «يا ملك الزمان إنا كنا نعرف أن الرجل صياد فقير فاستكثرنا ذلك عليه وقد ظننا أنه سرقها».

فقال: «يا قبحاء أتستكثرون النعمة على مؤمن، فلأي شيء لم تسألوه، ربما رزقه الله تعالى بها من حيث لا يحتسب فكيف تجعلونه لصاً وتفضحونه بين العالم، اخرجوا لا بارك الله فيكم». فخرجوا وهم خائفون.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية عبد الله الصياد مع ملك المدينة

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملك فإنه قال: «يا رجل بارك الله لك فيما أنعم به عليك وعليك الأمان، ولكن أخبرني بالصحيح من أين لك هذه الجواهر؟ فإني ملك ولم يوجد عندي مثلها؟» فقال: يا ملك الزمان أنا عندي مشنة ممتلئة منها وهو أن الأمر كذا وكذا». وأخبره بصحبته لعبد الله البحري وقال له: «إنه قد صار بيني وبينه عهد على أنني كل يوم أملأ له المشنة فاكهة وهو يملأها لي من هذا الجواهر». فقال له: «يا رجل هذا نصيبك ولكن المال يحتاج إلى الجاه فأنا ادفع عنك تسلط الناس عليك في هذه الأيام، ولكن ربما عزلت أو مت وتولى غيري فإنه يقتلك من أجل حب الدنيا والطمع، فمرادي أن أزوجك ابنتي وأجعلك وزيري وأوصي لك بالملك من بعدي حتى لا يطمع فيك أحد بعد موتي».

ثم إن الملك قال: «خذوا الرجل وأدخلوه الحمام». فأخذوه وغسّلوا جسده وألبسوه ثياباً من ثياب الملوك وأخرجوه قدّام الملك فجعله وزيراً له. وأرسل السعاة وأصحاب النوبة وجميع نساء الأكابر إلى بيته وألبسوا زوجته ملابس الملوك هي وأولادها وأركبوها في تختروان ومشت قدّامها جميع نساء الأكابر والعساكر والسعاة وأصحاب النوبة وأتوا بها إلى بيت الملك والطفل الصغير في حضنها، وأدخلوا أولادها الكبار على الملك فأكرمهم وأخذهم في حجره وأجلسهم في جانبه وهم تسعة أولاد ذكور. وكان الملك معدوم الذرية ما رزق غير تلك البنت التي اسمها أم السعود، وأما الملكة فإنها أكرمت زوجة عبد الله البري وأنعمت عليها وجعلتها وزيرة عندها. وأمر الملك بكتب كتاب عبد الله البري على ابنته وجعل مهرها جميع ما كان عنده من الجواهر والمعادن وفتحوا باب الفرح.

وأمر الملك أن ينادي بزينة المدينة من أجل فرح ابنته، وفي اليوم الثاني بعد العرس طل

الملك من الشباك فرأى عبد الله حاملاً على رأسه مشنة ممتلئة فاكهة. فقال له: «ما هذا الذي معك يا نسيبي وإلى أين تذهب؟» فقال: «إلى صاحبي عبد الله البحري». فقال له: «يا نسيبي ما هذا وقت الرواح إلى صاحبك». فقال: «أخاف أن أخلف معه الميعاد فيعدني كذاباً ويقول لي: إن الدنيا ألهتك عني». قال: «صدقت رح إلى صاحبك أعانك الله». فمشى في البلد وهو متوجه إلى صاحبه وكانت الناس قد عرفته فصار يسمع الناس يقولون: «هذا نسيب الملك رائح يبدل الأثمار بالجواهر». والذي يكون جاهلاً به لا يعرفه يقول: «يا رجل بكم الرطل تعال بعني». فيقول له: «انتظرني حتى أرجع إليك». ثم راح واجتمع بعبد الله البحري وأعطاه الفاكهة وأبدلها بالجواهر.

ولم يزل على هذه الحالة وفي كل يوم يمر على فرن الخباز فيراه مقفلاً، ودام على ذلك مدة عشرة أيام. فلما لم ير الخباز ورأى فرنه مقفلاً قال في نفسه: «إن هذا شيء عجيب يا ترى أين راح الخباز؟»، ثم إنه سأل جاره فقال له: «يا أخي، أين جارك الخباز فما فعل الله به؟» قال: «يا سيدي إنه مريض لا يخرج من بيته». قال له: «أين بيته؟» قال له: «في الحارة الفلانية». فعمد إليه وسأل عنه. فلما طرق الباب طل الخباز من الطاقة فرأى صاحبه الصياد وعلى رأسه مشنة ممتلئة. فنزل إليه وفتح له الباب، فدخل ورمى روحه عليه وعانقه وبكى وقال له: «كيف حالك يا صاحبي فإني كل يوم أمر على الفرن فأراه مقفلاً، ثم سألت جارك فأخبرني أنك مريض فسألت عن البيت لأجل أن أراك». فقال له الخباز: «جزاك الله عني كل خير فليس بي مرض وإنما بلغني أن الملك أخذك لأن بعض الناس كذب عليك وادَّعى أنك حرامي فخفت أنا وقفلت الفرن واختفيت». قال: «صدقت». ثم أنه أخبره بما وقع له مع الملك وشيخ سوق الجواهر.

ثم إنه قال له: «إن الملك قد زوَّجني ابنته وجعلني وزيره». ثم قال له: «خذ ما في هذه المشنة نصيبك ولا تخف». ثم خرج من عنده بعد أن أذهب عنه الخوف وراح إلى الملك بالمشنة فارغة. فقال له الملك: «يا نسيبي كأنك ما اجتمعت برفيقك عبد الله البحري في هذا اليوم؟» فقال: «رحت له والذي أعطاه لي أعطيته إلى صاحبي الخباز فإن له علي جميلاً». قال: «من يكون الخباز؟» قال: «إنه رجل صاحب معروف جرى لي معه في أيام الفقر ما هو كذا وكذا ولم يهملني يوماً ولا كسر خاطري». قال الملك: «ما اسمه؟». قال: اسمه عبد الله الخباز وأنا اسمي عبد الله البري وصاحبي اسمه عبد الله البحري». قال الملك: «وأنا اسمي عبد الله وعبيد الله كلهم إخوان، فأرسل إلى صاحبك الخباز هاته لنجعله وزير ميسرة». فأرسل إليه، فلما حضر بين يدي الملك ألبسه بدلة وزير الميسرة، وجعل عبد الله البري وزير الميمنة.

واستمر عبد الله على تلك الحالة سنة كاملة وهو في كل يوم يأخذ المشنة ممتلئة فاكهة ويرجع بها ممتلئة جواهر ومعادن، ولما فرغت الفواكة من البساتين صار يأخذ زبيباً ولوزاً وبندقاً وجوزاً وتيناً وغير ذلك وجميع ما يأخذ له يقبله منه ويرد له المشنة ممتلئة جواهر على عادته. فاتفق يوماً من الأيام أنه أخذ المشنة ممتلئة نقلا على عادته فأخذها منه. وجلس عبد الله البري على الشاطئ وجلس عبد الله البحري في الماء قرب الشاطئ وصارا يتحدثان مع بعضهما ويتداولان الكلام بينهما حتى أنجرا إلى ذكر المقابر. فقال البحري: «يا أخي أنهم يقولون إن

النبي ﷺ مدفون عندكم في البر، فهل تعرف قبره؟» قال: «نعم» قال له: «في أي مكان هو؟» قال له: «في مدينة يقال لها طيبة». قال: «وهل يزوره الناس أهل البر؟» قال: «نعم». قال: «هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبي الكريم الرحيم الذي من زاره استوجب شفاعته، وهل أنت زرته يا أخي؟» فقال: «لا لأني كنت فقيراً ولا أجد ما أنفقه في الطريق وما استغنيت إلا من حين عرفتك وتصدقت عليّ بهذا الخير، ولكن لقد وجبت عليّ زيارته بعد أن أحج بيت الله الحرام وما منعني من ذلك إلا محبتك فإني لا أقدر أن أفارقك يوماً واحداً».

فقال له: «وهل تقدّم محبتي على زيارة قبر محمد ﷺ الذي يشفع فيك يوم العرض على الله وينجيك من النار وتدخل الجنة بشفاعته؟ وهل من أجل حب الدنيا تترك زيارة قبر نبيك محمد ﷺ؟» فقال: «لا والله إن زيارته مقدمة عندي على كل شيء ولكن أريد منك إجازة أن أزوره في هذا العام». قال: «أعطيتك الإجازة بزيارته، وإذا وقفت على قبره فاقرئه مني السلام، وعندي أمانة فادخل معي البحر حتى آخذك إلى مدينتي، وأدخلك بيتي وأضيّفك وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر النبي ﷺ وقل له: «يا رسول الله، إن عبد الله يقرئك السلام، وقد أهدى إليك هذه الهدية وهو يرجو منك الشفاعة من النار». فقال له عبد الله البري: «يا أخي أنت خلقت في الماء ومسكنك الماء وهو لا يضرك فهل إذا خرجت منه إلى البر يحصل لك ضرر؟». قال: «نعم ينشف بدني وتهب علي نسمات البر فأموت». قال له: «وأنا كذلك خلقت في البر ومسكني البر فإذا دخلت البحر يدخل الماء في جوفي ويخنقني فأموت». قال له: «لا تخف من ذلك فإني آتيك بدهن تدهن به جسمك فلا يضرك الماء، ولو كنت تقضي بقية عمرك وأنت دائر في البحر وتنام وتقوم في البحر ولا يضرك شيء». قال: «إذا كان الأمر كذلك فلا بأس هات لي الدهان حتى أجربه». قال: «وهو كذلك».

ثم أخذ المشنة ونزل في البحر وغاب قليلاً. ثم رجع ومعه شحم مثل شحم البقر لونه أصفر كلون الذهب ورائحته زكية، فقال له عبد الله البري: «ما هذا يا أخي؟» فقال له: «هذا شحم كبد صنف من أصناف السمك يقال له الدندان وهو أعظم أصناف السمك خلقة وهو أشد أعدائنا علينا وصورته أكبر صورة توجد عندكم من دواب البر ولو رأى الجمل أو الفيل لابتلعه». فقال له: «يا أخي وما يأكل هذا المشئوم؟». فقال له: «يأكل من دواب البحر، أما سمعت أنه يقال في المثل: مثل سمك البحر القوي يأكل الضعيف؟» قال: «صدقت، ولكن هل عندكم من هذا الدندان في البحر كثير؟» قال: «عندنا شيء لا يحصيه إلا الله تعالى». قال عبد الله البري: «إني أخاف إذا نزلت معك أن يصادفني هذا النوع فيأكلني». قال له عبد الله البحري: «لا تخف منه فإنه متى رآك أنك ابن آدم فيخاف منك ويهرب، ولا يخاف من أحد في البر مثل ما يخاف من ابن آدم لأنه متى أكل ابن آدم مات من وقته وساعته فإن شحم ابن آدم سم قاتل لهذا النوع، ونحن ما نجمع شحم كبده إلا من أجل ابن آدم إذا وقع في البحر غريقاً فإنه تتغير صورته وربما تمزق لحمه فيأكله الدندان لظنه أنه حيوان من حيوانات البحر فيموت فنعثر به ميتاً فنأخذ شحم كبده وندهن به أجسامنا وندور في البحر، فأي مكان كان فيه ابن آدم إذا كان فيه مائة أو مائتان أو ألف أو أكثر من ذلك النوع وسمعوا صيحة ابن آدم فإن الجميع يموتون مرة واحدة ولا يقدر أحد منهم أن ينتقل من مكانه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية سفر عبد الله البري مع عبد الله البحري في البحر ورؤيته عجائب البحر

قالت شهرزاد: فقال عبد الله البري: «توكلت على الله» ثم خلع ما كان عليه من الملبوس وحفر في شاطئ البحر ودفن ثيابه وبعد أن دهن جسمه من فوقه إلى قدمه بهذا الدهن. ثم نزل وغطس وفتح عينيه فلم يضره الماء فمشى يميناً وشمالاً، ثم جعل إن شاء يعلو وإن شاء ينزل إلى القرار ورأى ماء البحر مخيماً عليه مثل الخيمة ولا يضره. فقال له عبد الله البحري: «ماذا ترى يا أخي؟» قال له: «أرى خيراً يا أخي وقد صدقت فيما قلت فإن الماء ما ضرني». قال له: «اتبعني» فتبعه وما زالا يمشيان من مكان إلى مكان وهو يري أمامه وعن يمينه وعن شماله جبالاً من الماء فصار يتفرج عليها وعلى أصناف السمك وهي تلعب في البحر البعض كبير والبعض صغير وفيه شيء يشبه الجاموس وشيء يشبه البقر وشيء يشبه الكلاب وشيء يشبه الآدميين وكل نوع قربا منه يهرب حين يرى عبد الله البري. فقال للبحري: «يا أخي مالي أرى كل نوع قربنا منه يهرب منا؟» فقال له: «مخافة منك لأن جميع ما خلقه الله يخاف من ابن آدم».

وما زال عبد الله يتفرج على عجائب البحر حتى وصلا إلى جبل عال فمشى عبد الله البري بجانب ذلك الجبل فلم يشعر إلا وصيحة عظيمة، فالتفت فرأى شيئاً أسود منحدراً عليه من ذلك الجبل وهو قدر الجمل أو أكبر وصار يصيح. فقال له: «ما هذا يا أخي؟» قال له البحري: «هذا الدندان فإنه نازل في طلبي مراده أن يأكلني فصح عليه يا أخي قبل أن يصل إلينا فيخطفني ويأكلني». فصاح عليه عبد الله البري وإذا به وقع ميتاً. فلما رآه قال: «سبحان الله وبحمده أنا لاضربته بسيف ولا بسكين كيف هذه العظمة التي فيها هذا المخلوق ولم يحمل صيحتي، بل مات». فقال له عبد الله البحري: «يا أخي لو كان من هذا النوع ألف أو ألفان لم يحتملوا صيحة ابن آدم».

ثم مشيا إلى مدينة فرأيا أهلها جميعاً بنات وليس فيهن ذكور. فقال: «يا أخي ما هذه المدينة وما هذه البنات؟» فقال له: «هذه مدينة البنات لأن أهلها من بنات البحر، فإن ملك البحر ينفيهن إلى هذا المدينة وكل من غضب عليها من بنات البحر يرسلها إلى هذا المدينة ولا تقدر أن تخرج منها، فإن خرجت منها كل من رآها من دواب البحر يأكلها وأما غير هذا المدينة ففيه رجال وبنات». قال: «هل في البحر مدن غير هذه المدينة؟» قال: «كثير». قال: «وهل عليكم سلطان في البحر؟» قال «نعم». قال له: «يا أخي إني رأيت في البحر عجائب كثيرة». قال له: «وأي شيء رأيت من العجائب أما سمعت صاحب المثل يقول: عجائب البحر أكثر من عجائب البر». قال: «صدقت».

ثم إنه صار يتفرج على هذه البنات فرأى لهن وجوهًا مثل الأقمار وشعوراً مثل شعور النساء ولكن لهن أياد وأرجل في بطونهن ولهن أذناب مثل أذناب السمك. ثم إنه فرجه على أهل تلك المدينة وخرج به ومشى قدامه إلى مدينة أخرى فرآها ممتلئة إناثاً وذكوراً صورهم مثل صور البنات ولهم أذناب ولكن ليس عندهم بيع وشراء مثل أهل البر. فقال له: «يا أخي على أي دين أنتم؟» قال له: «ليس كلنا ملة واحدة فينا مسلمون موحدون وفينا نصارى ويهود وغير ذلك، والذي يتزوج منا خصوص المسلمين». فقال: «أنتم ما عندكم بيع ولا شراء فأي شيء يكون مهر نسائكم هل يعطونهن جواهر ومعادن؟». قال له: «إن الجواهر أحجار ليس لها

عندنا قيمة وإنما الذي يريد أن يتزوج يجعلون عليه معلوماً من أصناف السمك يصطاده قدر ألف أو ألفين أو أكثر أو أقل بحسب ما يحصل عليه الاتفاق بينه وبين أبي الزوجة، فلما يحضر المطلوب يجتمع أهل العريس وأهل العروسة ويأكلون الوليمة ثم يدخلونه على زوجته وبعد ذلك يصطاد من السمك ويطعمها، وإذا عجز تصطاد هي وتطعمه».

قال: «وإن زنى بعضهم ببعض كيف يكون الحال؟». قال: «إن الذي يثبت عليه هذا الأمر إن كان أنثى ينفونها إلى مدينة البنات، فإذا كانت حاملاً من الزني فإنهم يتركونها إلى أن تلد، فإن ولدت بنتاً ينفونها معها وتسمى زانية بنت زانية، ولم تزل بنتاً حتى تموت، وإن كان المولود ذكراً فإنهم يأخذونه إلى الملك سلطان البحر فيقتله». فتعجب عبد الله البري من ذلك. ثم إن عبد الله البحري أخذه إلى مدينة أخرى وبعدها أخرى وهكذا. وما زال يفرجه حتى فرَّجه على ثمانين مدينة وكل مدينة يرى أهلها لا يشبهون أهل غيرها من المدن. فقال له: «يا أخي هل بقى في البحر مدائن؟» قال: «وأي شيء رأيت من مدائن البحر وعجائبه وحق النبي الكريم الرؤوف الرحيم لو كنت فرَّجتك ألف عام في كل يوم على ألف مدينة وأريتك في كل مدينة ألف أعجوبة ما أريتك قيراطًا من أربعة وعشرين قيراطًا من مدائن البحر وعجائبه».

فقال له: «يا أخي حيث كان الأمر كذلك يكفيني ما تفرَّجت عليه فإني سئمت من أكل السمك ومضى في صحبتك ثمانون يوماً وأنت لا تطعمني صباحاً ومساءً إلا سمكاً طريا لا مشويا ولا مطبوخاً» فقال له: أي شيء يكون المطبوخ والمشوي؟» قال له عبد الله البري: «نحن نشوي السمك في النار ونطبخه ونجعله أصنافاً كثيرة». فقال له البحري: « من أين تأتي لنا النار فنحن لا نعرف المشوي ولا المطبوخ ولا غير ذلك؟» فقال له البري: «نحن نقليه بالزيت الشيرج». فقال له البحري: «ومن أين لنا الزيت ونحن في هذا البحر لا نعرف شيئًا مما ذكرته؟» قال: «صدقت، ولكن يا أخي قد فرَّجتني على مدائن كثيرة ولم تفرِّجني على مدينتك». قال له: «أما مدينتي فإننا فتناها بمسافة وهي قريبة من البر الذي أتينا منه وإنما تركت مدينتي وجئت بك إلى هنا لأني قصدت أن أفرِّجك على مدائن البحر». قال له: «يكفيني ما تفرجت عليه ومرادي أن تفرجني على مدينتك». قال له: «وهو كذلك». ثم رجع به إلى مدينته.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية وصول عبد الله البري إلى بيت عبد الله البحري

قالت شهرزاد: فلما وصل إليها قال له: «هذه مدينتي». فرآها مدينة صغيرة عن المدائن التي تفرج عليها. ثم دخل المدينة ومعه عبد الله البحري إلى أن وصل إلى مغارة قال له: «هذا بيتي وكل بيوت هذه المدينة كذلك مغارات كبار وصغار في الجبال، وكذلك جميع مدائن البحر على هذه الصفة، فإن كل من أراد أن يصنع له بيتاً يروح إلى الملك يقول له: مرادي أن أتخذ بيتاً في المكان الفلاني، فيرسل الملك معه طائفة من السمك يسمون النقارين ويجعل كراهم شيئا معلوماً من السمك ولهم مناقير تفتت الحجر الجلمود فيأتون إلى الجبل الذي أراده صاحب البيت وينقرون فيه البيت وصاحب البيت يصطاد لهم من السمك ويلقمهم حتى تتم المغارة فيذهبون، وصاحب البيت يسكنه، وجميع أهل البحر علي هذه الحالة لا يتعاملون مع بعضهم ولا يخدمون بعضهم إلا بالسمك وكلهم سمك».

ثم قال له: «ادخل» فدخل. فقال عبد الله البحري: «يا بنتي»، وإذا ببنته أقبلت عليه ولها وجه مدور مثل القمر ولها شعر طويل وطرف كحيل وخصر نحيل ولها ذنب. فلما رأت عبد الله البري مع أبيها قالت له: «يا أبي ما هذا الأزعر الذي جئت به معك؟» فقال لها: «يا بنتي هذا صاحبي البري الذي كنت أجيء لك من عنده بالفاكهة البرية، تعالي سلّمي عليه». فتقدمت وسلّمت عليه بلسان فصيح وكلام بليغ. فقال لها أبوها: «هاتي زادًا لضيفنا الذي حلت علينا بقدومه البركة». فجاءت له بسمكتين كبيرتين كل واحدة منهما مثل الخروف. فقال له: «كل». فأكل غصباً عنه من الجوع لأنه سئم من أكل السمك وليس عندهم شيء غير السمك، فما مضى حصة إلا وامرأة عبد الله البحري أقبلت وهي جميلة الصورة ومعها ولدان كل ولد في يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيارة.

فلما رأت عبد الله البري مع زوجها قالت: «أي شيء هذا الأزعر؟» وتقدم الولدان وأختهما وأمهم وصاروا ينظرون إلى عبد الله البري ويقولون: «أي والله إنه أزعر». ويضحكون عليه. فقال له عبد الله البري: «يا أخي هل أنت جئت بي لتجعلني سخرية لأولادك وزوجتك؟» فقال له عبد الله البحري: «العفو يا أخي فإن الذي لا ذنب له غير موجود عندنا، وإذا وجد واحد من غير ذنب يأخذه السلطان ليضحك عليه، ولكن يا أخي لا تؤاخذ هؤلاء الأولاد الصغار والمرأة فإن عقولهم ناقصة». ثم صرخ عبد الله البحري على عياله وقال لهم: «اسكتوا» فخافوا وسكتوا، وجعل يأخذ بخاطره.

حكاية ملاقاة عبد الله البري مع ملك البحر وضيافته عنده

فبينما هو يتحدث معه وإذا بعشرة أشخاص كبار شداد غلاظ أقبلوا عليه وقالوا: «يا عبد الله إنه بلغ الملك أن عندك أزعر من زعر البر». فقال لهم: «نعم وهو هذا الرجل فإنه صاحبي أتاني ضيفاً ومرادي أن أرجعه إلى البر». قالوا له: «إننا لا نقدر أن نروح إلا به، فإن كان مرادك كلامًا فقم وخذه وأحضر به قدام الملك والذي تقوله لنا قله للملك».

فقال عبد الله البحري يا أخي العذر واضح ولا يمكننا مخالفة الملك، ولكن امض معي إلى الملك وأنا أسعى في خلاصك منه إن شاء الله، ولا تخف فإنه متى رآك عرف أنك من أولاد البر ومتى علم أنك بري فلابد أن يكرمك ويردك إلى البر». فقال عبد الله البري: «الرأي رأيك فأنا أتوكل على الله وأمشي معك». ثم أخذه البحري ومضى به إلى أن وصل إلى الملك.

فلما رآه الملك ضحك عليه وقال: «مرحبًا بالأزعر». وصار كل من كان حول الملك يضحك عليه ويقول: «أي والله إنه أزعر». فتقدم عبد الله البحري إلى الملك وأخبره بأحواله وقال له: «هذا من أولاد البر وصاحبي وهو لا يعيش بيننا لأنه لا يحب أكل السمك إلا مقليًا أو مطبوخًا، ولا مراء أنك تأذن لي في أن أرده إلى البر». فقال له الملك: «حيث كان الأمر كذلك وإنه لا يعيش عندنا فقد أذنت لك في أن ترده إلى مكانه بعد الضيافة».

ثم إن الملك قال: «هاتوا الضيافة». فأتوا له بسمك أشكالاً وألواناً. فأكل امتثالاً لأمر الملك. ثم قال له الملك: «تمن علي». فقال عبد الله البري: «أتمنى عليك أن تعطيني جواهر». فقال: «خذوه إلى دار الجواهر ودعوه ينقي ما يحتاج إليه». فأخذه صاحبه إلى دار الجواهر ونقى على قدر ما أراد. ثم رجع إلى مدينته، وأخرج له صُرَّة وقال له: «خذ هذه أمانة أوصلها إلى قبر النبي ﷺ».

فأخذها وهو لا يعلم ما فيها. ثم خرج معه ليوصله إلى البر فرأى في طريقه غناء وفرحاً وسماطًا ممدوداً من السمك والناس يأكلون ويغنون وهم في فرح عظيم فقال عبد الله البري لعبد الله البحري: «ما لهؤلاء في فرح عظيم هل عندهم عرس؟» فقال البحري: «ليس عندهم عرس وإنما مات عندهم ميت». فقال له: «هل أنتم إذا مات عندكم ميت تفرحون له وتغنون وتأكلون؟» قال «نعم، وأنتم يا أهل البر ماذا تفعلون؟» قال البري: «إذا مات عندنا ميت نحزن عليه ونبكي والنساء يلطمن وجوههن ويشققن جيوبهن حزنًا على من مات». فحملق عبد الله البحري عينيه في عبد الله البري وقال له: «هات الأمانة» فأعطاها له.

ثم إن البحري أخرجه إلى البر وقال له: «قد قطعت صحبتك وودك فبعد هذا اليوم لا تراني ولا أراك».

فقال له: «لماذا هذا الكلام؟» فقال له: «أما أنتم يا أهل البر أمانة الله؟» فقال البري: «نعم». قال: «كيف لا يهون عليكم أن الله يأخذ أمانته بل تبكون عليها وكيف أعطيك أمانة النبي ﷺ، وأنتم إذا أتاكم المولود تفرحون به مع أن الله يضع فيه الروح أمانة، فإذا أخذها كيف تصعب عليكم وتبكون وتحزنون فما لنا في رفقتكم حاجة». ثم تركه وراح إلى البحر.

ثم إن عبد الله البري لبس حوائجه وأخذ جواهره وتوجه إلى الملك. فتلقاه باشتياق وفرح به وقال له: «كيف أنت يا نسيبي وما سبب غيابك عني هذه المدة؟» فأخبره بقصته وما رآه من العجائب في البحر. فتعجب الملك من ذلك. ثم أخبره بما قاله عبد الله البحري.

فقال له: «أنت الذي أخطأت في إخبارك إياه بهذا الخبر». ثم إنه استمر مدة من الزمان وهو يروح إلى جانب البحر ويصيح على عبد الله البحري فلم يرد عليه ولم يأت إليه، فقطع عبد الله البري الرجاء منه وأقام هو والملك نسيبه وأهلهما في أسر حال، وحسن أعمال، حتى أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وماتوا جميعاً. فسبحان الحي الذي لا يموت، ذو الملك والملكوت، وهو على كل شيء قدير، وبعباده لطيف خبير.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية الخليفة هارون الرشيد مع أبي الحسن العماني

قالت شهرزاد: ومما يحكى أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد أرق ذات ليلة أرقًا شديداً. فاستدعى مسروراً فحضر. فقال: «آتني بجعفر بسرعة». فمضى وأحضره. فلما وقف بين يديه قال: «يا جعفر إني قد اعتراني في هذه الليلة أرق فمنع عني النوم ولا أعلم ما يزيله عني». قال: «يا أمير المؤمنين قد قال الحكماء: دخول الحمام واستعمال الغناء يزيل الهم والفكر». فقال: «يا جعفر إني فعلت هذا كله فلم يزل عني شيئاً، وإنما أقسم بآبائي الطاهرين إن لم تتسبب فيما يزيل عني ذلك لأضربن عنقك». قال: «يا أمير المؤمنين هل تفعل ما أشير به عليك؟» قال: «وما تشير به علي؟» قال: «أن تنزل بنا في زورق ونتحدر به في بحر الدجلة مع الماء إلى محل يسمى قرن الصراط لعلنا نسمع ما لم نسمع أو ننظر ما لم ننظر فإنه قد قيل: تفريج الهم بواحد من ثلاثة أمور: أن يرى الإنسان ما لم يكن رآه أو يسمع ما لم يكن سمعه أو يطأ أرضاً لم يكن وطئها، فلعل ذلك يكون سبباً لزوال القلق عنك يا أمير المؤمنين».

فعند ذلك قام الرشيد من موضعه وصحبته جعفر وأخوه الفضل وإسحاق النديم وأبو نواس وأبو دلف ومسرور السياف ودخلوا حجرة الثياب ولبسوا كلهم ملابس التجار وتوجهوا إلى دجلة ونزلوا في زورق مزركش بالذهب وانحدروا مع الماء حتى وصلوا إلى الموضع الذي يريدونه. فسمعوا صوت جارية تغني على العود وتنشد:

أقول له وقد حضر العقار وقد غنى على الأيك الهزار
إلى كم ذا التواني عن سرور فق ما العمر إلا مستعار

فلما سمع الخليفة هذا الصوت قال: «يا جعفر ما أحسن هذا الصوت». قال جعفر: «يا مولانا ما طرق سمعي أطيب ولا أحسن من هذا الغناء، ولكن يا سيدي إن السماع من وراء جدار نصف سماع فكيف بالسماع من خلف ستر؟» فقال: «انهض بنا يا جعفر حتى نتطفل على صاحب هذه الدار لعلنا نرى المغنية عياناً». قال جعفر: «سمعاً وطاعة». فصعدوا من المركب واستأذنوا في الدخول، وإذا بشاب مليح المنظر عذب الكلام فصيح اللسان قد خرج إليهم وقال: «أهلاً وسهلاً يا سادتي المنعمين عليَّ ادخلوا بالرحب والسعة». فدخلوا وهو بين أيديهم. فرأوا الدار بأربعة أوجه وسقفها بالذهب وحيطانها منقوشة باللازورد وفيها إيوان به سدلة جميلة وعليها مائة جارية كأنهن أقمار، فصاح عليهن فنزلن عن أسرتهن. ثم التفت رب المنزل إلى جعفر وقال: «يا سيدي أنا ما أعرف منكم الجليل من الأجل، بسم الله ليتفضل منكم من هو أعلى في الصدر ويجلس إخوانه كل واحد في مرتبته».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فجلس كل واحد في منزلته وقام مسرور في الخدمة بين أيديهم. ثم قال لهم صاحب المنزل: «يا أضيافي عن أذنكم هل أحضر لكم شيئًا من المأكول؟» قالوا له «نعم». فأمر الجواري بإحضار الطعام، فأقبل أربع جوار مشدودات الأوساط بين أيديهن مائدة عليها من غرائب الألوان مما درج وطار وسبح في البحار من قطا وسماني وأفراخ وحمام، ومكتوب على حواشي السفرة من الأشعار ما يناسب المجلس. فأكلوا على قدر كفايتهم ثم غسلوا أيديهم. فقال الشاب: «يا سادتي إن كان لكم حاجة فأخبرونا بها حتى نتشرف بقضائها». قالوا: «نعم فإننا ما جئنا منزلك إلا لأجل صوت سمعناه من وراء حائط دارك فاشتهينا أن نسمعه ونعرف صاحبته، فإن رأيت أن تنعم علينا بذلك كان من مكارم أخلاقك ثم نعود من حيث جئنا». فقال: «مرحبا بكم». ثم التفت إلى جارية سوداء وقال: «أحضري سيدتك فلانة». فذهبت الجارية ثم جاءت ومعها كرسي فوضعته. ثم ذهبت ثانياً وأتت ومعها جارية كأنها البدر فجلست على الكرسي.

ثم إن الجارية السوداء ناولتها خرقة من أطلس فأخرجت منها عوداً مرصعاً بالجواهر واليواقيت وملاويه من الذهب فشدت أوتاره، وهي كما قال فيها وفي عودها الشاعر:

حضنته كالأم الشفيقة بابنها في حجرها وجلت عليه ملاويه
ما حركت يدها اليمين لجسه إلا وأصلحت اليسار ملاويه

ثم ضمت العود إلى صدرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها وجست أوتاره

فاستغاث كما يستغيث الصبي بأمه، ثم ضربت عليه وجعلت تنشد هذه الأبيات:

جاد الزمان بمن أحب فاعتبا ... ياصاحبي فادر كؤوسك واشربا
من خمرة ما مازجت قلب امرئ ... إلا وأصبح بالمسرة مطربا
قام النسيم بحملها في كأسها ... أرأيت بدر التسيم يحمل كوكبا
كم ليلة سامرت فيها بدرها ... من فوق دجلة قد أضاء الغيهبا
والبدر يجنح للغروب كأنما ... قد مد فوق الماء سيفا مذهبا

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديدًا وصاح كل من في الدار بالبكاء حتى كادوا أن يهلكونا وما منهم أحد إلا وغاب عن وجوده ومزق أثوابه ولطم علي وجهه لحسن غنائها. فقال الرشيد: «ما هذا بكاء من فقد أباه والله وإنما هو شجو من فقد محبوبه». وطرب الرشيد من غنائها وقال لإسحاق: «والله ما رأيت مثلها». فقال إسحاق: «يا سيدي إني لأعجب منها غاية العجب ولا أملك نفسي من الطرب». وكان الرشيد مع ذلك كله ينظر إلى صاحب الدار ويتأمل في محاسنه وظرف شمائله. فرأى في وجهه أثر اصفرار.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فالتفت إليه وقال له: «يا فتى». فقال: «لبيك يا سيدي». قال: «هل تعلم من نحن؟» قال: «لا» فقال له جعفر: «أتحب أن نخبرك عن كل واحد باسمه؟» فقال: «نعم». فقال جعفر: «هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين». وذكر له بقية أسماء الجماعة. وبعد ذلك قال الرشيد: «أشتهي أن تخبرني عن هذا الاصفرار الذي في وجهك هل هو مكتسب أو أصلي من حين ولادتك؟» قال: «يا أمير المؤمنين إن حديثي غريب، وأمري عجيب، لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر» قال: «أعلمني به لعل شفاءك يكون على يدي». قال: «يا أمير المؤمنين أرعني سمعك وأخل لي ذرعك. قال: «هات فحدثني فقد شوقتني إلى سماعه». فقال: «اعلم يا أمير المؤمنين أني رجل تاجر من تجار البحر وأصلي من مدينة عمان، وكان أبي تاجرًا كثير المال وكان له ثلاثون مركباً تعمل في البحر اجرتها في كل عام ثلاثون ألف دينار، وكان رجلاً كريماً وعلمني الخط وجميع ما يحتاج إليه الشخص.

فلما حضرته الوفاة دعاني وأوصاني بما جرت به العادة، ثم توفاه الله تعالى إلى رحمته، وأبقى الله أمير المؤمنين، كان لأبي شركاء يتجرون في ماله ويسافرون في البحر، فاتفق في بعض الأيام أني كنت قاعداً في منزلي مع جماعة من التجار إذا دخل علي غلام من غلماني وقال: «يا سيدي إن بالباب رجلاً يطلب الإذن في الدخول عليك». فأذنت له. فدخل وهو حامل على رأسه شيئا مغطى فوضعه بين يدي وكشفه. فإذا فيه فواكه بغير أوان ومُلَح وطرائف ليست في بلادنا. فشكرته على ذلك وأعطيته مائة دينار وانصرف شاكراً، ثم فرَّقت ذلك على كل من كان حاضراً من الأصحاب، ثم سألت التجار من أين هذا. قالوا: «إنه من البصرة». وأثنوا عليه. وصاروا يصفون حسن البصرة وأجمعوا على أنه ليس في البلاد أحسن من بغداد ومن أهلها، وصاروا يصفون بغداد وحسن أخلاق أهلها وطيب هوائها وحسن تركيبها. فاشتاقت نفسي إليها وتعلقت آمالي برؤيتها. فقمت وبعت العقارات والأملاك وبعت

المراكب بمائة ألف دينار وبعت العبيد والجواري وجمعت مالي فصار ألف ألف دينار غير الجواهر والمعادن. واكتريت مركباً وشحنته بأموالي وسائر متاعي وسافرت به أياماً وليالي حتى جئت إلى البصرة فأقمت بها مدة.

ثم استأجرت سفينة ونزلت مالي فيها وسرنا منحدرين أياماً قلائل حتى وصلنا إلى بغداد فسألت أين يسكن التجار وأي موضع أطيب للسكان، فقالوا: «في حارة الكرخ». فجئت إليها واستأجرت داراً في درب الزعفران. ونقلت جميع مالي إلى تلك الدار فأقمت فيها مدة. ثم توجهت في بعض الأيام إلى الفرجة ومعي شيء من المال وكان ذلك اليوم يوم الجمعة. فأتيت إلى جامع يسمى جامع المنصور تقام فيه صلاة الجمعة. وبعد أن خلصنا من الصلاة خرجت مع الناس إلى موضع يسمى قرن الصراط، فرأيت في ذلك المكان موضعاً عالياً جميلاً وله روشن مطل على الشاطئ وهناك شباك. فذهبت في جملة الناس إلى ذلك المكان فرأيت شيخاً جالساً وعليه ثياب جميلة وتفوح منه رائحة طيبة وقد سرح لحيته فافترقت على صدره فرقتين، كأنها قضيب من لجين، وحوله أربع جوار وخمسة غلمان. فقلت لشخص: «ما اسم هذا الشيخ وما صنعته؟» فقال: «هذا طاهر بن العلاء رجل كريم سخي كل من دخل عنده يأكل ويشرب». فقلت: «لابد أن أدخل عليه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: قال: «فتقدمت إليه يا أمير المؤمنين وسلمّت عليه وقلت له: «يا سيدي إن لي عندك حاجة». فقال: «ما حاجتك؟» قالت: «أشتهي أن أكون ضيفك في هذا الليلة». فقال: «حبا وكرامة». ثم أشار إلى الجواري فأتين بمائدة فيها من أنواع اللحوم من دجاج وسماني وقطا وحمام فأكلنا حتى اكتفينا. وما رأيت في عمري ألذ من ذلك الطعام. فلما أكلنا رفعت تلك المائدة وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى والفواكه. ثم إني قلت للشيخ: «يا سيدي إني آتيك خاطباً لابنتك». فقال لي: «ما أعطيك إياها إلا بشرط أن تعطيني مهراً مقسطاً عن كل شهر خمسة عشر ألف دينار، وإذا لم يمكنك ذلك تطلقها». فقال له: «رضيت بهذا الشرط». وأقمت يا أمير المؤمنين عندها على هذه الحالة مدة من الزمان حتى نفد جميع مالي، فتذكرت وأنا جالس معها مفارقتها فنزلت دموعي على خدي كالأنهار، وصرت لا أعرف الليل من النهار، فقالت: «لأي شيء تبكي؟». فقلت لها: «يا سيدتي من حين تزوجت بك وأبوك يأخذ مني في كل يوم خمسمائة دينار وما بقى عندي شيء من المال، وقد صدق الشاعر حيث قال:

الفـــقـــر في أوطاننا غـــربـة والمال في الغـــربـة أوطـــان

فقالت: «اكتم سرك واخف أمرك وأنا أعمل حيلة في اجتماعي بك إلى ما شاء الله فإن لك في قلبي محبة عظيمة، واعلم أن جميع مال أبي تحت يدي وهو لا يعرف قدره، فأنا أعطيك في كل يوم كيساً فيه خمسمائة دينار وأنت تعطيه لأبي وتقول له: «ما بقيت أعطي الدراهم إلا يوماً بيوم، وكلما دفعته إليه فإنه يدفعه إليّ وأنا أعطيه لك، ونستمر هكذا إلي ما شاء الله» فشكرتها على ذلك وقبلت يدها.

ثم أقمت عندها يا أمير المؤمنين على هذه الحالة مدة سنة كاملة. فاتفق في بعض الأيام أنها ضربت جاريتها ضرباً وجيعاً. فقالت لها: «والله لأوجعن قلبك كما أوجعتيني».

ثم مضت تلك الجارية إلى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله إلى آخره. فلما سمع طاهر ابن العلاء كلام الجارية قام من ساعته ودخل عليَّ وأنا جالس مع ابنته وقال لي: «يا فلان». قلت له: «لبيك». قال: «إنك خدعتني ولم تتم الشرط». ثم التفت إلى غلمانه وقال: «اخلعوا ثيابه». ففعلوا وأعطوني ثياباً رديئة قيمتها خمسة دراهم ودفعوا لي عشرة دراهم. ثم قال لي: «اخرج فأنا لا أضربك ولا أشتمك واذهب إلى حال سبيلك، وإن أقمت في هذه البلدة كان دمك هدراً». فخرجت يا أمير المؤمنين برغم أنفي ولا أعلم أين أذهب وحل في قلبي كل هم في الدنيا وأشغلني الوسواس وقلت في نفسي: «كيف أجيء في البحر بمائة ألف ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركباً ويذهب هذا كله في دار هذا الشيخ النحس وبعد ذلك أخرج من عنده عرياناً مكسور القلب، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: ثم أقمت في بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاماً ولا شراباً، في اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة إلى البصرة فنزلت فيها، واستكريت مع صاحبها إلى أن وصلت إلى البصرة فدخلت السوق وأنا في شدة الجوع، فرآني رجل بقال فقام إليَّ وعانقني لأنه كان صاحباً لي ولأبي من قبلي وسألني عن حالي، فأخبرته بجميع ما جرى لي فقال لي: «والله ما هذا فعال عاقل ومع هذا الذي جرى لك فأي شيء في ضميرك تريد أن تفعله؟» فقلت له: «لا أدري ماذا أفعل» فقال: «أتجلس عندي وتكتب خرجي ودخلي ولك في كل يوم درهمان زيادة على أكلك وشربك؟» فأجبته إلى ذلك وأقمت عنده يا أمير المؤمنين سنة كاملة أبيع وأشتري إلى أن صار معي مائة دينار، فاستأجرت غرفة على شاطئ البحر لعل مركباً يأتي ببضاعة فأشتري بالدنانير بضاعة وأتوجه بها إلى بغداد. فاتفق في بعض الأيام أن المراكب جاءت وتوجه إليها جميع التجار يشترون. فرحت معهم وإذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ونصبا لهما كرسيين وجلسا عليهما. ثم أقبل التجار عليهما لأجل الشراء. فقالا لبعض الغلمان «أحضروا البساط» فأحضروه وجاء واحد بخرج فأخرج منه جراباً وفتحه وكبه على البساط وإذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت والعقيق من سائر الألوان.

ثم إن واحداً من الرجلين الجالسين على الكرسي التفت إلى التجار وقال لهم: «يا معشر التجار أنا ما أبيع في يومي هذا لأني تعبان». فتزايدت التجار في الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينار، فقال لي صاحب الجراب وكان بيني وبينه معرفة قديمة: «لماذا لم تتكلم ولم تزد مثل التجار؟» فقلت له: «والله يا سيدي ما بقي عندي شيء من الدنيا سوى مائة دينار». واستحييت منه ودمعت عيني. فنظر إليَّ وقد عسر عليه حالي ثم قال للتجار: «اشهدوا على أني بعت جميع ما في الجراب من أنواع الجواهر والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار وأنا أعرف أنه يساوي كذا وكذا ألف دينار وهو هدية مني إليه». فأعطاني الخرج والجراب والبساط وجميع ما عليه من الجواهر، فشكرته على ذلك.

ثم أخذت ذلك ومضيت به إلى سوق الجواهر وقعدت أبيع وأشتري، وكان من جملة هذه المعادن قرص تعويذ صنعة المعلمين زنته نصف رطل، وكان أحمر شديد الحمرة وعليه أسطر

مثل دبيب النمل من الجانبين ولم أعرف منفعته. فهمت واشتريت مدة سنة كاملة. ثم أخذت قرص التعويذ وقلت: «هذا له عندي مدة لا أعرف منفعته». فدفعته إلى الدلال فأخذه ودار به ثم عاد وقال: «ما دفع فيه أحد من التجار سوى عشرة دراهم». فقلت: «ما أبيعه بهذا القدر».

فرماه في وجهي وانصرف. ثم عرضته للبيع يوماً آخر فبلغ ثمنه خمسة عشر درهماً، فأخذته من الدلال مغضبًا ورميته عندي، فبينما أنا جالس يومًا إذا أقبل عليَّ رجل فسلَّم عليَّ وقال لي: «عن إذنك هل أقلب ما عندك من البضائع؟» قلت: «نعم». وأنا يا أمير المؤمنين مغتاظ من كساد قرص التعويذ. فقلَّب الرجل البضاعة ولم يأخذ منها سوى قرص التعويذ».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما رآه يا أمير المؤمنين قبل يده وقال: «الحمد لله». ثم قال: «يا سيدي أتبيع هذا؟» فازداد غيظي وقلت له: «نعم». فقال لي: «كم ثمنه؟» فقلت له: «كم تدفع أنت؟» قال: «عشرين دينارًا». فتوهمت أنه يستهزئ بي فقلت: «اذهب إلى حال سبيلك» فقال لي: «هو بخمسين ديناراً». فلم أخاطبه. فقال: «بألف دينار» هذا كله يا أمير المؤمنين وأنا ساكت ولم أجبه وهو يضحك من سكوتي ويقول: «لأي شيء لم ترد علي؟» فقلت له: «اذهب إلى حال سبيلك». وأردت أن أخاصمه وهو يزيد ألفاً بعد ألف ولم أرد عليه حتى قال «أتبيعه بعشرين ألف دينار». وأنا أظن أنه يستهزئ بي. فاجتمع علينا الناس وكل منهم يقول لي: «بعه وإن لم يشتر فنحن الكل عليه ونضربه ونخرجه من البلد». فقلت له: «هل أنت تشتري أو تستهزئ؟». فقال: «هل أنت تبيع أو تستهزئ؟» قلت له «أبيع» قال: «هو بثلاثين ألف دينار خذها وأمض البيع».

فقلت للحاضرين: «اشهدوا عليه ولكن بشرط أن تخبرني ما فائدته وما نفعه؟» قال: «أمض البيع وأنا أخبرك بفائدته ونفعه». فقلت: «بعتك». فقال: «الله على ما نقول وكيل». ثم أخرج الذهب وقبضني إياه وأخذ التعويذ ووضعه في جيبه. ثم قال لي: «هل رضيت؟» قلت: «نعم» فقال: «اشهدوا عليه أنه أمضى البيع وقبض الثمن ثلاثين ألف دينار». ثم إنه التفت إلي وقال: «يا مسكين والله لو أخرت البيع لزدناك إلى مائة ألف دينار بل ألف ألف دينار».

فلما سمعت يا أمير المؤمنين هذا الكلام نفر الدم من وجهي وعلا عليه هذا الاصفرار الذي أنت تنظره من ذلك اليوم، ثم قلت له: «أخبرني ما سبب ذلك وما نفع هذا القرص؟» فقال: «اعلم أن ملك الهند له بنت لم ير أحسن منها وبها داء الصداع، فأحضر الملك أرباب الأقلام وأهل العلوم والكهَّان فلم يرفعوا عنها ذلك. فقلت له وكنت حاضراً بالمجلس: أيها الملك أنا أعرف رجلاً يسمى سعد الله البابلي ما على وجه الأرض أعرف منه بهذه الأمور فإن رأيت أن ترسلني إليه فافعل. فقال: اذهب إليه. فقلت له: أحضر لي قطعة من العقيق، فأحضر لي قطعة كبيرة من العقيق ومائة ألف دينار وهدية». فأخذت ذلك وتوجهت إلى بلاد بابل. فسألت عن الشيخ فدلوني عليه ودفعت له المائة ألف دينار والهدية، فأخذ ذلك مني. ثم أخذ القطعة العقيق وأحضر حكاكاً فعملها هذا التعويذ. ومكث الشيخ سبعة أشهر يرصد النجم حتى اختار وقتًا للكتابة وكتب الطلاسم التي تنظرها. ثم جئت به إلى الملك.

«فلما وضعه على ابنته برئت من ساعتها. وكانت مربوطة بأربع سلاسل وكل ليلة تبيت عندها جارية فتصبح مذبوحة. فمن حين وضع عليها هذا التعويذ برئت لوقتها وفرح الملك

بذلك فرحًا شديدًا وخلع عليَّ وتصدَّق بمال كثير ثم وضعه في عقدها. فاتفق أنها نزلت يوماً في مركب هي وجواريها تتنزه في البحر، فمدت جارية يدها إليها لتلاعبها فانقطع العقد وسقط في البحر. فعاد من ذلك الوقت العارض لابنة الملك. فحصل للملك ما حصل من الحزن. فأعطاني مالاً كثيراً وقال لي: «اذهب إلي الشيخ ليعمل لها تعويذاً عوضاً عنه». فسافرت إليه فوجدته قد مات. فرجعت إلى الملك وأخبرته، فبعثني أنا وعشرة أنفس نطوف في البلاد لعلنا نجد لها دواء فأوقعني الله به عندك».

فأخذه مني يا أمير المؤمنين وانصرف. فكان ذلك الأمر سبباً للاصفرار الذي في وجهي. ثم إني توجهت إلى بغداد ومعي جميع مالي وسكنت في الدار التي كنت فيها. فلما أصبح الصباح لبست ثيابي وجئت إلى بيت طاهر بن العلاء لعلي أرى زوجتي فإن حبها لم يزل يتزايد في قلبي. فلما وصلت إلى داره رأيت الشباك قد انهدم. فسألت غلاماً وقلت له: «ما فعل الله بالشيخ؟» فقال: «يا أخي إنه قدم عليه في سنة من السنين رجل تاجر يقال له أبو الحسن العماني وتزوج بابنته وأقام معها مدة من الزمان، ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر، وكانت الصبية تحبه حبا شديداً فلما فارقها مرضت مرضاً شديداً حتى بلغت الموت. وعرف أبوها بذلك فأرسل خلفه في البلاد وقد ضمن لمن يأتي به مائة ألف دينار. فلم يره أحد ولم يقع له على أثر، وهي الآن مشرفة على الموت». قلت: «وكيف حال أبيها؟» قال: «باع الجواري من عظم ما أصابه». فقلت له: «هل أدلك على أبي الحسن العماني؟» فقال: «بالله عليك يا أخي أن تدلني عليه». فقلت له: «اذهب إلى أبيها وقل له: «البشارة عندك فإن أبا الحسن العماني واقف على الباب». فذهب الرجل يهرول كأنه بغل انطلق من طاحون ثم غاب ساعة وجاء وبصحبته الشيخ. فلما رآني رجع إلى داره وأعطى الرجل مائة ألف دينار، فأخذها وانصرف وهو يدعو لي. ثم أقبل الشيخ وعانقني وبكى وقال: «يا سيدي أين كنت في هذه الغيبة، قد هلكت ابنتي من أجل فراقك فادخل معي إلى المنزل؟». فلما دخلت سجد شكراً لله تعالى وقال: «الحمد لله الذي جمعنا بك». ثم دخل إلى ابنته وقال لها: «قد شفاك الله من هذا المرض». فقالت: «يا أبت ما أبرأ من مرضي إلا إذا نظرت وجه أبي الحسن» فقال: «إذا أكلت أكلة ودخلت الحمام جمعت بينكما». فقالت: «والله إن نظرت وجهه ما أحتاج إلى أكل». فقال لغلامه: «أحضر سيدك» فدخلت فلما نظرت إليَّ يا أمير المؤمنين وقعت مغشيًا عليها، فلما أفاقت من غشيتها استوت جالسة وأنشدت هذا البيت

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ثم إنها قالت: «والله يا سيدي ما كنت أظن أني أرى وجهك إلا إن كان مناماً». ثم إنها عانقتني وبكت. وقالت: «يا أبا الحسن الآن آكل وأشرب، فأحضروا الطعام والشراب». ثم صرت عندهم يا أمير المؤمنين مدة من الزمن وعادت لما كانت عليه من الجمال. ثم إن أباها استدعى بالقاضي والشهود وجدَّد كتابها عليَّ وعمل وليمة وهي زوجتي إلى الآن». ثم إن ذلك الفتى قام من عند الخليفة ورجع إليه بغلام بديع الجمال بقدٍّ ذي رشاقة واعتدال وقال له: «قبِّل الأرض بين أيادي أمير المؤمنين» فقبل الأرض بين يدي الخليفة. فتعجب الخليفة من حسنه وسبَّح خالقه، ثم إن الرشيد انصرف هو وجماعته وقال: «يا جعفر ما هذا إلا شيء

عجيب ما رأيت ولا سمعت بأغرب منه». فلما جلس الرشيد في دار الخلافة قال: «يا مسرور». قال: «لبيك يا سيدي». قال: «اجعل في هذا الإيوان خراج البصرة وخراج بغداد وخراج خراسان». فجمعه فصار مالاً عظيماً لا يحصى عدده إلا الله. ثم قال الخليفة: «يا جعفر». قال: «لبيك». قال: «أحضر لي أبا الحسن». قال: «سمعًا وطاعة».

ثم أحضره. فلما حضر قبَّل الأرض بين يدي الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله. فقال الرشيد: «يا عماني» قال له: «لبيك يا أمير المؤمنين خلَّد الله نعمه عليك» فقال: «اكشف هذه الستارة». وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الثلاثة الأقاليم ويسبلوا عليه الستارة. فلما كشف العماني الستارة عن الإيوان اندهش عقله من كثرة المال، فقال الخليفة: «يا أبا الحسن أهذا المال أكثر أم الذي فاتك من قصص التعويذ؟» فقال: «بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر بأضعاف كثيرة». قال الرشيد: «اشهدوا يا من حضر أني وهبت هذا المال لهذا الشاب» فقبَّل الأرض واستحى وبكى من شدة الفرح بين يدي الرشيد. فلما بكى جرى الدمع من عينيه على خده فرجع الدم إلى محله فصار وجهه كالبدر ليلة تمامه. فقال الخليفة: «لا إله إلا الله سبحان من يغيِّر حالاً بعد حال وهو باق لايتغير». ثم أتى بمرآة وأراه وجهه فيها. فلما رآه سجد شكراً لله تعالى. ثم أمر الخليفة أن يُحمل إليه المال وسأله ألا ينقطع عنه لأجل المنادمة، فصار يتردد إليه إلى أن توفي الخليفة إلى رحمة الله تعالى، فسبحان الذي لا يموت، ذي الملك والملكوت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية إبراهيم بن الخصيب حاكم مصر

قالت شهرزاد: ومما يحكى أيها الملك السعيد أن الخصيب صاحب مصر كان له ولد ولم يكن أحسن منه. كان من خوفه عليه لا يمكنّه من الخروج إلا لصلاة الجمعة، فمر وهو خارج من صلاة الجمعة على رجل كبير وعنده كتب كثيرة، فنزل عن فرسه وجلس عنده وقلب الكتب وتأملها فرأى فيها صورة امرأة تكاد تنطق لم ير أحسن منها على وجه الأرض فسلبت عقله وادهشت لبه. فقال له: «يا شيخ بعني هذا الصورة». فقبَّل الأرض بين يديه ثم قال: «يا سيدي بغير ثمن». فدفع له مائة دينار وأخذ الكتاب الذي فيه هذه الصورة فصار ينظر إليها ويبكي ليله ونهاره وامتنع من الطعام والشراب والمنام وقال في نفسه: «لو سألت الكتبي عن صانع هذه الصورة من هو لربما أخبرني، فإن كانت صاحبتها في الحياة خطبتها من أهلها، وإن كانت صورة مطلقة تركت التولع بها ولا أعذب نفسي بشيء لا حقيقة له». فلما كان يوم الجمعة مر على الكتبي، فنهض إليه قائماً. فقال له: «يا عم أخبرني من صنع هذه الصورة؟» قال: «يا سيدي صنعها رجل من بغداد يقال له أبو القاسم الصندلاني في حارة تسمى حارة الكرخ وما أعلم صورة من هي». فقام الغلام من عنده ولم يُعلم بحاله أحداً من أهل مملكته ثم صلى الجمعة وعاد إلى البيت، فأخذ جراباً وملأه من الجواهر والذهب وقيمة الجواهر ثلاثون ألف دينار. ثم صبر إلى الصباح وخرج ولم يُعلم أحداً. ولحق قافلة فرأى بدويا فقال له: «يا عم كم بيني وبين بغداد؟» فقال له: «يا ولدي أين أنت وأين بغداد إن بينك وبينها مسيرة

شهرين». فقال له: «يا عم إن وصلتني إلى بغداد أعطيتك مائة دينار وهذه الفرس التي تحتي وقيمتها ألف دينار». فقال له البدوي: «الله على ما تقول وكيل ولكن لا تنزل هذه الليلة إلا عندي». فأجابه إلى قوله وبات عنده.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية سفر إبراهيم بن الخصيب إلى بغداد ونزوله عند أبي القاسم

قالت شهرزاد: فلما لاح الفجر أخذه البدوي ثم سار به سريعاً في طريق قريب طمعاً في تلك الفرس التي وعده بها، ومازالا سائرين حتى وصلا إلى حيطان بغداد. فقال له البدوي: «الحمد لله على السلامة يا سيدي هذه بغداد». ففرح الغلام فرحاً شديداً ونزل عن الفرس وأعطاها للبدوي هي والمائة الدينار، ثم أخذ الجراب وسار يسأل عن حارة الكرخ وعن محل التجار. فساقه القدر إلى درب فيه عشر حجر خمس تقابل خمساً. وفي صدر الدرب باب بمصراعين له حلقة من فضة وفي الباب مصطبتان من الرخام مفروشتان بأحسن الفرش وفي أحدهما رجل جالس وهو مهاب حسن الصورة وعليه ثياب فاخرة وبين يديه خمسة مماليك كأنهم أقمار. فلما رأى الغلام عرف العلامة التي ذكرها له الكتبي فسلم على الرجل، فرد عليه السلا ورحب به وأجلسه وسأله عن حاله.

فقال له الغلام: «أنا رجل غريب وأريد من إحسانك أن تنظر لي في هذا الدرب داراً لأسكن فيها». فصاح الرجل وقال: «يا غزالة». فخرجت إليه جارية وقالت: «لبيك يا سيدي». فقال: «خذي معك بعض الخدم واذهبوا إلى حجرة ونظفوها وافرشوها وحطوا فيها جميع ما يُحتاج إليه من آنية وغيرها لأجل هذا الشاب الحسن الصورة». فخرجت الجارية وفعلت ما أمرها به. ثم أخذه الشيخ وأراه الدار. فقال له الغلام: «يا سيدي كم أجرة هذه الدار؟» فقال له: «يا صبيح الوجه أنا ما آخذ منك أجرة ما دمت فيها». فشكره على ذلك. ثم إن الشيخ نادى جارية أخرى، فخرجت جارية كأنها الشمس. فقال لها: «هاتي الشطرنج» فأتت به. ففرش المملوك الرقعة، وقال الشيخ للغلام: «أتلعب معي؟» قال: «نعم». فلعب معه مرات والغلام يغلبه. فقال: «أحسنت يا غلام ولقد كملت صفاتك والله ما في بغداد من يغلبني وقد غلبتني أنت».

ثم بعد أن هيأوا الدار بالفرش وسائر ما يحتاج إليه سلَّم إليه المفاتيح وقال له: «يا سيدي ألا تدخل منزلي وتأكل عيشي فنتشرف بك». فأجابه الغلام إلي ذلك ومشي معه. فلما وصلا إلى الدار رأى داراً حسنة جميلة مزركشة بالذهب وفيها من جميع التصاوير وفيها من أنواع الفرش والأمتعة ما يعجز عن وصفه اللسان، ثم صار يحييه وأمر بإحضار الطعام. فأتوا بمائدة من شغل صنعاء اليمن فوضعت وأتوا بالطعام ألواناً غريبة لم يوجد أفخر منه ولا ألذ، فأكل الغلام حتى اكتفى ثم غسل يديه، وصار الغلام ينظر إلى الدار والفرش. ثم التفت إلى الجراب الذي كان معه فلم يره. فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أكلت لقمة تساوي درهماً أو درهمين فذهب مني جراب فيه ثلاثون ألف دينار؟ ولكن استعنت بالله». ثم سكت ولم يقدر أن يتكلم.

فقدم الشيخ الشطرنج وقال للغلام: هل تلعب معي؟» قال: «نعم» فلعب فغلبه الشيخ. فقال الغلام: «أحسنت». ثم ترك اللعب وقام. فقال له: «مالك يا غلام؟» فقال: «أريد الجراب».

فقام وأخرجه له وقال: «ها هو يا سيدي هل ترجع إلى اللعب معي؟». قال: «نعم». فلعب معه فغلبه الغلام. فقال الرجل: «لما اشتغل فكرك بالجراب غلبتك، فلما جئت به إليك غلبتني». ثم قال له: «يا ولدي أخبرني من أي البلاد أنت؟» فقال: «من مصر». فقال له: «وما سبب مجيئك إلى بغداد؟» فأخرج له الصورة وقال: «اعلم يا عم أني ولد الخصيب صاحب مصر وقد رأيت هذه الصورة عند رجل كتبي فسلبت عقلي، فسألت عن صانعها فقيل لي: «إن صانعها رجل بحارة الكرخ يقال له أبو القاسم الصندلاني بدرب يعرف بدرب الزعفران، فأخذت معي شيئاً من المال وجئت وحدي ولم يعلم بحالي أحد وأريد من تمام إحسانك أن تدلني عليه حتى أسأله عن سبب تصويره لهذه الصورة وصورة من هي، ومهما أراده مني فإني أعطيه إياه». فقال: «والله يا ابني أنا أبو القاسم الصندلاني وهذا أمر عجيب كيف ساقتك المقادير إلي».

فلما سمع إبراهيم بن الخصيب كلامه أطرق برأسه ساعة وهو يتفكر. فقال له الصندلاني: «يا ولدي إني ما رأيت ببغداد أحسن منك، وأظن أنها إذا نظرتك تحبك، فهل يمكنك إذا اجتمعت بها وظفرت بها أن تريني إياها ولو نظرة من بعيد؟» فقال: «نعم». فقال: «إذا كان الأمر كذلك فأقم عندي إلى أن تسافر». فقال: «لا أقدر على المقام فإن في قلبي من عشقها ناراً زائدة». فقال له: «اصبر حتى أجهز لك مركباً في ثلاثة أيام لتذهب فيه إلى البصرة». فصبر حتى جهَّز له مركباً ووضع فيه جميع ما يحتاج إليه من مأكول ومشروب وغير ذلك، وبعد الثلاثة الأيام قال للغلام: «تجهَّز للسفر فقد جهَّزت لك مركباً فيه سائر ما تحتاج إليه والمراكب ملكي والملاحون من أتباعي وفي المركب ما يكفيك إلى أن تعود، وقد وصيت الملاحين أن يخدموك إلى أن ترجع بالسلامة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية سفر إبراهيم بن الخصيب إلى البصرة ونزوله في خان حمدان

قالت شهرزاد: فنهض الغلام ونزل في المركب وودعه وسار حتى وصل إلى البصرة. فأخرج الغلام مائة دينار للملاحين. فقالوا له: «نحن أخذنا الأجرة من سيدنا». فقال لهم: «خذوها إنعاماً وأنا لا أخبره بذلك». فأخذوها منه ودعوا له. ثم دخل الغلام البصرة وسأل أين مسكن التجار. فقالوا له: «في خان يسمى خان حمدان». فمشى حتى وصل إلى السوق الذي فيه الخان، فامتدت إليه الأعين بالنظر من فرط حسنه وجماله، ثم دخل الخان مع رجل ملاح وسأل عن البواب فدلوه عليه، فرآه شيخاً كبيراً مهاباً. فسلم عليه فرد عليه السلام. فقال: «يا عم هل عندك حجرة نظيفة؟» قال: «نعم». ثم أخذه هو والملاح وفتح لهما حجرة ظريفة مزركشة بالذهب وقال: «يا غلام إن هذه الحجرة تصلح لك». فأخرج الغلام دينارين وقال له: «خذ هذين حلوان المفتاح». فأخذهما ودعا له. وأمر الغلام الملاح بالذهاب إلى المركب.

ثم إن الغلام دخل الحجرة فاستمر عنده بواب الخان وخدمه وقال له: «يا سيدي حصل لنا بك السرور». فأعطاه ديناراً وقال له: «هات لنا به خبزاً ولحماً وحلوى وشراباً». فأخذه وذهب إلى السوق ورجع إليه وقد اشترى ذلك بعشرة دراهم وأعطاه الباقي. فقال له الغلام: «اصرفه على نفسك». ففرح بواب الخان بذلك فرحاً عظيماً. ثم إن الغلام أكل مما طلبه

قرصاً واحداً بقليل من الأدم وقال لبواب الخان: «خذ هذا إلى أهل منزلك». فأخذه وذهب به إلى أهل منزله وقال لهم: «ما أظن أن أحداً على وجه الأرض أكرم من الغلام الذي سكن عندنا في هذا اليوم ولا أحلى منه، فإن دام عندنا حصل لنا الغنى». ثم إن بواب الخان دخل على إبراهيم فرآه يبكي. فقعد وصار يكبس رجليه ثم قبلهما وقال: «يا سيدي لأي شيء تبكي لا أبكاك الله؟» فقال: «يا عم أريد أشرب أنا وأنت في هذه الليلة». فقال له: «سمعاً وطاعة».

فأخرج الغلام خمسة دنانير وقال له: «اشتر لنا بها فاكهة وشراباً». ثم دفع له خمسة دنانير أخرى وقال له: «اشتر لنا بهذه نقلاً ومشموماً وخمس دجاجات سمان وأحضر لي عوداً». فخرج واشترى له كما أمره به وقال لزوجته: «اصنعي هذا الطعام وصفي لنا هذا الشراب، وليكن ما تصنعينه جيداً فإن هذا الغلام قد عمنا بإحسانه». فصنعت زوجته ما أمرها به على غاية المراد. ثم أخذه ودخل به على إبراهيم ابن السلطان فأكلا وشربا وطربا، فبكى الغلام وأنشد هذين البيتين:

يا صاحبي لو بذلت الروح مجتهداً وجملة المال والدنيا وما فيها
وجنة الخلد والفردوس أجمعها بساعة الوصل كان القلب شاريها

ثم شهق شهقة عظيمة وخر مغشيا عليه، فتنهد بواب الخان. فلما أفاق قال له بواب الخان: «يا سيدي ما يبكيك ومن هي التي تريدها بهذا الشعر فإنها لا تكون إلا تراباً لأقدامك» فقام الغلام وأخرج بقجة من أحسن ملابس النساء وقال له: «خذ هذه إلى حريمك». فأخذها منه ودفعها إلى زوجته. فأتت معه ودخلت على الغلام فإذا هو يبكي. فقالت له: «فتتت أكبادنا فعرفنا بأي مليحة تريدها وهي لا تكون إلا جارية عندك»، فقال: «يا عم إني أنا ابن الخصيب صاحب مصر وإني متعلق بجميلة بنت الليث العميد». فقالت زوجة بواب الخان: «الله الله يا أخي أن تترك هذا الكلام لئلا يسمع بنا أحد فنهلك، فإنه ما على وجه الأرض أجبر منها ولا يقدر أحد يذكر لها اسم رجل لأنها زاهدة في الرجال، فيا ولدي اعدل عنها لغيرها». فلما سمع كلامها بكى بكاء شديداً. فقال له بواب الخان: «مالي سوى روحي فأنا أخاطر بها في هواك وأدبر لك أمراً فيه بلوغ مرادك». ثم خرجا من عنده.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية إبراهيم بن الخصيب مع الخياط

قالت شهرزاد: فلما أصبح الصباح دخل الحمام ولبس حلة من ملبوس الملوك، وإذا ببواب الخان هو وزوجته قدما عليه وقالا له: «يا سيدي اعلم أن هناك رجلاً خياطاً أحدب وهو خياط السيدة الجميلة، فاذهب إليه وأخبره بحالك فعساه يدلك على ما فيه وصولك إلى أغراضك». فقام الغلام وقصد دكان الخياط الأحدب فدخل عليه فوجده عنده عشرة مماليك كأنهم الأقمار فسلَّم عليهم. فردوا عليه السلام وفرحوا به وأجلسوه وتحيروا في محاسنه وجماله. فلما رآه الأحدب اندهش عقله من حسن صورته. فقال له الغلام: «أريد أن تخيط لي جيبي». فتقدم الخياط وأخذ فتلة من الحرير وخاطه.

وكان الغلام قد فتق جيبه عمداً. فلما خاطه أخرج له خمسة دنانير وأعطاها له وانصرف إلى حجرته. فقال الخياط: «أي شيء عملته لهذا الغلام حتى أعطاني خمسة دنانير؟» ثم بات ليلته يفكر في حسنه وكرمه.

فلما أصبح الصباح ذهب إلى دكان الخياط الأحدب ثم دخل وسلم عليه، فرد عليه السلام وأكرمه ورحب به. فلما جلس قال للأحدب: «يا عم خيط لي جيبي فإنه فُتق ثانياً فقال له: «يا ولدي على الرأس والعين».

ثم تقدم وخاطه. فدفع له عشرة دنانير. فأخذها وصار مبهوتاً من حسنه وكرمه ثم قال: «والله إن فعلك هذا لابد له من سبب وما هذا خبر خياطة جيب، ولكن أخبرني عن حقيقة أمرك».

فقال: «يا عم ما هذا محل الكلام فإن حديثي عجيب وأمري غريب». قال: «فإذا كان الأمر كذلك فقم بنا في خلوة».

ثم نهض الخياط وأخذ بيده ودخل معه حجرة في داخل الدكان وقال له: «ياغلام حدثني». فحدثه بأمره من أوله إلى آخره. فبهت من كلامه وقال: «يا غلام اتق الله في نفسك فإن التي ذكرتها جبارة زاهدة في الرجال فاحفظ يا أخي لسانك وإلا فإنك تهلك نفسك».

فلما سمع الغلام كلامه بكى بكاء شديداً ولزم ذيل الخياط قال: «أجرني ياعم فإني هالك وقد تركت ملكي وملك أبي وجدي وصرت في البلاد غريباً وحيداً». فلما رأى الخياط ما حلَّ به رحمه وقال: «يا ولدي ما عندي إلا نفسي فأخاطر بها في هواك فإنك قد جرحت قلبي، ولكن في غد أدبر لك أمراً يطيب به قلبك». فدعا له وانصرف إلى الخان. فحدث بواب الخان بما قاله الأحدب.

فقال له: «قدفعل معك جميلاً». فلما أصبح الصباح لبس الغلام أفخر ثيابه وأخذ معه كيساً فيه دنانير وأتى إلى الأحدب.

فسلم عليه وجلس ثم قال له: «يا عم انجز وعدي» فقال له: «قم في هذه الساعة وخذ ثلاث دجاجات سمان وثلاث أواق من السكر النبات وكوزين لطيفين واملأهما شراباً وخذ قدحاً وضع ذلك معك وانزل بعد صلاة الصبح في زورق مع ملاح وقل له: أريد أن تذهب بي تحت البصرة، فإن قال لك ما أقدر أن أعدي أكثر من فرسخ. فقل له: الرأي لك. فإذا عدى فرغبه بالمال حتى يوصلك.

فإذا وصلت فأول بستان تراه فإنه بستان السيدة جميلة، فإذا رأيته فاذهب إلى بابه ترى درجتين عاليتين عليهما فرش من الديباج وجالس عليهما رجل أحدب مثلي، فاشك إليه حالك وتوسل به فعساه أن يرثي لحالك ويوصلك إلى أن تنظرها ولو نظرة من بعيد وما بيدي حيلة غير هذا.

وأما إذا لم يرث لحالك فقد هلكت أنا وأنت وهذا ما عندي من الرأي والأمر لله تعالى». فقال الغلام: «استعنت بالله ما شاء الله كان ولا حول ولا قوة إلا بالله». ثم قام من عند الخياط الأحدب وذهب إلى حجرته وأخذ ما أمره له في كارة لطيفة.

ثم إنه لما أصبح جاء إلى شاطئ الدجلة وإذا هو برجل نائم فأيقظه وأعطاه عشرة دنانير وقال له: «عدِّني إلى تحت البصرة». فقال له: «يا سيدي بشرط أن لا أعدِّي أكثر من

فرسخ وإن تجاوزته شبراً هلكت أنا وأنت». فقال له: «الرأي لك». فأخذه وانحدر به. فلما قرب من البستان قال: «يا ولدي من هنا ما أقدر أن أعدّي، فإن تعديت هذا الحد هلكت أنا وأنت». فأخرج له عشرة دنانير أخرى وقال له: «خذ هذه النفقة لتستعين بها على حالك». فاستحى منه وقال: «سلمت الأمر لله تعالى». وانحدر به.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية إبراهيم بن الخصيب مع خولي بستان السيدة جميلة

قالت شهرزاد: فلما وصل إلى البستان نهض الغلام من فرحته ووثب من الزورق وثبة مقدار رمية رمح ورمى نفسه. فرجع الملاح هارباً. ثم تقدم الغلام فرأى جميع ما وصفه له الأحدب من البستان ورأى الباب مفتوحاً وفي الدهليز سرير من العاج جالس عليه رجل احدب لطيف المنظر عليه ثياب مذهبة وفي يده دبوس من فضة مطلي بالذهب: فنهض الغلام مسرعاً وانكب على يده وقبّلها.

فقال له: «من أنت ومن أوصلك إلى ها هنا يا ولدي؟» وكان ذلك الرجل لما رأى إبراهيم ابن الخصيب انبهر من جماله.

فقال له إبراهيم: «يا عم أنا صبي جاهل غريب». ثم بكى. فرق له وأصعده على السرير ومسح له دموعه وقال له: «لا بأس عليك إن كنت مديوناً قضى الله دينك وإن كنت خائفاً أمَّن الله خوفك».

فقال: «يا عم ما بي خوف ولا عليَّ دين ومعي مال جزيل بحمد الله وعونه».

فقال له: «يا ولدي ما حاجتك حتى خاطرت بنفسك وجمالك إلى محل فيه الهلاك؟» فحكى له حكايته وشرح له أمره.

فلما سمع كلامه أطرق برأسه ساعة إلى الأرض وقال: «هل الذي دلك عليَّ الخياط الأحدب؟». قال له: «نعم». قال: «هذا أخي وهو رجل مبارك». ثم قال: «يا ولدي لولا أن محبتك نزلت في قلبي ورحمتك لهلكت أنت وأخي وبواب الخان وزوجته». ثم قال: «اعلم أن هذا البستان ما على وجه الأرض مثله وإنه يقال له بستان اللؤلؤة، وما دخله أحد مدة عمري إلا السلطان وأنا وصاحبته جميلة وأقمت فيه عشرين سنة فما رأيت أحداً جاء إلى هذا المكان، وكل أربعين يوماً تأتي في المركب إلى ها هنا وتصعد بين جواريها في حلة أطلس تحمل أطرافها عشر جوار بكلاليب من الذهب إلى أن تدخل، فلم أر منها شيئاً، ولكن أنا مالي إلا نفسي فأخاطر بها من أجلك».

فعند ذلك قبّل الغلام يده. فقال له: «اجلس عندي حتى أدبّر لك أمراً». ثم أخذ بيد الغلام وأدخله البستان. فلما رأى إبراهيم ذلك البستان ظن أنه الجنة ورأى الأشجار ملتفة والنخيل باسقة والمياه متدفقة والأطيار تناغي بأصوات مختلفة.

ثم ذهب به إلى قبة وقال له: «هذه التي تقعد فيها السيدة جميلة». فتأمل تلك القبة فوجدها من أعجب المنتزهات، وفيها سائر التصاوير بالذهب واللازورد وفيها أربعة أبواب يصعد إليها بخمس درجات وفي وسطها بركة ينزل إليا بدرج من الذهب تلك الدرج مرصعة

بالمعدن وفي وسط البركة سلسبيل من الذهب فيه صور كبار وصغار والماء يخرج من أفواهها. فإذا صفقت الصور عند خروج الماء بأصوات مختلفة تُخيّل لسامعها أنه في الجنة، وحول القبة ساقية قواديسها من الفضة وهي مكسوة بالديباج، وعلى يسار الساقية شباك من الفضة مطل على برج أخضر فيه من سائر الوحوش والغزلان والأرانب، وعلى يمينها شباك مطل على ميدان فيه من سائر الطيور وكلها تغرد بأصوات مختلفة تدهش السامع. فلما رأى الغلام ذلك أخذه الطرب وقعد في باب البستان وقعد البستاني بجانبه فقال له: «كيف ترى بستاني؟» فقال له الغلام: «هو جنة الدنيا». فضحك البستاني. ثم قام وغاب عنه ساعة وعاد ومعه طبق فيه دجاج وسماني ومأكول مليح وحلوى من السكر فوضعه بين يدي الغلام وقال له: «كل حتى تشبع». قال إبراهيم: «فأكلت حتى اكتفيت». فلما رآني أكلت فرح وقال: «والله هكذا شأن الملوك وأولاد الملوك». ثم قال: «يا إبراهيم أي شيء معك في هذه الكارة؟» فحللتها بين يديه. فقال: «احملها معك فإنها تنفعك إذا حضرت السيدة جميلة، فإنها إذا جاءت لا أقدر أن أدخل لك بما تأكل». ثم قام وأخذ بيدي وأتى بي إلى مكان قبال قبة جميلة، فعمل عريشة بين الأشجار وقال له: «اصعد هنا فإذا جاءت فإنك تنظرها ولا تنظرك وهذا أكثر ما عندي من الحيلة وعلى الله الاعتماد، فإذا غنت فاشرب على غنائها، فإذا ذهبت فارجع من حيث جئت إن شاء الله مع السلامة». فشكره الغلام وأراد أن يقبّل يده فمنعه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية رؤية إبراهيم بن الخصيب للسيدة جميلة

قالت شهرزاد: ثم إن الغلام وضع الكارة في العريشة التي عملها له. ثم قال له البستاني: «يا إبراهيم تفرج في البستان وكل من ثماره فإن ميعاد حضور صاحبتك في غد». فصار إبراهيم يتنزه في البستان ويأكل من أثماره وبات ليلته عنده. فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح صلى إبراهيم الصبح. وإذا بالبستاني جاءه وهو مصفر اللون وقال له: «قم يا ولدي واصعد إلى العريشة فإن الجواري قد أتين ليفرشن المكان وهي تأتي بعدهن، واحذر أن تبصق أو تمخط أو تعطس فتهلك أنا وأنت».

فقام الغلام وصعد إلى العريشة وذهب الخولي وهو يقول: «رزقك الله السلامة يا ولدي». فبينما الغلام قاعد وإذا بخمس جوار أقبلن لم ير مثلهن أحد فدخلن القبة وخلعن ثيابهن وغسلن القبة ورششنها بماء الورد وأطلقن العود والعنبر وفرشن الديباج، وأقبل بعدهن خمسون جارية ومعهن آلات الطرب وجميلة بينهن من داخل خيمة حمراء من الديباج والجواري رافعات أذيال الخيمة بكلاليب من الذهب حتى دخلت القبة، فلم ير الغلام منها ولا من أثوابها شيئاً. فقال في نفسه: «والله إنه ضاع جميع تعبي ولكن لا بد لي من أن أصبر حتى أنظر كيف يكون الأمر». فقدمت الجواري الأكل والشرب. ثم أكلن وغسلن أيديهن ونصبن لها كرسياً فجلست عليه. ثم ضربن بآلات الملاهي جميعهن وغنين بأصوات مطربة لا مثيل لها.

ثم خرجت عروس قهرمانة فصفقت ورقصت فجذبتها الجواري. وإذ بالستر قد رُفع وخرجت جميلة وهي تضحك. فرآها إبراهيم وعليها الحلي والحلل وعلى رأسها تاج مرصع

بالدر والجوهر وفي جيدها عقد من اللؤلؤ وفي وسطها منطقة من قضبان الزبرجد وحبالها من الياقوت واللؤلؤ.

فقامت الجواري وقبلن الأرض بين يديها وهي تضحك. قال إبراهيم بن الخصيب: فلما رأيتها غبت عن وجودي واندهش عقلي وتحيَّر فكري بما بهرني من جمال لم يكن على وجه الأرض مثله. فقالت العجوز للجواري: «ليقم منكن عشرة يرقصن ويغنين». فلما رآهن إبراهيم قال في نفسه: «أشتهي أن ترقص السيدة جميلة».

فلما انتهى رقص العشر جوار أقبلن حولها وقلن: «يا سيدتنا نشتهي أن ترقصي في هذا المجلس ليتم سرورنا بذلك لأننا ما رأينا أطيب من هذا اليوم». فقال إبراهيم بن الخصيب في نفسه: «لا شك أن أبواب السماء قد فتحت واستجاب الله دعائي». ثم قبَّلت الجواري أقدامها وقلن لها: «والله ما رأينا صدرك مشروحاً مثل هذا اليوم». فما زلن يرغِّبنها حتى أجابت إلى مرغوبهن وأتت في رقصها بأسلوب غريب، وابتداع عجيب، حتى أنست رقص الحبب في الكؤوس، وأذكرتنا ميل العمائم عن الرؤوس. كما قال الشاعر:

كما اشتهت خُلقت حتى إذا اعتدلت ... في قالب الحسن لا طول ولا قصر

كأنها خُلقت من ماء لؤلؤة ... وفي كل جارية من حسنها قمر

وكما قال الآخر:

وراقص مثل غصن البان قامتهُ ... تكاد تذهب روحي من تنقله

لا يستقر له في رقصه قدم ... كأنما نار قلبي تحت أرجله

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية ملاقاة السيدة جميلة مع إبراهيم بن الخصيب

قالت شهرزاد: قال إبراهيم: «فبينما أنا أنظر إليها إذ لاحت منها التفاتة إليَّ فرأتني. فلما نظرتني تغير وجهها فقالت لجواريها: «غنوا أنتن حتى أجيء إليكنّ». ثم عمدت إلى سكين قدر نصف ذراع وأخذتها وأتت نحوي ثم قالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». فلما قربت مني غبت عن الوجود. فلما رأتني ووقع وجهها في وجهي وقعت السكين من يدها وقالت: «سبحان مقلِّب القلوب». ثم قالت لي: «يا غلام طب نفسا ولك الأمان مما تخاف». فصرت أبكي وهي تمسح دموعي بيدها وقالت: «يا غلام أخبرني من أنت، وما جاء بك إلى هذا المكان؟» فقبلت الأرض بين يديها ولزمت ذيلها. فقالت: «لا بأس عليك فوالله ما ملأت عيني من ذكر غيرك، فقل لي من أنت؟». قال إبراهيم: فحدثتها بحديثي من أوله إلى آخره. فتعجبت من ذلك وقالت لي: «يا سيدي أنت الذي زهدتني في الرجال لأنني لما سمعت أنه وجد في مصر صبي لم يكن على وجه الأرض أجمل منه تعلق قلبي بحبك.

وصرت فيك كما قال الشاعر:

أذني لقد سبقت في عشقه بصري ... الأذن تعشق قبل العين أحيانا

فالحمد لله الذي أراني وجهك، والله لو كان أحد غيرك كنت صلبت البستاني وبواب الخان والخياط ومن يلوذ بهم». ثم قالت لي: «كيف أحتال على شيء تأكله من غير اطلاع

جواري؟» فقلت لها: «أنا معي ما نأكل وما نشرب». ثم حلت الكارة بين يديها فأخذت دجاجة وأكلت معي، ثم قدّمت الشراب فشربنا. كل ذلك وهي عندي والجواري تغني. ثم قامت وقالت: «قم الآن وهيئ لك مركباً وانتظرني في المحل الفلاني حتى أجيء إليك». فقلت: «يا سيدتي إن معي مركباً وهو ملكي والملاحون في إجارتي وهم في انتظاري». فقالت: «هذا هو المراد». ثم مضت إلى الجواري وقالت لهن: «قمن لنروح إلى قصرنا». فقلن لها: «كيف نقوم في هذا الساعة وعادتنا أن نقعد ثلاثة أيام؟» فقالت: «إني أجد في نفسي ثقلاً عظيماً كأني مريضة وأخاف أن يثقل عليَّ ذلك». فقلن لها «سمعاً وطاعة». فلبسن ثيابهن ثم توجهن إلى الشاطئ ونزلن في الزورق، وإذا بالبستاني قد أقبل على إبراهيم وما عنده علم بالذي جرى له فقال: «يا إبراهيم مالك حظ في التلذذ برؤيتها فإن من عادتها أن تقيم هنا ثلاثة أيام وأنا أخاف أن تكون رأتك». فقال إبراهيم: «ما رأتني ولا رأيتها ولا خرجت من القبة». قال: «صدقت يا ولدي فإنها لو رأتك لكنا هلكنا، ولكن اقعد عندي حتى تأتي في الأسبوع الثاني وتراها وتشبع من النظر إليها». فقال إبراهيم: «يا سيدي إن معي مالاً وأخاف عليه وورائي رجال فأخاف أن يستفيبوني». فقال: «يا ولدي إنه يعز علي فراقك». ثم عانقه وودعه.

ثم إن إبراهيم توجه إلى الخان الذي كان نازلاً فيه وقابل بواب الخان وأخذ ماله فقال له بواب الخان: «خير إن شاء الله». فقال له إبراهيم: «إني ما وجدت إلى حاجتي سبيلاً وأريد أن أرجع إلى أهلي». فبكى بواب الخان وودعه وحمل أمتعته ووصّله إلى المركب. وبعد ذلك توجه إلى المحل الذي قالت له عليه وانتظرها فيه، فلما جن الليل وإذا بها أقبلت إليه وهي في زي رجل شجاع بلحية مستديرة ووسط مشدود بمنطقة وفي إحدى يديها قوس ونشاب وفي الأخرى سيف مجرد، وقالت له: «هل أنت ابن الخصيب صاحب مصر؟» فقال لها: «هو أنا». فقالت له: «ومن أنت حتى جئت تفسد بنات الملوك؟ قم كلم السلطان» قال إبراهيم: «فوقعت مغشيا عليَّ، وأما الملاحون فإنهم ماتوا في جلودهم من الخوف.

فلما رأت ما حلَّ بي خلعت تلك اللحية ورمت السيف وحلت المنطقة فرأيتها هي السيدة جميلة، فقلت لها: «والله إنك قطعت قلبي». ثم قلت للملاحين: «أسرعوا في سير المركب». فحلوا الشراع وأسرعوا في السير، فما كان إلا أيام قلائل حتى وصلنا إلى بغداد وإذا بمركب واقف على جانب الشط، فلما رآنا الملاحون الذين فيه صاحوا على الملاحين الذين معنا وصاروا يقولون: «يا فلان ويافلان نهنيكم بالسلامة». ثم دفعوا مركبهم على مركبنا فنظرنا فإذا فيه أبو القاسم الصندلاني. فلما رآنا قال: «إن هذا هو مطلوبي امضوا في وداعة الله وأنا أريد التوجه إلى غرضي». وكان بين يديه شمعة. ثم قال لي: «الحمد لله على السلامة هل قضيت حاجتك؟» قلت: «نعم». فقرب الشمعة منا. فلما رأته جميلة تغيّر حالها واصفرّ لونها.

ولما رآها الصندلاني قال: «اذهبوا في أمان الله أنا رائح إلى البصرة في مصلحة للسلطان ولكن الهدية لمن حضر».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية مسك الوالي لإبراهيم بن الخصيب

قالت شهرزاد: ثم أحضر علبة من الحلويات ورماها في مركبنا وكان فيها البنج. فقال إبراهيم: «يا قرة عيني كلي من هذا». فبكت وقالت: «يا إبراهيم أتدري من هذا؟». قلت: «نعم هذا فلان». قالت: «إنه ابن عمي وكان سابقاً خطبني من والدي فما رضيت به وهو متوجه إلى البصرة فربما يعرف أبي بنا». فقلت: «يا سيدتي هو لا يصل إلى البصرة حتى نصل نحن إلى الموصل».

ولم يعلما بما هو مخبوء لهما في الغيب. فأكلت شيئاً من الحلاوة فما نزلت جوفي حتى ضربت الأرض برأسي. فلما كان وقت السحر عطست فخرج البنج من منخري وفتحت عيني فرأيت نفسي عرياناً مرمياً في الخراب.

فلطمت على وجهي وقلت في نفسي: «إن هذه حيلة عملها علي الصندلاني». فصرت لا أدري أين أذهب وما عليَّ سوى سروال.

فقمت وتمشيت قليلاً وإذا بالوالي أقبل عليَّ ومعه جماعة بسيوف ومطارق فخفت، فرأيت حماما فتواريت فيه فعثرت رجلي في شيء، فوضعت يدي عليه فتلوثت بالدم فمسحتها في سروالي ولم أعلم ما هو.

ثم مددت يدي إليه ثانياً فجاءت علي القتيل وطلع رأسه في يدي فرميته وقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». ثم دخلت زاوية من زوايا الحمام وإذا بالوالي وقف على باب الحمام وقال: «ادخلوا هذا المكان وفتشوا».

فدخل منهم عشرة بالمشاعل. فمن خوفي دخلت وراء حائط فتأملت المقتول فرأيته صبية ووجهها كوجه البدر ورأسها في ناحية وجثتها في ناحية وعليها ثياب ثمينة، فلما رأيتها وقعت الرجفة في قلبي، ودخل الوالي وقال: «فتشوا في جهات الحمام». فدخلوا الموضع الذي أنا فيه فنظرني رجل منهم فجاءني وبيده سكين طولها نصف ذراع، فلما قرب مني. قال: «سبحان الله خالق هذا الوجه الحسن، يا غلام من أين أنت؟» ثم أخذ بيدي وقال: «لأى شيء قتلت هذه المقتولة؟» فقلت: «والله ما قتلتها ولا أعرف من قتلها وما دخلت هذا المكان إلا فزعاً منكم». وأخبرته بقصتي وقلت له: «بالله عليك لا تظلمني فإني مشغول بنفسي».

فأخذني وقدمني إلى الوالي. فلما رأى على يدي أثر الدم قال: «هذا لا يحتاج إلى بينة فاضربوا عنقه».

فلما سمعت هذا الكلام بكيت بكاء شديداً وأنشدت هذين البيتين:

مشينا خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

حكاية وصول حاجب الخطيب في التفتيش على إبراهيم وتخليصه له

ثم شهقت فوقعت مغشيا عليَّ، فرق لي قلب الجلاد وقال: «والله ما هذا وجه من قتل». فقال الوالي: «اضربوا عنقه». فأجلسوني في نطع الدم وشدُّوا على عيني غطاء وأخذ السيَّاف سيفه واستأذن الوالي وأراد أن يضرب عنقي. فصحت: «وا غربتاه». وإذا بخيل قد أقبل وقائل يقول: «دعوه، امنع يدك يا سيَّاف». وكان لذلك سبب عجيب وأمر غريب.

وهو أن الخصيب صاحب مصر كان قد أرسل حاجبه إلى الخليفة هارون الرشيد ومعه

تحف وهدايا وصحبته كتاب يذكر له فيه: «إن ولدى قد فقد سنة وقد سمعت أنه ببغداد، والمقصود من إنعام خليفة الله أن يفحص عن خبره ويجتهد فى طلبه ويرسله إلىَّ مع الحاجب». فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر الوالى أن يبحث عن حقيقة خبره، فلم يزل الوالى والخليفة يسألان عنه حتى قيل له: «إنه بالبصرة».

فأخبره الخليفة بذلك. فكتب الخليفة كتاباً وأعطاه للحاجب المصرى وأمره أن يسافر إلى البصرة وأن يأخذ معه جماعة من أتباع الوزير، فمن حرص الحاجب على ولد سيده خرج من ساعته فوجد الغلام فى نطع الدم مع الوالى.

فلما رأى الوالى الحاجب وعرفه ترجَّل إليه، فقال له الحاجب: «ما هذا الغلام وما شأنه؟». فأخبره بالخبر.

فقال الحاجب والحال أنه لم يعرف إنه ولد السلطان: «إن وجه هذا الغلام وجه من لا يقتل». وأمره بحل وثاقه فحله، فقال: «قدِّمه إلىَّ». فقدمه إليه وكان قد ذهب جماله من شدة ما قاساه من الأهوال.

فقال له الحاجب: «أخبرنى بقصتك يا غلام وما شأن هذه المقتولة معك؟». فلما نظر إبراهيم إلى الحاجب عرفه فقال له: «ويلك أما تعرفنى أما أنا إبراهيم ابن سيدك فلعلك جئت فى طلبى؟» فأمعن الحاجب فيه النظر فعرفه غاية المعرفة فلما عرفه انكب على أقدامه.

فلما رأى الوالى ما حصل من الحاجب اصفرَّ لونه. فقال له الحاجب: «ويلك يا جبَّار هل كان مرادك أن تقتل ابن سيدى الخصيب صاحب مصر؟» فقبَّل الوالى ذيل الحاجب وقال له: «يا مولاى من أين أعرفه وإنما رأيناه على هذه الصفة ورأينا الصبية مقتولة بجانبه».

فقال له: «ويلك إنك لا تصلح للولاية هذا غلام له من العمر خمسة عشر عاماً وما قتل عصفوراً فكيف يقتل قتيلاً هلا أمهلته وسألته عن حاله؟» ثم قال الحاجب والوالى: «فتشوا على قاتل الصبية».

فدخلوا الحمَّام ثانياً فرأوا قاتلها فأخذوه وأتوا به إلى الوالى. فأخذه وتوجه به إلى دار الخلافة وأعلم الخليفة بما جرى.

فأمر الرشيد بقتل قاتل الصبية. ثم أمر بإحضار ابن الخصيب. فلما تمثل بين يديه تبسم الرشيد فى وجهه وقال له: «أخبرنى بقضيتك وما جرى لك؟» فحدثه بحديثه من أوَّله إلى آخره، فعظم ذلك عنده فنادى مسروراً السيَّاف وقال: «اذهب فى هذا الساعة واهجم على دار أبى القاسم الصندلانى وائتنى به وبالصبية».

فمضى من ساعته وهجم على داره فرأى الصَّبية فى وثاق من شعرها وهى فى حالة التلف. فحلَّها مسرور وأتى بها وبالصندلانى. فلما رآها الرشيد تعجب من جمالها، ثم التفت إلى الصندلانى وقال: «خذوه واقطعوا يديه اللتين ضرب بهما هذه الصبية واصلبوه وسلِّموا أمواله وأملاكه إلى إبراهيم».

ففعلوا ذلك. فبينما هم كذلك وإذا بأبى الليث عامل البصرة والد السيدة جميلة قد أقبل عليهم يستغيث بالخليفة من إبراهيم بن الخصيب صاحب مصر يشكو إليه أنه أخذ ابنته. فقال له الرشيد: «إنه كان سبباً فى خلاصها من العذاب والقتل».

وأمر بإحضار ابن الخصيب. فلما حضر قال لأبى الليث: «ألا ترضى أن يكون هذا الغلام ابن سلطان مصر بعلاً لابنتك». فقال: «سمعاً وطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين». فدعا الخليفة بالقاضى والشهود وزوَّج الصبية بإبراهيم بن الخصيب ووهب له جميع أموال الصندلانى وجهزه إلى بلاده، وعاشا معها فى أتم سرور، وأوفى حبور، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، فسبحان الحى الذى لا يموت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية الخليفة المعتضد بالله مع أبى الحسن الخراسانى

قالت شهرزاد: ومما يُحكى أيضاً أيها الملك السعيد أن المعتضد بالله كان عالى الهمة شريف النفس، وكان له ببغداد ستمائة وزير وما كان يخفى عليه من أمور الناس شىء، فخرج يوماً هو وابن حمدون يتفرجان على الرعايا ويسمعان ما يتجدد من أخبار الناس فحمى عليهما الحر والهجير، وقد انتهيا إلى زقاق لطيف فى شارع فدخلا ذلك الزقاق، فرأيا فى صدر الزقاق داراً حسنة شامخة البناء، تفصح عن صاحبها بلسان الثناء، فقعدا على الباب يستريحان، فخرج من تلك الدار خادمان كالقمرين فى ليلة أربعة عشر.

فقال أحدهما لصاحبه: «لو استأذن اليوم ضيف لأن سيدى لم يأكل إلا مع الضيفان وقد صرنا إلى هذا الوقت ولم أر أحداً». فتعجب الخليفة من كلامهما وقال: «إن هذا دليل على كرم صاحب الدار ولابد أن ندخل داره وننظر مروءته ويكون ذلك سبباً فى نعمة تصل إليه منا». ثم قال للخادم: «استأذن سيدك فى قدوم جماعة أغراب». وكان الخليفة فى ذلك الزمان إذا أراد الفرجة على الرعية تنكر فى زى التجار فدخل الخادم على سيده وأخبره. ففرح وقام وخرج إليهما بنفسه، وإذا به جميل الوجه حسن الصورة وعليه قميص نيسابورى ورداء من ذهب وهو مضمَّخ بالطيب وفى يده خاتم من الياقوت. فلما رآهما قال: «أهلاً وسهلاً بالسادة المنعمين علينا بقدومهم».

فلما دخلا تلك الدار رأياها تنسى الأهل والأوطان، كأنها قطعة من الجنان، ومن داخلها بستان فيه من سائر الأشجار وهى تدهش الأبصار، وأماكنها مفروشة بنفائس الفرش، فجلسوا وجلس المعتضد يتأمل الدار والفرش، وقال ابن حمدون: فنظرت إلى الخليفة فرأيت وجهه قد تغيَّر وكنت أعرف من وجهه حال الرضا والغضب، فلما رأيته قلت فى نفسى: «يا ترى ما باله غضب؟» ثم جاءوا بطست من الذهب فغسلنا أيدينا ثم جاءوا بسفرة من الحرير وعليها مائدة من الخيزران فلما انكشفت الأغطية عن الأوانى رأينا طعاماً كزهر الربيع فى أعز الأوان صنواناً وغير صنوان. ثم قال صاحب الدار: «بسم الله يا سادتنا والله إن الجوع قد أمضنى فأنعموا علىَّ بالأكل من هذا الطعام كما هو أخلاق الكرام». وصار صاحب الدار يفسخ الدجاج ويضعه بين أيدينا ويضحك وينشد الأشعار ويورد الأخبار ويتكلم بلطائف ما يليق بالمجالس.

قال ابن حمدون: «فأكلنا وشربنا، ثم نقلنا إلى مجلس آخر يدهش الناظرين تفوح منه الروائح الزكية. ثم قدم لنا سفرة فاكهة جنية وحلويات شهية فزادت أفراحنا وزالت أتراحنا.

قال ابن حمدون: «ومع ذلك لم يزل الخليفة فى عبوس، ولم يتبسم لما فيه فرح النفوس، مع أن

عادته أنه يحب اللهو والطرب ودفع الهموم، وأنا أعرف أنه غير حسود ولا ظلوم. فقلت فى نفسى: «يا ترى ما سبب عبوسه، وعدم زوال بؤسه». ثم جاءوا بطبق الشراب، ومُجمِّع شمل الأحباب، وأحضروا الشراب المروَّق وبواطى الذهب والبلور والفضة. وضرب صاحب الدار على باب مقصورة بقضيب من الخيزران، وإذا باب المقصورة قد فتح وخرج منه ثلاث جوار نهد أبكار، وجوههن كالشمس فى رابعة النهار، وهؤلاء الجوارى ما بين عوادة وجنكية ورقاصة. ثم قدم لنا النقل والفواكه.

قال ابن حمدون: فضرب بيننا وبين الثلاث الجوارى ستارة من الديباج وشراريبها من الأبريسم وحلقاتها من الذهب، فلم يلتفت الخليفة إلى هذا جميعه وصاحب الدار لم يعلم من هو الذى عنده. فقال الخليفة لصاحب الدار: «أشريف أنت؟» قال: «لا يا سيدى إنما أنا رجل من أولاد التجار أعرف بين الناس بأبى الحسن على بن أحمد الخراسانى». فقال له الخليفة: «اتعرفنى يا رجل؟» قال: «والله يا سيدي لم يكن لي معرفة بأحد من جنابكم الكريم». فقال له ابن حمدان: «يا رجل هذا أمير المؤمنين المتضد بالله حفيد المتوكل على الله». فقام الرجل وقبَّل الأرض بين يدى الخليفة وهو يرتعد من خوفه وقال: «يا أمير المؤمنين بحق آبائك الطاهرين إن كنت رأيت منى تقصيراً أو قلة أدب بحضرتك أن تعفو عنى».

فقال الخليفة: «أما ما صنعته معنا من الإكرام فلا مزيد عليه، وأما ما أنكرته عليك هنا فإن أصدقتنى حديثه واستقر ذلك بعقلى نجوت منى، و إن لم تعرفنى حقيقته أخذتك بحجة واضحة وعذبتك عذاباً لم أعذب أحدا مثله».

قال: «معاذ الله أن أحدث بالمحال، وما الذى أنكرته علىَّ يا أمير المؤمنين؟» فقال الخليفة: «أنا من حين دخلت الدار وأنا أنظر إلى حسنها وأوانيها وفراشها وزينتها حتى ثيابك فإذا عليها اسم جدى المتوكل على الله». قال: «نعم، اعلم يا أمير المؤمنين أيَّدك الله إن الحق شعارك والصدق رداؤك ولا قدرة لأحد على أن يتكلم بغير الصدق فى حضرتك». فأمره بالجلوس فجلس. فقال له: «حدثنى». فقال: «اعلم يا أمير المؤمنين أيدك الله بنصره وحفك بلطائف أمره أنه لم يكن ببغداد أحد أيسر منى ولا من أبى، ولكن أخل لى ذهنك وسمعك وبصرك حتى أحدثك بسبب ما أنكرته علىَّ».

فقال له الخليفة: «قل حديثك». فقال: «اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان أبى بسوق الصيارف والعطارين والبزازين، وكان له فى كل سوق حانوت ووكيل وبضائع من سائر الأصناف، وكان له حجرة من داخل الدكان التى بسوق الصيارف لأجل الخلوة فيها، وجعل الدكان لأجل البيع والشراء، وكان ماله يكثر عن العدَّ، ويزيد عن الحدَّ، ولم يكن له ولد غيرى، وكان محبا لى وشفوقاً علىَّ، فلما حضرته الوفاة دعانى وأوصانى بوالدتى وبتقوى الله تعالى، ثم مات رحمه الله تعالى وأبقى أمير المؤمنين. فاشتغلت باللذات وأكلت وشربت، ثم اتخذت الأصحاب والأصدقاء، وكانت أمى تنهانى عن ذلك وتلومنى عليه. فلم أسمع منها كلاماً حتى ذهب المال جميعه وبعت العقارات ولم يبق لى شىء غير الدار التى أنا فيها، وكانت داراً حسنة يا أمير المؤمنين. فقلت لأمى: «أريد أن أبيع الدار». فقالت: «يا ولدى إن بعتها تفتضح ولاتعرف لك مكانا تأوى إليه».

فقلت: «هي تساوي خمسة آلاف دينار فأشتري من جملة ثمنها داراً بألف دينار ثم أتجر بالباقي، فقالت: «أتبيعني هذه الدار بهذا المقدار؟» قلت: «نعم». فجاءت إلى طابق وفتحته وأخرجت منه إناء من الصيني فيه خمسة آلاف دينار، فتخيل لي أن الدار كلها ذهب فقالت لي: «يا ولدي، لا تظن أن هذا المال مال أبيك والله يا ولدي إنه مال أبي وكنت ادخرته لوقت الحاجة إليه فإني كنت في زمن أبيك غنية عن الاحتياج إلى هذا المال». فأخذت المال منها يا أمير المؤمنين وعدت لما كنت عليه من المآكل والمشرب والصحبة حتى نفدت الخمسة آلاف الدينار ولم أقبل من أمي كلاماً ولا نصيحة.

ثم قلت لها: «مرادي أن أبيع الدار». فقالت: «يا ولدي قد نهيتك عن بيعها لعلمي أنك محتاج إليها فكيف تريد بيعها ثانياً؟» فقلت لها: «لاتطيلي عليّ الكلام فلابد من بيعها». فقالت: «بعني إياها بخمسة عشر ألف دينار بشرط أن أتولى أمورك بنفسي» فبعتها لها بذلك المبلغ على أن تتولى أموري بنفسها، فطلبت وكلاء أبي وأعطت كل واحد منهم ألف دينار وجعلت المال تحت يدها والأخذ والعطاء معها، وأعطتني بعضا من المال لأتجر فيه وقالت لي: «اقعد أنت في دكان أبيك». ففعلت بما قالت أمي يا أمير المؤمنين وجئت إلى الحجرة التي في سوق الصيارف وجاء أصحابي وصاروا يشترون مني وأبيع لهم وطاب لي الربح وكثر مالي، فلما رأتني أمي على تلك الحالة الحسنة أظهرت لي ما كان مدخراً عندها من جواهر ومعدن ولؤلؤ وذهب، ثم عادت لي أملاكي التي وقع فيها التفريط وكثر مالي كما كان ومكثت على هذا الحال مدة. وجاء وكلاء أبي فأعطيتهم البضائع، ثم بنيت حجرة ثانية من داخل الدكان.

فبينما أنا قاعد فيها على عادتي يا أمير المؤمنين وإذا بجارية قد أقبلت عليّ لم تر العيون أجمل منها منظراً، فقالت: «أهذه حجرة أبي الحسن علي بن أحمد الخراساني؟» قلت لها: «نعم» قالت: «أين هو؟». قلت: «هو أنا».

لكن اندهش عقلي من فرط جمالها يا أمير المؤمنين. ثم إنها جلست وقالت لي: «قل لغلامك يزن لي ثلاثمائة دينار». فأمرته أن يزن لها ذلك المقدار فوزنه لها. فأخذته وانصرفت وأنا ذاهل العقل. فقال لي غلامي: «أتعرفها؟» قلت: «لا والله». قال: «فلم قلت لي زن لها؟» فقلت: «والله إني لم أدر ما أقول مما بهرني من حسنها وجمالها» فقام الغلام وتبعها من غير علمي. ثم رجع وهو يبك ويوجهه أثر ضربة. فقلت له: «مابالك؟» فقال: «إني تبعت الجارية لأنظر أين تذهب، فلما أحست بي رجعت وضربتني هذه الضربة فكادت تتلف وتقلع عيني». ثم مكثت شهراً لم أرها ولم تأت وأنا ذاهل العقل في هواها يا أمير المؤمنين. فلما كان آخر الشهر وإذا بها جاءت وسلّمت عليّ فكدت أطير فرحاً، فسألتني عن خبري وقالت: «لعلك قلت في نفسك ما شأن هذه المحتالة كيف أخذت مالي وانصرفت؟». فقلت: «والله يا سيدتي إن مالي وروحي ملك لك». فأسفرت عن وجهها وجلست لتستريح والحلي والحلل تلعب على وجهها وصدرها. ثم قالت لي: «زن لي ثلاثمائة دينار». فقلت: «سمعاً وطاعة». ثم وزنت لها الدنانير فأخذتها وانصرفت.

فقلت للغلام: «اتبعها». فتبعها. ثم عاد وهو مبهوت. ومضت مدة وهي لم تأت. فبينما أنا جالس في بعض الأيام وإذا بها قد أقبلت عليّ وتحدثت ساعة ثم قالت لي: «زن لي

خمسمائة دينار فإنى قد احتجت إليها»، فأردت أن أقول لها: «على أى شىء أعطيك مالى؟»، فمنعنى فرط الغرام من الكلام، وأنا يا أمير المؤمنين كلما رأيتها ترتعد مفاصلى ويصفر لونى وأنسى ما أريد أن أقول وأصير كما قال الشاعر:

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى لا أكاد أجيب

ثم وزنت لها الخمسمائة الدينار فأخذتها وانصرفت، فقمت وتبعتها بنفسى إلى أن وصلت إلى سوق الجواهر فوقفت على إنسان فأخذت منه عقداً والتفت فرأتنى. فقالت: «زن لى خمسمائة دينار». فلما نظرنى صاحب العقد قام إلىَّ وعظمنى، فقلت له: «أعطها العقد وثمنه علىَّ». فقال: «سمعاً وطاعة». فأخذت العقد وانصرفت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فتبعتها حتى جاءت إلى دجلة ونزلت فى مركب، فأومأت إلى الأرض لأقبلها بين يديها فذهبت وضحكت. ومكثت واقفاً أنظرها إلى أن دخلت قصراً، فتأملته فإذا هو قصر الخليفة المتوكل، فرجعت يا أمير المؤمنين وقد حل بقلبى كل هم فى الدنيا وكانت قد أخذت منى ثلاثة آلاف دينار. فقلت فى نفسى: «قد أخذت مالى وسلبت عقلى وربما تلفت نفسي فى هواها». ثم رجعت إلى دارى وقد حدثت أمى بجميع ما جرى لى. فقالت لى: «يا ولدى إياك أن تتعرض لها بعد ذلك فتهلك» فلما رحت إلى دكانى جاءنى وكيلى الذى بسوق العطارين وكان شيخاً كبيراً فقال لى: «يا سيدى مالى أراك متغير الحال يظهر عليك أثر الكآبة فحدثنى بخبرك». فحدثته بجميع ما جرى لى معها. فقال لى: «يا ولدى إن هذه من جوارى قصر أمير المؤمنين وهى محظية الخليفة فاحتسب المال لله تعالى ولا تشغل نفسك بها، وإذا جاءتك فاحذر أن تتعرض لها وأعلمنى بذلك حتى أدبِّر أمراً لئلا يحصل لك تلف».

ثم تركنى وذهب وفى قلبى لهيب النار. فلما كان آخر الشهر وإذا بها قد أقبلت علىَّ، ففرحت بها غاية الفرح، فقالت لى: «ما حملك على أنك تتبعنى؟» فقلت: «حملنى على ذلك فرط الوجد الذى بقلبى»، وبكيت بين يديها. فبكت رحمة لى، وقالت: «والله ما فى قلبك شىء من الغرام إلا وفى قلبى أكثر منه، ولكن كيف أعمل والله ما لى من سبيل». ثم دفعت إلىَّ ورقة وقالت: «خذ هذه إلى فلان الفلانى فإنه وكيلى واقبض منه ما فيها». فقلت: «ليس لى حاجة بمال ومالى وروحى فداك». فقالت: «سوف أدبِّر لك أمراً يكون فيه وصولك إلىَّ وإن كان فيه تعب لى». ثم ودعتنى وانصرفت.

فجئت إلى الشيخ العطار وأخبرته بما جرى لى، فجاء معى إلى دار المتوكل فرأيتها فى المكان الذى دخلت فيه الجارية، فصار الشيخ العطار متحيراً فى حيلة يفعلها. ثم التفت فرأى خياطاً قبال الشباك المطل على الشاطئ وعنده صناع فقال: «بهذا تنال مرادك ولكن افتق جيبك وتقدَّم إليه وقل له إن يخيطه لك فإذا خاطه فادفع له عشرة دنانير».

فقلت له: «سمعاً وطاعة». ثم توجهت إلى ذلك الخياط وأخذت معى شقتين من الديباج الرومى وقلت له: «فصِّل هاتين أربعة ملابس اثنتين فرجية واثنتين غير فرجية. فلما فرغ من تفصيل الملابس وخياطتها أعطيته أجرتها زيادة عن العادة بكثير. ثم مد يده إلىَّ بتلك الملابس.

فقلت: «خذها لك ولمن حضر عندك». وصرت أقعد عنده وأطيل القعود معه. ثم فصلت عنده غيرها وقلت له: «علّقه على وجه الدكان لمن ينظره فيشتريه». ففعل. وصار كل من خرج من قصر الخليفة وأعجبه شيء من الملابس وهبته له حتى البواب، فقال لى الخياط يوماً من الأيام: «أريد يا ولدى أن تصدقنى حديثك لأنك فصلّت عندى مائة حلة ثمينة وكل حلة تساوى جملة من المال ووهبت غالبها للناس وهذا ما هو فعل تاجر لأن التاجر يحاسب على الدراهم، وما مقدار رأس مالك حتى تعطى هذه العطايا وما يكون مكسبك فى كل عام؟ فأخبرنى خبراً صحيحاً حتى أعاونك على مرادك».

فقلت: «مرادى أن أتزوج بجارية من جوارى قصر الخليفة». فقال: «قبّحهن الله كم يفتن الناس». ثم قال لى: «هل تعرف اسمها؟» قلت «لا» فقال: «صفها» فوصفتها له. فقال: «ويلاه هذا عوّادة الخليفة المتوكل المحظية عنده، لكن لها مملوك فاجعل بينك وبينه صداقة لعله يكون سبباً فى اتصالك بها». فبينما نحن فى الحديث وإذا بالمملوك مقبل من باب الخليفة وهو كأنه القمر فى ليلة أربعة عشر وبين يدى الثياب التى خاطها لى الخياط وكانت من الديباج من سائر الألوان. فصار ينظر إليها ويتأمل، ثم أقبل على فقمت إليه وسلمت عليه. فقال: «من أنت؟» فقلت: «رجل من التجار». قال: «أتبيع هذه الثياب؟» قلت: «نعم» فأخذ منها خمسة وقال: «بكم هذه الخمسة؟» فقلت: «هى هدية منى إليك عقد صحبة بينى وبينك».

ففرح بها. ثم جئت إلى بيتى وأخذت له ملبوساً مرصعاً بالجواهر واليواقيت قيمته ثلاثة آلاف دينار وتوجهت به إليه فقبله منى. ثم أخذنى ودخل بى حجرة فى داخل القصر وقال لى: «فما اسمك بين التجار؟» فقلت له: «رجل منهم». فقال: «قد رابنى أمرك». فقلت: «لماذا؟» قال: «لأنك أهديت لى شيئاً كثيراً ملكت به قلبى وقد صح عندى أنك أبو الحسن الخراسانى الصيرفى».

فبكيت يا أمير المؤمنين، فقال لى: «لم تبكى فوالله إن التى تبكى من أجلها عندها من الغرام بك أكثر مما عندك من الغرام بها وأعظم، وقد شاع عند جميع جوارى القصر خبرها معك». ثم قال لى: «وأى شيء تريد؟» فقلت: «أريد أنك تساعدنى على بليتى». فوعدنى إلى غد، فمضيت إلى دارى. فلما أصبحت توجهت إليه ودخلت حجرته. فلما جاء قال: «اعلم أنها لما فرغت من خدمتها عند الخليفة بالأمس ودخلت حجرتها حدثتها بحديثك جميعه وقد عزمت على الاجتماع بك، فاقعد عندى إلى آخر النهار». فقعدت عنده. فلما جن الليل وإذا بالمملوك أتى ومعه قميص منسوج من الذهب وحلة من حلل الخليفة فألبسنى إياها وبخرنى فصرت أشبه الخليفة.

ثم أخذنى إلى محل فيه الحجر صفين من الجانبين وقال لى: «هذه حجر الجوارى الخاصة فإذا مررت عليها فضع على كل باب من الأبواب حبة من الفول لأن من عادة الخليفة أن يفعل هكذا فى كل ليلة إلى أن تأتى إلى الدرب الثانى الذى على يدك اليمنى فترى حجرة عتبة بابها من المرمر، فإذا وصلت إليها فمسها بيدك، وإن شئت فعد الأبواب فهى كذا وكذا باباً فادخل الباب الذى علامته كذا وكذا فتراك صاحبتك وتأخذك عندها، وأما خروجك فإن الله يهوّن علىّ فيه ولو خرجت فى صندوق». ثم تركنى ورجع وصرت أمشى وأعد الأبواب

وأضع على كل باب حبة فول. فلما صرت فى وسط الحجر سمعت ضجة عظيمة ورأيت ضوء الشموع وأقبل ذلك الضوء نحوى حتى قرب منى. فتأملته فإذا هو الخليفة وحوله الجوارى ومعهن الشمع. فسمعت واحدة منهن تقول لصاحبتها: «يا أختى هل نحن لنا خليفتان إن الخليفة قد جاز على حجرتى وشممت منه رائحة العطر والطيب ووضع حبة الفول على حجرتى كعادته وفى هذا الساعة أرى ضوء شموع الخليفة وها هو مقبل. فقالت: «إن هذا أمر عجيب لأن التزيى بزى الخليفة لا يجسر عليه أحد».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: ثم قرب الضوء منى فارتعدت أعضائى، وإذا بخادم يصيح على الجوارى ويقول: «ها هنا»، فانعطفوا إلى حجرة من الحجر ودخلوا. ثم خرجوا ومشوا حتى وصلوا إلى بيت صاحبتى. فسمعت الخليفة يقول: «هذه حجرة من؟» فقالوا: «هذه حجرة شجرة الدر» فقال: «نادوها». فنادوها فخرجت وقبّلت أقدام الخليفة. فقال لها: «أتشربين الليلة؟» فقالت: «إن لم يكن لحضرتك والنظر إلى طلعتك فلا أشرب فإننى لا أميل إلى الشراب فى هذه الليلة». فقال للخادم: «قل للخازن يدفع لها العقد الفلانى». ثم أمر بالدخول إلى حجرتها فدخلت بين يديه الشموع ودخل فى حجرتها، وإذا بجارية أمامهم وضوء وجهها غالب على ضوء الشمعة التى بيدها فقربت منى وقالت: «من هذا؟» ثم قبضت علىّ وأخذتنى إلى حجرة من الحجر وقالت لى: «من أنت؟» فقبّلت الأرض بين يديها وقلت لها: «أناشدك الله يا مولاتى أن تحقنى دمى وترحمينى وتتقربى إلى الله بإنقاذ مهجتى». وبكيت فزعًا من الموت. فقالت: «لا شك أنك لص». فقلت: لا والله ما أنا لص ترين علىّ أثر اللصوص؟» فقالت: «اصدقنى خبرك وأنا أجعلك فى أمان». فقلت: «أنا عاشق جاهل أحمق قد حملتنى الصبابة وجهلى على ما ترين منى حتى وقعت فى هذه الورطة». فقالت: «قف هنا حتى أجىء إليك».

ثم خرجت وجاءتنى بثياب جارية من جواريها وألبستنى تلك الثياب فى تلك الزاوية وقالت: «اخرج خلفى». فخرجت خلفها حتى وصلت إلى حجرتها وقالت: «ادخل هنا». فدخلت حجرتها فجاءت بى إلى سرير وعليه فرش عظيم وقالت: «اجلس لا بأس عليك أما أنت أبو الحسن الخراسانى الصيرفى؟» قلت: «بلى». قالت: «قد حقن الله دمك إن كنت صادقًا ولم تكن لصًا فإنك تهلك لا سيما وأنت فى زى الخليفة ولباسه وبخوره، وأما إن كنت أبا الحسن الخراسانى الصيرفى فإنك قد أمنت ولا بأس عليك فإنك صاحب شجرة الدر التى هى أختى فإنها لا تقطع ذكرك أبدًا وتخبرنا كيف أخذت منك المال ولم تتغير وكيف جئت خلفها إلى الشاطىء وأومأت لها إلى الأرض تعظيمًا، وفى قلبها منك النار أكثر مما فى قلبك منها. ولكن كيف وصلت إلى ها هنا أبأمرها أم بغير أمرها بل خاطرت بنفسك وما مرادك من الاجتماع بها؟ فقلت: «والله يا سيدتى إنى أنا الذى خاطرت بنفسى وما غرضى من الاجتماع بها إلا النظر والاستماع لحديثها». فقالت: «أحسنت». فقلت: «يا سيدتى الله شهيد على ما أقول إن نفسى لم تحدثنى فى شأنها بمعصية». فقالت: «بهذه النية نجاك الله ووقعت رحمتك فى قلبى».

ثم قالت لجاريتها: «يا فلانة امضى إلى شجرة الدر وقولى لها: إن أختك تسلم عليك

وتدعوك فتفضلى عندها هذه الليلة على جرى عادتك فإن صدرها ضيق». فتوجهت إليها ثم عادت وأخبرتها إنها تقول: «متعنى الله بطول حياتك وجعلنى فداك والله لو دعوتنى إلى غير هذا ما توقفت لكن يضرنى صداع الخليفة وأنت تعلمين منزلتى عنده». فقالت للجارية: «ارجعى إليها وقولى لها إنه لا بد من حضورك لسر بينك وبينها».

فتوجهت إليها الجارية وبعد ساعة جاءت مع الجارية وجهها يضىء كأنه البدر، فقابلتها واعتنقتها وقالت: «يا أبا الحسن اخرج إليها وقبّل يديها». وكنت فى مخدع فى داخل الحجرة فخرجت إليها يا أمير المؤمنين. فلما رأتنى قالت لى: «كيف صرت بلباس الخليفة وزينته وبخوره؟» ثم قالت: «حدثنى بما جرى لك». فحدثتها بما جرى لى وبما قاسيته من خوف وغيره، فقالت: «يعز علىَّ ما قاسيته من أجلى والحمد لله الذى جعل العاقبة إلى السلامة وتمام دخولك فى منزل أختى». ثم أخذتنى إلى حجرتها وقالت لأختها: «إنى عاهدته أن لا أجتمع معه فى الحرام، ولكن كما خاطر بنفسه وارتكب هذا الهول لأكونن أرضًا لوطء قدميه وترابًا لنعليه».

فقالت لها أختها: «بهذه النية نجاه الله تعالى». فقالت: «سوف ترين ما أصنع حتى أجتمع معه فى الحلال، فلا بد أن أبذل مهجتى فى التحيل على ذلك». فبينما نحن فى الحديث وإذا بضجة عظيمة، فالتفتنا فرأينا الخليفة قد جاء يريد حجرتها من كثرة ما هو كلف بها. فأخذتنى يا أمير المؤمنين وحطتنى فى سرداب وطبقته علىَّ وخرجت تقابل الخليفة فلاقته ثم جلس. فوقفت بين يديه وخدمته. ثم أمرت بإحضار الشراب. وكان الخليفة يحب جارية اسمها البنجة وهى أم المعتز بالله، وكانت تلك الجارية قد هجرته وهجرها فلعزّ الحسن والجمال لا تصالحه والمتوكل لعزة الخلافة والملك لا يصالحها ولا يكسر نفسه لها مع أن فى قلبه منها لهيب النار، ولكنه تشاغل عنها بنظائرها من الجوارى والدخول إليهن فى حجراتهن، وكان يحب غناء شجرة الدر فأمر بالغناء، فأخذت العود وشدت الأوتار وغنت بهذه الأشعار:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبرُ

فلما سمعها الخليفة طرب طربًا شديدًا وطربت أنا يا أمير المؤمنين فى السرداب ولولا لطف الله تعالى لصحت وافتضحنا. فقال الخليفة: «تمنى علىَّ يا شجرة الدر». فقالت: «أتمنى عليك عتقى يا أمير المؤمنين لما فيه من الثواب». فقال: «أنت حرة لوجه الله تعالى». فقبلت الأرض بين يديه فقال: «خذى العود وقولى لنا شيئًا فى شأن جاريتى التى أنا متعلق بهواها والناس تطلب رضاى وأنا أطلب رضاها». فأخذت شجرة الدر العود بين يديها وضربت عليه وأنشدت هذين البيتين:

أيا ربة الحسن التى أذهبت نسكى ... على كل أحوالى فلا بدَّ لى منك
فإما بذلٍّ وهو أليق بالهوى ... وإما بعز وهو أليق بالملك

فطرب الخليفة وقال: «خذى العود وغنى شعرًا يتضمن شرح حالى مع ثلاث جوار ملكن قيادى ومنعن رقادى، وهن أنت وتلك الجارية الهاجرة، وأخرى لا أسميها ليس لها مناظرة». فأخذت العود وأطربت بالنغمات. وأنشدت هذه الأبيات:

ملك الثلاث الغانيات عنانى وحللن من قلبى أعز مكان
مالى مُطاعٌ فى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطانى الهوى وبه غلبن أعزَّ من سلطانى

فتعجب الخليفة من موافقة هذا الشعر لحاله غاية العجب، ومال به إلى مصالحة الجارية الهاجرة الطرب، ثم خرج وقصد حجرتها، فسبقت جارية وأخبرتها بقدوم الخليفة فاستقبلته وقبّلت الأرض بين يديه ثم قبّلت قدميه فصالحها وصالحته.

هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر شجرة الدر فإنها جاءت إلىَّ وهى فرحانة وقالت: «إنى صرت حرة بقدومك المبارك لعل الله يعيننى على ما أدبّره حتى أجتمع بك فى الحلال»، فقلت: «الحمد لله». فبينما نحن فى الحديث وإذا بخادمها قد دخل علينا فحدثناه بما جرى لنا فقال: «الحمد لله الذى جعل آخره خيرًا ونسأل الله أن يتم ذلك بخروجك سالمًا». فبينما نحن فى الحديث وإذا بالجارية أختها قد جاءت وكان اسمها فاتر فقالت: «يا أختى كيف نعمل حتى نخرجه من القصر سالمًا فإن الله مَنَّ علىَّ بالعتق وصرت حرة ببركة قدومه» فقالت لها: «ليس لى حيلة بخروجه بأن ألبسه ثياب النساء». ثم جاءت ببدلة من ثياب النساء فألبستنيها. ثم خرجت يا أمير المؤمنين فى ذلك الوقت. فلما جئت إلى وسط القصر وإذا بأمير المؤمنين جالس والخدم بين يديه فنظر إلىَّ وأنكرنى غاية الإنكار وقال لحاشيته: «أسرعوا وأتونى بهذه الجارية الذاهبة». فلما أتوا بى رفعوا نقابى.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهر زاد: فلما رآنى عرفنى وسألنى فأخبرته بالخبر ولم أخفِ عنه شيئًا. فلما سمع حديثى تفكر فى أمرى. ثم قام من وقته وساعته ودخل حجرة شجرة الدر فقال: «كيف تختارين علىَّ بعض أولاد التجار؟» فقبّلت الأرض بين يديه وحدثته بحديثها من أوله إلى آخره على وجه الصدق. فلما سمع كلامها رحمها ورق قلبه لها وعذرها فى العشق وأحواله ثم انصرف. ودخل عليها خادمها وقال لها: «طيبى نفسًا إن صاحبك لما حضر بين يدى الخليفة سأله فأخبره كما أخبرته حرفًا بحرف». ثم رجع الخليفة وأحضرنى بين يديه وقال لى: «ما حملك على التجارى على دار الخلافة؟» فقلت: يا أمير المؤمنين حمّلنى على ذلك جهلى والصبابة والإقبال على عفوك وكرمك». ثم بكيت وقبّلت الأرض بين يديه. فقال: «عفوت عنكما». ثم أمرنى بالجلوس فجلست فدعا بالقاضى أحمد بن أبى داود وزوَّجنى بها وأمر بحمل جميع ما عندها إلىَّ وزفوها علىَّ فى حجرتها، وبعد ثلاثة أيام خرجتُ ونقلت جميع ذلك إلى بيتى. فجميع ما تنظره يا أمير المؤمنين فى بيتى وتنكره كله من جهازنا. ثم إنها قالت لى يومًا من الأيام: «اعلم أن المتوكل رجل كريم وأخاف أن يتذكرنا أو يذكرنا عنده أحد من الحساد فأريد أن أعمل شيئًا يكون فيه الخلاص من ذلك». قلت: «وما هو؟» قالت: «أريد أن أستأذنه فى الحج والتوبة من الغناء». فقلت لها: «نعم الرأى الذى أشرتِ إليه».

فبينما نحن فى الحديث وإذا برسول الخليفة قد جاءنى فى طلبها لأنه كان يحب غناءها فمضت وخدمته. فقال لها: «لا تنقطعى عنا». فقالت: «سمعًا وطاعة». فاتفق أنها

ذهبت إليه فى بعض الأيام وكان قد أرسل إليها على جرى العادة. فلم أشعر إلا وقد جاءت من عنده ممزقة الثياب باكية العين. ففزعت من ذلك وقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون». وتوهمت أنه أمر بالقبض علينا فقلت لها: «هل المتوكل غضب علينا؟» فقالت: «وأين المتوكل إن المتوكل قد انقضى حكمه وانمحى رسمه». فقلت: «أخبرينى بحقيقة الأمر». فقالت: «إنه كان جالسًا وراء الستارة يشرب وعنده الفتح بن خاقان وصدقة بن صدقة، فهجم عليه ولده المنتصر هو وجماعة من الأتراك فقتله وانقلب السرور بالشرور، والحظ الجميل بالبكاء والعويل، فهربت أنا والجارية وسلمنا الله».

ثم قمت فى الحال يا أمير المؤمنين وانحدرت إلى البصرة، وجاءنى الخبر بعد ذلك بوقوع الحرب بين المنتصر والمستعين.

فخفت فنقلت زوجتى وجميع مالى إلى البصرة، وهذه حكايتى يا أمير المؤمنين لا زدتها حرفًا ولا نقصتها حرفًا.

فجميع ما نظرته فى بيتى يا أمير المؤمنين مما عليه اسم جدك المتوكل هو من نعمته علينا لأن أصل نعمتنا من أصولك الأكرمين وأنتم أصل النعم ومعدن الكرم.

ففرح الخليفة بذلك فرحًا شديدًا وتعجّب من حديثه. ثم أخرجت للخليفة الجارية وأولادى منها فقبلوا الأرض بين يديه، فتعجب من جمالهم واستدعى بدواة وكتب لنا برفع الخراج عن أملاكنا عشرين سنة ففرح الخليفة واتخذه نديمًا إلى أن فرق الدهر بينهم، وسكنوا القبور بعد القصور، فسبحان الملك الغفور.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية قمر الزمان

قالت شهر زاد: ومما يحكى أيضًا أيها الملك السعيد أنه كان فى قديم الزمان رجل تاجر اسمه عبد الرحمن قد رزقه الله بنتًا وولدًا. فسمى البنت كوكب الصباح لشدة حسنها وجمالها وسمى الولد قمر الزمان لشدة حسنه. ولما نظر ما أعطاهما الله من الحسن والجمال والبهاء والاعتدال خاف عليهما من أعين الناظرين وألسنة الحاسدين ومكر الماكرين وتحيل الفاسقين فحجبهما عن الناس فى قصر مدة أربع عشرة سنة ولم يرهما أحد غير والديهما وجارية تتعاطى خدمتهما، وكان والدهما يقرأ القرآن كما أنزله الله وكذلك أمهما تقرأ القرآن. فصارت الأم تقرئ بنتها والرجل يُقرِئ ولده حتى حفظا القرآن وتعلما الخط والحساب والفنون والآداب من أبيهما وأمهما ولم يحتاجا إلى معلم.

فلما بلغ الولد مبلغ الرجال قالت للتاجر زوجته: «إلى متى وأنت حاجب ولدك قمر الزمان عن أعين الناس أهو بنت أم غلام؟» فقال لها: «غلام». قالت: «حيث كان غلامًا لمَ لمْ تأخذه معك إلى السوق وتقعده فى الدكان حتى يعرف الناس ويعرفونه لأجل أن يشتهر عندهم أنه ابنك وتعلمه البيع والشراء، وربما حصل لك أمر فيكون الناس قد عرفوا أنه ولدك فيضع يده على مخلفاتك، وأما إذا متّ على هذه الحالة وقال للناس أنا ابن التاجر عبد الرحمن فإنهم لا يصدقونه بل يقولون ما رأيناك ولا نعرف أن له ولدًا وتأخذ أموالك الحكام ويصير

ولدك محرومًا، وكذلك البنت مرادي أن أشهرها عند الناس لعل أحدًا كفؤًا لها يخطبها فنزوجها له ونفرح بها. فقال لها: «مخافة عليهما من أعين الناس لأني محب لهما والمحب شديد الغيرات» وقد أحسن من قال هذه الأبيات:

أغار عليك من نظري ومني ... ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أني وضعتك في عيوني ... دومًا ما سئمت من التداني

ولو واصلتني في كل يوم ... إلى يوم القيامة ما كفاني

فقالت له زوجته: «توكل على الله ولا بأس على من يحفظه الله وخذه في هذا اليوم معك إلى الدكان». ثم إنها ألبسته بدلة من أفخر الملابس فصار فتنة للناظرين وحسرة في قلوب العاشقين، وأخذه أبوه ومضى به إلى السوق فصار كل من رآه يفتتن به ويتقدم إليه ويبوس يده ويسلّم عليه. وصار أبوه يشتم الناس حيث تبعوه لقصد الفرجة وصار البعض من الناس يقول: «إن الشمس قد طلعت في المحل الفلاني وأشرقت في السوق» والبعض يقول: «مطلع البدر الجهة الفلانية». والبعض يقول: «ظهر هلال العيد على عباد الله». وصاروا يلمّحون إلى الولد بالكلام ويدعون له.

وقد حصل لأبيه خجل من كلام الناس ولا يقدر أن يمنع أحدًا منهم عن الكلام ، وصار يشتم أمه ويدعو عليها لأنها هي التي كانت سببًا في خروجه، والتفت أبوه فرأى الخلائق مزدحمين عليه خلفه وقدامه وهو ماش إلى أن وصل إلى الدكان، ففتح الدكان وجلس وجلس ولده قدامه. والتفت إلى الناس فرآهم قد سدُّوا الطريق، وصار كل من مرَّ به من رائح وغادٍ يقف قدام الدكان وينظر إلى ذلك الوجه الجميل ولا يقدر أن يفارقه وانعقد عليه إجماع النساء والرجال، فلما رأى الناس مزدحمين عليه وواقفين صفوفًا نساءً ورجالاً لديه شاخصين لولده خجل غاية الخجل وصار متحيرًا في أمره ولم يدر ماذا يصنع، فلم يشعر إلا ورجل درويش من السيَّاحين وعليه شعار عباد الله الصالحين قد أقبل عليه من طرف السوق ثم تقدم إلى الغلام وصار ينشد الأشعار، ويرخي الدموع الغزار، فلما رأى قمر الزمان جالسًا كأنه قضيب البان، نابت على كثيب من الزعفران، أفاض دمع العين وأنشد بصوت رخيم هذين البيتين:

رأيت غصنًا على كثيب ... شبيهه بدر إذا تلالا

فقلت ما الاسم قال لؤلؤ ... فقلت لي لي فقال لا لا

حكاية قمر الزمان مع الدرويش

ثم إن الدرويش صار يمشي الهوينا ويمسح شيبته بيده اليمنى، فانشق لهيبته قلب الزحام، فلما نظر إلى الغلام اندهش منه العقل والناظر وانطبق عليه قول الشاعر:

فبينما ذلك المليح في محل ... من وجهه هلال عيد الفطر هل

إذا بشيخ ذي وقار قد أهل ... معتمدًا في مشيه على مهلْ

يُرى عليه أثرُ للزهدِ

قد مارس الأيام والليالي ... وخاض في الحرام والحلالِ

وهام بالنساء والرجال ... رقَّ حتى صار كالخلالِ

وعاد عظمًا باليًا في جلدِ

ثم تقدم إلى الولد فأعطاه عرق ريحان، فمد أبوه يده إلى جيبه وأخرج له ما تيسر من الدراهم وقال: «خذ نصيبك يا درويش واذهب إلى حال سبيلك». فأخذ منه الدراهم وجلس على مصطبة الدكان قدام الولد وصار ينظر إلى الولد ويبكى ويتحسر حسرات متتابعة ودموعه كالعيون النابعة، فصارت الناس تنظر إليه وتعترض عليه وبعضهم يقول: «كل الدراويش فساق». وبعضهم يقول: «إن الدرويش فى قلبه من عشق الولد احتراق». وأما أبوه لما عاين هذا الحال قام وقال: «قم يا ولدى حتى نقفل الدكان ونروح إلى بيتنا ولا ينبغى لنا فى هذا اليوم بيع ولا شراء، الله تعالى يجازى أمك بما فعلت معنا فإنها هى التى تسببت فى هذا كله».

ثم التفت إلى الدرويش وقال: «يا درويش قم حتى أقفل الدكان». فقام الدرويش وقفل التاجر دكانه وأخذ ولده ومشى، فتبعهما الدرويش والناس إلى أن وصلا إلى منزلهما. فدخل الولد المنزل والتفت التاجر إلى الدرويش وقال له: «ما تريد يا درويش وما لى أراك تبكى؟». فقال: «يا سيدى أريد أن أكون ضيفك فى هذه الليلة والضيف ضيف الله تعالى». فقال التاجر: «مرحبًا بضيف الله ادخل يا درويش».

فقال التاجر فى نفسه: «إن كان هذا الدرويش عاشقًا للولد وطلب منه فاحشة فلا بد أن أقتله فى هذه الليلة وأخفى قبره، وإن كان ما عنده فساد فإن الضيف يأكل نصيبه». ثم إنه أدخل الدرويش هو وقمر الزمان فى قاعة وقال سرًا لقمر الزمان: «يا ولدى اجلس بجانب الدرويش بعد أن أخرج من عندكما، فإن طلب منك فسادًا فأنا أكون ناظرًا لكما من الطاقة المطلة على القاعة فأنزل إليه وأقتله».

ثم إن الولد لما اختلى به الدرويش فى تلك القاعة قعد بجانب الدرويش، فصار الدرويش ينظر إليه ويتحسر ويبكى، وإذا كلمه الولد يرد عليه برفق وهو يرتعش ويتلفت إلى الولد ويتنهد ويبكى إلى أن أتى العشاء، فصار يأكل وعينه إلى الولد ولا يفتر عن البكاء، فلما مضى ربع الليل وفرغ الحديث وجاء وقت النوم قال أبو الولد: «يا ولدى تقيد بخدمة عمك الدرويش ولا تخالفه». وأراد أن يخرج فقال له الدرويش: «يا سيدى خذ ولدك معك أو نم عندنا». قال: «لا وها هو ولدى نائم عندك ربما تشتهى نفسك شيئًا فولدى يقضى حاجتك ويقوم بخدمتك». ثم خرج وخلاهما وقعد فى قاعة ثانية فيها طاقة تطل على القاعة التى هما فيها.

هذا ما كان من أمر التاجر، وأما ما كان من أمر الولد فإنه تقدم إلى الدرويش وصار يناغشه، فاغتاظ الدرويش وقال له: «ما هذا الكلام يا ولدى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللهمَّ إن هذا منكر لا يرضيك أبعد عنى يا ولدى». ثم قام الدرويش من مكانه وقعد بعيدًا عن الولد، فتبعه الولد وقال له: «لأى شىء يا درويش تحرم نفسك وأنا قلبى يحبك». فازداد غيظ الدرويش وقال له: «إن لم تمتنع عنى ناديت أباك وأخبره بخبرك». فقال له: «إن أبى يعرف أننى بهذه الصفة ولا يمكن أن يمنعنى». فقال له: «والله يا ولدى ما أفعل ذلك ولو قطعت بالسيوف البواتر». ثم إنه قام فشدد عليه الغلام فانفلت منه الدرويش وهو يتمتم واستقبل القبلة وصار يصلى.

فلما رآه يصلى تركه حتى صلى ركعتين وسلم، وأراد أن يتقدم إليه فنوى الصلاة ثانى مرة وصلى ركعتين، ولم يزل يفعل هكذا ثالثًا ورابعًا وخامسًا، فقال له الولد: «وما هذه الصلاة هل مرادك أن تطير على السحاب، أضعت حظنا وأنت طول الليل فى المحراب؟» فقال له: «يا ولدى اخز عنك الشيطان وعليك بطاعة الرحمن».

كل هذا وأبوه ينظر بعينه ويسمع بأذنه، فثبت عند أبى الولد أن الدرويش ما عنده فساد وقال فى نفسه: «لو كان هذا الدرويش مفسودًا ما كان يتحمل هذه المشقة كلها». ثم إن الولد صار يحاول الدرويش وكلما نوى الصلاة قطعها عليه، حتى اغتاظ الدرويش غاية الغيظ على الولد وأغلظ على الولد وضربه فبكى الولد، فدخل عليه أبوه ومسح دموعه وأخذ بخاطره وقال للدرويش: «يا أخى حيث كنت على هذه الحالة لأى شىء تبكى وتتحسر حين رأيت ولدى، هل لهذا من سبب؟».

قال الدرويش: «نعم». فقال له: «أنا لما رأيتك تبكى عند رؤيته ظننت بك السوء فأمرت الولد بهذا الأمر حتى أجربك وأضمرت أنى إذا رأيتك تطلب منه فاحشة أدخل عليك وأقتلك، فلما رأيت ما وقع منك عرفت أنك من الصلاح على غاية، ولكن بالله عليك أن تخبرنى بسبب بكائك». فتنهد الدرويش وقال:

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية استماع قمر الزمان من الدرويش قصة الصبية التى فى البصرة

قالت شهر زاد: «اعلم أننى درويش سيَّاح فى البلاد والأقطار لأعتبر بآثار خالق الليل والنهار، فاتفق أنى دخلت مدينة البصرة فى يوم جمعة ضحوة النهار فرأيت الدكاكين مفتوحة وفيها من سائر الأصناف والبضائع والمآكل والمشرب وهى خالية ليس فيها رجل ولا امرأة ولا بنت ولا ولد، وليس فى الشوارع والأسواق كلاب ولا قطط ولا حس ولا حسيس ولا إنس ولا أنيس، فتعجبت من ذلك وقلت: «يا ترى أين راح أهل هذه المدينة بقططهم وكلابهم وما فعل الله بهم». وكنت جائعًا فأخذت عيشًا سخنًا من فرن خبَّاز ودخلت دكان زيَّات وبسست العيش بالسمن والعسل وأكلت، وطلعت دكان شربات فشربت ما أردت ورأيت القهوة مفتوحة فدخلتها ورأيت فيها البكارج على النار ممتلئة بالقهوة وليس فيها أحد فشربت كفايتى وقلت: «إن هذا لشىء عجب كأن أهل هذه المدينة أتاهم الموت فماتوا هذه الساعة أو خافوا من شىء نزل بهم فهربوا وما قدروا يقفلوا دكاكينهم».

فبينما أنا أفكر فى هذا الأمر وإذا بصوت نوبة تدق فخفت واختفيت حصة من الزمان وصرت أنظر من خلال الخروق فرأيت جوارى كأنهن الأقمار قد مشين فى السوق زوجًا زوجًا من غير غطاء بل مكشوفات الوجوه وهن أربعون زوجًا بثمانين جارية. ورأيت وليدة راكبة على جواد لا يقدر أن ينقل أقدامه مما عليه وعليها من الذهب والفضة والجواهر، وتلك الوليدة مكشوفة الوجه من غير غطاء وهى مزينة بأفخر الزينة لابسة أفخر الملبس وفى عنقها عقد من الجواهر وفى صدرها قلائد من الذهب وفى يديها أساور تضىء كالنجوم وفى رجليها خلاخل من الذهب مرصعة بالمعادن، والجوارى قدامها وخلفها وعن يمينها وعن شمالها، وبين يديها جارية مقلدة بسيف عظيم قبضته من زمرد وعلائقه من ذهب مرصع بالجواهر الثمينة والمعادن النادرة.

فلما وصلت تلك الصبية إلى الجهة التى قدامى حبست عنان الجواد وقالت: «يا بنات إنى قد سمعت حس شىء فى داخل هذا الدكان ففتشنه لئلا يكون فيه أحد مستخف ومراده أن يتفرج علينا ونحن مكشوفات الوجوه». ففتشن الدكان الذى قدام القهوة التى أنا مستخف

فيها وبقيت أنا خائفًا، فرأيتهن قد خرجن برجل وقلن لها: «يا سيدتنا قد رأينا هنا رجلاً وها هو بين يديك». فقالت للجارية التي معها السيف: «ارمى عنقه». فتقدمت إليه الجارية وضربت عنقه، ثم تركته مطروحًا على الأرض ومضين، ففزعت أنا لما رأيت هذه الحالة. وبعد ساعة ظهر الناس وصار كل من كان له دكان يدخلها ودرجت الناس فى الأسواق والتموا على المقتول يتفرجون عليه. فخرجتُ أنا من المكان الذى كنت فيه سرا ولم ينتبه لى أحد ولكن تملَّك قلبى محبة تلك الصبية، فصرت أتجسس عليها سرًا فلم يخبرنى أحد عنها بخبر، ثم إنى خرجت من البصرة، وفى قلبى من عشقها حسرة، فلما رأيت ابنك هذا رأيته أشبه الناس بتلك الصبية فأذكرنى بها وهذا سبب بكائى». ثم إنه بكى بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد وقال: «يا سيدى بالله عليك أن تفتح لى الباب حتى أذهب إلى حال سبيلى». ففتح له الباب وخرج.

حكاية سفر قمر الزمان إلى البصرة ودخوله إليها

قالت شهر زاد: أما قمر الزمان فإنه لما سمع كلام الدرويش اشتغل باله بتلك الصبية، فلما أصبح الصباح قال لأبيه: «كل أولاد التجار يسافرون إلى تلك البلاد لتحصيل المراد وليس منهم واحد إلا وأبوه يجهز له بضاعة فيسافر بها ويربح فيها، ولأى شىء يا أبى لم تجهز لى تجارة حتى أسافر بها وأنظر سعدي»؟ فقال له: «يا ولدى إن التجار مقلون من المال فيسفرون أولادهم من أجل الفوائد والمكاسب وجلب الدنيا، وأما أنا فعندى أموال كثيرة وليس عندى طمع فكيف أغربك، وأنا لا أقدر على فراقك ساعة، خصوصًا وأنت فريد الجمال والحسن والكمال وأخاف عليك كثيرًا من أعين الحساد».

فقال لأبيه: «يا أبى لا يمكن إلا أن تجهز لى متجرًا لأسافر به وإلا أغافلك وأهرب ولو من غير مال ولا تجارة، وإن أردت تطييب خاطرى فجهِّز لى بضاعة حتى أسافر وأتفرج على بلاد الناس». فلما رآه أبو متعلقًا بالسفر أخبر زوجته بهذا الخبر، وقال لها: «إن ولدك يريد أن أجهِّز له متجرًا ليسافر به إلى بلاد الغربة مع أن الغربة كربة». فقالت له زوجته: «ماذا يضرُّك من ذلك إن هذه عادة أولاد التجار فكلهم يتفاخرون بالأسفار والمكاسب». فقال لها: «إن غالب التجار فقراء يطلبون كثرة المال وأما أنا فمالى كثير». فقالت له: «زيادة الخير لا تضر وإن كنت أنت لا تسمح له بذلك فأنا أجهِّز له متجرًا من مالى». فقال التاجر: «إنى أخاف عليه من الغربة لأنها بئست الكربة». قالت: «لا بأس بالاغتراب الذى فيه الاكتساب وإلا يذهب ولدنا ونطلبه فلا نراه ونفتضح بين الناس». فقبل التاجر كلام زوجته وجهز متجرًا لولده بتسعين ألف دينار، وأعطته أمه كيسًا فيه أربعون فصًا من ثمين الجواهر أقل قيمة الواحد خمسمائة دينار وقالت: «يا ولدى احتفظ على هذه الجواهر فإنها تنفعك».

فأخذ قمر الزمان جميع ذلك وسافر إلى البصرة، وكان قد وضع الجواهر فى كمر وشده على وسطه، ولم يزل مسافرًا حتى لم يبق بينه وبين البصرة إلا مرحلة واحدة، فخرج عليه العرب وعروه وقتلوا رجاله وخدمه، فرقد بين قتيلين ولطخ روحه بالدم، فظن العرب أنه مقتول فتركوه ولم يتقرب منه أحد ثم أخذوا أمواله وراحوا، فلما راح العرب إلى حال سبيلهم قام قمر الزمان من بين القتلى ومشى وهو لا يملك شيئًا غيرالفصوص التى على حزامه، ولم يزل سائرًا حتى دخل البصرة، فاتفق أن دخوله كان فى يوم جمعة وكانت المدينة خالية من

الناس كما أخبر الدرويش، فرأى الأسواق خالية والدكاكين مفتوحة وهى ممتلئة بالبضائع والتحف فأكل وشرب وصار يتفرج.

وبينما هو كذلك إذ سمع النوبة تدق فاختفى فى دكان إلى أن جاءت البنات فتفرج عليهن، وبعد حصة من الزمان ظهرت الناس وملأت الأسواق.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية ملاقاة قمر الزمان مع المزين وسؤاله منه عن حال الصبية

قالت شهر زاد: فذهب قمر الزمان إلى السوق وتوجه إلى رجل جوهرى وأخرج له حجرًا من الأربعين يساوى ألف دينار فباعه له ورجع إلى محله، ثم بات تلك الليلة، فلما أصبح الصباح غير حوائجه ودخل الحمام وطلع كأنه البدر التمام، ثم باع أربعة فصوص بأربعة آلاف دينار وصار يتفرج فى شوارع البصرة وهو لابس أفخر الملابس حتى وصل إلى سوق فرأى فيه رجلاً مزينًا فدخل عنده وحلق رأسه وعمل معه صحبة، ثم قال له: «يا والدى أنا غريب البلاد وبالأمس دخلت هذه المدينة فرأيتها خالية من السكان وما فيها أحد من إنس ولا جان، ثم إنى رأيت بنات وبينهن صبية راكبة فى موكب». وأخبره بما رأى. فقال له المزين: «يا ولدى هل أخبرت غيرى بهذا الخبر؟». قال: «لا». فقال له: «يا ولدي إياك أن تذكر هذا الكلام قدام أحد غيرى فإن كل الناس لا يكتمون الكلام والأسرار وأنت ولد صغير فأخاف عليك أن ينتقل الكلام من ناس إلى ناس حتى يصل إلى أصحابه فيقتلوك، واعلم يا ولدى أن هذا الذى رأيته ما أحد رآه ولا يعرفه فى غير هذه المدينة، وأما أهل البصرة فإنهم يموتون بهذه الحسرة وفى كل يوم جمعة عند ضحوة النهار يحبسون الكلاب والقطط ويمنعونها عن المشى فى الأسواق وجميع أهل المدينة يدخلون الجوامع ويغلقون عليهم الأبواب ولا يقدر أحد منهم أن يمر فى السوق ولا أن يطل من طاقة ولا يعرف أحد ما سبب هذه البلية، ولكن يا ولدى فى هذه الليلة أسأل زوجتى عن سببها فإنها داية تدخل بيوت الأكابر وتعرف أخبار هذه المدينة، فإن شاء الله تعالى تأتى عندى فى غد وأنا أخبرك بما تخبرنى به».

فقبض قمر الزمان قبضة من الذهب وقال: «يا والدى خذ هذا الذهب وأعطه لزوجتك فإنها صارت أمى». وقبض قبضة ثانية وقال: «خذ هذا لك». فقال المزين: «يا ولدى اجلس مكانك حتى أروح إلى زوجتى وأسألها وأجيء إليك بالخبر الصحيح». ثم تركه فى الدكان وراح إلى زوجته وأخبرها بشأن الغلام وقال لها: «مرادى أن تخبرينى بحقيقة أمر هذه المدينة حتى أخبر به هذا الشاب التاجر فإنه مولع بالاطلاع على حقيقة أمرها من امتناع الناس والحيوانات عن الأسواق فى ضحوة يوم الجمعة وهو كريم سخى فإذا أخبرناه يحصل لنا منه خير كثير ومال وفير».

فقالت له: «رُح هاته وقل له: تعال كلِّم أمك زوجتى فإنها تقرئك السلام وتقول لك: إن الحاجة مقضية». فذهب إلى الدكان فرأى قمر الزمان ينتظره فقال له: «يا ولدى اذهب بنا إلى أمك زوجتى فإنها تقول لك إن الحاجة مقضية.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية إتيان قمر الزمان عند زوجة المزين وإخبارها له بقصة الصبية

قالت شهرزاد: ثم أخذه وسار به حتى دخل على زوجته فرحبت به وأجلسته، ثم إنه أخرج مائة دينار وأعطاها لها وقال لها: «يا أمى أخبرينى عن هذه الصبية من تكون»؟، فقالت: «يا ولدى اعلم أن سلطان البصرة قد جاءته جوهرة من عند ملك الهند فأراد أن يثقبها فأحضر جميع الجوهرية وقال لهم: «أريد منكم أن تثقبوا لى هذه الجوهرة والذى يثقبها له علىَّ تمنية فمهما تمناه أعطيته له، وإن كسرها فإنى أرمى رأسه». فخافوا وقالوا: «يا ملك الزمان إن الجوهر سريع العطب وقل أن يثقبه أحد ويسلم لأن الغالب عليه الكسر، فلا تحملنا ما لا نطيق فنحن لا يخرج من أيدينا أن نثقب هذه الجوهرة، وإنما شيخنا أخبر منَّا» فقال الملك: «ومن شيخكم». قالوا له: «المعلم عبيد وهو أخبر منا بهذه الصنعة وعنده أموال كثيرة وله معرفة جيدة فأرسل إليه واحضره بين يديك ومُره أن يثقب لك هذه الجوهرة». فأرسل إليه وأمره بثقبها وشرط عليه الشرط المذكور، فأخذها وثقبها على مزاج الملك. فقال له: «تمنَّ علىَّ يا معلم». فقال: «يا ملك الزمان أمهلنى إلى غد». والسبب ذلك أنه أراد أن يشاور زوجته، وكانت زوجته تلك الصبية التى رأيتها فى الموكب وكان يحبها محبة شديدة ومن عظم محبته لها أنه كان لا يفعل شيئًا إلا إذا شاورها فيه ولأجل ذلك أمهل التمنية حتى يشاورها.

فلما أتى إليها قال لها: «إنى ثقبت للملك جوهرة وأعطانى تمنية وقد أمهلتها حتى أشاورك فأى شيء تريدين حتى أتمناه؟». قالت: «نحن عندنا أموال لا تأكلها النيران، ولكن إن كنت تحبنى فتمنَّ على الملك أنه ينادى فى شوارع البصرة أن أهلها يدخلون الجوامع يوم الجمعة قبل الصلاة بساعتين ولا يبقى فى البلد كبير ولا صغير حتى يكون فى المسجد أو فى البيت وتقفل عليهم أبواب المساجد والبيوت ويتركون دكاكين البلد مفتوحة، وأنا أركب بجوارىَّ وأشق فى المدينة ولا ينظرنى أحد من طاقة ولا من شباك، وكل من عثرت به قتلته». فراح إلى الملك وتمنى عليه هذه الأمنية، فأعطاه ما تمناه ونادى بين أهل البصرة بما تمناه، فقالوا: «إننا نخاف على البضائع من القطط والكلاب» فأمر الملك بحبسها فى ذلك اليوم حتى تخرج الناس من صلاة الجمعة.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: وصارت تلك الجارية تخرج فى كل يوم جمعة قبل الصلاة بساعتين وتركب بجواريها فى شوارع البصرة ولا يقدر أحد أن يمر فى السوق ولا أن يطل من طاقة ولا من شباك، فهذا هو السبب وقد عرفتك بالجارية، ولكن يا ولدى هل مرادك معرفة خبرها أو مرادك الاجتماع بها؟». فقال: «يا أمى مرادى الاجتماع بها».

فقالت: «أخبرنى بما عندك من الذخائر الفاخرة؟». فقال: «يا أمى عندي من ثمين المعادن أربعة أصناف، صنف ثمن كل واحد منه ثمانمائة دينار، وصنف ثمن كل واحد منه ألف دينار». قالت له: «وهل تسمح نفسك بأربعة منها؟». قال: «نفسى تسمح بالجميع». قالت: «قم يا ولدى من غير مطرود واخرج منها فصا يكون ثمنه خمسمائة دينار واسأل عن دكان المعلم عبيد شيخ الجوهرية واذهب إليه تره جالسًا فى دكانه وعليه ثياب فاخرة وتحت يده الصناع، فسلِّم عليه واجلس على الدكان وأخرج الفص وقل له: يا معلم خذ هذا الحجر وصفه لى

خاتمًا بالذهب ولا تجعله كبيرًا بل اجعله مقدار مثقال من غير زيادة واصنعه صنعًا جيدًا، ثم أعطه عشرين دينارًا وأعط الصناع كل واحد دينارًا واقعد عنده حصة وتحدث معه، وإذا أتاك سائل فأعطه دينارًا وأظهر الكرم حتى يولع بمحبتك، ثم قم من عنده ورح إلى منزلك وبت هناك، فإذا أصبحت فهات معك مائة دينار وأعطها لأبيك فإنه فقير». قال: «وهو كذلك».

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية تعليم زوجة المزين لقمر الزمان الحيلة فى وصوله إلى مراده

قالت شهر زاد: ثم خرج من عندها وذهب إلى الوكالة وأخذ فصًا ثمنه خمسمائة دينار وعمد به إلى سوق الجواهر وسأل عن دكان المعلم عبيد شيخ الجوهرية، فدلوه على دكانه، فلما وصل إلى الدكان رأى شيخ الجوهرية رجلاً مهابًا وعليه ثياب فاخرة وتحت يده أربعة صنّاع فقال له: «السلام عليكم»، فردّ عليه الشيخ ورحّب به وأجلسه، فلما جلس أخرج له الفص وقال له: «يا معلم أريد منك أن تصوغ لى هذا الحجر خاتمًا بالذهب، ولكن اجعله قدر مثقال من غير زيادة وصنعه صياغة طيبة».

ثم أخرج له عشرين دينارًا وقال له: «خذ هذه نظير نقشه والأجرة باقية». ثم أعطى كل صانع دينارًا، فأحبه الصنّاع وأحبه المعلم عبيد وقعد يتحدث معه. وصار كل من أتاه من السائلين يعطيه دينارًا فتعجبوا من كرمه، ثم إن المعلم عبيد كان عنده عدة فى بيته مثل العدة التى فى الدكان وكان من عادته أنه إذا أراد أن يصنع شيئًا غريبًا يشتغله فى بيته حتى إن الصناع لا يتعلمون منه الصنعة الغريبة. وكانت الصبية زوجته تجلس قدامه، فإذا كانت قدامه ونظر إليها فإنه يصنع كل شىء غريب فى صناعته بحيث لا يليق إلا بالملوك، فقعد يصنع هذا الخاتم صنعة عجيبة فى البيت.

فلما رأته زوجته قالت له: «ما مرادك أن تصنع بهذا الفص»؟ قال: «أريد أن أصوغه خاتمًا بالذهب فإن ثمنه خمسمائة دينار». فقالت له: «لمن»؟ قال: «لغلام تاجر جميل الصورة له فم كخاتم سليمان، ووجنات كشقائق النعمان، وشفائف حمر كالمرجان، وله عنق مثل أعناق الغزلان، وهو أبيض مشرب بحمرة ظريف لطيف كريم فعل كذا وكذا، وصار تارة يصف لها حسنه وجماله، وتارة يصف لها كرمه وكماله، وما زال يذكر لها محاسنه وكرم أخلاقه حتى حببه إليها. ولم يكن أحد أبلغ من الذى يصف لزوجته إنسانًا بالحسن والجمال وفرط سخائه بالمال. فلما أحبته قالت له: «هل يوجد فيه شىء من محاسنى». فقال لها: «جميع محاسنك كلها فيه وهو شبيهك فى الصفة وربما كان عمره قدر عمرك ولولا أنى أخاف على خاطرك لقلت إنه أحسن منك بألف مرة» فسكتت ولكن التهبت نار محبته فى قلبها.

ثم إن الصائغ لم يزل يتحدث معها فى تعداد محاسنه حتى فرغ من صياغة هذا الخاتم. ثم ناوله لها فلبسته فجاء على قدر إصبعها. فقالت له: «يا سيدى إن قلبى أحبَّ هذا الخاتم وأشتهى أن يكون لى ولا أنزعه من إصبعى». فقال لها: «اصبرى فإن صاحبه كريم وأنا أطلب أن أشتريه منه فإن باعنى إياه جئت به إليك وإن كان عنده حجر آخر أشتريه لك وأصوغه مثله». هذا ما كان من الجوهرى وزوجته.

وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإنه بات فى منزله، فلما أصبح أخذ مائة دينار وأتى إلى العجوز زوجة المزين وقال لها: «خذى هذه المائة الدينار». فقالت له: «أعطها لأبيك». فأعطاها له ثم إنها قالت له: «هل فعلت كما قلت لك؟». قال: «نعم». فقالت له: «قم توجه الآن إلى شيخ الجوهرية فإذا أعطاك الخاتم فضعه فى رأس إصبعك وانزعه بسرعة وقل له: يا معلم أخطأت إن الخاتم جاء ضيقًا». فيقول لك: «يا تاجر هل أكسره وأصوغه واسعًا؟». فقل له: «لا احتاج إلى كسره وصياغته ثانيًا ولكن خذه وأعطه لجارية من جواريك». وأخرج له حجرًا آخر يكون ثمنه سبعمائة دينار وقل له: «خذ هذا الحجر صفه لى فإنه أحسن من ذلك». وأعطه ثلاثين دينارًا وأعط لكل صانع دينارين وقل له: «هذه الدنانير نظير نقشه والأجرة باقية».

ثم ارجع إلى منزلك وبت هناك وتعالى فى الصباح ومعك مائتا دينار وأنا أكمل لك بقية الحيلة، ثم إنه ذهب إلى الجوهرى فرحّب به وأجلسه على الدكان، فلما جلس قال له: «هل قضيت الحاجة؟» . قال: «نعم». وأخرج له الخاتم فأخذه وحطّه فى رأس إصبعه ثم نزعه سريعًا وقال: «أخطأت يا معلم». ورماه له وقال: «إنه ضيق على أصبعى»، فقال له الجوهرى: «يا تاجر هل أوسعه»؟ قال: «لا ولكن خذه إحسانًا وألبسه لبعض جواريك فإن ثمنه تافه لأنه خمسمائة دينار فلا يحتاج إلى صياغة ثانياً». ثم أخرج له فصاً آخر ثمنه سبعمائة دينار وقال له: «اصنع هذا». ثم أعطاه ثلاثين دينارًا وأعطى كل صانع دينارين. فقال له: «يا سيدى لما نصوغ الخاتم نأخذ أجرته». قال: «هذه فى نظير نقشه والأجرة باقية». ثم تركه ومضى.

فاندهش الجوهرى من شدة كرم قمر الزمان وكذلك الصنّاع، ثم إن الجوهرى ذهب إلى زوجته وقال لها: «يا فلانة ما رأت عينى أكرم من هذا الشاب وأنت بختك طيب لأنه أعطانى الخاتم بلا ثمن وقال لى: «أعطه لبعض جواريك». وحكى لها القصة ثم قال لها: «أظن أن هذا الولد ما هو من أولاد التجار وإنما هو من أولاد الملوك والسلاطين». وصار كلما مدحه تزداد فيه وجدًا. ثم لبست الخاتم والجوهرى صاغ له الثانى أوسع من الأول بقليل. فلما فرغ من صياغته لبسته فى إصبعها من داخل الخاتم الأول. ثم قالت: «يا سيدى انظر ما أحسن الخاتمين فى إصبعى فأشتهى أن يكون الخاتمان لى». فقال لها: «اصبرى لعلى أشترى الثانى لك». ثم بات فلما أصبح أخذ الخاتم وتوجه إلى الدكان.

هذا ما كان من أمر الجوهرى، وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإنه أصبح متوجها إلى العجوز زوجة المزين وأعطاها مائتى دينار. فقالت له: «توجه إلى الجوهرى فإذا أعطاك الخاتم فضعه فى إصبعك وانزعه سريعًا وقل: «أخطأت يا معلم إن الخاتم جاء واسعًا والمعلم الذى يكون مثلك إذا أتاه مثلى بشغل ينبغى له أن يأخذ القياس فلو كنت أخذت قياسَ أصبعى ما أخطأت وأخرج له حجرًا آخر يكون ثمنه ألف دينار وقل له: «خذ هذا اصنعه وأعط هذا الخاتم إلى جارية من جواريك، ثم أعطه أربعين دينارًا وأعط كل صانع ثلاثة دنانير و قل له: «هذا فى نظير نقشه وأما الأجرة فإنها باقية وانظر ماذا يقول، ثم تعالى ومعك ثلاثمائة دينار وأعطها لأبيك». فقال: «سمعًا وطاعة».

ثم إنه توجه إلى الجوهرى، فرحب به وأجلسه ثم أعطاه الخاتم فوضعه فى أصبعه ونزعه بسرعة وقال له: «ينبغى للمعلم الذى مثلك إذا أتاه مثلى بشغل أن يأخذ قياسه، فلو

كنت أخذت قياس إصبعي ما أخطأت ولكن خذه وأعطه لبعض جواريك». ثم أخرج له حجرًا ثمنه ألف دينار وقال له: «خذ هذا واصنعه لي خاتمًا على قدر إصبعي». فقال: «صدقت والحق معك». فأخذ القياس. وأخرج له أربعين دينارًا وقال له: «خذ هذه في نظير نقشه والأجرة باقية». فقال له: «يا سيدي كم أجرة أخذناها منك فإحسانك علينا كثير»؟ فقال له: «لا بأس» ثم إنه تحدث معه حصة وصار كلما يمر به سائل يعطيه دينارًا وبعد ذلك تركه وانصرف. هذا ما كان من أمره.

وأما ما كان من أمر الجوهري فإنه توجه إلى بيته وقال لزوجته: «ما أكرم هذا الشاب التاجر فما رأيت أكرم منه ولا أجمل منه ولا أحلى من لسانه». وصار يذكر لها محاسنه وكرمه ويبالغ في مدحه. فقالت له: «يا عديم الذوق حيث كنت تعرف فيه هذه الصفات وقد أعطاك خاتمين مثمنين ينبغي لك أن تعزمه وتعمل له ضيافة وتتودد إليه فإذا رأى منك المودة وجاء منزلنا ربما تنال منه خيرًا كثيرًا، وإن كنت لا تسمح له بضيافة فاعزمه وأنا أعمل له الضيافة من عندي». فقال لها: «هل أنت تعرفين أنني بخيل حتى تقولي هذا الكلام»؟. قالت له: «ما أنت بخيل ولكنك عديم الذوق فاعزمه هذه الليلة ولا تجئ بدونه، وإن امتنع فاحلف عليه بالطلاق وأكِّد عليه». فقال لها: «على الرأس والعين». ثم إنه صاغ الخاتم ونام وأصبح في ثالث يوم متوجهًا إلى الدكان وجلس فيها. هذا ما كان من أمره. وأما ما ان كان أمر قمر الزمان فإنه أخذ ثلاثمائة دينار وتوجه إلى العجوز وأعطاها لزوجها، فقالت له: «ربما يعزم عليك في هذا اليوم فإذا عزم عليك وبتَّ عنده فمهما جرى لك فأخبرني به في الصباح وهات معك أربعمائة دينار وأعطها لأبيك». فقال: «سمعًا وطاعة». وصار كلما فرغت منه الدراهم يبيع من الأحجار.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية عزومة المعلم عبيد لقمر الزمان

قالت شهرزاد: ثم إن قمر الزمان توجه إلى الجوهري، فقام له وأخذه بالأحضان وسلَّم عليه وعقد معه صحبة، ثم إنه أخرج له الخاتم فرآه على قدر إصبعه فقال له: " بارك الله فيك يا سيد المعلمين إن الصياغة موافقة ولكن الفص ليس على مرادي لأن عندي أحسن منه فخذه وأعطه لبعض جواريك ". فقال له: " يا تاجر إن الذي تعبنا فيه قد أعطيتنا إياه وتفضلت علينا بشيء كثير وأنا قلبي تعلق بحبك ولا أقدر على فراقك فبالله عليك أن تكون ضيفي في هذه الليلة وتجبر بخاطري ".

فقال: " لا بأس ولكن لابد أن أتوجه إلى الخان لأجل أن أوصي أتباعي وأخبرهم بأنني غير بائت في الخان حتى لا ينتظروني ". فقال له: " أنت نازل في أي خان "؟. قال: " في الخان الفلاني ". فقال: " أجيء إليك هناك ". فقال: " لا بأس ".

ثم إن الجوهري توجه إلى ذلك الخان قبل المغرب خوفًا من غضب زوجته عليه إن دخل البيت بدونه. ثم إنه أخذه ودخل به في بيته وجلسا في قاعة ليس لها نظير، وكانت الصبية رأته حين دخوله فافتتنت به. ثم صارا يتحدثان إلى أن جاء العشاء فأكلا وشربا وبعد ذلك

جاءت القهوة والشربات، ولم يزل يسامره إلى وقت العشاء فصليا الفريضة. ثم دخلت عليهما جارية ومعها فنجانان من المشروب. فلما شربا غلب عليهما النوم فناما حتى أشرق جبين الصباح وتبلج الفجر ولاح، فأرسلت الصبية جاريتها بشيء مثل النشوق فوضعته فى مناخيرهما فعطسا وأفاقا، فقالت لهما الجارية: " اعلموا يا أسيادى أن الصلاة وجبت فقوموا لصلاة الصبح ". وأتت لهما بالطست والإبريق.

ثم قال قمر الزمان: " يا معلم إن الوقت جاء وقد تجاوزنا الحد فى النوم ". فقال الجوهرى للتاجر: " يا صاحبى إن نوم هذه القاعة ثقيل كلما أنام فيها يجرى لى هذا الامر ". فقال: "صدقت". ثم إن الجارية جاءت لهما بالفطور فأفطرا، ثم إن المعلم عبيد خرج لقضاء حاجة فاغتنمت زوجته الفرصة ودخلت القاعة وقالت لقمر الزمان: " أنا ما يكفينى منك لا يوم ولا شهر ولا سنة وإنما قصدى أن أقيم معك بقية العمر، ولكن اصبر حتى أعمل لك مع زوجى حيلاً تحيّر ذوى الألباب وتبلغ بها الآراب وأدخل عليه الشك حتى يطلقنى وأتزوج بك وأروح معك إلى بلادك وأنقل جميع ماله وذخائره عندك وأتحيَّل لك على خراب دياره ومحو آثاره. ولكن اسمع كلامى وطاوعنى على ما أقوله لك ولا تخالفنى". فقال لها: " سمعًا وطاعة وما عندى خلاف ".

حكاية تعليم زوجة المعلم عبيد لقمر الزمان الحيلة على زوجها

فقالت: " رح إلى الخان وإن جاء زوجى وعزمك فقل له: " يا أخى إن ابن آدم ثقيل ومتى أكثر التردد اشمأزّ منه الكريم والبخيل وكيف أروح عندك كل ليلة وأرقد أنا وأنت فى القاعة، فإن كنت أنت لا تغتاظ منى فربما اغتاظ حريمك منى. فإن كان مرادك عشرتى فخذ لى بيتًا بجانب بيتك وتبقى أنت تارة تسهر عندى إلى وقت النوم وأنا تارة أسهر عندك إلى وقت النوم ثم أروح إلى منزلى، وهذا الرأى أحسن فإنه بعد ذلك يأتى ويشاورنى فأشير عليه أن يُخرج جارنا فإن البيت الذى هو ساكن فيه بيتنا والجار ساكن بالكراء ومتى أتيت البيت يهوِّن الله علينا بقية تدبيرنا ". ثم إنها قالت له: " رح الآن وافعل كما أمرتك ". فقال لها: " سمعًا وطاعة". ثم تركته وراحت.

ولما دخل المعلم عبيد استأذن منه قمر الزمان فى الذهاب وتوجَّه إلى العجوز وأخبرها بما جرى وقال لها: " إنها قالت لى كذا وكذا وقلت لها كذا وكذا، فهل عندك أكثر من هذا التدبير حتى توصلينى إلى الاجتماع بها جهاراً " ؟. فقالت: " يا ولدى إلى هنا انتهى تدبيرى وفرغت حيلى ". فعند ذلك تركها وتوجه إلى الخان. ولما أصبح الصباح توجه إليه الجوهرى عند المساء وعزمه. فقال له: " لا يمكن أنى أروح معك ".

فقال له الجوهرى: " لماذا وأنا أحببتك وما بقيت أقدر على فراقك فبالله عليك أن تمضى معى". فقال له: " إن كان مرادك طول العشرة معى ودوام الصحبة بينى وبينك فخذ لى بيتًا بجانب بيتك وإن شئت تسهر عندى وأنا أسهر عندك وعند النوم يروح كل منا إلى بيته وينام فيه ". فقال له: " إن عندى بيتًا بجانب بيتى هو ملكى فامض معى فى هذه الليلة وفى الغد أخليه لك". فمضيا وتعشيا وصليا العشاء وشرب زوجها الفنجان الذى فيه العمل فرقد وفنجان قمر الزمان لا غش فيه فشربه ولم يرقد، فجاءته وقعدت تسامره إلى الصباح وزوجها الجوهرى مرمى على فراشه مثل الميت.

ثم إنه صحا من النوم على العادة وأرسل أحضر الساكن وقال له: " يا رجل أخل لى بيتى فإنى قد احتجت إليه ". فقال له: "على الرأس والعين ". فأخلاه له وسكن فيه قمر الزمان ونقل جميع مصالحه فيه. وفى تلك الليلة سهر الجوهرى عند قمر الزمان ثم راح إلى بيته. وفى ثانى يوم أرسلت الصبية إلى معمار ماهر فأحضرته وأرغبته بالمال حتى عمل لها سردابًا من قصرها يوصل إلى بيت قمر الزمان وجعل له طابقاً تحت الأرض فما شعر قمر الزمان إلا وهى داخلة عليه ومعها كيسان من المال. فقال لها: " من أين جئت ؟ ". فأرته السرداب وقالت له: " خذ هذين الكيسين من ماله ". وقعدت تسامره إلى الصباح. ثم قالت له: " انتظرنى حتى أروح إليه وأنبهه ليذهب إلى دكانه وآتى إليك".

فقعد ينتظرها وانصرفت إلى زوجها وأيقظته. فقام وتوضأ وصلى وذهب إلى الدكان، وبعد ذهابه أخذت أربعة أكياس وراحت إلى قمر الزمان من السرداب وقالت له: " خذ هذا المال وجلست عنده ". ثم انصرف كل منهما إلى حال سبيله. فتوجهت إلى بيتها وتوجه قمر الزمان إلى السوق، ولما رجع فى وقت المغرب رأى عنده عشرة أكياس وجواهر وغير ذلك، ثم إن الجوهرى جاءه فى بيته وأخذه إلى القاعة وسهر فيها هو وإياه.

فدخلت الجارية على العادة وسقتهما فرقد سيدها، وقمر الزمان ما أصابه شىء لأن فنجانه سالم لا غش فيه. ثم أقبلت عليه الصبية فجلست عنده. وصارت الجارية تنقل المصالح إلى بيته من السرداب. ولم يزالوا على هذه الحالة إلى الصباح، ثم إن الجارية نبهت سيدها وسقتهما القهوة وكل منهما راح إلى حال سبيله، وفى ثالث يوم أخرجت له سكينًا كانت لزوجها وهى صياغته بيده وكلفها خمسمائة دينار ولم يوجد لها مثيل فى حسن الصياغة ومن كثرة ما طلبها منه الناس وضعها فى صندوق ولم تسمح نفسه ببيعها لأحد من المخلوقين، ثم قالت له: " خذ هذه السكين وحطها فى حزامك ورح إلى زوجى واجلس عنده وأخرجها من حزامك وقل له: " يا معلم انظرهذه السكين فإنى اشتريتها فى هذا اليوم وأخبرنى هل أنا مغلوب أو غالب فإنه يعرفها ويستحى أن يقول لك: هذه سكينى. فإن قال لك: من أين اشتريتها وبكم أخذتها، فقل له: "رأيت اثنين من اللاوندية يتقاتلان مع بعضهما، فقال واحد منهما للآخر: " أين كنت"؟. قال: " كنت عند صديقتى وكل ما أجتمع معها تعطينى دراهم، وفى هذا اليوم قالت لى: " إن يدى لا تطول دراهم فى هذا الوقت ولكن خذ هذه السكين فإنها سكين زوجى، فأخذتها منها ومرادى بيعها، فأعجبتنى السكين، ولما سمعته يقول ذلك قلت له: " أتبيعها لى ؟ ". فقال: " اشتر ". فأخذتها منه بثلاثمائة دينار. فيا ترى هل هى رخيصة أو غالية "؟، وانظر ما يقول لك، ثم تحدث معه مدة وقم من عنده وتعال إلىّ بسرعة فترانى قاعدة فى فم السرداب انتظرك فأعطنى السكين ". فقال لها: " سمعاً وطاعة ".

ثم أخذ تلك السكين وحطها فى حزامه وراح إلى دكان الجوهرى فسلم عليه، فرحب به وأجلسه، فرأى السكين فى حزامه فتعجب وقال فى نفسه: " إن هذه سكينى ومن أوصلها إلى هذا التاجر؟ ". وصار يفكر فى نفسه ويقول: " يا ترى هل هى سكينى أو سكين تشابهها ؟ ". وإذا بقمر الزمان أخرجها وقال : " يا معلم خذ هذه السكين تفرج عليها ". فلما أخذها من يده عرفها حق المعرفة واستحى أن يقول: " هذه سكينى ". ثم قال له: " من أين اشتريتها ؟". فأخبره بما أوصته به الصبية.

فقال له الجوهرى: " هذه بهذا الثمن رخيصة لأنها تساوى خمسمائة دينار ". واتقدت النار فى قلبه وارتبطت أياديه عن الشغل فى صنعته وصار يتحدث معه وهو غريق فى بحر الأفكار وكلما كلمه الغلام خمسين كلمة يرد عليه بكلمة واحدة، وصار قلبه فى عذاب، وجسمه فى اضطراب، وتكدر منه الخاطر، وصار كما قال الشاعر:

لم أدر قولاً إذا حبُّوا مكالمتى ... أو كلَّمونى يرونى غائب الفكر
غرقان فى بحر فكر لا قرار له ... لا أفرق الناس أنثاها من الذكر

فلما رآه تغيَّرت حالته قال له: " لعلك مشغول فى هذه الساعة ". ثم قام من عنده وتوجه إلى البيت بسرعة فرآها واقفة فى باب السرداب تنتظره، فلما رأته قالت له: " هل فعلت كما أمرتك؟ ". قال: " نعم ". قالت: " ما قال لك ؟". قال لها: " قال لى إنها رخيصة بهذا الثمن لأنها تساوى خمسمائة دينار، ولكن تغيرت أحواله فقمت من عنده ولم أدر ما جرى بعد ذلك فقالت: «هات السكين وما عليك منه» ثم أخذت السكين وحطتها فى موضعها وقعدت. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر الجوهرى فإنه بعد ذهاب قمر الزمان من عنده التهبت بقلبه النار وكثر عنده الوسواس وقال فى نفسه: " لابد أن أقوم وأتفقد السكين وأقطع الشك باليقين ". فقام وأتى البيت ودخل على زوجته وهو ينفخ مثل الثعبان. فقالت له : " ما لك يا سيدى ؟ ".

فقال لها: " أين سكينى ؟ ". فقالت له: " فى الصندوق ". ثم دقَّت صدرها بيدها وقالت:" يا همى لعلك تخاصمت مع أحد فأتيت تطلب السكين لتضربه بها ؟ ". قال: " هاتى السكين أرينى إياها". قالت: " حتى تحلف أنك لا تضرب بها أحدًا ".

فحلف لها. ففتحت الصندوق وأخرجتها له، فصار يقلبها ويقول: " إن هذا شىء عجيب". ثم إنه قال لها: " خذيها وحطيها فى مكانها ". قالت له: " أخبرنى ما سبب ذلك ؟". قال : «إنى رأيت مع صاحبنا سكينًا مثلها ". وأخبرها بالخبر كله ثم قال لها: " لما رأيتها فى الصندوق قطعت الشك باليقين ". فقالت له: " لعلك ظننت بى سوءا وجعلتنى صاحبة اللاوندى وأعطيته السكين؟ ". فقال لها: " نعم إنى شككت فى هذا الأمر ولكن لما رأيت السكين ارتفع الشك من قلبى ". فقالت له: " يا رجل أنت ما بقى فيك خير ". فصار يعتذر إليها حتى أرضاها ثم خرج وتوجه إلى دكانه.

وفى ثانى يوم أعطت قمر الزمان ساعة زوجها وكان صنعها بيده ولم يكن عند أحد مثلها. ثم إنها قالت له: " رح إلى دكانه واجلس عنده وقل له: " إن الذى رأيته بالأمس رأيته فى هذا اليوم وفى يده ساعة فقال لى: " أتشترى هذه الساعة ؟". فقلت له: " من أين لك هذه الساعة ؟". قال : " كنت عند صاحبتى فأعطتنى إياها ". فاشتريتها منه بثمانية وخمسين دينارًا. فانظر هل هى رخيصة بهذا الثمن أو غالية؟. وانظر ما يقول لك، وإذا قمت من عنده فأتنى بسرعة وأعطنى إياها ". فراح إليه قمر الزمان وفعل معه ما أمرته به. فلما رآها الجوهرى قال: " هذه تساوى سبعمائة دينار ". وداخله الوهم، ثم إن الغلام تركه وراح إلى الصبية وأعطاها تلك الساعة، وإذا بزوجها دخل ينفخ وقال لها: " أين ساعتى؟ ". قالت له: " ها هى حاضرة ". قال: " هاتيها ". فأتت له بها، فقال: " لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ". فقالت له: " يا رجل ما أنت بلا خبر

فأخبرني بخبرك ؟". فقال لها: "ماذا أقول؟". إني تحيرت في هذه الحالات، ثم أنشد:

تحيرت والرحمن لا شك في أمري ... وحلت بي الأحزان من حيث لا أدري

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني ... صبرت على شيء أمر من الصبر

وما مثل مر الصبر صبري وإنما ... صبرت على شيء أحر من الجمر

وما الأمر أمري في المراد وإنما ... أمرت بحسن الصبر من صاحب الأمر

ثم قال: "يا امرأة إني رأيت مع التاجر صديقنا أولاً سكيني وقد عرفتها لأن صياغتها اختراع من عقلي وليس يوجد مثلها وأخبرني بأخبار تغم القلب وأتيت فرأيتها، ورأيت معه الساعة ثانيًا وصياغتها أيضًا اختراع من عقلي وليس يوجد مثلها في البصرة وأخبرني أيضًا بأخبار تغم القلب فتحيرت في عقلي وما بقيت أعرف ما جرى لي".

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فقالت له: "مقتضى كلامك أني أنا خليلة ذلك التاجر وصاحبته وأعطيته مصالحك وجوزت خيانتي فجئت تسألني ولو كنت ما رأيت السكين والساعة كنت اثبت خيانتي، لكن يا رجل حيث إنك ظننت بي هذا الظن ما بقيت أواكلك في زاد ولا أشاربك في ماء بعد هذا فإني كرهتك كراهة التحريم". فصار يأخذ بخاطرها حتى أرضاها. ثم خرج وتندم على مقابلتها بهذا الكلام وتوجه إلى دكانه وجلس وصار في قلق شديد وفكر ما عليه من مزيد وهو ما بين مصدّق ومكذّب. وعند المساء أتى إلى البيت وحده ولم يأت بقمر الزمان معه. فقالت له الصبية: "أين التاجر ؟". قال: "في منزله" قالت: "هل بردت الصحبة التي بينك وبينه ؟"، قال: "والله إني كرهته مما جرى منه".

فقالت له: "قم هاته من شأن خاطري". فقام ودخل على بيته فرأى حوائجه منشورة فيه فعرفها فاتقدت النار في قلبه وصار يتنهد. فقال قمر الزمان: "ما لي أراك في فكر؟" فاستحى أن يقول له: "إن حوائجي عندك من أوصلها إليك". وإنما قال له: "حصل عندي تشويش ولكن قم بنا إلى البيت لنتسلى هناك". فقال: "دعني في محلي فلا أروح معك". فحلف عليه وأخذه. ثم تعشى معه وسهر تلك الليلة وصار يتحدث معه وهو غريق في بحر الأفكار وإذا تكلم الغلام التاجر مائة كلمة يرد عليه الجوهري بكلمة واحدة. ثم دخلت عليهما بفنجانين على العادة، فلما شربا رقد التاجر ولم يرقد الغلام لأن فنجانه غير مغشوش. ثم دخلت الصبية على قمر الزمان وقالت له: "كيف رأيت هذا القرنان، الذي هو في غفلته سكران، ولا يعرف مكائد النسوان، فلابد أن أخدعه حتى يطلقني، ولكن في غد آتيك بهيئة جارية وأروح خلفك إلى الدكان فقل له: "يا معلم إني دخلت اليوم خان اليسيرجية فرأيت هذه الجارية فاشتريتها بألف دينار، فانظرها لي هل هي رخيصة بهذا الثمن أو غالية ؟" ثم اكشف له عن وجهي وفرّجه عليّ، ثم خذني وارجع بي إلى منزلك وأنا ادخل بيتي من السرداب حتى انظر آخر أمرنا معه".

ثم إنهما امضيا ليلتهما في أنس وصفاء ومنادمة وانشراح إلى الصباح. وبعد ذلك ذهبت إلى مكانها وأرسلت الجارية فأيقظت سيدها وقمر الزمان فقاما وصلّيا الصبح وأفطرا

وشربا القهوة، وخرج الجوهري إلى دكانه وقمر الزمان دخل بيته، وإذا بالصبية خرجت له من السرداب وهى جارية وكأن أصلها جارية.

ثم توجه إلى دكان الجوهرى ومشت خلفه. ولم يزل ماشيًا وهى خلفه حتى وصل إلى دكان الجوهرى فسلَّم عليه وجلس وقال: " يا معلم إنى دخلت اليوم خان اليسيرجية بقصد الفرجة فرأيت هذه الجارية فى يد الدلال فأعجبتنى فاشتريتها بألف دينار وقصدى أن تتفرج عليها وتنظر هل هى رخيصة بهذا الثمن أم لا "، وكشف عن وجهها فرآها زوجته وهى لابسة أفخر ملبوسها ومتزينة بأحسن الزينة ومكحَّلة ومخضَّبة كما كانت تتزين قدامه فى بيته فعرفها حق المعرفة بوجهها وملبوسها وصيغتها لأنه صاغها بيده ورأى الخواتم التى صاغها جديداً لقمر الزمان فى إصبعها وتحقق عنده أنها زوجته من سائر الجهات فقال لها: " ما اسمك يا جارية ؟ " قالت : " حليمة ". وزوجته اسمها حليمة فذكرت له الاسم بعينه، فتعجب من ذلك وقال له: " بكم اشتريتها ؟ " قال: " بألف دينار " قال: " إنك أخذتها بلا ثمن لأن الألف الدينار أقل من ثمن الخواتم وملبسها ومصاغها بلا شيء ".

فقال له: " بشَّرك الله بالخير وحيث أعجبتك فأنا أذهب بها إلى بيتى ". فقال: " افعل مرادك ". فأخذها وراح بيته ونزلت من السرداب وقعدت فى قصرها. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر الجوهرى فإن النار اشتعلت فى قلبه وقال فى نفسه: " أنا أروح أنظر زوجتى فإن كانت فى البيت تكون هذه الجارية شبيهتها وجل من ليس له شبيه وإن لم تكن زوجتى فى البيت تكون هى من غير شك ". ثم إنه قام يجرى إلى أن دخل البيت فرآها قاعدة بملبسها وزينتها التى رآها بها فى الدكان فضرب يدا على يد وقال: " لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ". فقالت له: " يا رجل هل حصل لك جنون أو ما خبرك فما هذه عادتك لابد أن يكون لك أمر من الأمور".

فقال لها: " إذا كان مرادك أن أخبرك فلا تغتمى " فقالت له: " قل " فقال : " إن التاجر صاحبنا اشترى جارية قدُّها مثل قدِّك وطولها مثل طولك واسمها مثل اسمك وملبسها مثل ملبسك وهى تشبهك فى جميع صفاتها وفى إصبعها خواتم مثل خواتمك ومصاغها مثل مصاغك، فلما فرجَّنى عليها ظننت أنها أنت وقد تحيَّرت فى أمرى، ليتنا ما رأينا هذا التاجر ولا صاحبناه ولا جاء من بلاده ولا عرفناه فإنه كدَّر عيشى بعد الصفاء وكان سبباً فى الجفاء بعد الوفاء وأدخل الشك فى قلبى ". فقالت له: "طل فى وجهى لعلى أكون أنا التى كنت معه والتاجر صاحبى وقد تلبَّست بصفة جارية واتفقت معه على أن يفرجك علىَّ حتى يكيدك ". فقال: " أى شيء هذا الكلام أنا ما أظن بك أن تفعلى مثل هذه الأفعال ؟ " وكان ذلك الجوهرى مغفلاً عن مكايدة النساء. ولم يسمع بقول من قال:

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروبُ	بُعَيْد الشباب عصر حان مشيبُ
يكلفنى ليلى وقد شط وليها	وعادت عواد بيننا وخطوب
وإن تسألونى بالنساء فإننى	خبير بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرء أو قَلَّ ماله	فليس له من ودهن نصيب

وقول الآخر:

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنه فلن يفوز فتى يعطى النساء رسنه
يعقنه عن كمال فى فضائله ولو سعى طالبًا للعلم ألف سنه

وقول الآخر:

إن النساء شياطين خلقن لنا أعوذ بالله من كيد الشياطين
ومن يهن رمة العشق مبتلياً قد ضيع الحزم من دنيا ومن دين

ثم قالت له: " ها أنا قاعدة فى قصرى ورح إليه فى هذه الساعة واطرق الباب واحتل على الدخول عليه بسرعة، فإذا دخلت ورأيت الجارية عنده تكون جاريته تشبهنى وجل من ليس له شبيه، وإن لم ترَ الجارية عنده أكون أنا الجارية التى رأيتها معه ويكون ظنك بى السوء محققًا ". فقال : " صدقت ". ثم تركها وخرج، فقامت هى ونزلت من السرداب وقعدت عند قمر الزمان وأخبرته بذلك وقالت له: " افتح الباب بسرعة وفرجه علىَّ " فبينما هما فى الكلام وإذا بالباب يطرق. فقال: " من بالباب ؟ ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: قال الجوهرى: " أنا صاحبك فإنك فرَّجتنى على الجارية فى السوق وفرحت لك بها ولكن ما كملت فرحتى بها فافتح الباب وفرِّجنى عليها ". قال: " لا بأس بذلك ". ثم فتح له الباب فرأى زوجته قاعدة عنده. فقامت وقبلت يده ويد قمر الزمان وتفرج عليها وتحدث معها مدة فرآها لا تتميز عن زوجته بشىء فقال: " يخلق الله ما يشاء ". ثم إنه خرج وكثر فى قلبه الوسواس ورجع إلى بيته فرأى زوجته جالسة لأنها سبقته من السرداب حين خرج من الباب ثم قعدت فى قصرها كأنه لم يحدث شىء.

فلما دخل عليها زوجها قالت له: " أى شىء رأيت ؟" قال: " رأيتها عند سيدها وهى تشبهك ".

فقالت: " توجه إلى دكانك وحسبك سوء الظن فما بقيت تظن بى سوءًا ". فقال لها: " الأمر كذلك فلا تؤاخذينى بما صدر منى ". قالت: " سامحك الله ". ثم قبَّلها ذات اليمين وذات الشمال وراح إلى دكانه. فنزلت من السرداب إلى قمر الزمان ومعها أربعة أكياس وقالت له: " جهِّز حالك لسرعة السفر واستعد لتحميل المال بلا إمهال حتى أفعل لك ما عندى من الحيل والألاعيب ".

فطلع واشترى بغالاً وحمّل أحمالاً وجهز تختروانًا واشترى مماليك وخدماً وأخرج الجميع من البلد وما بقى له عاقة وأتى وقال: " إنى تممت أمورى ".

فقالت له: " وأنا الأخرى قد نقلت بقية ماله وجميع ذخائره عندك وما خليت له قليلاً ولا كثيراً ينتفع به وكل هذا محبة فيك يا حبيب قلبى فأنا أفديك ألف مرة بزوجى، ولكن ينبغى أن تذهب إليه وتودِّعه وتقول له: " أنا أريد السفر بعد ثلاثة أيام وجئت لأودِّعك فاحسب ما انجمل لك عندى من أجرة البيت حتى أورده لك وتبرأ ذمتى، وانظر ما يكون من جوابه وارجع إلىَّ وأخبرنى فإنى عجزت وأنا أحتال عليه وأغيظه لأجل أن يطلقنى فما أراه إلا متعلقًا بى، وما بقى لنا أحسن من السفر إلى بلادك ". فقال: " يا حبذا إن صحت الأحلام ".

ثم راح إلى دكانه وجلس عنده وقال له: " يا معلم أنا مسافر بعد ثلاثة أيام وما جئت إلا لأودعك والمراد أنك تحسب ما انجمل لك عندى من أجرة البيت حتى أورده لك وتبرأ ذمتى،

فقال له: " ما هذا الكلام إن فضلك عليَّ وما آخذ منك شيئًا من أجرة البيت وحلت علينا البركات ولكنك توحشنا بسفرك ولو أنه يحرم عليَّ لتعرضت لك ومنعتك عن عيالك وبلادك".

ثم ودعه وتباكيا بكاءً شديداً ما عليه من مزيد. وقفل الدكان من ساعته وقال فى نفسه: " ينبغى أن أشيع صاحبى ".

وصار كلما راح يقضى حاجة يروح معه وإذا دخل بيت قمر الزمان يجدها فيه وتقف بين أيديهما وتخدمهما وإذا رجع إلى بيته يراها قاعدة هناك. ولم يزل يراها فى بيته إذا دخله ويراها فى بيت قمر الزمان إذا دخله مدة ثلاثة أيام.

ثم إنها قالت له: " إنى نقلت جميع ما عنده من الذخائر والأموال والفرش ولم يبقَ عنده إلا الجارية التى تدخل عليكما بالشراب، ولكنى لا أقدر على فراقها لأنها قريبتى وعزيزة عندى وكاتمة لسرِّى، ومرادى أن أضربها وأغضب عليها وإذا أتى زوجى أقول له:

"أنا ما بقيت أقبل هذه الجارية ولا أقعد أنا وإياها فى بيت فخذها وبعها ". فيأخذها ليبيعها فاشترها أنت حتى نأخذها معنا. فقال: " لا بأس ".

ثم إنها ضربتها فلما دخل زوجها رأى الجارية وهى تبكى فسألها عن سبب بكائها فقالت: " إن سيدتى ضربتنى ".

فدخل وقال: " ما فعلت هذه الجارية الملعونة حتى ضربتها ؟" فقالت له: " يا رجل إنى أقول لك كلمة واحدة أنا ما بقيت أقدر أن أنظر هذه الجارية فخذها وبعها وإلا طلقنى ". فقال: "أبيعها ولا أخالف لك أمرًا ".

ثم إنه أخذها معه وهو خارج إلى الدكان ومرَّ بها على قمر الزمان، وكانت زوجته بعد خروجه بالجارية مرقت من السرداب بسرعة إلى قمر الزمان فادخلها فى التختروان قبل أن يصل إليه الشيخ الجوهرى.

فلما وصل إليه ورأى قمر الزمان الجارية معه قال له: " ما هذه ؟ " قال: " جاريتى التى كانت تسقينا الشراب ولكنها خالفت سيدتها فغضبت عليها وأمرتنى أن أبيعها " فقال: " إنها حيث بغضتها سيدتها ما بقى لها قعود عندها ولكن بعها لى حتى أشم رائحتك فيها وأجعلها خادمة لجاريتى حليمة ". فقال: " لا بأس خذها ". فقال له: " بكم ؟ " فقال " أنا لا آخذ منك شيئًا لأنك تفضلت علينا ".

فقبلها منه وقال للصبية: " قبِّلى يد سيدك ". فبرزت له من التختروان وقبَّلت يده ثم ركبت فى التختروان وهو ينظر إليها.

ثم قال له قمر الزمان: " أستودعك الله يا معلم عبيد أبرئ ذمتى ". فقال له: " أبرأ الله ذمتك وحمَّلك بالسلامة إلى عيالك "، وودَّعه وتوجه إلى دكانه وهو يبكى وقد عزَّ عليه فراق قمر الزمان لكونه كان رفيقا له والرفيق له حق، ولكنه فرح بزوال الوهم الذى حصل عنده من أمر زوجته حيث سافر ولم يتحقق ما ظنه فى زوجته.

هذا ما كان من أمره وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإن الصبية قالت له: " إن أردت السلامة فسافر بنا على غير طريق معهودة ". فقال: «سمعاً وطاعة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية سفر قمر الزمان مع زوجة المعلم
عبيد إلى مصر ووصوله بالسلامة

قالت شهرزاد: ثم سلك طريقاً غير الطريق التي تمهد الناس بالمشى فيها. ولم يزل مسافراً من بلاد إلى بلاد حتى وصل إلى حدود مصر.

ثم كتب كتابًا وأرسله إلى والده مع ساع، وكان والده التاجر عبد الرحمن قاعداً فى السوق بين التجار. وفى قلبه من فراق ولده لهيب النار، لأنه من يوم توجه ما أتاه من عنده خبر. فبينما هو كذلك وإذا بالساعى مقبل وقال: " يا ساداتى من فيكم اسمه التاجر عبد الرحمن ؟" فقالوا له: " ما تريد منه ؟ " قال لهم : " إن معى كتاباً من عند ولده قمر الزمان وقد فارقته عند العريش".

ففرح والد قمر الزمان وانشرح وفرح له التجار وهنأوه بالسلامة. ثم أخذ الكتاب وقرأه فرآه من عند قمر الزمان إلى التاجر عبد الرحمن، وبعد السلام عليك وعلى جميع التجار فإن سألتم عنا فلله الحمد والمنة، وقد بعنا واشترينا وكسبنا ثم قدمنا بالصحة والسلامة والعافية.

فعند ذلك فتح باب الفرح وعمل الولائم. وأكثر الضيافات والعزائم، وأحضر آلات الطرب، وأتى فى الفرح بأنواع العجب.

فلما وصل ولده إلى الصالحية خرج إلى مقابلته أبوه وجميع التجار ,فقابله واعتنقه والده وضمه إلى صدره وبكى حتى أغمى عليه، ولما أفاق قال له: يوم مبارك يا ولدي حيث جمعنا بك المهيمن القادر ثم أنشد:

قرب الحبيب تمام السرور ... وكأس الهنا علينا يدور
فأهلاً وسهلاً بلى مرحباً ... بنور الزمان وبدر البدور

ثم أفاض من شدة الفرح دمع العين.

وأنشد هذين البيتين:

قمر الزمان يلوح فى أسفاره ... إشراقه إذا جاء من أسفاره
فشعوره فى اللون ليل غيابه ... لكن شروق الشمس من أزراره

ثم إن التجار تقدموا إليه وسلموا عليه فرأوا معه احمالاً كثيرة وخدمًا وتختروانًا وهو فى دائرة واسعة فأخذوه ودخلوا به البيت.

فلما خرجت الصبية من التختروان رآها أبوه فتنة لمن يراها. ففتحوا له قصراً عالياً كأنه كنز انحلت عنه الطلاسم، ولما رأتها أمه افتتنت بها وظنت أنها ملكة من زوجات الملوك وفرحت بها وسألتها فقالت لها: " أنا زوجة ولدك " قالت: " حيث تزوج بك ينبغى لنا أننا نقيم لك فرحًا عظيماً حتى نفرح بك وبولدى ".

حكاية إخبار قمر الزمان لوالده قصة
زوجة المعلم عبيد

أما التاجر عبد الرحمن فإنه بعد انفضاض الناس ورواح كل واحد إلى حال سبيله اجتمع بولده وقال له: " يا ولدي ما تكون هذه الجارية عندك وبكم اشتريتها ؟" فقال له: " يا والدى إنها ليست جارية وإنما هى التى كانت سببًا فى غربتى " . قال والده: " وكيف ذلك ؟ "

قال: " إنها التى كان يصفها لنا الدرويش ليلة بات عندنا، فإن آمالى تعلقت بها من ذلك الوقت وما طلبت السفر إلا من أجلها حتى تعريت فى الطريق وأخذت العرب أموالى وما دخلت البصرة إلا وحدى وحصل لى كذا وكذا ".

وصار يحكى لوالده من المبتدأ إلى المنتهى. فلما فرغ من حديثه قال له: " يا ولدى وبعد ذلك كله هل تزوجتها ؟" قال: " لا ولكن وعدتها أن أتزوج بها ". قال له: " هل مرادك الزواج بها؟". قال: " إن كنت تأمرنى أفعل ذلك وإلا فلا أتزوجها ". قال له: " إن تزوجت بها وهى عملت هذه الفعال مع زوجها، وكما عملتها مع زوجها على شانك تعمل معك مثلها على شأن غيرك فإنها خائنة والخائن ليس له أمان، فإن كنت تخالفنى أكون غضبان عليك، وإن سمعت كلامى أفتش لك على بنت أحسن منها تكون طاهرة زاكية فأزوجك بها ولو كنت أنفق عليها جميع مالى وأعمل لك فرحًا ليس له نظير وأفتخر بك وبها، وإذا قال الناس فلان تزوج بنت فلان أحسن من أن يقولوا تزوج جارية معدومة النسب والحسب ".. وصار يرغب ولده فى عدم زواجها ويذكر له فى شأن ذلك عبارات ونكتًا وأشعارًا وأمثالاً ومواعظ وحكايات كثيرة فقال قمر الزمان: " يا والدى حيث كان الأمر كذلك فلا علاقة لى بزواجها ". فلما قال قمر الزمان ذلك الكلام قبَّله أبوه بين عينيه وقال له: " أنت ولدى حقـا، وحياتك يا ولدي لابد من أن أزوجك بنتاً ليس لها نظير ". ثم إن التاجر عبد الرحمن حطَّ زوجة عبيد الجوهرى وجاريتها فى قصر عال وقفل عليهما وقيَّد بهما جارية سوداء توصل إليهما أكلهما وشربهما وقال لها: " أنت وجاريتك تستمران محبوستين فى هذا القصر حتى أنظر لكما من يشتريكما وأبيعكما له، وإن خالفت قتلتك فإنك أنت وجاريتك خائنة ولا خير فيك ".

فقالت له: " افعل مرادك فإنى أستحق جميع ما تفعله معى ". ثم قفل عليهما الباب ووصى عليهما حريمه وقال: " لا يطلع عندهما أحد ولا يكلمهما غير السوداء التى تعطيهما أكلهما وشربهما من طاقة صغيرة فى أحد جدران القصر".

فقعدت هى وجاريتها تبكى وتندم على ما فعلت بزوجها.

هذا ما كان من أمرها. وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية خطبة أبي قمر الزمان
بنت شيخ الإسلام لولده

قالت شهرزاد: أما ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن فإنه أرسل الخاطبات يخطبن بنتًا ذات حسب ونسب لولده، فمازلن يفتشن وكلما رأين واحدة يسمعن بأحسن منها حتى دخلن بيت شيخ الإسلام فرأين بنته لم يكن لها نظير فى مصر وهى ذات حسن وجمال وقد واعتدال لأنها أحسن من زوجة عبيد الجوهرى بألف طبقة. فأخبرنه بها فذهب هو والأكابر إلى والدها وخطبوها منه وكتبوا الكتاب وعملوا لها فرحًا عظيمًا ثم عمل الولائم وعزم فى أول يوم الفقهاء فعملوا مولدًا شريفاً، وثانى يوم عزم التجار تمامًا، ثم دقت الطبول وزمرت الزمور وزيَّن الحارة والخط بالقناديل وفى كل ليلة تأتى سائر أرباب الملاعب ويلعبون أنواع اللعب، كل يوم يعمل ضيافة لصنف من أصناف الناس حتى عزم العلماء والأمراء والسناجق والحكام. ولم يزل الفرح قائمًا مدة أربعين يومًا.

وكل يوم يقعد التاجر ويستقبل الناس وولده يقعد بجانبه ليتفرج على الناس وهم يأكلون من السماط وكان فرحًا ليس له نظير، وفى آخر يوم عزم الفقراء والمساكين غريبًا وقريبًا فصاروا يأتون زمرًا ويأكلون والتاجر جالس وابنه بجانبه. فبينما هم كذلك وإذا بالشيخ عبيد زوج الصبية داخل فى جملة الفقراء وهو عريان تعبان وعلى وجهه أثر السفر. فلما رآه قمر الزمان عرفه فقال لأبيه: " انظر يا أبى إلى هذا الرجل الفقير الذى دخل من الباب ". فنظر إليه فرآه رثّ الثياب وعليه خلق جلباب يساوى درهمين، وفى وجهه اصفرار يعلوه غبار، وهو مثل مقاطيع الحجاج، ويئن أنين المريض المحتاج، ويمشى بتهافت ويميل فى مشيه ذات اليمين وذات الشمال.

وتحقق فيه قول من قال:

الفقر يُزرى بالفتى دائمًا | كما اصفرار الشمس عند المغيب
يمرُّ بين الناس مستخفيًا | وإن خلا يبكى بدمع صبيب
وإن يغب فليس يُعنى به | وما له عند حضور نصيب
والله ما الإنسان فى أهله | إذا ابتلى بالفقر إلا غريب

وقول الآخر:

يمسى الفقير وكل شىء ضدهُ | والأرض تغلق دونهُ أبوابها
وتراه ممقوتاً وليس بمذنب | ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا نعمة | أومت إليه وحركت أذنابها
وإذا ترى يومًا فقيرًا بائسًا | نبحت عليه وكشرت أنيابها

وما أحسن قول الشاعر:

إذا صحب الفتى عزًا وسعدًا | تحامته المكاره والخطوبُ
وواصلهُ الحبيب بغير وعد | طفيليا وقاد له الرقيب

حكاية وصول المعلم عبيد إلى مصر بصورة فقير

فقال التاجر عبد الرحمن لابنه: " يا ولدى من هذا ؟" قال له : " هذا المعلم عبيد الجوهرى زوج المرأة المحبوسة عندنا ".

فقال له: " أهذا الذى كنت تحدثنى عنه " قال: " نعم وقد عرفته معرفة جيدة ".

وكان السبب فى مجيئه أنه لما ودع قمر الزمان توجه إلى دكانه فجاءته دقة شغل فأخذها واشتغلها فى بقية النهار، وعند المساء قفل الدكان وذهب إلى البيت ووضع يده على الباب فانفتح فدخل فلم ير زوجته ولا الجارية ورأى البيت فى أسوأ الأحوال، منطبق عليه قول من قال:

كانت خليات نحل وهى عامرةً | لما خلى نحلها عادت خليّات
كأنها اليوم بالسكان ما عمرت | أو غال سكانها فصل المنيات

فلما رأى الدار خالية التفت يمينًا وشمالاً ثم دار فيها مثل المجنون فلم يجد أحدًا وفتح باب خزينته فلم يجد فيها شيئًا من ماله ولا من ذخائره، فعند ذلك فاق من سكرته وتنبه من

غشيته وعرف أن زوجته هى التى كانت تتقلب عليه بالحيل حتى غدرته. فبكى على ما حصل. ولكنه كتم أمره حتى لا يشمت به أحد من أعدائه ولا يتكدر أحد من أحبائه وعلم أنه إذا باح بالسر لا يناله إلا الهتيكة والتعنيف من الناس، فقال فى نفسه: " يا فلان اكتم ما حصل لك من الخبال والوبال، وعليك بالعمل بقول من قال:

إذا كان صدر المرء ضيقًا فصدر الذى يستودع السر أضيقُ

ثم إنه قفل بيته وقصد الدكان ووكّل بها صانعًا وقال له: " إن الغلام التاجر صاحبى عزم علىّ أن أروح معه إلى مصر بقصد الفرجة وحلف أنه ما يرحل حتى يأخذنى معه بحريمى، وأنت يا ولدى وكيلى فى الدكان وإن سألكم عنى الملك فقولوا له: " إنه توجه بحريمه إلى بيت الله الحرام". ثم باع بعض مصالحه واشترى له جمالاً وبغالاً ومماليك واشترى له جارية وحطها فى التختروان وخرج من البصرة بعد عشرة أيام.

فودعه أحبابه وسافر والناس لا يظنون إلا أنه أخذ زوجته وتوجه إلى الحج، وفرحت الناس وقد أنقذهم الله من حبسهم فى المساجد والبيوت فى كل يوم جمعة.

وصار بعض الناس يقول: " لا رده الله إلى البصرة مرة أخرى حتى نُحبس فى المساجد والبيوت فى كل يوم جمعة ". لأن هذه الخصلة أورثت الناس حسرة عظيمة، وبعضهم يقول: "أظنه لا يرجع من سفره بسبب دعاء أهل البصرة عليه". وبعضهم يقول: " إن رجع لا يرجع إلا منكس الحال ".

وفرح أهل البصرة بسفره فرحًا عظيماً بعد أن كانوا فى حسرة عظيمة حتى ارتاحت قططهم وكلابهم.

فلما أتى يوم الجمعة نادى المنادى فى البلد على العادة بأنهم يدخلون المساجد قبل صلاة الجمعة بساعتين أو يستخفون فى البيوت وكذلك القطط والكلاب، فضاقت صدورهم فاجتمعوا جميعًا وتوجهوا إلى الديوان ووقفوا بين يدى الملك.

وقالوا له: " يا ملك الزمان إن الجوهرى أخذ حريمه وسافر إلى حج بيت الله الحرام وزال السبب الذى كنا نحبس من أجله فبأى سبب نحبس الآن ؟".

فقال الملك: " كيف يسافر هذا الخائن ولم يعلمنى، ولكن إذا جاء من سفره لا يكون إلا خيراً روحوا إلى دكاكينكم وبيعوا واشتروا فقد ارتفعت عنكم هذه الحالة ". فشكروا الملك وذهبوا إلى أعمالهم كالعادة. هذا ما كان من أمر الملك وأهل البصرة.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية نهب العرب أموال المعلم عبيد ووصوله إلى مصر فى بيت قمر الزمان

قالت شهرزاد: أما ما كان من أمر المعلم عبيد الجوهرى فإنه سافر عشر مراحل فحلّ به ما حلّ بقمر الزمان قبل دخوله البصرة وطلعت عليه عرب بغداد فعروه وأخذوا ما كان معه وجعل روحه ميتًا حتى خلص، وبعد ذهاب العرب قام ومشى وهو عريان إلى أن دخل بلدًا.

فحنن الله عليه أهل الخير فستروه بقطع من الثياب الخلقة، وصار يسأل ويتقوت من بلد إلى بلد حتى وصل إلى مصر المحروسة. فأحرقه الجوع فدار يسأل فى الأسواق.

فقال له رجل من أهل مصر: " يا فقير عليك ببيت الفرح كل واشرب فإن هنالك فى هذا اليوم سماط الفقراء والغرباء ". فقال : " لا أعرف طريق بيت الفرح ". فقال له: " اتبعنى وأنا أريه لك ". فتبعه إلى أن وصل إلى البيت فقال له: " هذا هو بيت الفرح فادخل ولا تخف فما على باب الفرح من حجاب ولا رقيب ".

فلما دخل رآه قمر الزمان فعرفه وأخبر به أباه. ثم إن التاجر عبد الرحمن قال لولده: "يا ولدى اتركه فى هذه الساعة ربما يكون جائعًا فدعه يأكل حتى يشبع ويسكن روعه وبعد ذلك نطلبه ". فصبرا عليه حتى أكل واكتفى وغسل يديه وشرب القهوة والشربات السكر الممزوجة بالمسك والعنبر وأراد أن يخرج. فأرسل خلفه والد قمر الزمان، فقال له الرسول: "تعال يا غريب كلّم التاجر عبد الرحمن ". فقال : «ما يكون هذا التاجر ؟" فقال له : " صاحب الفرح ". فرجع وظن أنه يعطيه إحسانًا. فلما أقبل على التاجر رأى صاحبه قمر الزمان فغاب عن الوجود من الحياء منه. وقام له قمر الزمان على الأقدام وأخذه بالأحضان وسلّم عليه وتباكيا بكاءً شديدًا. ثم إنه أجلسه بجانبه. فقال له أبوه: " يا عديم الذوق ما هذا شأن ملاقاة الأصحاب، أرسله أولاً إلى الحمام وأرسل إليه بدلة تليق بالأصحاب الأحباب وبعد ذلك اقعد معه وتحدث أنت وإياه ".

فصاح قمر الزمان على بعض الخدام وأمرهم أن يدخلوه الحمام وأرسل إليه بدلة من خاص الملبوس تساوى ألف دينار أو أكثر من ذلك المبلغ وغسلوا جسده وألبسوه البدلة فصار كأنه شاه بندر التجار، وكان الحاضرون سألوا قمر الزمان عنه حين غيابه فى الحمام وقالوا: "من هذا ومن أين تعرفه ؟" فقال: " هذا صاحبى وقد أنزلنى فى بيته وله على إحسان لا يحصى فإنه أكرمنى إكرامًا زائدًا وهو من أهل السعادة والسيادة وصنعته جوهرى ليس له نظير وملك البصرة يحبه حباً كثيراً وله عنده مقام عظيم وكلام نافذ ". وصار يبالغ لهم فى مدحه ويقول: "إنه فعل معى كذا وكذا وأنا صرت فى حياء منه ولا أدرى ما أجازيه به فى مقابلة ما صنعه معى من الإكرام ".

ولم يزل يثنى عليه حتى عظم قدره عند الحاضرين وصار مهابًا فى أعينهم. فقالوا: "نحن كلنا نقوم بواجبه، وإكرامه من أجل شأنك ولكن مرادنا أن نعرف ما سبب مجيئه إلى مصر وما سبب خروجه من بلاده وما فعل الله به حتى صار فى هذه الحالة ؟ " فقال لهم:

"يا ناس لا تتعجبوا إن ابن آدم تحت القضاء والقدر وما دام الإنسان فى هذه الدنيا لا يسلم من الآفات ". وقد صدق من قال هذه الأبيات:

الدهر يفترس الرجال فلا تكن	ممن تطيشه المناصب والرتب
واحذر من الزلات واجتنب الأسى	واعلم بأن الدهر شيمته العطب
كم نعمة زالت بأصغر نقمة	ولكل شىء فى تقلبه سبب

"اعلموا أنى دخلت البصرة فى أسوأ من هذه الحالة وأشد من هذا النكال لأن هذا الرجل دخل مصر مستور العورة بالخلقان وأما أنا فإنى دخلت بلاده عريان وما نفعنى إلا الله

وهذا الرجل العزيز، والسبب فى ذلك أن العرب عرونى وأخذوا جمالى وبغالى وأحمالى وقتلوا غلمانى ورجالى ورقدت بين القتلى فظنوا أنى ميت فذهبوا وفاتونى وبعد ذلك قمت ومشيت عرياناً إلى أن دخلت البصرة، فقابلنى هذا الرجل وكسانى وأنزلنى فى بيته وقوانى بالمال وجميع ما أتيت به معى ليس إلا من خير الله وخيره، فعندما سافرت أعطانى شيئًا كثيراً ورجعت إلى بلدى مجبور الخاطر وفارقته وهو فى سيادة وسعادة فلعله حدث له بعد ذلك نكبة من نكبات الزمان أوجبت له فراق الأهل والأوطان وجرى له فى الطريق مثل ما جرى لى ولا عجب فى ذلك. ولكن ينبغى لى الآن أن أجازيه على ما صنع معى من كريم الفعال. وأعمل بقول الشاعر القائل:

يا محسنًا بالزمان ظنا ... لم تدر ما يفعل الزمانُ
ما شئت فاصنع جميل فعل ... كما يدين الفتى يدانُ

فبينما هم فى هذا الكلام وأمثاله وإذا بالمعلم عبيد مقبل عليهم كأنه شاه بندر التجار، فقام إليه الجميع وسلموا عليه وأجلسوه فى الصدر وقال له قمر الزمان: " يا صاحبى نهارك مبارك سعيد لا تحك لى على شىء جرى علىَّ قبلك، فإن كان العرب عروك وأخذوا منك مالا فإن المال فدى الأبدان فلا تغم نفسك فإنى دخلت بلادك عريانًا وقد كسوتنى وأكرمتنى ولك علىَّ الإحسان الكثير فأنا أجازيك وأفعل معك كما فعلت معى بل أكثر من ذلك فطب نفسًا وقر عينًا".. وصار يأخذ بخاطره ومنعه من الكلام لئلا يذكر زوجته وما فعلت معه، ولم يزل يعظه بمواعظ وأمثال وأشعار ونكت وحكايات وأخبار ويسليه حتى لحظ الجوهرى ما أشار إليه قمر الزمان من الكتمان فكتم ما عنده من الأخبار وتسلى بما سمعه من الأخبار والنوادر.

وأنشد قول الشاعر:

فى جبهة الدهر سطرٌ لو نظرت له ... أبكاك مضمونه من مقلتيك دما
ما سلَّم الدهر باليمنى على أحد ... إلا ويُسراهُ تسقيه الردى كثما

حكاية امتحان عبد الرحمن للمعلم عبيد فى أمر زوجته

ثم إن قمر الزمان ووالده التاجر عبد الرحمن أخذا الجوهرى ودخلا به فى قاعة الحريم واختليا به. فقال له التاجر عبد الرحمن: " نحن ما منعناك من الكلام إلا خوفًا من الفضيحة فى حقك وحقنا، ولكن نحن الآن فى خلوة فأخبرنى بما جرى بينك وبين زوجتك وولدى ". فأخبره بالقصة من المبتدأ إلى المنتهى. فلما فرغ من قصته قال له: " هل الذنب من زوجتك أم من ولدى؟" قال له: " والله إن ولدك ما عنده ذنب فالعيب عند زوجتى التى خانتنى وفعلت معى هذه الفعال ". فقام التاجر واختلى بولده وقال له: " يا ولدى إننا اختبرنا زوجته وعرفنا أنها خائنة ومرادى الآن أن أختبره وأعرف هل هو صاحب عرض ومروءة أم لا ".

فقال له: " وكيف ذلك ؟ " فقال: " مرادى أن أحمله على الصلح مع زوجته فإن رضى بالصلح وسامحها فإنى أضربه بسيف فأقتله وبعد ذلك أقتلها هى وجاريتها لأن لا خير فى حياة من طبعه هكذا، وإن نفر من زوجته فإنى أزوجه أختك وأعطيه بأكثر من ماله الذى أخذته منه ".

ثم إنه رجع إليه وقال له: " يا معلم إن معاشرة النساء تحتاج إلى طول البال، ومن كان يهواهن يحتاج إلى سعة الصدر لأنهن يعربدن فى الرجال، ويؤذينهم لعزتهن عليهم بالحسن فيستعظمن أنفسهن ويستحقرن الرجال ولاسيما إذا بانت لهن المحبة من بعولتهن فيقابلنهم بالتيه والدلال وكريه الفعال من جميع الجهات، فإن كان الرجل يغضب كلما رأى من زوجته ما يكره فلا يحصل بينه وبينها عشرة ولا يوافقهن إلا من كان واسع البال كثير الاحتمال وإن لم يتحمل الرجل زوجته ويقابل إساءتها بالسماح فإنه لا يحصل له فى عشرتها نجاح، وقد قيل فى حقهن: " لو كن فى السماء لمالت إليهن أعناق الرجال، ومن قدر وعفا كان أجره على الله".

وهذه المرأة زوجتك ورفيقتك وطالت عشرتها معك فينبغى أن يكون عندك لها السماح، وهذا فى العشرة من علامات النجاح، والنساء ناقصات عقل ودين، وهى إن ساءت فإنها قد تابت وإن شاء الله لا ترجع إلى فعل ما كانت تفعله أولاً، فالرأى عندى أنك تصطلح أنت وإياها وأنا أرد لك أكثر من مالك، وإن أقمت عندى فمرحبًا بك وبها وليس لكما إلا ما يسركما وإن كنت تطلب التوجه إلى بلادك فأنا أعطيك ما يرضيك وها هو التختروان حاضر فركّب زوجتك وجاريتك فيه وسافر إلى بلادك، والذى يجرى بين الرجل وزوجته كثير.

حكاية قتل المعلم عبيد زوجته وجاريته

فقال الجوهرى: " يا سيدى أين زوجتى ؟ " فقال له " ها هى فى هذا القصر فاطلع إليها واستوص بها من شأنى ولا تشوش عليها فإن ولدى لما جاء بها وطلب زواجها منعته عنها وحطيتها فى هذا القصر وقفلت عليها الباب وقلت فى نفسى: " ربما يجىء زوجها فأسلمها إليه لأنها جميلة الصورة والتى مثل هذه لا يمكن زوجها أن يفوتها، والذى حسبته حصل والحمد لله تعالى على اجتماعك بزوجتك، وأما من جهة ابنى فإنى خطبت له وزوجته غيرها وهذه الولائم والضيافات من أجل فرحه وفى هذه الليلة أدخلته على زوجته، وها هو مفتاح القصر الذى فيه زوجتك فخذه وافتح الباب وادخل على زوجتك وجاريتك وانبسط معها ويأتيكم الأكل والشراب".

فقال له: " جزاك الله عنى كل خير يا سيدى ". ثم أخذ المفتاح وطلع فرحانًا فظن التاجر أن هذا الكلام أعجبه وأنه رضى به.

فأخذ السيف وتبعه من خلفه بحيث لم يره. ثم وقف ينظر ما يحصل بينه وبين زوجته. هذا ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن.

أما ما كان من أمر الجوهرى فإنه دخل على زوجته فرآها تبكى بكاءً شديدًا بسبب أن قمر الزمان تزوج بغيرها، ورأى الجارية تقول لها: " كم نصحتك يا سيدتى وقلت لك إن هذا الغلام لا ينالك منه خير فاتركى عشرته فما سمعت كلامى حتى نهبت جميع مال زوجك وأعطيته له وبعد ذلك فارقت مكانك وتعلّقت فى هواه وجئت معه فى هذه البلاد وبعد ذلك رماك من باله وتزوج بغيرك ثم جعل آخر تعلقك به الحبس ".

فقالت لها: " اسكتى يا ملعونة فإنه وإن تزوج بغيرى لابد أن أخطر على باله، فأنا لا أسلو مسامرته وأنا على كل حال أتسلى بقول من قال:

يا سادتى هل يخطرن ببالكم   مَنْ ليس يخطُر غيركم فى باله

حاشاكمُ أن تغفلوا عن حال من ... هو غافلٌ فى حالكم عن حاله

"فلابد أن يتذكر عشرتى وصحبتى ويسأل عنى وأنا لا أرجع عن محبته ولا أحول عن هواه ولو مت فى السجن فإنه حبيبى وطبيبى، وعشمى فيه أنه يرجع إلىَّ ويعمل معى انبساطًا". فلما سمعها زوجها تقول هذا الكلام دخل عليها وقال لها: "يا خائنة إن عشمك فيه مثل عشم إبليس فى الجنة، كل هذه العيوب فيك وأنا ما عندى خبر، ولو علمت أن فيك عيبًا من هذه العيوب ما كنت قنيتك عندى ساعة واحدة، ولكن حيث تيقنتُ فيك ذلك ينبغى أن أقتلك ولو قتلونى فيك يا خائنة".

ثم إن الجوهرى قبض على امرأته بيديه الاثنتين وأنشد هذين البيتين:

يا ملاحًا أذهبتم صدق ودى ... بالتجنى ولم تراعوا حقوقا

كم بكم صبوة علقت ولكن ... بعد هذا الأسى كرهت العلوقا

ثم اتكأ على زمارة حلقها وكسرها. فصاحت الجارية: "وا سيدتاه". فقال لها: "يا عاهرة العيب كله منك حيث كنت تعرفين أن فيها هذه الخصلة ولم تخبرينى". ثم قبض على الجارية وخنقها، وكل ذلك حصل والتاجر ماسك السيف بيده وهو واقف خلف الباب يسمع بأذنه ويرى بعينه.

ثم إن عبيدا الجوهرى لما خنقهما فى قصر التاجر كثرت عليه الأوهام وخاف عاقبة الأمر وقال فى نفسه: "إن التاجر إذا علم أنى قتلتهما فى قصره لابد أنه يقتلنى، ولكن أسأل الله أن يجعل قبض روحى على الإيمان". وصار الجوهرى متحيرًا فى أمره ولم يدر ماذا يفعل.

فبينما هو كذلك وإذا بالتاجر عبد الرحمن دخل عليه وقال له: "لا بأس عليك إنك تستاهل السلامة وانظر هذا السيف الذى فى يدى فإنى كنت ضامراً على أن أقتلك إن صالحتها ورضيت عليها وأقتل الجارية، وحيث فعلت هذه الفعال فمرحبًا بك ثم مرحبًا ولا جزاؤك إلا أن أزوجك ابنتى أخت قمر الزمان".

ثم إنه أخذه ونزل به وأمر بإحضار الغاسلة وشاع الخبر أن قمر الزمان ابن التاجر عبد الرحمن جاء بجاريتين معه من البصرة فماتتا، فصار الناس يعزونه يقولون له: "يعيش رأسك وعوَّض الله عليك". ثم غسلوهما وكفنوهما ودفنوهما ولم يعرف أحد من الناس حقيقة الأمر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية تزويج عبد الرحمن لعبيد الجوهري بنته كوكب الصباح وسفره معها إلى بلده

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمر عبيد الجوهرى وزوجته وجاريته. وأما ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن فإنه أحضر شيخ الإسلام وجميع الأكابر وقال: "يا شيخ الإسلام اكتب كتاب بنتى كوكب الصباح على المعلم عبيد الجوهرى ومهرها قد وصلنى بالتمام والكمال". فكتب الكتاب وسقاهم الشربات وجعلوا الفرح واحدًا وزفُّوا بنت شيخ الإسلام زوجة قمر الزمان وأخته كوكب الصباح زوجة المعلم عبيد الجوهري في تختروان واحد في ليلة واحدة، وفي المساء زفوا قمر الزمان والمعلم عبيد سواء وأدخلوا قمر الزمان على بنت شيخ الإسلام

وادخلوا المعلم عبيد على بنت التاجر عبد الرحمن، فلما دخل عليها رآها أحسن من زوجته وأجمل منها بألف طبقة، ثم أقام عندهم مدة فى فرح وسرور وبعد ذلك اشتاق إلى بلاده فدخل على التاجر عبد الرحمن وقال: " يا عم إنى اشتقت إلى بلادى ولى فيها أملاك وأرزاق وكنت أقمت فيها صانعاً من صناعى وكيلاً عنى وفى خاطرى أن أسافر إلى بلادى لأبيع أملاكى وأرجع إليك فهل تأذن لى بالتوجه إلى بلادى من أجل ذلك؟ ".

فقال له: " يا ولدى قد أذنت لك ولا لوم عليك فى هذا الكلام فإن حب الوطن من الإيمان والذى ما له خير فى بلاده ما له خير فى بلاد الناس، وربما إنك إذا سافرت بغير زوجتك ودخلت بلادك يطيب لك فيها القعود وتصير متحيرًا بين رجوعك إلى زوجتك وقعودك في بلادك، فالرأي الصواب أن تأخذ زوجتك معك، وبعد ذلك إن شئت الرجوع إلينا فارجع أنت وزوجتك ومرحباً بك وبها لأننا ناس لا نعرف طلاقًا ولا تتزوج منا المرأة مرتين ولا نهجر إنسانًا بطرًا".

فقال: " يا عم أخاف أن ابنتك لا ترضى بالسفر معى إلى بلادى ". فقال له: " يا ولدى نحن ما عندنا نساء تخالف بعولتهن ولا نعرف امرأة تغضب على بعلها ". فقال له: " بارك الله فيكم وفى نسائكم ". ثم إنه دخل على زوجته وقال لها: " أنا مرادى السفر إلى بلادى فما تقولين ؟" قالت: " إن أبى ما زال يحكم عليَّ ما دمت بكرًا وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله فى يد بعلى فإنى لا أخالفه ".

فقال لها: " بارك الله فيك وفى أبيك ورحم الله بطنًا حملك وظهرًا ألقاك ". ثم بعد ذلك قطع علائقه وأخذ فى أسباب السفر. فأعطاه عمه شيئًا كثيراً وودعا بعضهما. ثم أخذ زوجته وسافر. ولم يزل مسافرًا حتى دخل البصرة، فخرجت لملاقاته الأقارب والأصحاب وهم يظنون أنه كان فى الحجاز، وصار بعض الناس فرحانًا بقدومه وبعضهم مغمومًا لرجوعه إلى البصرة. وقال الناس لبعضهم: " إنه يضيق علينا فى كل جمعة بحسب العادة ونحبس فى الجوامع والبيوت حتى يحبس قططنا وكلابنا ". هذا ما كان من أمره.

وأما ما كان من أمر ملك البصرة فإنه لما علم بقدومه غضب عليه وأرسل إليه وأحضره بين يديه وعنفه وقال له: " كيف تسافر ولم تعلمنى بسفرك فهل كنت عاجزًا عن شيء أعطيه لك لتستعين به على الحج إلى بيت الله الحرام ؟ " فقال له: " العفو يا سيدى والله ما حججت ولكن جرى لى كذا وكذا ".

وأخبره بما جرى له مع زوجته ومع التاجر عبد الرحمن المصرى وكيف زوجه ابنته، إلى أن قال له: " وقد جئت بها إلى البصرة ".

فقال له الملك: " والله لولا أنى أخاف من الله تعالى لقتلتك وتزوجت بهذه البنت الأصيلة من بعدك ولو كنت أنفق عليها خزائن الأموال لأنها لا تصلح إلا للملوك، ولكن جعلها الله من نصيبك وبارك لك فيها فاستوص بها خيراً ". ثم إنه أنعم عليه، ونزل الجوهرى من عند الملك وقعد مع زوجته خمس سنوات. وبعد ذلك توفى إلى رحمة الله تعالى. فخطبها الملك فما رضيت وقالت: " أيها الملك أنا ما وجدت فى طائفتى امرأة تزوجت بعد بعلها فأنا لا أتزوج أحدًا بعد بعلى فلا أتزوجك ولو كنت تقتلنى ". فأرسل الملك يقول لها: " هل تطلبين التوجه إلى بلادك ؟" فقالت: " إذا فعلت خيرًا تجازى به ".

فجمع لها جميع أموال زوجها الجوهرى وزادها من عنده على قدر مقامه. ثم أرسل معها وزيرًا من وزرائه مشهورًا بالخير والصلاح وأرسل معه خمسمائة فارس من الفرسان الأشداء فى المملكة، فسار بها ذلك الوزير حتى أوصلها إلى بيت أبيها فى أرض مصر، وأقامت من غير زواج حتى ماتت، ومات الجميع، وإذا كانت هذه المرأة ما رضيت أن تبدل زوجها بعد موته بسلطان كيف تستوى بمن تبدله فى حال حياته بغلام مجهول الأصل والنسب.

ومن ظنَّ أن النساء كلهنَّ سواء ... فإن داء جنونه ليس له دواء.

فسبحان من له الملك والملكوت ... وهو الحى الذى لا يموت.

جل جلال الله تعالى

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية عبد الله بن فاضل نائب البصرة مع أخويه

قالت شهرزاد: مما يحكى أيضًا أيها الملك السعيد أن الخليفة هارون الرشيد تفقد خراج البلاد يومًا من الأيام فرأى خراج جميع البلاد والأقطار جاءت إلى بيت المال إلا خراج البصرة فإنه لم يأت فى ذلك العام. فنصب ديوانًا لهذا السبب وقال: " على بالوزير جعفر ". فحضر بين يديه. قال له: " إن خراج جميع الأقطار جاء إلى بيت المال إلا خراج البصرة فإنه لم يأت منه شيء ". فقال: "يا أمير المؤمنين لعلَّ نائب البصرة حصل له أمر ألهاه عن إرسال الخراج". فقال له: " إن مدة حضور الخراج عشرون يومًا فما عذره فى هذه المدة حتى لم يرسل الخراج أو يرسل بإقامة العذر ؟ " فقال له: " يا أمير المؤمنين إن شئت أرسلنا إليه مرسالاً " فقال : " أرسل له أبا إسحاق الموصلى النديم ". فقال : " سمعًا وطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين ".

حكاية أبى إسحاق النديم مع عبد الله بن فاضل

ثم إن الوزير جعفر نزل إلى داره وأحضر أبا إسحاق الموصلى النديم وكتب له خطًا شريفًا وقال له : " امض إلى عبد الله بن فاضل نائب مدينة البصرة وانظر ما الذى ألهاه عن إرسال الخراج، ثم تسلم منه خراج البصرة بالتمام والكمال وائتنى به سريعًا فإن الخليفة تفقد خراج الأقطار فوجده قد وصل إلا خراج البصرة. وإن رأيت الخراج غير حاضر واعتذر إليك بعذر فهاته معك ليخبر الخليفة بالعذر من لسانه ". فأجاب بالسمع والطاعة وأخذ خمسة آلاف فارس من عسكره وسافر حتى وصل إلى مدينة البصرة. فعلم بقدومه عبد الله بن فاضل فخرج بعسكره إليه ولاقاه ودخل به البصرة وقد عيَّن لهم ابن فاضل جميع ما يحتاجون إليه. ولما دخل أبو إسحاق الديوان وجلس على الكرسى أجلس عبد الله بن فاضل بجانبه وجلس الأكابر حوله على قدر مراتبهم. ثم بعد السلام قال له ابن فاضل: " يا سيدى هل لقدومك علينا من سبب ؟" قال: " نعم إنما جئت لطلب الخراج فإن الخليفة سأل عنه ومدة وروده قد مضت ". فقال يا سيدى ليتك ما تعبت ولا تحملت مشقة السفر فإن الخراج حاضر بالتمام والكمال وقد كنت عازمًا على أن أرسله فى الغد، ولكن حيث أتيت فأنا أسلِّمه إليك بعد

ضيافتك ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أحضر الخراج بين يديك، ولكن وجب علينا الآن أننا نقدم إليك هدية من بعض خيرك وخير أمير المؤمنين ". فقال له: " لا بأس عليك بذلك ".

ثم إنه فض الديوان ودخل به قصرًا فى داره ليس له نظير. ثم قدم له ولأصحابه سفرة الطعام فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا، ثم رفعت المائدة وغسلت الأيادى وجاءت القهوة والشربات وقعدوا فى المنادمة إلى ثلث الليل. ثم فرشوا له سريرًا من العاج مرصعًا بالذهب الوهاج فنام عليه، ونام نائب البصرة على سرير آخر بجانبه. فغلب السهر على أبى إسحاق رسول أمير المؤمنين وصار يفكر فى بحور الشعر والنظام لأنه من خواص ندماء الخليفة وكان له باع عظيم فى الأشعار ولطائف الأخبار، ولم يزل سهرانًا فى إنشاء الشعر إلى نصف الليل. فبينما هو كذلك وإذا بعبد الله بن فاضل قام وشد حزامه وفتح دولابًا وأخذ منه سوطًا وأخذ شمعة مضيئة وخرج من باب القصر وهو يظن أن أبا إسحاق نائم.

فلما خرج تعجب أبو إسحاق وقال فى نفسه " إلى أين يذهب عبد الله بن فاضل بهذا السوط فلعل مراده أن يعذب أحدًا، ولكن لابد لى من أن أتبعه وأنظر ما يصنع فى هذه الليلة". ثم إن أبا إسحاق قام وخرج وراءه قليلاً قليلاً بحيث إنه لم يره، فرأى عبد الله فتح خزانة وأخرج منها مائدة فيها أربعة صحون من الطعام وخبزًا وقلة فيها ماء، ثم إنه حمل المائدة والقلة ومشى. فتتبعه أبو إسحاق مستخفيًا إلى أن دخل قاعة فوقف أبو إسحاق خلف باب القاعة من داخل وصار ينظر من خلال الباب فرأى هذه القاعة واسعة ومفروشة فرشًا فاخرًا وفى وسط تلك القاعة سرير من العاج مصفح بالذهب الوهاج وذلك السرير مربوط فيه كلبان فى سلسلتين من الذهب. ثم إنه رأى عبد الله حطَّ المائدة على جانب فى مكان وشمر عن أياديه وفك الكلب الأول، فصار يتلوى فى يده ويضع وجهه فى الأرض كأنه يقبل الأرض بين يديه ويعوى عواء خفيفًا بصوت ضعيف. ثم إنه كتَّفه ورماه على الأرض وسحب السوط ونزل به عليه ضربًا وجيعًا من غير شفقة وهو يتلوى بين يديه ولا يجد له خلاصًا. ولم يزل يضربه بذلك السوط حتى قطع الأنين وغاب عن الوجود. ثم إنه أخذه وربطه فى مكانه.

وبعد ذلك أخذ الكلب الثانى وفعل به كما فعل بالأول. ثم إنه أخرج محرمة وصار يمسح بهما دموعهما ويأخذ بخاطرهما ويقول: " لا تؤاخذانى والله ما هذا بخاطرى ولم يسهل علىَّ لعل الله يجعل لكما من هذا الضيق فرجًا ومخرجًا ". ويدعو لهما. وحصل كل هذا وأبو إسحاق النديم واقف يسمع بأذنه ويرى بعينه وقد تعجَّب من هذه الحالة، ثم إنه قدم لهما سفرة الطعام وصار يلقمهما بيده حتى شبعا ومسح لهما أفواههما وحمل القلة وسقاهما، وبعد ذلك حمل المائدة والقلة، والشمعة وأراد أن يخرج فسبقه أبو إسحاق وجاء إلى سريره ونام. ولم يره ولم يعرف أنه تبعه واطلع عليه. ثم إن عبد الله وضع السفرة والقلة فى الخزانة ودخل القاعة وفتح الدولاب ووضع السوط فى محله وقلع حوائجه ونام. هذا ما كان من أمره.

وأما ما كان من أمر أبى إسحاق فإنه بات بقية الليلة يفكر فى شأن هذا الأمر ولم يأته نوم من كثرة العجب وصار يقول فى نفسه: " يا ترى ما سبب هذه القضية ؟" ولم يزل يتعجب إلى الصباح. ثم قاموا وصلوا الصبح ووُضع لهم الفطور فأكلوا وشربوا القهوة وطلعوا إلى الديوان، واشتغل أبو إسحاق بهذه النكتة طول النهار ولكنه كتمها ولم يسأل عبد الله عنها

وثانى ليلة فعل بالكلبين كذلك فضربهما ثم صالحهما وأطعمهما وسقاهما، وتبعه أبو إسحاق فرآه فعل بهما كأول ليلة، وكذلك ثالث ليلة. ثم إنه أحضر الخراج إلى أبى إسحاق النديم فى رابع اليوم فأخذه وسافر ولم يبد له شيئًا، ولم يزل مسافرا حتى وصل إلى بغداد وسلم الخراج إلى الخليفة. ثم إن الخليفة سأله عن سبب تأخير الخراج.

فقال له : " يا أمير المؤمنين رأيت عامل البصرة قد جهَّز الخراج وأراد إرساله ولو تأخرت يومًا لقابلنى فى الطريق، لكن رأيت من عبد الله بن فاضل عجبًا عمرى ما رأيت مثله يا أمير المؤمنين ". فقال الخليفة: " ما هو يا أبا إسحاق؟ " قال: " رأيت ما هو كذا وكذا ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

إخبار الخليفة بما فعل
ابن طاهر

قالت شهرزاد: وأخبره بما فعله مع الكلبين وقال له: " رأيته ثلاث ليال متواليات وهو يعمل هذا العمل فيضرب الكلبين وبعد ذلك يصالحهما ويأخذ بخاطرهما ويطعمهما ويسقيهما وأنا أتفرج عليه بحيث لا يرانى ". فقال له الخليفة: " فهل سألته عن السبب ؟ " فقال له: " لا وحياة رأسك يا أمير المؤمنين ". فقال الخليفة: " يا أبا إسحاق أمرتك أن ترجع إلى البصرة وتأتينى بعبد الله بن فاضل وبالكلبين ".

فقال: " يا أمير المؤمنين دعنى من هذا فإن عبد الله بن فاضل أكرمنى إكرامًا زائدًا وقد اطلعت على هذه الحالة اتفاقًا من غير قصد فأخبرتك بها فكيف أرجع إليه وأجيء به، فإن رجعت إليه لا ألقى لى وجهًا حياء منه فاللائق إرسال غيرى إليه بخط يدك فيأتيك به وبالكلبين ". فقال له: " إن أرسلت له غيرك ربما ينكر هذا الأمر ويقول: ما عندى كلاب، وأما إذا أرسلتك أنت وقلت له إنى رأيتك بعينى فإنه لا يقدر على إنكار ذلك، فلابد من ذهابك إليه وإتيانك به وبالكلبين وإلا فلابد من قتلك ".

فقال له أبو إسحاق: " سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصدق من قال: " آفة الإنسان من اللسان. فأنا الجانى على نفسى حيث أخبرتك، ولكن اكتب لى خطا شريفًا وأنا أذهب إليه وآتيك به ". فكتب له خطا شريفًا وتوجه به إلى البصرة. فلما دخل على عامل البصرة قال له: " كفانا الله شر رجوعك يا أبا إسحاق فما لى أراك رجعت سريعًا، لعل الخراج ناقص فلم يقبله الخليفة؟ ". فقال: "يا أمير عبد الله، ليس رجوعي من أجل نقص الخراج، فإنه كامل وقبله الخليفة، ولكن أرجو منك عدم المؤاخذة فإنى أخطأت فى حقك وهذا الذى وقع منى مقدر من الله تعالى ". فقال له: " وما وقع منك يا أبا إسحاق أخبرنى فإنك حبيبى وأنا لا أؤاخذك ؟ " فقال له: " اعلم أنى لما كنت عندك اتبعتك ثلاث ليال متواليات وأنت تقوم كل ليلة فى نصف الليل وتعذب الكلبين وترجع، فتعجبت من ذلك واستحييت أن أسألك عنه، ثم إنى أخبرت الخليفة بخبرك اتفاقًا من غير قصد فألزمنى بالرجوع إليك، وهذا خط يده، ولو كنت أعلم أن الأمر يحوج إلى ذلك ما كنت أخبرته، ولكن جرى القدر بذلك ". وصار يعتذر إليه.

فقال له: " حيث أخبرته فأنا أصدق خبرك عنده لئلا يظن بك الكذب فإنك حبيبى ولو أخبره غيرك كنت أنكرت ذلك وكذَّبته، فها أنا أروح معك وآخذ الكلبين معى ولو كان فى ذلك

تلف نفسي وانقضاء أجلي ". فقال له: " الله يسترك كما سترت وجهي عند الخليفة ". ثم إنه أخذ هدية تليق بالخليفة وأخذ الكلبين في زناجير من الذهب وحمل كل كلب على جمل وسافروا إلى أن وصلوا إلى بغداد ودخل على الخليفة فقبَّل الأرض بين يديه، فأذن له بالجلوس فجلس وأحضر الكلبين بين يديه. فقال الخليفة: " ما هذان الكلبان يا أمير عبد الله؟" فصار الكلبان يقبّلان الأرض بين يديه ويحركان أذنابهما ويبكيان كأنهما يشكوان إليه.

حكاية عبد الله بن فاضل قصة الكلبين قدام الخليفة

فتعجب الخليفة من ذلك وقال له: " أخبرني بخبر هذين الكلبين وما سبب ضربك لهما وإكرامهما بعد الضرب ؟" فقال له: " يا خليفة الله ما هذان كلبان وإنما هما رجلان شابان ذوا حسن وجمال وقد واعتدال وهما أخواي وولدا أمي وأبي ". فقال الخليفة:

"وكيف كانا آدميين وصارا كلبين ؟ " قال: " إن أذنت لي يا أمير المؤمنين أخبرك بحقيقة الخبر ". فقال: " أخبرني وإياك الكذب فإنه صفة أهل النفاق وعليك بالصدق فإنه سفينة النجاة وسمة الصالحين ". فقال له: " اعلم يا خليفة الله أني إذا أخبرتك بخبرهما يكونان هما الشاهدين عليَّ فإن كذبت يكذباني وإن صدقت يصدقاني ". فقال له: " هذان من الكلاب لا يقدران على نطق ولا جواب فكيف يشهدان لك أو عليك؟ " فقال لهما: " يا أخويَّ إذا أنا تكلمت كذبًا فارفعا رأسيكما وحملقا أعينكما، وإذا تكلمت صدقًا فنكسا رأسيكما وغضا أعينكما ".

ثم إنه قال: " اعلم يا خليفة الله إنا نحن ثلاثة أخوة أمُّنا واحدة وأبونا واحد وكان اسم أبينا فاضل وما سمي بهذا الاسم إلا لكون أمه ولدت ولدين توأمين في بطن واحد فمات أحدهما من وقته وساعته وفضل الثاني فسماه أبوه فاضلاً، ثم رباه وأحسن تربيته إلى أن كبر فزوجه أمنا ومات، فوضعت أخي هذا أولا فسماه منصورًا، وحملت ثاني مرة ووضعت أخي هذا فسماه ناصرًا، وحملت ثالث مره ووضعتني فسماني عبد الله، وربانا حتى كبرنا وبلغنا مبلغ الرجال فمات وخلف لنا بيتا ودكانا ملآن قماشًا ملونًا من سائر أنواع القماش الهندي والرومي والخراساني وغير ذلك، وخلف لنا ستين ألف دينار. فلما مات أبونا غسّلناه وعملنا له مشهدًا عظيمًا ودفناه لرحمة مولاه، وعملنا له عتاقة وختمات وتصدقنا عليه إلى تمام الأربعين يومًا، ثم إني بعد ذلك جمعت التجار وأشراف الناس وعملت لهم يومًا عظيمًا. وبعد ما أكلوا قلت لهم: " يا تجار إن الدنيا فانية والآخرة باقية وسبحان الدائم بعد فناء خلقه، هل تعلمون لأي شيء جمعتكم في هذا اليوم المبارك عندي؟" قالوا: سبحان الله علام الغيوب ". فقلت لهم: «إن أبي مات عن جملة من المال وأنا خائف أن يكون عليه تبعة لأحد من دين أو رهن أو غير ذلك، ومرادي خلاص ذمة أبي من حقوق الناس، فمن كان له عليه شيء فليقل أن لي عليه كذا وكذا وأنا أؤديه له لأجل براءة ذمة أبي ".

فقال لي التجار: " يا عبد الله إن الدنيا لا تغني عن الآخرة ولسنا أصحاب باطل وكل منا يعرف الحلال من الحرام ونخاف من الله تعالى ونجتنب أكل مال اليتيم ونعلم أن أباك رحمة الله عليه كان دائمًا يبقى ماله عند الناس ولا يخلي في ذمته شيئاً إلى أحد ونحن دائمًا

نسمعه وهو يقول: " أنا خائف من متاع الناس، ودائمًا كان يقول في دعائه: يا إلهي أنت ثقتي ورجائي فلا تُمتني وعليَّ دين، وكان من جملة طباعه أنه إذا كان لأحد عليه شيء فإنه يدفعه له من غير مطالبة، وإذا كان له على أحد شيء فإنه لا يطالبه ويقول له: على مهلك، وإن كان فقيرًا يسامحه ويبرئ ذمته، وإن لم يكن فقيرًا ومات يقول: سامحه الله مما لي عنده، ونحن كلنا نشهد أنه ليس لأحد عنده شيء ". فقلت: " بارك الله فيكم ". ثم إني التفت إلى أخوي هذين وقلت لهما: " يا أخوي إن أبانا ليس عليه لأحد شيء وقد خلف لنا هذا المال والقماش والبيت والدكان ونحن ثلاثة إخوة كل منا يستحق ثلث هذا الشيء، فهل نتفق على عدم القسمة ويستمر مالنا مشتركًا بيننا ونأكل سواءً ونشرب سواء أو نقسم القماش والأموال ويأخذ كل واحد منا حصته ؟ " فقالا: " نقسم ويأخذ كل واحد منا حصته ".

ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: " هل جرى ذلك يا أخوي ؟ " فنكسا رؤوسهما وغضا عيونهما كأنهما قالا نعم. ثم إنه قال: " فأحضرت قسامًا من طرف القاضي يا أمير المؤمنين فقسم بيننا المال والقماش وجميع ما خلفه لنا أبونا وجعلوا البيت والدكان في قسمي وهما أخذا قسمهما مالاً وقماشًا. ثم إني فتحت الدكان وحطيت فيه القماش واشتريت بجانب من المال الذي خصني زيادة على البيت والدكان قماشًا حتى ملأت الدكان وقعدت أبيع وأشتري، وأما أخواي فإنهما اشتريا قماشًا واكتريا مركبًا وسافرا في البحر إلى بلاد الناس. فقلت: " الله يساعدهما وأنا رزقي يأتيني وليس للراحة قيمة ". ودمت على ذلك مدة سنة كاملة. ففتح الله عليَّ وصرت أكتسب مكاسب كثيرة وصار عندي مثل الذي خلفه لنا أبونا، فاتفق لي يومًا من الأيام أنني كنت جالسًا في الدكان وعلى فروتان أحدهما سمور والأخرى سنجاب لأن ذلك الوقت كان فصل الشتاء في أوان اشتداد البرد، فبينما أنا كذلك وإذا بأخوي قد أقبلا عليَّ وعلى بدن كل واحد منهما قميص واحد خلق من غير زيادة وشفاهما بيض من البرد وهما ينتفضان.

فلما رأيتهما ينتفضان عسر عليَّ ذلك وحزنت عليهما وطار عقلي من رأسي، فقمت إليهما واعتنقتهما وبكيت على حالهما وخلعت على واحد منهما الفروة السمور وعلى الآخر الفروة السنجاب وأدخلتهما الحمام وأرسلت إلى كل واحد منهما في الحمام بدلة تاجر ألفي، وبعدما اغتسلا لبس كل واحد منهما بدلته، ثم أخذتهما إلى البيت فرأيتهما في غاية الجوع فوضعت لهما سفرة الأطعمة فأكلا وأكلت معهما ولاطفتهما وأخذت بخاطرهما. ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: " هل جرى ذلك يا أخوي ؟ " فنكسا رأسيهما وغضا عيونهما. ثم إنه قال: " يا خليفة الله ثم إني سألتهما وقلت لهما: " كيف جرى لكما وأين أموالكما ؟ " فقالا: " سافرنا في البحر ودخلنا مدينة تسمى الكوفة وصرنا نبيع القطعة القماش التي ثمنها علينا نصف دينار بعشرة دنانير والتي بدينار بعشرين دينارا وكسبنا مكاسب عظيمة واشترينا من قماش العجم الشقة الحرير بعشرة دنانير وهي تساوي في البصرة أربعين ديناراً ودخلنا مدينة تسمى الكرخ فبعنا واشترينا وكسبنا مكاسب كثيرة وصار عندنا أموال كثيرة ".

وجعلا يذكران لي البلاد والمكاسب. فقلت لهما : " حيث رأيتما هذا الفرج والخير فما لي أراكما رجعتما عريانين " فتنهدا وقالا : " يا أخانا ما حل بنا إلا عين صائبة والسفر ما له أمان، فلما جمعنا تلك الأموال والخيرات وسقنا متاعنا في مركب وسافرنا في البحر بقصد التوجه

إلى مدينة البصرة وقد سافرنا ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع رأينا البحر قادم وقعد، وأرغى وأزبد، وتحرك وهاج، وتلاطم بالأمواج. وصار الموج يقدح الشرار كلهيب النار، واختلفت علينا الأرياح، والتطم بنا المركب فى سن جبل فانكسر وغرقنا وراح جميع ما كان معنا فى البحر وصرنا نخبط على وجه الماء يومًا وليلة. فأرسل الله لنا مركبا آخر فأخذتنا ركابه وسرنا من بلاد إلى بلاد ونحن نسأل ونتقوت مما نحصله بالسؤال وقاسينا الكرب العظيم وصرنا نقلع من حوائجنا ونتقوت حتى قربنا من البصرة، وما وصلنا إلى البصرة حتى شربنا ألف حسرة، ولو كنا سلمنا بما كان معنا كنا أتينا بأموال تضاهى أموال الملك، ولكن هذا مقدر من الله علينا".

فقلت لهما: " يا أخوى لا تحملا هما فإن المال فداء الأبدان والسلامة غنيمة، وحيث كتبكم الله من السالمين فهذا غاية المنى، وما الفقر والغنى إلا كطيف خيال، ولله در من قال:

إذا سلمت هام الرجال من الردى فما المال إلا مثل قص الأظافر

ثم قلت لهما: " يا أخوى نحن نقدر أن أبانا قد مات فى هذا اليوم وخلف لنا جميع هذا المال الذى عندى، وقد طابت نفسى على أننا نقسمه بيننا بالسوية ". ثم أحضرت قبانًا من طرف القاضى وأحضرت له جميع مالى فقسمه بيننا وأخذ كل منا ثلث المال.

فقلت لهما: " يا أخوى بارك الله للإنسان فى رزقه إذا كان فى بلده، فكل واحد منكما يفتح له دكانًا ويقعد فيه لتعاطى الأسباب، والذى له شىء فى الغيب لابد أن يحصله ".

ثم سعيت لكل واحد منهما فى فتح دكانه وملأته له بالبضائع وقلت لهما: " بيعا واشتريا واحفظا أموالكما ولا تصرفا منها شيئًا وجميع ما يلزم لكما من أكل وشرب وغيرهما يكون من عندى ".

ثم قمت بإكرامهما وصارا يبيعان ويشتريان فى النهار وعند المساء يبيتان فى بيتى ولم أجعلهما يصرفان شيئًا من أموالهما. وكلما جلست معهما للحديث يمدحان الغربة ويذكران محاسنها ويصفان ما حصل لهما فيها من المكاسب ويغريانى على أن أوافقهما على التغرب فى بلاد الناس ". ثم قال للكلبين: «هل جرى ذلك يا أخوىّ؟! فنكسا رأسيهما وغضا أعينهما تصديقاً له». ثم قال: " يا خليفة الله فما زالا يرغبانى ويذكران لى كثرة الربح والمكاسب فى الغربة ويأمرانى بالسفر معهما حتى قلت لهما: " لابد أن أسافر معكما من أجل خاطركما ".

ثم إنى عقدت الشركة بينى وبينهما وحملنا قماشًا من سائر الأصناف النفيسة واكترينا مركبًا وشحناه بالبضائع من أنواع المتاجر ونزلنا فى ذلك المركب جميع ما نحتاج إليه، ثم سافرنا من مدينة البصرة فى البحر العجاج، المتلاطم بالأمواج الذى الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود، وما زلنا مسافرين حتى طلعنا إلى مدينة من المدائن فبعنا واشترينا وظهر لنا كثرة المكسب. ثم رحلنا منها إلى غيرها، ولم نزل نرحل من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة ونحن نبيع ونشترى ونربح حتى صار عندنا مال جسيم وربح عظيم.

ثم إننا وصلنا إلى جبل فألقى الرئيس المرساة وقال لنا: " يا ركاب اطلعوا بنا إلى البر تنجوا من هذا اليوم وفتشوا فيه لعلكم تجدوا ماءً ". فخرج جميع من فى المراكب وخرجت أنا بجملتهم وصرنا نفتش على الماء وتوجه كل منا فى جهة وصعدت أنا على أعلى الجبل فبينما أنا سائر إذ رأيت حية بيضاء تسمى هاربة ووراءها ثعبان أسود يسمى خلفها وهو مشوه الخلقة

هائل المنظر. ثم إن الثعبان لحقها وضايقها ومسكها من رأسها فصاحت، فعرفت أنه مفتر عليها، فأخذتني الشفقة عليها وتناولت حجرًا من الصوان قدر خمسة أرطال أو أكثر وضربت به الثعبان فجاء في رأسه فدقه، فما أشعر إلا وتلك الحية انقلبت وصارت بنتًا شابة ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال، وقد واعتدال، كأنها البدر المنير.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: فأقبلت عليَّ وقبلت يدي ثم قالت لي: " سترك الله بسترين ستر من العار في الدنيا وستر من النار في الآخرة يوم الموقف العظيم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم". ثم قالت: " يا إنسي أنت قد سترت عرضي وصار لك عليَّ الجميل ووجب على جزاؤك ". ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشقت ونزلت فيها وانطبقت عليها، فعرفت أنها من الجن، وأما الثعبان فإن النار اتقدت فيه وأحرقته وصار رمادًا.

فتعجبت من ذلك، ثم إني رجعت إلى أصحابي وأخبرتهم بما رأيت وبتنا تلك الليلة، وعند الصباح قلع الرئيس الخطاف ونشر القلوع وطوى الأطراف، ثم سافرنا حتى غاب البر عنا، ولم نزل مسافرين مدة عشرين يومًا ولم نرَ برا ولا طيرًا وفرغ ماؤنا، فقال الرئيس: " يا ناس إن الماء الحلو قد فرغ منا " فقلنا : " نطلع البر لعلنا نجد ماءً " فقال:

"والله إني تهت عن الطريق ولا أعرف طريقًا يوديني إلى جهة البر ". فحصل لنا غم شديد وبكينا ودعونا الله تعالى أن يهدينا إلى الطريق، ثم بتنا تلك الليلة في أسوأ حال، ولله در من قال:

وكم ليلة بتُّ في كربة   يكاد الرضيع لها أن يشيب
فما أصبح الصبح إلا أتى   من الله نصرٌ وفتحٌ قريبُ

فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح رأينا جبلا عاليًا. فلما رأينا ذلك الجبل فرحنا واستبشرنا به ثم إننا وصلنا إلى ذلك الجبل فقال الرئيس: " يا ناس اطلعوا البر حتى نفتش على ماء ". فطلعنا كلنا نفتش على ماء فلم نرَ فيه ماءً فحصل لنا مشقة بسبب قلة وجود الماء، ثم إني صعدت أعلى الجبل فرأيت خلفه دائرة واسعة مسافة سير ساعة أو أكثر فناديت أصحابي فأقبلوا عليَّ فلما أتوا قلت لهم: " انظروا إلى هذه الدائرة التي خلف هذا الجبل فإني أرى فيها مدينة عالية البنيان مشيدة الأركان ذات أسوار وبروج وروابي ومروج وهي من غير شك لا تخلو من الماء والخيرات فسيروا بنا نمضي إلى هذه المدينة ونجيء منها بالماء ونشتري ما نحتاج إليه من الزاد واللحم والفاكهة ونرجع ". فقالوا:

"نخاف أن يكون أهل هذه المدينة كفاراً مشركين أعداء الدين فيقبضون علينا ونكون أسرى تحت أيديهم أو يقتلوننا ونكون قد تسببنا في قتل أنفسنا حيث أوقعنا أنفسنا في الهلاك وسوء الارتباك، والمغرور غير مشكور لأنه على خطر من الأسواء كما قال فيه بعض الشعراء:

ما دامت الأرض أرضًا والسماء سما   ليس المغر بمحمود وإن سلما

فنحن لا نغر بأنفسنا فقلت لهم: " يا ناس لا حكم لي عليكم ولكن آخذ إخوتي وأتوجه إلى هذه المدينة ". فقال لي أخواي: " نحن نخاف من هذا الأمر ولا نروح معك، فقلت: " أما أنا فقد عزمت على الذهاب إلى هذه المدينة وتوكلت على الله ورضيت بما قدر الله عليَّ فانتظروني حتى أذهب إليها وأرجع إليكما ".

ثم تركتهما ومشيت حتى وصلت إلى باب تلك المدينة فرأيتها مدينة عجيبة البناء غريبة الهندسة أسوارها عالية وأبراجها محصنة وقصورها شاهقة وأبوابها من الحديد الصينى وهى مزخرفة منقوشة تدهش العقول. فلما دخلت من الباب رأيت دكة من الحجر وهناك رجل قاعد عليها وفى ذراعه سلسلة من النحاس الأصفر وفى تلك السلسلة أربعة عشر مفتاحًا، فعرفت أن ذلك الرجل بواب المدينة والمدينة لها أربعة عشر بابًا. ثم إنى دنوت منه وقلت له: " السلام عليكم " فلم يرد علىَّ السلام. فسلَّمت عليه ثانيًا وثالثًا فلم يرد علىَّ الجواب. فوضعت يدى على كتفه وقلت له: " يا هذا لأى شىء لم ترد السلام هل أنت نائم أم أصم أو غير مسلم حتى تمتنع عن رد السلام؟ " فلم يجبنى ولم يتحرك. فتأملت فيه فرأيته حجرًا، فقلت: " إن هذا شىء عجيب هذا الحجر مصور بصورة ابن آدم ولم ينقص عنه غير النطق ".

ثم تركته ودخلت المدينة فرأيت رجلاً واقفًا فى الطريق فدنوت منه وتأملته فرأيته حجرًا، ثم إنى لم أزل ماشيًا فى شوارع تلك المدينة وكلما رأيت إنسانًا أدنو منه وأتامله فأجده حجرًا، وقابلت امرأة عجوزًا على رأسها ثياب مهيأة للغسيل فدنوت منها وتأملتها فرأيتها من الحجر والعقدة الثياب التى على رأسها من الحجر، ثم إنى دخلت إلى السوق فرأيت زياتا ميزانه منصوب وقدامه أصناف البضائع من الجبن وغيره وكل ذلك من الحجر. ثم إنى رأيت المتسببين جالسين فى الدكاكين وبعض الناس واقف وبعض الناس جالس ورأيت رجالاً ونساء وصبيانًا وكل ذلك من الحجر، ثم دخلت سوق التجار فرأيت كل تاجر جالسًا فى دكانه والدكان ممتلئة بأنواع البضائع كل ذلك من الحجر ولكن الأقمشة كنسيج العنكبوت، فصرت أتفرج عليها وكلما مسكت ثوبًا من القماش يصير بين يدى هباء منثورًا. ورأيت صناديق ففتحت واحدًا فوجدت فيه ذهبًا من أكياس. فمسكت الأكياس فذابت فى يدى والذهب لم يزل على حاله فحملت منه قدر ما أطيقه وصرت أقول فى نفسى: " لو حضر أخواى معى لأخذا من هذا الذهب كفايتهما وتمتعا من هذه الذخائر التى لا أصحاب لها ".

وبعد ذلك دخلت دكانًا آخر فرأيت أكثر من ذلك ولكن ما بقيت أقدر أن أحمل غير ما حملته، ثم إنى خرجت من ذلك السوق إلى سوق آخر. ثم منه إلى سوق آخر وهكذا. وما زلت أتفرج على مخلوقات مختلفة الأشكال وكلها من الحجارة حتى الكلاب والقطط من الحجارة، ثم إنى دخلت سوق الصاغة فرأيت فيه رجالاً جالسين فى الدكاكين والبضائع عندهم بعضها فى أيديهم وبعضها فى أقفاص. فلما رأيت ذلك يا أمير المؤمنين رميت ما كان معى من الذهب وحملت من المصاغ ما أطيق حمله، وخرجت من سوق الصاغة إلى سوق الجواهر فرأيت الجوهرية جالسين فى دكاكينهم وقدام كل واحد منهم قفص ملآن بأنواع المعادن كالياقوت والألماس والزمرد والبلخش وغير ذلك من سائر الأصناف وأصحاب الدكاكين أحجار.

فرميت ما كان معى من المصاغ وحملت من الجواهر ما أطيق حمله وبقيت أتندم حيث لم يكن أخواى معى حتى يأخذا من تلك الجواهر ما أراداه. ثم إنى خرجت من سوق الجواهر فمررت على باب كبير مزخرف مزين بأحسن زينة من داخل الباب دكك وجالس على تلك الدكك خدام وجند وأعوان وعساكر وحكام وهم لابسون أفخر الملابس وكلهم أحجار، فلمست واحدًا منهم فتناثرت ملابسه من على بدنه مثل نسيج العنكبوت، ثم إنى مشيت فى ذلك الباب فرأيت سراية ليس لها نظير فى بنائها وإحكام صنائعها ورأيت فى تلك السراية ديوانًا

مشحونًا بالأكابر والوزراء والأعيان والأمراء وهم جالسون على كراسى وكلهم أحجار. ثم إنى رأيت كرسيًا من الذهب الأحمر مرصعًا بالدر والجواهر وجالس فوقه آدمى عليه أفخر الملابس وعلى رأسه تاج كسروي مكلل بنفيس الجواهر التي لها شعاع مثل شعاع النهار. فلما وصلت إليه رأيته من الحجر. ثم إنني توجهت من ذلك الديوان إلى باب الحريم ودخلت فيه فرأيت ديواناً من النساء ورأيت في ذلك الديوان كرسيا من الذهب الأحمر مرصعاً بالدر والجواهر وجالس فوقه امرأة مكلة وعلى رأسها تاج مكلل بنفيس الجواهر وحولها نساء مثل الأقمار جالسات على كراسى ولابسات أفخر الملابس الملونة بسائر الألوان وواقف هناك طواشية أيديهم على صدورهم كأنهم واقفون من أجل الخدمة.

وذلك الديوان يدهش عقول الناظرين بما فيه من الزخرف وغريب النقش وعظيم الفرش ومعلق فيه أبهج التعاليق من البلور الصافى وفى كل قدرة من البلور جوهرة يتيمة لا يفى بثمنها مال، فرميت ما معى يا أمير المؤمنين وصرت آخذ من هذه الجواهر وحملت منها على قدر ما أطيق وبقيت متحيرًا فيما أحمله وفيما أتركه لأنى رأيت ذلك المكان كأنه كنز من كنوز المدن، ثم إنى رأيت بابًا صغيرًا مفتوحًا وفى داخله سلالم فدخلت ذلك الباب وطلعت أربعين سلمًا فسمعت إنسانًا يتلو القرآن بصوت رخيم فمشيت جهة ذلك الصوت حتى وصلت إلى باب القصر فرأيت ستارة من الحرير مصفحة بشرائط من الذهب ومنظوم فيها اللؤلؤ والمرجان والياقوت وقطع الزمرد والجواهر فيه تضىء كضوء النجوم والصوت خارج من تلك الستارة، فدنوت من الستارة ورفعتها فظهر لى باب قصر مزخرف يحير الأفكار، فدخلت من ذلك الباب فرأيت قصرًا كأنه كنز على وجه الدنيا من داخله بنت كأنها الشمس الضاحية فى وسط السماء الصاحية هى لابسة أفخر الملابس ومتحلية بأنفس ما يكون من الجواهر مع أنها بديعة الحسن والجمال، بقد واعتدال وظرف وكمال، كأنها المرادة بقول من قال:

سلامٌ على ما فى الثياب من القدّ	وما فى بساتين الخدود من الورد
كأن الثريا عُلقت فى جبينها	وباقى نجوم الليل فى الصدر كالعقد
فلو لبست ثوبًا من الورد خالصًا	لأدمى مجانى جسمها ورق الورد
ولو تفلت فى البحر والبحر مالحٌ	لأصبح طعم البحر أحلى من الشهد
ولو واصلت شيخًا كبيرًا على عصا	لأصبح ذاك الشيخ مُفترس الأسد

ثم إنه قال: يا أمير المؤمنين لما رأيت تلك البنت شغفت بها حبا وتقدمت إليها فرأيتها جالسة على مرتبة عالية وهى تتلو كتاب الله عز وجل حفظًا على ظهر قلبها وصوتها كأنه صرير أبواب الجنان إذا فتحها رضوان، والكلام خارج من بين شفتيها يتناثر كالجواهر ووجهها ببديع المحاسن زاه زاهر، كما قال الشاعر:

يا مطربا بلفاته وصفاته	قد زاد فيك تشوقى وتشوفى
شيئان فيك تذيب أرباب الهوى	نغمات داود وصورة يوسف

فلما سمعت نغماتها فى تلاوة القرآن العظيم وقد قرأ قلبى من فاتك لحظاتها سلامٌ قولاً من رب رحيم، تلجلجت فى الكلام ولم أحسن السلام، واندهش منى العقل والناظر، وصرت كما قال الشاعر:

ما هزني الشوق حتى تهت عن كلمي ولا دخلت الحمى إلا لسفك دمي
ولا سمعت كلامًا من عواذلنا إلا لأشهد من أهواه في الكلم

ثم تجلدت على هول الغرام وقلت لها : " السلام عليك أيتها السيدة المصونة، والجوهرة المكنونة، أدام الله قوائم سعدك ، ورفع دعائم مجدك ". فقالت : " وعليك منى السلام والتحية والإكرام يا عبد الله يا ابن فاضل أهلاً وسهلاً بك يا حبيبى وقرة عينى ".

فقلت لها : " يا سيدتى من أين علمت اسمى ومن أين تكونين أنت وما شأن أهل هذه المدينة حتى صاروا أحجارًا، فمرادى أن تخبرينى بحقيقة الأمر فإنى تعجبت من هذه المدينة ومن أهلها ومن كونها لم يوجد فيها إلا أنت، فبالله عليك أن تخبرينى بحقيقة ذلك على وجه الصدق؟ فقالت لى : " اجلس يا عبد الله وأنا إن شاء الله تعالى أحدثك وأخبرك بحقيقة أمرى وبحقيقة أمر هذه المدينة وأهلها على التفصيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ". فجلست إلى جانبها.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: فقالت لى : " اعلم يا عبد الله يرحمك الله أننى بنت ملك هذه المدينة ووالدى هو الذى رأيته جالسًا فى الديوان على الكرسى العالى والذى حوله أكابر دولته وأعيان مملكته، وكان أبى ذا بطش شديد ويحكم على ألف ألف ومائة ألف وعشرين ألف جندى، وعدة أمراء دولته أربعة وعشرون ألفًا كلهم حكام وأصحاب مناصب، وتحت طاعته من المدن ألف غير البلدان والضياع والحصون والقلاع والقرى، وأمراء العربان الذين تحت يده ألف أمير كل أمير يحكم على عشرين ألف فارس، وعنده من الأموال والذخائر والمعادن والجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وكان يقهر الملوك ويبيد الأبطال والشجعان فى الحرب وحومة الميدان وتخشاه الجبابرة وتخضع له الأكاسرة، ومع ذلك كان كافرًا مشركاً بالله، يعبد الصنم دون مولاه، وجميع عساكره كفار يعبدون الأصنام دون الملك العلام، فاتفق أنه كان يومًا من الأيام جالسًا على كرسى مملكته وحوله أكابر دولته فلم يشعر إلا وقد دخل عليه شخص فأضاء الديوان من نور وجهه، فنظر إليه فرآه لابساً حلة خضراء وهو طويل القامة وأياديه نازلة إلى تحت ركبته وعليه هيبة ووقار والنور يلوح من وجهه. فقال لأبى: " يا باغى يا مفترى إلى متى وأنت مغرور بعبادة الأصنام، وترك الملك العلام، قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأسلم أنت وقومك ودع عنك عبادة الأصنام فإنها لا تنفع ولا تشفع، ولا يُعبد بحق إلا الله رافع السماوات بغير عمد، وباسط الأرضين رحمة للعباد؟ " فقال له : " من أنت أيها الرجل الجاحد لعبادة الأصنام حتى تتكلم بهذا الكلام؟ أما تخشى أن تغضب عليك الأصنام ؟".

فقال له: " إن الأصنام أحجار لا يضرنى غضبها ولا ينفعنى رضاها فأحضر لى صنمك الذى أنت تعبده وأمر كل واحد من قومك أن يحضر صنمه، فإذا حضر جميع أصنامكم فادعوهم ليغضبوا علىّ وأنا أدعو ربى أن يغضب عليكم وتنظرون غضب الخالق من غضب المخلوق، فإن أصنامكم قد صنعتموها أنتم وتلبست بها الشياطين وهم الذى يكلمونكم من داخل بطون الأصنام، فأصنامكم مصنوعة وإلهى صانع ولا يعجزه شىء فإن ظهر لكم الحق

فاتبعوه وإن ظهر لكم الباطل فاتركوه ". فقالوا له: " ائتنا ببرهان ربك حتى نراه ". فقال: " ائتونى ببراهين أربابكم ". فأمر الملك كل من كان يعبد ربا من الأصنام أن يأتى به، فأحضر جميع العساكر أصنامهم فى الديوان. هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمرى فإنى كنت جالسة فى داخل ستارة تشرف على ديوان أبى وكان لى صنم من زمردة خضراء جسمه قدر جسم ابن آدم، فطلبه أبى فأرسلته إليه فى الديوان فوضعوه فى جانب صنم أبى، وكان صنم أبى من الياقوت وصنم الوزير من جواهر الألماس وأما أكابر العساكر والرعية فبعض أصنامهم من البلخش وبعضها من العقيق وبعضها من المرجان وبعضها من العود القمارى وبعضها من الأبنوس وبعضها من الفضة وبعضها من الذهب وكل واحد منهم له صنم على قدر ما تسمح به نفسه، وأما رعاع العساكر والرعية فبعض أصنامهم من الصوان وبعضها من الخشب وبعضها من الفخار وبعضها من الطين. وكل الأصنام مختلفة الألوان مابين أصفر وأحمر وأخضر وأسود وأبيض.

ثم قال ذلك الشيخ لأبى: " ادعُ صنمك وهؤلاء الأصنام تغضب علىّ " فصفوا تلك الأصنام ديوانا وجعلوا صنم أبى على كرسى من الذهب وصنمى إلى جانبه فى الصدر، ثم رتبوا الأصنام كل منها فى مرتبة صاحبه الذى يعبده، وقام أبى وسجد لصنمه وقال له: " يا إلهى أنت الرب الكريم وليس فى الأصنام أكبر منك وأنت تعلم أن هذا الشخص أتانى طاعنًا ربوبيتك مستهزئاً بك ويزعم أن له إلهًا أقوى منك ويأمرنا أن نترك عبادتك ونعبد إلهه، فاغضب عليه يا إلهى "، وصار يطلب من الصنم والصنم لا يرد عليه جوابًا ولا يخاطبه بخطاب. فقال له: " يا إلهى ما هذه عادتك لأنك كنت تكلمنى إذا كلمتك فما لى أراك ساكتًا لا تتكلم هل أنت غافل أو نائم فانتبه وانصرنى وكلمنى ". ثم هزه بيده فلم يتكلم ولم يتحرك من مكانه. فقال ذلك الشخص لأبى: " مالى أرى صنمك لا يتكلم ؟ " قال له: " أظن أنه غافل أو نائم ". فقال له: " يا عدو الله كيف تعبد إلهًا لا ينطق وليس له قدرة على شىء ولا تعبد إلهى الذى هو قريب مجيب، وحاضر لا يغيب ولا يغفل ولا ينام، ولا تدركه الأوهام، يرى ولا يُرى وهو على كل شىء قدير، وإلهك عاجز لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه وقد كان ملتبسًا به شيطان رجيم يضللك ويغويك وقد ذهب الآن شيطانه، فاعبد الله واشهد أنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه وإنه لا يستحق العبادة إلا هو ولا خير إلا خيره، وأما إلهك هذا فإنه لا يقدر على دفع الشر عن نفسه فكيف يقدر على دفعه عنك فانظر بعينك عجزه ".

ثم تقدم وصار يصكه على رقبته حتى وقع على الأرض فغضب الملك وقال للحاضرين: " إن هذا الجاحد قد صك إلهى فاقتلوه ". فأرادوا القيام ليضربوه فلم يقدر أحد منهم أن يقوم من مكانه. فعرض عليهم الإسلام فلم يسلموا. فقال: " أريكم غضب ربى ". فقالوا: " أرنا ". فبسط يديه وقال: " إلهى وسيدى أنت ثقتى ورجائى فاستجب دعائى على هؤلاء القوم الفجار، الذين يأكلون خيرك ويعبدون غيرك، يا حق يا جبار يا خالق الليل والنهار، أسألك أن تقلب هؤلاء القوم أحجارًا فإنك قادر ولا يعجزك شىء فإنك على كل شىء قدير ". فمسخ أهل هذه المدينة أحجارًا، وأما أنا فإنى حين رأيت برهانه أسلمت وجهى لله فسلمت مما أصابهم. ثم إن ذلك الشخص دنا منى وقال: " سبقت لك من الله السعادة، ولله فى ذلك إرادة ". وصار يعلمنى

وأخذت عليه العهد والميثاق، وكان عمرى سبع سنين فى ذلك الوقت وفى هذا الوقت صار ثلاثين عامًا.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

ثم إنى قلت له: " يا سيدى جميع ما فى المدينة وجميع أهلها صاروا أحجارًا بدعوتك الصالحة وقد نجوت أنا حين أسلمت على يديك فانت شيخى فأخبرنى باسمك ومدنى بمددك وتصرف لى فى شىء أقتات منه ؟ " فقال لى " اسمى أبو العباس الخضر ". ثم غرس لى شجرة من الرمان بيده فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت رمانة واحدة فى الحال.

فقال: " كلى مما رزقك الله تعالى واعبديه حق عبادته ". ثم علمنى شروط الإسلام وشروط الصلاة وطريق العبادة وعلمنى تلاوة القرآن. وصار لى ثلاثة وعشرون عامًا وأنا أعبد الله فى هذا المكان وفى كل يوم تطرح لى هذه الشجرة رمانة فآكلها وأقتات بها من الوقت إلى الوقت، والخضر عليه السلام يأتينى كل جمعة وهو الذى عرفنى باسمك وبشرنى بأنك سوف تأتينى فى هذا المكان وقد قال لى: " إذا أتاك فأكرميه وأطيعى أمره ولا تخالفيه وكونى له أهلاً ويكون لك بعلاً واذهبى معه حيث شاء. فلما رأيتك عرفتك. وهذا هو خبر هذه المدينة وأهلها والسلام ".

ثم إنها أرتنى شجرة الرمان وفيها رمانة فأكلت نصفها وأطعمتنى نصفها فما رأيت أحلى ولا أزكى ولا أطعم من تلك الرمانة. ثم قلت لها: " هل رضيت بما أمرك به شيخك الخضر عليه السلام بأن تكونى لى أهلاً وأكون لك بعلاً وتذهبى معى إلى بلادى وأمكث بك فى مدينة البصرة؟ " فقالت " نعم إن شاء الله تعالى فإنى سميعة لقولك مطيعة لأمرك من غير خلاف ". ثم إنى أخذت عليها العهد الوثيق وأدخلتنى إلى خزانة أبيها وأخذنا منها ما استطعنا حمله وخرجنا من تلك المدينة ومشينا حتى وصلنا إلى أخوى فرأيتهما يفتشان علىَّ. فقالا لى: " أين كنت فإنك أبطأت علينا وقلبنا مشغول بك ". وأما رئيس المركب فإنه قال لى: " يا تاجر عبد الله إن الريح طابت لنا من مدة وأنت عوقتنا عن السفر ". فقلت له: " لا ضرر فى ذلك لعل التأخير خير لأن غيابى لم يكن فيه إلا صلاح، وقد حصل لى فيه بلوغ الآمال، ولله در من قال:

وما أدرى إذا يممت أرضًا ... أريد الخير أيهما يلينى

أالخير الذى أنا أبتغيه ... أم الشر الذى هو يبتغينى

ثم قلت لهم: " انظروا ما حصل لى فى هذه الغيبة ". وفرجتهم على ما معى من الذخائر وأخبرتهم بما رأيته فى مدينة الحجر وقلت لهم: " لو كنتم أطعتمونى ورحتم معى كان يحصل لكم من هذا الشىء " فقالوا له: " والله لو رحنا ما كنا نستجرئ أن ندخل على ملك المدينة ". فقلت لأخوى : " لا بأس عليكما فالذى معى يكفينا جميعًا وهذا نصيبنا ". ثم إنى قسمت ما معى أقسامًا على قدر الجميع وأعطيت لأخوى والرئيس وأخذت مثل واحد منهم وأعطيت ما تيسر للخدامين والنوتية. ففرحوا ودعوا لى ورضوا بما أعطيته لهم إلا أخوى فإنهما تغيرت أحوالهما ولاحت عيونهما، فلحظت أن الطمع تمكن منهما فقلت لهما: " يا أخوى ما أظن أن الذى أعطيته لكما لم يقنعكما، ولكن أنا أخوكما وأنتما أخواى ولا فرق بينى وبينكما ومالى ومالكما شىء واحد وإذا مت لا يرثنى غيركما ". وصرت آخذ بخاطرهما.

ثم إني أنزلت البنت فى الغليون وأدخلتها فى الخزانة وأرسلت لها شيئًا تأكله وقعدت أتحدث أنا وأخواى. فقالا لى: " يا أخانا ما مرادك أن تفعل بهذه البنت البديعة الجمال ؟" فقلت لهما: " مرادى أن أكتب كتابى عليها إذا دخلت البصرة وأعمل فرحًا عظيمًا وادخل بها هناك ". فقال أحدهما : " يا أخى اعلم أن هذه الصبية بديعة الحسن والجمال وقد وقعت محبتها فى قلبى فمرادى أن تعطيها لى فأتزوج بها أنا " وقال الثانى : " وأنا الآخر كذلك فأعطها لى لأتزوج بها، فقلت لهما: "يا أخويَّ إنها قد أخذت ليَّ عهداً وميثاقاً اني أتزوج بها فإذا أعطيتها لواحد منكما أكون ناقضًا للعهد الذى بينى وبينها وربما يحصل لها كسر خاطر لأنها ما أتت معى إلا على شرط أنى أتزوج بها فكيف أزَوِجها لغيرى، وأما من جهة أنكما تحبانها فأنا أحبها أكثر منكما على أنها لقطتى، وكونى أعطيها لواحد منكما هذا شيء لا يكون أبداً، ولكن إذا دخلنا مدينة البصرة بالسلامة أنظر لكما بنتين من خيار بنات البصرة وأخطبهما لكما وأدفع المهر من مالى وأجعل الفرح واحدًا وندخل نحن الثلاثة فى ليلة واحدة وأعرضا عن هذه البنت فإنها من نصيبى ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: فسكتا وقد ظننت أنهما رضيا بما قلت لهما. ثم إننا سافرنا متوجهين إلى أرض البصرة وصرت أرسل إليها ما تأكل وما تشرب وهى لا تخرج من خزانة المركب وأنا أنام بين أخوى على ظهر الغليون، ولم نزل مسافرين على هذه الحالة مدة أربعين يومًا حتى بانت لنا مدينة البصرة ففرحنا بإقبالنا عليها وأنا أركن إلى أخوى ومطمئن بهما ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. فنمت تلك الليلة، فبينما أنا مستغرق فى النوم ولم أشعر إلا وأنا محمول بين أيادى أخوى هذين واحد قابض عليَّ من سيقانى والآخر من يدى لكونهما اتفقا على تغريقى فى البحر من شأن تلك البنت، فلما رأيت روحى محمولاً بين أيديهما قلت: " يا أخوى لأى شيء تفعلان معى هذه الفعال؟ " فقالا: " يا قليل الأدب كيف تبيع خاطرنا ببنت، فنحن نرميك فى البحر من أجل ذلك ". ثم رميانى فيه. ثم إنه التفت إلى الكلبين وقال: " أحق ما قلته يا أخوى أم لا ؟" فنكسا رأسيهما وصارا يعويان كأنهما يصدقان قوله ". فتعجب الخليفة من ذلك.

ثم قال " يا أمير المؤمنين فلما رميانى فى البحر وصلت إلى القرار ثم نفضنى الماء على وجه البحر، فما أشعر إلا وطائر كبير قدر الآدمى نزل على وخطفنى وطار بى فى الجو الأعلى، ففتحت عينى فرأيت روحى فى قصر مشيد الأركان عالى البنيان منقوش بالنقوشات الفاخرة وفيه تعاليق الجواهر من سائر الأشكال والألوان وفيه جوار واقفة واضعة الأيادى على الصدور، وإذا بامرأة جالسة بينهن على كرسى من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر وعليها ملابس لا يقدر الإنسان أن يفتح عينيه فيها من شدة ضياء الجواهر، وفي وسطها حزام من الجواهر لا يفى بثمنه مال وعلى رأسها تاج ثلاث دورات يحير العقول والأفكار ويخطف القلوب والأبصار. ثم إن الطير الذى كان خطفنى انتفض فصار صبية كأنها الشمس المضيئة، فأمعنت النظر فيها فإذا هى التى كانت فى الجبل بصفة حية وكان الثعبان يقاتلها وأنا حين رأيت الثعبان غلب عليها قتلته بالحجر ".

فقالت لها المرأة التى كانت جالسة على الكرسى: " لأىَ شيء جئت هنا بهذا الإنسى ؟ "

فقالت لها: " يا أمى إن هذا هو الذى كان سببًا فى ستر عرضى بين بنات الجان ". ثم قالت لى: " هل تعرف من أنا ؟ " قلت: " لا ": قالت: " أنا التى كنت فى الجبل الفلانى وكان الثعبان الأسود يقاتلنى ويريد هتك عرضى وأنت قتلته ". فقلت: " إنما رأيت مع الثعبان حية بيضاء ". فقالت: " أنا التى كنت حية بيضاء ولكنى بنت الملك الأحمر ملك الجان واسمى سعيدة وهذه الجالسة هى أمى واسمها مباركة زوجة الملك الأحمر والثعبان الذى كان يقاتلنى ويريد هتك عرضى هو وزير الملك الأسود واسمه درفيل وهو قبيح الخلقة، واتفق أنه لما رآنى عشقنى ثم إنه خطبنى من أبى، فأرسل إليه يقول له:

وما مقدارك يا قطاعة الوزراء حتى تتزوج بنات الملوك؟ فاغتاظ من ذلك وحلف يمينًا أنه لابد أن يقتلنى كيدًا فى أبى، وصار يتبع أثرى ويتبعنى أينما رحت ومراده أن يقتلنى، وقد وقع بينه وبين أبى حروب عظيمة ولم يقدر عليه أبى لكونه جبارًا مكارًا.

ثم إن أبى كلما ضايقه وأراد أن يظفر به يهرب منه وقد عجز أبى. وصرت أنا فى كل يوم أنقلب أشكالاً وألوانًا وكلما أنقلب فى صفة ينقلب هو فى صفة ضدها وكلما هربت إلى الأرض يشم رائحتى ويلحقنى فى تلك الأرض حتى قاسيت منه مشقة عظيمة.

ثم انقلبت فى صفة حية وذهبت إلى ذلك الجبل فانقلب هو فى صفة ثعبان وتبعنى فيه فوقعت فى يده وعالجنى وعالجته حتى أتعبنى وكاد يقتلنى فأتيت أنت وضربته بالحجر فقتلته، وأنا انقلبت بنتًا وأريتك روحى وقلت لك: إنه صار لك علىَّ جميل لا يضيع إلا مع أولاد الزنا، فلما رأيت أخويك فعلا بك هذه المكيدة ورمياك فى البحر بادرت إليك وخلصتك من الهلاك ووجب لك الإكرام من أمى وأبى". ثم إنها قالت: " يا أمى أكرميه فى نظير ما ستر عرضى ". فقالت: " مرحبًا بك يا إنسى فإنك فعلت معنا جميلاً تستحق عليه الإكرام ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: ثم إنها أمرت لى ببدلة كنوزية تساوى جملة من المال وأعطتنى جملة من الجواهر والمعادن. ثم إنها قالت: " خذوه وأدخلوه على الملك ". فأخذونى وأدخلونى على الملك فى الديوان، فرأيته جالسًا على كرسى وبين يديه المردة والأعوان فلما رأيته زاغ بصرى مما رأيته عليه من الجواهر. فلما رآنى قام على الأقدام وقامت العساكر إجلالاً له، ثم حيانى ورحب بى وأكرمنى غاية الإكرام وأعطانى مما عنده من الخيرات. وبعد ذلك قال لبعض أتباعه: " خذوه إلى بنتى توصله إلى المكان الذى جاءت به منه ". فأخذونى وذهبوا بى إلى سعيدة بنته. فحملتنى ثم طارت بى وبما معى من الخيرات.

هذا ما كان من أمرى وأمر سعيدة وأما ما كان من أمر رئيس الغليون فإنه أفاق على الخبطة حين رميانى فى البحر فقال: " ما الذى وقع فى البحر ؟ " فبكى أخواى وصارا يخبطان على صدورهما ويقولان: " يا ضيعة أخينا فإنه أراد أن يزيل ضرورة فى جانب الغليون فوقع فى البحر ". ثم إنهما وضعا أيديهما على مالى،. ووقع بينهما الاختلاف من جهة البنت وصار كل واحد منهما يقول: " ما يأخذها غيرى ". واستمرا على الخصام مع بعضهما ولم يتذكرا أخاهما ولا غرقه وزال حزنهما عليه.

فبينما هما فى هذه الحالة وإذا بسعيدة نزلت بى فى وسط الغليون فرآنى أخواى

وعانقاني وفرحا بي وصارا يقولان: " يا أخانا كيف حالك فيما جرى لك إن قلبنا مشغول عليك ؟ " فقالت سعيدة : " لو كان قلبكما عليه أو كنتما تحبانه ما كنتما رميتماه في البحر وهو نائم، ولكن اختارا لكما موتة تموتانها ". وقبضت عليهما وأرادت قتلهما فصاحا وقالا: " في عرضك يا أخانا ". فصرت أتداخل عليها وأقول لها: " أنا واقع في عرضك لا تقتلي أخوي ". وهي تقول: " لا بد من قتلهما إنهما خائنان ". فما زلت الاطفها وأستعطفها حتى قالت: " من شأن خاطرك لا أقتلهما ولكن أسحرهما ". ثم أخرجت طاسة وحطت فيها من ماء البحر وتكلمت عليها بكلام لا يُفهم وقالت: " أخرجا من الصورة البشرية إلى الصورة الكلبية ". ثم رشتهما بالماء فانقلبا كلبين كما تراهما يا خليفة الله ".

ثم التفت إليهما وقال: " أحق ما قلته يا أخوى ؟ " فنكسا رأسيهما كأنهما يقولان له: " صدقت؟". ثم قال: " يا أمير المؤمنين وبعد أن سحرتهما كلبين قالت لمن كان في الفليون: " اعلموا أن عبد الله بن فاضل هذا صار أخي وأنا أشق عليه كل يوم مرة أو مرتين وكل من خالفه منكم أو عصى أمره أو آذاه باليد أو اللسان فإني أفعل به ما فعلت بهذين الخائنين وأسحره كلبا حتى ينقضي عمره وهو في صورة الكلب ولم يجد له خلاصاً" فقال لها الجميع: " يا سيدتي نحن كلنا عبيده وخدمه ولا نخالفه ". ثم إنها قالت لي:

"إذا دخلت البصرة تفقَّد مالك فإن كان نقص منه شيء فأعلمني وأنا أجيء لك به من أي شخص كان ومن أي مكان كان ومن كان آخذًا له أسحره كلبًا ".

"ثم بعد أن تخزن أموالك حط في رقبة كل من هذين الخائنين غلا واربطهما في ساق السرير واجعلهما في سجن وحدهما وكل ليلة في نصف الليل انزل إليهما واضرب كل واحد منهما حتى يغيب عن الوجود. وإن انتصفتْ ليلة ولم تضربهما فإني أجيء إليك وأضربك علقة وبعد ذلك أضربهما ". فقلت لها: " سمعًا وطاعة ". ثم إنها قالت لي: " اربطهما في الحبال حين تدخل البصرة ". فحطيت في رقبة كل واحد منهما حبلاً ثم ربطتهما في الصاري وتوجهت هي إلى حال سبيلها. وفي ثاني يوم دخلنا البصرة وطلع التجار لمقابلتي وسلموا عليَّ ولم يسأل أحد عن أخويَّ، وإنما صاروا ينظرون إلى الكلبين ويقولون لي: " يا فلان ماذا تصنع بهذين الكلبين اللذين جئت بهما معك ؟ " فأقول لهم:

"إني ربيتهما في هذه السفرة وجئت بهما معي ". فيضحكون عليهما ولم يعرفوا أنهما أخواي. ثم إني وضعتهما في خزنة والتهيت تلك الليلة في توزيع الأحمال التي فيها القماش والمعادن، وكان عندي التجار لأجل السلام فاشتغلت بهم ولم أضربهما ولم أربطهما بالسلاسل ولم أعمل معهما ضررًا. ثم نمت فما أشعر إلا وقد أتتني سعيدة بنت الملك الأحمر وقالت لي: " أما قلت لك حط في رقابهما السلاسل واضرب كل واحد منهما علقة ؟ " ثم إنها قبضت عليَّ وأخرجت السوط وضربتني علقة حتى غبت عن الوجود، وبعد ذلك ذهبت إلى المكان الذي فيه أخواي وضربت كل واحد منهما علقة بالسوط حتى أشرف على الموت. وقالت: " كل ليلة اضرب كل واحد منهما علقة مثل هذه العلقة وإن مضت ليلة ولم تضربهما فأنا أضربك ". فقلت: " يا سيدتي في غد أحط السلاسل في رقابهما والليلة الآتية أضربهما ولا أرفع الضرب عنهما ليلة واحدة ". فأكدت عليَّ في الوصية بضربهما.

فلما أصبح الصباح لم يهن على أن أضع السلاسل فى رقابهما فذهبت إلى صائغ وأمرته أن يعمل لهما أغلالاً من الذهب فعملها وجئت لهما ووضعتها فى رقابهما وربطتهما كما أمرتنى، وفى ثانى ليلة ضربتهما قهرًا عنى، وكانت هذه الحركة فى مدة خلافة المهدى الخامس من بنى العباس وقد اصطحبت معه بإرسال الهدايا فقلدنى ولاية وجعلنى نائبًا فى البصرة، ودمت على هذه الحالة مدة من الزمان. ثم إنى قلت فى نفسى: " لعل غيظها قد برد فتركتهما ليلة من غير ضرب". فأتتنى وضربتنى علقة لم أنسَ حرارتها بقية عمرى. فمن ذلك الوقت لم أقطع عنهما الضرب مدة خلافة المهدى، ولما توفى المهدى وتوليت أنت بعده أرسلت إلىّ تقرير الاستمرار على مدينة البصرة، وقد مضى لى اثنا عشر عامًا وأنا فى كل ليلة أضربهما قهراً عنى وبعدما أضربهما آخذ بخاطرهما وأعتذر إليهما وأطعمهما وهما محبوسان. ولم يعلم بهما أحد من خلق الله تعالى حتى أرسلت إلىّ أبا إسحاق النديم من أجل الخراج فاطلع على سرى ورجع إليك فأخبرك فأرسلته ثانيًا تطلبنى وتطلبهما فأجبت بالسمع والطاعة وأتيت بهما بين يديك، ولما سألتنى عن حقيقة الأمر أخبرتك بالقصة ".

فعند ذلك تعجب الخليفة هارون الرشيد من حال هذين الكلبين ثم قال: " وهل أنت فى هذه الحالة سامحت إخوتك مما صدر منهما فى حقك وعفوت أم لا ؟" فقال: " يا سيدى يسامحهما الله وأبرأ ذمتهما فى الدنيا والآخرة وأنا محتاج لكونهما يسامحانى لأنه مضى لى اثنا عشر عامًا وأنا أضربهما كل ليلة علقة ". فقال له الخليفة : " يا عبد الله إن شاء الله تعالى أنا أسعى فى خلاصهما ورجوعهما آدميين كما كانا أولاً وأصلح بينكم وتعيشون بقية أعماركم متحابين وكما أنك سامحتهما يسامحانك. فخذهما وانزل على منزلك، وفى هذه الليلة لا تضربهما وفى غد ما يكون إلا الخير ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: فقال له: " يا سيدى وحياة رأسك إن تركتهما ليلة واحدة من غير ضرب تأتينى سعيدة وتضربنى وأنا ما لى جسد يتحمل ضربًا ". فقال له : " لا تخف فأنا أعطيك خط يدى، فإذا أتتك سعيدة فأعطها الورقة، فإذا قرأتها وعفت عنك كان الفضل لها، وإن لم تطع أمرى كان أمرك إلى الله ودعها تضربك علقة وقدِّر أنك نسيتهما من الضرب ليلة وضربتك بهذا السبب، وإذا حصل ذلك وخالفتنى فإن كنت أنا أمير المؤمنين فإنى أعمل خلاصى معها ". ثم إن الخليفة كتب لها ورقة مقدار إصبعين وبعدما كتبها ختمها وقال: " يا عبد الله إذا أتتك سعيدة فقل لها: " إن الخليفة ملك الإنس أمرنى بعدم ضربهما وكتب لى هذه الورقة وهو يقرئك السلام، وأعطها المرسوم ولا تخش بأسًا ".

ثم أخذ عليه العهد والميثاق أنه لا يضربهما. فأخذهما وراح بهما إلى منزله وقال فى نفسه: " يا ترى ما الذى يصنعه الخليفة فى حق بنت سلطان الجن إذا كانت تخالفه وتضربنى فى هذه الليلة؟ ولكن أنا أصبر على ضربى علقة وأريح أخوى فى هذه الليلة ولو كان يحصل لى من أجلهما العذاب ". ثم إنه تفكّر فى نفسه وقال فى عقله: " لولا أن الخليفة مستند إلى سند عظيم ما كان يمنعك من ضربهما ". ثم إنه دخل منزله ونزع الأغلال من رقاب أخويه وقال : "توكلت على الله ". وصار يأخذ بخاطرهما ويقول لهما: " لا بأس عليكما فإن الخليفة

السادس من بني العباس قد تكفّل بخلاصكما وأنا قد عفوت عنكما وإن شاء الله تعالى تخلصان في هذه الليلة المباركة فابشرا بالهناء والسرور".

فلما سمعا هذا الكلام صارا يعويان مثل عوى الكلاب ويمرغان خدودهما على أقدامه كأنهما يدعوان له ويتواضعان بين يديه، فحزن عليهما وصار يلمس بيده على ظهورهما إلى أن جاء وقت العشاء. فلما وضعوا السفرة قال لهما: " اجلسا ". فجلسا يأكلان معه على السفرة. فصار أعوانه باهتين متعجبين من أكله مع الكلاب ويقولون: " هل هو مجنون أو مختل العقل، كيف يأكل نائب مدينة البصرة مع الكلاب وهو أكبر من وزير، أما يعلم أن الكلب نجس؟" وصاروا ينظرون إلى الكلبين وهما يأكلان معه أكل الحشمة ولا يعلمون أنهما أخواه وما زالوا يتفرجون على عبد الله والكلبين حتى فرغوا من الأكل. ثم إن عبد الله غسل يديه، فمد الكلبان أيديهما وصارا يغسلان، وكل من كان واقفًا صار يضحك عليهما ويتعجب ويقولون لبعضهم: " عمرنا ما رأينا الكلاب تأكل وتغسل أيديها بعد أكل الطعام ". ثم إنهما جلسا على المراتب بجنب عبد الله بن فاضل ولم يقدر أحد أن يسأله عن ذلك، واستمر الأمر هكذا إلى نصف الليل.

ثم إن عبد الله صرف الخدام وناموا كل كلب على سرير، وصار الخدام يقولون لبعضهم: " إنه نام ونام معه الكلبان وما هذا إلا حال المجانين ". ثم إنهم لم يأكلوا مما بقى فى السفرة من الطعام شيئًا وقالوا: " كيف تأكل من فضلة الكلاب ؟ ". ثم أخذوا السفرة بما فيها ورموها وقالوا: " إنها نجسة ". هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر عبد الله بن فاضل فإنه لم يشعر إلا والأرض قد انشقت وطلعت سعيدة وقالت: " يا عبد الله لأى شىء ما ضربتهما فى هذه الليلة ولأى شىء نزعت الأغلال من أعناقهما، هل فعلت ذلك عنادًا أو استخفافًا بأمرى؟ ولكن أنا أضربك وأسحرك كلبًا مثلهما ". فقال لها: " يا سيدتى أقسمت عليك بالنقش الذى على خاتم سيدنا سليمان بن داود عليه السلام أن تحلمى علىَّ حتى أخبرك بالسبب ومهما أردته بى فافعليه " فقالت له: "أخبرنى ". فقال لها: : " أما سبب عدم ضربهما فإن ملك الإنس الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد أمرنى أن لا أضربهما فى هذه الليلة، وقد أخذ علىَّ مواثيق وعهودًا على ذلك وهو يقرئك السلام وأعطانى مرسومًا بخط يده وأمرنى أن أعطيك إياه، فامتثلت لأمره وأطعته، وطاعة أمير المؤمنين واجبة وها هو المرسوم فخذيه واقرئيه وبعد ذلك افعلى مرادك ". فقالت: " هاته ". فناولها المرسوم.

ففتحته وقرأته فرأت مكتوبًا فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم، من ملك الإنس هارون الرشيد إلى بنت الملك الأحمر سعيدة. أما بعد فإن هذا الرجل قد سامح أخويه وأسقط حقه عنهما وقد حكمت بالصلح، وإذا وقع الصلح ارتفع العقاب، فإن اعترضتمونا فى أحكامنا اعترضناكم فى أحكامكم وخرقنا قانونكم، وإن امتثلتم أمرنا ونفذتم أحكامنا فإننا ننفذ أحكامكم، وقد حكمت عليك بعدم التعرض لهما، فإن كنت تؤمنين بالله ورسوله فعليك بطاعة ولى الأمر، وإن عفوت عنهما فأنا أجازيك بما يقدرنى عليه ربى، وعلامة الطاعة أن ترفعى سحرك عن هذين الرجلين حتى يقابلانى فى غد خالصين، وإن لم تخلصيهما فأنا أخلصهما

قهراً عنك بعون الله تعالى". فلما قرأت ذلك الكتاب قالت: " يا عبد الله لا أفعل شيئًا حتى اذهب إلى أبى وأعرض عليه مرسوم ملك الإنس وأرجع إليك بالجواب بسرعة".

ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشقت ونزلت فيها. فلما ذهبت طار قلب عبد الله فرحًا وقال: "أعز الله أمير المؤمنين".

ثم إن سعيدة دخلت على أبيها وأخبرته بالخبر وعرضت عليه مرسوم أمير المؤمنين فقبّله ووضعه على رأسه ثم قرأه وفهم ما فيه وقال: " يا بنتى إن أمر ملك الإنس علينا ماض وحكمه فينا نافذ ولا نقدر أن نخالفه، فامضى إلى الرجلين وخلصيهما فى هذه الساعة وقولى لهما: أنتما فى شفاعة ملك الإنس، فإنه إن غضب علينا أهلكنا عن آخرنا فلا تحملينا ما لا نطيق".

فقالت له: " يا أبت إذا غضب علينا ملك الإنس ماذا يصنع بنا ؟ " فقال لها : " يا بنتى إنه يقدر علينا من وجوه.

الأول: أنه من البشر فهو مفضل علينا.

والثانى: أنه خليفة الله.

والثالث: أنه مصر على ركعتى الفجر، فلو اجتمعت عليه طوائف الجن من السبع أرضين لا يقدرون أن يصنعوا به مكروهًا، فإنه إن غضب علينا يصلى ركعتى الفجر ويصيح علينا صيحة واحدة فنجتمع بين يديه طائعين ونصير كالغنم بين يدى الجزار إن شاء يأمرنا بالرحيل من أوطاننا إلى أرض موحشة لا نستطيع المكث فيها وإن شاء هلاكنا أمرنا بهلاك أنفسنا فيهلك بعضنا بعضًا، فنحن لا نقدر على مخالفة أمره فإن خالفنا أمره أحرقنا جميعاً وليس لنا مفر من بين يديه، وكذلك كل عبد داوم على ركعتي الفجر فإن حكمه نافذ فينا، فلا تتسببى فى هلاكنا من أجل رجلين بل امضى وخلصيهما قبل أن يحيق بنا غضب أمير المؤمنين".

فرجعت إلى عبد الله بن فاضل وأخبرته بما قال أبوها وقالت له: " قبّل لنا أيادى أمير المؤمنين واطلب لنا رضاه".

ثم إنها أخرجت الطاسة ووضعت فيها الماء وعزّمت عليهما وتكلّمت بكلمات لا تُفهم.

ثم رشتهما بالماء وقالت : " اخرجا من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية". فعادا بشرين كما كانا أولاً وانفك عنهما رصد السحر وقالا: " نشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمدًا رسول الله".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: ثم إنهما وقعا على يدى أخيهما وعلى رجليه يقبلانها ويطلبان منه السماح. فقال لهما: " سامحانى أنتما". ثم إنهما تابا توبة نصوحًا وقالا: " قد غرنا إبليس اللعين وأغوانا الطمع وربنا جازانا بما نستحقه والعفو من شيم الكرام". وصارا يستعطفان أخاهما ويبكيان ويتندمان على ما وقع منهما. ثم إنه قال لهما: " ما فعلتما بزوجتى التى جئت بها من مدينة الحجر؟ " فقالا: " لما أغوانا الشيطان ورميناك فى البحر وقع الخلاف بيننا وصار كل منا يقول: " أنا أتزوج بها، فلما سمعت كلامنا ورأت اختلافنا وعرفت أننا رميناك فى البحر طلعت من الخزانة وقالت: لا تختصما من أجلى فإنى لست لواحد منكما إن زوجى راح فى البحر وأنا أتبعه، ثم إنها رمت روحها فى البحر وماتت".

فقال: " إنها ماتت شهيدة، (كذا) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ".

ثم إنه بكى عليها بكاء شديدًا وقال لهما: " لا يصح منكما أن تفعلا هذه الفعال وتعدمانى زوجتى ". فقالا: " إننا أخطأنا وربنا جازانا على فعلنا وهذا شىء قدره الله علينا قبل أن يخلقنا، فقبل عذرهما ".

ثم إن سعيدة قالت: " أيفعلان معك كل هذه الفعال وأنت تعفو عنهما ". فقال: " يا أختى من قدر وعفا كان أجره على الله ". فقالت: " خذ حذرك منهما فإنهما خائنان ". ثم ودعته وانصرفت إلى حال سبيلها.

فبات عبد الله بقية الليلة هو وأخواه على أكل وشرب وبسط وانشراح صدر. فلما أصبح الصباح أدخلهما الحمام، وعند خروجهما من الحمام ألبس كل واحد منهما بدلة تساوى جملة من المال.

ثم إنه طلب سفرة طعام فقدموها بين يديه فأكل هو وأخواه. فلما نظرهما الخدم وعرفوا أنهما أخواه سلموا عليهما وقالوا للأمير عبد الله: " يا مولانا هناك الله باجتماعك على أخويك العزيزين وأين كانا فى هذه المدة ؟ " فقال لهم: " هما اللذان رأيتموهما فى صورة كلبين والحمد لله الذى خلصهما من السجن والعذاب الأليم ".

ثم إنه أخذهما وتوجه إلى ديوان الخليفة هارون الرشيد ودخل بهما عليه وقبَّل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز والنعم وإزالة البؤس والنقم فقال له الخليفة: " مرحبًا بك يا أمير عبد الله أخبرنى بما جرى لك ؟ " فقال : " يا أمير المؤمنين أعز الله قدرك إنى لما أخذت أخوى وذهبت بهما إلى منزلى اطمأننت عليهما بسببك حيث تكفلت بخلاصهما وقلت فى نفسى: إن الملوك لا يعجزون عن أمر يجتهدون فيه فإن العناية تساعدهم، ثم نزعت الأغلال من رقابهما وتوكلت على الله وأكلت أنا وإياهما على السفرة، فلما رآنى أتباعى آكل معهما وهما فى صورة كلبين استخفوا عقلى وقالوا لبعضهم: لعله مجنون.

كيف يأكل نائب البصرة مع الكلاب وهو أكبر من الوزير، ورموا ما فضل من السفرة وقالوا: لا نأكل ما بقى من الكلاب، وصاروا يسفهون رأيى وأنا أسمع كلامهم ولا أرد عليهم جوابًا لعدم معرفتهم أنهما أخواى. ثم صرفتهم عندما جاء وقت النوم وطلبت النوم، فما أشعر إلا والأرض قد انشقت وخرجت منها سعيدة وهى غضبانة وعيناها مثل النار ". ثم أخبر الخليفة بجميع ما وقع منها ومن أبيها وكيف أخرجتهما من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية.

ثم قال: " وها هما بين يديك يا أمير المؤمنين ". فالتفت الخليفة فرآهما شابين كالقمرين فقال الخليفة: " جزاك الله عنى خيرًا يا عبد الله حيث أعلمتنى بفائدة ما كنت أعلمها، إن شاء الله تعالى لا أترك صلاة هاتين الركعتين قبل صلاة الصبح ما دمت حيا.

ثم إنه عنَّف أخوى عبد الله بن فاضل على ما سلف منهما فى حقه، فاعتذرا قدَّام الخليفة. فقال لهما: " تصافحوا وسامحوا بعضكم بعضًا وعفا الله عما سلف ". ثم التفت إلى عبد الله وقال: "يا عبد الله اجعل أخويك معينين لك وتوص بهما ". وأوصاهما بطاعة أخيهما.

ثم أنعم عليهم وأمرهم بالارتحال إلى مدينة البصرة بعد أن أعطاهم إنعامًا جزيلاً، فنزلوا من ديوان الخليفة مجبورين، وفرح الخليفة بهذه الفائدة التى استفادها من هذه الحركة

وهى المداومة على صلاة ركعتين قبل الفجر وقال: " صدق من قال مصائب قوم عند قوم فوائدُ". هذا ما كان من أمرهم مع الخليفة.

وأما ما كان من أمر عبد الله بن فاضل فإنه سافر من مدينة بغداد ومعه أخواه بالإعزاز والإكرام ورفع المقام إلى أن دخلوا مدينة البصرة، فخرج الأكابر والأعيان لملاقاتهم وزينوا لهم المدينة وأدخلوهم بموكب ليس له نظير.

وصار الناس يدعون له وهو ينثر الذهب والفضة، وصار جميع الناس ضاجين بالدعاء له ولم يلتفت أحد إلى أخويه، فدخلت الغيرة والحسد فى قلبيهما. ومع ذلك كان عبد الله يداريهما مداراة العين الرمداء وكلما داراهما لا يزدادان إلا بغضًا له وحسدًا فيه.

وقد قيل فى هذا المعنى:

وداريت كل الناس لكن حاسدى	مداراته شطت وعز نوالها
وكيف يدارى المرء حاسد نعمة	إذ كان لا يرضيه إلا زوالها

ثم إنه أعطى كل واحد منهما سرية ليس لها نظير وجعلهما بخدم وحشم وجوار وعبيد سود وبيض من كل نوع أربعين، وأعطى كل واحد منهما خمسين جوادًا من الخيل الجياد وصار لهما جماعة وأتباع، ثم إنه عين لهما الخراج ورتب لهما الرواتب وجعلهما معينين له.

ثم إنه قال لهما: " يا أخوى أنا وأنتما سواء لا فرق بينى وبينكما فالحكم بعد الله والخليفة لى ولكما فاحكما فى البصرة فى غيابى وحضورى وحكمكما نافذ، ولكن عليكما بتقوى الله فى الأحكام وإياكما والظلم فإنه إن دام دمَّر، وعليكما بالعدل فإنه إن دام عَمَّر، ولا تظلما العباد فيدعوا عليكما وخبركما يصل إلى الخليفة فتحصل فضيحة فى حقى وحقكما فلا تتعرضا لظلم أحد.

والذى تطمعان فيه من أموال الناس خذاه من مالى زيادة على ما تحتاجان إليه ولا يخفى عليكما ما ورد فى الظلم من محكم الآيات ولله در من قال هذه الأبيات:

الظلم فى نفس الفتى كامنٌ	وليس إلا العجز يخفيه
ذو العقل لا ينهض فى حاجة	حتى يرى الوقت يوافيه
لسان من يعقل فى قلبه	وقلب من يجهل فى فيه
من لم يكن أكبر من عقله	يقتله أصغر ما فيه
أصل الفتى خافٍ ولكنه	من فعله يظهر خافيه
من لم يكن عنصره طيبًا	لا يظهر الطيب من فيه
من قلد الأحمق فى فعله	كان لذى الجهل مساويه
ومن أطلع الناس على سره	تنبهت له أعاديه
يكفى الفتى ما كان من شأنه	وتركه ما ليس يعنيه

ثم إنه صار يعظ أخويه ويأمرهما بالعدل وينهاهما عن الظلم حتى ظن أنهما أحباه بسبب بذل النصيحة لهما، ثم إنه ركن إليهما وبالغ فى إكرامهما، ومع إكرامه لهما ما ازدادا إلا حسدًا له وبغضًا فيه، ثم إن أخويه ناصرًا ومنصورًا اجتمعا مع بعضهما فقال ناصر لمنصور: " يا أخى إلى متى ونحن تحت طاعة أخينا عبد الله وهو فى هذه السيادة والإمارة، وبعدما كان

تاجرًا صار أميرًا وبعدما كان صغيرًا صار كبيراً ونحن لم نكبر ولم يبق لنا قدر ولا قيمة. وها هو ضحك علينا وعملنا معينين له، ما معنى ذلك، أليس أننا فى خدمته ومن تحت طاعته، وما دام طيبا لا ترتفع درجتنا ولم يبقَ لنا شأن، فلا يتم غرضنا إلا إن قتلناه وأخذنا أمواله، ولا يمكن أخذ هذه الأموال إلا بعد هلاكه، فإذا قتلناه نسود ونأخذ جميع ما فى خزائنه من الجواهر والمعادن والذخائر وبعد ذلك نقسمها بيننا، ثم نهيئ هدية للخليفة ونطلب منه منصب الكوفة وأنت تكون نائب البصرة وأنا أكون نائب الكوفة أو أنك تكون نائب الكوفة وأكون أنا نائب البصرة ويبقى لكل واحد منا صورة وشأن، ولكن لا يتم لنا ذلك إلا إذا أهلكناه".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية مشاورة أخوى عبد الله فى قتله

قالت شهرزاد: فقال منصور: " إنك صادق فيما قلت، ولكن ماذا نصنع معه حتى نقتله؟" فقال: " نعمل ضيافة عند أحدنا ونعزمه فيها ونخدمه غاية الخدمة ثم نسامره بالكلام ونحكى له حكايات ونكتًا ونوادر إلى أن يذوب قلبه من السهر ثم نفرش له حتى يرقد، فإذا رقد نبرك عليه وهو نائم فنخنقه ونرميه فى البحر ونصبح نقول: " إن أخته الجنية أتته وهو قاعد يتحدث بيننا وقالت له: " يا قطاعة الإنس ما مقدارك حتى تشكونى إلى أمير المؤمنين أتظن أننا نخاف منه فكما أنه ملك نحن ملوك وإن لم يلزم أدبه فى حقنا قتلناه أقبح قتلة ولكن بقيت أنا أقتلك حتى ننظر ما يخرج من يد أمير المؤمنين، ثم خطفته وشقت الأرض ونزلت به. فلما رأينا ذلك غشي علينا ثم استفقنا ولم ندر ما حصل له.

وبعد ذلك نرسل إلى الخليفة ونعلمه فإنه يولينا مكانه، وبعد مدة نرسل إلى الخليفة هدية سنية ونطلب منه حكم الكوفة وواحد منا يقيم فى البصرة والآخر يقيم بالكوفة وتطيب لنا البلاد ونقهر العباد ونبلغ المراد". فقال له: " نعم ما أشرت به يا أخى ". ثم اتفقا على قتل أخيهما. وصنع ناصر ضيافة وقال لأخيه عبد الله: " يا أخى اعلم أنى أنا أخوك ومرادى أنك تجبر بخاطرى أنت وأخى منصور وتأكلان ضيافتى فى بيتى حتى أفتخر بك ويقال إن الأمير عبد الله أكل ضيافة أخيه ناصر لأجل أن يحصل لى بذلك جبر خاطر ".

فقال له عبد الله: " لا بأس يا أخى ولا فرق بينى وبينك وبيتك بيتى، ولكن حيث عزمتنى فما يأبى الضيافة إلا اللئيم ". ثم التفت إلى أخيه منصور وقال له: " أتروح معى إلى بيت أخيك ناصر ونأكل ضيافته ونجبر بخاطره ؟ " فقال له: " يا أخى وحياة رأسك ما أروح معك حتى تحلف لى أنك بعدما تخرج من بيت أخى ناصر تدخل بيتى وتأكل ضيافتى، فهل ناصر أخوك وأنا لست أخاك؟ فكما جبرت بخاطره تجبر بخاطرى ".

فقال: " لا بأس بذلك حبا وكرامة، فمتى خرجت من دار أخيك أدخل دارك وكما هو أخى أنت أخى".

ثم إن ناصرًا قبَّل يد أخيه عبد الله ونزل من الديوان وعمل الضيافة، وفى ثانى يوم ركب عبد الله وأخذ معه جملة من العسكر وأخاه منصورا وتوجه إلى دار أخيه ناصر فدخل وجلس هو وجماعته وأخوه. فقدم لهم السماط ورحب بهم. فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وارتفعت

السفرة والزيادي وغسلت الأيادي، وأقاموا ذلك اليوم على أكل وشرب وبسط ولعب إلى الليل. فلما تعشوا صلوا المغرب والعشاء، ثم جلسوا على منادمة وصار منصور يحكي حكاية وناصر يحكي حكاية وعبد الله يسمع. وكانوا في قصر وحدهم وبقية العسكر في مكان آخر. ولم يزالوا في نكت وحكايات ونوادر وأخبار حتى ذاب قلب أخيهم من السهر وغلب عليه النوم.

حكاية رمي عبد الله في البحر وتخليص الدرفيل له

فلما طال عليه السهر وأراد النوم فرشوا له الفراش، ثم قلع ثيابه ونام. وناما بجانبه على فراش آخر وصبرا عليه حتى استغرق في النوم، فلما عرفا أنه استغرق في النوم قاما وبركا عليه، فأفاق فرآهما باركين على صدره فقال لهما: " ما هذا يا أخوي ؟ " فقالا له: " ما نحن أخواك ولا نعرفك يا قليل الأدب وقد صار موتك أحسن من حياتك ". وحطا أيديهما في رقبته وخنقاه، فغاب عن الدنيا ولم يبقَ فيه حركة فظنا أنه مات. وكان القصر على البحر فرمياه في البحر. فلما وقع في البحر سخَّر الله له درفيلاً كانَ معتادًا على مجيئه تحت القصر لأن المطبخ كان فيه طاقة تشرف على البحر وكانوا كلما ذبحوا الذبائح يرمون تواليقها في البحر من تلك الطاقة فيأتي ذلك الدرفيل ويلتقطها من على وجه الماء فاعتاد على ذلك المكان، وكانوا في ذلك اليوم قد رموا سقاطًا كثيراً بسبب الضيافة فأكل ذلك الدرفيل زيادة عن كل يوم وحصل له قوة.

فلما سمع الخبطة في البحر أتى بسرعة فرآه ابن آدم فهداه الهادي وحمله على ظهره وشق به وسط البحر ولم يزل ماشيًا به حتى وصل إلى البر من الجهة الثانية وألقاه على البر، وكان ذلك المكان الذي أطلعه فيه على قارعة الطريق. فمرت به قافلة فرأوه مرميا على جانب البحر فقالوا: " هنا غريق ألقاه البحر على الشاطئ ". واجتمع عليه جماعة من تلك القافلة يتفرجون عليه. وكان شيخ القافلة رجلاً من أهل الخير وعارفاً بجميع العلوم وخبيرا بعلم الطب وصاحب فراسة صادقة فقال لهم: يا ناس ما الخبر ؟ " فقالوا: " هذا غريق ميت ". فأقبل عليه وتأمله وقال: " يا ناس هذا شاب فيه الروح وهذا من خيار أولاد الناس الأكابر وتربية العز والنعيم وفيه الرجاء إن شاء الله تعالى ".

ثم إنه أخذه وألبسه بدلة وأدفأه وصار يعالجه ويلاطفه مدة ثلاث مراحل حتى أفاق، ولكن حصلت له خضة فغلب عليه الضعف وصار شيخ القافلة يعالجه بأعشاب يعرفها، ولم يزالوا مسافرين مدة ثلاثين يومًا حتى بعدوا عن البصرة بهذه المسافة وهو يعالجه. ثم دخل مدينة يقال لها مدينة عوج وهي في بلاد العجم فنزلوا في خان وفرشوا له ورقد فبات تلك الليلة وهو يئن وقد أقلق الناس من أنينه. فلما أصبح الصباح أتى بواب الخان إلى شيخ القافلة وقال: " ما شأن هذا الضعيف الذي عندك فإنه أقلقنا ؟" فقال : " هذا رأيته في الطريق على جانب البحر غريقًا فعالجته وعجزت ولم يشفَ ". فقال له: " اعرضه على الشيخة راجحة ". فقال له: " وما تكون الشيخة راجحة ؟ " فقال: " عندنا بنت بكر شيخة وهي عذراء جميلة اسمها الشيخة راجحة، وكل من كان به داء يأخذونه إليها فيبيت عندها ليلة واحدة فيصبح معافى كأنه لم يكن فيه شيء يضره ".

فقال له شيخ القافلة: " دلني عليها ". فقال له: " احمل مريضك ". فحمله ومشى بواب

الخان قدامه إلى أن وصل إلى زاوية، فرأى خلائق داخلين بالنذور وخلائق خارجين فرحانين، فدخل بواب الخان حتى وصل إلى الستارة " وقال: «دستور يا شيخة راجحة، خذي هذا المريض» فقالت: «ادخله من داخل الستارة». فقال له: " ادخل ". فدخل ونظر إليها فرآها زوجته التى جاء بها من مدينة الحجر فعرفها وعرفته وسلّمت عليه وسلّم عليها. فقال لها: " من أتى بك إلى هذا المكان ؟ " فقالت له: " لما رأيت أخويك رمياك فى البحر وتخاصما عليَّ رميت روحى فى البحر فتناولنى شيخى الخضر أبو العباس وأتى بى إلى هذه الزاوية وأعطانى الإذن بشفاء المرضى ونادى فى هذه المدينة: " كل من كان فيه داء فعليه بالشيخة راجحة، وقال لى: " أقيمى فى هذا المكان حتى يئون الأوان ويأتى إليك زوجك فى هذه الزاوية. فصار كل مريض أتى إليَّ أكبسه فيصبح طيبا، وشاع ذكرى بين العالم وأقبل عليَّ الناس بالنذور وعندى الخير كثير وأنا فى عز وإكرام وجميع أهل البلاد يطلبون منى الدعاء ".

حكاية أمر الخليفة بصلب أخوى عبد الله

ثم إنها كبسته فشفى بقدرة الله تعالى، وكان الخضر عليه السلام يحضر عندها كل ليلة جمعة، وكانت تلك الليلة التى اجتمع بها فيها ليلة الجمعة، فلما جن الليل جلست هى وإياه بعدما تعشيا من أفخر المأكولات ثم قعدا ينتظران حضور الخضر، فبينما هما جالسان وإذا به أقبل عليهما فحملهما من الزاوية ووضعهما فى قصر عبد الله بن فاضل بالبصرة ثم تركهما وراح. فلما أصبح الصباح تأمل عبد الله القصر فرآه قصره وعرفه وسمع الناس فى ضجة، فطل من الشباك فرأى أخويه مصلوبين كل واحد منهما على خشبة، والسبب فى ذلك أنهما لما رمياه فى البحر أصبحا يبكيان ويقولان : " إن أخانا خطفته الجنية ". ثم هيئا هدية وأرسلاها إلى الخليفة وأخبراه بهذا الخبر وطلبا منه منصب البصرة.

فأرسل احضرهما عنده وسألهما فأخبراه كما ذكرنا، فاشتد غضب الخليفة. فلما جن الليل صلى ركعتين قبل الفجر على عادته وصاح على طوائف الجن فحضروا بين يديه طائعين.

فسألهم عن عبد الله فحلفوا له أنه لم يتعرض له أحد منهم وقالوا له: " ما عندنا خبر به".

فأتت سعيدة بنت الملك الأحمر وأخبرت الخليفة بخبره فصرفهم.

وفى ثانى يوم رمى ناصرًا ومنصوراً تحت الضرب فأقرا على بعضهما، فغضب عليهما الخليفة وقال : " خذوهما إلى البصرة واصلبوهما قدَّام قصر عبد الله " هذا ما كان من أمرهما.

وأما ما كان من أمر عبد الله فإنه أمر بدفن أخويه ثم ركب وتوجه إلى بغداد وأخبر الخليفة بحكايته وما فعل معه أخواه من الأول إلى الآخر.

فتعجب الخليفة من ذلك وأحضر القاضى والشهود وكتب كتابه على البنت التى جاء بها من مدينة الحجر.

وأقام معها فى البصرة إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، فسبحان الحى الذى لا يموت لا إله إلا هو.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية معروف الإسكافى مع زوجته العرة

ومما يحكى أيضًا أيها الملك السعيد أنه كان فى مدينة مصر المحروسة رجل إسكافى

يرقع الزرابين القديمة وكان اسمه معروفًا. كان له زوجة اسمها فاطمة ولقبها العرّة وما لقبوها بذلك إلا لأنها كانت فاجرة شرانية قليلة الحياء كثيرة الفتن وكانت حاكمة على زوجها وفى كل يوم تسبه وتلعنه ألف مرة، وكان يخشى شرها ويخاف من أذاها لأنه كان رجلاً عاقلاً يستحى على عرضه.

ولكنه كان فقير الحال فإذا اشتغل بكثير صرفه عليها وإذا اشتغل بقليل انتقمت من بدنه فى تلك الليلة وأعدمته العافية وتجعل ليلته سوداء مثل صحيفتها، وهى كما قال فى حقها الشاعر:

كم ليلة قد بتُّ مع زوجتى ... فى أشأم الأحوال قضيتها
يا ليتنى عند دخولى بها ... أحضرت سمًا ثم سممتها

ومن جملة ما اتفق لهذا الرجل مع زوجته أنها قالت له: " يا معروف أريد منك فى هذه الليلة أن تجىء لى معك بكنافة عليها عسل نحل ". فقال لها: " الله تعالى يسهّل لى حقها وأنا أجىء بها لك فى هذه الليلة، والله لم يكن معى دراهم فى هذا اليوم ولكن ربنا يسهّل "، فقالت له: " أنا ما أعرف هذا الكلام إن سهّل أو لم يسهّل لا تجئنى إلا بالكنافة التى بعسل نحل، وإن جئت من غير كنافة جعلت ليلتك مثل بختك الأسود حين تزوجتنى ووقعت فى يدى ". فقال لها: " الله كريم ".

ثم خرج ذلك الرجل والغم يتناثر من بدنه. فصلى الصبح وفتح الدكان وقال: " أسألك يا رب أن ترزقنى حق هذه الكنافة وتكفينى شر هذه الفاجرة فى هذه الليلة ".

وقعد فى الدكان إلى نصف النهار فلم يأته شغل، فاشتد خوفه من زوجته فقام وقفل الدكان وصار متحيرًا فى أمره من شأن الكنافة مع أنه لم يكن معه من حق الخبز شىء، ثم إنه مر على دكان الكنفانى ووقف باهتًا وتغرغرت عيناه بالدموع. فلحظ عليه الكنفانى وقال: " يا معلم معروف ما لك تبكى فأخبرنى بما أصابك ؟ " فأخبره بقصته وقال له: " إن زوجتى جبارة وطلبت منى كنافة وقد قعدت فى الدكان حتى مضى نصف النهار فلم يجئنى ولا حق الخبز وأنا خائف منها ". فضحك الكنفانى وقال: " لا بأس عليك كم رطل تريد ؟ " قال: " خمسة أرطال ". فوزن له خمسة أرطال وقال له: " السمن عندى ولكن ما عندى عسل نحل وإنما عندى عسل قصب أحسن من عسل النحل، وماذا يضر إذا كانت الكنافة بعسل قصب ؟ ".

فاستحى منه لكونه يصبر عليه بثمنها فقال له: " هاتها بعسل قطر ". فقلى له الكنافة بالسمن وغرّقها بعسل قطر فصارت تهدى للملوك. ثم إنه قال له: " أتحتاج عيشًا وجبنًا ؟ " قال " نعم ". فأخذ له بأربعة أنصاف عيشًا وبنصف جبنًا والكنافة بعشرة أنصاف وقال له: " اعلم يا معروف أنه قد صار عندك خمسة عشر نصفًا، رُح إلى زوجتك واعمل حظًا وخذ هذا النصف حق الحمام وعليك مهل يوم أو يومين أو ثلاثة حتى يرزقك الله ولا تضيّق على زوجتك فأنا أصبر عليك حتى يبقى عندك دراهم فاضلة عن مصروفك ". فأخذ الكنافة والعيش والجبن وانصرف داعيًا له وراح مجبور الخاطر وهو يقول: " سبحانك ربى ما أكرمك ".

ثم إنه دخل عليها فقالت له: " هل جئت بالكنافة ؟ " قال : " نعم ". ثم وضعها قدامها. فنظرت إليها فرأتها بعسل القصب فقالت له: " أما قلت لك هاتها بعسل نحل، تعمل على خلاف مرادى وتعملها بعسل قصب ؟ " فاعتذر إليها وقال لها: " أنا ما اشتريتها إلا مؤجلاً

ثمنها ". فقالت: "هذا كلام باطل أنا ما آكل كنافة إلا بعسل النحل ". وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: " قم يا نحس هات لى غيرها ". ولكمته فى صدغه فقلعت سنًا من أسنانه ونزل الدم على صدره.

ومن شدة الغيظ ضربها ضربة واحدة لطيفة على رأسها. فقبضت على لحيته وصارت تصيح وتقول: " يا مسلمون " فدخل الجيران وخلصوا لحيته من يدها وقاموا عليها باللوم وعيبوها وقالوا: " نحن كلنا من قبل نأكل الكنافة التى بعسل القصب وما هذا التجبر على هذا الرجل الفقير إن هذا عيب عليك ". وما زالوا يلاطفونها حتى أصلحوا بينها وبينه. ولكنها بعد ذهاب الناس حلفت ما تأكل من الكنافة شيئًا، فأحرقه الجوع فقال فى نفسه: " هى حلفت ما تأكل فأنا آكل ". ثم أكل. فلما رأته يأكل صارت تقول له: " إن شاء الله يكون أكلها سما يهرى بدن البعيد ". فقال لها: " ما هو بكلامك ". وصار يأكل ويضحك ويقول : " أنت حلفت ما تأكلين من هذه فالله كريم فإن شاء الله فى ليلة غد أجئ لك بكنافة بعسل نحل وتأكلينها وحدك ". وصار يأخذ بخاطرها وهى تدعو عليه. ولم تزل تسبه وتشتمه إلى الصبح.

فلما أصبح الصباح شمَّرت عن ساعدها لضربه. فقال لها: " أمهلينى وأنا أجئ لك بغيرها ". ثم خرج إلى المسجد وصلى وتوجه إلى الدكان وفتحها وجلس. فلم يستقر به الجلوس حتى جاء اثنان من طرف القاضى وقالا له: " قم كلِّم القاضى فإن امرأتك اشتكت إليه وصفتها كذا وكذا". فعرفها وقال : " الله تعالى ينكد عليها ". ثم قام ومشى معهما إلى أن دخل على القاضى فرأى زوجته رابطة ذراعها وبرقعها ملوث بالدم وهى واقفة تبكى وتمسح دموعها.

فقال له القاضى: " يا رجل ألم تخف من الله تعالى كيف تضرب هذه الحرمة وتكسر ذراعها وتقلع سنها وتفعل بها هذه الفعال؟ " فقال له: " إن كنت ضربتها أو قلعت سنها فاحكم بما تختار، وإنما القصة كذا وكذا والجيران أصلحوا بينى وبينها ". وأخبره بالقصة من الأول إلى الآخر.

وكان ذلك القاضى من أهل الخير فأخرج له ربع دينار وقال له: " يا رجل خذ هذا واعمل لها به كنافة بعسل نحل واصطلح أنت وإياها".

فقال له: " أعطه لها ". فأخذته وأصلح بينهما وقال : " يا حرمة أطيعى زوجك، وأنت يا رجل ترفق بها ".

وخرجا مصطلحين على يد القاضى وراحت المرأة من طريق وزوجها راح من طريق آخر إلى دكانه وجلس. وإذا بالرسل أتوا له وقالوا: " هات خدمتنا ". فقال لهم: " إن القاضى لم يأخذ منى شيئًا بل أعطانى ربع دينار ". فقالوا: " لا علاقة لنا بكون القاضى أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهرًا عنك ". وصاروا يجرونه فى السوق. فباع عدته وأعطاهم نصف دينار ورجعوا عنه. وحط يديه على خده وقعد حزينًا حيث لم يكن عنده عدة يشتغل بها.

فبينما هو قاعد وإذا برجلين قبيحى المنظر أقبلا عليه وقالا له: " قم يا رجل كلم القاضى فإن زوجتك اشتكتك إليه ".

فقال لهما: " قد أصلح بينى وبينها ". فقالا له: " نحن من عند قاض آخر فإن زوجتك اشتكتك إلى قاضينا ".

فقام معهما وهو يحتسب عليها. فلما رآها قال لها: " أما اصطلحنا يا بنت الحلال ؟ " قالت : "ما بقى بينى وبينك صلح ".

فتقدم وحكى للقاضى حكايته وقال له: " إن القاضى فلان أصلح بيننا فى هذه الساعة ".

فقال لها القاضى: " يا عاهرة حيث اصطلحتما لماذا جئت تشتكين إلى ". قالت " إنه ضربنى بعد ذلك ".

فقال لهما القاضى: " اصطلحا ولا تعد إلى ضربها وهى لا تعود إلى مخالفتك " فاصطلحا: وقال له القاضى: " أعط الرسل خدمتهم ".

فأعطى الرسل خدمتهم وتوجه إلى الدكان وفتحها وقعد فيها وهو مثل السكران من الهم الذى أصابه.

فبينما هو قاعد وإذا برجل أقبل عليه وقال له: " يا معروف قم استخف فإن زوجتك اشتكتك إلى الباب العالى ونازل عليك أبو طبق ".

فقام وقفل الدكان وهرب فى جهة باب النصر. وكان قد بقى معه خمسة أنصاف فضة من حق القوالب والعدة فاشترى بأربعة أنصاف عيشًا وبنصف جبنًا وهو هارب منها. وكان ذلك فى فصل الشتاء وقت العصر.

فلما خرج بين الكيمان نزل عليه المطر مثل أفواه القرب فابتلت ثيابه، فدخل العادلية فرأى موضعًا خربًا فيه حاصل مهجور من غير باب فدخل يستكن فيه، من المطر وحوائجه مبتلة بالماء.

فنزلت الدموع من أجفانه وصار يتضجر مما به ويقول: " أين أهرب من هذه العاهرة؟ أسالك يا رب أن توصلنى إلى بلاد بعيدة لا تعرف طريقى فيها ".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية حمل العفريت لمعروف وإلقائه على الجبل ونزوله فى المدينة تحت الجبل

قالت شهرزاد: فبينما هو جالس يبكى وإذا بالحائط قد انشق وخرج له منه شخص طويل القامة ورؤيته تقشعر منها الأبدان وقال له: " يا رجل ما لك أقلقتنى فى هذه الليلة، وأنا ساكن فى هذا المكان منذ مائتى عام فما رأيت أحدًا دخل هذا المكان وعمل مثل ما عملت أنت، فأخبرنى بمقصودك وأنا أقضى حاجتك فإن قلبى أخذته الشفقة عليك ". فقال له: " ومن أنت وما تكون ؟ ".فقال له : " أنا عامر هذا المكان ". فأخبره بجميع ما جرى له مع زوجته. فقال له: " أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقًا ؟ " قال: " نعم ". قال له: " اركب فوق ظهرى ". فركب وحمله وطار به من بعد العشاء إلى طلوع الفجر وأنزله على رأس جبل عال وقال: " يا إنسى انحدر من فوق هذا الجبل تر عتبة مدينة فادخلها فإن زوجتك لا تعرف لك طريقًا ". ثم تركه وراح.

فصار معروف باهتًا متحيرًا فى نفسه إلى أن طلعت الشمس. فقال فى نفسه: " أقوم وأنزل من على الجبل إلى المدينة فإن قعودى هنا ليس فيه فائدة ". فنزل إلى أسفل الجبل

فرأى مدينة بأسوار عالية وقصور مشيدة وأبنية مزخرفة وهى نزهة للناظرين، فدخل من باب المدينة فرآها تشرح القلب الحزين. فلما مشى فى السوق صار أهل المدينة ينظرون إليه ويتفرجون عليه واجتمعوا عليه وصاروا يتعجبون من ملبسه لأن ملبسه لا يشبه ملابسهم. فقال له رجل من أهل المدينة: " يا رجل هل أنت غريب ؟ " قال : " نعم ". قال له: " من أى البلاد ؟ " قال: " من مدينة مصر السعيدة ". قال له: " لك زمان مفارقها ؟ " قال له: " البارحة العصر ؟ " فضحك عليه وقال: " يا ناس تعالوا وانظروا هذا الرجل اسمعوا ما يقول ". فقالوا: " ما يقول؟ " قال: " إنه يزعم أنه من مصر وخرج منها البارحة العصر ".

فضحكوا كلهم واجتمع عليه الناس وقالوا: " يا رجل أنت مجنون حتى تقول هذا الكلام كيف تزعم أنك فارقت مصر بالأمس فى وقت العصر وأصبحت هنا، والحال أن بين مدينتنا ومدينة مصر مسافة سنة كاملة ". فقال لهم: " ما مجنون إلا أنتم وأما أنا فإنى صادق فى قولى وهذا عيش مصر لم يزل معى طريا ". وأراهم العيش فصاروا يتفرجون عليه ويتعجبون منه لأنه لا يشبه عيش بلادهم، وكثر الخلائق عليه وصاروا يقولون لبعضهم: " هذا عيش مصر تفرجوا عليه ". وصارت له شهرة فى تلك المدينة ومنهم ناس يصدقون وناس يكذبون ويهزأون به.

حكاية نزول معروف فى المدينة
ومعرفته بعلى المصرى

فبينما هم على تلك الحالة وإذا بتاجر أقبل عليهم وهو راكب بغلة وخلفه عبدان ففرق الناس وقال: "يا ناس أما تستحون وأنتم ملتمون على هذا الرجل الغريب وتسخرون منه وتضحكون عليه، ما علاقتكم به؟ " ولم يزل يسبهم حتى طردهم عنه ولم يقدر أحد أن يرد عليه جوابًا. وقال له: " تعال يا أخى ما عليك بأس من هؤلاء إنهم لا حياء عندهم .

ثم أخذه وسار به إلى أن أدخله دارًا واسعة مزخرفة وأجلسه فى مقعد ملوكى. وأمر العبيد ففتحوا له صندوقًا وأخرجوا له بدلة تاجر ألفى وألبسه اياها، وكان معروف وجيهًا فصار كأنه شاه بندر التجار. ثم إن ذلك التاجر طلب السفرة فوضعوا قدامهما سفرة فيها جميع الأطعمة الفاخرة من سائر الألوان فأكلا وشربا. وبعد ذلك قال له: " يا أخى ما اسمك؟" قال: " اسمى معروف وصنعتى إسكافى أرقع الزرابين القديمة ". قال له : " من أى البلاد أنت ؟ " قال : " من مصر " . قال : " من أى الحارات ؟ " قال له: " هل تعرف مصر ؟ " قال له " أنا من أولادها". فقال له : " أنا من الدرب الأحمر ". قال له: " من تعرف من الدرب الأحمر ؟ " قال له : " فلانا وفلانا " وعد له ناسًا كثيرة. قال له: " هل تعرف الشيخ أحمد العطار؟ قال له: "هو جارى الحيط فى الحيط " قال له: " هل هو طيب ؟ " قال: " نعم ". قال له: " كم له من الأولاد ؟ " قال : " ثلاثة مصطفى ومحمد وعلى ".

فعند ذلك قال له: " ما فعل بأولاده ؟ " قال : " أما مصطفى فإنه طيب وهو عالم مدرس، وأما محمد فإنه عطار قد فتح له دكانًا بجنب دكان أبيه بعد أن تزوج وولدت له زوجته ولدًا اسمه حسن ". قال: " بشرك الله بالخير ". قال: " وأما على فإنه كان رفيقى ونحن صغار وكنت دائمًا ألعب أنا وإياه وبقينا نروح بصفة أولاد النصارى وندخل الكنيسة ونسرق كتب

النصارى ونبيعها ونشترى بثمنها نفقة، فاتفق فى بعض المرات أن النصارى رأونا ومسكونا بكتاب فاشتكونا إلى أهلنا وقالوا لأبيه: إذا لم تمنع ولدك من أذانا اشتكيناك إلى الملك. فأخذ بخاطرهم وضربه علقة فبهذا السبب هرب من ذلك الوقت ولم يعرف له طريقًا وهو غائب له عشرون سنة ولم يخبر عنه أحد بخبر ".

فقال له: " هو أنا على ابن الشيخ أحمد العطار وأنت رفيقى يا معروف ". وسلما على بعضهما.

حكاية بيان معروف سبب خروجه من مصر

وبعد السلام قال له: " يا معروف أخبرنى بسبب مجيئك من مصرً إلى هذه المدينة ". فأخبره بخبر زوجته فاطمة المرة وما فعلت معه وقال له: " إنه لما اشتد على أذاها هربت منها فى جهة باب النصر ونزل على المطر فدخلت فى حاصل خرب فى العادلية وقعدت أبكى فخرج لى عامر المكان وهو عفريت من الجن وسألنى فأخبرته بحالى فأركبنى على ظهره وطار بى طوال الليل بين السماء والأرض ثم حطنى على الجبل وأخبرنى بالمدينة فنزلت من الجبل ودخلت المدينة والتم الناس على وسألونى، فقلت لهم: إنى طلعت البارحة من مصر، فلم يصدقونى فجئت أنت ومنعت عنى الناس وجئت بى إلى هذه الدار هذا سبب خروجى من مصر، وأنت ما سبب مجيئك إلى هنا ؟ ".

قال له: " غلب علىَّ الطيش وعمرى سبع سنين فمن ذلك الوقت وأنا دائر من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة حتى دخلت هذه المدينة واسمها اختيان الختن فرأيت أهلها ناسًا كرامًا وعندهم الشفقة ورأيتهم يأتمنون الفقير ويداينونه وكلُّما قاله يصدقونه فيه، فقلت لهم: أنا تاجر وقد سبقت الحملة ومرادى مكان أنزل فيه حملتى فصدقونى وأخلوا لى مكانًا.

ثم إنى قلت لهم: هل فيكم من يداينني ألف دينار حتى تجئ حملتى وأرد له ما آخذه منه فإنى محتاج إلى بعض مصالح قبل دخول الحملة ؟. فأعطونى ما أردت وتوجهت إلى سوق التجار فرأيت شيئًا من البضاعة فاشتريته وفى ثانى يوم بعته فربحت فيه خمسين دينارًا واشتريت غيره، وصرت أعاشر الناس وأكرمهم فأحبونى وصرت أبيع وأشترى فكثر مالى، واعلم يا أخى أن صاحب المثل يقول: الدنيا فشر وحيلة. والبلاد التى لا يعرفك أحد فيها مهما شئت فافعل فيها، وأنت قلت لكل من سألك، أنا صنعتى إسكافى وفقير هربت من زوجتى والبارحة طلعت من مصر فلا يصدقونك وتصير عندهم مسخرة مدة إقامتك فى هذه المدينة، وإن قلت: حملنى عفريت. نفروا منك ولا يقرب منك أحد ويقولون: هذا رجل معفرت وكل من تقرب منه يحصل له ضرر، وتبقى هذه الإشاعة قبيحة فى حقى وحقك لكونهم يعرفون أنى من مصر ".

حكاية تعليم

على المصرى لمعروف الإسكافى الحيلة

قال: " وكيف أصنع ؟ " قال: " أنا أعلمك كيف تصنع، إن شاء الله تعالى فى غد أعطيك ألف دينار وبغلة تركبها وعبدًا يمشى قدامك حتى يوصلك إلى باب سوق التجار فادخل عليهم، وأكون أنا قاعدًا بين التجار فمتى رأيتك أقوم لك وأسلِّم عليك وأقبِّل يدك وأعظِّم قدرك،

وكلما سألتك عن صنف من القماش وقلت لك: هل جئت معك بشيء من الصنف الفلاني؟ فقل: كثير. وإن سألوني عنك أشكرك وأعظمك في أعينهم. ثم إني أقول لهم: " خذوا له حاصلاً ودكاناً. وأصفك بكثرة المال والكرم، وإذا أتاك سائل فأعطه ما تيسر، فيثقون بكلامي ويعتقدون عظمتك وكرمك ويحبونك، وبعد ذلك أعزمك وأعزم جميع التجار من شانك وأجمع بينك وبينهم حتى يعرفوك جميعهم لأجل أن تأخذ وتعطي معهم. فما تمضي عليك مدة حتى تصير صاحب مال ".

فلما أصبح الصباح أعطاه ألف دينار وألبسه بدلة وأركبه بغلة وأعطاه عبداً وقال له: " أبرأ الله ذمتك من الجميع لأنك رفيقي فواجب عليَّ إكرامك ولا تحمل هماً ودع عنك سيرة زوجتك ولا تذكرها لأحد ". فقال له: " جزاك الله خيراً ". ثم إنه ركب البغلة ومشى قدامه العبد إلى أن أوصله إلى باب سوق التجار وكانوا جميعاً قاعدين والتاجر على قاعد بينهم. فلما رآه قام ورمى روحه عليه وقال له: " نهار مبارك يا تاجر معروف يا صاحب الخيرات والمعروف". ثم قبَّل يده قدام التجار وقال: " يا إخواننا آنسكم التاجر معروف ". فسلموا عليه وصار يشير لهم بتعظيمه فعظم في أعينهم.

ثم إنه أنزله من فوق ظهر البغلة وسلَّموا عليه وصار يختلي بواحد بعد واحد منهم ويشكره عنده. فقالوا له: " هل هذا تاجر ؟ " فقال لهم: " نعم بل هو من أكبر التجار ولا يوجد واحد أكثر مالاً منه لأن أمواله وأموال أبيه وأجداده مشهورة عند تجار مصر وله شركاء في الهند والسند واليمن وهو في الكرم على قدر عظيم فاعرفوا قدره وارفعوا مقامه واخدموه، واعلموا أن مجيئه إلى هذه المدينة ليس من أجل التجارة وما مقصده إلا الفرجة على بلاد الناس لأنه غير محتاج إلى التغرب من أجل الربح والمكاسب لأن عنده أموالاً لا تأكلها النيران وأنا من بعض خدمه ".

ولم يزل يشكره حتى جعلوه فوق رءوسهم وصاروا يخبرون بعضهم بصفاته. ثم اجتمعوا عنده وصاروا يهادونه بالفطورات والشرابات، حتى شاه بندر التجار أتى إليه وسلَّم عليه. وصار يقول له التاجر على بحضرة التجار: " يا سيدي لعلك جئت معك بشيء من القماش الفلاني". فيقول له: كثير. وكان في ذلك اليوم فرجه على أصناف القماش المثمنة وعرفه أسامي الأقمشة الغالي والرخيص. فقال له تاجر من التجار: " يا سيدي هل جئت معك بجوخ أصفر ؟". قال: كثير". قال: " وأحمر دم الغزال ؟ " قال: " كثير " وصار كلما سأله عن شيء يقول له: "كثير". فعند ذلك قال: " يا تاجر علي إن بلديك لو أراد أن يحمل ألف حمل من القماش المثمنة يحملها ". فقال له: " يحملها من حاصل من جملة حواصله ولا ينقص منها شيء ". فبينما هم قاعدون وإذا برجل سائل دار على التجار فمنهم من أعطاه فضة ومنهم من أعطاه جديدا وغالبهم لم يعطه شيئاً، حتى وصل إلى معروف فقبض له قبضة ذهب وأعطاه إياها، فدعا له.

فتعجب التجار من ذلك وقالوا: " إن هذه عطايا ملوك فإنه أعطى السائل ذهباً من غير عدد ولولا أنه من أصحاب النعم الجزيلة وعنده شيء كثير ما كان أعطى السائل قبضة ذهب". وبعد حصة أتته امرأة فقيرة فقبض وأعطاها وذهبت تدعو له وحكت للفقراء فأقبلوا عليه

واحداً واحداً، وصار كل من أتى له يقبض ويعطيه حتى أنفق الألف الدينار، وبعد ذلك ضرب كفا على كف وقال: "حسبنا الله ونعم الوكيل". فقال له شاه بندر التجار: "ما لك يا معروف؟" فقال: "كان غالب أهل هذه المدينة فقراء ومساكين ولو كنت أعرف كذلك كنت جئت معى فى الخرج بجانب من المال وأحسن به إلى الفقراء، وأنا خائف أن تطول غربتى ومن طبعى أن لا أرد السائل ولم يبق معى ذهب فإذا أتانى فقير ماذا أقول له؟" قال له: "قل له الله يرزقك". قال: "ما هى عادتى وقد ركبنى الهم بهذا السبب وكان مرادى ألف دينار أتصدق بها حتى تجيء حملتى". فقال: "لا بأس".

وأرسل بعض أتباعه فجاء له بألف دينار فأعطاه إياها. فصار يعطى كل من مر به من الفقراء حتى أذن الظهر. فدخلوا الجامع وصلوا الظهر والذى بقى معه من الألف الدينار نثره على رءوس المصلين. فانتبه له الناس وصاروا يدعون له وصار التجار تتعجب من كثرة كرمه وسخائه. ثم إنه مال على تاجر آخر وأخذ منه ألف دينار وفرقها، وصار التاجر على ينظر فعله ولا يقدر أن يتكلم.

ولم يزل على هذه الحالة حتى أذن العصر فدخل المسجد وصلى وفرق الباقى. فما قفلوا باب السوق حتى أخذ خمسة آلاف دينار وفرقها.

وكل من أخذ منه شيئًا يقول له: "حتى تجيء الحملة إن أردت ذهبًا أعطك وإن أردت قماشًا أعطك فإن عندى شيئًا كثيرًا".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية شكاية التجار على معروف عند الملك

قالت شهرزاد: وعند المساء عزمه التاجر على وعزم معه التجار جميعًا وأجلسه فى الصدر وصار لا يتكلم إلا بالقماشات والجواهر وكلما ذكروا له شيئًا يقول: "عندى منه كثير". وثانى يوم توجه إلى السوق وصار يميل على التجار ويأخذ منهم الأموال ويفرقها على الفقراء، ولم يزل على هذه الحالة مدة عشرين يومًا حتى أخذ من الناس ستين ألف دينار ولم تأته حملة ولا كبة حامية. فضجت الناس على أموالهم وقالوا: "ما أتت حملة التاجر معروف وإلى متى وهو يأخذ أموال الناس ويعطيها للفقراء" فقال واحد منهم:

"الرأى أن نتكلم مع بلديه التاجر على". فأتوه وقالوا له: "يا تاجر على إن حملة التاجر معروف لم تأت". فقال لهم "اصبروا فإنها لابد أن تأتى عن قريب". ثم إنه اختلى به وقال له: "يا معروف ما هذه الفعال هل أنا قلت لك قمر الخبز أو أحرقه إن التجار ضجوا على أموالهم وأخبرونى أنه صار لهم عليك ستون ألف دينار أخذتها وفرقتها على الفقراء، ومن أين تسد دين الناس وأنت لا تبيع ولا تشترى؟ فقال له: "أى شيء يجرى وما مقدار ستين ألف دينار، لما تجيء الحملة أعطيهم إن شاؤوا قماشًا وإن شاؤوا ذهبًا وفضة". قال له التاجر على: "الله أكبر وهل أنت لك حملة؟" قال "كثير" قال له: "الله والرجال عليك وعلى سماجتك هل أنا علمتك هذا الكلام حتى تقوله لى فأنا أخبر بك الناس". فقال له: "رح بلا كثرة كلام هل أنا فقير إن حملتى فيها شيء كثير، فإذا جاءت يأخذون متاعهم المثل مثلين أنا غير محتاج إليهم".

فعند ذلك اغتاظ التاجر على وقال له: " يا قليل الأدب لابد أن أريك كيف تكذب عليَّ ولا تستحى". فقال له: " الذى يخرج من يدك افعله ويصبرون حتى تجئ حملتى ويأخذون متاعهم بزيادة ". فتركه وراح وقال فى نفسه: " أنا شكرته سابقًا وإن ذممته الآن صرت كاذبًا وأدخل فى قول من قال: من شكر وذم كذب مرتين ". وصار متحيرًا فى أمره. ثم إن التجار أتوه وقالوا: " يا تاجر على هل كلمته ؟ " قال لهم : " يا ناس أنا أستحى منه ولى عنده ألف دينار ولم أقدر أن أكلمه عليها وأنتم لما أعطيتموه ما شاورتمونى وليس لكم علىَّ كلام من طرفه فطالبوه وإن لم يعطكم فاشكوه إلى ملك المدينة وقولوا له: إنه نصاب نصب علينا فإن الملك يخلصكم منه».

فراحوا إلى الملك وأخبروه بما وقع وقالوا: " يا ملك الزمان إننا تحيرنا فى أمرنا مع هذا التاجر الذى كرمه زائد فإنه يفعل كذا وكذا وكل شىء أخذه يفرقه على الفقراء بالقبضة، فلو كان مقلاً ما كانت تسمح نفسه أن يقبض الذهب ويعطيه للفقراء، ولو كان من أصحاب النعم كان صدقه ظهر لنا بمجيء حملته، ونحن لا نرى له حملة مع أنه يدعى أن له حملة وقد سبقها، وكلما ذكرنا له صنفًا من أصناف القماش يقول: عندى منه كثير، وقد مضت مدة ولم يبن عن حملته خبر وقد صار لنا عنده ستون ألف دينار وكل ذلك فرقه على الفقراء ". وصاروا يشكرونه ويمدحون كرمه.

حكاية طلب الملك معروفا

وكان ذلك الملك طماعاً أطمع من أشعب. فلما سمع بكرمه وسخائه غلب عليه الطمع وقال لوزيره: " لو لم يكن هذا التاجر عنده أموال كثيرة ما كان يقع منه هذا الكرم كله ولابد أن تأتى حملته ويجتمع هؤلاء التجار عنده ويبعثر عليهم أموالاً كثيرة فأنا أحق منهم بهذا المال، فمرادى أن أعاشره وأتودد إليه حتى تأتى حملته والذى يأخذه منه هؤلاء التجار آخذه أنا وأزوِّجه ابنتى وأضم ماله إلى مالى ". فقال له الوزير: " يا ملك الزمان ما أظنه إلا نصابًا والنصاب قد أخرب بيت الطماع ".

ثم إن الملك قال: " يا وزير أنا أمتحنه وأعرف هل هو نصاب أو صادق وهل هو تربية نعمة أو لا ؟ " قال الوزير: " بماذا تمتحنه ؟ " قال الملك : " إن عندى جوهرة فأنا أبعث إليه وأحضره عندى وإذا جلس أكرمه وأعطيه الجوهرة، فإن عرفها وعرف ثمنها يكون صاحب خير ونعم، وإن لم يعرفها فهو نصاب محدث فأقتله أقبح قتلة ". ثم إن الملك أرسل إليه وأحضره. فلما دخل سلم عليه فرد عليه السلام وأجلسه إلى جانبه وقال له:

"هل أنت التاجر معروف ؟ " قال : " نعم ". قال له: " إن التجار يزعمون أن لهم عندك ستين ألف دينار فهل ما يقولونه حق ؟ " قال: " نعم ". قال له: " لمَ لمْ تعطهم أموالهم ؟ " قال: " يصبرون حتى تجيء حملتى وأعطهم المثل مثلين، وإن أرادوا ذهبًا أعطهم وإن أرادوا فضة أعطهم وإن أرادوا بضاعة أعطهم، الذى له ألف أعطيه ألفين فى نظير ما ستر به جاهى مع الفقراء فإن عندى شيئًا كثيراً ".

ثم إن الملك قال له: " يا تاجر خذ هذه وانظر ما جنسها وما قيمتها ". وأعطاه جوهرة قدر البندقة كان الملك قد اشتراها بألف دينار ولم يكن عنده غيرها وكان مستعزا بها.

فأخذها معرف بيده وقرط عليها بالإبهام والشاهد فكسرها لأن الجوهر رقيق لا يتحمل. فقال له الملك : " لأي شيء كسرت الجوهرة ". فضحك وقال: " يا ملك الزمان ما هذه جوهرة هذه قطعة معدن تساوي ألف دينار كيف تقول عليها إنها جوهرة إن الجوهرة يكون ثمنها سبعين ألف دينار وإنما يقال على هذه قطعة معدن والجوهرة ما لم تكن قدر الجوزة لا قيمة لها عندي ولا أعتني بها، كيف تكون ملكًا وتقول على هذه جوهرة وهي قطعة معدن قيمتها ألف دينار، ولكن أنتم معذورون لكونكم فقراء وليس عندكم ذخائر لها قيمة؟ " فقال له الملك : " يا تاجر هل عندك جواهر من الذي تخبر به ؟ " قال : " كثير ".

فغلب الطمع على الملك فقال له: " هل تعطيني جواهر صحاحًا ؟ " قال له: " حتى تجيء الحملة أعطيك كثيراً، ومهما طلبته فعندي منه كثير وأعطيك من غير ثمن ". ففرح الملك وقال للتجار: " روحوا إلى حال سبيلكم واصبروا عليه حتى تجيء الحملة ثم تعالوا خذوا ما لكم مني"، فراحوا. وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية إرسال الملك وزيره إلى معروف

لأجل تزويج ابنته منه

هذا ما كان من أمر معروف والتجار. وأما ما كان من أمر الملك فإنه أقبل على الوزير وقال له: " لاطف التاجر معروف وخذ واعط معه في الكلام واذكر له ابنتي حتى يتزوج بها ونغتنم هذه الخيرات التي عنده ". فقال الوزير: " يا ملك الزمان إن حال هذا الرجل لم يعجبني وأظن أنه نصاب وكذاب فاترك هذا الكلام لئلا تضيع بنتك بلا شيء ؟ " وكان الوزير سابقًا ساق على الملك أنه يزوجه البنت وأراد زواجها له فلما بلغها ذلك لم ترض. ثم إن الملك قال له: " يا خائن أنت لا تريد لي خيراً لكونك خطبت بنتي سابقًا ولم ترض أن تتزوج بك فصرت الآن تقطع طريق زواجها ومرادك أن بنتي تبور حتى تأخذها أنت، فاسمع مني هذه الكلمة ليس لك علاقة بهذا الكلام. كيف يكون نصاباً كذابًا مع أنه عرف ثمن الجوهرة مثل ما اشتريتها به وكسرها لكونها لم تعجبه، وعنده جواهر كثيرة فمتى دخل على ابنتي يراها جميلة فتأخذ عقله ويحبها ويعطيها جواهر وذخائر، وأنت مرادك أن تحرم ابنتي من هذه الخيرات ".

فسكت الوزير وخاف من غضب الملك عليه وقال في نفسه: " اغر الكلاب على البقر " ثم مال على التاجر معروف وقال له: " إن الملك أحبك وله بنت ذات حسن وجمال يريد أن يزوجها لك فما تقول ؟ " فقال له: " لا بأس ولكن يصبر حتى تأتي حملتي فإن مهر بنات الملوك واسع ومقامهن أن لا يمهرن إلا بمهر يناسب حالهن، وفي هذه الساعة ما عندي مال فليصبر على حتى تجيء الحملة فالخير عندي كثير ولابد أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس وأحتاج إلى ألف كيس أفرقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزفة وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم، وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس ومائة جوهرة أفرقها على الجواري والخدم فأعطي كل واحد جوهرة تعظيمًا لمقام العروسة، وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء،ولابد من صدقات، وهذا شيء لا يمكن إلا إذا جاءت الحملة فإن عندي شيئًا كثيراً وإذا جاءت لا أبالي بهذا المصروف كله ".

فراح الوزير وأخبر الملك بما قاله. فقال الملك: " حيث كان مراده ذلك كيف تقول عنه نصاب كذاب ؟ " قال الوزير: " لم أزل أقول ذلك ". فنزع فيه الملك ووبَّخه وقال له: " وحياة رأسى إن لم تترك هذا الكلام لأقتلنك فارجع إليه وهاته عندى وأنا منى إليه أتصرف ". فراح الوزير وقال له: " تعال كلِّم الملك ". فقال له: " سمعًا وطاعة ". ثم جاء إليه. فقال له الملك: " لا تعتذر بهذه الأعذار.فإن خزنتى ملآنة فخذ المفاتيح عندك وأنفق جميع ما تحتاج إليه وأعط ما تشاء من الإكرام ونحن نصبر عليك بصداقها حتى تجئ الحملة وليس بينى وبينك فرق أبدًا ".

حكاية تزويج الملك ابنته

من معروف الإسكافى

ثم إن الملك أمر شيخ الإسلام أن يكتب الكتاب. فكتب كتاب بنت الملك على التاجر معروف وشرع فى عمل الفرح وأمر بزينة المدينة ودقت الطبول ومدت الأطعمة من سائر الألوان وأقبلت أرباب الملاعب، وصار التاجر معروف يجلس على كرسى فى مقعد وتأتى قدامه أرباب الملاعب والشطار والجنك وأرباب الحركات الغريبة والملاهى العجيبة وصار يأمر الخازندار ويقول له: " هات الذهب والفضة ". فيأتيه بالذهب والفضة، وصار يدور على المتفرجين ويعطى كل من لعب بالقبضة ويحسن إلى الفقراء والمساكين ويكسو العريانين وصار فرحًا عجاجًا، وما بقى الخازندار يلحق أن يجئ بالأموال من الخزنة وكاد قلب الوزير ينفقع من الغيظ ولم يقدر أن يتكلم، وصار التاجر على يتعجب من بذل هذه الأموال ويقول للتاجر معروف: " الله والرجال على صدغك أما كفاك أن أضعت مال التجار حتى تضيع مال الملك ". فقال له التاجر معروف: " لا علاقة لك وإذا جاءت الحملة أعوض ذلك على الملك بأضعافه ".

وصار يبدد فى الأموال ويقول فى نفسه: " كبة حامية فالذى يجرى يجرى والمقدر ما منه مفر". ولم يزل الفرح مدة أربعين يومًا. وفى اليوم الحادى والأربعين عملوا الزفة للعروسة ومشى قدامها جميع الأمراء والعساكر. ولما دخلوا بها صار ينثر الذهب على رءوس الخلائق وعملوا لها زفة عظيمة وصرفت أموالاً لها مقدار عظيم وأدخلوه على الملكة.

فقعد على المرتبة العالية وخبط يدا على يد وقعد حزينًا مدة هو يضرب كفا على كف ويقول: " لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ". فقالت له الملكة: " يا سيدى سلامتك ما لك مغموم ؟ " فقال: "كيف لا أكون مغمومًا وأبوك قد شوَّش على وعمل معى عملة مثل حرق الزرع الأخضر ؟" قالت: " وما عمل معك أبى قل لى ؟ " قال: " أدخلنى عليك قبل أن تأتى حملتى وكان مرادى أقل ما يكون مائة جوهرة أفرّقها على جواريك لكل واحدة جوهرة تفرح بها وتقول: إن سيدى أعطانى جوهرة فى ليلة دخلته على سيدتى، وهذه الخصلة كانت تعظيمًا لمقامك وزيادة فى شرفك فإنى لا أقصر ببذل الجواهر لأن عندى منها كثيرًا ". فقالت له: " لا تهتم بذلك ولا تغم نفسك بهذا السبب أما أنا فما عليك منى لأنى أصبر عليك حتى تجىء الحملة، وأما الجوارى فما عليك منهن ومتى جاءت الحملة فإننا لاحقون على تلك الجواهر وغيرها ".

ثم إنه ثانى يوم العرس دخل الحمام ولبس بدلة من ملابس الملوك وطلع من الحمام ودخل ديوان الملك. فقام له من فيه على الأقدام وقابلوه بإعزاز وإكرام وهنأوه وباركوا له، وجلس بجانب الملك وقال: " أين الخازندار ؟ " فقالوا: " ها هو حاضر بين يديك " قال: " هات

الخلع وألبس جميع الوزراء والأمراء وأرباب المناصب، فجاء له بجميع ما طلب. وجلس يعطى كل من أتى له ويهب لكل إنسان على قدر مقامه. واستمر على هذه الحالة مدة عشرين يومًا لم يظهر له حملة ولاغيرها. ثم إن الخازندار تضايق منه غاية الضيق ودخل على الملك فى غياب معروف. وكان الملك جالسًا هو والوزير لا غير، فقبَّل الأرض بين يديه وقال: " يا ملك الزمان أنا أخبرك بشىء لأنك ربما تلومنى على عدم الإخبار به. اعلم أن الخزنة فرغت ولم يبق فيها شىء من المال إلا القليل وبعد عشرة أيام نقفلها على الفارغ ".

فقال الملك: " يا وزير إن حملة نسيبى تأخرت ولم يبن عنها خبر ". فضحك الوزير وقال له: " الله يلطف بك يا ملك الزمان ما أنت إلا مغفَّل عن فعل هذا النصاب الكذاب، وحياة رأسك إنه لا حملة له ولا كَبة تريحنا منه، وإنما هو لم يزل ينصب عليك حتى أتلف أموالك وتزوج بنتك بلا شىء، وإلى متى وأنت غافل عن هذا الكذاب ؟ ". فقال له: " يا وزير كيف العمل حتى نعرف حقيقة حاله ؟ " فقال: " يا ملك الزمان لا يطلع على سر الرجل إلا زوجته فأرسل إلى بنتك لتأتى خلف الستارة حتى أسألها عن حقيقة حاله " فقال : " لا بأس بذلك وحياة رأسى إن ثبت أنه نصاب كذاب لأقتلنه أشأم قتلة".

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية تعليم الوزير الملك وابنته الحيلة

فى معرفة حقيقة أمر معروف

قالت شهرزاد: ثم إنه أخذ الوزير ودخل به إلى قاعة الجلوس وأرسل إلى بنته فأتت خلف الستارة وكان ذلك فى غياب زوجها. فلما أتت قالت: " يا أبى ماذا تريد ؟ " قال:

"كلمى الوزير ". قالت : " أيها الوزير ما بالك ؟ " قال: " يا سيدتى اعلمى أن زوجك أتلف مال أبيك وقد تزوج بك بلا مهر وهو لم يزل يعدنا ويخلف الميعاد ولم يبن لحملته خبر وبالجملة نريد أن تخبرينا عنه ". فقالت: " إن كلامه كثير وهو فى كل وقت يجىء ويعدنى بالجواهر والذخائر والقماشات المثمنة ولم أرَ شيئاً ". فقال: " يا سيدتى هل تقدرين فى هذه الليلة أن تأخذى وتعطى معه فى الكلام وتقولى له: أخبرنى بالصحيح ولا تخف من شىء فإنك صرت زوجى ولا أفرط فيك فأخبرنى بحقيقة الأمر وأنا أدبر لك تدبيرًا ترتاح به، ثم قرِّبى وبعِّدى له فى الكلام وأريه المحبة وقرريه، ثم بعد ذلك أخبرينا بحقيقة أمره". فقالت: " يا أبت أنا أعرف كيف أختبره ".

ثم إنها ذهبت وبعد العشاء دخل عليها زوجها معروف على جرى عادته، فقامت له وخادعته خداعًا زائدًا وناهيك بمخادعة النساء إذا كان لهن عند الرجال حاجة يردن قضاءها.

فلما رأته مال إليها بكليته قالت له: " يا حبيبى يا قرة عينى يا ثمرة فؤادى لا أوحش الله منك ولا فرَّق الزمان بينى وبينك فإن محبتك سكنت فؤادى ونار غرامك أحرقت أكبادى وليس فيك تفريط أبدا، ولكن مرادى أن تخبرنى بالصحيح لأن حيل الكذب غير نافعة ولا تنطلى فى كل الأوقات، وإلى متى وأنت تنصب وتكذب على أبى وأنا خائفة أن يفتضح أمرك عنده قبل أن

تدبر له حيلة فيبطش بك، فأخبرني بالصحيح وما لك إلا ما يسرك متى أخبرتني بحقيقة الأمر فلا تخش من شيء يضرك. فكم تدعى أنك تاجر وصاحب أموال ولك حملة، وقد مضت لك مدة طويلة وأنت تقول: حملتي حملتي، ولم يبن عن حملتك خبر ويلوح على وجهك الهم بهذا السبب فإن كلامك ليس له صحة، فأخبرني وأنا أدبِّر لك تدبيرًا تخلص به إن شاء الله ". فقال لها: " يا سيدتي أنا أخبرك بالصحيح ومهما أردت فافعلي ". فقالت: " قل وعليك بالصدق فإن الصدق سفينة النجاة وإياك والكذب فإنه يفضح صاحبه ولله در من قال:

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيدْ

حكاية بيان معروف قدام زوجته قصته من الأول إلى الآخر

فقال: " يا سيدتي اعلمي أني لست تاجرًا ولا لي حملة ولا لي كبة حامية. وإنما كنت في بلادي إسكافيا ولي زوجة اسمها فاطمة العرة وجرى لي معها كذا وكذا ".

وأخبرها بالحكاية من أولها إلى آخرها. فضحكت وقالت: " إنك ماهر في صناعة الكذب والنصب ". فقال: " يا سيدتي الله تعالى يبقيك لستر العيوب وفك الكروب ". فقالت: " اعلم أنك نصبت على أبي وغررته بكثرة فشرك حتى زوجني بك من طمعه ثم أتلفت ماله، والوزير منكر ذلك عليك، وكم مرة يتكلم فيك عند أبي ويقول له: إنه نصاب كذاب، ولكن أبي لم يطعه فيما يقول بسبب أنه كان خطبني وأنا لم أرض به أن يكون لي بعلاً وأكون له أهلاً، ثم إن المدة طالت وقد تضايق أبي وقال لي: قرريه وقد قررتك وأبي مصر لك على الضرر بهذا السبب ولكنك صرت زوجي وأنا لا أفرط فيك ".

حكاية تعليم زوجة معروف له الحيلة في التخلص

ثم إنها قالت: " إن أخبرت أبي بهذا الخبر ثبت عنده أنك نصاب كذاب وقد نصبت على بنات الملوك وأذهبت أموالهم فذنبك عنده لا يغفر ويقتلك بلا محالة ويشيع بين الناس أني تزوجت برجل نصاب كذاب وتكون فضيحة في حقي، وإذا قتلك أبي ربما يحتاج إلى أن يزوجني إلى آخر وهذا شيء لا أقبله ولو مت، ولكن قم الآن والبس بدلة مملوك وخذ معك خمسين ألف دينار من مالي واركب على جواد وسافر إلى بلاد يكون حكم أبي لا ينفذ فيها واعمل تاجرًا وهناك اكتب لي كتابًا وأرسله مع ساع يأتيني به خفية لأعلم في أي البلاد أنت حتى أرسل إليك كل ما طالته يدي ويكثر مالك، فإن مات أبي أرسلت إليك فتجيء بإعزاز وإكرام وإذا مت أنت أو مت أنا إلى رحمة الله تعالى فالقيامة تجمعنا. وهذا هو الصواب. وما دمت طيبًا وأنا طيبة لا أقطع عنك المراسلة والأموال. قم قبل أن يطلع النهار عليك وتحتار ويحيط بك الدمار ". فقال لها: " يا سيدتي أنا في عرضك ". ثم لبس بدلة مملوك وأمر السايس أن يشد له جوادًا، فشدوا له جوادًا.

ثم ودَّعها وخرج من المدينة في آخر الليل وسار، فصار كل من رآه يظن أنه مملوك من

مماليك السلطان مسافر فى قضاء حاجة. فلما أصبح الصباح جاء أبوها هو والوزير إلى قاعة الجلوس وأرسل إليها أبوها فأتت خلف الستارة. فقال لها أبوها: " يا بنتى ما تقولين ؟ " قالت: " أقول سوَّد الله وجه وزيرك فإنه كان مراده أن يسوِّد وجهى مع زوجى ".

قال: " وكيف ذلك ؟ " قالت: " إنه دخل علىَّ أمس قبل أن أذكر له هذا الكلام وإذا بفرج الطواشى دخل على وبيده كتاب وقال: إن عشرة مماليك واقفون تحت شباك القصر وأعطونى هذا الكتاب وقالوا لى: قبِّل لنا أيادى سيدى معروف التاجر وأعطه هذا الكتاب فإننا من مماليكه الذين مع الحملة، وقد بلغنا أنه تزوج بنت الملك فأتينا لنخبره بما حل بنا فى الطريق، فأخذت الكتاب ورأيته فرأيت فيه: من المماليك الخمسمائة إلى حضرة سيدنا التاجر معروف، وبعد فالذى نعلمك به أنك بعد ما فتنا خرج العرب علينا وحاربونا وهم قدر ألفين من الفرسان ونحن خمسمائة مملوك ووقع بيننا وبين العرب حرب عظيمة ومنعونا عن الطريق ومضى لنا ثلاثون يومًا ونحن نحاربهم وهذا سبب تأخيرنا عنك وقد أخذوا منا مائتى حمل فرش وقتلوا منا خمسين مملوكًا ".

فلما بلغه الخبر قال: " خيَّبهم الله كيف يتحاربون مع العرب لأجل مائتى حمل بضاعة، وما مقدار مائتى حمل، فما كان ينبغى لهم أن يتأخروا من أجل ذلك فإن قيمة المائتى الحمل سبعة آلاف دينار، ولكن ينبغى لهم أنى أروح إليهم وأستعجلهم والذى أخذه العرب لا تنقص به الحملة ولا يؤثر عندى شيئًا وأقدر أنى تصدقت به عليهم ". ثم نزل من عندى ضاحكًا ولم يغتم على ما ضاع من ماله ولا على قتل مماليكه، ولما نزل نظرت من شباك القصر فرأيت العشرة مماليك الذى أتوا له بالكتاب كأنهم الأقمار كل واحد منهم لابس بدلة تساوى ألفى دينار، وليس عند أبى مملوك يشبه واحدًا منهم. ثم توجه مع المماليك الذين جاءوا له بالمكتوب ليجىء بحملته.

والحمد لله الذى منعنى أن أذكر له شيئًا من الكلام الذى أمرتنى به فإنه كان يستهزئ بى وبك، وربما كان يرانى بعين النقص ويبغضنى، ولكن العيب كله من وزيرك الذى يتكلم فى حق زوجى كلامًا ما يليق به ". فقال الملك : " يا بنتى إن مال زوجك كثير ولا يفكر فى ذلك، ومن يوم دخل بلادنا وهو يتصدق على الفقراء، وإن شاء الله عن قريب يأتى بالحملة ويحصل لنا منه خير كثير ". وصار يأخذ بخاطرها ويوبِّخ الوزير، وانطلت عليه الحيلة.

هذا ما كان من أمر الملك. وأما ما كان من أمر التاجر معروف فإنه ركب الجواد وسار فى البر الأقفر وهو متحير لا يدرى إلى أى البلاد يروح، وصار من ألم الفراق ينوح، وقاسى الوجد واللوعات.

وأنشد هذه الأبيات:

غدر الزمان بشملنا فتفرقا	القلب ذاب من الجفا وتحرقا
يا طلعة البدر المنير أنا الذي	فى حبكم ترك الفؤاد ممزقاً
والعين تقطر من فراق أحبتى	هذا الفراق متى يكون الملتقى
يا ليتنى لم أجتمع بك ساعة	من بعد طيب وصالكم ذقت الشقا
مازال معروفٌ بدنيا مغرمًا	إن كان مات صبابة فلها البقا

يا بهجة الشمس المنيرة أدركى قلبًا لمعروف المحبة محرقا
يا هل ترى الأيام تجمع شملنا ونفوز منها بالمسرة واللقا
يا طلعة البدر المنيرة شمسهُ ما زال وجهك بالمحاسن مشرقا
إنى لراض بالغرام وهمه حيث السعادة فى الهوى عين الشقا

فلما فرغ من شعره بكى بكاءً شديدًا وقد انسدت الطرقات فى وجهه واختار الممات على الحياة. ثم إنه مشى كالسكران من شدة حيرته. ولم يزل سائرًا إلى وقت الظهر حتى أقبل على بلد صغيرة فرأى رجلاً حرّاثًا قريبًا منها يحرث على ثورين. وكان قد اشتد به الجوع فقصد الحرّاث وقال له: "السلام عليكم". فرد عليه السلام وقال: "مرحبًا بك يا سيدى هل أنت من مماليك السلطان؟" قال: "نعم". قال: "انزل عندى للضيافة فعرف أنه من الأجاويد فقال له: "يا أخى ما أنا ناظر عندك شيئًا حتى تطعمنى إياه فكيف تعزم علىّ؟" فقال الحراث: "يا سيدى الخير موجود انزل أنت وها هى البلد قريبة فأروح وأجىء لك بغداء وعليق لحصانك. قال: "حيث كانت البلد قريبة فأنا أصل إليها فى مقدار ما تصل أنت إليها وأشترى مرادى من السوق وآكل" فقال له: "يا سيدى إن البلد كفر صغير وليس فيها سوق ولا بيع ولا شراء، سألتك بالله أن تنزل عندى وتجبر بخاطرى وأنا أذهب إليها وأرجع إليك بسرعة". فنزل.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية وجدان معروف الكنز والخاتم

قالت شهرزاد: ثم إن الفلاح تركه وراح إلى البلد ليجىء له بالغداء فقعد معروف ينتظره. ثم قال فى نفسه: "إنا شغلنا هذا الرجل المسكين عن شغله، لكن أنا أقوم وأحرث عوضا عنه حتى يأتى فى نظير ما عوقته عن شغله". ثم أخذ المحراث وساق الثيران فحرث قليلاً وعثر المحراث فى شىء فوقفت البهائم. فساقها فلم تقدر على المشى فنظر إلى المحراث فرآه مشبوكًا فى حلقة من الذهب. فكشف عنها التراب فوجد تلك الحلقة فى وسط حجر من المرمر قدر قاعدة الطاحون فعالج فيه حتى قلعه من مكانه فبان من تحته طابق بسلالم فنزل فى تلك السلالم فرأى مكانًا مثل الحمام بأربعة لواوين الليوان الأول ملآن من الأرض إلى السقف بالذهب، والليوان الثانى ملآن زمردًا ولؤلؤًا ومرجانًا من الأرض إلى السقف، والليوان الثالث ملآن ياقوتًا وبلخشًا وفيروزًا، والليوان الرابع ملآن بالألماس ونفيس المعادن من سائر أصناف الجواهر، وفى صدر كل ذلك المكان صندوق من البلور الصافى ملآن بالجواهر اليتيمة التى كل جوهرة منها قدر الجوزة، وفوق ذلك الصندوق علبة صغيرة قدر الليمونة وهى من الذهب.

فلما رأى ذلك تعجب وفرح فرحًا شديدًا وقال: "يا هل ترى أى شىء فى هذه العلبة؟" ثم إنه فتحها فرأى فيها خاتمًا من الذهب مكتوبًا عليه أسماء وطلاسم مثل دبيب النمل، فدعك الخاتم وإذا بقائل يقول: "لبيك لبيك يا سيدى فاطلب تعطَ، هل تريد أن تعمر بلدًا أو تخرّب مدينة أو تقتل ملكًا أو تحفر نهرًا أو نحو ذلك، فمهما طلبته قد صار بإذن الملك الجبار خالق الليل والنهار". فقال له: "يا مخلوق ربى من أنت ومن تكون؟" قال: "أنا خادم هذا الخاتم القائم بخدمة مالكه فمهما طلبه من الأغراض قضيته له ولا عذر لى فيما يأمرنى به

فإنى سلطان من الجان وعدة عسكرى اثنان وسبعون قبيلة كل قبيلة عدتها اثنان وسبعون ألفا وكل واحد من الألف يحكم على ألف مارد وكل مارد يحكم على ألف عون وكل عون يحكم على ألف شيطان وكل شيطان يحكم على ألف جنى، وكلهم من تحت طاعتى لا يقدرون على مخالفتى، وأنا مرصود لهذا الخاتم لا أقدر على مخالفة من ملكه وها أنت قد ملكته وصرت أنا خادمك فاطلب ما شئت فإنى سميع لقولك مطيع لأمرك، وإذا احتجت إلىّ فى أى وقت فى البر أو فى البحر فادعك الخاتم تجدنى عندك. إياك أن تدعكه مرتين فتحرقنى بنار الأسماء وتعدمنى وتندم علىّ بعد ذلك وقد عرفتك بحالى والسلام ".

فقال له معروف: " ما اسمك ؟ " قال : " اسمى أبو السعادات ". فقال له : " يا أبا السعادات ما هذا المكان ومن أرصدك فى هذه العلبة ؟ " قال له: " يا سيدى هذا المكان كنز يقال له كنز شداد بن عاد الذى عمر إرم ذات العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد. وأنا كنت خادمه فى حياته وهذا خاتمه وقد وضعه فى كنزه ولكنه نصيبك ". فقال له معروف: " هل تقدر أن تخرج ما فى هذا الكنز على وجه الأرض ؟ " قال: " نعم أسهل ما يكون ".

قال: " أخرج جميع ما فيه ولا تبق منه شيئًا ". فأشار بيده إلى الأرض فانشقت. ثم نزل وغاب مدة لطيفة وإذا بغلمان صغار ظراف بوجوه حسان خرجوا حاملين مشنات من الذهب وتلك المشنات ممتلئة ذهبًا فرغوها ثم راحوا وجاءوا بغيرها، وما زالوا ينقلون من الذهب والجواهر. فلم تمض ساعة حتى قالوا: " ما بقى فى الكنز شىء ". ثم طلع له أبو السعادات وقال له: " يا سيدى قد رأيت أن جميع ما فى الكنز قد نقلناه ". فقال له: " ما هذه الأولاد الحسان ؟ " قال: " هؤلاء أولادى لأن هذه الشغلة لا تستحق أن أجمع لها الأعوان وأولادى قضوا حاجتك وتشرفوا بخدمتك، فاطلب ما تريد غير هذا ". قال له:

"هل تقدر أن تجىء لى ببغال وصناديق وتحط هذه الأموال فى الصناديق وتحمل الصناديق على البغال ؟ " قال: " هذا أسهل ما يكون ".

ثم إنه زعق زعقة عظيمة فحضرت أولاده بين يديه فكانوا ثمانمائة فقال لهم: " لينقلب بعضكم فى صورة البغال وبعضكم بصورة المماليك الحسان الذين أقل من فيهم لا يوجد مثله عند ملك من الملوك وبعضكم فى صورة المكارية وبعضكم فى صورة الخدام. ثم صاح على الأعوان فحضروا بين يديه، فأمرهم أن ينقلب بعضهم فى صورة الخيل المسرجة بسروج الذهب المرصع بالجواهر. فلما رأى معروف ذلك قال: " أين الصناديق ؟ " فأحضروها بين يديه، قال: " عبوا الذهب والمعادن كل صنف وحده " فعبوها وحملوها على ثلاثمائة بغل. فقال معروف: " يا أبا السعادات هل تقدر أن تجىء لى بأحمال من نفيس القماش ؟ " قال: " أتريد قماشًا مصريا أو شاميا أو عجميا أو هنديا أو روميا ؟ " قال:

"هات من قماش كل بلد مائة حمل على مائة بغل ". قال: " يا سيدى أعطنى مهلة حتى أرتب أعوانى لذلك وآمر كل طائفة أن تروح إلى بلد لتجىء بمائة حمل من قماشها وينقلب الأعوان فى صورة البغال ويأتون حاملين البضائع ".

قال: " ما قدر زمان المهلة ؟ " قال : " مدة سواد الليل فلا يطلع النهار إلا وعندك جميع ما تريد ". قال: " أمهلتك هذه المدة ". ثم إنه أمرهم أن ينصبوا له خيمة فنصبوها وجلس

وجاءوا له بسماط وقال له أبو السعادات: " يا سيدى اجلس فى الخيمة وهؤلاء أولادى بين يديك يحرسونك ولا تخش من شىء وأنا رائح أجمع أعوانى وأبعثهم ليقضوا حاجتك ". ثم ذهب أبو السعادات إلى حال سبيله، وجلس معروف في الخيمة والسماط قدامه وأولاد أبو السعادات بين يديه فى صورة المماليك؛ والخدم والحشم.

حكاية

رجوع الرجل الفلاح وإنعام معروف عليه

فبينما هو جالس على تلك الحالة وإذا بالرجل الفلاح قد اقبل وهو حامل قصعة عدس كبيرة ومخلاة ممتلئة شعيرًا فرأى الخيمة منصوبة والمماليك واقفين وأيديهم على صدورهم فظن أن السلطان أتى ونزل فى ذلك المكان، فوقف باهتا وقال فى نفسه: " يا ليتنى كنت ذبحت فرختين وحمرتهما بالسمن البقرى من شأن السلطان "، وأراد أن يرجع ليذبح فرختين يضيّف بهما السلطان فرآه معروف فزعق عليه وقال للمماليك: " هاتوه ".

فحملوه هو وقصعة العدس وأتوا بهما قدامه. فقال له: " ما هذا ؟ " قال: " هذا غداؤك وعليق حصانك فلا تؤاخذنى فإنى ما كنت أظن أن السلطان يأتى إلى هذا المكان ولو علمت ذلك كنت ذبحت له فرختين وضيفته ضيافة مليحة ". فقال معروف: " إن السلطان لم يجئ وإنما أنا نسيبه وكنت مغبونًا منه وقد أرسل إلىّ مماليكه وصالحونى وأنا الآن أريد أن أرجع إلى المدينة، وأنت قد عملت لى هذه الضيافة على غير معرفتك، وضيافتك مقبولة ولو كانت عدسًا فأنا ما آكل إلا من ضيافتك".

ثم أمره بوضع القصعة فى وسط السماط وأكل منها حتى اكتفى. وأما الفلاح فإنه ملأ بطنه من تلك الألوان الفاخرة، ثم إن معروفًا غسل يديه وأذن للمماليك فى الأكل فنزلوا على بقية السماط وأكلوا، ولما فرغت القصعة ملأها له ذهبًا وقال له: " أوصلها إلى منزلك وتعال عندى فى المدينة وأنا أكرمك ". فأخذ القصعة ملآنة ذهبًا وساق الثيران وراح إلى بلده وهو يظن أنه نسيب الملك. وبات معروف تلك الليلة فى أنس وصفاء وجاؤوا له ببنات من عرائس الكنوز فدقوا الآلات ورقصوا قدامه وقضى ليلته.

فلما أصبح الصباح لم يشعر إلا والغبار قد علا وطار وانكشف عن بغال حاملة أحمالاً وهى سبعمائة بغل حاملة أقمشة وحولها غلمان مكارية وعكامة وضوية وأبو السعادات راكب على بغلة وهو فى صورة مقدم الحملة وقدامه تختروان له أربع عساكر من الذهب الأحمر الوهاج مرصع بالجواهر. فلما وصل إلى الخيمة نزل من فوق ظهر البغلة وقبَّل الأرض وقال: " يا سيدى إن الحاجة قضيت بالتمام والكمال، هذا التختروان فيه بدلة كنوزية لا مثيل لها من ملابس الملوك فالبسها واركب فى التختروان ومُرنا بما تريد ". فقال له: " يا أبا السعادات مرادى أن أكتب لك كتابًا تروح به إلى مدينة خيتان الختن وتدخل على عمى الملك ولا تدخل عليه إلا فى صورة ساع أنيس ". فقال : سمعًا وطاعة ".

فكتب كتابًا وختمه. فأخذه أبو السعادات وذهب به حتى دخل على الملك. فرآه يقـــول: " يا وزير إن قلبى على نسيبى وأخاف أن تقتله العرب، يا ليتنى كنت أعرف أين ذهب حتى كنت أتبعه بالعسكر ويا ليته أخبرنى بذلك قبل الذهاب ". فقال له الوزير:

"الله يلطف بك على هذه الغفلة التى أنت فيها وحياة رأسك إن الرجل عرف أننا انتبهنا له فخاف من الفضيحة وهرب وما هو إلا كذاب نصاب ".

وإذا بالساعى داخل فقبَّل الأرض بين أيادى الملك ودعا له بدوام العز والنعم والبقاء. فقال له الملك: " من أنت وما حاجتك؟ " فقال له: " أنا ساع أرسلنى إليك نسيبك وهو مقبل بالحملة وقد أرسل إليك معى كتابًا وها هو ". فأخذه وقراه فرأى فيه: " بعد مزيد السلام على عمنا الملك العزيز فإنى جئت بالحملة فاطلع وقابلنى بالعسكر ". فقال الملك:

"سوَّد الله وجهك يا وزير كم تقدح فى عرض نسيبى وتجعله كذابًا نصابًا وقد أتى بالحملة فما أنت إلا خائن ". فأطرق الوزير برأسه إلى الأرض حياءً وخجلاً وقال: " يا ملك الزمان أنا ما قلت لك هذا الكلام إلا لطول غياب الحملة وكنت خائفًا على ضياع المال الذى صرفه". فقال : " يا خائن أى شيء أموالنا حيثما أتت حملته فإنه يعطينى عوضًا عنها شيئًا كثيرًا". ثم أمر الملك بزينة المدينة ودخل على بنته وقال لها: " لك بشارة إن زوجك عن قريب يجيء بحملته وقد أرسل إلىّ مكتوبًا بذلك وها أنا طالع لملاقاته ". فتعجبت البنت من هذه الحالة وقالت فى نفسها : " إن هذا شيء عجيب هل كان يهزأ بى ويسخر منى أو كان يختبرنى حين أخبرنى بأنه فقير؟ لكن الحمد لله حيث لم يقع منى تقصير فى حقه ". هذا ما كان من أمره.

وأما ما كان من أمر التاجر علىّ المصرى فإنه لما رأى الزينة سأل عن سبب ذلك فقالوا له: " إن التاجر معروف نسيب الملك قد أتت حملته ". فقال: " الله أكبر ما هذه الداهية إنه قد أتانى هاربًا من زوجته وكان فقيرًا فمن أين جاءت له الحملة، ولكن لعل بنت الملك دبرت له حيلة خوفًا من الفضيحة والملوك لا تعجز عن شيء، فالله تعالى يستره ولا يفضحه ". وسائر التجار فرحوا وانسروا لأجل أخذ أموالهم.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية ملاقاة معروف مع الملك وعلى التاجر

قالت شهرزاد: ثم إن الملك جمع العسكر وطلع، وكان أبو السعادات قد رجع إلى معروف وأخبره بأنه بلَّغ الرسالة. فقال معروف: " احملوا ". ولبس البدلة الكنوزية وركب فى التختروان وصار أعظم وأهيب من الملك؛ بألف مرة. ومشى إلى نصف الطريق وإذا بالملك قابله بالعسكر فلما وصل إليه رآه لابسًا تلك البدلة وراكبًا فى التختروان فرمى روحه عليه وسلَّم عليه وحيَّاه بالسلام وجميع أكابر الدولة سلَّموا عليه وبان أن معروفا صادقا ولا كذب عنده، ودخل المدينة بموكب يفقع مرارة الأسد وسعت إليه التجار وقبَّلوا الأرض بين يديه،ثم إن التاجر على قال له: " قد عملت هذه العملة وطلعت بيدك يا شيخ النصابين، ولكن تستاهل فالله تعالى يزيدك من فضله ". فضحك معروف.

ولما دخل السراية قعد على الكرسى وقال: " أدخلوا أحمال الذهب فى خزانة عمى الملك وهاتوا أحمال الأقمشة ". فقدموها له وصاروا يفتحونها حملاً بعد حمل ويخرجون ما فيها حتى فتحوا السبعمائة حمل. فنقى أطيبها وقال: " أدخلوه للملكة لتفرقه على جواريها وخذوا هذا الصندوق والجواهر وأدخلوها لها لتفرقه على الجوارى والخدم. وصار يعطى التجار الذين لهم عليه دين من الأقمشة نظير ديونهم والذى له ألف يعطيه قماشًا يساوى ألفين أو أكثر. وبعد ذلك صار يفرق على الفقراء والمساكين والملك ينظر إليه.

ولم يزل يعطى ويهب حتى فرق السبعمائة حملاً ثم التفت إلى العسكر وجعل يفرق عليهم معادن وزمرداً ويواقيت ولؤلؤاً ومرجاناً وغير ذلك وصار لا يعطى الجواهر إلا بالقبضات من غير عدد، فقال له الملك: " يا ولدى يكفى هذا العطاء لأنه لم يبق من الحملة إلا القليل ". فقال له: " عندى كثير ". واشتهر صدقه وما بقى أحد يقدر أن يكذبه وصار لا يبالى بالعطاء لأن الخادم يُحضر له مهما طلب. ثم إن الخازندار أتى إلى الملك وقال: " يا ملك إن الخزانة امتلأت وصارت لا تسع بقية الأحمال، وما بقى من الذهب والمعادن أين نضعه؟ " فأشار له إلى مكان آخر. ولما رأت زوجته هذه الحالة ازداد فرحها وصارت متعجبة وتقول فى نفسها : " يا هل ترى من أين جاء له كل هذا الخير ؟ " وكذلك التجار فرحوا بما أعطاهم ودعوا له. وأما التاجر علىّ فإنه صار متعجبًا ويقول فى نفسه:

"يا ترى كيف نصب وكذب حتى ملك هذه الخزائن كلها ؟ فإنها لو كانت من عند بنت الملك ما كان يفرقها على الفقراء ولكن ما أحسن قول من قال:

ملك الملوك إذا وهب	لا تسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء	فقف على حد الأدب

حكاية إعطاء معروف لزوجته وللجوارى الحلى واللباس

هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر الملك فإنه تعجب غاية العجب مما رأى من معروف ومن كرمه وسخائه ببذل المال. ثم بعد ذلك دخل معروف على زوجته فقابلته وهى متبسمة ضاحكة فرحانة وقبلت يديه وقالت: " هل كنت تسخر بى أو كنت تجربنى بقولك أنا فقير وهارب من زوجتى، والحمد لله حيث لم يقع منى فى حقك تقصير وأنت حبيبى وما عندى أعز منك سواء كنت غنيًا أو فقيرًا، وأريد أن تخبرنى ما قصدت بهذا الكلام؟ قال: «أردت تجريبك حتى أنظر هل محبتك خالصة أو على شأن المال وطمع الدنيا؟ فظهر لى أن محبتك خالصة. وحيث كنت صادقة فى المحبة فمرحبًا بك وقد عرفت قيمتك ". ثم إنه اختلى فى مكان واحد ودعك الخاتم.

فحضر له أبو السعادات وقال له: " لبيك فاطلب ما تريد " قال: " أريد منك بدلة كنوزية لزوجتى وحليًا مشتملاً على عقد فيه أربعون جوهرة يتيمة ". قال: " سمعًا وطاعة ".

ثم أحضر له ما أمره به. فحمل البدلة والحلى بعد أن صرف الخادم ثم دخل على زوجته ووضعها بين يديها وقال لها: " خذى والبسى فمرحبًا بك ". فلما نظرت إلى ذلك طار عقلها من فرحتها ورأت من جملة الحلى خلخالين من الذهب مرصعين بالجواهر صنعة الكهنة وأساور وحلقًا وحزامًا لا يتقوم بثمنها أموال، فلبست البدلة والحلى ثم قالت: " يا سيدى مرادى أن أدخرها للمواسم والأعياد ". قال: " البسيها دائمًا فإن عندى غيرها كثيرًا ".

فلما لبستها ونظرها الجوارى فرحن وقبلن يديه، فتركهن واختلى بنفسه ثم دعك الخاتم فحضر الخادم. فقال له: " هات لى مائة بدلة بمصاغها ". فقال : " سمعًا وطاعة ".

ثم أحضر له البدلات وكل بدلة مصاغها فى قلبها. فأخذها وزعق على الجوارى فأتين إليه فأعطى كل واحدة بدلة فلبسن البدل وصرن مثل الحور العين، وصارت الملكة بينهن مثل

القمر بين النجوم. ثم إن بعض الجوارى أخبر الملك بذلك فدخل على ابنته فرآها تدهش من رآها هى وجواريها فتعجب من ذلك غاية العجب، ثم خرج وأحضر وزيره وقال له: " يا وزير إنه حصل كذا وكذا فما تقول فى هذا الأمر ؟ " قال: " يا ملك الزمان إن هذه الحالة لا تقع من التاجر لأن التاجر تقعد عنده قطع الكتان سنين ولا يبيعها إلا بمكسب، فمن أين للتجار كرم مثل هذا الكرم ومن أين لهم أن يحوزوا مثل هذه الأموال والجواهر التى لا يوجد مثلها عند الملوك إلا قليل فكيف يوجد عند التجار منها أحمال فهذا لابد له من سبب، ولكن إن طاوعتنى أبين لك حقيقة الأمر، فقال له: " أطاوعك يا وزير ". فقال له: " اجتمع عليه وواده وتحدث معه وقل له: يا نسيبى فى خاطرى أن أروح أنا وأنت والوزير من غير زيادة بستانًا لأجل النزهة، فإذا خرجنا إلى بستان نحط سفرة المدام وأغصب عليه وأسقيه، ومتى شرب المدام ضاع عقله وغاب رشده فنسأله عن حقيقة أمره فإنه يخبرنا بأسراره، والمدام فضّاح ولله در من قال:

ولما شربناها ودب دبيبـــــــها	إلى موضع الأسرار قلت لها قفى
مخافة أن يسطو علىّ شعاعها	فتظهر ندمائى على سرى الخفى

ومتى أخبرنا بحقيقة الأمر فإننا نطلع على حاله ونفعل به ما نحب ونختار فإن هذه الحالة التى هو فيها أخشى عليك عواقبها فربما تطمع نفسه فى الملك فيشمل العسكر بالكرم ويعزلك ويأخذ الملك منك ". فقال له: " صدقت ". وباتا متفقين على هذا الأمر.

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية رواح الملك والوزير ومعروف إلى البستان

فلما أصبح الصباح خرج الملك إلى المقعد وجلس. وإذا بالخدامين والسياس دخلوا عليه مكروبين. فقال لهم: " ما الذى أصابكم؟ " قالوا: " يا ملك الزمان إن السياس مروا الخيل وعلقوا عليها وعلى البغال التى جاءت بالحملة، فلما أصبحنا وجدنا المماليك سرقوا الخيل والبغال، وفتشنا الاصطبلات فما رأينا خيلاً ولا بغالاً، ودخلنا محل المماليك فلم نر فيه واحدا ولم نعرف كيف هربوا ". فتعجب الملك من ذلك لأنه ظن أن الأعوان كانوا خيلاً وبغالاً ومماليك ولم يعلم أنهم كانوا أعوان خادم الرصد. فقال لهم: " يا ملاعين ألف دابة وخمسمائة مملوك وغيرهم من الخدام كيف هربوا ولم تشعروا بهم ؟ " فقالوا " ما عرفنا كيف جرى لنا حتى هربوا». فقال: «انصرفوا حتى يخرج سيدكم من الحريم وأخبروه بالخبر ". فانصرفوا من قدام الملك متحيرين فى الأمر.

فبينما هم جالسون على تلك الحالة وإذا بمعروف قد خرج من الحريم فرآهم مغتمين فقال لهم: " ما الخبر ؟ " فأخبروه بما حصل. فقال: " وما قيمتهم حتى تغتموا عليهم امضوا إلى حال سبيلكم ". وقعد يضحك ولم يغتظ ولم يغتم من هذا الأمر. فطل الملك فى وجه الوزير وقال: " أى شىء هذا الرجل الذى ليس للمال عنده قيمة فلابد لذلك من سبب ". ثم إنهم تحدثوا معه ساعة وقال الملك : " يا نسيبى خاطرى أن أروح أنا وأنت والوزير بستانًا لأجل النزهة فما تقول ؟ " قال: " لا بأس ". ثم إنهم ذهبوا وتوجهوا إلى بستان فيه من كل فاكهة زوجان، أنهاره دافقة وأشجاره باسقة وأطياره ناطقة، دخلوا فيه قصرًا يزيل عن القلوب

الحزن وجلسوا يتحدثون والوزير يحكي غريب الحكايات ويأتي بالنكت المضحكات والألفاظ المطربيات ومعروف مصغ إلى الحديث حتى طلع الغداء وحطوا سفرة الطعام وباطية المدام.

حكاية شرب معروف الخمر وإخباره بحاله

ورميه فى الربع الخراب

وبعد أن أكلوا وغسلوا أيديهم ملأ الوزير الكأس وأعطاه للملك فشربه، وملأ الثاني وقال لمعروف: " هاك كأس الشراب الذى تخضع لهيبته أعناق الألباب". فقال معروف " ما هذا يا وزير؟ " قال: ": هذه البكر الشمطاء والعانس القذراء، ومهدية السرور إلى السرائر. التى قال فيها الشاعر:

كانت لها أرجل الأعلاج دائرة — بالدوس فانتصفت من أرؤس العرب
يسقيكها من بنى الكفار بدر دجى — الحافظه للمعاصى أوكد السبب

ولله در القائل:

فكأنها وكأن حامل كأسها — إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها — بدر الدجى بكواكب الجوزاء
رقت فكادت من لطيف مزاجها — تجرى كمجرى الروح فى الأعضاء

وما أحسن قول الشاعر:

تمشت فى مفاصلهم — تمشى البرء فى السقم

وقول الآخر:

عجبت لعاصريها كيف ماتوا — وقد تركوا لنا ماء الحياة

وأحسن من ذلك قول أبى نواس:

دع عنك لومى فإن اللوم إغراءٌ — وداونى بالتى كانت هى الداءُ
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها — لو مسها حجرٌ مسته سراءُ
قامت بإبريقها والليل معتكرٌ — فلاح من ضوئها فى البيت لألاءُ
طافت على فتية ذل الزمان لهم — فلا تصيبهم إلا بما شاؤوا
فقل لمن يدعى فى العلم معرفة — حفظت شيئًا وغابت عنك أشياءُ

وأحسن من الجميع قول ابن المعتز:

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر — ودير عبدون هطالٌ من المطر
فطالما نبهتنى للصبوح بها — فى غرة الفجر والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير فى صلاتهم — سود المدارع نعابين فى السحر

ولله در القائل:

أصبحت من أغنى الورى — مستبشرًا بالفرح
عندى نضارٌ ذائبٌ — أكتاله بالقدح

وما أحسن قول الشاعر:

تالله ما الكيمياء فى غيرها وجدت — وكل ما قيل فى أبوابها كذبُ
قيراط خمر على القنطار من حزن — يعود فى الحين أفراحاً وينقلبُ

وقول الآخر:

ثقلت زجاجات أتينا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير مع الهوا وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وقول الآخر:

وللكأس والصهباء حق معظم ومن حقها أن لا تضيع حقوقها
إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وما زال يرغبه في الشراب، ويذكر له محاسنه ما استطاب، وينشده ما ورد فيه من الأشعار، ولطف الأخبار، حتى مال إلى ارتشاف ثغر القدح، ولم يبق له غيرها مقترح وما زال يملأ له وهو يشرب، ويستلذ ويطرب حتى غاب عن صوابه، ولم يميز خطأه من صوابه.

فلما علم أن السكر بلغ به الغاية، وتجاوز النهاية. قال له: " يا تاجر معروف والله إني متعجب من أين وصلت إليك هذه الجواهر التي لا يوجد مثلها عند الملوك الأكاسرة، وعمرنا ما رأينا تاجرًا حاز أموالاً مثلك ولا أكرم منك فإن أفعالك أفعال ملوك وليست أفعال تجار، فبالله عليك أن تخبرني حتى أعرف قدرك ومقامك ".

وصار يمارسه ويخادعه وهو غائب العقل. فقال له معروف: " أنا لست تاجرًا ولا من الملوك".

وأخبره بحكايته من أولها إلى آخرها. فقال له: " بالله عليك يا سيدي معروف إنك تفرجنا على هذا الخاتم حتى ننظر كيف صنعته ؟ " قال: " نعم ادعكه يحضر لك وتفرج عليه ".

فأخذه الوزير وقلبه وقال: " هل إذا دعكته يحضر الخادم ؟ " قال: " نعم ادعكه يحضر لك وتفرَّج عليه». فدعكه وإذا بقائل يقول: «لبيك يا سيدي، اطلب تعط، هل تخرب مدينة أو تعمر مدينة أو تقتل ملكًا، فمهما طالبته فإني أفعله لك من غير خلاف ".

فأشار الوزير إلى معروف وقال للخادم: " احمل هذا الخاسر ثم ارمه في أوحش الأراضي الخراب حتى لا يجد فيها ما يأكل ولا ما يشرب فيهلك من الجوع ويموت كمداً ولم يدر به أحد". فخطفه الخادم وطار به بين السماء والأرض.

فلما رأى معروف ذلك أيقن بالهلاك وسوء الارتباك فبكى وقال: " يا أبا السعادات إلى أين أنت رائح بي ؟ ".

فقال له: " أنا رائح أرميك في الربع الخراب يا قليل الأدب من يملك رصدًا مثل هذا ويعطيه للناس يتفرجون عليه؟ لكن تستاهل ما حل بك، ولولا أني أخاف الله لرميتك من مسافة ألف قامة فلا تصل إلى الأرض حتى تمزقك الرياح". فسكت وصار لا يخاطبه حتى وصل به إلى الربع الخراب ورماه هناك ورجع وخلاه في الأرض الموحشة. هذا ما كان من أمره.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قالت شهرزاد: وأما ما كان من أمر الوزير فإنه لما ملك الخاتم قال للملك: " كيف رأيت أما قلت لك إن هذا كذاب نصاب فما كنت تصدقني ؟ " فقال له: " الحق معك يا وزيري الله يعطيك العافية هات هذا الخاتم حتى أتفرج عليه ".

فالتفت إليه الوزير بالغضب وبصق في وجهه وقال له: " يا قليل العقل كيف أعطيه لك

وأبقى خدامك بعد أن صرت سيدك؛ ولكن أنا ما بقيت أبقيك". ثم دعك الخاتم فحضر الخادم. فقال له: "احمل هذا القليل الأدب وارمه فى المكان الذى رميت فيه نسيبه النصاب".

فحمله وطار به. فقال له الملك: "يا مخلوق ربى أى شىء ذنبى فقال له الخادم: "لا أدرى وإنما أمرنى سيدى بذلك وأنا لا أقدر أن أخالف من ملك خاتم هذا الرصد".

ولم يزل طائرا به حتى رماه فى المكان الذى فيه معروف، ثم رجع، فسمع معروفًا يبكى فأتى إليه وأخبره وقعدا يبكيان على ما أصابهما ولم يجدا أكلاً ولا شربًا. هذا ما كان من أمرهما.

وأما ما كان من أمر الوزير فإنه بعد ما شتت معروفاً والملك قام وخرج من البستان وأرسل إلى جميع العسكر وعمل ديواناً وأخبرهم بما فعل مع معروف، والملك وأخبرهم بقصة الخاتم وقال لهم: "إن لم تجعلونى عليكم سلطاناً أمرت خادم الخاتم أن يحملكم جميعًا ويرميكم فى الربع الخراب فتموتون جوعاً وعطشًا".

فقالوا له: "لا تفعل معنا ضرراً فإننا قد رضينا بك علينا سلطانًا ولا نعصى لك أمرًا".

ثم إنهم اتفقوا على سلطنته عليهم قهرًا عنهم وخلع الخلع وصار يطلب من أبى السعادات كل ما أراده فيحضره بين يديه فى الحال.

ثم إنه جلس على الكرسى وأطاعه العسكر وأرسل إلى بنت الملك يقول لها:

"حضّرى نفسك فإنى داخل عليك فى هذه الليلة لأنى مشتاق إليك". فبكت وصعب عليها أبوها وزوجها.

حكاية دخول الوزير على بنت الملك وحيلتها عليه

ثم إنها أرسلت تقول له «أمهلنى حتى تنقضى العدة ثم اكتب كتابى وادخل علىّ فى الحلال». فأرسل يقول لها: أنا لا أعرف عدة ولا طول مدّة ولا أحتاج إلى كتاب ولا أعرف حلالاً من حرام ولا بدّ من دخولى عليك فى هذه الليلة. فأرسلت تقول له «مرحبًا بك لا بأس بذلك». وكان ذلك مكراً منها. فلما رجع له الجواب فرح وانشرح صدره لأنه كان مغرمًا بحبها. ثم إنه أمر بوضع الأطعمة بين جميع الناس وقال: كلوا هذا الطعام فإنه وليمة الفرح فإنى أريد الدخول على الملكة فى هذه الليلة. فقال له شيخ الإسلام: «لا يحل لك الدخول عليها حتى تنقضى عدّتها وتكتب كتابك عليها». فقال له «أنا لا أعرف عدة ولا مدّة فلا تكثر علىّ كلامًا». فسكت شيخ الإسلام وخاف من شرّه وقال للعسكر «إن هذا كافر ولا دين له ولا مذهب له».

فلما جاء المساء دخل عليها فرآها لابسة أفخر ما عندها من الثياب ومزينة بأحسن الزينة، فلما رأته قابلته وهى ضاحكة وقالت له «ليلة مباركة ولو كنت قتلت أبى وزوجى لكان أحسن عندى». فقال لها «لا بدّ أن أقتلهما». فأجلسته وصارت تمازحه وتظهر له الوداد فلما لاطفته وتبسمت فى وجهه طار عقله، وإنما خادعته بالملاطفة حتى تظفر بالخاتم وتبدل فرحته بالنكد وما فعلت معه من هذه الفعال إلا على رأى من قال:

ولقد بلغت بحيلتى ما لم ينل بالسيوف
ثم انثنيت بمغنم حلو المجانى والقطوف

فلما رأى الملاطفة والابتسام طار من الفرح. أما هى فبكت وقالت «يا سيدى أما تنظر الرجل

الناظر إلينا بالله عليك أن تسترنى عن عينه، فكيف تدع الرجال ينظرون إلىّ ؟ «فاغتاظ وقال :أين الرجل ؟قالت «ها هو فى فص الخاتم يطلع رأسه وينظر إلينا»، فظن أن خادم الخاتم ينظر إليهما فضحك وقال «لا تخافى إن هذا خادم الخاتم وهو تحت طاعتى» .قالت «أنا أخاف من العفاريت فاقلعه وارمه بعيداً عنى» .فقلعه وحطه على المخدة ودنا منها، فرفسته برجلها فى قلبه فانقلب على قفاه مغشيا عليه وزعقت على اتباعها فأتوها بسرعة فقالت «أمسكوه» .فقبضت عليه أربعون جارية وعجلت بأخذ الخاتم من فوق المخدة ودعكته وإذا بأبى السعادات أقبل يقول «لبيك يا سيدتى» .فقالت «احمل هذا الكافر وضعه فى السجن وثقّل قيوده» .فأخذه وسجنه فى سجن الغضب ورجع وقال لها «قد سجنته» .فقالت له: «أين ذهبت بأبى وزوجى ؟»قال «رميتهما فى الربع الخراب» .قالت «أمرتك أن تأتينى بهما فى هذه الساعة» .قال سمعًا وطاعةً .

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية أمر بنت الملك لخادم الخاتم بتخليص أبيها وزوجها

قالت شهرزاد : ثم طار من قدامها ولم يزل طائرًا إلى أن وصل إلى الربع الخراب ونزل عليهما فرآهما قاعدين يبكيان ويشكوان لبعضهما فقال لهما «إنى سجنته بيدى طاعةً لها». ثم أمرتنى بإرجاعكما، ففرحا بخبره. ثم حملهما وطار بهما. فما كان غير ساعة حتى دخل بهما على بنت الملك فقامت وسلّمت على أبيها وزوجها وأجلستهما وقدمت لهما الطعام والحلوى وباتا بقية الليلة. وفى ثانى يوم ألبست أباها بدلة فاخرة وألبست زوجها بدلة فاخرة وقالت : «يا أبت اقعد أنت على كرسيك ملكًا على ما كنت عليه أولاً واجعل زوجى وزير ميمنة عندك» .فقال لها سمعًا وطاعةً يا بنتى ولكن أعطينى الخاتم أو أعطيه لزوجك» .فقالت «إنه لا يصلح لك ولا له وإنما الخاتم يكون عندى وربما أحميه أكثر منكما ومهما أردتماه فاطلباه منى وأنا أطلب لكما من خادم الخاتم ولا تخشيا بأسًا ما دمت أنا طيبة وبعد موتى فشأنكما والخاتم» .فقال أبوها «هذا هو الرأى الصواب يا بنتى» .

ثم أخذ نسيبه وطلع إلى الديوان. وكان العسكر قد باتوا فى كرب عظيم بسبب بنت الملك وما فعل معها الوزير وما أساء للملك ونسيبه وخافوا أن تنتهك شريعة الإسلام لأنه بان لهم أنه كافر، ثم اجتمعوا في الديوان، وصاروا يعنفون شيخ الإسلام ويقولون له «لماذا ما منعته من الدخول على الملكة ؟»فقال لهم «يا ناس إن الرجل كافر وصار مالكًا للخاتم وأنا وأنتم لا يخرج من أيدينا فى حقه شىء، فالله تعالى يجازيه بفعله واسكتوا أنتم لئلا يقتلكم». فبينما العساكر مجتمعون فى الديوان يتحدثون فى هذا الكلام وإذا بالملك داخل عليهم فى الديوان ومعه نسيبه معروف.

فلما رآه العساكر فرحوا بقدومه وقاموا له على الأقدام وقبلوا الأرض بين يديه، ثم

جلس على الكرسى وأخبرهم بالقصة، فزالت عنهم تلك الغصة، وأمر بزينة المدينة وأحضر الوزير من الحبس. فلما مّر بالعساكر صاروا يلعنونه ويشتمونه ويوبخونه حتى وصل إلى الملك. فلما تمثَّل بين يديه أمر بقتله أشنع قتلة، فقتلوه ثم حرَّقوه وراح إلى سقر فى أسوأ الأحوال. وأجاد فيه من قال :

فــلا رحم الرحــمن تربة عظمــه ولا زال فــيهــا منكرٌ ونكيرٌ

ثم إن الملك جعل معروفًا وزير ميمنة وطابت لهم الأوقات وصفت لهم المسرات واستمرّوا على ذلك خمس سنوات وفى السنة السادسة مات الملك فجعلته بنت الملك سلطانًا مكان أبيها ولم تعطه الخاتم. وكانت فى هذه المدة حملت ووضعت غلامًا بديع الجمال، بارع الحسن والكمال، ولم يزل فى حجر الدادات حتى بلغ من العمر خمس سنوات فمرضت أمه مرض الموت فأحضرت معروفًا وقالت له «أنا مريضة». فقال لها: «سلامتك يا حبيبة قلبى». قالت له: «وربما أموت فلا تحتاج إلى أنى أوصيك على ولدك، وإنما أوصيك بحفظ الخاتم خوفًا عليك وعلى هذا الغلام». فقال «ما على من يحفظه الله بأس». فقلعت الخاتم وأعطته له. وفى ثانى يوم توفيت إلى رحمة الله تعالى.

وأقام معروف ملكًا وصار يتعاطى الأحكام، فاتفق فى بعض الأيام أنه نفض المنديل فانفضّت العساكر من قدامه إلى أماكنهم ودخل هو قاعة الجلوس وجلس فيها إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاعتكار. فدخل عليه أرباب منادمته من الأكابر على عادتهم وسهروا عنده من أجل البسط والانشراح إلى نصف الليل. ثم طلبوا الإجازة بالانصراف فأذن لهم وخرجوا من عنده إلى بيوتهم. وبعد ذلك دخلت عليه جارية كانت مقيدة بخدمة فراشه ففرشت له المرتبة وقلعته البدلة وألبسته بدلة النوم واضطجع، فصارت تكبس أقدامه حتى غلب عليه النوم، فخرجت من عنده وراحت إلى مرقدها ونامت.

حكاية وصول فاطمة عند معروف
وبيان قصتها

وأما ما كان من أمر الملك معروف فإنه كان نائمًا فلم يشعر إلا وشىء يتحرك بجانبه فانتبه مرعوبًا قال «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ثم فتح عينيه فرأى فى جانبه امرأة قبيحة المنظر قال لها «من أنت؟» فقالت «لا تخف أنا زوجتك فاطمة العرة». فنظر فى وجهها فعرفها بمسخة صورتها وطول أنيابها وقال «من أين دخلت علىّ ومن جاء بك إلى هذه البلاد؟» فقالت له «فى أى البلاد أنت فى هذه الساعة؟» قال فى مدينة خيتان الختن، وأنت متى فارقت مصر؟» قالت «فى هذه الساعة». قال لها وكيف ذلك؟» قالت «اعلم أننى لما تشاجرت معك وقد أغرانى الشيطان على ضررك واشتكيتك إلى الحكام ففتشوا عليك فما وجدوك وسأل القضاة عنك فما رأوك، وبعد أن مضى يومان لحقتنى الندامة وعلمت أن الذنب عندى وصار الندم لا ينفعنى وقعدت مدة أيام وأنا أبكى على فراقك وقل ما فى يدى واحتجت إلى

السؤال لأجل القوت فصرت أسأل كل مغبوط وممقوت، ومن حين ما فارقتنى وأنا آكل من ذلّ السؤال، وصرت فى أسوأ الأحوال،وكل ليلة أقعد أبكى على فراقك، وعلى ما قاسيت بعد غيابك،من الذلّ والهوان، والتعاسة والخسران» .

وصارت تحدثه بما جرى لها وهو باهت فيها إلى أن قالت «وفى أمس درتُ طول النهار أسأل فلم يعطنى أحداً شيئًا، وصرت كلما أقبل على أحد وأسأل كسرة يشتمنى ولا يعطينى شيئًا. فلما أقبل الليل بتُّ من غير عشاء، فأحرقنى الجوع وصعب علىّ ما قاسيت وقعدت أبكى، وإذا بشخص تصور قدامى وقال لى «يا امرأة لأى شىء تبكين ؟»فقلت له «كان زوجى يصرف علىّ ويقضى أغراضى وقد فقد منى ولم اعرف أين راح وقد قاسيت الغلب من بعده». فقال «ما اسم زوجك الآن ؟»قلت «اسمه معروف» .قال «أنا أعرفه، اعلمى أن زوجك الآن سلطان فى مدينة، وإن شئت أن أوصلكِ إليه أفعل ذلك» .فقلت له «أنا فى عرضك أن توصلنى إليه»..

فحملنى وطار بين السماء والأرض حتى أوصلنى إلى هذا القصر وقال «ادخلى فى هذه الحجرة ترى زوجك نائمًا على السرير» .فدخلت فرأيتك فى هذه السيادة، وأنا ما كان أملى أنك تفوتنى وأنا رفيقتك، والحمد لله الذى جمعنى عليك» .فقال لها «هل أنا فتك أو أنت التى فتينى وأنتِ تشتكينى من قاض إلى قاض، وختمت ذلك بشكايتى إلى الباب العالى حتى نزّلت علىّ أبا طبق من القلعة فهربت قهرًا عنى» .وصار يحكى لها على ما جرى له إلى أن صار سلطانًا وتزوّج بنت الملك وأخبرها بأنها ماتت وخلّفت منها ولدًا صار عمره سبع سنين. فقالت له «الذى جرى مقدّر من الله تعالى وقد تبتُ وأنا فى عرضك انك لا تفوتنى ودعنى آكل عندك العيش على سبيل الصدقة» .ولم تزل تتواضع له حتى رقّ قلبه لها وقال لها «توبى عن الشرّ واقعدى عندى وليس لك إلا ما يسرّك، فإن عملت شيئًا من الشرّ أقتلكِ ولا أخاف من أحد، فلا يخطر ببالك أن تشتكينى إلى الباب العالى وينزل لى أبو طبق من القلعة فإنى صرت سلطانًا والناس تخاف منى وأنا لا أخاف إلا من الله تعالى، فإن معى خاتم استخدام متى دعكته يظهر لى خادم الخاتم واسمه أبو السعادات ومهما طلبته منه يجيئنى به، فإن كنتِ تريدين الذهاب على بلدك أعطيك ما يكفيك طول عمرك وأرسلك إلى بلادك بسرعة، وإن كنت تريدين القعود عندى فإنى أخلى لكِ قصرًا وأفرشه لكِ من خاص الحرير وأجعل لكِ عشرين جارية يخدمنك وأرتب لكِ المآكل الطيبة والملابس الفاخرة وتصيرين ملكة وتقيمين فى نعيم زائد حتى تموتى أو أموت أنا، فما تقولين فى هذا الكلام ؟»فقالت «أنا أريد الإقامة عندك» .ثم قبلت يده وتابت عن الشرّ. فأفرد لها قصرًا وحدها وأنعم عليها بجوارٍ وطواشية وصارت ملكة.

ثم إن الولد صار يذهب عندها وعند أبيهِ فكرهت الولد لكونه ما هو ابنها. فلما رأى الولد منها عين الغضب والكراهة نفر منها وكرهها، ثم إن معروفًا اشتغل بحبّ الجوارى الحسان ولم يفكر فى زوجته فاطمة العرّه لأنها صارت عجوزًا شمطاء، بصورة شوهاء، وسحنة محماء، أقبح من الحية الرقطاء خصوصًا وقد أساءته إساءة لا مزيد عليها، وصاحب المثل يقول : الإساءة تقطع أصل المطلوب، وتزرع البغضاء فى أرض القلوب، ولله در الشاعر القائل فى هذا المعنى :

احرص على فرط القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يعسرُ

إن القلب إذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبرُ

ثم إن معروفًا لم يأوها لخصلة حميدة فيها وإنما عمل معها هذا الإكرام ابتغاء مرضاة الله تعالى.

❖❖❖

ثم إن دنيا زاد قالت لأختها شهرزاد «ما أطيب هذه الألفاظ التى هى اشدّ أخذًا بالقلوب من سواحر الألحاظ، وما أحسن هذه الحكايات الغريبة والنوادر العجيبة». فقالت شهرزاد «وأين هذا مما أحدّثكم به فى الليلة القابلة إن عشت وأبقانى الملك».

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أصبح الملك منشرح الصدر ومنتظرًا لبقية الحكاية وقال فى نفسه «والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها. ثم خرج إلى محل حكمه وطلع الوزير على عادته بالكفن تحت إبطه. فمكث الملك فى الحكم بين الناس طول نهاره. وبعد ذلك ذهب إلى حريمه ودخل على زوجته شهر زاد بنت الوزير على جرى عادته.

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة الحادية بعد الألف هى آخر الكتاب ذهب الملك إلى حريمه ودخل على زوجته بنت الوزير. فقالت لها أختها دنيا زاد «أتمى لنا حكاية معروف قالت «حبا وكرامةً إن أذن لى الملك بالحديث». فقال لها الملك «قد أذنت لك لأننى متشوّق إلى سماع بقية الحديث».

حكاية خروج فاطمة من قصرها لسرقة الخاتم

قالت «بلغنى أيها الملك أن الملك معروفًا صار لا يعتنى بزوجته وإنما كان يطعمها احتسابًا لوجه الله تعالى. فلما رأته ممتنعًا عن وصولها ومشتغلاً بغيرها بغضته وغلبت عليها الغيرة ووسوس لها إبليس أنها تأخذ الخاتم منه وتقتله وتعمل ملكة مكانه. ثم إنها خرجت ذات ليلة من الليالى ومشت من قصرها متوجهة إلى القصر الذى فيه زوجها الملك معروف. واتفق بالأمر المقدّر والقضاء المسطر أن معروفًا كان راقداً، ومن حسن تقواه كان يقلع الخاتم من إصبعه إذا أراد أن ينام احترامًا للأسماء الشريفة التى هى مكتوبة عليه فلا يلبسه إلا على طهارة. وكانت زوجته فاطمة العرّة لم تخرج من موضعها إلا بعد أن أحيطت علمًا بأنه يقلع الخاتم عند نومه ويجعله على المخدة حتى يتطهر. وكان من عاداته أنه متى نام يأمر المحظية أن تذهب من عنده خوفًا على الخاتم، وإذا دخل الحمام يقفل باب القصر حتى يرجع من الحمام ويأخذ الخاتم ويلبسه وبعد ذلك كل من دخل القصر لا حرج عليه. وكانت تعرف هذا الأمر كله، فخرجت بالليل لأجل أن تدخل القصر وهو مستغرق فى النوم وتسرق هذا الخاتم بحيث لا يراها.

❖❖❖

حكاية قتل ابن الملك معروف فاطمة

فلما خرجت كان ابن الملك فى الساعة قد دخل بيت الراحة ليقضى حاجة من غير نور، فقعد فى الظلام على ملاقى بيت الراحة وترك الباب مفتوحًا عليه. فلما خرجت من قصرها

رآها مجتهدة فى المشى إلى جهة قصر أبيه. فقال فى نفسه «يا هل ترى لأى شيء خرجت هذه الكاهنة من قصرها فى جنح الظلام وأراها متوجهة إلى قصر أبى ؟ فهذا الأمر لا بدّ له من سبب» .ثم إنه خرج وراءها وتبع أثرها من حيث لا تراه، وكان له سيف قصير من الجوهر وكان لا يخرج إلى ديوان أبيه إلا متقلداً بذلك السيف لكونه مستعزا به، فإذا رآه أبوه يضحك عليه ويقول : «ما شاء الله إن سيفك عظيم يا ولدى ولكن ما نزلت به حرباً ولا قطعت به رأسًا» .فيقول له «لا بدّ أن أقطع به عنقًا يكون مستحقا للقطع» .فيضحك من كلامه.

ولما مشى وراء زوجة أبيه سحب السيف من غلافه وتبعها حتى دخلت قصر أبيه، فوقف لها على باب القصر وصار ينظر إليها فرآها وهى تفتش وتقول «أين وضع الخاتم ؟»ففهم أنها دائرة على الخاتم فلم يزل صابرًا عليها حتى لقيته فقالت ها هو»، والتقطته وأرادت أن تخرج، فاختفى خلف الباب. فلما خرجت من الباب نظرت إلى الخاتم وقلبته فى يدها وأرادت أن تدعكه، فرفع يده بالسيف وضربها على عنقها فوقعت مقتولة.

فانتبه معروف فرأى زوجته مرمية ودمها سائل وابنه شاهر السيف فى يده. فقال له «ما هذا يا ولدى ؟»فقال «كم مرّة وأنت تقول لى : إن سيفك عظيم لكنك ما نزلت به حربًا ولا قطعت به رأسًا، وأنا أقول لك: لا بد أن أقطع به عنقًا مستحقا للقطع» .وأخبره بخبرها. ثم إنه فتش على الخاتم فلم يره، ولم يزل يفتش فى أعضائها حتى رأى يدها منطبقة عليه. فأخذه من يدها ثم قال له «أنت ولدى بلا شك ولا ريب أراحك الله فى الدنيا والآخرة كما أرحتنى من هذه الخبيثة ولم يكن سعيها إلا لهلاكها، ولله در من قال :

إذا كان عون الله للمرء مسعفًا تأتّى له من كل أمر مرادهُ
وإن لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجنى عليه اجتهادهُ

ثم إن الملك معروفًا زعق على بعض أتباعه فأتوه مسرعين. فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة المرّة وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها فى مكان إلى الصباح. ففعلوا كما أمرهم. ثم وكّل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفنوها وعملوا لها مشهدًا ودفنوها، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها، ولله درّ من قال :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

وما أحسن قول الشاعر :

وما أدرى إذا يمّمت أرضًا أريد الخير أيّهما يلينى
هل الخير الذى أنا أبتغيه أم الشر الذى هو يبتغينى

ثم إن الملك معروفًا أرسل يطلب الرجل الحرّاث الذى كان ضيفه وهو هارب، فلما حضر جعله وزير ميمنته وصاحب مشورته، ثم علم أن له بنتًا بديعة الحسن والجمال، كريمة الخصال، شريفة النسب، رفيعة الحسب، فتزوج بها. وبعد مدّة من الزمان زوّج ابنه. وأقاموا مدّة فى أرغد عيش وصفت لهم الأوقات، وطابت لهم المسرات. إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب الديار العامرات، وميتم البنين والبنات، فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده مقاليد الملك والملكوت.

جل جلال الله تعالى

نهاية كتاب ألف ليلة وليلة

وكانت شهر زاد فى هذه المدة قد خلفت من الملك ثلاثة أولاد ذكور. فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدى الملك وقالت له «يا ملك الزمان، وفريد العصر والأوان، إنى أنا جاريتك ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين، فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية؟»فقال لها الملك «تمنى تُعطى يا شهر زاد» .فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم «هاتوا أولادى» .

فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكور واحد منهم يمشى وواحد يحبو وواحد يرضع.

فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبّلت الأرض وقالت «يا ملك الزمان هؤلاء أولادك وقد تمنّيت عليك أن تعتقنى من القتل إكرامًا لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصير هؤلاء الأطفال من غير أمّ»

فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال «يا شهرزاد والله إنى قد عفوت عنك من قبل مجيء هؤلاء الأولاد لكونى رأيتك عفيفة نقية حرة تقية، بارك الله فيك وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك، وأشهد الله علىّ انى قد عفوت عنك من كل شىء يضرّك». فقبلت يديه وقدميه وفرحت فرحًا زائداً وقالت له «أطال الله عمرك وزادك هيبة ووقاراً».

وشاع السرور فى سراية الملك حتى انتشر فى المدينة، وكانت ليلة لا تعدّ من الأعمار، ولونها أشد بياضًا من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً، وبالخير مغموراً، فأرسل إلى جميع العسكر فحضروا، وخلع على وزيره أبى شهر زاد وقال له «سترك الله حيث زوّجتنى بنتك الكريمة التى كانت سببًا لتوبتى عن قتل بنات الناس، وقد رأيتها حرّة نقية ورزقنى الله منها بثلاثة أولاد ذكور، والحمد لله على هذه النعمة» .

ثم خلع على كامل الوزراء والأمراء وأرباب الدولة. وأمر بزينة المدينة ثلاثين يوماً ولم يكلف أحدًا من أهل المدينة شيئًا من ماله بل كامل الكلفة والمصاريف من خزانة الملك، فزيّنوا المدينة زينة عظيمة لم يسبق مثلها، ودقّت الطبول وزمرت الزمور ولعبت كامل أرباب الملاعب، وأجزل لهم الملك العطايا والمواهب، وتصدق على الفقراء والمساكين وعمّ بإكرامه سائر رعيته وأهل مملكته.

ثم إن الملك شهريار أحضر المؤرخين والكُتّاب وأمرهم أن يكتبوا جميع ما جرى له مع زوجته من أوله إلى آخره. فكتبوا ذلك وسمّوها سيرة ألف ليلة وليلة، فجاءت ثلاثين مجلدًا فوضعها فى خزائنه.

وأقام الملك مع أرباب دولته فى ألذّ عيش وأهناه وقد بدّل الله حزنهم فرحًا، وأقاموا على ذلك حتى أخذهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخلى الدور، ومعمّر القبور. فانتقلوا إلى رحمته تعالى وخربت دورهم وهدمت قصورهم وتوارث الملوك أموالهم.

ثم ملك من بعدهم ملك عاقل عادل لبيب أديب محب للأخبار خصوصًا سير الملوك

والسلاطين، فوجد هذه السيرة العجيبة المطربة الغريبة وهى ثلاثون مجلدًا فقرأ فيها أول كتاب وثانى كتاب والثالث إلى آخرها.

فصار كل كتاب يعجبه أكثر من الأول إلى أن انتهى إلى آخرها، فتعجب مما سمعه من حديث وحكايات ونوادر ومواعظ وآثار تذكر. فأمر الناس أن يكتبوها وينشروها فى جميع البلاد والأقاليم، وشاع ذكرها وسموها عجائب وغرائب ألف ليلة وليلة. والله أعلم.

فسبحان من أذل رقاب الجبابرة بالموت، فالكل إلى فناء ولا باقى إلا وجه الله والعمل الصالح

وسلام على المرسلين والحمد لله على حسن الختام

* * *

فهرس كتاب
ألف ليلة وليلة

وأبقى خدامك بعد أن صرت سيدك: ولكن أنا ما بقيت أبقيك ". ثم دعك الخاتم فحضر الخادم. فقال له: " احمل هذا القليل الأدب وارمه فى المكان الذى رميت فيه نسيبه النصاب ".

فحمله وطار به. فقال له الملك: " يا مخلوق ربى أى شىء ذنبى فقال له الخادم: " لا أدرى وإنما أمرنى سيدى بذلك وأنا لا أقدر أن أخالف من ملك خاتم هذا الرصد".

ولم يزل طائرا به حتى رماه فى المكان الذى فيه معروف، ثم رجع. فسمع معروفًا يبكى فأتى إليه وأخبره وقعدا يبكيان على ما أصابهما ولم يجدا أكلاً ولا شربًا. هذا ما كان من أمرهما.

وأما ما كان من أمر الوزير فإنه بعد ما شتت معروفاً والملك قام وخرج من البستان وأرسل إلى جميع العسكر وعمل ديواناً وأخبرهم بما فعل مع معروف، والملك وأخبرهم بقصة الخاتم وقال لهم: " إن لم تجعلونى عليكم سلطاناً أمرت خادم الخاتم أن يحملكم جميعًا ويرميكم فى الربع الخراب فتموتون جوعاً وعطشًا ".

فقالوا له: " لا تفعل معنا ضرراً فإننا قد رضينا بك علينا سلطانًا ولا نعصى لك أمرًا ". ثم إنهم اتفقوا على سلطنته عليهم قهرًا عنهم وخلع الخلع وصار يطلب من أبى السعادات كل ما أراده فيحضره بين يديه فى الحال.

ثم إنه جلس على الكرسى وأطاعه العسكر وأرسل إلى بنت الملك يقول لها:

"حضّرى نفسك فإنى داخل عليك فى هذه الليلة لأنى مشتاق إليك ". فبكت وصعب عليها أبوها وزوجها.

حكاية دخول الوزير على بنت الملك وحيلتها عليه

ثم إنها أرسلت تقول له «أمهلنى حتى تنقضى العدة ثم اكتب كتابى وادخل علىّ فى الحلال». فأرسل يقول لها : أنا لا أعرف عدة ولا طول مدّة ولا أحتاج إلى كتاب ولا أعرف حلالاً من حرام ولا بدّ من دخولى عليك فى هذه الليلة». فأرسلت تقول له «مرحبًا بك لا بأس بذلك». وكان ذلك مكراً منها. فلما رجع له الجواب فرح وانشرح صدره لأنه كان مغرمًا بحبها. ثم إنه أمر بوضع الأطعمة بين جميع الناس وقال : كلوا هذا الطعام فإنه وليمة الفرح فإنى أريد الدخول على الملكة فى هذه الليلة». فقال له شيخ الإسلام : «لا يحل لك الدخول عليها حتى تنقضى عدّتها وتكتب كتابك عليها». فقال له «أنا لا أعرف عدة ولا مدّة فلا تكثر علىّ كلامًا». فسكت شيخ الإسلام وخاف من شرّه وقال للعسكر «إن هذا كافر ولا دين له ولا مذهب له».

فلما جاء المساء دخل عليها فرآها لابسة أفخر ما عندها من الثياب ومزينة بأحسن الزينة، فلما رأته قابلته وهى ضاحكة وقالت له «ليلة مباركة ولو كنت قتلت أبى وزوجى لكان أحسن عندى». فقال لها «لا بدّ أن أقتلهما». فأجلسته وصارت تمازحه وتظهر له الوداد فلما لاطفته وتبسمت فى وجهه طار عقله، وإنما خادعته بالملاطفة حتى تظفر بالخاتم وتبدل فرحته بالنكد وما فعلت معه من هذه الفعال إلا على رأى من قال :

ولقد بلغت بحيلتى ... ما لم ينل بالسيوف
ثم انثنيت بمغنم ... حلو المجانى والقطوف

فلما رأى الملاطفة والابتسام طار من الفرح. أما هى فبكت وقالت «يا سيدى أما تنظر الرجل

الناظر إلينا بالله عليك أن تسترنى عن عينه، فكيف تدع الرجال ينظرون إلىّ ؟ «فاغتاظ وقال :أين الرجل ؟قالت «ها هو فى فص الخاتم يطلع رأسه وينظر إلينا»، فظن أن خادم الخاتم ينظر إليهما فضحك وقال «لا تخافى إن هذا خادم الخاتم وهو تحت طاعتى» .قالت «أنا أخاف من العفاريت فاقلعه وارمه بعيداً عنى» .فقلعه وحطه على المخدة ودنا منها، فرفسته برجلها فى قلبه فانقلب على قفاه مغشيا عليه وزعقت على أتباعها فأتوها بسرعة فقالت «امسكوه» .فقبضت عليه أربعون جارية وعجلت بأخذ الخاتم من فوق المخدة ودعكته وإذا بأبى السعادات أقبل يقول «لبيك يا سيدتى» .فقالت «احمل هذا الكافر وضعه فى السجن وثقّل قيوده» .فأخذه وسجنه فى سجن الغضب ورجع وقال لها «قد سجنته» .فقالت له: «أين ذهبت بأبى وزوجى ؟»قال «رميتهما فى الربع الخراب» .قالت «أمرتك أن تأتينى بهما فى هذه الساعة» .قال سمعًا وطاعةً .

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية أمر بنت الملك لخادم الخاتم بتخليص أبيها وزوجها

قالت شهرزاد : ثم طار من قدامها ولم يزل طائرًا إلى أن وصل إلى الربع الخراب ونزل عليهما فرآهما قاعدين يبكيان ويشكوان لبعضهما فقال لهما «إنى سجنته بيدى طاعةً لها. ثم أمرتنى بإرجاعكما، ففرحا بخبره. ثم حملهما وطار بهما. فما كان غير ساعة حتى دخل بهما على بنت الملك فقامت وسلّمت على أبيها وزوجها وأجلستهما وقدمت لهما الطعام والحلوى وباتا بقية الليلة. وفى ثانى يوم ألبست أباها بدلة فاخرة وألبست زوجها بدلة فاخرة وقالت : «يا أبت اقعد أنت على كرسيك ملكًا على ما كنت عليه أولاً واجعل زوجى وزير ميمنة عندك» .فقال لها«سمعًا وطاعةً يا بنتى ولكن أعطينى الخاتم أو أعطيه لزوجك» .فقالت «إنه لا يصلح لك ولا له وإنما الخاتم يكون عندى وربما أحميه أكثر منكما ومهما أردتماه فاطلباه منى وأنا أطلب لكما من خادم الخاتم ولا تخشيا بأسًا ما دمت أنا طيبة وبعد موتى فشأنكما والخاتم» .فقال أبوها «هذا هو الرأى الصواب يا بنتى» .

ثم أخذ نسيبه وطلع إلى الديوان. وكان العسكر قد باتوا فى كرب عظيم بسبب بنت الملك وما فعل معها الوزير وما أساء للملك ونسيبه وخافوا أن تنتهك شريعة الإسلام لأنه بان لهم أنه كافر، ثم اجتمعوا في الديوان، وصاروا يعنفون شيخ الإسلام ويقولون له «لماذا ما منعته من الدخول على الملكة ؟»فقال لهم «يا ناس إن الرجل كافر وصار مالكًا للخاتم وأنا وأنتم لا يخرج من أيدينا فى حقه شىء، فالله تعالى يجازيه بفعله واسكتوا أنتم لئلا يقتلكم» فبينما العساكر مجتمعون فى الديوان يتحدثون فى هذا الكلام وإذا بالملك داخل عليهم فى الديوان ومعه نسيبه معروف.

فلما رآه العساكر فرحوا بقدومه وقاموا له على الأقدام وقبلوا الأرض بين يديه، ثم

جلس على الكرسي وأخبرهم بالقصة، فزالت عنهم تلك الغصة وأمر بزينة المدينة وأحضر الوزير من الحبس. فلما مرّ بالعساكر صاروا يلعنونه ويشتمونه ويوبخونه حتى وصل إلى الملك. فلما تمثل بين يديه أمر بقتله أشنع قتلة، فقتلوه ثم حرّقوه وراح إلى سقر في أسوأ الأحوال. وأجاد فيه من قال :

فلا رحم الرحمن تربة عظمه ولا زال فيها منكر ونكير

ثم إن الملك جعل معروفًا وزير ميمنة وطابت لهم الأوقات وصفت لهم المسرات واستمرّوا على ذلك خمس سنوات وفي السنة السادسة مات الملك فجعلته بنت الملك سلطانًا مكان أبيها ولم تعطه الخاتم. وكانت في هذه المدة حملت ووضعت غلامًا بديع الجمال بارع الحسن والكمال، ولم يزل في حجر الدادات حتى بلغ من العمر خمس سنوات فمرضت أمه مرض الموت فأحضرت معروفًا وقالت له «أنا مريضة» فقال لها : «سلامتك يا حبيبة قلبي». قالت له: «وربما أموت فلا تحتاج إلى أني أوصيك على ولدك، وإنما أوصيك بحفظ الخاتم خوفًا عليك وعلى هذا الغلام». فقال «ما على من يحفظه الله بأس». فقلعت الخاتم وأعطته له، وفي ثاني يوم توفيت إلى رحمة الله تعالى.

وأقام معروف ملكًا وصار يتعاطى الأحكام، فاتفق في بعض الأيام أنه نفض المنديل فانفضّت العساكر من قدامه إلى أماكنهم ودخل هو قاعة الجلوس وجلس فيها إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، فدخل عليه أرباب منادمته من الأكابر على عادتهم وسهروا عنده من أجل البسط والانشراح إلى نصف الليل، ثم طلبوا الإجازة بالانصراف فأذن لهم وخرجوا من عنده إلى بيوتهم. وبعد ذلك دخلت عليه جارية كانت معهودة بخدمة فراشه ففرشت له المرتبة وقلعته البدلة وألبسته بدلة النوم واضطجع، فصارت تكبس أقدامه حتى غلب عليه النوم، فخرجت من عنده وراحت إلى مرقدها ونامت.

حكاية وصول فاطمة عند معروف وبيان قصتها

وأما ما كان من أمر الملك معروف فإنه كان نائمًا فلم يشعر إلا وشيء يتحرك بجانبه فانتبه مرعوبًا قال «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم فتح عينيه فرأى في جانبه امرأة قبيحة المنظر فقال لها «من أنت؟» فقالت «لا تخف أنا زوجتك فاطمة العرة» فنظر في وجهها فعرفها بمسخة صورتها وطول أنيابها وقال «من أين دخلت علي ومن جاء بك إلى هذه البلاد» فقالت له «في أي البلاد أنت في هذه الساعة؟» فقال في [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

السؤال لأجل القوت فصرت أسأل كل مغبوط وممقوت، ومن حين ما فارقتني وأنا آكل من ذل السؤال، وصرت فى أسوأ الأحوال وكل ليلة أقعد أبكى على فراقك، وعلى ما قاسيت بعد غيابك من الذلّ والهوان، والتعاسة والخسران» .

وصارت تحدثه بما جرى لها وهو باهت فيها إلى أن قالت «وفى أمس درتُ طول النهار أسأل فلم يعطنى أحداً شيئًا، وصرت كلما أقبل على أحد وأسأل كسرة يشتمنى ولا يعطينى شيئًا. فلما أقبل الليل بتُّ من غير عشاء، فأحرقنى الجوع وصعب علىّ ما قاسيت وقعدت أبكى، وإذا بشخص تصور قدامى وقال لى «يا امرأة لأى شىء تبكين ؟«فقلت له «كان زوجى يصرف علىّ ويقضى أغراضى وقد فقد منى ولم اعرف أين راح وقد قاسيت الغلب من بعده». فقال «ما اسم زوجكِ الآن ؟«قلت «اسمه معروف» .قال «أنا أعرفه، اعلمى أن زوجك الآن سلطان فى مدينة، وإن شئت أن أوصلكِ إليه أفعل ذلك» .فقلت له «أنا فى عرضك أن توصلنى إليه» .

فحملنى وطار بين السماء والأرض حتى أوصلنى إلى هذا القصر وقال «ادخلى فى هذه الحجرة ترى زوجك نائمًا على السرير» .فدخلت فرأيتك فى هذه السيادة، وأنا ما كان أملى أنك تفوتنى وأنا رفيقتك، والحمد لله الذى جمعنى عليك» .فقال لها «هل أنا فتك أو أنتِ التى فتينى وأنتِ تشتكينى من قاض إلى قاض، وختمت ذلك بشكايتى إلى الباب العالى حتى نزّلت علىّ أبا طبق من القلعة فهربت قهرًا عنى» .وصار يحكى لها على ما جرى له إلى أن صار سلطانًا وتزوّج بنت الملك وأخبرها بأنها ماتت وخلّفت منها ولدًا صار عمره سبع سنين. فقالت له «الذى جرى مقدّر من الله تعالى وقد تبتُ وأنا فى عرضك انك لا تفوتنى ودعنى آكل عندك العيش على سبيل الصدقة» .ولم تزل تتواضع له حتى رقّ قلبه لها وقال لها «توبى عن الشرّ واقعدى عندى وليس لك إلا ما يسرّكِ، فإن عملت شيئًا من الشرّ أقتلكِ ولا أخاف من أحد، فلا يخطر ببالك أن تشتكينى إلى الباب العالى وينزل لى أبو طبق من القلعة فإنى صرت سلطانًا والناس تخاف منى وأنا لا أخاف إلا من الله تعالى، فإن معى خاتم استخدام متى دعكته يظهر لى خادم الخاتم واسمه أبو السعادات ومهما طلبته منه يجيئنى به، فإن كنتِ تريدين الذهاب على بلدك أعطيك ما يكفيك طول عمرك وأرسلك إلى بلادك بسرعة، وإن كنت تريدين القعود عندى فإنى أخلى لكِ قصرًا وأفرشه لكِ من خاص الحرير وأجعل لكِ عشرين جارية يخدمنك وأرتب لكِ المآكل الطيبة والملابس الفاخرة وتصيرين ملكة وتقيمين فى نعيم زائد حتى تموتى أو أموت أنا، فما تقولين فى هذا الكلام ؟«قالت «أنا أريد الإقامة عندك» .ثم قبلت يده وتابت عن الشرّ. فأفرد لها قصرًا وحدها وأنعم عليها بجوار وطواشية وصارت ملكة.

ثم إن الولد صار يذهب عندها وعند أبيه فكرهت الولد لكونه ما هو ابنها. فلما رأى الولد منها عين الغضب والكراهة نفر منها وكرهها، ثم إن معروفًا اشتغل بحبّ الجوارى الحسان ولم يفكر فى زوجته فاطمة العرّة لأنها صارت عجوزًا شمطاء، بصورة شوهاء، وسحنة محماء، أقبح من الحية الرقطاء خصوصًا وقد أساءته إساءة لا مزيد عليها، وصاحب المثل يقول : الإساءة تقطع أصل المطلوب، وتزرع البغضاء فى أرض القلوب، ولله در الشاعر القائل فى هذا المعنى :

احرص على حفظ القلوب من الأذى ... فرجوعها بعد التنافر يعسرُ

إن القـــلب إذا تنافـــــر ودهـــا مـثل الزجـاجـة كسـرهـا لا يجـبرُ

ثم إن معروفًا لم يأوها لخصلة حميدة فيها وإنما عمل معها هذا الإكرام ابتغاء مرضاة الله تعالى.

◆◆◆

ثم إن دنيا زاد قالت لأختها شهرزاد «ما أطيب هذه الألفاظ التى هى اشدّ أخذًا بالقلوب من سواحر الألحاظ، وما أحسن هذه الحكايات الغريبة والنوادر العجيبة» .فقالت شهرزاد «وأين هذا مما أحدّثكم به فى الليلة القابلة إن عشت وأبقانى الملك».

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أصبح الملك منشرح الصدر ومنتظرًا لبقية الحكاية وقال فى نفسه «والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها .ثم خرج إلى محل حكمه وطلع الوزير على عادته بالكفن تحت إبطه. فمكث الملك فى الحكم بين الناس طول نهاره. وبعد ذلك ذهب إلى حريمه ودخل على زوجته شهر زاد بنت الوزير على جرى عادته.

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة الحادية بعد الألف هى آخر الكتاب ذهب الملك إلى حريمه ودخل على زوجته بنت الوزير. فقالت لها أختها دنيا زاد «أتمى لنا حكاية معروف قالت «حبا وكرامةً إن أذن لى الملك بالحديث» .فقال لها الملك «قد أذنت لكِ لأننى متشوّق إلى سماع بقية الحديث».

حكاية خروج فاطمة من قصرها لسرقة الخاتم

قالت «بلغنى أيها الملك أن الملك معروفًا صار لا يعتنى بزوجته وإنما كان يطعمها احتسابًا لوجه الله تعالى. فلما رأته ممتنعًا عن وصولها ومشتغلاً بغيرها بغضته وغلبت عليها الغيرة ووسوس لها إبليس أنها تأخذ الخاتم منه وتقتله وتعمل ملكة مكانه. ثم إنها خرجت ذات ليلة من الليالى ومشت من قصرها متوجهة إلى القصر الذى فيه زوجها الملك معروف. واتفق بالأمر المقدّر والقضاء المسطر أن معروفًا كان راقداً،، ومن حسن تقواه كان يقلع الخاتم من إصبعه إذا أراد أن ينام احترامًا للأسماء الشريفة التى هى مكتوبة عليه فلا يلبسه إلا على طهارة. وكانت زوجته فاطمة العرّة لم تخرج من موضعها إلا بعد أن أحيطت علمًا بأنه يقلع الخاتم عند نومه ويجعله على المخدة حتى يتطهر. وكان من عاداته أنه متى نام يأمر المحظية أن تذهب من عنده خوفًا على الخاتم، وإذا دخل الحمام يقفل باب القصر حتى يرجع من الحمام ويأخذ الخاتم ويلبسه وبعد ذلك كل من دخل القصر لا خرج عليه. وكانت تعرف هذا الأمر كله، فخرجت بالليل لأجل أن تدخل القصر وهو مستغرق فى النوم وتسرق هذا الخاتم بحيث لا يراها.

◆◆◆

حكاية قتل ابن الملك معروف فاطمة

فلما خرجت كان ابن الملك فى الساعة قد دخل بيت الراحة ليقضى حاجة من غير نور، فقعد فى الظلام على ملاقى بيت الراحة وترك الباب مفتوحًا عليه. فلما خرجت من قصرها

رآها مجتهدة فى المشى إلى جهة قصر أبيه. فقال فى نفسه «يا هل ترى لأى شىء خرجت هذه الكاهنة من قصرها فى جنح الظلام وأراها متوجهة إلى قصر أبى ؟ فهذا الأمر لا بدّ له من سبب». ثم إنه خرج وراءها وتبع أثرها من حيث لا تراه، وكان له سيف قصير من الجوهر وكان لا يخرج إلى ديوان أبيه إلا متقلداً بذلك السيف لكونه مستعزا به، فإذا رآه أبوه يضحك عليه ويقول : «ما شاء الله إن سيفك عظيم يا ولدى ولكن ما نزلت به حرباً ولا قطعت به رأسًا». فيقول له «لا بدّ أن أقطع به عنقًا يكون مستحقا للقطع». فيضحك من كلامه.

ولما مشى وراء زوجة أبيه سحب السيف من غلافه وتبعها حتى دخلت قصر أبيه، فوقف لها على باب القصر وصار ينظر إليها فرآها وهى تفتش وتقول «أين وضع الخاتم ؟» ففهم أنها دائرة على الخاتم فلم يزل صابرًا عليها حتى لقيته فقالت ها هو»، والتقطته وأرادت أن تخرج، فاختفى خلف الباب. فلما خرجت من الباب نظرت إلى الخاتم وقلبته فى يدها وأرادت أن تدعكه، فرفع يده بالسيف وضربها على عنقها فوقعت مقتولة.

فانتبه معروف فرأى زوجته مرمية ودمها سائل وابنه شاهر السيف فى يده. فقال له «ما هذا يا ولدى ؟» فقال «كم مرّة وأنت تقول لى : إن سيفك عظيم لكنك ما نزلت به حربًا ولا قطعت به رأسًا، وأنا أقول لك: لا بد أن أقطع به عنقًا مستحقا للقطع». وأخبره بخبرها. ثم إنه فتش على الخاتم فلم يره، ولم يزل يفتش فى أعضائها حتى رأى يدها منطبقة عليه. فأخذه من يدها ثم قال له «أنت ولدى بلا شك ولا ريب أراحك الله فى الدنيا والآخرة كما أرحتنى من هذه الخبيثة ولم يكن سعيها إلا لهلاكها، ولله در من قال :

إذا كان عون الله للمرء مسعفًا ... تأتّى له من كل أمر مرادهُ
وإن لم يكن عون من الله للفتى ... فأوّل ما يجنى عليه اجتهادهُ

ثم إن الملك معروفًا زعق على بعض أتباعه فأتوه مسرعين. فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة المرّة وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها فى مكان إلى الصباح. ففعلوا كما أمرهم. ثم وكّل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفنوها وعملوا لها مشهدًا ودفنوها، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها، ولله درّ من قال :

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرضٍ ... فليس يموت فى أرض سواها

وما أحسن قول الشاعر :

وما أدرى إذا يممت أرضًا ... أريد الخير أيّهما يلينى
هل الخير الذى أنا أبتغيه ... أم الشر الذى هو يبتغينى

ثم إن الملك معروفًا أرسل يطلب الرجل الحرّاث الذى كان ضيفه وهو هارب، فلما حضر جعله وزير ميمنته وصاحب مشورته، ثم علم أن له بنتًا بديعة الحسن والجمال، كريمة الخصال، شريفة النسب، رفيعة الحسب، فتزوج بها. وبعد مدّة من الزمان زوّج ابنه. وأقاموا مدّة فى أرغد عيش وصفت لهم الأوقات، وطابت لهم المسرات. إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب الديار العامرات، وميتم البنين والبنات، فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده مقاليد الملك والملكوت.

جل جلال الله تعالى

نهاية كتاب ألف ليلة وليلة

وكانت شهر زاد فى هذه المدة قد خلفت من الملك ثلاثة أولاد ذكور. فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدى الملك وقالت له «يا ملك الزمان، وفريد العصر والأوان، إنى أنا جاريتك ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين، فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية؟»فقال لها الملك «تمنى تُعطى يا شهر زاد» .فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم «هاتوا أولادى» .

فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكور واحد منهم يمشى وواحد يحبو وواحد يرضع. فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبّلت الأرض وقالت «يا ملك الزمان هؤلاء أولادك وقد تمنّيت عليك أن تعتقنى من القتل إكرامًا لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصير هؤلاء الأطفال من غير أمّ»

فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال «يا شهرزاد والله إنى قد عفوت عنك من قبل مجىء هؤلاء الأولاد لكونى رأيتك عفيفة نقية حرة تقية، بارك الله فيك وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك، وأشهد الله علىّ أنى قد عفوت عنك من كل شىء يضرّك». فقبلت يديه وقدميه وفرحت فرحًا زائداً وقالت له «أطال الله عمرك وزادك هيبة ووقاراً».

وشاع السرور فى سراية الملك حتى انتشر فى المدينة، وكانت ليلة لا تعدّ من الأعمار، ولونها أشد بياضًا من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً، وبالخير مغموراً، فأرسل إلى جميع العسكر فحضروا، وخلع على وزيره أبى شهر زاد وقال له «سترك الله حيث زوّجتنى بنتك الكريمة التى كانت سببًا لتوبتى عن قتل بنات الناس، وقد رأيتها حرّة نقية ورزقنى الله منها بثلاثة أولاد ذكور، والحمد لله على هذه النعمة» .

ثم خلع على كامل الوزراء والأمراء وأرباب الدولة. وأمر بزينة المدينة ثلاثين يوماً ولم يكلف أحدًا من أهل المدينة شيئًا من ماله بل كامل الكلفة والمصاريف من خزانة الملك، فزيّنوا المدينة زينة عظيمة لم يسبق مثلها، ودقّت الطبول وزمرت الزمور ولعبت كامل أرباب الملاعب، وأجزل لهم الملك العطايا والمواهب، وتصدق على الفقراء والمساكين وعمّ بإكرامه سائر رعيته وأهل مملكته.

ثم إن الملك شهريار أحضر المؤرخين والكُتّاب وأمرهم أن يكتبوا جميع ما جرى له مع زوجته من أوله إلى آخره. فكتبوا ذلك وسمّوها سيرة ألف ليلة وليلة، فجاءت ثلاثين مجلدًا فوضعها فى خزائنه.

وأقام الملك مع أرباب دولته فى ألذّ عيش وأهناه وقد بدّل الله حزنهم فرحًا، وأقاموا على ذلك حتى أخذهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخلى الدور، ومعمّر القبور. فانتقلوا إلى رحمته تعالى وخربت دورهم وهدمت قصورهم وتوارث الملوك أموالهم.

ثم ملك من بعدهم ملك عاقل عادل لبيب أديب محب للأخبار خصوصًا سير الملوك

والسلاطين، فوجد هذه السيرة العجيبة المطربة الغريبة وهى ثلاثون مجلدًا فقرأ فيها أول كتاب وثانى كتاب والثالث إلى آخرها.

فصار كل كتاب يعجبه أكثر من الأول إلى أن انتهى إلى آخرها، فتعجب مما سمعه من حديث وحكايات ونوادر ومواعظ وآثار تذكر. فأمر الناس أن يكتبوها وينشروها فى جميع البلاد والأقاليم، وشاع ذكرها وسموها عجائب وغرائب ألف ليلة وليلة. والله أعلم.

فسبحان من أذل رقاب الجبابرة بالموت، فالكل إلى فناء ولا باقى إلا وجه الله والعمل الصالح

وسلام على المرسلين والحمد لله على حسن الختام

* * *

فهرس كتاب
ألف ليلة وليلة

